

نَفْحُ الطَّيِّبِ مِنْ

غَضَنِ الْأَنْدَلِسِ الرُّطِيبِ

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القرني التميمي

حققه
الدكتور اجسان عباس

المجلد الثالث

دار صادر
بيروت

نفع الطيب

٣



الباب السادس

في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق ، المهتدين في قصدهم إليها بنور الهداية المضيء المشرق ، والأكابر الذين حلوا بجلولهم فيها الجيد منها والمفترق ، والمفتخرين برؤية قُطْرُهَا الموفق ، على المُشْتَمِ والمُعْرِق

اعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تُحصِر الأعيان منهم ، فضلاً عن غيرهم ، ومنهم من اتخذها وطناً ، وصيرها سَكناً ، إلى أن وافته مَنِيَّتُهُ ، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قُضِيَتْ بالأندلس أُمْنِيَّتُهُ .

١ - فمن الداخلين إلى الأندلس المنبذ الذي يقال إنّه صحابي رأى رسول الله^١ صلى الله عليه وسلم .

قال ابن الأبار في التكملة^٢ : المنبذ الإفريقي ، له صحبة ، وسكن^٣ إفريقية ، ودخل الأندلس فيما ذكره عبد الملك بن حبيب ، قاله أبو محمد الرشاطي ، ولم يذكره أحد غيره ، روى عنه أبو عبد الرحمن الحبلي^٤ ، انتهى .

١ ق : رأى النبي .

٢ التكملة : ٧٣١ ؛ وانظر أيضاً الإصابة ٦ : ١٤٤ .

٣ التكملة : وكان يسكن .

٤ اسمه عبد الله بن يزيد المعافري وكان رجلاً صالحاً فاضلاً بعثه عمر بن عبد العزيز إلى أهل إفريقية =

وأُنكر غير واحد دخول أحد من الصحابة الأندلس .
 وذكر بعضُ الحفاظِ المنيرِ المذكور ، وقال : إنَّه المنيرُ اليماني ، وذكر
 الحجاري أنَّه من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وأنَّه دخل الأندلس مع
 موسى بن نصير غازياً ، وقال ابن بشكُوّال : يقال فيه المنير لكونه من أحداث
 الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وقد حكى ذلك الرازي ، وذكره ابن عبد البر
 في كتاب « الاستيعاب في الصحابة »^١ وسمَّاه بالمنير الإفريقي ، وقال ابن
 بشكُوّال : إن ابن عبد البر روى عنه حديثاً سمعه من رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، وذكره أبو علي ابن السكن في كتاب الصحابة وقال : روي عنه حديث
 واحد ، وأرجو أن يكون صحيحاً ، وذكره ابن قانع في معجم الصحابة له .
 وذكره البخاري في تاريخه الكبير إذ قال : أبو المنير صاحب رسول الله صلى
 الله عليه وسلم ، وكان قد حدث بإفريقية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 قال : « مَنْ قال رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم
 نبياً ، فأنا الزعيم لأخذنَّ بيده فأدخله الجنة » كذا ذكره البخاري بالكنية ،
 وهذا الحديث هو الذي روَّوه عنه لا يُعرف له غيره ، وذكره أبو جعفر أحمد
 ابن رشد في كتاب « مسند الصحابة » له ، فقال : المنير اليماني إما من مدحج
 أو غيرها ، وذكر الحديث سواء ، وقد أشرنا فيما سبق إلى المنير هذا^٢ .

٢ - ومن التابعين الداخلين الأندلس أميرها موسى بن نصير ، وقد سبق
 من الكلام عليه ما فيه كفاية^٣ .

= ليقفهم ، وتوفي بالقيروان سنة ١٠٠ هـ (رياض النفوس ١ : ٦٤ - ٦٦) وسجَّي ترجمته
 في النفع (رقم : ٥) .

١ انظر الاستيعاب : ١٤٨٥ ، والحديث الذي رواه ابن عبد البر هو الحديث الذي سيورده المؤلف

نقلاً عن البخاري ؛ وقد أورده أيضاً فيما سبق ج : ١ ، ص : ٢٧٩ .

٢ انظر ص : ٢٧٩ من المجلد الأول .

٣ راجع ما سبق ج ١ : ٢٦٩ - ٢٨٧ .

٣ - ومن التابعين الداخلين الأندلس حنش الصنعاني^١ . وفي كتاب ابن بَشْكُوَال قال ابن وضاح : حنش لقب له ، واسمه حسين بن عبد الله ، وكنيته أبو علي ، ويقال : أبو رشدين ، قال ابن بَشْكُوَال : وهو من صنعاء الشام . وذكره أبو سعيد ابن يونس في تاريخ أهل مصر وإفريقية والأندلس ، فقال : إنه كان مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وغزَا المغرب مع رفيقه رُوَيْفَع بن ثابت ، وغزا الأندلس مع موسى بن نُصَيْر ، وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان ، فأُتِيَ به عبد الملك في وثاق فمفا عنه ، وكان أوّل من ولي عُسُور إفريقية في الإسلام ، وتوفي بإفريقية سنة مائة . وذكر ابن يونس عن حنش أنه كان إذا فرغ من عشاءه وحوائجه وأراد الصلاة من الليل أوقَدَ المصباح ، وقرب المصحف وإناء فيه ماء فإذا وجد الثعاس استنشق الماء ، وإذا تعافى في آية نظر في المصحف ، وإذا جاء سائل يستطعم لم يزل يصيح بأهله : أطعموا السائل ، حتى يطعم .

قال ابن حبيب : دخل الأندلس من التابعين حنش بن عبد الله الصنعاني . وهو الذي أشرف على قَرْطُبَة من الفج المسمى بفتح المائدة ، وأذَنَ ، وذلك في غير وقت الأذان ، فقال له أصحابه في ذلك ، فقال : إن هذه الدعوة لا تنقطع من هذه البقعة إلى أن تقوم الساعة ، هكذا ذكره غير واحد ، وقد كشف الغيب خلاف ذلك ، فلعلّ الرواية موضوعة أو مؤولة ، والله تعالى أعلم .

وذكره ابن عساكر في تاريخه ، وطوّل ترجمته ، وقال : إن صنعاء المنسوب إليها قرية من قرى الشام ، وليست صنعاء اليمن ، وقد قيل : إنه لم يرو عن حنش الشاميون ، وإنما روى عنه المصريون ، وحدث حنش عن عبد الله بن عباس أنه قال له : إن استطعت أن تلقى الله تعالى وسيفك حليته حديد فافعل .

١ انظر ترجمته في رياض النفوس ١ : ٧٨ ومعالم الإيمان ١ : ١٤٤ وتهذيب ابن عساكر ٥ : ٧ وابن الغرضي ١ : ١٤٨ والجدوة : ١٨٩ .

وكان عبد الملك بن مروان حين غزا المغرب مع معاوية بن حُديج نزل عليه بإفريقية سنة خمسين ، فحفظ له ذلك ، فعفا عنه حين أتى به في وثاق حين ثار مع ابن الزبير . وسُئِلَ أبو زُرْعَة عن حنش فقال : ثقة ، ولم يذكر ابن عساكر أن حنشاً لقب له ، وأن اسمه حسين ، بل اقتصر على اسمه حنش ، ولعله الصواب ، لا ما قاله ابن وضاح ، والله تعالى أعلم^١ .

وفي تاريخ ابن الفرضي أبي الوليد أن حنشاً كان بسرّ قُسْطَة ، وأنه الذي أسس جامعها ، وبها مات ، وقبره بها معروف عند باب اليهود بغربي المدينة .
وفي تاريخ ابن بَشْكُوَال أنه أخذ أيضاً قبلة جامع إلبيرة ، وعدل وزن قبلة جامع قرطبة الذي هو فخر الأندلس .

٤ - ومن الداخلين من التابعين للأندلس أبو عبد الله عليّ بن رباح اللخمي^٢ . ذكر ابن يونس في تاريخ مصر أنّه ولد سنة خمس عشرة عام اليرموك ، وكان أعور ذهب عينه يوم ذات السّواري في البحر مع عبد الله بن سعد سنة أربع وثلاثين ، وكان يفد لليمانية من أهل مصر على عبد الملك بن مروان ، وكانت له من عبد العزيز بن مروان منزلة ، وهو الذي زفّ أم البنين بنت عبد العزيز إلى الوليد بن عبد الملك ، ثم عنت عليه عبد العزيز فأغراه إفريقية ، فلم يزل بإفريقية إلى أن توفي بها ، ويقال : كانت وفاته سنة أربع عشرة ومائة . قال ابن بَشْكُوَال : أهل مصر يقولون : عليّ بن رباح ، بفتح العين ، وأمّا أهل العراق فعليّ ، بضم العين ، وقد سبق هذا الكلام عن ابن معين في الباب الثاني . وقال : وقال ابنه موسى بن علي : من قال لي موسى بن عليّ بالتصغير لم أجعله في حلّ .

١ ميز ابن عساكر بين اثنين لقب كل منهما حنش ؛ والثاني منهما اسمه حسين وهو رجبى صنعاني همداني - من صنعاء الشام أيضاً ، ولكنه سكن واسطاً (٥ : ٩) .

٢ ترجمة علي بن رباح في ابن الفرضي ١ : ٣٥٤ ورياض النفوس ١ : ٧٧ .

٥ - ومن التابعين الداخلين أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المَعافري الحُبلي^١. قال ابن بَشْكُوَال : إنّه يروي عن أبي أيّوب الأنصاري وعبد الله ابن عمرو رضي الله تعالى عنهم وغيرهم ، وروى عنه جماعة . وذكر البخاري في تاريخه الكبير أنّه يُعدّ في المصريين ، وذكر ابن يونس في تاريخ المغرب أنّه توفّي بإفريقية سنة مائة ، وكان رجلاً صالحاً فاضلاً ، رحمه الله تعالى ؛ ويذكر أهل قرطبة أنّه توفّي بقرطبة ، وأنّه دفن بقبليها ، وقبره مشهور يُتبرك به ، والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر في ذلك .

٦ - ومن الداخلين من التابعين حَبَّان بن أبي جبلة^٢ . ذكر ابن بَشْكُوَال أنّه مولى قریش ، ويكنى أبا النضر ، وذكره أبو العرب محمد بن تميم في تاريخ إفريقية ، وقال : حدثني فرات بن محمد أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يُفَقِّهُون أهل إفريقية منهم حَبَّان بن أبي جبلة ، روى عن عمرو ابن العاص وعبد الله بن عباس وابن عمر ، رضي الله تعالى عنهم . ويقال : توفّي بإفريقية سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وقيل : سنة خمس وعشرين ومائة ، وذكر ابن الفَرَضِي أنّه غزا مع موسى بن نُصَيْر حين افتتح الأندلس حتى انتهى إلى حصن من حصونها يقال له قَرَقَشُونَة فتوفّي به ، قال^٣ : وقال لنا أبو محمد الثغري : بين قَرَقَشُونَة وبِرَشْلُونَة مسافة خمسة وعشرين ميلاً ، وفيها الكنيسة المعظمة عندهم المسماة شنت مرية ، ذكر أن فيها سبع سوارٍ فضة خالصة لم ير الراؤون مثلها لا يحزم الإنسان بذراعيه واحدة منها مع طول مفرط ، هكذا نقله ابن سعيد عمّن ذكر ، والله تعالى أعلم .

١ انظر ترجمة أبي عبد الرحمن الحبلي في ابن الفرضي ١ : ٢٥٠ ، وابن سعد ٧ : ٥١١ .
٢ ترجمة حبان في ابن الفرضي ١ : ١٤٦ ورياض النفوس ١ : ٧٣ ومعالم الإيمان ١ : ١٥٨ وتهذيب التهذيب ١ : ١٦٢ .
٣ لم يرد هذا النص في كتاب ابن الفرضي .

٧ - ومن الداخلين من التابعين فيما ذُكر : المغيرة بن أبي بردة نشيط ابن كنانة العذري^١ . روى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، ويروي عنه مالك في موطنه ، وذكره البخاري في تاريخه الكبير ، وفي كتاب الحافظ ابن بشكُوَال أنه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَيْر فكان موسى بن نُصَيْر يخرجُه على العساكر .

٨ - ومن التابعين حيَوَة بن رجاء التميمي^٢ ، ذكر ابن حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَيْر وأصحابه ، وأنه من جملة التابعين ، رضي الله تعالى عنهم ، قاله ابن بشكُوَال في مجموعه المترجم بـ « التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين » . قال ابن الأبار : وقد سمعته^٣ من أبي الخطاب ابن واجب ، وسمعه هو منه ، انتهى .

وقال ابن الأبار في موضع آخر ما صورته : رجاء بن حيَوَة مذكور في الذين دخلوا الأندلس من التابعين ، وفي ذلك عندي نظر ، وما أراه يصح ، والله تعالى أعلم ، انتهى .

فانظر هذا فإنه سماه رجاء بن حيوة ، وذلك السابق حيوة بن رجاء ، فالثقة سبحانه أعلم بحقيقة الأمر في ذلك .

٩ - ومنهم عياض بن عقبة الفهري ، من خيار التابعين ، ذكره ابن حبيب في الأربعة الذين حضروا غنائم الأندلس ، ولم يغلوا .

١٠ - ومنهم عبد الله بن شِماسة الفهري ، ذكر ابن بشكُوَال أنه مصري ، وأن البخاري ذكره في تاريخه .

١ ترجمة المغيرة في رياض النفوس ١ : ٨٠ .

٢ حيوة بن رجاء في التكملة : ٢٨٢ ورجاء بن حيوة في التكملة : ٣٢٢ .

٣ يعني كتاب ابن بشكُوَال المذكور .

١١ - ومنهم عبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ،
جلده عبد الرحمن أحد العشرة رضي الله تعالى عنهم ، وهو ممن ذكره ابن
بشكوال في الأربعة من التابعين الذين لم يغلوا .

١٢ - ومنهم منصور بن حزامة ، فيما يذكر ؛ قال ابن بشكوال : قرأت
في كتاب روايات الشيخ أبي عبد الله ابن عابد الراوية رحمه الله تعالى قال : وممن
دخل الأندلس من المعمّرين ما وجدت بخطّ المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن
الناصر رضي الله تعالى عنه في بعض كتبه المختزنة أنّه قال : طرأ علينا رجل أسود
من ناحية السودان في سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ، فذكر أنّه منصور بن حزامة
مولى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وكان يزعم أنّه أدرك أيام عثمان بن
عفان رضي الله تعالى عنه ، وأنّه كان مراهقاً ، وكان مع عائشة رضي الله تعالى
عنها يوم الحمل ، وأنّه شهد صِفِّينَ ، وأن حزامة أعتقه رسول الله صلى الله
عليه وسلّم ، وخرج عن الأندلس في سنة ثلاثين وثلاثمائة إلى المغرب ، انتهى .

قلت : هذا كلّه لا أصل له ، ويرحم الله تعالى حافظ الإسلام ابن حجر حيث
كتب على هذا الكلام ما صورته : هذا هذيان لا أصل له ، ولا يغتر به ،
وكذلك ترجمة أشج الغرب اتفق الحفاظ على كذبه ، انتهى .

قلت : وما هو إلا من نمط عكراش ، والله تعالى يحفظنا من سماع الأباطيل
بمنه . ومن هذه الأكاذيب ما يذكرون عن أبي الحسن علي بن عثمان بن خطاب ،
وأنّه يُعرف بأبي الدنيا ، وأنّه كان مُعَمَّرًا مشهوراً بصحبة علي بن أبي طالب ،
كرم الله وجهه ، وأنّه رأى جماعة من كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم ،
ووصفهم بصفاتهم ، وأنّه رأى عائشة رضي الله تعالى عنها فيما زعم ، وقدم
قُرْطُبَةَ على المستنصر الحكم بن الناصر وهو ولي عهد ، وسأله أبو بكر ابن
القُوطِيّة عن مغازي علي وكتبها عنه ، وقد ذكره ابنُ بَشْكُوال وغيره في
كتبهم وتواريخهم ، فقد ذكر الثقات العارفون بالفن أنّه كذاب دجال مائن

جاهل ، فإيّاك والاغترار بمثل ذلك ممّا يوجد في كتب كثير من المؤرخين بالشرق والأندلس ، ولا يلتفت إلى قول تميم بن محمد التميمي : إنّه كان إذ لقيه ابن ثلاثمائة سنة وخمس سنين ، قال تميم : واتصلت بنا وفاته ببلده في نحو سنة عشرين وثلاثمائة ، وبالحملة فلا أصل له ، وإنّما ذكرناه للتنبيه عليه .

وقد عرفت بما ذكرناه التابعين الداخلين الأندلس ، على أن التحقيق أنهم لم يبلغوا ذلك العدد ، وإنّما هم نحو خمسة أو أربعة كما ألعنا به في غير هذا الموضع ^١ ، والله تعالى أعلم .

١٣ - ومن الداخلين إلى الأندلس مُغِيث فاتح قرطبة ، وقد تقدم بعض الكلام عليه ، وذكر ابن حيّان والحجاري أنّه رومي ، زاد الحجاري : وليس برومي على الحقيقة ؛ وتصحيح نسبه أنّه مغيث بن الحارث بن الحويرث ابن جبلة بن الأيهم الغساني ، سُبّي من الروم بالشرق وهو صغير ، فأدبه عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد ، وأنجب في الولادة ، وصار منه بنو مغيث الذين نجبوا في قرطبة ، وسادوا وعظم بيتهم ، وتفرعت دَوْحَتُهُمْ ، وكان منهم عبد الرحمن بن مُغِيث حاجب عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس وغيره . ونشأ مغيث بدمشق ، ودخل الأندلس مع طارق فاتحها ، وجاز على ما في طريقها من البلاد إلى الشام ، وقدمه طارق لفتح قُرْطُبة ففتحها ووقع بينه وبين طارق ثم وقع بينه وبين موسى بن نُصَيْر سيد طارق ، فرحل معهما إلى دمشق ثم عاد ظافراً عليهما إلى الأندلس ، وأنسلَ بقرطبة البيت المذكور ؛ وفي « المسهب » أنّه فتح قرطبة في شوال سنة ٩٢ ، ثم فتح الكنيسة التي تحصّن بها ملك قرطبة بعد حصار ثلاثة أشهر في محرم سنة ٩٣ ، ولم يذكر له مولداً ولا وفاة . وذكر الحجاري أنّه تأدب بدمشق مع بني عبد الملك فأفصح بالعربية ، وصار يقول من الشعر والنثر ما يجوز كتّبه ، وتلرب على الركوب ، وأخذ نفسه بالإقدام

١ انظر ما تقدم ج : ١ ، ص : ٢٨٧ .

في مضايق الحروب ، حتى تخرّج في ذلك تخرّجاً أهله للتقدم على الجيش الذي فتح قرطبة ، وكان مشهوراً بحسن الرأي والكيّد ، وقد قدمنا كيفية فتحه قرطبة وأسر ملكها الذي لم يؤسّر من ملوك الأندلس غيره ، لأن منهم من عقد على نفسه أماناً ، ومنهم من قدّر إلى جليقية .

وذكر الحِجاري أنّه لما حصل بيده ملك قرطبة وحريمه رأى فيهن جارية كأنّها بينهن بدر بين نجوم ، وهي تكرر التعرض له بجمالها ، فوكل بها من عرض عليها العذاب إن لم تُقَرَّ بما عزمت عليه في شأن مغيث ، وأنّه قد فطن من كثرة تعرضها له بحسنها لما أضمرته من المكر في شأنه ، فأقوت أنها أكثر التعرض لتقع بقلبه ، إذ حُسِنَتْها فتان ، وقد أعدت له خرقة مسمومة لتمسح بها ذكره عند وقاعها ، فحمد الله تعالى على ما ألهمه إليه من مكرها ، وقال : لو كانت نفس هذه الجارية في صدر أبيها ما أخذت قرطبة من ليلة . وذكر أن سليمان بن عبد الملك لما أصغى إلى طارق في شأن سيده موسى بن نصير فعذبه واستصفى أمواله أراد أن يصرف سلطان الأندلس إلى طارق ، وكان مغيث قد تغير عليه ، فاستشار سليمان مغيثاً في تولية طارق ، وقال له : كيف أمره بالأندلس ؟ فقال : لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءوا لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا ، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان ، وبدا له في ولايته ، فلقبه بعد ذلك طارق ، فقال له : ليتك وصفت أهل الأندلس بعصبياني ، ولم تضمر في الطاعة ما أضمرت ، فقال مغيث : ليتك تركت لي العِلَجَ فتركت لك الأندلس ، وكان طارق قد أراد أن يأخذ منه ملك قرطبة الذي حصل في يده ، فلم يمكنه منه ، فأغرى به سيده موسى بن نصير ، وقال له : يرجع إلى دمشق وفي يده عظيم من عظماء الأندلس ، وليس في أيدينا مثله ، فأبي فضل يكون لنا عليه ؟ فطلبه منه ، فامتنع من تسليمه ؛ قال ابن حيّان : فهجم موسى على العِلَجِ وانتزعه من مغيث ، فقيل له : إن سرت به معك حيّاً ادعاه مغيث والعِلَجُ لا ينكر ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل ، فاضطغنها عليه مغيث ، وبالغ

في أذيتته عند سليمان .

وذكر الحجاري في « المسهب » أن لمغيث من الشعر ما يجوز كتبه ، فمن ذلك شعر خاطب به موسى بن نصير ومولاه طارقاً ويكفي منه هنا قوله :

أَعْتَسْتُكُمْ وَلَكِنْ مَا وَفَيْتُمْ^١ فسوف أعيثُ في غربٍ وشرقٍ

وعنوان طبقته في النثر أن موسى بن نصير قال له وقد عارضه بكلام في محفل من الناس : كَفَّ لِسَانَكَ ، فقال : لساني كالمفصل ، ما أكفّه إلا حيث يقتل^١ . وأضافه ابن حيّان والحجاري إلى ولاء الوليد بن عبد الملك ، وهو الذي وجهه إلى الأندلس غازياً ففتح قرطبة ، ثم عاد إلى المشرق ، فأعاده الوليد رسولاً عنه إلى موسى بن نصير يستحثه على القدوم عليه ، فوفد معه ، فوجدوا الوليد قد مات ، فخدم بعده سليمان بن عبد الملك .

١٤ - ١٥ - ومن الداخلين أيوب^٢ بن حبيب اللخمي . ذكر ابن حيان أنه ابن أخت موسى بن نصير ، وأن أهل إشبيلية قدموه على سلطان الأندلس بعد قتل عبد العزيز بن موسى ، واتفقوا في أيامه على تحويل السلطان من إشبيلية إلى قرطبة ، فدخل إليها بهم ، وكان قيامه بأمرهم ستة أشهر ، وقيل : إن الذي نقل السلطنة من إشبيلية إلى قرطبة الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي .

قال الرازي : قدم الحرّ والياً على الأندلس في ذي الحجة سنة سبع وتسعين ومعه أربعمائة رجل من وجوه إفريقية ، فمنهم أول طوابع الأندلس المعدودين ، وقال ابن بشكّو^٣ : كانت مدة الحرّ سنتين وثمانية أشهر ، وكانت ولايته بعد قيام أيوب بن حبيب اللخمي .

١٦ - ٢٦ - ومن الداخلين السّمحُ بن مالك الخولاني ، ولي الأندلس

١ ق ودوزي : سأكفه إلا حيث يقبل .

٢ ق : أبو أيوب ؛ وانظر أخبار مجموعة : ٢١ .

بعد الحر بن عبد الرحمن السابق ، قال ابن حيان : ولآه عمر بن عبد العزيز ، وأوصاه أن يُخَمَّسَ من أرض الأندلس ما كان عَنَوَة ، ويكتب إليه بصفتها وأنهارها وبحارها ، قال : وكان من رأيه أن ينقل المسلمين عنها لانقطاعهم وبُعْدِهِم عن أهل كلمتهم ، قال : ولت الله تعالى أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بَوار إلا أن يستنقذهم الله تعالى برحمته ^١ .

وذكر ابن حيان أن قدوم السَّمَح كان في رمضان سنة مائة ، وأنه الذي بنى قنطرة قُرْطُبَة بعدما استأذن عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله تعالى ، وكانت دار سلطانه قُرْطُبَة . قال ابن بَشْكُوَال : استشهد بأرض الفرنجة يوم التروية سنة اثنتين ومائة .

قال ابن حيان : كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر ، وذكر أنه قُتِل في الوقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البَلَاط ^٢ ، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه فأحاطت بالمسلمين ، فلم يَنْجُ من المسلمين أحد ، قال ابن حَيَّان : فيقال : إن الأذان يُسمع بذلك الموضع إلى الآن .

وقدَّمَ أهل الأندلس على أنفسهم بعده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي . وذكر ابن بَشْكُوَال أنه من التابعين الذين دخلوا الأندلس ، وأنه يروي عن عبد الله بن عمر ، رضي الله تعالى عنهما ؛ قال : وكانت ولايته للأندلس في حدود العشر ومائة من قِبل عبدة بن عبد الرحمن القَيْسِي صاحب إفريقية ، واستشهد في قتال العدو بالأندلس سنة خمس عشرة ، انتهى .

وفيه مخالفة لما سبق أنه ولي بعد السَّمَح ، وأن السَّمَح قُتِل سنة ١٠٢ ، وهذا يقول تولى سنة ١١٠ ، فأين ذا من ذاك ؟ والله تعالى أعلم .

١ أورد هذا صاحب أخبار مجموعة : ٢٣ وابن القوطية : ٣٩ وابن عذاري ٢ : ٢٦ .
٢ المرجح أن السَّمَح بن مالك واصل تقدمه وراء جبال البربات حتى شارف طولوشة (Tolosa) وهناك دارت معركة بينه وبين دوقها أسفرت عن مقتله ؛ وهذا يتعارض مع قول صاحب أخبار مجموعة « فعزل بشر السَّمَح بن مالك وولى غنيسة بن سحيم ... » (ص ٢٤) .

ووصفه الحُمَيْدِي بِحَسَنِ السَّيْرَةِ وَالْعَدْلِ فِي قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ^١ ، وَذَكَرَ الْحِجَارِيُّ أَنَّهُ وَلِيَ الْأَنْدَلُسَ مَرَّتَيْنِ ، وَرَبَّمَا يَجَابُ بِهِذَا عَنِ الْإِشْكَالِ الَّذِي قَدَمْنَاهُ قَرِيباً^٢ ، وَيُضَعِّفُهُ أَنَّ ابْنَ حِيَانَ قَالَ : دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ حِينَ وَلِيَهَا الْوَلَايَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ قَبْلِ ابْنِ الْحِجَابِ فِي صَفَرِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ وَمِائَةٍ ، وَغَزَا الْإِفْرَنْجَ فَكَانَتْ لَهُ فِيهِمْ وَقَائِعُ جَمَّةٍ إِلَى أَنْ اسْتَشْهَدَ ، وَأَصِيبَ عَسْكَرُهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ١١٤ ، فِي مَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِبِلَاطِ الشَّهْدَاءِ .

قَالَ ابْنُ بَشْكُوَالٍ : وَتُعْرَفُ غَزَوَتُهُ هَذِهِ بِغَزْوَةِ الْبِلَاطِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا فِي غَزْوَةِ السَّمْعِ ، فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ سَنَةَ وَثْمَانِيَةَ أَشْهُرَ ، وَفِي رَوَايَةِ سَتَيْنِ وَثْمَانِيَةَ أَشْهُرَ ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَكَانَ سَرِيرُ سُلْطَانِهِ حَضْرَةً قُرْطُبَةَ .

وَوَلِيَ الْأَنْدَلُسَ بَعْدَهُ عَنبَسَةُ بْنُ سَحِيمٍ الْكَلْبِيُّ^٣ ، وَذَكَرَ ابْنُ حِيَانَ أَنَّهُ قَدَّمَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ وَالْيَأْ مِنْ قَبْلِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ كَاتِبَ الْحِجَابِ حِينَ كَانَ صَاحِبَ إِفْرِيقِيَّةٍ ، وَكَانَ قُدُومُهُ الْأَنْدَلُسَ فِي صَفَرِ سَنَةِ ١٠٣ ، فَتَأَخَّرَ بِقُدُومِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمُتَقَدِّمُ الذِّكْرَ ، قَالَ ابْنُ بَشْكُوَالٍ : فَاسْتَقَامَتْ بِهِ الْأَنْدَلُسُ ، وَضَبَطَ أَمْرَهَا ، وَغَزَا بِنَفْسِهِ إِلَى أَرْضِ الْإِفْرَنْجَةِ وَتَوَفَّى فِي شَعْبَانَ سَنَةِ ١٠٧^٤ ، فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ أَرْبَعَةَ أَعْوَامٍ وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرَ ، وَقِيلَ : ثَمَانِيَةَ أَشْهُرَ .

١ انظر الجذوة : ٢٥٥ - ٢٥٦ .

٢ هذا حقاً يُزِيلُ الْإِشْكَالَ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ ؛ ذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيَّ أَنْقَذَ بَقِيَّةَ الْجُنْدِ بَعْدَ مَقْتَلِ السَّحْجِ فَوَلَاهُ الْجُنْدَ أَمْرَ الْأَنْدَلُسِ سَنَةَ ١٠٢ حَتَّى يَقْدَمَ وَالْجَدِيدَ ، فَلَمَّا وَصَلَ عَنبَسَةُ بْنُ سَحِيمٍ الْكَلْبِيُّ أَخَذَ الْوَلَايَةَ مِنْ يَدِهِ ، ثُمَّ عَادَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى وَلَايَةِ الْأَنْدَلُسِ فِي حُدُودِ ١١٢ هـ . وَهَذَا لَا يَتَعَارَضُ مَعَ قَوْلِ ابْنِ حِيَانَ وَإِنَّمَا يَتَعَارَضُ مَعَ قَوْلِ ابْنِ بَشْكُوَالٍ إِنَّهُ تَوَلَّى فِي حُدُودِ سَنَةِ ١١٠ هـ . وَقَدْ سَهَا ابْنُ بَشْكُوَالٍ عَنِ أَنَّ بَيْنَ عَنبَسَةَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ وَالْيَأْ هُوَ عَذْرَةٌ بَنَ عَبْدُ اللَّهِ الْفَهْرِيُّ .

٣ يَرِيدُ بَعْدَ وَلَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوَّلَى .

٤ انظر فجر الأندلس حيث وصف المؤلف استمرار عنبة في الغزو حتى سنة ١١٢ (ص ٢٤٧) ثم ذكر (ص ٢٥٤) أن عنبة أصيب بجراح بالغة توفي على أثرها سنة ١٠٧ هـ ؛ ولعل هذا بسبب اضطراب المصادر القديمة نفسها في ترتيب وفاة الأندلس .

وذكر ابن حيّان أنّه في أيامه قام بجليقية عِلْجٌ خبيث يدعى بلّاي^١ ، فعاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثار ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عمّا بقي بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم ، وقد كانوا لا يطعمون في ذلك ، وقيل : إنّهُ لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تُفتح إلا الصخرة التي لاذ بها هذا العِلْجُ ومات أصحابه جوعاً إلى أن بقي في مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة ، وما لهم عيش إلا من غسل النحل في جباح^٢ معهم في خروق الصخرة ، وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعيّا المسلمين أمرهم ، واحتقروهم ، وقالوا : ثلاثون عِلْجاً ما عسى أن يجيء منهم ؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك في القوة والكثرة والاستيلاء ما لا خفاء به . وملك بعده أذفونش جد عظماء الملوك المشهورين بهذه السّمة .

قال ابن سعيد : قال احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه إلى أن ملك عقبُ مَنْ كان فيها المدن العظيمة ، حتى إن حضرة قُرْطُبة في يدهم الآن ، جبرها الله تعالى ، وهي كانت سرير السلطنة لعنسة . اهـ .

قال ابن حيّان والحجاري : إنّهُ لما استشهد عنسة قدّم أهل الأندلس عليهم عُدرة^٣ بن عبد الله الفهري ، ولم يعدّه ابن بشكوال في سلاطين الأندلس ، بل قال : ثم تتابعت ولاية الأندلس مرسلين من قبل صاحب إفريقية : أولهم يحيى بن سلمة ، وذكر الحجاري أن عُدرة كان من صلحائهم وفرسانهم ، وصار لعقبه نباهة ،

١ سيعود المقرئ إلى ذكر « بلّاي » في أول الباب الثامن من القسم الأول ؛ وانظر كذلك أخبار مجموعة : ٦١ وابن عذاري : ٢ ؛ ٢٩ ؛ وقد أسهب الدكتور مؤنس (فجر الأندلس ٣١٣ - ٣٤٣) في توضيح أمر بلّاي هذا (Pelayo وباللاتينية : Pelagius) بدراسة الروايات العربية والإسبانية .
٢ كذلك وردت هذه اللفظة في أخبار مجموعة : ٢٨ والمقصود بها « الخلايا » ؛ انظر ملحق المعاجم لدوزي : « جيج » .

٣ ق ودوزي : عذرة .

وولده هشام بن عذرة هو الذي استولى على طليطلة قصبة الأندلس ، وفي عقبه
بوادي آش من مملكة غرناطة نباهة وأدب ، قال ابن سعيد : وهم إلى الآن
ذوو بيت مؤصل ، ومجد مؤثل ، وكان سرير سلطنة عذرة قرطبة .

وولي بعده يحيى بن سلمة الكلبي ، قال ابن بشكوال : أنفذه إلى الأندلس
بشر بن صفوان الكلبي والي إفريقية إذ استدعى منه أهلها والياً بعد مقتل أميرهم
عنيسة ، فقدمها في شوال سنة سبع ومائة ، وأقام عليها سنة وستة أشهر لم يغز
فيها بنفسه غزوةً — ونحوه لابن حيان — وكان سريره قرطبة .

وتولى بعده عثمان بن أبي نسيعة الخثعمي ، وذكر ابن بشكوال : أنه
قدم عليها والياً من قبيل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب إفريقية في شعبان
سنة عشر ومائة ، ثم عزل سريعاً بعد خمسة أشهر ، وكان سرير سلطانه بقرطبة .
وولي بعده حذيفة بن الأحوص القيسي ، قال ابن بشكوال : وأتى إليها
والياً من قبيل عبيدة المذكور ، على اختلاف فيه وفي ابن أبي نسيعة أيهما تولى
قبل صاحبه ، وكان قدوم حذيفة في ربيع الأول سنة عشر ومائة ، وعزل عنها
سريعاً أيضاً ، وقيل : إن ولايته استتمت سنة ، وكان بقرطبة .

وولي بعده الأندلس الهيثم بن عدي الكلابي ، قال ابن بشكوال : ولأه
عبيدة المذكور فوافى الأندلس في المحرم سنة إحدى عشرة ومائة ، وقيل :
إنه ولي سنتين وأياماً ، وقد قيل : أربعة أشهر ، وكان بقرطبة .

وولي بعده محمد بن عبد الله الأشجعي ، قال ابن بشكوال : قدّمه الناس
عليهم ، وكان فاضلاً فصلّى بهم شهرين . قال : ثم قدم عليهم والياً عبد الرحمن
ابن عبد الله الغافقي الذي تقدمت ترجمته ، وذكرته ولايته الأولى للأندلس ،
وليها من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية إلى أن استشهد كما تقدم .
وولي الأندلس بعده عبد الملك بن قطن الفهري ، وذكر الحجاري أن من
نسله بني القاسم أصحاب البونت وبني الجد أعيان إشبيلية ، قال ابن بشكوال :
قدم الأندلس في شهر رمضان سنة أربع عشرة ومائة فكانت مدة ولايته عامين ،

وقيل : أربع سنين ، ثم عُرِّل عنها ذميماً في شهر رمضان سنة ست عشرة ومائة ، قال : وكان ظَلُوماً في سيرته ، جائراً في حكومته ، وغزا أرض البشكنس فأوقع بهم . وذكر ابن بَشْكُوَال أنه لما عزل وولي عقبة بن الحجاج وَتَبَ ابن قَطَنَ عليه فخلعه ، لا أدري أقتله أم أخرجه ، وملك الأندلس بقية إحدى وعشرين ومائة إلى أن رحل بلج بن بشر بأهل الشام إلى الأندلس ، فغلبه عليها ، وقتل عبد الملك بن قَطَنَ ، وصُلب في ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين ومائة بعد ولاية بلج بعشرة أشهر ، وصُلب بصحراء رَبَضِ قُرْطُبَةَ بعدُوة النهر حيال رأس القنطرة ، وصلبوا عن يمينه خنزيراً وعن يساره كلباً ، وأقام شِلْوه على جذعه إلى أن سرقه مواله بالليل وغيَّبه ، فكان المكان بعد ذلك يُعرف بِمَصْلَبِ ابن قَطَنَ . فلماً ولي ابن عمّه يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِي استأذنه ابنه أمية بن عبد الملك ، وبني فيه مسجداً نُسب إليه ، فقيل : مسجد أمية ، وانقطع عنه اسم المصلى ، وكان سن عبد الملك عند مقتله نحو التسعين . وذكر ابن بشكوال أن عقبة بن الحجاج السلوي ولّاه عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية الأندلس ودخلها سنة سبع عشرة ومائة ، وقيل : في السنة التي قبلها ، فأقام بها سنين محمود السيرة ، مثابراً على الجهاد ، مفتتحاً للبلاد ، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة وصار رباطهم على نهر رودنة^١ ، فأقام عقبة بالأندلس سنة إحدى وعشرين ومائة ، وكان قد اتخذ بأقصى نجر الأندلس الأعلى مدينة يقال لها أربونة كان يتر لها للجهاد ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام ويُبَيِّنَ له عيوب دينه ، فأسلم على يده ألفا رجل ، وكانت ولايته خمس سنين وشهرين ، قال الرازي : فثار أهل الأندلس بعقبة ، فخلعوه في صفر سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام ابن عبد الملك ، وولوا على أنفسهم عبد الملك بن قَطَنَ ، وهي ولايته الثانية ،

١ قد : رودنة - حيشما - وقع - وقد صوبناه فيما سبق ؛ والإدريسي يكتبه رودنو (يعني نهر الرون) ؛ وفي بعض المصادر «ردانه» .

فكانت ولاية عقبة الأندلس ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفي في صفر سنة ١٢٣ ، وسريه قرطبة .

٢٧ - ٣١ - ومن الداخلين إلى الأندلس بلج بن بشر بن عياض القشيري . قال ابن حيان : لما انتهى إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب الأقصى والأندلس وخلصهم لطاعته وعيَّتهم في الأرض شقَّ عليه فعزل عبيد الله بن الحبحاب عن إفريقية ، وولى عليها كلثوم ابن عياض القشيري ، ووجهه معه جيشاً كثيفاً لقتالهم ، كان فيه مع ما انضاف إليه من جيوش البلاد التي صار عليها سبعون ألفاً ؛ ومع ذلك فإنه لما تلاقي مع ميسرة البربري المدعي للخلافة هزمه ميسرة وجرح كلثوم ولاذ بسبته ، وكان بلج ابن أخيه معه ، فقامت قيامة هشام لما سمع بما جرى عليه ، فوجه لهم حنظلة بن صفوان فأوقع بالبربر ففتح الله تعالى على يديه . ولما اشتدَّ حصار بلج وعمه كلثوم ومن معهما من فلَّ أهل الشام بسببته وانقطعت عنهم الأقوات وبلغوا من الجهد إلى الغاية استغاثوا بإخوانهم من عرب الأندلس ، فتناقل عنهم صاحب الأندلس عبد الملك بن قطن لخوفه على سلطانه منهم ، فلما شاع خبر ضرهم عند رجال العرب أشفقوا عليهم ، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمي بمركبين مشحونين ميرةً أمسكا من أرماقهم ، فلما بلغ ذلك عبد الملك ابن قطن ضربته سبعمائة سوط ، ثم اتهمه بعد ذلك بتضريب الجند عليه ، فسمل عينيه ، ثم ضرب عنقه ، وصلبه وصلب عن يساره كلباً ، واتفق في هذا الوقت أن برابر الأندلس لما بلغهم ما كان من ظهور برابر العدو على العرب انتقضوا على عرب الأندلس ، واقتدوا بما فعله إخوانهم ، ونصبوا عليهم إماماً ، فكثُر إيقاعهم بجيوش ابن قطن ، واستفحل أمرهم ، فخاف ابن قطن أن يلقي منهم ما لقي العرب ببر العدو من إخوانهم ، وبلغه أنهم قد عزموا على قصده ، فلم ير أجدى من الاستعداد بصعاليك عرب الشام أصحاب بلج الموتورين ، فكتب

بلج وقد مات عمّه كلثوم في ذلك الوقت ، فأسرعوا إلى إجابته ، وكانت
 أمّنيّتهم ، فأحسن إليهم ، وأسبغ النعم عليهم ، وشرط عليهم أن يأخذ منهم
 رهائن ، فإذا فرغوا له من البربر جهّزهم^١ إلى إفريقية ، وخرجوا له عن أندلسه ،
 فرضوا بذلك ، وعاهدوه عليه ، فقدّم عليهم وعلى جنده ابنه قطناً وأمّية ،
 والبربر في جموع لا يحصيها غير رازقها ، فاقتتلوا قتالاً صعباً فيه المقام ،
 إلى أن كانت الدائرة على البربر ، فقتلتهم العرب بأقطار الأندلس حتى ألحقوا
 فلّهم بالثغور ، وخفوا عن العيون ، فكّر الشاميون وقد امتلأت أيديهم من
 الغنائم ، فاشتدت شوكتهم ، وثابت همتهم ، وبطروا ، ونسوا العهود ،
 وطالبهم ابن قطن بالخروج عن الأندلس إلى إفريقية ، فتعلّلوا عليه ، وذكروا
 صنيعه بهم أيام انحصارهم في سبّته ، وقتله الرجل الذي أغاثهم بالميرة ،
 فخلعوه ، وقدّموا على أنفسهم أميرهم باج بن بشر ، وتبعه جند ابن قطن ،
 وحملوا عليه في قتل ابن قطن ، فأبى فثارت اليمانية وقالوا : قد حميت لمضرك ،
 والله لا نطيعك ، فلماً خاف تفرّق الكلمة أمر باج بن قطن فأخرج إليهم وهو
 شيخ كبير كفرّخ نعامة قد حضر وقعة الحرّة مع أهل اليمامة ، فجعلوا يسبونّه ،
 ويقولون له : أفلت من سيوفنا يوم الحرّة ، ثم طالبتنا بتلك الثّرة فعرضتنا لأكل
 الكلاب والجلود وجبستنا بسبّته محبّس الضنك حتى أمّتنا جوعاً ، فقتلوه
 وصلبوه كما تقدم ، وكان أمّية وقطن ابناه عندما خلّع قد هربا ، وحشدا
 لطلب الثّار ، واجتمع عليهما العرب الأقدمون والبربر ، وصار معهم عبد الرحمن
 ابن حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع الفهري كبير الجند ، وكان في أصحاب
 بلج ، فلماً صنع باج بن عمّه عبد الملك ما صنع فارقه ، فأنحاز فيمن يطلب ثاره ،
 وانضم إليهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب أربونة ، وكان فارس
 الأندلس في وقته ، فأقبلوا نحو بلج في مائة ألف أو يزيدون ، وبلج قد استعدّ

١ ق : هزمهم ؛ وانظر أخبار مجموعة : ٣٩ .

لهم في مقدار اثني عشر ألفاً سوى عبيد له كثيرة وأتباع من البلديين ، فاقتلوا ،
وصبر أهل الشام صبراً لم يصبر مثله أحد قط ، وقال عبد الرحمن بن علقمة
اللخمي : أروني بلجاً ، فوالله لأقتلنه أو لأموتن دونه ، فأشاروا إليه نحوه ،
فحمل بأهل الثغر حملة انضج لها الشاميون ، والراية في يده ، فضربه عبد الرحمن
ضربتين مات منهما بعد ذلك بأيام قلائل . ثم إن البلديين انهزموا بعد ذلك هزيمة
قبيحة ، واتبعهم الشاميون يقتلون ويأسرون ، فكان عسكرياً منصوراً مقتولاً
أميره ، وكان هلاك بلج في شوال سنة أربع وعشرين ومائة ، وكانت مدته أحد
عشر شهراً ، وسريره قرطبة ، والعرب الشاميون الداخلون معه إلى الأندلس
يُعرفون عند أهل الأندلس بالشاميين ، والذين كانوا في الأندلس قبل دخوله
يُشهرون بالبلديين .

ولما هلك بلج قدّم الشاميون عليهم بالأندلس ثعلبة بن سلامة العاملي ، وقد
كان عندهم عهد الخليفة هشام بذلك ، فسار فيهم بأحسن سيرة ، ثم إن أهل
الأندلس الأقدمين من العرب والبربر سمّوا بعد الواقعة لطلب الثأر ، قال أمره
معههم إلى أن حصروه بمدينة ماردة ، وهم لا يشكّون في الظفّر ، إلى أن حضر
عيد تشاغلوا به ، فأبصر ثعلبة منهم غيرة وانتشاراً وأشرأ بكثرة العدد والاستيلاء ،
فخرج عليهم في صبيحة عيدهم وهم ذاهلون ، فهزمهم هزيمة قبيحة ، وأفشى
فيهم القتل ، وأسر منهم ألف رجل ، وسبى ذريتهم وعايهم ، وأقبل إلى قرطبة
من سبّئهم بعشرة آلاف أو يزيدون ، حتى نزل بظاهر قرطبة يوم خميس وهو
يريد أن يحمل الأسارى على السيف بعد صلاة الجمعة . وأصبح الناس منتظرين
لقتل الأسارى ، فإذا بهم قد طلع عليهم لواء فيه موكب ، فنظروا فإذا أبو
الخطار قد أقبل والياً على الأندلس ، وهو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي .
وذكر ابن حيان أنّه قدم والياً من قبل حنظلة بن صفوان صاحب إفريقية ،
والخليفة حينئذ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وذلك في رجب سنة
خمس وعشرين ومائة ، بعد عشرة أشهر وليها ثعلبة بن سلامة ، قال : وكان

مع فروسيته شاعراً محسناً ، وكان في أوّل ولايته قد أظهر العدل فدانت له الأندلس ، إلى أن مالت به العصبية اليمانية على المضربية ، فهاج الفتنة العمياء ، وكان سبب هذه الفتنة أن أبا الخطّار بلغ به التعصّب لليمانية أن اختصم عنده رجل من قومه مع خصم له من كنانة كان أبلج حجة من ابن عم أبي الخطار ، فمال أبو الخطار مع ابن عمّه ، فأقبل الكناني إلى الصّميل بن حاتم الكلابي أحد سادات مضر ، فشكا له حيفَ أبي الخطار ، وكان أبيضاً للضميم حامياً للعشيرة ، فدخل على أبي الخطار وأمّض عتابه ، فتجّه أبو الخطار وأغلظ له ، فرد الصّميل عليه ، فأمر به أبو الخطار ، فأقيم ودّع قفاه حتى مالت عمامته ، فلمّا خرج قال له بعض من على الباب : أبا جوشن ، ما بال عمامتك مائلة ؟ فقال : إن كان لي قوم فسقيموها . وأقبل إلى داره ، فاجتمع إليه قومه حين بلغهم ذلك ممتعضين ، فباتوا عنده ، فلمّا أظلم الليل قال : ما رأيكم فيما حدث علي فإنّه مسّوط بكم ؟ فقالوا : أخبرنا بما تريد ، فإنّ رأينا تبع رأيك ، فقال : أريد والله إخراج هذا الأعرابي من هذا السلطان على ما خيلت ، وأنا خارج لذلك عن قرطبة ، فإنّه ما يمكنني ما أريد إلّا بالخروج ، فإلى أين ترون أقصد ؟ فقالوا : اذهب حيث شئت ، ولا تأت أبا عطاء القيسي ، فإنّه لا يواليك على أمر ينفعك ، وكان أبو عطاء هذا سيداً مطاعاً يسكن بإستجة ، وكان مشاحناً للصّميل مسامياً له في القدر ، فسكّت عند ذكره أبو بكر ابن الطفيل العبدي ، وكان من أشرافهم ، إلّا أنّه كان حديث السن ، فقال له الصّميل : ألا تتكلم ؟ فقال : أتكلّم بواحدة ما عندي غيرها ، قال : وما هي ؟ قال : إن عدوّت إتيان أبي عطاء وشتت أمرك به لم يتم أمرنا وهلكنا ، وإن أنت قصدته لم ينظر في شيء ممّا سلف بينكما ، وحركته الحمية لك ، فأجابك إلى ما تريد ، فقال له الصّميل : أصبّت الرأي ، وخرج من ليلته ، وقام أبو عطاء في نصرته على ما قدّره العبدي ، وعمد إلى ثوبة بن يزيد الجذامي أحد أشراف اليمن وساداتهم ، وكان ساكناً بمورور وقد استفسد إليه أبو الخطار ، فأجابهما في

القيام والتقدم على المضّرية ، فاجتمعوا في شذونة ، وآل الأمر إلى أن هزموا
أبا الخطار على وادي لُكّة ، وحصل أسيراً في أيديهم ، فأرادوا قتله ، ثم
أرجأوه ، وأوثقوه وأقبلوا به إلى قرطبة ، وذلك في رجب سنة ١٢٧ بعد ولاية
أبي الخطار بسنتين .

ولما سُجن أبو الخطار في قرطبة امتنع له عبدُ الرحمن بن حسان الكلبي ،
فأقبل إلى قرطبة ليلاً في ثلاثين فارساً معهم طائفة من الرّجالة ، فهاجموا على
الحبس وأخرجوه منه ، ومضّوا به إلى غرب الأندلس ، فعاد في طلب سلطانه ،
ودبّ في يَمانيته حتى اجتمع له عسكر أقبل بهم إلى قرطبة ، فخرج إليه ثوابه
ومعه الصّميل ، فقام رجل من المضّرية ليلاً فصاح بأعلى صوته : يا معشر اليمن ،
ما لكم تتعرضون إلى الحرب وتردّون المنايا عن أبي الخطار ؟ أليس قد قدرنا
عليه لو أردنا قتله لفعلنا ، لكننا منّنا وعفونا وجعلنا الأمير منكم ، أفلا تفكرون
في أمركم ، فلو أن الأمير من غيركم عذّرتكم ، ولا والله لا نقول هذا رهبةً
منكم ولا خوفاً لحربكم ، ولكن تخرجاً من الدماء ورغبة في عافية العامة ،
فتسامع الناس به ، وقالوا : صدق ، فتداعوا للرحيل ليلاً ، فما أصبحوا
إلاّ على أميال .

قال الرازي : ركب أبو الخطار البحر من ناحية تُونُس في المحرم سنة
١٢٥ ؛ وفي كتاب أبي الوليد ابن الفرضي : كان أبو الخطار أعرايياً عصبياً ،
أفرط في التعصّب لليمانيين ، وتحامل على مُضّر ، وأسخط قيساً ، فثار به
زعيمهم الصّميل ، فخلعه ، ونصب مكانه ثوابه ، وهاج بين الفريقين الحروب
المشهورة ، وخلع أبو الخطار بعد أربع سنين وتسعة أشهر ، وذلك سنة ١٢٨ ،
وآل أمره إلى أن قتله الصّميل .

وولي الأندلس ثوابه بن سلامة الجذامي ، قال ابن بَشْكُوَال : لما
اتفقوا عليه خاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب القيروان ، فكتب
إليه بعهد الأندلس ، وذلك سلخ رجب سنة ١٢٧ ، فضبط البلد ، وقام بأمره كلّهُ

الصَّمِيلَ واجتمع عليه أهل الأندلس ، وأقام والياً سنة أو نحوها ، ثم هلك ،
وفي كتاب ابن الفَرَضِي أَنَّهُ ولي سنتين .

ثم ولي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة
ابن نافع الفِهْرِي ، وجدُّه عقبة بن نافع صاحب إفريقية وباني القيروان المجاب
الدعوة صاحب الغزوات والآثار الحميدة ، ولهذا البيت في السلطنة بإفريقية
والأندلس نَبَاهَةٌ . وذكر الرازي أن مولده بالقيروان ، ودخل أبوه الأندلس
من إفريقية مع حبيب بن أبي عبيدة الفهري عند افتتاحهم ، ثم عاد إلى إفريقية ،
وهرب عنه ابنه يوسف هذا من إفريقية إلى الأندلس مُغاضباً له ، فهوي الأندلس ،
واستوطنها فساد بها ، قال الرازي : كان يوسف يوم ولي الأندلس ابن سبع
وخمسين سنة ، وأقامه أهل الأندلس بعد أميرهم ثوابة ، وقد مكثوا بغير والٍ
أربعة أشهر ، فاجتمعوا عليه بإشارة الصَّمِيل من أجل أَنَّهُ قُرْشِي رضي به
الحيان ، فرفعوا الحرب ، ومالوا إلى الطاعة ، فدانت له الأندلس تسع سنين
وتسعة أشهر ، وقال ابن حيان : قدمه أهل الأندلس في ربيع الآخر سنة ١٢٩ ،
واستبد بالأندلس دون ولاية أحد له غير من بالأندلس ، وحكى ابن حيان أَنَّهُ
أنشد قول حُرْقَةَ بنت النعمان بن المنذر يوم خلعه بالأمان من سلطانه ودخوله
عسكر عبد الرحمن الداخل المرواني :

فبينما نَسُوسُ النَّاسِ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوْقَةٌ نُتَنَصَّفُ

قال ابن حيان : لما سمع أبو الخطار بتقديمه حرك يمانيته ، فأجابوا دعوته ، فأدى
ذلك إلى وقعة شقنُدة بين اليمانية والمُضَرِّيَّة فيقال : إِنَّهُ لم يك بالمشرق ولا
بالمغرب حرب أصدق منها جِلاداً ولا أصبر رجلاً ، طال صبر بعضهم على
بعض ، إلى أن فني السلاح ، وتجاوزوا بالشعور ، وتلاطموا بالأيدي ، وكلٌّ
بعضهم عن بعض ، وثابت للصميل غيرة في اليمانية في بعض الأيام ، فأمر
بتحريك أهل الصناعات بأسواق قرطبة ، فخرجوا في نحو أربعمئة رجل من

أنجادهم بما حضرهم من السكاكين والعِصِيَّ ليس فيهم حامل رمح ولا سيف إلا قليلاً ، فرماهم على اليمانية وهم على غفلة ، وما فيهم من يبسط يداً لقتال ، ولا ينهض لدفاع ، فانهزمت اليمانية ووضعت المُضَرِّبة السيف فيهم ، فأبادوا منهم خلقاً ، واختفى أبو الخطار تحت سرير رحي ، فقبض عليه وجيء به إلى الصميل ، ف ضرب عنقه ، وقد ذكرنا خبر انخلاع يوسف عن سلطانه في ترجمة عبد الرحمن الداخل ، وهو آخر سلاطين الأندلس الذين ولّوها من غير موارثة ، حتى جاءت الدولة المروانية .

وذكر ابن حيّان أن القائم بدولة يوسف والمستولي عليها الصَّمِيل بن حاتم ابن شمر بن ذي الجوشن الكلّابي ، وجدّه شمر هو قاتل الحسين ، رضي الله تعالى عنه ، وكان شمر قد قرّب من المختار بولده من الكوفة إلى الشام ، فلمّا خرج كلثوم بن عياض للمغرب كان الصَّمِيل فيمن خرج معه ، ودخل الأندلس في طالعة بلج ، وكان شجاعاً جواداً جسوراً على قلب الدول ، فبلغ ما بلغ ، وآل أمره إلى أن قتله عبدُ الرحمن الداخل المرواني في سجن قرطبة مخنوقاً .

وذكر ابن حيّان أنّه كان ممّن ثار على يوسف الفهري عبد الرحمن بن علقمة اللخمي فارس الأندلس ، ووالي ثغر أربونة ، وكان ذا بأس شديد ووجاهة عظيمة ، فبينما هو في تدبير غزو يوسف إذ اغتاله أصحابه وأقبلوا برأسه إليه . ثم ثار عليه بعد ذلك بمدينة باجة عروة بن الوليد في أهل الذمة وغيرهم ، فملك إشبيلية ، وكثر جمعه ، إلى أن خرج له يوسف فقتله ، وثار عليه بالجزيرة الخضراء عامر العبدري ، فخرج له ، وأنزله على أمان في سكنى قرطبة ، ثم ضرب عنقه بعد ذلك .

وقيل : إن أول من خرج على يوسف عمرو بن يزيد الأزرق في إشبيلية فظفر به فقتله ، وثار عليه في كورة سَرَقُسطة الحباب الزهري إلى أن ظفر به يوسف فقتله ، ثم جاءت الداهية العظمى بدخول عبد الرحمن بن معاوية المرواني إلى الأندلس وسعّيه في إفساد سلطانه ، فتم له ما أراد ، والله تعالى أعلم .

٣٢ — ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس ملكها عبد الرحمن بن معاوية

ابن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان ، المعروف بالداخل^١ . وذلك أنه لما أصاب دولتهم ما أصاب ، واستولى بنو العباس على ما كان بأيديهم ، واستقر قَدَمُهُم في الخلافة ، فرَّ عبد الرحمن إلى الأندلس ، فنال بها ملكاً أورثه عَقِبُهُ حَقْبَةً من الدهر .

قال ابن حيَّان في « المقتبس » : إنَّه لما وقع الاختلال في دولة بني أمية والطلب عليهم ، فر عبد الرحمن ، ولم يزل في فِرَّاره منتقلاً بأهله وولده إلى أن حلَّ بقرية على الفرات ذات شجر وغياض ، يريد المغرب ، لما حصل في خاطره من بشرى مَسْلُمة^٢ ، فمما حكي عنه أنه قال : إنِّي لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت تواريتُ فيه لرمَد كان بي ، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدامي ، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها ، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً فأهوى إلى حِجْرِي ، فجعلت أدفعه لما كان بي ويأبى إلا التعلُّق ، وهو دَهْش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لأنظر ، فإذا بالرَّوْع قد نزل بالقرية ، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها مُنْحطَّة ، وأخ لي حَدِيث السن كان معي يشتدُّ هارباً ويقول لي : النجاء يا أخي ، فهذه رايات المسوَّدة^٣ ، فضربت بيدي على دنائير تناولتها ، ونجوت بنفسي والصبي أخي معي ، وأعلمت أخواني بمتوجَّهِي ومكان مقصدي ، وأمرتهن أن يلحقني ومولاي بَدْر معهن ، وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية ، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت

١ انظر أخبار عبد الرحمن الداخل في ابن القوطية : ٤٥ وأخبار مجموعة : ٥٠ وابن عذاري ٢ : ٤٠ والنويري ٢٢ : ١ (الباب الخامس) وذكر بلاد الأندلس ، الورقة : ٨٩ والمقتطفات ، الورقة : ١٠٩ ونص هذا الأخير مطابق لنص النسخ .

٢ نسب إلى مسلمة بن عبد الملك أنه كان يخبر بأمور من الهدثان والملاحم ، وكان يرى أن نهاية بني أمية في المشرق قد اقتربت ويتنبأ بظهور عبد الرحمن (راجع أخبار مجموعة : ٥١ - ٥٢) وسيأتي شيء من ذلك في هذا الكتاب .

٣ المقتطفات : فهذه الرايات السود .

الخليل فأحاطت بالدار ، فلم تجد أثراً ، ومضيت ولحقني بدر ، فأتيت رجلاً من معارف بشطّ الفُرات ، فأمرته أن يبتاع لي دوابّ وما يصلح لسفري ، فدلّ عليّ عبدٌ سوء له العامل ، فما راعنا إلا جَلَبَة الخيل تحفزنا فاشتدنا^١ في الهرب ، فسبقناها إلى الفُرات^٢ ، فرمينا فيه بأنفسنا ، والخليل تنادينا من الشط : ارجعا لا بأس عليكما ، فسبحتُ حائساً لنفسي وكنت أحسن السبح ، وسبح الغلام أخي ، فلماً قطعنا نصف الفرات قصّر أخي ودُهِش ، فالتفتُ إليه لأقويّ من قلبه ، وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخذعونه عن نفسه ، فناديته : تَقْتُلُ يا أخي ، إليّ إليّ ، فلم يسمعي ، وإذا هو قد اغتر بأمانهم ، وخشي الغرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات ، وبعضهم قد همّ بالتجرد للسباحة في أثري ، فاستكفّه أصحابه عن ذلك ، فتركوني ، ثم قدّموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتملت فيه شكلاً ملائياً مخافة ، ومضيت إلى وجهي أحسب أنني طائر وأنا ساع على قدمي ، فلجأت إلى غِيضَة أشبه ، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ، ثم خرجت^٣ أوام المغرب حتى وصلت إلى إفريقية .

قال ابن حيان : وسار حتى أتى إفريقية وقد ألحقت به أخته شقيقته أمّ الأصبع مولاه بدرّاً ، ومولاه سالماً ، ومعهما دنانير للنفقة ، وقطعة من جوهر ، فترل بإفريقية وقد سبقه إليها جماعة من قُلّ بني أمية ، وكان عند واليها عبد الرحمن ابن حبيب الفهري يهودي حدثاني صحب مسّلمة بن عبد الملك ، وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي المرواني الذي هو من أبناء ملوك القوم ، واسمه عبد

١ المقتطفات : فخرجنا واشتدنا .

٢ المقتطفات : وسبقنا الخيل إلى أن وصلنا الفرات .

٣ المقتطفات ودوزي : ثم خرجت هارباً .

الرحمن ، وهو ذو صغيرتين يملك الأندلس ويؤرثها عقبه ، فاتخذ القهري عند ذلك صغيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية ، فلما جيء بعبد الرحمن ونظر إلى صغيرتيه قال لليهودي : ويحك ؛ هذا هو ، وأنا قاتله ، فقال له اليهودي : إنك إن قتلتها فما هو به ، وإن غلبت على تركه إنه هو . وثقل فل بن أمية على ابن حبيب صاحب إفريقية ، فطرد كثيراً منهم مخافة ، وتجنّى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به فقتلهما ، وأخذ مالا كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان ، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه ، وطلب عبد الرحمن فاستخفى ، انتهى .

وذكر ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل أقام ببرقة مستخفياً خمس سنين ، وآل أمره في سفره إلى أن استجار ببني رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط ، وتقلب في قبائل البربر إلى أن استقر على البحر عند قوم من زنانة ، وأخذ في تجهيز بدر مولاه إلى العبور للأندلس لموالي بني أمية وشيعتهم بها ، وكانت الموالي المروانية المدونة بالأندلس في ذلك الأوان ما بين الأربعمات والخمسمائة ، ولهم جمرة ، وكانت رياستهم إلى شخصين : أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله بن خالد ، وهما من موالي عثمان ، رضي الله تعالى عنه ، وكانا يتوليان لواء بني أمية يعثقبان حمّله ورياسة جند الشام النازلين بكورة البيرة ، فعبر بدر مولى عبد الرحمن إلى أبي عثمان بكتاب عبد الرحمن يذكره فيه أيادي سلفه من بني أمية وسببه بهم ويعرفه مكانه من السلطان وسعيه لنيله ، إذ كان الأمر لجدّه هشام فهو حقيق بوراثته ، ويسأله القيام بشأنه وملاقة من يثق به من الموالي الأموية وغيرهم ، ويتلطف في إدخاله إلى الأندلس ليُبليّ عذراً في الظهور عليها ، ويَعِدُّه بإعلاء الدرجة ، ولطف المنزلة ، ويأمره أن يستعين في ذلك بمن يأمنه ، ويرجو قيامه معه ، ويأخذ فيه مع اليمانية ذوي الحنق على المضرية لما بين الحين من الترات ، فمشى أبو عثمان لما دعاه إليه ، وبانت له فيه طماعية ، وكان عند ورود بدر قد تجهز إلى ثغر سرقسطة لنصرة

صاحبها الصَّمِيل بن حاتم وَجَّهَ دولة يوسف بن عبد الرحمن صاحب الأندلس ، فقال لصهره عبد الله بن خالد المذكور : لو كنّا ذاكرنا الصَّمِيل خبرَ بَدْرٍ وما جاء به لنختبر ما عنده في موافقتنا ، وكانا على ثقة في أنّه لا يُظهر على سرّهما أحداً لمروءته وأنفثته ، فقال له : إن نحن فعلنا لم نأمن من أن تدركه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شَرَفِ القدر وجلالة المنزلة فيتوقع سقوط رياسته فلا يساعدنا ، قال أبو عثمان : فتمسح^١ إذاً على أمره ، ونذكر له أنّه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أحماس جده هشام لدينا ليتعيش بها ، لا يريد غير ذلك ، فاتفقا على هذا . فلمّا ودّعا الصَّمِيل خلكوا به في ذلك ، وقد ظهر لهما منه حقد على صاحبه يوسف في إبطائه عن إمداده لما حاربه الحباب الزهري بكورة سَرَقُسْطة ، فقال لهما : أنا معكما فيما تحبان ، فاكتبنا إليه أن يعبر ، فإذا حضر سألنا يوسف أن يُنزله في جواره وأن يحسن له ، ويزوجه بابنته ، فإن فعل وإلا ضربنا صلّعته بأسيافنا ، وصرفنا الأمر عنه إليه ، فشكراه وقبّلا يده ثم ودعاه ، وأقام بطُلَيْطلة وقد ولاه يوسف عليها وعزله عن الثغر ، وانصرفا إلى وطنهما بالبيرة ، وقد كانا لقيّا من كان معهما في العسكر من وجوه الناس وثقاتهم ، فطارحاهم أمر ابن معاوية ، ثم دسّا في الكوّر إلى ثقّاتهما بمثل ذلك ، فدب أمره فيهم دبيب النار في الجمر ، وكانت سنة خلف بالأندلس بعد خروج من المجاعة التي دامت بالناس .

وفي رواية أن الصَّمِيل لأنّ لهما في أن يطلب الأمر عبد الرحمن الداخل لنفسه ثم دبّر ذلك لما انصرفا ، فراجع فيه ، فردهما ، وقال : إنّي روّيت في الأمر الذي أدرته معكما فوجدت الفتى الذي دعوتماني إليه من قوم لو بال أحدُهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بؤله ، وهذا رجل نتحكم عليه ، ونميل على جوانبه ، ولا يسعنا بدل منه ، ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لي فيما

١ في المقتطفات : ننسخ ، وفي ق : فتسح .

فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصر حتى ألقاكما لثلاثاً أغركما من نفسي ، فإنني أعلمكما أن أول سيف يُسلّ عليه سيفي ، فبارك الله لكما في رأيكما ، فقالا له : ما لنا رأي إلا رأيك ، ولا مذهب لنا عنك . ثم انصرفا عنه على أن يعينهما في أمره إن طلب غير السلطان ، وانفصلا عنه إلى البيرة عازمين على التصميم في أمره ، ويثسا من مضر وربيعه ، ورجعا إلى اليمانية ، وأخذا في تهنيج أحقاد أهل اليمن على مُضَرّ ، فوجداهم قوماً قد وَغِرَت صدورهم عليهم ، يتمنون شيئاً يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم ، واغتنما بُعْدَ يوسف صاحب الأندلس في الثغر ، وغيبة الصَّمِيل ، فابتاعا مركباً ووجهها فيه أحد عشر رجلاً منهم مع بَدْرُ الرسول ، وفيهم تمام بن علقمة وغيره ، وكان عبد الرحمن قد وجّه خاتمه إلى مواليه ، فكتبوا تحت ختمه إلى من يرجونه في طلب الأمر ، فبثوا من ذلك في الجهات ما دبّ به أمرهم ، ولما وجّه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعته ألفوه بشطّ مغيلة من بلاد البربر ، وهو يصلي ، وكان قد اشتدّ قلّقه وانتظاره لبدر رسوله ، فبشره بدر بتمكن الأمر ، وخرج إليه تمام مكثراً لتبشيرِهِ ، فقال له عبد الرحمن : ما اسمك ؟ قال : تمام ، قال : وما كنيّتك ؟ قال : أبو غالب ، فقال : الله أكبر ! الآن تم أمرنا وغلبنا بحوّل الله تعالى وقوته ، وأدنى منزلة أبي غالب لما ملك ، ولم يزل حاجبه حتى مات عبدُ الرحمن . وبادر عبدُ الرحمن بالدخول إلى المركب ، فلما همّ بذلك أقبل البربر فتعرضوا دونه ، ففُرقت فيهم من مال كان مع تمام صِلاتٌ على أقدارهم ، حتى لم يبق أحد حتى أرضاه ، فلما صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عاتٍ منهم لم يكن أخذ شيئاً فتعلّق بجبّل الهودج يعقل المركب ، فحوّل رجل اسمه شاكر يده بالسيف ، فقطع يدَ البربري ، وأعانتهم الريح على التوجّه بمركبهم ، حتى حلّوا بساحل البيرة في جهة المنكب ، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨ ، فأقبل إليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد ، فنقلاه إلى

قرية طرش^١ منزل أبي عثمان ، فجاءه يوسف بن بخت ، واثالث عليه الأموية ، وجاءه جدار^٢ بن عمرو المذحجي من أهل مالقة ، فكان بعد ذلك قاضيه في العساكر ، وجاءه أبو عبدة حسان بن مالك الكلبي من إشبيلية فاستوزره ، واثالث عليه الناس انشئالاً ، فقوي أمره مع الساعات فضلاً عن الأيام ، وأمدّه الله تعالى بقوة عالية ، فكان دخوله قرطبة بعد ذلك بسبعة أشهر .

وكان خبر دخوله للأندلس قد صادف صاحبها يوسف الفهري بالثغر ، وقد قبض على الحباب الزهري النائر بسرّ قسطة ، وعلى عامر العبدي النائر معه ، فبينما هو بوادي الرمل بمقربة من طليطلة وقد ضرب عنق عامر العبدي وابن عامر برأي الصمّيل إذ جاءه قبل أن يدخل رواقه رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق ، واجتماع الموالي المروانية إليه ، وتشوف الناس لأمره ، فانتشر الخبر في العسكر لوقته ، وشميت الناس بيوسف لقتله القرشيين عامراً وابنه ، وختّره بعهدهما ، فسارع عدد كثير إلى البدار لعبد الرحمن الداخل ، وتنادوا بشعارهم ، وقوضوا عن عسكره ، واتفق أن جادت السماء بوابل لا عهد بمثله لما شاء الله تعالى من التضييق على يوسف ، فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانة وخاصته وقوم الصمّيل قيس وأتباعه ، فأقبل إلى طليطلة وقال للصمّيل : ما الرأي ؟ فقال : بادره الساعة قبل أن يغلظ أمره ، فإنني لست آمن عليك هؤلاء اليمانية لحنقهم علينا ، فقال له يوسف : أقول ذلك ؟ ومع من نسير إليه وأنت ترى الناس قد ذهبوا عنا ؟ وقد أنفضنا من المال ، وأنفضنا الظّهر ، ونهكتنا المجاعة في سفرتنا هذه ، ولكن نسير إلى قرطبة ، فنستأنف الاستعداد له ، بعد أن ننظر في أمره ويتبين لنا خبره ، فلعلّه دون ما كتب

١ طرش (Torrox) على الساحل الشرقي ، وهي تعد اليوم في مديرية مالقة .

٢ ق : حدران ؛ المقتطفات : جديران ؛ ابن عذاري : جدار ؛ أخبار مجموعة (٧٦) : جدار .

إلينا . فقال الصَّمِيل : الرأيُ ما أشرتُ به عليك ، وليس غيره ، وسوف تتبين غلطك فيما تنكبه ، ومضوا إلى قرطبة .

وسار عبد الرحمن الداخل إلى إشبيلية ، وتلقاه رئيسُ عربها أبو الصباح ابن يحيى اليَحْصُبي ، واجتمع الرأي على أن يقصدوا به دار الإمارة قرطبة ، فلمّا نزلوا بطشانة^١ قالوا : كيف نسير بأمر لا لواء له ولا عِلْمٌ نهتدي إليه ؟ فجاءوا بقنّاة وعمامة ليعقدوها عليه ، فكروهوا أن يُمِيلُوا القنّاة لتعقدَ تَطْيِيرًا فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين ، فصعد رجل فرْعَ إحداهما فعقد اللواء والقنّاة قائمة ، كما سيأتي ؛ وحكي أن فرقدًا العالم صاحب الحدثان مرّ بذلك الموضع ، فنظر إلى الزيتونتين ، فقال : سَيُعْقَدُ بين هاتين الزيتونتين لواء لأمر لا يثور عليه لواء إلاّ كسره ، فكان ذلك اللواء يسعد به هو وولده من بعده ، ولما أقبل إلى قرطبة خرج له يوسف ، وكانت المجاعة توالى قبل ذلك ست سنين فأورثت أهل الأندلس ضعفًا ، ولم يكن عيش عامة الناس بالعسكر ما عدا أهل الطاقة مذخرجوا من إشبيلية إلا الفول الأخضر الذي يجدونه في طريقهم ، وكان الزمان زمان ربيع ، فسمي ذلك العام عام الخلف ، وكان نهر قرطبة حائلًا ، فسار يوسف من قرطبة وأقبل ابن معاوية على بر إشبيلية والنهر بينهما ، فلمّا رأى يوسفُ تصميمَ عبد الرحمن إلى قرطبة رجع مع النهر مُحاذيًا له ، فتسايرا والنهر حاجز بينهما ، إلى أن حل يوسف بصحراء المُصَّارة غربي قرطبة ، وعبد الرحمن في مقابلته ، وتراسلا في الصلح ، وقد أمر يوسف بذبح الجُرُز ، وتقديم بعمل الأطعمة ، وابن معاوية آخذ في خلاف ذلك قد أعدّ للحرب عُدتها ، واستكمل أهبتها ، وسهر الليل كله على نظام أمره ، كما سنذكره ، ثم انهزم أهل قرطبة ، وظفر عبد الرحمن الداخل ، ونُصِرَ نصرًا لا كفاء له ، وانهزم

١ المقتطفات : بطشانة ؛ وهذا خطأ ؛ وطشانة (Tocina) قد عدها العذري (١٠٩) من أقاليم إشبيلية .

الصَّمِيل ، وفر إلى شَوَذر من كورة جَيَّان ، وفرَّ يوسف إلى جهة ماردة .
وذكر أن أبا الصَّبَّاح رئيس اليمانية قال لهم عند هزيمة يوسف : يا معشر
يمن ، هل لكم إلى فتحين في يوم ؟ قد فرغنا من يوسف وصميل ، فلنقتل هذا
الفتى المِقْدَامَة ابن معاوية فيصير الأمر لنا ، نقدم عليه رَجُلًا منا ، ونحل عنه هذه
المضرية ، فلم يجبه أحد لذلك ، وبلغ الخبر عبد الرحمن فَأَسْرَهَا في نفسه إلى
أن اغتاله بعد عام ، فقتله .

ولما انقضت الهزيمة أقام ابن معاوية بظاهر قرطبة ثلاثة أيام ، حتى أخرج
عيال يوسف من القصر ، وعَفَّ وأحسن السيرة ، ولما حصل بدار الإمارة ،
وحل محل يوسف ، لم يستقرَّ به قرار من إفلات يوسف والصَّمِيل ، فخرج
في إثر عدوه واستخلف على قرطبة القائم بأمره أبا عثمان ، واستكتب كاتب
يوسف أمية بن زياد ، واستنام إليه إذ كان من موالي بني أمية ، ونهض في
طلب يوسف ، فوقع يوسف على خبره فخالفه إلى قرطبة ودخل القصر ،
وتحصن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع فاستتره بالأمان ، ولم يزل
عنده إلى أن عقد الصلح بينه وبين ابن معاوية ، وكان عقد الصلح المشتمل عليه
وعلى وزيره الصَّمِيل في صفر سنة ١٣٩ ؛ وشارطه على أن يخلِّي بينه وبين أمواله
حيثما كانت ، وأن يسكن بلاط الحر - منزله بشرقي قرطبة - على أن يختلف
كل يوم إلى ابن معاوية ويُرِيه وجهه ، وأعطاه رهينة على ذلك ابنه أبا الأسود
محمد بن يوسف ، زيادةً على ابنه عبد الرحمن الذي أسره ابنُ معاوية يوم
الوقعة ؛ ورجع العسكران وقد اختلطوا إلى قرطبة .

وذكر ابن حيَّان أن يوسف بن عبد الرحمن نكث سنة ١٤١ ، فهرب من قرطبة ،
وسعى بالفساد في الأرض ، وقد كانت الحال اضطربت به في قرطبة ودس له
قوم قاموا عليه في أملاكه ، زعموا أنه غصبهم إياها ، فدفع معهم إلى الحكام^١

١ المقتطفات : إلى أحكام الحكام .

فأعتوه ، وحُمل عنه في التَّألم بذلك كلام رفع إلى ابن معاوية أصاب أعداء يوسف به السبيل إلى السعاية به والتخويف منه ، فاشتد تَوَحُّشُه ، فخرج إلى جهة ماردة ، واجتمع إليه عشرون ألفاً من أهل الشتات ، فغلظ أمره ، وحدثه نفسه بقاء ابن معاوية ، فخرج نحوه من ماردة ، وخرج ابن معاوية من قرطبة ، فبينما ابنُ معاوية في حصن المدور مستعداً ، إذ التقى بيوسف عبد الملك بن عمر بن مروان صاحب إشبيلية ، فكانت بينهما حرب شديدة انكشف عنها يوسف بعد بلاء عظيم منهزماً ، واستَحَرَّ القتلُ في أصحابه ، فهلك منهم خلق كثير ، وسار يوسف لناحية طُلَيْطَلَة ، فلقيه في قرية من قرأها عبد الله بن عمرو الأنصاري ، فلما عرفه قال لمن معه : هذا الفهري يفر ، قد ضاقت عليه الأرض ، وقتلُه الراحةُ له ، والراحةُ^٢ منه ، فقتله واحتز رأسه وقدم به إلى عبد الرحمن ، فلما قرب وأوذن عبد الرحمن به أمره أن يتوقَّف به دون جسر قرطبة ، وأمر بقتل ولده عبد الرحمن المحبوس عنده ، وضم إلى رأسه رأسه ، ووضعاً على قناتين مشهَّرين إلى باب القصر .

وكان عبد الرحمن لما فرَّ يوسف قد سجن وزيره الصَّمِيل لأنَّه قال له : أين توجه ؟ فقال : لا أعلم ، فقال : ما كان ليخرج حتى يعلمك ، ومع ذلك فإن ولدك معه ، وأكد عليه في أن يحضره ، فقال : لو أنَّه تحت قدمي هذه ما رفعتها لك عنه ، فاصنع ما شئت ، فحينئذ أمر به للحبس وسَجَنَ معه ولدي يوسف أبا الأسود محمداً المعروف بعد بالأعمى وعبد الرحمن ، فتهيأ لهما الهرب من نقب ، فأما أبو الأسود فنجاً سالماً ، واضطرب في الأرض يبغي الفساد إلى أن هلك حتَفَ أنفه ، وأما عبد الرحمن فأنقله اللحم فانبهر ، فردَّ إلى الحبس ، حتى قُتل كما تقدم ؛ وأنف الصَّمِيل من الهرب فأقام بمكانه ، فلما

١ المقتطفات : مشغل .

٢ المقتطفات : راحة له وراحة ...

قَتَلَ يَوْسُفُ أَدْخَلَ ابْنَ مُعَاوِيَةَ عَلَى الصَّمِيلِ مِنْ خَنْقَتِهِ ، فَأَصْبَحَ مَيْتاً ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ مَشِيخَةُ الْمَضْرِيَةِ فِي السَّجَنِ ، فَوَجَدُوهُ مَيْتاً وَبَيْنَ يَدَيْهِ كَأْسٌ وَنَقْلٌ ، كَأَنَّهُ بَغَتَ عَلَى شَرَابِهِ ، فَقَالُوا : وَاللَّهِ إِنَّا لَنَعْلَمُ يَا أَبَا جَوْشَنَ أَنَّكَ مَا شَرِبْتَهَا وَلَكِنْ سَقَيْتَهَا .

وَمِمَّا ظَهَرَ مِنْ بَطْشِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ وَصَرَامَتِهِ فَتَكَهُ بِإِحْدَى دَعَائِمِ دَوْلَتِهِ رَئِيسَ الْيَمَانِيَةِ أَبِي الصَّبَاحِ يَحْيَى^١ ، وَكَانَ قَدْ وُلَاَهُ إِشْبِيلِيَّةً وَفِي نَفْسِهِ مِنْهُ مَا أَوْجَبَ فَتَكَهُ بِهِ . وَمِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ حِكَايَتُهُ مَعَ الْعَلَاءِ بْنِ مَغِيثِ الْيَحْصَبِيِّ إِذْ ثَارَ بَبَاجَةٌ ، وَكَانَ قَدْ وَصَلَ مِنْ إِفْرِيقِيَّةٍ عَلَى أَنْ يُظْهِرَ الرِّايَاتِ السُّودَ بِالْأَنْدَلُسِ ، فَدَخَلَ فِي نَاسٍ قَلِيلِينَ ، فَأَرَسَى بِنَاحِيَةِ بَابِجَةٍ ، وَدَعَا أَهْلَهَا وَمِنْ حَوْلِهِمْ فَاسْتَجَابَ لَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ ، إِلَى أَنْ لَقِيَهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِجَهَةِ إِشْبِيلِيَّةٍ فَهَزَمَهُ ، وَجِيءَ بِهِ وَبِأَعْلَامِ أَصْحَابِهِ ، فَقَطَعَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، ثُمَّ ضَرَبَ عُنُقَهُ وَأَعْنَاقَهُمْ ، وَأَمَرَ فَقَرَطَتِ الصَّكَاكَ فِي آذَانِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، وَأَوْدَعَتْ جَوَالِقًا مُحَصَّنًا ، وَمَعَهَا اللَّوَاءُ الْأَسْوَدُ ، وَأَنْفَذَ بِالْجَوَالِقِ تَاجِرًا مِنْ ثِقَاتِهِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَضَعَهُ بِمَكَّةَ أَيَّامَ الْمَوْسَمِ ، فَفَعَلَ ، وَوَافَقَ أَبَا جَعْفَرَ الْمَنْصُورَ قَدْ حَجَّ ، فَوَضَعَهُ عَلَى بَابِ سُرَّادِقِهِ ، فَلَمَّا كَشَفَهُ وَنَظَرَ إِلَيْهِ سَقَطَ فِي يَدِهِ ، وَاسْتَدْعَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَقَالَ : عَرَضْنَا هَذَا الْبَائِسَ - يَعْنِي الْعَلَاءَ - لِلْحَتَفِ ، مَا فِي هَذَا الشَّيْطَانِ مُطْمَعٌ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَيَّرَ هَذَا الْبَحْرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ .

وَلَمَّا أَوْقَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِالْيَمَانِيَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِ ثَارِ رَئِيسِهِمْ أَبِي الصَّبَاحِ الْيَحْصَبِيِّ وَأَكْثَرَ الْقَتْلِ فِيهِمْ ، اسْتَوْحِشَ مِنَ الْعَرَبِ قَاطِبَةً ، وَعَلِمَ أَنَّهُمْ عَلَى دَعْوَلٍ وَحَقْدٍ ، فَانْحَرَفَ عَنْهُمْ إِلَى اتِّخَاذِ الْمَمَالِكِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الْإِبْتِياعِ ، فَابْتَاعَ مَوَالِيَ النَّاسِ بِكُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَاعْتَضَدَ أَيْضًا بِالْبُرَابِيرِ ، وَوَجَّهَ عَنْهُمْ إِلَى بَرِّ الْعُدُوَّةِ فَأَحْسَنَ لِمَنْ وَفَدَ عَلَيْهِ إِحْسَانًا رَغَبَ مَنْ خَلْفَهُ فِي الْمَتَابَعَةِ ، قَالَ ابْنُ

١ ق والمقتطفات : ابن يحيى .

حيان : واستكثر منهم ومن العبيد ، فاتخذ أربعين ألف رجل ، صار بهم غالباً على أهل الأندلس من العرب ، فاستقامت مملكته وتوطدت .

وقال ابن حيان ^١ : كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم ^٢ ، ثاقب الفهم ، كثير الخزم ، نافذ الغزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة ، متصل الحركة ، لا يُخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعة ، ولا يَكِلُ الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور شديد الحدة قليل الطمأنينة بليغاً مفوهاً شاعراً محسناً سَمَحاً سخيّاً طلق اللسان ، وكان يلبس البياض ويعتمُّ به ويؤثره ، وكان قد أُعطي هبة ^٣ من وليّه وعدوّه ، وكان يحضر الجنائز ، ويصلي عليها ، ويصلي بالناس إذا كان حاضراً الجُمُع والأعياد ، ويخطب على المنبر ، ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم ، إلى أن حضر في يوم جنازة فتصدى له في منصرفه عنها رجل متظلم عامي وقاح ذو عارضة فقال له : أصلح الله الأمير ، إن قاضيك ظلمني وأنا أستجيرك من الظلم ، فقال له : تُنصف إن صدقت ، فمد الرجل يده إلى عنانه وقال : أيها الأمير أسألك بالله لما برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بإنصافي فإنه معك ، فوجم الأمير والتفت إلى مَنْ حوله من حشمه ، فرآهم قليلاً ، ودعا بالقاضي وأمر بإنصافه ، فلما عاد إلى قصره كلمه بعضُ رجاله ممّن كان يكره خروجه وابتداله فيما جرى ، فقال له : إن هذا الخروج الكثير — أبقى الله تعالى الأمير — لا يَجْمُلُ بالسلطان العزيز ، وإن عيون العامة تخلق تجلته ، ولا تؤمن بآواذرهم عليه ، فليس الناس كما عهدوا ، فترك من يومئذ شهود الجنائز وحضور المحافل ، ووكل بذلك ولده هشاماً .

١ انظر هذا النص في « ذكر بلاد الأندلس » : ٩١ .

٢ المصدر السابق : راجح العقل راسخ العلم واسع الحلم .

٣ المقتطفات : وكان مهاباً جداً .

ومن نظم عبد الرحمن الداخل ما كتب به إلى أخته بالشام^١ :

أيتها الراكب الميمم أُرضي اقرّ مِنِّي بعضَ السلامِ لبعضي
إنَّ جسمي كما تراه بأرضٍ وفؤادي ومالكه بأرضِ
قدّرَ البينُ بَيْننا فافترقنا وطوى البينُ عن جفوني غمضي
قد قضى الدهرُ بالفراقِ علينا فعسى باجتماعنا سوف يَقْضي

وكتب إلى بعض مَنْ وفد عليه من قومه لما سأله الزيادة في رزقه ، واستقل ما قابله به وذكره بحقه بهذه الأبيات^٢ :

شتانَ مَنْ قامَ ذا امتعاضٍ مُنتَضِي الشَّفَرَتَيْنِ نَصْلاً^٣
فجأبَ قفراً وشقَّ بحرأً مُسامياً لِحَلةً ومَحْلاً
دبَّرَ ملكاً وشادَ عزأً^٤ ومنبرأً للخطابِ فَصْلاً
وجنَّدَ الجندَ حينَ أودى ومَصَّرَ المَصْرَ حينَ أَجلى
ثمَّ دَعَا أَهْلَهُ إِلَيْهِ^٥ حيثُ انتأوا أنْ هَلُمَّ أَهْلاً
فجاءَ هذا طريدَ جوعٍ شديدَ رَوْعٍ يخافُ قِتْلاً^٦
فنالَ أمناً ونالَ شَيْعاً^٧ ونالَ مالاً ونالَ أَهْلاً^٧
ألم يكنْ حقُّ ذا على ذا أعظمَ من منعمٍ ومَوْلى

وحكى ابن حيان أن عبد الرحمن لما أذعن له يوسف صاحب الأندلس :

١ وردت هذه الأبيات في أكثر المصادر التي ترجمت للأمير عبد الرحمن ؛ انظر ذكر بلاد الأندلس :

٩١ والحلة السيرة ١ : ٣٦ وجذوة المقتبس : ١٠ .

٢ انظر الحلة السيرة ١ : ٣٩ وذكر بلاد الأندلس : ٩٧ وابن عذاري ٢ : ٥٩ .

٣ في رواية ابن حيان : فشال ما قل واضمحلا ، وستأتي هذه الرواية فيما يلي ص : ٤٣ .

٤ الحلة : فشاد مجدأً وبز ملكاً .

٥ الحلة : جميعاً .

٦ الحلة : شريد سيف أباد قتلا .

٧ الحلة : وحاز . . . وضم .

واستقرّ ملكه استحضر الوفود إلى قرطبة ، فاثالوا عليه ، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلام سرهم وطيب نفوسهم ، مع أنه كساهم وأطعمهم ووصلهم ، فانصرفوا عنه محبورين مغتبطين ، يتدارسون كلامه ، ويتهافتون بشكره ، ويتهانئون بنعمة الله تعالى عليهم فيه . وفي بعض مجالسهم هذه مثل بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه فقال له : يا ابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فررت وبك عدت من زمن ظلوم ودهر غشوم ، قلل المال وكثر العيال وشعث الحال فصير إلى ندادك المال ، وأنت ولي الحمد والمجد والمرجو للرفد ، فقال له عبد الرحمن مسرعاً : قد سمعنا مقاتلك وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك ، فلا تعودن ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاف في الطلبية ، وإذا ألم بك خطب أو حزبك أمر فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك ، كيما نستر عليك خلعتك ، ونكف شمات العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عز وجهه بإخلاص الدعاء وصدق النية ، وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون منه من حسن منطقه وبراعة أدبه ، وكف فيما بعد ذوو الحاجات عن مقابله بها شفاهاً في مجلسه .

قال ابن حيّان : ووقع إلى سليمان بن يقظان الأعرابي على كتاب منه سلك به سبيل الخلداع : أمّا بعد فدعني من معاريف المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدنّ يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوين بنائها عن رصف المعصية ، نكالاً بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد .

وفي « المسهب » أن عبد الرحمن كان من البلاغة بالمكان العالي ، الذي يرتد عنه أكثر بني مروان حسيراً . وقد جرى بينه وبين مولاة بدر ما لا يجب إهماله ،

١ زاد في المقتطفات : أو تعتبر بلاغته .

وذلك أنه لما سعى بدر في تكميل دولته من ابتدائها إلى استقرارها صحبه عجب وامتنان كادا يرد أن به حياض المنيّة ، فأول ما بدأ به أن قال : بيّعنا أنفسنا وخططنا بها في شأن من هانت عليه لما بلغ أقصى أمله . وقال وقد أمره بالخروج إلى غزاة : إننا تعبنا أولاً لنستريح آخرأ ، وما أرانا إلا في أشد ممّا كنا ، وأطال أمثال هذه الأقوال ، وأكثر الاستراحة في جانبه ، فهجره وأعرض عنه ، فزاد كلامه ، وكتب له رقعة منها : أما كان جزائي في قطع البحر وجوب القفر ، والإقدام على تشيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر ، الذي أهانني في عيون أكفائي وأشمت بي أعدائي ، وأضعف أمري ونهي عند من يلود بي ، وبتر مطامع من كان يكرمني ويحفدني على الطمع والرجاء ، وأظن أعداءنا بني العباس لو حصّلت بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون . فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غيظه عليه ، فوقع عليها : « وقفت على رقعتك المنيّة عن جهلك وسوء خطابك ودناءة أدبك ولثيم معتقدك ، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا متاتاً أتيت بما يهدم كل متات مشيد ممّا تمن به ، ممّا قد أضجر الأسماع تكراره ، وقدحت في النفوس إعادته ، ممّا استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك ، وزدنا في هجرك وإبعادك ، وهضنا جناح إدلالك ، فلعلّ ذلك يجمع منك ويردك حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى ؛ فنحن أولى بتأديبك من كل أحد ، إذ شرّك مكتوب في مثالبنا ، وخيرك معدود في مناقبنا » . فلما ورد هذا الجواب على بدر سقّط في يده وسلم للقضاء ، وعلم أنه لا ينفع فيه قول ، ووجه عبد الرحمن من استأصل ماله وألزمه داره ، وهتك حرمة وقصّ جناح جاهه ، وصيره أهون من قعيس على عمته ، ومع هذا فلم ينته بدر عن الإكثار من مخاطبة مولاه ، تارة يستلينه وتارة يذكره ، وتارة ينفث مصدوراً بخط قلمه ما يلقيه عليه بلسانه ، غير مفكر فيما يؤول إليه ، إلى أن كتب له : قد طال هجري ، وتضاعف همّي وفكري ، وأشدّ ما عليّ كوني سلياً من مالي ، فعسى أن تأمر

لي بإطلاق مالي وأتَّحدُ به في معزل لا أشتغل بسلطان ولا أدخل في شيء من أموره ما عشت ، فوقَّع له : إن لك من الذنوب المترددة ما لو سُلِّبَ معها روحك لكان بعض ما استوجبته ، ولا سبيل إلى رد مالك ، فإن تَرَكَّكَ بِمَعَزَلٍ في بُلْهَنِيَّةِ الرفاهية وسعة ذات اليد والتخلِّي من شغل السلطان أشبه بالنعمة منه بالنعمة ، فايأس من ذلك فإن اليأس مُرِيح . فسكت لما وقف على هذه الإجابة مدة إلى أن أتى عيد فاشتد به حزنه لما رأى من حاجة مَنْ يلوذ به وهمهم بما يفرح به الناس ، فكتب إليه في ذلك رقعة منها : « وقد أتى هذا العيد الذي خالفت فيه أكثر من أساء إليك وسعى في خراب دولتك ، ممَّن عفوت عنه ، فتبنَّكَ النعمة في ذَرَاكَ ، واقعد ذِرْوَةَ العزِّ ، وأنا على ضدِّ من هذا سلباً من النعمة ، مُطَرِّحاً في حضيض الهوان ، أيأس ممَّا يكون ، وأقرع السن على ما كان » . فلما وقف على هذه الرقعة أمر بنفيه عن قرطبة إلى أقصى الثغر ، وكتب له على ظهر رقعته : « لتعلم أنَّك لم تزل بمقتك ، حتى ثقلت على العين طلعتك ، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر فبالله إلّا ما أقصرت ، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق بك معي الدنيا ، ورأيتك تشكو لفلان وتتألَّم من فلان ، وما تَقَوَّلوه عليك ، وما لك عدوٌّ أكبر من لسانك ، فما طاح بك غيره ، فاقطعه قبل أن يقطعك » .

ولما فتح الداخل سَرَقُسطة ، وحصل في يدهِ ثائرها^١ الحسين الأنصاري ، وشُدخت رؤوس وجوهها بالعمد ، وانتهى نصره فيها إلى غاية أمله ، أقبل خواصه يهنئونه ، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه به من الجند ، فهنَّأه بصوت عال ، فقال : والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ عليَّ فيه النعمة من هو فوقني فأوجب عليَّ ذلك أن أنعم فيه علي من هو دوني لأصلينك ما تعرضت له من

١ المقتطفات : الثائر بها .

سوء النكال ، من تكون حتى تُقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ولا متهيب
لمكان الإمارة ولا عارف بقيمتها حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ؟ وإن
جهلك ليحملك على العود لمثلها ، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة ،
فقال : ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي ، فتشفع
لي متى أتيت بمثل هذه الزلة ، لا أعدمنيه الله تعالى ؛ فتهلل وجه الأمير ، وقال :
ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نبّهونا على أنفسكم ، إذا لم تجدوا من ينبهنا
عليها ، ورفع مرتبته ، وزاد في عطائه .

ولما أنحى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة قال :
لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم ، واستبّقوهم لأشدّ عداوة منهم ،
يشير إلى استبقائهم ليستعان بهم على أعداء الدين .

ولما اشتد الكرب بين يديه يوم حربه مع الفهري ، ورأى شدة مقاساة
أصحابه ، قال : هذا اليوم هو أس ما يبني عليه ، إمّا ذل الدهر وإمّا عزّ الدهر ،
فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ترجوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون .

ولما خرج من البحر أول قدومه على الأندلس أتوه بخمر ، فقال : إنني محتاج
لما يزيد في عقلي ، لا لما ينقصه ، فعرفوا بذلك قدره ؛ ثم أهديت إليه جارية
جميلة فنظر إليها وقال : إن هذه من القلب والعين بمكان ، وإن أنا اشتغلت عنها
بهمتي فيما أطلبه ظلمتها ، وإن اشتغلت بها عمّا أطلبه ظلمت همّتي ، ولا حاجة
لي بها الآن ، وردّها على صاحبها .

ولما استقامت له الدولة بلغه عن بعض من أعانه أنّه قال : لولا أنا ما توصل
لهذا الملك ، ولكان منه أبعد من العيّوق ، وأن آخر قال : سعه أعانه ،
لا عقله وتدبيره ، فحرّكه ذلك إلى أن قال :

لا يُلَفّ ممتنٌ علينا قائلٌ لولايَ ما ملك الأنامَ الداخلُ
سَعْدِي وحزمي والمهند والقنا ومَقَادِرُ بلغتْ وحالٌ حائلُ

إن الملوك مع الزمان كواكبٌ نجمٌ يطالعنا ونجمٌ آفلٌ
 والحزم كلُّ الحزم أن لا يغفلوا أيروم تدبير البرية غافلٌ
 ويقول قومٌ سعده لا عقله خير السعادة ما حماها العاقلُ
 أبني أمية قد جبرنا صدعكم بالغرب رغماً والسعود قبائلُ
 ما دام من نسلي إمامٌ قائمٌ فالملك فيكم ثابتٌ متواصلُ

وحكى ابن حيان أن جماعة من القادمين عليه من قبل الشام حدثوه يوماً في بعض مجالسهم عنده ما كان من الغمر بن يزيد بن عبد الملك أيام محتتهم ، وكلامه لعبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس الساطي بهم ، وقد حضروا رواقه وفيه وجوه المسودة من دعاة القوم وشيعتهم راداً على عبد الله فيما أراقه من دماء بني أمية ، وثلبهم والبراءة منهم ، فلم تردعه هيئته وعصف ربحه واحتفال جمعه عن معارضته والرد عليه بتفضيله لأهل بيته والذب عنهم ، وأته جاء في ذلك بكلام غاظ عبد الله وأغصه بريقه ، وعاجل الغمر بالحتف ، فمضى وخلف في الناس ما خلف من تلك المعارضة في ذلك المقام ، وكثر القوم في تعظيم ذلك ، فكان الأمير عبد الرحمن احتقر ذلك الذي كان من الغمر في جنب ما كان منه في الذهاب بنفسه عن الإذعان لعدوهم ، والأنف من طاعتهم ، والسعي في اقتطاع قطعة من مملكة الإسلام عنه ، وقام عن مجلسه ، فصاغ هذه الأبيات بديهة :

شتان من قام ذا امتعاض فشان ما قل^١ واضمحلا
 ومن غدا مُصلتاً لعزمٍ مجرداً للعُداة نصلاً
 فجاب قفراً وشقّ بجرأً ولم يكن في الأنام كلاماً
 فشاد ملكاً وشاد عزاً ومنبراً للخطاب فصلاً

١ ق : فمر ما قال ؛ وآثرنا رواية الحلة السراء .

وجنّد الجندَ حين أودى ومصرَ المصرَ حين أجلى
ثمّ دعا أهله جميعاً حيث انتأوا أن هلمّ أهلاً

وله غير ذلك من الشعر ، وسيأتي بعضه ممّا يقارب هذه الطبقة .

وأول ناصر لعبد الرحمن سائر معه في الحمول والاستخفاء مولاه المتقدم الذكر ، سعى في سلطانه شرقاً وغرباً وبرّاً وبحراً ، فلمّا كمل له الأمر سلبه من كل نعمة ، وسجنه ، ثم أقصاه إلى أقصى الثغر ، حتى مات وحاله أسوأ حال ، والله تعالى أعلم بالسرائر ، فلعلّ له عذراً ويلومه من يسمع مبداه ومآله .

ورأس الجماعة الذين توجه إليهم بدر في القيام بسلطانه أبو عثمان ، ولما توطدت دولة الداخل استغنى عنه وعن أمثاله ، فأراد أبو عثمان أن يشغل خاطره وينظر في شيء يحتاج به إليه ، فجعل ابن أخته يثور عليه في حصن من حصون البيرة ، فوجه عبد الرحمن من قبض عليه وضرب عنقه ، ثم أخذ أبو عثمان مع ابن أخيه الداخل ، وزين له القيام عليه ، فسعى لعبد الرحمن بابن أخيه قبل أن يتم أمره ، فضرب عنقه وأعناق الذين دبروا معه ، وقيل له : إن أبا عثمان كان معه ، وهو الذي ضمن له تمام الأمر ، فقال : هو أبو سلمة هذه الدولة^١ ، فلا يتحدث الناس عنه بما تحدثوا عن بني العباس في شأن أبي سلمة ، لكن سأعتبه عتياً أشد من القتل ، وجعل يوعده ، ثم رجع له إلى ما كان عليه في الظاهر .

وكان صاحبه الثاني في المؤازرة والقيام بالدولة صهره عبد الله بن خالد ، وكان قد ضمن لأبي الصباح رئيس اليمانية عن الداخل أشياء لم يَفِ بها الداخل ، وقتل أبا الصباح ، فانزل عبد الله وأقسم لا يشتغل بشغل سلطان حياته ، فمات منفرداً عن السلطان .

١ يشير إلى أبي سلمة الحلال الذي كان يلقب وزير آل محمد ، وقد تخلص منه العباسيون حين تمهدت الدولة .

وكان ثالثهما في النصرة والاختصاص تَمَام بن علقمة ، وهو الذي عَبَرَ البحر إليه وبشّره باستحكام أمره ، فقتل هشام بن عبد الرحمن وَلَدَ تَمَام المذكور ، وكذلك فعل بولد أبي عثمان المتقدم الذكر ، قال ابن حَيَّان : فذاقاً من ثُكُلٍ ولديهما على يدي أعز الناس عليهما ما أراهما أن أحداً لا يقدر أن ينظر في تحسين عاقبته .

وإذا تتبع الأمر في الذين يقومون في قيام دولة كان مآلهم مع من يظهرونه هذا المآل وأصعب .

وذكر أن أول حُجَّاب الداخل تمام بن علقمة مولاه ذو العمر الطويل ، ثم يوسف بن بخت الفارسي مولى عبد الملك بن مروان ، وله بقرطبة عَقِبٌ نابه ، ثم عبد الكريم بن مهران من ولد الحارث بن أبي شمر الغساني ، ثم عبد الرحمن بن مغيث بن الحارث بن حويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني ، وأبوه مغيث فاتح قرطبة الذي تقدمت ترجمته ، ثم منصور الحَصِيّ ، وكان أول خصيٍّ استحجبه بنو مروان بالأندلس ، ولم يزل حاجبه إلى أن توفي الداخل .

ولم يكن للداخل من ينطلق عليه سِمَة^١ وزير ، لكنّه عين أسيخاً للمشاورة والمؤازرة^٢ ، أولهم أبو عثمان المتقدم الذكر ، وعبد الله بن خالد السابق الذكر ، وأبو عبدة صاحب إشبيلية ، وشُهَيْد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن مروان ابن الحكم ، وكان من سَبْي البرابر ، وقيل : إنّه رومي ، وبنو شُهَيْد الفضلاء من نسله ، وعبد السلام بن بسيل الرومي مولى عبد الله بن معاوية ، ولولده نباهة عظيمة في الوزارة وغيرها ، وثعلبة بن عبيد بن النظام الجُذامي صاحب سرقسطة لعبد الرحمن ، وعاصم بن مسلم الثقفي من كبار شيعته وأول من خاض النهر وهو عريان يوم الوقعة بقرطبة ، ولعقبه في الدولة نباهة .

١ المقتطفات : تسمية .

٢ المقتطفات : والمؤازرة .

وأول من كتب له عند خلوص الأمر له واحتلاله بقرطبة كبير نُقَبَائِهِ
أبو عثمان وصاحبه عبد الله بن خالد المتقدما الذكر ، ثم لزم كتابته أمية بن يزيد
مولى معاوية بن مروان ، وكان في عديد من يشاوره أيضاً ويفضل أمره
وآراءه ، وكان يكتب قبله ليوسف الفهري ، وقيل : إنه ممن آتهم في ممالأة
اليزيدي في إفساد دولة عبد الرحمن ، فاتفق أن مات قبل قتل اليزيدي واطلاع
عبد الرحمن على الأمر .

وذكر ابن زيدون أن الداخل ألقى على قضاء الجماعة بقرطبة يحيى بن يزيد
البحصبي ، فأقره حيناً ، ثم ولّى بعده أبا عمرو معاوية بن صالح الحمصي ، ثم عمر
ابن شراحيل ، ثم عبد الرحمن بن طريف ، وكان جدار بن عمرو يقضي في العساكر .
وكان الداخل يرتاح ، لما استقر سلطانه بالأندلس ، إلى أن يفدّ عليه فتلُّ
بيته بني مروان ، حتى يشاهدوا ما أنعم الله تعالى عليه ، وتظهر يده عليهم ،
فوفد عليه من بني هشام بن عبد الملك أخوه الوليد بن معاوية وابن عمّه عبد السلام
ابن يزيد بن هشام ، قال ابن حيّان : وفي سنة ١٦٣ قتل الداخل عبد السلام
ابن يزيد بن هشام المعروف باليزيدي ، وقتل معه من الوافدين عليه عبيد
الله بن أبان بن معاوية بن هشام ، وهو ابن أخي الداخل ، وكانا تحت تدبير
يُسْرِمَانِهِ في طلب الأمر ، فَوَشَى بهما مولى لعبيد الله بن أبان ، وكان قد ساعدهما
على ما هما به من الخلاف أبو عثمان كبير الدولة ، فلم ينله ما نالهما .

وذكر الحِجَارِي أن الداخل كان يقول : أعظم ما أنعم الله تعالى به علي بعدَ
تمكّني من هذا الأمر القدرة على إيواء من يَصِلُ إلي من أقاربي ، والتوسع في
الإحسان إليهم ، وكبري في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم بما منحني الله تعالى من
هذا السلطان الذي لا مِنةَ علي فيه لأحد غيره .

وذكر ابن حزم أنه كان فيمن وفد عليه ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ،
فسعى في طلب الأمر لنفسه ، فقتله سنة ١٦٧ ، وقتل معه من أصحابه هُذَيْل بن
الصَّمِيل بن حاتم ، ونفى أخاه الوليد بن معاوية والد المغيرة المذكور إلى العُدوة

بماله وولده وأهله .

وفي « المسهب » حدث بعضُ موالي عبد الرحمن الحاصين به أنه دخل على الداخل إثر قتله ابن أخيه المغيرة المذكور ، وهو مُطْرَق شديد الغم ، فرفع رأسه إلي وقال : ما عجبي إلا من هؤلاء القوم ، سَعَيْنَا فيما يجمعهم في مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا فيه بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ، ويسر الله تعالى أسبابه ، أقبلوا علينا بالسيوف ، ولَمَّا آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به حتى أَمِنُوا ودرَّت عليهم أخلافُ النعم هَزَّوْا أعطافهم ، وشمخوا بأنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحنا الله تعالى ، فخذلهم الله بكفرهم النعم إذ أطلعنا على عَوْرَاتِهِمْ ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدَّى ذلك إلى أن ساء ظننا في البريء منهم ، وساء أيضاً ظنُّه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه ، وإن أشدَّ ما علي في ذلك أخي والد هذا المخذول ، كيف تطيب لي نفس بمجاورته بعد قتل ولده وقطع رحمه ؟ أم كيف يجتمع بصري مع بصره ؟ اخرج له الساعة فاعتذر إليه ، وهذه خمسة آلاف دينار ادفعها إليه ، واعزم عليه في الخروج عني من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من بر العُدُوَّة . قال : فلمَّا وصلت إلى أخيه وجدته أشبه بالأموات منه بالأحياء ، فأنسته وعرفته ، ودفعت له المال ، وأبلغته الكلام ، فتأوَّه وقال : إن المشثوم لا يكون بليغاً في الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه ، وهذا الولد العاق الذي سعى في حَتْفِهِ قد سرى ما سعى فيه إلى رَجُلٍ طَلَبَ العافية ، وقنع بكِسْرٍ بيت في كَنَفٍ من يحمل عنه معرة الزَّمان وكَلَّه ، ولا حول ولا قوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، لا مرد لما حكم به وقضاه^١ ، ثم ذكر أنه أخذ في الحركة إلى بر العُدُوَّة . قال : ورجعت إلى الأمير فأعلمته بقوله ، فقال : إنَّه نطق بالحق ، ولكن لا يخذعني بهذا القول عما في نفسه ، والله لو قدر أن يشرب من دمي ما عَفَّ عنه لحظة ، فالحمد لله الذي أظهرنا

١ المقتطفات : لا مرد لحكم به قضى .

عليهم بما نوبناه فيهم ، وأذلهم بما نووه فينا .
واعلم أنّه دخل الأندلس أيام الداخل من بني مروان وغيرهم من بني أمية
جماعة كثيرون سرد أسماءهم غير واحد من المؤرخين ، وذكر أعقابهم
بالأندلس ، ومنهم جزيّ بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز ، وسيأتي قريباً .
وقد ثار على عبد الرحمن الداخل من أعيان الغرب وغيرهم جماعة كثيرون
ظفّره الله تعالى بهم ، وقد سبق ذكر بعضهم ، ومنهم الدعي^١ الفاطمي البربري
بشّنت مربة فأعيا الداخل أمره ، وطال شرّه سنين متوالية ، إلى أن فتك به بعض
أصحابه فقتله .

ومنهم حيوة بن ملابس الحضرمي رئيس إشبيلية ، وعبد الغفار بن حميد
اليحصبي رئيس لبلة ، وعمر بن طالوت رئيس باجة ، اجتمعوا وتوجّهوا
نحو قرطبة يطلبون دم رئيس اليمانية أبي الصباح ، فقتلوا في هزيمة عظيمة ،
وقيل : نجوا بالفرار ، فأمنهم الداخل .

وفي سنة ١٥٧ ثار بسرّ قسطة الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد
ابن عبادة الخزرجي ، وشايعة سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي رأس الفتن ،
وآل أمرهما إلى أن فتك الحسين بسليمان ، وقتل الداخل الحسين كما مر .
وفي سنة ١٦٣ ثار الرماحس بن عبد العزيز الكتاني بالجزيرة الخضراء ،
فتوجّه له عبد الرحمن الداخل ، ففر في البحر إلى المشرق .

قال ابن حيّان : كان مولد عبد الرحمن الداخل سنة ١١٣ ، وقيل : في
التي قبلها ، بالعلياء من تدّمّر ، وقيل : بدير حنا من دمشق ، وبها توفي أبوه
معاوية في حياة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، وكان قد رشّحه للخلافة -
وبقبر معاوية المذكور استجار الكُميت الشاعر حين أهدر هشام دمه - . وتوفي
الداخل لست بقين من ربيع الآخر سنة ١٧١ ، وهو ابن سبع وخمسين سنة وأربعة

١ دوزي : الداعي .

أشهر ، وقيل : اثنتان وستون سنة ، ودفن بالقصر من قرطبة ، وصلى عليه ابنه عبد الله .

وكان منصوراً مؤيداً مُظَفَّراً على أعدائه ، وقد سردنا من ذلك جملة ، حتى قال بعضهم : إن الراية التي عُقدت له بالأندلس^١ حين دخلها لم تُهَزَمْ قط ، وإن الوَهَنَ ما ظهر في ملك بني أمية إلا بعد ذهاب تلك الراية ، قال أكثر هذا مؤرخُ الأندلس الثبَتُ الثقة أبو مروان ابن حَيَّان ، رحمه الله تعالى .

ولا بأس أن نورد زيادة على ما سلف وإن تكرر بعض ذلك ، فنقول : قال بعض المؤرخين من أهل المغرب بعد كلام ابن حيان الذي قدمنا ذكره ، ما نصّه^٢ : كان الإمام عبد الرحمن الداخل راجحَ العقل ، راسخَ الحلم ، واسع العلم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، لم تُرفع له قط راية على عدوٍّ إلا هزمه ، ولا بلد إلا فتحه ، شجاعاً ، مقداماً ، شديد الحذر ، قليل الطمأنينة ، لا يُخْلِدُ إلى راحة ، ولا يسكن إلى دَعَاة ، ولا يكل الأمر إلى غيره ، كثير الكرم ، عظيم السياسة ، يلبس البياض ويعتمُّ به ، ويعود المرضى ويشهد الجنائز ، ويصلي بالناس في الجُمُع والأعياد ، ويخطب بنفسه ، جَنَدُ الأجناد وعقد الرايات واتخذ الحجاب والكتّاب ، وبلغت جنوده مائة ألف فارس .

وملخص دخوله الأندلس أنه لما اشتدَّ الطلب على فُلّ بني أمية بالشرق من واري ملكهم بني العباس خرج مستتراً إلى مصر ، فاشتدَّ الطلب على مثله ، فاحتال حتى وصل بَرَقَّة ، ثم لم يزل متوغلاً في سيره إلى أن بلغ المغرب الأقصى ، ونزل بنفزة ، وهم أخواله ، فأقام عندهم أياماً ثم ارتحل إلى مُغيلة بالساحل ، فأرسل مولاه بدرأ بكتابه إلى مَواليهم بالأندلس عبيد الله بن عثمان وعبد الله ابن خالد وتمام بن علقمة وغيرهم ، فأجابوه واشتروا مركباً وجهّزوه بما يحتاج

١ المقتطفات : في الأندلس بين الزيتونتين .

٢ قد تقدم أن هذا النص لابن حيان . (انظر ص ٢ : ٣٧) .

إليه ، وكان الذي اشتراه عبيد الله بن عثمان ، وأركب فيه بدرأ ، وأعطاه خمسمائة دينار برسم النفقة ، وركب معه تمام بن علقمة ، وبينما هو يتوضأ لصلاة المغرب على الساحل إذ نظر إلى المركب في لجة البحر مقبلاً حتى أرسى أمامه ، فخرج إليه بدر ساجحاً ، فبشّره بما تم له بالأندلس ، وبما اجتمع عليه الأمويون والموالي ، ثم خرج إليه تمام ومن معه في المركب فقال له : ما اسمك وما كنيته ؟ فقال : اسمي تمام ، وكنيتي أبو غالب ، فقال : تم أمرنا وغلبنا عدوّنا إن شاء الله تعالى ، ثم ركبوا المركب معه فتزل بالمتكب ، وذلك غرة ربيع الأول سنة ١٣٨ .

فلما اتصل خبر جَوّازه بالأموية أتاه عبيد الله بن عثمان وجماعة فتلّقوه بالإعظام والإكرام ، وكان وقت العصر ، فصلّى بهم العصر ، وركبوا معه إلى قرية طُرُش من كور البيرة فتزل بها ، وأتاه بها جماعة من وجوه الموالي وبعض العرب ، فبايعوه وكان من أمره ما يُذكر ، وقيل : إنّه أقام بالبيرة حتى كمل من معه ستمائة فارس من موالي بني أمية ووجوه العرب ، فخرج من البيرة إلى كورة رية فدخلت في جماعته ثم بايعته أهلها وأجنادها ، ثم ارتحل إلى شدونة ثم إلى مورور ، ثم سار إلى إشبيلية .

وقال بعضهم : لما أراد عبد الرحمن قصد قرطبة عند دخوله الأندلس من المشرق نزل بطشانة ، فأشاروا عليه أن يعقد له لواء ، فجاءوا بعمامة وقناة ، فكرهوا أن يسميها القناة تطيراً ، فأقاموها بين شجرتين من الزيتون متجاورتين ، وصعد رجل على فرع إحداهما فعقد اللواء والقناة قائمة ، وتبرك هو وولده بهذا اللواء ، فكان بعد أن بَلَغَ لا تُحَلَّ منه العقدة التي عقدت أولاً ، بل تُعقد فوقها الألوية الجدد ، وهي مستكنة تحتها ، ولم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت الدولة إلى عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وقيل : إلى ابنه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، فاجتمع الوزراء على تجديد اللواء ، فلما رأوا تحت اللواء أسماً لا تخلقه ملفوفة

معقدة جهلها فاسترذلوها ، وأمروا بحلّها ونَبَذَها ، وجدّوا غيرها ، وكان
 جهور بن يوسف بن بخت شيخهم غائباً ، فحضر في اليوم الثاني وطولع بالقصة ،
 فأنكرها أشدّ إنكار وساء ما فعلوه ، وقال : إن جهلهم شأن تلك الأخلاق فكان
 ينبغي أن تتوقفوا عن نَبَذِها حتى تسألوا المشايخ وتتفكروا في أمرها ، وخبرهم
 خبرها ، فطلبوا تلك الأخلاق فلم توجد ، ويقال كما قال ابن حيّان : إنّه
 لم يزل يعرف الوهّـن في ملك بني أميّة بالأندلس من ذلك اليوم ، وقد كان الذي
 عقده أولاً عبد الله بن خالد من موالي بني أميّة ، وكان والدهُ خالد عقد لواء
 مروان بن الحكم جدّ عبد الرحمن الأعلى لما اجتمع عليه بنو أميّة وبنو كلب
 بعد انقراض دولة بني حرّـب على قتال الضحّاك بن قيس الفهري يوم مَرَجٍ
 رَاهِطٍ ، فانتصر على الضحّاك وقتله ، ولما عرف الأمير بقصة اللّواء حزن أشدّ
 حزن ، وانفتقت عليه إثرَ ذلك الفُتُوقُ العظام ، وكانوا يرون أنّها جرت
 بسبب اللّواء لأنّه لم يهزم قط جيش كان تحته ، على ما اقتضته حكمة الله التي
 لا تتوصّل إليها الأفكار ، وتولى حمل هذا اللّواء لعبد الرحمن الداخل أبو
 سليمان داود الأنصاري ، ولم يزل يحمله ولده من بعده إلى أيّام محمد بن عبد
 الرحمن .

ولمّا تلاقى عبد الرحمن الداخل مع أمير الأندلس يوسف الفهري بالقرب
 من قُرْطُبة وتراسلا ، فخادعه يومين آخرهما يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين
 ومائة ، أظهر عبدُ الرحمن قبولَ الصلح ، فبات الناسُ على ذلك ليلة العيد ،
 وكان قد أسرَّ خلافَ ما أظهر ، واستعد للحرب ، ولمّا أصبح يوم الأضحى لم
 يَنْشَبْ أن غشيت الخيلُ ، ووكلَ عبد الرحمن بخالد بن زيد الكاتب رسولَ
 يوسف جماعةً ، وأمرهم إن كانت الدائرة عليهم أن يضربوا عنقه ، وإلاّ فلا ،
 فكان خالد يقول : ما كان شيء في ذلك الوقت أحبّ إليّ من غلبة عبد الرحمن
 الداخل عدوّ صاحبي ، وركب عبد الرحمن جواداً ، فقالت اليمانية الذين أعانوه :
 هذا فتى حديثُ السنّ تحته جواد وما نأمن أولَ رَدْعَةٍ يردعها أن يطير منهزماً

على جواده ويدعنا ، فأنتى عبدَ الرحمن أحدُ مواليه فأخبره بمقاتلتهم ، فدعا أبا الصباح ، وكان له بغلٌ أشهبٌ يسمّيه الكوكب ، فقال له : إن فرسي هذا قتلتي تحتي ، لا يمكنني من الرمي ، فقدّم^١ إليّ بغلك المحمود أركبه ، فقدّمه ، فلمّا ركب اطمأنّ أصحابه ، وقال عبد الرحمن لأصحابه : أي يوم هذا ؟ قالوا : الخميس يوم عرفة ، فقال : فالأضحى غداً يوم الجمعة ، والمتزاحقان أموي وفهري ، والجنندان قيس ويمن ، قد تقابل الأشكال جدّاً ، وأرجو أنّه أخو يوم مرّج راهط ، فأبشروا وجِدُّوا ، فذكرهم يوم مرّج راهط الذي كانت فيه الوقعة بين جده مروان بن الحكم وبين الضحّاك بن قيس الفهري ، وكانت يوم الجمعة ويوم أضحى ، فدارت الدائرة لمروان على الضحّاك ، فقتل الضحّاك ، وقتل معه سبعون ألفاً من قبائل قيس وأحلافهم ، وقيل : إنّهُ لم يحضر مرّج راهط من قيس مع مروان غير ثلاثة نفر : عبد الرحمن^١ بن مسعدة الفزاري ، وابن هبيرة المحاربي ، وصالح الغنوي ، وكذا لم يحضر مع عبد الرحمن الداخل يوم المصارة غربي قرطبة من قيس غير ثلاثة : جابر بن العلاء بن شهاب ، والحسين بن الدجن ، والعقيليان ، وهلال بن الطفيل العبدي ، وكان الظفر لعبد الرحمن ، وانهزم يوسف ، وصبر الصّميل بن حاتم بعده معزراً وعشيرته يحفونه ، فلمّا خاف انهزامهم عنه تحول على بغله الأشهب معارضةً لعبد الرحمن الداخل ، فمرّ به أبو عطاء فقال له : يا أبا جوشن ، احتسب نفسك ، فإنّ للأشباه أشباهاً : أموي بأموي ، وفهري بفهري ، وكلبي بكلبي ، ويوم أضحى بيوم أضحى ، ويمني بقيسي ، والله إنّني لأحسبُ هذا اليوم بمثل مرّج راهط سواء ، فقال له الصّميل : كبرت وكبر علمك ، الآن تنجلي الغمائم ، وسحرك^٢ متنفخ ، فأنثى أبو عطاء لوجّهه منقلباً ، وانهزم الصّميل ، وملك عبد الرحمن قرطبة .

١ دوزي : عبد الله .

٢ السحر : الرثة .

ويوسف الفهري هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع الفهري ، باني القيروان ، وأمير معاوية على إفريقية والمغرب ، وهو مشهور . وأما الصُّمَيْل فهو ابن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن ، وقيل : الصمَيْل بن حاتم بن عمرو بن جُنْدَع بن شمر بن ذي الجوشن ، كان جدّه شمر من أشراف الكوفة وهو أحد قتلة الحسين ، رضي الله تعالى عنه ، ودخل الصُّمَيْل الأندلس حين دخل كُثُوم بن عياض المغرب غازياً ، وساد بها ، وكان شاعراً كثير السكر أُمِّيّاً لا يكتب ، ومع ذلك فانتَهت إليه في زمانه رئاسة العرب بالأندلس ، وكان أميرها يوسف الفهري كالمغلوب معه ، وكانت ولاية الفهري الأندلس سنة تسع وعشرين ومائة ، فدانت له تسع سنين وتسعة أشهر ، وعنه كما مرّ انتقل سلطانها إلى بني أُمِيّة ، واستفحل مُلْكُهم بها إلى بعد الأربعمائة ، ثم انتثر سلْكُهم ، وباد ملكهم ، كما وقع لغيرهم من الدول في القرون السالفة ، سُنّة الله التي قد خلت في عبادته .

وكانت مدّة الأمراء قبل عبد الرحمن الداخل من يوم فُتحت الأندلس إلى هزيمة يوسف الفهري والصُّمَيْل ستّاً وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام ، لأن الفتح كان حسبما تقدم لحمس خَلَوْنَ من شَوّال سنة اثنتين وتسعين ، وهزيمة يوسف يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحِجّة سنة ثمان وثلاثين ومائة ، والله غالب على أمره .

وحكي أن عبد الرحمن بن معاوية دخل يوماً على جده هشام ، وعندهُ أخوه مَسْلَمَة بن عبد الملك ، وكان عبد الرحمن إذ ذاك صبيّاً ، فأمر هشام أن يُنَحَّى عنه ، فقال له مَسْلَمَة : دعه يا أمير المؤمنين ، وضمّه إليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، هذا صاحب بني أُمِيّة ، وَوَزَّرَهُم عند زوال ملكهم ، فاستَوْصِرْ به خيراً ، قال : فلم أزل أعرف مزيةً من جدي من ذلك الوقت .

وكان الداخل يقاس بأبي جعفر المنصور في عزمه وشدّته وضبط المملكة ، ووافقه في أن أُمّ كل منهما بربرية ، وأن كلاّ منهما قتل ابن أخيه ، إذ قتل

المنصور ابن السفاح ، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية .
ومن شعر عبد الرحمن وقد رأى نخلة برُصافته^١ :

تبدَّتْ لنا وَسَطَ الرصافةِ نخلةٌ تناءتْ بأرضِ الغربِ عن بلدِ النخلِ
فقلتُ شبيهي في التغرُّبِ والنَّوى وطولِ اكتئابي عن بنيِّ وعن أهلي
نشأتْ بأرضٍ أنتَ فيها غريبةٌ فمثلك في الإقصاءِ والمتأى مثلي
سقتك غَوادي المزنِ في المتأى الذي يسحُّ ويستمرِّي السماكين^٢ بالوبلِ

وكان نقش خاتمه « بالله يثق عبد الرحمن ، وبه يعتصم » . وأشاع سنة ١٦٣
الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بني العباس ، وكاتب جماعة من أهل بيته ومواليه
وشييعته ، وعمل على أن يستخلف ابنه سليمان بالأندلس في طائفة ، ويذهب بعامة
مَنْ أطاعه ، ثم أعرض عن ذلك بسبب أمر الحسين^٣ الأنصاري الذي انتزى
عليه بسرْقُسطه ، فبطل ذلك العزم .

ومن شعر عبد الرحمن أيضاً قوله يتشوق إلى معاهد الشام^٤ :

أيتها الراكبُ الميممُ أرضي اقترَ مِنِّي بعض السلامِ لبعضي
إنَّ جسمي كما علمتَ بأرضٍ وفؤادي ومالكيه بأرض
قدَّرَ البينُ بيننا فافترقنا وطوى البينُ عن جفوني غمضي
قدَّ قَضَى الله بالفراقِ علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وترجمة الداخل طويلة ، وقد ذُكر منها ما فيه مقنع ، انتهى ؛ والله تعالى
الموفق للصواب .

١ انظر ابن عذاري ٢ : ٦٢ والخلة السراء : ٣٧ .

٢ المقتطفات و ق : يصح ويستمرِّي المساكين .

٣ المقتطفات و ق : الحسن ؛ وقد تقدم ذكره باسم « الحسين » .

٤ تقدمت هذه الأبيات ص : ٣٨ .

وفي بنائه جامع قرطبة يقول بعضهم :

وأبرزَ في ذات الإلهِ ووجهه ثمانين ألفاً من لُجَيْنٍ وعَسْجِدٍ
وأنفقها في مسجدٍ زانهُ الثُّقَى وقرَّ به دينُ النبي محمدٍ
ترى الذهب الوهاج بين سموكه يلوحُ كلمح البارق المتوقدِ

٣٣ - ومن الوافدين على الأندلس أبو الأشعث الكلبي^١ ، دخل الأندلس ، وكان شيخاً مُسنّاً يروي عن أمه عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، إلا أنه كان مُندراً صاحب دُعابة ، وكان مختصاً بعبد الرحمن بن معاوية ، وله منه مكانة لطيفة يُدلُّ بها عليه ، ولما توفي حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد ابن عبد الملك بن مروان ، وكانت له من عبد الرحمن خاصّة لم تكن لأحد من أهل بيته ، جعل عبد الرحمن يبكي ويحتهد في الدعاء والاستغفار لحبيب ، وكان إلى جنبه أبو الأشعث هذا قائماً ، وكانت له دالّة عليه ودُعابة يحتملها منه ، فأقبل عند استعاره كالمخاطب للمتوفى علانية يقول : يا أبا سليمان ، لقد نزلت بحُفْرة قلما يغني عنك فيها بكاء الخليفة عبد الرحمن بَعْرَةً ، فأعرض عنه عبد الرحمن ، وقد كاد التبسّم يغلبه ؛ هكذا ذكره ابن حيّان رحمه الله تعالى في «المقتبس» ، ونقله عنه الحافظ ابن الأبار .

٣٤ - ومن الداخلين إلى الأندلس جُزَيُّ بن عبد العزيز^٢ ، أخو عمر بن عبد العزيز ، رضي الله تعالى عنه ؛ دخل الأندلس ، ومات في مدّة الداخل ، وكان من أولياء الله تعالى مقتفياً سبيل أخيه عمر بن عبد العزيز ، رحمهما الله تعالى .

١ انظر التكملة : ٢١٣ والنقل عنه حرفي دون إخلال أو إيجاز . والترجمة في «المقتطفات» :

١٢٣ ، وفي ق : أبو الأشعث الكلبي .

٢ الجمهرة : ١٠٥ وقال ابن حزم : ولجزي عقب بقرطبة ؛ وترجمته في الجذوة : ١٧٨ (وبنية الملتمس رقم : ٦٢٧) .

٣٥ - ومنهم بكر بن سَوَادَةَ بن ثُمَامَةَ ، الجُدَامِي ^١ ويكنى أبا ثُمَامَةَ ،
 وجدّه صحابي ، وكان بكر هذا فقيهاً كبيراً من التابعين ، روى عن جماعة من
 الصحابة كعبد الله بن عمرو بن العاص وقيس بن سعد بن عبادة وسَهْلُ بن سعد
 السَّاعِدِي وسفيان بن وهب الخَوْلَانِي وَحِبَّان بن سَمَح الصَّدَائِي ، - وقيد اسمه
 الدارقطني رحمه الله تعالى حِبَّان ، بكسر الحاء المهملة ، وباء معجمة بواحدة ،
 ونقله الأمير كذلك ، وهو ممتن وقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 وشهد فتح مصر ، قال ابن يونس : ويقال فيه حِبَّان بالكسر ، وَحِبَّان بالفتح
 أصح ، انتهى ، وضبطه بعضهم بالياء المثناة تحت - .

رجع - وممن روى عنه بكر من الصحابة أبو ثور الفَهْمِي ، وأبو عميرة
 المزني ، وروى عن جماعة من التابعين أيضاً كسعيد بن المسيب وأبي سلمة
 ابن عبد الرحمن وعُروَةَ بن الزبير وجماعة سواهم يكثر عددهم ويطول سرُّدُهم ،
 منهم ربيعة بن قيس الجملي وأبو عبد الرحمن الحُبلي وزياد بن نعيم الحضرمي
 وسفيان بن هانئ الجيشاني وسعيد بن شمر السبائي وعبد الله بن المستورد بن
 شداد الفِهْرِي وعبد الرحمن بن أوس المزني وزيادة بن ثعلبة البَلَكَوِي وشيبان بن
 أمية القَتَبَانِي وعامر بن ذريح الحميري وعمير بن الفيض اللخمي وأبو حمزة
 الخَوْلَانِي وعياض بن فروخ المَعَاوِي ومسلم بن مخشي المدُبْجِي ^٢ وهانئ بن معاوية
 الصدي وغيرهم ممن اشتمل على ذكرهم التاريخان لابن عبد الحكم وابن يونس .
 وممن روى عن بكر المذكور عبد الله بن لهيعة وعمرو بن الحارث وجعفر
 ابن ربيعة وأبو زُرْعَةَ ابن عبد الحكم الإفريقي وغيرهم .

قال ابن يونس : توفي بإفريقية في خلافة هشام بن عبد الملك ، وقيل : بل

١ انظر ترجمته في الجذوة : ١٦٩ (وبغية الملتبس رقم : ٥٨٦) ورياض النفوس ١ : ٧٤ ومعالم

الإيمان ١ : ١٦٠ .

٢ ق : المرجعي ؛ ولم ينسبه الذهبي في ميزان الاعتدال (١ : ١٠٧) وقال : تفرد بحديث الفراسي

في ماء البحر ؛ ما حدث عنه غير بكر بن سودة .

غرق في مجاز الأندلس ، سنة ثمان وعشرين ومائة ، قال : وجدّه ثُمَامَة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وله بمصر حديث رواه عمرو بن الحارث .

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد القيرواني المالكي في تاريخه المسمّى بـ «رياض النفوس» وقد ذكر بكرةً هذا : إنّه كان أحد العشرة التابعين ، يعني الموجهين إلى إفريقية من قبل عمر بن عبد العزيز في خلافته ليفقهوا أهل إفريقية ويعلموهم أمر دينهم ، قال : وأغرب بحديث عن عقبة بن عامر ، لم يروه غيره فيما علمت ، حدّث عبد الله بن لهيعة عنه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إذا كان رأس مائتين فلا تأمر بمعروف ، ولا تنه عن منكر ، وعليك بحصّة نفسك » ، وحكى المالكي أيضاً عن أبي سعيد بن يونس قال : كان فقيهاً مفتياً ، سكن القيروان ، وكانت وفاته كما تقدم ، وذكره الحميدي في الداخلين إلى الأندلس ، ولم يذكره ابن الفرضي .

٣٦ - ومنهم رزّيق بن حُكَيْم^١ ، أحد المعلومين في الداخلين إلى الأندلس ، ذكره أبو الحسن ابن النعمة عن أبي المطرف عبد الرحمن بن يوسف الرفاء القرطبي ، وحكى أنّه كتب ذلك من خطّه ، وسمّاه مع جماعة منهم حبان بن أبي جبلة وعلي بن أبي رباح وأبو عبد الرحمن الحُبلي وحنش بن عبد الله الصنعاني ومعاوية ابن صالح وزيد بن الحباب العكلي ، وانتهى عددهم برزّيق هذا سبعة ، ولم يذكره ابن الفرضي ولا غيره ، قاله الحافظ أبو عبد الله القضاعي .

٣٧ - ومنهم زيد بن قاصد السكسكي^٢ . قال ابن الأبار : وهو تابعي ، دخل الأندلس وحضر فتحها ، وأصله من مصر ، يروي عن عبد الله بن عمرو

١ ق : زريق ؛ وأثبت ابن الأبار في حرف الراء « رزّيق » (التكملة : ٣٢٤) وكذلك سماه الذهبي في المشتبّه : ٣١٢ واسم والده مصفر أيضاً ؛ وما أورده المقرئ في ترجمته منقول عن ابن الأبار .
٢ التكملة : ٣٣٠ والجذوة : ٢٠٤ (وبغية الملتبس رقم : ٧٥٧) .

ابن العاص رضي الله تعالى عنه ، وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي ، ذكره يعقوب بن سفيان ، وأورد له حديثاً ؛ من كتاب الحميدي ^١ ، انتهى .

٣٨ - ومنهم زرعة بن روح الشامي ^٢ ؛ دخل الأندلس ، وحدّث عنه ابنه مسلمة بن زرعة بحكاية عن القاضي مهاجر بن نوفل .

٣٩ - ومنهم محمد بن أوس بن ثابت ، الأنصاري ^٣ ، قال ابن الأبار : تابعي ، دخل الأندلس ، يروي عن أبي هريرة ، قرأته بخط ابن حبيش ، وقال أبو سعيد ابن يونس مؤرخ مصر : إنّه يروي عنه الحارث بن يزيد ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان ، وكان غزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير ، ويروي عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ وقال الحميدي : إنّه كان من أهل الدين والفضل معروفاً بالفقه ، وليَ بحر إفريقية سنة ثلاث وتسعين ، وغزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير ، فيما حكاها ابن يونس صاحب تاريخ مصر ، وكان على بحر تونس سنة ثنتين ومائة على ما حكاها عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم . ولما قُتل يزيد بن أبي مسلم والي إفريقية اجتمع رأيُ أهلها عليه ، فولوه أمرهم ، وذلك في خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان ، إلى أن ولي بشر بن صفوان الكلبي إفريقية ، وكان على مصر فخرج إليها واستخلف أخاه حنظلة ، انتهى .

٤٠ - ومنهم عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم ، الأموي ^٤ ، فرّ من الشام خوفاً من المسودة ، فمر بمصر ومضى إلى الأندلس ، وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، فأكرمه ونوّه به ، وولاه إشبيلية لأنّه

١ يريد ابن الأبار أنه نقل هذه الترجمة من كتاب الحميدي (جذوة المقتبس) .

٢ انظر التكملة : ٣٣٦ .

٣ ترجمته في التكملة : ٣٥٤ وجذوة المقتبس : ٤٢ (وبغية الملتبس رقم : ٦٧) .

٤ ترجمته في الحلة السراء : ١ : ٥٦ والمقتطفات : ١٢٣ .

كان قُعدد بني أمية ، ثمَّ إنَّه لما وجد الداخل يدعو لأبي جعفر المنصور أشار عليه بقطع اسمه من الخطبة ، وذكره بسوء صنيع بني العباس ببني أمية ، فتوقف عبد الرحمن في ذلك ، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له ، وذلك أنَّه قال له حين امتنع من ذلك : إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسي ، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة بالمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر ، ولما زحف أهل غرب الأندلس نحو قرطبة لحرب الأمير عبد الرحمن أنهض إليهم عبد الملك هذا ، فنهض في معظم الجيش ، وقدم ابنه أمية أمامه في أكثر العساكر ، فخالطهم أمية ، فوجد فيهم قوَّة ، فخاف الفضيحة معهم ، فانحاز منهزماً إلى أبيه ، فلمَّا جاءه سقِطَ في يده ، وقال له : ما حملك على أن استخففت بي وجرأت الناس عليَّ والعدوَّ ؟ إن كنتَ قد فررت من الموت فقد جئتَ إليهِ ، فأمر بضرب عنقه ، وجمع أهل بيته وخاصته وقال لهم : طُردنا من الشرق إلى أقصى هذا الصقع ، ونحسد على لقمة بقي الرمتق ، اكسروا جفون السيوف ، فالموت أولى أو الظفر ، ففعلوا وحملوا ، وتقدمهم ، فهزم اليمانية وأهل إشبيلية ، ولم تقم بعدها لليمانية قائمة ، وقتل بين الفريقين ثلاثون ألفاً ، وجرح عبد الملك ، فأتاه عبد الرحمن وجرحه يجري دمًا وسيفه يقطر دمًا ، وقد لصقت يده بقائم سيفه ، فقَبَّل بين عينيه ، وجزَّاه خيرًا ، وقال له : يا ابن عمِّ ، قد أنكحتُ ابني وولي عهدي هشامًا ابنتك فلانة ، وأعطيتها كذا وكذا ، وأعطيتك كذا ، ولأولادك كذا ، وأقطعتك وإياهم كذا ، ووليتكم الوزارة .

ومن شعره لما نظر نخلة منفردة بإشبيلية فتذكر وطنه بالشام ، وقال ^١ :

١ نسب ابن الأبار هذه الأبيات لعبد الرحمن الداخل (الحلة : ٣٧) ثم قال : وقد قيل إن الأبيات الأربعة الأولى (تبديت لنا وسط الرصافة نخلة . . .) لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك ، وقيل في الأبيات الأخيرة (يا نخل أنت غريبة . . .) إنها لعبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم ؛ ثم عاد فذكر أن هناك ما يقوي نسبتها إلى عبد الرحمن .

يا نَخْلَ أَنْتَ فَرِيدَةٌ مِثْلِي فِي الْأَرْضِ نَائِيَةٌ عَنِ الْأَهْلِ
تَبْكِي وَهَلْ تَبْكِي مَكْمَمَةً عَجَمَاءَ لَمْ تُجَبِّلْ عَلَى جَبَلِي
وَلَوْ أَنَّهَا عَقَلَتْ إِذَا لَبَكَتْ مَاءَ الْفُرَاتِ وَمَنْبَتِ النَّخْلِ
لَكُنْهَا حُرِمَتْ وَأُخْرِجَنِي بَغْضِي بَنِي الْعَبَّاسِ عَنْ أَهْلِي

٤١ - ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس هاشم بن الحسين بن إبراهيم ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين . ونزل حين دخوله بلبلّة ، وتُعرف منازلهم فيها بمنازل الهاشمي ، وذكره أمير المؤمنين الحكم المستنصر في كتابه « أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب » .

٤٢ - ومن الداخلين إلى الأندلس عبد الله بن المغيرة ، الكنافي ^١ ، حليف بني عبد الدار ، سماه أبو محمد الأصيلي الفقيه في الداخلين الأندلس من التابعين ، حكى ذلك عنه أبو القاسم ابن بشكّو^٢ال في مجموعته المسمى بـ « التنبيه والتعيين » ، قال ابن الأبار : وما أراه يُتَابَع عليه ؛ وذكره أبو سعيد ابن يونس من أهل إفريقية ، انتهى ، وذكر أنّه يروي عن سفيان بن وهب الخولاني .

٤٣ - ومنهم عبد الله المعمر ^٢ الذي طرأ على الأندلس في آخر الزمان ، وكان يزعم أنّه لقي بعض التابعين . قال ابن الأبار : روى عنه أبو محمد أسد الجهنّي ، ذكر ذلك القَبْشِيّ ، وفيه عندي نظر ، انتهى .

٤٤ - ومنهم أبو عمرو عبد الرحمن بن شماسه بن ذئب ، المهري ^٣ ، روى عن أبي ذر ، وقيل : عن أبي نضرة عن أبي ذر ، وعائشة وعمرو بن العاص

١ ترجمته في التكملة : ٧٧٢ .

٢ التكملة : ٩١٢ .

٣ ترجمته في التكملة رقم : ١٥٢٥ ، وفيه « ابن ذؤيب » .

وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وأبي نضرة الغفاري^١ وعقبة بن عامر الجهني وعوف ابن مالك الأشجعي ، ومعاوية بن حُديج ومسلمة بن مخلد وأبي رهم ، ذكره ابن يونس في تاريخ مصر ، وسمّاه ابن بَشْكُوَال في الداخلين الأندلس من التابعين ، وروى ذلك عن الحُمَيْدي ، قاله ابن الأبار ؛ وقال ابن يونس : وآخر من حدّث عنه بمصر حرملة بن عمران .

٤٥ — ومن الداخلين إلى الأندلس من المشرق عبد الله بن سعد بن عمّار ابن ياسر^٢ ، رضي الله تعالى عنه ، وقد ذكره ابن حيّان في مقتبسه ، وأخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفهري كتب له أن يدافع عبد الرحمن المرواني الداخل للأندلس ، وكان المذكور إذ ذاك أميراً على اليمانية من جند دمشق ، وإنّما ركنَ إليه في محاربة عبد الرحمن لما بين بني عمّار وبني أميّة من الثأر بسبب قتل عمّار بصيفين ، وكان عمّار رضي الله تعالى عنه من شيعة علي ، كرّم الله وجهه .

وهذا عبد الله بن سعد هو جدُّ بني سعيد أصحابِ القلعة الذين منهم عدّة رؤساء وأمراء وكتاب وشعراء ، ومنهم صاحب « المغرب » وغير واحد ممّن عرفنا به في هذا الكتاب ، ومن مشاهيرهم أبو بكر محمد بن سعيد بن خلف ابن سعيد صاحب أعمال غرناطة في مدة الملتّمين ، قال : وهو القائل يفتخر^٣ :

إن لم أكنْ للعلاء أهلاً بما تراهُ فمن يكونُ
فكلُّ ما أبتغيه دوني ولي على همّتي ديونُ
ومن يرّمُ ما يقلُّ عنه فذاك من فعله جنونُ

١ التكملة : أبي بصرة ؛ وذكر صاحب الأغاني أن أبا بصرة الغفاري المحدث هو والد عزة صاحبة كثير ؛ قال : واسمه صميل بن وقاص (٩ : ٢٤) .

٢ انظر ما تقدم : ج ٢ : ٣٣٠ .

٣ مرت هذه الأبيات والتي تليها ، ج ٢ : ص ٣٣١ من هذا الكتاب .

فرعٌ بأفقِ السماءِ سامٍ وأصلُهُ راسخٌ مَكِينُ

وقوله :

اللهُ يعلمُ أنِّي أحبُّ كَسْبَ المعالي
وإنَّما أتَوَانِي عَنْهَا لسوءِ المَالِ
تحتاجُ للكَدِّ والبَذْلِ واصْطِناعِ الرجالِ
دعْ كلَّ مَنْ شاءَ يسمو لها بكلِّ احتِيَالِ
فحالُهُمْ في انعكاسٍ بها وحاليَ حالي

وتراجمهم واسعة ، وقد بَسِطَتْ في « المسهب » و « المغرب » وغيرهما ، وقد قدمنا في الباب قبل هذا من أخبار بني سعيد هؤلاء ما يُشْلج الصَّدْرَ فليراجع .

٤٦ - ومن الواقدين على الأندلس من المشرق أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر بن إسحاق بن عمرو بن مزاحم بن غياث ، التميمي ، البخاري ^١ ، الحافظ ، نزيل مصر .

سمع ببُخارى بلده من إبراهيم بن محمد بن يزداد وأخيه أحمد ، وكانا يرويان معاً عن عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي وعن أبي الفضل السليماني ببكند ، وأبي عبد الله محمد بن أحمد المعروف بغُنْجار ، وأبي يعلى حمزة بن عبد العزيز المهلبى وأقرانه باليمن ، وأبي القاسم تمام بن محمد الرازي بدمشق ، وابن أبي كامل بأطرابلس الشام ، وأبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ بمصر ، وله رواية عن أبي نصر الكلاباذي وأبي عبد الله الحاكم وأبي بكر بن فُورَك المتكلم وأبي العباس ابن الحاج الإشبيلي وأبي القاسم علي بن أحمد الخُزاعي صاحب الهيثم ابن كليب وأبي الفضل العباس بن محمد الحدَّاد التنيسي وأبي الفتح محمد بن إبراهيم الجحدري وأبي بكر محمد بن داود العسقلاني وهلال الحفار وصدقة بن محمد

١ ترجمته في التكملة رقم : ١٦٧١ .

ابن مروان الدمشقي ، ولقي بإفريقية العابد وليّ الله سيدي محرز بن خلف التميمي مولاهم وصحبته ، وقال : لقد هبته يوم لقيته هيبة لم أجدها لأحد في نفسي من الناس ، ودخل الأندلس وبلاد المغرب ، وكتب بها عن شيوخها ، ولم يزل يكتب إلى أن مات حتى كتب عمن دونه ، وله « رسالة الرحلة » وأسبابها وقول لا إله إلاّ الله وثوابها » ، فسمع منه أبو عبد الله الرازي وذكره في مشيخته ، قال الحافظ ابن الأبار : ومنها نقلت اسمه وتعرفت دخوله الأندلس ، وحدث عنه هو وجماعة منهم أبو مروان الطنبلي - وقال : هو من الرحالين في الآفاق ، أخبرني أنه يحدث عن مئين من أهل الحديث - وأبو عبد الله الحميدي وأبو بكر [جماهر بن عبد الرحمن]^٢ الطلّيطلي وأبو عبد الله ابن منصور الحضرمي وأبو سعيد الرهاوي وأبو محمد جعفر بن محمد السراج وأبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي وأبو الحسن ابن مشرف الأنماطي وأبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي وأبو محمد شعيب بن سبعون الطرطوشي وأبو بكر ابن نعمة العابد^٣ وأبو الحسن علي بن الحسين الموصلي الغراف^٤ ، وأبو عثمان سعد بن عبد الله الحيدري من شيوخ السلفي ، وأبو محمد عبد الكريم بن حمزة بن الخضر السلمي ، وأبو إسحاق الكلّاعي من شيوخ أبي بحر الأسدي ، وأبو محمد ابن عتاب كتب إليه بجميع ما رواه ولم يعرف ذلك في حياته . وسمّاه أبو الوليد ابن الدباغ في الطبقة العاشرة من طبقات أئمة المحدثين من تأليفه ، مع أبي عمر ابن عبد البر وأبي محمد ابن حزم وأبي بكر ابن ثابت الخطيب ، وذكره أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه ، وقال : سمع بما وراء النهر والعراق ومصر واليمن والقيروان ، ثم سكن مصر وقدم دمشق قديماً وحدث بها ، وسمى جماعة كثيرة من الرواة عنه ، وحكى أنه قال : لي ببخارى أربعة عشر ألف جزء حديث أريد أن أمضي وأجيء بها ،

١ التكملة : رسالة الرحمة .

٢ زيادة من التكملة . ٣ دوزي : العابر .

٤ التكملة : الغراء .

قال : وسئل عن مولده ، فقال : في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ، قال : وتوفي بالحروراء سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ، انتهى .

قلت : والذي أعتقده أنه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظ منه للحديث ، وهو ثقة عدل ليس له مجازفة ، والحق أبلغ .

٤٧ - وممن دخل الأندلس من المشرق عبدُ الجبار بن أبي سلمة الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف ، القرشي ، الزهري^١ ، دخل الأندلس مع موسى بن نُصَيْر ، وكان على مَيْسَرَة معسكره ، ونزل باجّة^٢ ثم بَطْلَيْوْسَ ، ومن نسله الزُّهْرِيّون الأشراف الذين كانوا بإشْبِيلِيَّةَ انتقلوا إلى سكناها قديماً ، هكذا في خبر القاضي أبي الحسين الزهري منهم عن أبي بكر ابن خير وغيره ، قال ابن بَشْكُوَال في مجموعته المسمّى بـ « التنبية والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين » : عبدُ الجبار بن أبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف من التابعين ، وقع ذكره في كتاب شيخنا أبي الحسن ابن مغيث ، انتهى . قال ابن الأبار : ولم يزد على هذا ، انتهى .

٤٨ - ومن الداخلين إلى الأندلس من المشرق أبو محمد عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الوهاب^٣ ، من أهل مصر ، وسكن بغداد ، ويُعرف بالطندتائي ، قرية بمصر نُسب إليها ، روى عن أبي محمد الشارماسحي ، وتفقه به ، وقدم الأندلس رسولاً بزعمه من عند الخليفة العباسي ، فسكن مُرْسِيَّةَ ودرس بها ، وخرج منها سنة اثنتين وأربعين وستمائة بعد أن تملكها النصاري صلحاً ، وأسر بناحية صقلية ، قال ابن الأبار : ثم بلغني أنه تخلص ولحق ببلده ، رحمه الله تعالى .

٤٩ - ومنهم عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب ، يكنى أبا القاسم . قال

١ ترجمته في التكملة رقم : ١٧٧٢ .

٢ ترجمته في التكملة رقم : ١٧٩٦ .

ابن الأبار^١ : لا أعرف موضعه من بلاد المشرق ، وكان أديباً قوي العارضة ، مطبوع الشعر ، مديد النفس . ومن شعره من قصيدة صنعها في وقت رحلته إلى الأندلس قوله :

على الذلّ أو فاحلّل عِقالَ الركائبِ وللضيمِ أو فاحلّل صدور الكتائبِ
فإمّا حياةٌ بعدَ إدراكِ مُنيّةٍ وإمّا مماتٌ تحتَ عزِّ القواضبِ
فما العيشُ في ظلِّ الهوانِ بطيّبٍ وما الموتُ في سُبُلِ العلّاءِ بعائبِ

٥٠ - ومنهم أبو محمد عبد اللطيف بن أبي الطاهر أحمد بن محمد بن هبة الله ، الهاشمي ، الصدي ، من أهل بغداد ، يُعرف بالنّرسي ، دخل الأندلس ، وكان يزعم أنّه روى عن أبي الوقت السّجزي وأبي الفرج الجوزي وغيرهما ، وله تأليف سمّاه « الدليل في الطريق من أقاويل أهل التحقيق » ذكره أبو عبد الله محمد بن سعيد الطراز وضعّفه بعدما سمع منه ، أخذ عنه وسمع منه هو وأبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم المغيلي وغيرهما ، وقال : ورد علينا غرناطة قريباً من سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وتوفّي ، عفا الله تعالى عنه ، بإشبيلية قريباً من هذا التاريخ ، وقال فيه أبو القاسم ابن فرقد : عبد اللطيف بن عبد الله الهاشمي البغدادي النّرسي ، منسوب إلى قرية من قرى بغداد ، سمع صحيح البخاري من أبي الوقت السّجزي ، وروى عن غيره ، وله تأليف ، قال ابن الأبار^٢ : في التصوّف ، منها تأليف في إباحة السماع ، قرأت عليه أكثره ، وقرأت عليه عوالي النقيب بمدينة إشبيلية بحومة القصر المبارك عام خمسة عشر وستمائة .

٥١ - ومنهم أبو بكر عمر بن عثمان بن محمد بن أحمد ، الخراساني ،

١ لم ترد ترجمته في كتاب التكملة المطبوع .

٢ لم يرد أيضاً في كتاب التكملة المطبوع .

الباخوزي ، الماليني ، يكنى أبا بكر^١ ، سمع من أبي الخير أحمد بن إسماعيل الطالقاني القزويني وأبي يعقوب يوسف بن عمر بن أحمد الخالدي الزنجاني ، وقدم الأندلس ، وحدث بصحيفتي الأشج وجعفر بن نسطور الرومي ، وسمع منه بغرناطة ومُرُسية وغيرهما من بلاد الأندلس ، وحدث عنه أبو القاسم الملاحي ، وسمع منه بمالقة أبو جعفر ابن عبد الجبار وأبو علي ابن هاشم في صفر سنة ٦٠٠ ، ومولده في ربيع الأول سنة ٥٦٠ ، انتهى من تكملة ابن الأبار^٢ . قلت : ولا يخفى على مَنْ له بصر بعلم الحديث أن الأشج وابن نسطور لا يلتفت إليهما ، ويرحم الله تعالى السلفي الحافظ إذ قال :

حديثُ ابنِ نسطورٍ وقيسٍ ويعنمٍ وبعد أشجَّ الغربِ ثم خراشٍ
ونسخةُ دينارٍ ونسخةُ تربيهِ أبي هُدْبَةَ القيسيِّ شبهُ فراشٍ

قال ابن عات : كان الحافظ السلفي إذا فرغ من إنشاد هذين البيتين ينفخ في يديه إشارة إلى أن هذه الأشياء كالريح ، انتهى .

٥٢ - ومن الوافدين على الأندلس من أهل المشرق علي بن بُنْدَار بن إسماعيل بن موسى بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك ، البرمكي ، من أهل بغداد ، قدم الأندلس تاجراً سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وكان قد أخذ عن أبي الحسن عبد الله بن أحمد بن محمد بن المغلس الفقيه الداودي ، وتكلم له ، وسمع منه « الموضح » و « المنجح » من تأليفه في الفقه ، وما تم له من أحكام القرآن ، هكذا نقله الحافظ ابن حزم عن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله المعني بهذا الشأن ، رحمه الله تعالى .

٥٣ - ومنهم أبو العلاء عبيد بن محمد بن عبيد ، أبو العلاء ، النيسابوري ،

١ انظر التكملة رقم : ١٨٣٠ .

٢ جاءت ترجمته في التكملة المطبوع ناقصة كثيراً عما أثبتته المقرئ .

لقيه الحافظ أبو علي الصدفي ببغداد وأخذ عنه إذ قدمها حاجتاً ، وهو يحدث عن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد البصري ، قال أبو علي : وأراه دخل الأندلس ، ويغلب على ظني أنني لقيته بسرّ قسطة ، ذكر ذلك القاضي عياض في « المعجم » من تأليفه ، والله تعالى أعلم .

٥٤ - ومنهم سهل بن علي بن عثمان ، التاجر ، النيسابوري ، يكنى أبا نصر^١ ، سمع جماعة من الخراسانيين وغيرهم ، منهم أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي وأبو الفتح السمرقندي ، وأدرك الإمام أبا المعالي الجويني ، وحضر مجلسه ودرسه ، ولقي بعده أصحابه القشيري والطوسي وغيرهما ، وكان شافعي المذهب ، ذكره عياض وقال : حدثني بحكايات وفوائد ، وأنشدني لأبي طاهر السلفي ، وأجازني جميع رواياته وحدثني أن وفاة أبي المعالي كانت بنيسابور سنة خمس أو أربع وسبعين وأربعمائة ، وقال أبو محمد العثماني : أنشدني أبو نصر سهل بن علي النيسابوري الحقواني قال : أنشدنا أبو الفتح نصر ابن الحسن ، أنشدنا أبو العباس العذري ، قال : أنشدنا أبو محمد ابن حزم الحافظ لنفسه :

ولما رأيت الشيبَ حلَّ مفارقي نذيراً بيترحالِ الشبابِ المفارقِ
رجعتُ إلى نفسي فقلتُ لها انظري إلى ما أتى ، هذا ابتداء الحقائقِ
دعي دَعَوَاتِ اللّهُ قد فاتَ وقتها كما قد أفات الليلَ نورُ المشرقِ
دعي منزلَ اللذاتِ ينزلُ أهله وجِدِّي لما ندعى إليه وسابقي

قال عياض : توفي سهل هذا غريقاً في البحر منصرفاً إلى بلده من المرية ، رحمه الله تعالى^٢ .

١ ترجمة أبي نصر النيسابوري في التكملة رقم : ٢٠٠٨ .

٢ زاد في التكملة : سنة ٥٣١ .

٥٥ - ومنهم أبو المكارم هبة الله بن الحسين ، المصري ^١ ، كان من أهل العلم ، عارفاً بالأصول ، حافظاً للحديث ، متيقظاً ، حسن الصورة والشارة ، دخل الأندلس ، وولي قضاء إشبيلية منها آخر شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة . قال ابن الأبار : وبه صُرف أبو القاسم الخولاني ، وأقام بها سنة ، وحضر غزوة شنترين ، وكان قدوم أبي المكارم هذا الأندلس خوفاً من صلاح الدين يوسف بن أيوب في قوم من شيعة العبّيدي ملك مصر ، ووفد أيضاً معه أبو الوفاء المصري ، ثم استصحبه أمير المؤمنين يعقوب المنصور معه في غزوة قفصة الثانية ، وولاه حينئذ قضاء تونس ، وكان قد ولي قضاء فاس ، وولي أيضاً أبو الوفاء صاحبه القضاء ، وتوفي وهو يتولى قضاء تونس سنة ست وثمانين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

٥٦ - ومنهم يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن عبد الله ، القيسي ، الدمشقي ^٢ ، أصله من دمشق ، وبها ولد ، ويُعرف بالأصبهاني في مجلس أبي طاهر السلفي لدخوله إياها وإقامته بها أزيد من خمسة أعوام لقراءة الخلافيات ، ويكنى أبا زكريا، وسمع بالمشرق أبا بكر ابن ماشاذه السكري وأبا الرشيد ابن خالد البيع وأبا الطاهر السلفي وغيرهم ، وقصد المغرب بعد أداء الفريضة فلقى ببجاية أبا محمد عبد الحق الإشبيلي ، وأجازه وحضّه على الوعظ والتذكير ، فامثل ذلك ، ودخل الأندلس ، وتجوّل ببلادها ، واستوطن غرناطة منها ، وكان فقيهاً على مذهب الشافعي ، عارفاً بالأصول والتصوف ، زاهداً ، ورعاً ، كثير المعروف والصدقة ، يعظ الناس ، ويسمع الحديث ، ولم يكن بالضابط فيما قاله الحافظ ابن الأبار ، قال : وله كتاب « الروضة الأنيقة » من تأليفه ، حدث عنه جماعة من الجلّة ، منهم أبو جعفر ابن عميرة ^٣ الضبي ، وابنا حَوْط الله أبو محمد وأبو

١ ترجمته في التكملة رقم : ٢٠٢٤ .

٢ التكملة رقم : ٢٠٧١ .

٣ ق : حميرة .

سليمان ، وأبو القاسم الملاحي ، وأبو العباس ابن الجيار ، وأبو الربيع ابن سالم ،
وقال : أنشدني عند توديعي إياه بغرناطة قال : سمعت بعض المذكورين ينشد :

يا زائراً زارَ وما زارا كأنّه مُقْتَبِسٌ نارا
مرَّ ببابِ الدارِ مستعجلاً ما ضرَّه لو دخل الدارا
نفسى فداء لك من زائري ما زار حتى قيل قد سارا

وسمع منه أبو جعفر ابن الدلال كتاب « المعالم » للخطّابي في شرح « سنن
أبي داود » بقراءة جميعه عليه .

ومولده في شوال سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وتوفي بغرناطة بعد أن
سكنها يوم الاثنين سادس شوال سنة ثمان وستمائة ، قال ابن الأبار : وفي هذا
اليوم بعينه كانت وفاة شيخنا أبي عبد الله ابن نوح ببلنسية ، رحمهما الله تعالى .

٥٧ - ومن الوافدين من المشرق إلى الأندلس إسماعيل بن عبد الرحمن بن
علي ، القرشي^١ ، من ذرية عبد بن زَمْعَة أخي سَوْدَة أم المؤمنين ، رضي الله
تعالى عنها ، رحل من مصر إلى الأندلس في زمن السلطان الحاكم المستنصر
بالله أعوام الستين وثلاثمائة حين ملك بنو عُبَيْد مصر وأظهروا فيها
معتقدهم الخبيث ، فحلَّ يومئذ من الحكم المستنصر محل الرحب والسعة ،
ولما ثارت الدولة العامرية أوى إلى إشبيلية ، وأوطنها داراً ، واتخذها قراراً ،
وبها لقيه أبو عمر ابن عبد البر علامة الأندلس فدرس عليه ، واقتبس ممّا لديه ،
وقد ذكره في تاريخ شيوخه ، ولم يزل عقبه بها إلى أن نجم منهم أبو الحسين سالم
ابن محمد بن سالم ، وهو من رجال « الذخيرة »^٢ وله نثر ، كما تفتح الزهر ،
وتدقق البحر ، ونظم كما اتسق الدرُّ ، وسفّرت عن محاسنها الأوجه الغرُّ ،

١ ترجمته في جذوة المقتبس : ١٥٣ (وبغية الملتبس رقم : ٥٤٥) .

٢ لم يرد اسمه في فهرست الذخيرة ١/١ : ١١ - ٢٠ .

فمن نظمه قوله :

خليلي ، هل ليلى ونجدٌ كمهدنا فيا حبّذا ليلى ويا حبّذا نجدُ
عسى الدهرُ أن يقضي لنا بالتفاته فيا ربّ قربٍ قد يجدّه بُعدُ
وله أثناء رسالة :

قوسُ العلّا وُضِعَتْ في كفّ بارِها وأسهم الخطبِ عادت نَحْوَ رامِها
ومنها :

وإنّما الشمسُ لاحت في مطالعها بلى وأجرى جياذ الخيل مُجرِها
ونشأ هذا النجم الثاقب ، والصيّب الساكب ، وقد أخذ من العلوم في غير
ما فن ، وحقق فيه كل ما ظن ، وذكره في « المسهب » و « سمط الجمان »
وفضله شهير ، رحمه الله تعالى .

٥٨ - ومنهم أبو علي القالي ، صاحب الأماشي والنوادر^١ ، وفد على الأندلس
أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن ، فأمر ابنه الحكم - وكان يتصرّف
عن أمر أبيه كالوزير - عاملهم ابن رماحس أن يبيح مع أبي علي إلى قرطبة ،
ويتلقّاه في وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكريمةً لأبي
علي ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل ، فكانوا يتذكرون الأدب
في طريقهم ، ويتناشدون الأشعار ، إلى أن تحاوروا يوماً وهم سائرون أدبَ
عبد الملك بن مروان ومساءلته جلساءه عن أفضل المناديل وإنشاده بيت عبدة
ابن الطيب^٢ :

١ انظر ترجمة القالي في طبقات الزبيدي : ٢٠٢ وابن الفرضي ١ : ٨٣ والحنوة : ١٥٤ (وبنية
الملمتن رقم : ٥٤٧) وفهرسة ابن خير ٣٩٥ وابن خلكان ١ : ٢٠٤ وإنباه الرواة ١ :
٢٠٤ ومعجم الأدباء ٧ : ٢٥ والشذرات ٣ : ١٨ ومعجم البلدان : (قالقلا) وبروكلمان
٢ : ٢٧٧ (الترجمة العربية) .
٢ البيت : ٥١ من المفضلية رقم ٢٦ .

ثُمَّتَ قُمْنَا إِلَى جُرْدٍ مَسُومَةٍ أَعْرَافُهُنَّ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلُ

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا علي ، فأنشد الكلمة في البيت « أعرافها لأيدينا مناديل » فأنكرها ابن رفاعة الإلبيري ، وكان من أهل الأدب والمعرفة ، وفي خلقه حرج وزعارة ، فاستعاد أبا علي البيت مثبتاً مرتين ، في كليهما أنشده « أعرافها » ، فلوى ابن رفاعة عِنانَه منصرفاً وقال : مع هذا يُوفَدَ على أمير المؤمنين وتُتَجَشَّم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه ؟ والله لا تتبعته خُطْوَةٌ ، وانصرف عن الجماعة ، ونَدَبَهُ أميره ابن رماحس أن لا يفعل ، فلم يجد فيه حيلة ، وكتب إلى الحكم يعرفه ويصف له ما جرى لابن رفاعة ويشكوه ، فأجابه على ظهر كتابه : الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطيء وافد أهل العراق إلينا ، وابن رفاعة أولى بالرضى عنه من السخط ، فدَعَهُ لِسَانَهُ ، واقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته ، فسوف يُعَلِّيه الاختبار إن شاء الله تعالى أو يحطّه .

وبعض المؤرخين يزعم أن وفادة أبي علي القالي إنما كانت في خلافة الحكم المستنصر بالأندلس ، لا في خلافة أبيه الناصر ، والصواب أن وفادته في أيام الناصر ، لما ذكره غير واحد من حَصَرِهِ وَعِيَهُ عن الخطبة يوم احتفال الناصر لرسول الإفرنج كما أَلْعَنَاهُ فِي غير هذا الموضع ^١ .

وفي القالي يقول شاعر الأندلس الرمادي ^٢ :

مَنْ حَاكَمَ بَيْتِي وَبَيْنَ عَدُولِي الشَّجُو شَجْوِي وَالْعَوِيلُ عَوِيلِي
فِي أَيِّ جَارِحَةٍ أَصُونُ مُعَدِّبِي سَلِمْتُ مِنَ التَّعْذِيبِ وَالتَّنْكِيلِ

١ انظر خبر الخطبة يوم وفادة رسل الفرنجة ج ١ ص : ٣٦٨ من هذا الكتاب ؛ وقد كان وصول أبي علي إلى الأندلس عام ٣٣٠ فلا خلاف بعد ذلك في أنه وصل أيام الناصر ، وسيدكر ذلك صاحب النفع .

٢ وردت أبيات الرمادي في اليتيمة ٢ : ١٠٠ والمطمح ٧٠ ومطلعها في الجدوة : ٣٤٧ .

إن قلت في بَصَرِي فثمَّ مدامعي أو قلت في قلبي فثمَّ غَلِيلِي
لكن جعلت له المِسامع موضعاً وحجبتها عن عدلِ كلِّ عدولِ

ولما سمع المتنبي البيت الثاني قال : يصونه في استه .

وكان الرمادي لما سمع قول المتنبي :

كفى بجسمي نحولاً أنِّي رجلٌ لولا مُخاطَبَتِي إِيَّاكَ لم تَرَنِي

قال : أظنه ضَرْطَةٌ ، والجزاء من جنس العمل .

وباسم أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله طرز الشيخ أبو علي القالي كتاب
« الأمالي » . وكان الحكم كريماً ، معنياً بالعلم ، وهو الذي وجّهه إلى الحافظ
أبي الفرج الأصبهاني ألفَ دينار على أن يوجهَ له نسخة من كتاب الأغاني ،
وألّف أبو محمد الفهرري كتاباً في نسب أبي علي البغدادي ورواياته ودخوله
الأندلس . وحكى ابن الطيلسان عن ابن جابر أنّه قرأ هذين البيتين في لوح رخام
كان سقط من القبة المبنية على قبر أبي علي البغدادي عند تدهمها ، وهما :

صِلُوا لحدّ قبري بالطريقِ وودّعوا فليس لمن وارى الترابُ حبيبُ
ولا تدفّنوني بالعرَاءِ فربّما بكى أن رأى قَبْرَ الغريبِ غريبُ

واسم أبي علي إسماعيل بن القاسم بن عيزون بن هارون بن عيسى بن محمد
ابن سليمان ، وجدّه سليمان مولى عبد الملك بن مروان ، وكان أبو علي أحفظَ
أهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين ، وأخذ الأدب عن أبي بكر ابن دُرَيْد
الأزدي وأبي بكر ابن الأنباري وابن دُرُسْتُوَيْه وغيرهم ، وأخذ عنه أبو بكر الزبيدي
الأندلسي صاحب « مختصر العين » ، ولأبي علي التصانيف الحسان كـ « الأمالي »
و « البارع » ، وطاف البلاد ، وسافر إلى بغداد سنة ٣٠٣ ، وأقام بالموصل
لسماع الحديث من أبي يعلى الموصلي ، ودخل بغداد سنة ٣٠٣ ، وأقام بها إلى
سنة ٣٢٨ ، وكتب بها الحديث ، ثم خرج من بغداد قاصداً الأندلس ، وسمع

من البغوي وغيره .

قال ابن خلكان : ودخل قرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلاثمائة ،

انتهى .

وهو ممّا يعين أنّه قدم في زمن الناصر ، لا في زمن ابنه الحكم كما تقدّم ، وقد صرح بذلك الصفدي في الوافي فقال : ولما دخل المغرب قصّد صاحب الأندلس الناصر لدين الله عبد الرحمن ، فأكرمه ، وصنّف له ولولده الحكم تصانيف وبث علومه هناك ، انتهى .

وقال ابن خلكان إنّه استوطن قرطبة إلى أن توفي بها في شهر ربيع الآخر ، وقيل : جمادى الأولى سنة ٣٥٦ ، ليلة السبت لست خلون من الشهر المذكور ، ودفن ظاهر قرطبة ، ومولده بمنازجيرد من ديار بكر سنة ٢٨٨ ، وقيل : سنة ٢٨٠ ، وإنّما قيل له « القالي » لأنّه سافر إلى بغداد مع أهل قاليقلا ، وهي من أعمال ديار بكر . وهو من محاسن الدنيا ، رحمه الله تعالى .

وعيدون : بفتح العين ، وسكون الياء المثناة التحتية ، وضم الذال المعجمة . وقال ابن خلكان في ترجمة ابن القوطية^١ : إن أبا علي القالي لما دخل الأندلس اجتمع به ، وكان يبالغ في تعظيمه ، قال له الحكم بن عبد الرحمن الناصر : من أنبل من رأيت ببلدنا هذا في اللغة ؟ فقال : محمد بن القوطية ، وكان ابن القوطية مع هذه الفضائل من العبّاد النساك ، وكان جيّد الشعر صحيح الألفاظ حسن المطالع والمقاطع إلّا أنّه تركه ورفضه ، وقال الأديب أبو بكر ابن هذيل^٢ : إنّه توجه يوماً إلى ضيعة له بسفح جبل قرطبة ، وهي من بقاع الأرض الطيبة

١ ابن خلكان ٤ : ٤ - ٦ وهناك ترجمات أخرى لابن القوطية في ابن الفرضي ٢ : ٧٨ والخزوة : ٧١ والديباج ٢٦٢ وإنباه الرواة ٣ : ١٧٨ وبغية الوعاة : ٨٤ ومعجم الأدباء ١٨ : ٢٧٢ .
٢ هو يحيى بن هذيل التميمي الشاعر الكفيف أستاذ الرمادي (انظر الخزوة : ٣٥٨ وبغية الملتبس رقم : ١٤٩٥) وله عدد صالح من الأشعار في كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني .

المؤنقة ، فصادف أبا بكر ابن القوطية المذكور صادراً عنها ، وكانت له أيضاً هناك ضيعة ، قال : فلمّا رأي عرج عليّ ، واستبشر بلقائي ، فقلت مداعباً له :

من أين أقبلت يا مَنْ لا شبيه لهُ ومن هو الشمس والدنيا له فلكُ

قال : فتبسم وأجاب بسرعة :

من منزل تُعجِبُ النساك خلوتُهُ وفيه ستر على الفتاك إن فتكوا

فما تمالك أن قبّلت يده ، إذ كان شيخياً ، ودعوت له ، انتهى .

وهو صاحب كتاب « الأفعال » الذي فتح فيه هذا الباب ، فتلاه ابن القَطّاع ، وله كتاب « المقصور والممدود » جمع فيه ما لا يحصى ولا يعد ، وأعجز مَنْ بعده به ، وفاق من تقدّمه ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

وممن أخذ عن أبي علي القالي بالأندلس أبو بكر محمد الزبيدي صاحب كتاب « مختصر العين » وغيره ، وكان الزبيدي كثيراً ما ينشد :

الفقرُ في أوطاننا غُرْبَةٌ والمالُ في الغربةِ أوطانُ
والأرضُ شيءُ كلُّها واحدٌ والناسُ إخوانٌ وجيرانُ

وترجمة الزبيدي واسعة^١ ، وكان مؤدب المؤيد هشام ، ووصفه بأنّه كان في صباه في غاية الخلق والذكاء ، رحمه الله تعالى .

وكان القالي قد بحث على ابن درُستُويه كتاب سيبويه ، ودقق النظر ، وانتصر للبصريين ، وأمل شيئاً من حفظه ككتاب « النوادر والأُمالي » ، و« المقصور والممدود » ، و« الإبل والحيل » ، و« البارع في اللغة » نحو خمسة آلاف

١ انظر ترجمة الزبيدي في الجذوة : ٤٣ وابن الفرضي ٢ : ٩٢ والمغرب ١ : ٢٥٠ واليتيمة ٢ : ٧١ وابن خلكان ٤ : ٧ وإنباه الرواة ٣ : ١٠٩ ومعجم الأدباء ١٨ : ١٨٠ والوافي ٢ : ٢٥١ وبنية الوعاة : ٣٤ وانظر كتاب الحركة اللغوية في الأندلس ففيه دراسة لأهم مؤلفاته .

ورقة ، لم يصنف مثله في الإحاطة والجمع ، ولم يتم ، ورتب كتاب « المقصور والممدود » على التفعيل ومخارج الحروف من الحلق مستقصى في بابيه لا يشذ منه شيء ، وكتاب « فعلت وأفعلت » وكتاب « مقاتل الفرسان » و « تفسير السبع الطوال » .

وكان الزبيدي إماماً في الأدب ، ولكنه عرف فضل القالي ، فمال إليه ، واختص به ، واستفاد منه ، وأقرّ له .

وكان الحكم المستنصر قبل ولايته الأمر وبعدها ينشط أبا علي ، ويعينه على التأليف بوسع العطاء ، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام ، وكانوا يسمّونه « البغدادي » لوصوله إليها من بغداد ، ويقال : إن الناصر هو الذي استدعاه من بغداد لولائه فيهم ، وفيه يقول الرمادي متخلصاً في لاميته السابق بعضها :

روضُ تعاَهْدُهُ السحابُ كَأَنَّهُ	متعاَهْدٌ من عهدِ إسماعيلِ
قَسَهُ إِلَى الْأَعْرَابِ تَعْلَمُ أَنَّهُ	أولى من الأعرابِ بالتفضيلِ
حَازَتْ قِبَالُهُمْ لُغَاتٍ فُرِّقَتْ	فيهم وحاز لغاتٍ كلّ قبيلِ
فَالشَّرْقُ خَالٌ بَعْدَهُ وَكَأَنَّمَا	نزل الخرابُ بربعه المأهولِ
فَكَأَنَّهُ شَمْسٌ بَدَتْ فِي غَرَبِنَا	وتغيّبتْ عن شرقهم بأفولِ
يَا سَيِّدِي هَذَا ثَنَائِي لَمْ أَقْلُ	زوراً ولا عرّضْتُ بالتنويلِ
مَنْ كَانَ يَأْمَلُ نَائِلًا فَأَنَا امْرُؤٌ	لم أرجُ غيرَ القربِ في تأميلي

وقد تقدمت أبيات القالي التي أجاب بها منذر بن سعيد في الباب قبل هذا ، فلتراجع ثمة ، والله تعالى أعلم .

٥٩ - ومن الوافدين إلى الأندلس من المشرق أبو العلاء صاعد بن الحسين

ابن عيسى البغدادي ، اللغوي ^١ .

١ ترجمة صاعد في الذخيرة ١/٤ : ٢ - ٣٩ وابن خلكان ٢ : ١٨١ وإنباء الرواة ٢ : ٨٥

وبنية الرواة : ٢٦٧ والجنوة : ٢٢٣ .

وأصله من الموصل ، قال ابن بسام^١ : ولما دخل صاعد قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر عزم المنصور على أن يعفّي به آثار أبي علي البغدادي الوافد على بني أمية ، فما وجد عنده ما يرتضيه ، وأعرض عنه أهل العلم ، وقدحوا في علمه وعقله ودينه ، ولم يأخذوا عنه شيئاً لقلة الثقة به ، وكان ألف كتاباً سماه كتاب « الفصوص » فدَحَضُوهُ ورفضوه ونبذوه في النهر ، ومن شعره قوله :

ومهفهف أبهى من القمر قهر الفؤاد بفاتين النظر
خالسته تَفَاحَ وجنته فأخذتها منه على غرر
فأخافني قومٌ فقلتُ لهم : لا قطع في ثمرٍ ولا كثرٍ

والكثَر : الجُمَارُ ، وهذا اقتباس من الحديث .

وقال الحميدي^٢ : سمعت أبا محمد ابن حزم الحافظ يقول : سمعت أبا العلاء صاعداً ينشد بين يدي المظفر عبد الملك بن أبي عامر من قصيدة يهنيه فيها بعيد الفطر سنة ٣٩٦ :

حسبتُ المنعمين على البرايا فألفتُ اسمه صدراً الحساب
وما قدّمته إلاّ كأنّي أقدمُ تالياً أمّ الكتاب

وذكر الحميدي أن عبد الله بن ماكان^٣ الشاعر تناول نرجسة فركبها في وردة ثم قال لصاعد ولأبي عامر ابن شهيد : صفاها ، فأفحما ، ولم يتّجه لهما القول ، فبينما هم على ذلك إذ دخل الزهيري^٤ صاحب أبي العلاء وتلميذه ، وكان شاعراً

١ نقل النص عن الذخيرة بتصرف .

٢ الجذوة : ٢٢٤ .

٣ ذكر الحميدي (الجذوة : ٣٧٣) من اسمه أبو عبد الله ابن فاكاه وقال فيه : أديب شاعر يتكلم على معاني الآداب ومحاسن الأشعار ، ذكره أبو عامر ابن شهيد وذكر له مع صاعد ابن الحسن منازعات في ذلك . ثم عاد فذكره بهذا الاسم (ص : ٣٨٤) .

٤ القصة في الجذوة ٣٨٤ - ٣٨٥ ، ولكن الشاعر مذكور هناك باسم الزيري ، ووردت أيضاً في البدائع والبدائنه ٢ : ١٠٩ وفيه « الزهري » .

أديباً أميّاً لا يقرأ ، فلمّا استقر به المجلس أخبر بما هم فيه ، فجعل يضحك ويقول :

ما للأديبين قدّ أعيتهما مليحةٌ من مُلَحِ الحِنَّةِ
نرجسةٌ في وردةٍ رُكِبَتْ كقِلةٍ تطرفُ في وَجْنِه

انتهى .

ومن غريب ما جرى^١ لصاعد أن المنصور جلس يوماً وعنده أعيان مملكته ودولته من أهل العلم كالزبيدي والعاصمي وابن العريف وغيرهم ، فقال لهم المنصور : هذا الرجل الوافد علينا يزعم أنّه متقدّم في هذه العلوم ، وأحب أن يمتحن ، فوجّه إليه ، فلمّا مثل بين يديه والمجلس قد احتفل خجل فرفع المنصور محله وأقبل عليه ، وسأله عن أبي سعيد السيرافي ، فزعم أنّه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه ، فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة من الكتاب ، فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحو ليس جُلّ بضاعته ، فقال له الزبيدي : فما تحسن أيّها الشيخ ؟ فقال : حفظ الغريب ، قال : فما وزن أولق ، فضحك صاعد ، وقال : أمثلي يسأل عن هذا ؟ إنّما يسأل عنه صبيانُ المكتب ، قال الزبيدي^٢ : قد سألتك ، ولا نشك أنّك تجهله ، فتغير لونه ، وقال : أفل وزنه ، فقال الزبيدي : صاحبكم مُمخَرَق ، فقال له صاعد : إخال الشيخ صناعته الأبنية ، فقال له : أجل ، فقال صاعد : وبضاعتي أنا حفظ الأشعار ، ورواية الأخبار ، وفك المعنى ، وعلم الموسيقى ، فقال : فناظره ابن العريف ، فظهر عليه صاعد ، وجعل لا يجري في المجلس كلمة إلا أنشد عليها شعراً شاهداً ، وأتى بحكاية يجانسها ، فأعجب المنصور ، ثم أراه كتاب «النوادر» لأبي علي القالي ، فقال :

١ القصة في الذخيرة ١/٤ : ٦ - ٨ .

٢ ق ودوزي : الزهري ؛ وفي الذخيرة ما أثبتناه .

إن أراد المنصور أمليت على كتاب دولته^١ كتاباً أرفع منه وأجلّ لا أورد فيه خبراً ممّا أوردّه أبو علي ، فأذن له المنصور في ذلك ، وجلس بجامع مدينة الزاهرة يملي كتابه المترجم بـ «الفصوص» ، فلمّا أكمله تتبعه أدباء الوقت ، فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم ، وسألوا المنصور في تجليد كراريس بياض تزال جلدتها ، حتى توهم القدم ، وترجم عليه كتاب «النكت» تأليف أبي الغوث الصنعاني ، فترامى إليه صاعد حين رآه ، وجعل يقبله ، وقال : إي والله ، قرأته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان ، فأخذه المنصور من يده خوفاً أن يفتحه ، وقال له : إن كنت قد قرأته كما تزعم ، فعلامَ يحتوي ؟ فقال : وأبيك لقد بعُدَ عهدي به ، ولا أحفظ الآن منه شيئاً ، ولكنّه يحتوي على لغة مثورة لا يشوبها شعر ولا خبر ، فقال له المنصور : أبعدَ الله مثلك ! فما رأيت أكذب منك ، وأمر بإخراجه ، وأن يُقذف كتاب «الفصوص» في النهر ، فقال فيه بعض الشعراء :

قد غاص في النهر كتاب الفصوص^٢ وهكّذا كلُّ ثَقِيلٍ يَغُوصُ^٣
فأجابه صاعد :

عادَ إلى مَعْدِنِهِ ، إنّما توجد في قعر البحار الفصوص^٤

قال ابن بسام^٥ : وما أظن أحداً يجترى على مثل هذا ، وإنّما صاعد اشترط أن لا يأتي إلا بالغريب غير المشهور ، وأعانهم على نفسه بما كان يتسنَّق به من الكذب .

وحكى ابن خلّكان^٦ أن المنصور أثابه على كتاب «الفصوص» بخمسة

١ الذخيرة : أمليت على مقيدي خدمته وكتاب دولته .

٢ النقل عن الذخيرة ٤ / ١ : ٨ بإيجاز شديد .

٣ وفيات الأعيان ٢ : ١٨١ .

آلاف دينار^١ .

ومن أعجب^٢ ما جرى له أنه كان بين يدي المنصور ، فأحضرت إليه وردة في غير وقتها لم يستم فتح ورقها ، فقال فيها صاعد مرتجلاً :

أنتك أبا عامر ورّدة^٣ يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها راسها

فسرّ بذلك المنصور ، وكان ابن العريف حاضراً ، فحسده ، وجرى إلى مناقضته ، وقال لابن أبي عامر : هذان البيتان لغيره ، وقد أنشدنيهما بعضُ البغداديين بمصر لنفسه ، وهما عندي على ظهر كتاب بخطّه ، فقال له المنصور : أرنيه ، فخرج ابنُ العريف ، وركب وحرك دابته حتى أتى مجلس ابن بدر^٣ ، وكان أحسن أهل زمانه بديهة ، فوصف له ما جرى ، فقال هذه الأبيات ودس فيها بيتي صاعد :

عشوتُ إلى قصر عبّاسة وقد جدّل النوم حراسها
فألقيتها وهي في خدرها وقد صرع السكر أناسها
فقلت : أسار على هجعة فقلت : بلى ، فرمت كاسها
ومدّت يديها إلى وردة يحاكي لك الطيب أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها راسها
وقالت : خف الله لا تفضح ن في ابنة عمك عبّاسها
فوليت عنها على غفلة وما خنت ناسي ولا ناسها

فطار ابن العريف بها ، وعلقها على ظهر كتاب بخط مصري ومداد أشقر ،

١ زاد في ق : دراهم .

٢ عاد إلى النقل عن الذخيرة .

٣ جعلها دوزي « ابن برد » ونقل القصة صاحب بدائع البدائ ٢ : ٢٨ .

ودخل بها على المنصور ، فلما رآها اشتد غيظه على صاعد ، وقال للحاضرين :
غداً أمتحنه ، فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد ، ولم يبق في موضع لي
عليه سلطان ، فلما أصبح وجّه إليه فأحضر ، وأحضر جميع الندماء ، فدخل
هم إلى مجلس محفل قد أعدّ فيه طبقاً عظيماً فيه سقائف مصنوعة من جميع
النواير ، ووُضِعَ على السقائف لُعبٌ من ياسمين في شكل الجوّاري ، وتحت
السقائف بركة ماء ، قد أُلقي فيها اللآلئ مثل الحصباء ، وفي البركة حيّة تسبح ،
فلما دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور : إن هذا يوم إمّا أن تسعد فيه
معنا ، وإمّا أن تشقى بالضد عندنا ، لأنّه قد زعم قومٌ أن كل ما تأتي به دعوى ،
وقد وقفت من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ما توهمت أنّه حضر بين يدي ملك
قبلي شكله ، فصفه بجميع ما فيه ، وعبّر بعضٌ عن هذه القصة بقوله : أمر
فعبى له طبق فيه أزهار ورياحين وياسمين وبركة ماء حصباؤها اللؤلؤ ، وكان
في البركة حيّة تسبح ، وأحضرها صاعد ، فلما شاهد ذلك قال له المنصور :
إن هؤلاء يذكرون أن كل ما تأتي به دعوى لا صحة لها ، وهذا طبق ما ظننت
أنّه عمل للملك مثله ، فإن وصفته بجميع ما فيه علمت صحّة ما تذكره ، فقال
صاعد بديهة :

أبا عامرٍ هل غير جدّواك واكفُ	وهل غير من عاداك في الأرض خائفُ
يسوقُ إليك الدهرُ كلَّ غريبةٍ	وأعجبُ ما يلقاه عندك واصفُ
وشائع نورٍ صاغها هاميرُ الحيا	على حافتيها عبقرٌ ورفارفُ
ولما تنهى الحسن فيها تقابلتُ	عليها بأنواع الملاهي الوصائفُ
كمثلِ الظباء المستكنّة كنساً	تظللُها بالياسمين السقائفُ
وأعجبُ منها أنهن نواظيرُ	إلى بركة ضمت إليها الطرائفُ
حصاهما اللآلي سابحٌ في عبايها	من الرقش مسموم الثعابين زاحفُ

١ الذخيرة : مسموم العابين .

تري ما تراه^١ العين في جنباتها من الوحش حتى بينهن السلاحف
 فاستغربت له يومئذ تلك البديهة في مثل ذلك الموضع ، وكتبها المنصور بخطه ،
 وكان إلى ناحيته من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النوار تجذف بمجاذيف
 من ذهب لم يرها صاعد ، فقال له المنصور : أحسنت ، إلا أنك أغفلت ذكر
 المركب والجارية ، فقال للوقت :

وأعجبُ منها عادةً في سفينةٍ مَكَلَّلَةٌ تصبو إليها المهاتف^٢
 إذا راعها موجٌ من الماء تتقي بسُكَّانها ما أنذرت^٣ العواصفُ
 متى كانت الحسناء رُبَّانَ مركبٍ تَصَرَّفُ في يميني يديه المجاذفُ
 ولم ترَ عَيْني في البلادِ حديقةً تُنْقِلُها في راحتين الوصائفُ
 ولا غرو أن شاقَّ معاليك روضةً وَشَتَّها أزاهيرُ الربى والزخارفُ
 فأنت امرؤ لو رُمْتَ نفل مُتَالعٍ وَرَضَوِي ذَرَّتْها من سطاك نواسفُ
 إذا قلتُ قولاً أو بدتُ بديهةً فكلني له إني لمجدك واصفُ

فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب ، ورتب له في كل شهر ثلاثين
 ديناراً ، وألحقه بالندماء .

قال^٥ : وكان شديد البديهة في ادعاء الباطل ، قال له المنصور يوماً : ما
 الخنبشار ؟ فقال : حشيشة يُعَقَّد بها اللبن ببادية الأعراب ، وفي ذلك يقول
 شاعرهم :

لقد عَقِدَت محبَّتْها بقلبي كما عَقِدَ الحليبُ بخنبشار

١ الذخيرة : ما تشاء .

٢ الذخيرة : المهاف ؛ وجعلها دوزي : المهاف .

٣ جعلها دوزي : ما إن ذرته ؛ وفي البدائع : الرواف .

٤ الذخيرة : المناصف ؛ وتعني الخدم .

٥ الذخيرة ٤ / ١ : ٢١ .

وقال له يوماً ، وقد قُدِّمَ إليه طبق فيه تمر : ما التمر كل في كلام العرب ؟ فقال : « يقال تَمَرٌ كُلَّ الرجلُ تَمَرٌ كُلًّا » إذا التف في كسائه . وكان مع ذلك عالماً .

قال ١ : وكان لأبن أبي عامر فتى يسمّى فاتناً أُوحد لا نظير له في علم كلام العرب ، فناظر صاعداً هذا فقطعه وظهر عليه وبكّته ، فأعجب المنصور منه ، فتوفي فاتن هذا سنة ٤٠٢ ، وبيعت في تركته كتب مضبوطة جلييلة مصحّحة ، وكان منقاداً لما نزل به من المثلة فلم يتخذ النساء كغيره ، وكان في ذلك الزمان بقرطبة جملة من الفتيان المخانيث ممّن أخذ بأوفر نصيب من الأدب . قال : ورأيت تأليفاً لرجل منهم يُعرف بحبيب ترجمه بكتاب « الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » وذكر فيه جملة من أشعارهم وأخبارهم ونواديرهم .

وقال ابن بسّام وغيره ٢ : ومن عجائب ما جرى لصاعد أنّه أهدي ليلاً إلى المنصور ، وكتب على يد موصله :

يا حِرْزَ كلِّ مُخَوِّفٍ وأمانَ كُلِّ مُشَرَّدٍ ومعزَّ كلِّ مَذَلَّلٍ
يا سلكَ كلِّ فضيلةٍ ونظامَ كُلِّ لَـ جَزيلةٍ وثرَاءَ كلِّ معيَلٍ

ومنها :

ما إن رأت عيني وعلمك شاهدٌ شَرَوِيَّ ٣ علائك في مُعِمٍّ مَحُولٍ

ومنها :

١ الذخيرة ٤ / ١ : ٢٢ .

٢ المصدر نفسه : ٢٢ ؛ والجذوة : ٢٢٦ .

٣ في الأصل : جدوى ، والتصحيح عن الجذوة .

وأبي مؤانسُ غربيّ وتحفّظي من صفرِ أيامي ومن ومستعملي^١
عبدٌ جذبتَ بضبّعه ورفعتَ من مقداره أهدى إليك بإيلٍ
سميتهُ غَرْسِيَّةً وبعثتهُ في حبله ليصحَّ فيه تَقَاوُلِي
فلئن قبلتَ فتلكَ أنفَسُ مِنَّةٍ أسدى بها ذو منحة وتطول
صبحتك غاديةُ السرور وجلّت أرجاء ربك بالسحاب المخضِلِ^٢

فقضي في سابق علم الله سبحانه وتعالى أن ملك الروم غَرْسِيَّةُ أَسْرَ في ذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه بالإيلِ ، وسمّاه باسمه على التفاضل ، انتهى .
وكان غرسية أَمْنَعُ من النجم ، وسبب أخذه أنّه خرج يتصيّد ، فلقيته خيل للمنصور من غير قصد ، فأسرته وجاءته به ، فكان هذا الاتفاق ممّا عظم به العجب^٣ .

ولتزد من أخبار صاعد فنقول : حكى أن المنصور قال بسبب هذه القضية :
إنّه لم يتفق لصاعد هذا الفأل الغريب إلّا لحسن نيّته وسريّته ، وصفاء باطنه ،
فرفع قدره من ذلك اليوم فوق ما كان ، ورجحه على أعدائه ، وحق له ذلك .
وفي الزهرة الثامنة والعشرين من كتاب « الأزهار المثورة في الأخبار
الماثورة » حكى أن صاعداً قال^٤ : جمعت خِرَقَ الأكياس والصرر التي
قبضت فيها صلات المنصور محمد بن أبي عامر ، فقطعت لكافور الأسود غلامي
منها قميصاً كالمرقعة ، وبكرت به معي إلى قصر المنصور ، فاحتلت في تنشيطه
حتى طابت نفسه فقلت : يا مولانا لعبدك حاجة ، فقال : اذكرها ، قلت :

١ رواه في الجذوة :

- مولاي مؤانس غربي متخفّفي من ظفرِ أيامي ، منع معقلي
٢ البيت مضطرب في الأصل : منحتك . . . بعزة ، وحلت أوجاً ، وقد اعتمدت رواية الجذوة .
٣ الخبر عن كيفية أَسْرِ غرسية في الذخيرة ١ / ٤ : ٣٠ وهو مختلف عما قاله المقرئ .
٤ في الذخيرة : ١٦ شبيه هذه القصة ، غير أن ما ورد هناك يحكي أن صاعداً هو الذي لبس القميص تحت ثيابه فلما خلا المجلس ورأى فرصة لما أراد تجرد وبقي في القميص المخيط من الخرائط .

وصول غلامي كافور إلى هنا ، فقال : وعلى هذه الحال ؟ فقلت : لا أقنع بسواه إلا بحضوره بين يديك ، فقال : أدخلوه ، فمَسَّلَ قائماً بين يديه في مرقعته وهو كالنخلة إشرافاً ، فقال : قد حضر ، وإنَّه لباذ الهيئة ، فمالك أضعته ؟ فقلت : يا مولانا هنالك الفائدة ، اعلم يا مولاي أنَّك وهبت لي اليوم ملء جلد كافور مالاً ، فتهلَّل وقال : لله درك من شاكر مستنبط لغوامض معاني الشكر ! وأمر لي بمال واسع وكسوة ، وكسا كافوراً أحسن كسوة ، انتهى .

ولمَّا دخل صاعد دانية ، وحضر مجلس الموفق مجاهد العامري أمير البلد ، كان في المجلس أديب يقال له بشار ، فقال للموفق : دعني أعبث بصاعد ، فقال له : لا تتعرض إليه ، فإنَّه سريع الجواب ، فأبى إلا مُساءلته ، وكان بشار المذكور أعمى ، فقال لصاعد : يا أبا العلاء ما الجرنفل في كلام العرب ؟ فعرف صاعد أنَّه وضع هذه الكلمة ، وليس لها أصل في اللغة ، فقال بعد أن أطرق ساعة : الجرنفل في اللغة الذي يفعل بنساء العُمَيَّان ولا يتجاوزهن إلى غيرهن ، وهو في ذلك كله يصرح ولا يكتفي ، فحجل بشار وانكسر ، وضحك مَنْ كان حاضراً ، فقال له الموفق : قلت لك لا تفعل فلم تقبل ، انتهى .

والجرنفل - بضم الجيم والراء ، وسكون النون ، وضم الفاء ، وبعدها لام .

ولصاعد أخبار ونوادر كثيرة غير ما تقدم ، وله مع المنصور بن أبي عامر رحمه الله تعالى من ذلك كثير ، وبعضه ذكرناه في هذا الكتاب .

ومن حكاياته^١ أنَّه خرج معه يوماً إلى رياض الزاهرة ، فمدَّ المنصور يده إلى شيء من الريحان المعروف بالترنجان ، فعبث به ورماه إلى صاعد ، وأشار إليه أن يقول فيه ، فارتجل :

لم أدر قبل ترنجان عبث به

الأبيات الآتية .

وهذا المنصور بن أبي عامر قد تقدّمت جملة من أخباره ، ومن أعجب ما وقع له ما رأيته بخزانة فاس في كتاب ألفه صاحبه في الأزهار والأنوار ، حكى فيه في ترجمة النيلوفر أن المنصور لما قدم عليه رسول ملك الروم الذي هو أعظم ملوكهم في ذلك الزمان ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم ، فأمر المنصور أن يُغرس في بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر على ما تسع ، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسُبكت قطعاً صغيراً على قدر ما تسع النيلوفة ، ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذي في البركة ، وأرسل إلى الرومي فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه السامي بالزاهرة بحيث يُشرف على موضع البركة ، فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب والفضة ومناطق الذهب والفضة ، وبيد خمسمائة أطباق ذهب ، وبيد خمسمائة أطباق فضة ، فتعجب الرسول من حسن صورهم وجمال شارّتهم ، ولم يدر ما المراد ، فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة ، فبادروا لأخذ الذهب والفضة من النيلوفر ، وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب ، حتى التقطوا جميع ما فيها ، وجاؤوا به فوضعه بين يدي المنصور ، حتى صار كوماً بين يديه ، فتعجب النصراني من ذلك ، وأعظمه ، وطلب المهادنة من المسلمين ، وذهب مسرعاً إلى مُرسِله ، وقال له : لا تُعاد هؤلاء القوم ، فإنّي رأيت الأرض تخدمهم بكنوزها ، انتهى .

وهذه القضية من الغرائب ، وإنّها لحيلة عجيبة في إظهار عزّ الإسلام وأهله . وكان المنصور بن أبي عامر آية الله سبحانه في السعد ونصرة الإسلام ، قال ابن بسام نقلاً عن ابن حيّان^١ : إنّه لما انتهت خلافة بني مروان بالأندلس إلى الحكم تاسع الأئمة ، وكان مع فضله قد استهواه حبُّ الولد ، حتى خالف الحزم

١ الذخيرة : ٤ : ٤٠ وما بعدها .

في توريثه الملك بعده في سن الصبا دون مشيخة الإخوة وفتيان العشيرة ، ومن كان ينهض بالأمر ويستقل بالملك ، قال ابن بسام : وكان يقال « لا يزال ملك بني أمية بالأندلس في إقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء ، فإذا انتقل إلى الإخوة وتوارثوه فيما بينهم أدبر وانصرم » ، ولعل الحكم لحظ ذلك ، فلمّا مات الحكم أخفى جؤذر وفائق فتياه ذلك ، وعزما على صرف البيعة إلى أخيه المغيرة : وكان فائق قد قال له : إن هذا لا يتم لنا إلاّ بقتل جعفر المصحفي ، فقال له جؤذر : ونستفتح أمرنا بسفك دم شيخ مولانا^١ ، فقال له : هو والله ما أقول لك ، ثم بعثنا إلى المصحفي ونعيا إليه الحكم ، وعرفاه رأيهما في المغيرة ، فقال لهما المصحفي : وهل أنا إلاّ تبع لكما ، وأنتما صاحبا القصر ، ومدبرا الأمر ، فشرعا في تدبير ما عزما عليه ، وخرج المصحفي وجمع أجناده وقوّاده ونعى إليهم الحكم ، وعرفهم مقصود جؤذر وفائق في المغيرة ، وقال : إن بقينا على ابن مولانا كانت الدولة لنا ، وإن بدلنا استبدل بنا ، فقالوا : الرأي رأيك ، فبادر المصحفي بإنفاذ محمد بن أبي عامر مع طائفة من الجند إلى دار المغيرة لقتله ، فوافاه ولا خبر عنده ، فنعى إليه الحكم أخاه ، فجزع ، وعرفه جلوس ابنه هشام في الخلافة ، فقال : أنا سامع مطيع ، فكتب إلى المصحفي بحاله ، وما هو عليه من الاستجابة ، فأجابه المصحفي بالقبض عليه ، وإلاّ وجّه غيره ليقته ، فقتله خنقا . فلمّا قتل المغيرة واستوثق الأمر لهشام بن الحكم افتتح المصحفي أمره بالتواضع والسياسة واطّراح الكبر ومساواة الوزراء في الفرش ، وكان ذلك من أوّل ما استحسن منه ، وتوفّر على الاستئثار بالأعمال والاحتجان للأموال ، وعارضه محمد بن أبي عامر - فتى ماجد أخذ معه بطرفي نقيص بالبخل جوداً وبلاستبداد أثرة^٢ ، وتملك قلوب الرجال إلى أن تحرّكت همته للمشاركة في التدبير بحق الوزارة ، وقوي على أمره بنظره في الوكالة ، وخدمته

١ الذخيرة : دم شيخ دولة مولانا .

للسيدة صُبْح أم هشام ، وكانت حاله عند جميع الحرم أفضل الأحوال بتصدّيه لمواقع الإرادة ، ومبالغته في تأدية لطيف الخدمة ، فأخرجن له امر هشام الخليفة إلى الحاجب جعفر المصحفي بأن لا ينفرد عنه برأي ، وكان غير متخيّل منه سكوناً إلى ثقته ، فامثل الأمر وأطلعه على سرّه ، وبالف في بره ، وبالف محمد ابن أبي عامر في مخادعته والنصح له ، فوصل المصحفي يده بيده ، واستراح إلى كفايته ، وابن أبي عامر يكرر به ، ويضربّ عليه ، ويغري به الحسدّة^١ ، ويناقضه في أكثر ما يعامل به الناس ، ويقضي حوائجهم ، ولم يزل على ما هذه سبيله إلى أن انحل أمر المصحفي ، وهوى نجمه ، وتفرد محمد بن أبي عامر بالأمر ، ومنع أصحاب الحكم وأجلاهم وأهلكهم وشردهم وشتتهم وصادرهم ، وأقام من صنائعهم من استغنى به عنهم ، وصادر الصقالبة وأهلكهم وأبادهم في أسرع مدّة .

قال ابن حيان^٢ : وجاشت النصرانية بموت الحكم ، وخرجوا على أهل الثغور فوصلوا إلى باب قرطبة^٣ ، ولم يجدوا عند جعفر المصحفي غنّاء ولا نصرة ، وكان ممّا أتى عليه^٤ أن أمر أهل قلعة رباح بقطع سد نهرهم ، لما تخيله من أن في ذلك النجاة من العدو ، ولم تتسع^٥ حيلته لأكثر منه ، مع وفور الجيوش وجموم الأموال ، وكان ذلك من سقطات جعفر ، فأنف محمد بن أبي عامر من هذه الدنيّة ، وأشار على جعفر بتجريد^٦ الجيش بالجهاد ، وخوفه سوء العاقبة في تركه ، وأجمع الوزراء على ذلك ، إلا من شدّ منهم ، واختار ابن أبي عامر

١ في أصول النفع ودوزي : الحرة ، وقد تنصرف إلى صبح - وهو مستبعد - وفي الذخيرة :

« وابن أبي عامر يكرر به ويضرب بين حسدته » .

٢ النقل مستمر عن الذخيرة ١ / ٤ : ٤٤ .

٣ الذخيرة : فجاء صراخهم إلى باب قرطبة .

٤ الذخيرة : وكان مما غرب به بلحيته وعظيم أفنه . . .

٥ في ق ودوزي : ولم تقع ، والتصويب عن الذخيرة .

٦ في ق : بتبديد ؛ والتصويب عن الذخيرة ؛ وفي ابن عذاري : بتجهيز .

الرجال ، وتجهز للغزاة ، واستصحب مائة ألف دينار ، ونفذ بالجيش ، ودخل على الثغر الجوفي [إلى جليقية] ونازل حصن الحامة ، ودخل الربض ، وغنم وقفل فوصل الحضرة بالسبي بعد اثنين وخمسين يوماً ، فعظم السرور به ، وخلصت قلوب الأجناد له ، واستهلكوا في طاعته لما رأوه من كرمه .

ومن أخبار كرمه ^١ ما حكاه محمد بن أفلح غلام الحكم قال : دُفِعْتُ إلى ما لا أطيعه من نفقة في عرس ابنة لي ، ولم يبق معي سوى لحام مُحَلَّى ، ولما ضاقت بي الأسباب قصدته بدار الضرب حين كان صاحبها ، والدراهم بين يديه موضوعة مطبوعة ، فأعلمته ما جئت له ، فابتهج بما سمعه مني ، وأعطاني من تلك الدراهم وزن اللجام بحديده وسبوره ، فملأ حجري ، وكنت غير مصدق بما جرى لعظمه ، وعملت العرس ، وفصلت لي فضلة كثيرة ، وأحبته قلبي حتى لو حملني على خلع طاعة مولاي الحكم لفعلت ، وكان ذلك في أيام الحكم قبل أن يقتعد ^٢ ابن أبي عامر الذريرة .

وقال غير واحد : إنه صنع يومئذ قصراً من فضة لصبح أم هشام ، وحمله على رؤوس الرجال فجلب حبها بذلك ، وقامت بأمره عند سيدها الحكم ، وحدث الحكم خواصه بذلك ، وقال : إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يتحفهن به ، قالوا : وكان الحكم لشدة نظره في علم الحدثان يتخيل في ابن أبي عامر أنه المذكور في الحدثان ، ويقول لأصحابه : أما تنظرون إلى صُفْرة كفيه ؟ ويقول في بعض الأحيان : لو كانت به شجة لقلت إنه هو بلا شك ، فقضى الله أن تلك الشجة حصلت للمنصور يوم ضربه غالب بعد موت الحكم بمدة .

قال ابن حيّان ^٣ : وكان بين الصحفي وغالب صاحب مدينة سالم وشيخ الموالي وفارس الأندلس عداوة عظيمة ، ومباينة شديدة ، ومقاطعة مستحكمة ،

١ عن الذخيرة : ٤٥ : بإيجاز .

٢ ق : يمتقد .

٣ عن الذخيرة : ٤٦ مع اختلاف في الرواية .

وأعجز المصحفي أمره ، وضعف عن مُباراته ، وشكا ذلك إلى الوزراء ، فأشاروا عليه بملاطفته واستصلاحه ، وشعر بذلك ابن أبي عامر ، فأقبل على خدمته ، وتجرد لإتمام إرادته ، ولم يزل على ذلك حتى خرج الأمر بأن ينهض غالب إلى مقدمة جيش الثغر ، وخرج ابن أبي عامر إلى غزوته الثانية ، واجتمع به ، وتعاقدا على الإيقاع بالمصحفي ، وقفل ابن أبي عامر ظافراً غانماً ، وبعده صيته ، فخرج أمر الخليفة هشام بصرف المصحفي عن المدينة ، وكانت في يده يومئذ ، وخلع على ابن أبي عامر ولا خبر عند المصحفي ، وملك ابن أبي عامر الباب بولايته للشرطة ، وأخذ على المصحفي وجوه الحيلة ، وختلاًه وليس بيده من الأمر إلا أقله ، وكان ذلك بإعانة غالب له ، وضبط المدينة ضبطاً أنسى به أهل الحضرة من سلف من الكفاة أولي السياسة ، وانهك ابن أبي عامر في صعبة غالب ، ففطن المصحفي لتدبير ابن أبي عامر عليه ، فكاتب غالباً يستصلحه ، وخطب أسماء بنته لابنه عثمان ، فأجابه غالب لذلك ، وكادت المصاهرة تتم له ، وبلغ ابن أبي عامر الأمر ، فقامت قيامته ، وكاتب غالباً يخوفه الحيلة ، ويهيج حقوده ، وألقى عليه أهل الدار وكاتبوه فصرفوه عن ذلك ، ورجع غالب إلى ابن أبي عامر ، فأنكحه البنت المذكورة ، وتم له العقد في محرم سنة سبع وستين وثلاثمائة ، فأدخل السلطان تلك الابنة إلى قصره ، وجهزها إلى محمد بن أبي عامر من قبله ، فظهر أمره وعز جانبه ، وكثر رجاله ، وصار جعفر المصحفي بالنسبة إليه كلاً شيء ، واستقدم السلطان غالباً ، وقلده الحجابة شركة مع جعفر المصحفي ، ودخل ابن أبي عامر على ابنته ليلة النيروز ، وكانت أعظم ليلة عرس في الأندلس ، وأيقن المصحفي بالنكبة وكف عن اعتراض ابن أبي عامر في شيء من التدبير ، وابن أبي عامر يساتره ولا يظاهره ، وانفض عنه الناس ، وأقبلوا على ابن أبي عامر إلى أن صار المصحفي يغدو إلى قصر قرطبة

١ ق ودوزي : وتولى السياسة ، وهو سهو ؛ والتصويب عن الذخيرة .

ويروح وهو وحده ، وليس بيده من الحجابة سوى اسمها ، وعوقب المصحفي بإعانتته على ولاية هشام ، وقتل المغيرة . ثم سخط السلطان على المصحفي وأولاده وأهله وأسبابه وأصحابه ، وطولبوا بالأموال ، وأُخذوا برفع الحساب لما تصرفوا فيه ، وتوصل ابن أبي عامر بذلك إلى اجتثاث أصولهم وفروعهم ، وكان هشام ابن أخي المصحفي قد توصل إلى أن سرق من رؤوس النصارى التي كانت تحمل بين يدي ابن أبي عامر في الغزاة الثالثة ليقدّم بها على الحضرة ، وغازله ذلك منه ، فبادره بالقتل في المطبق قبل عمّه جعفر المصحفي ، فلما استقصى ابن أبي عامر مال جعفر حتى باع داره بالرصافة^١ ، وكانت من أعظم قصور قرطبة ، واستمرت النكبة عليه سنين^٢ مرة يحتبس ومرة يترك ومرة يُقَرّ بالحضرة ومرة ينفر عنها ، ولا يراح له^٣ من المطالبة بالمال ، ولم يزل على هذا الحكم حتى استصفي ، ولم يبق فيه محتمل ، واعتقل في المُطَبّق بالزهراء إلى أن هلك ، وأُخرج إلى أهله ميتاً ، وذكر أنه سمّه في ماء شربه ، قال محمد بن إسماعيل : سرت مع محمد بن مسلمة إلى الزهراء لنسلم جسد جعفر ابن عثمان إلى أهله بأمر المنصور ، وسرنا إلى مترله فكان مغطى بخلق كساء لبعض البوّابين ألقاه على سريريه ، وغُسِلَ على فردة باب اختلع من ناحية الدار ، وأُخرج وما حضر أحد جنازته سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه ومن حضر من ولده ، فعجبت من الزمان ، انتهى .

وما أحسن عبارة صاحب المطمح عن هذه القضية إذ قال^٤ : قال محمد بن إسماعيل كاتب المنصور : سرتُ بأمره لتسليم جسد جعفر إلى أهله وولده ،

١ كذا في ق والنخيرة ؛ وجمله دوزي : « فلما قتل استصفي ابن أبي عامر مال جعفر حتى باع ... إلخ » .

٢ كذا في ق والنخيرة ، وجمله دوزي : « سنتين » . وهو مستدرك في التعليقات لأن المصحفي أقام في الإذلال والتعذيب خمس سنين .

٣ النخيرة : ولا يراح .

ه ق : لتسلم .

٤ المطمح : ٦ .

والحضور على إنزاله في مَلْحَدَه ، فنظرتَه ولا أثر فيه ، وليس عليه شيء يُؤارِه ، غير كساء خلقٍ لبعض البَوَّابِين ، فدعا له محمد بن مسلمة بغاسل فغسله والله على فَرْدَةٍ باب اقتطع من جانب الدار ، وأنا أُعتبر من تصرف الأقدار ، وخرجنا بنعشه إلى قبره وما معنا سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه ، وما تجاسر أحدٌ منا للنظر إليه ، وإن لي في شأنه لخبراً ما سَمِعَ بمثله طالبُ وعظ ، ولا وقع في سمع ولا تصوّر في لُحْظ ، وقفت له في طريقه من قَصْرِه ، أيام نِهيه وأمره ، أروم أن أناوله قِصَّةً ، كانت به مختَصَّةً ، فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكثافة موكبه ، وكثرة مَنْ حَفَّ به ، وأخذَ الناسُ السَّكَّك عليه وأفواهَ الطرق داعين ، ومارين بين يديه وساعين ، حتى ناولت قصتي بعض كتابه الذين نَصَبَهم جناحيّ موكبه لأخذ القِصَص ، فانصرفتُ وفي نفسي ما فيها من الشَّرَقِ بحاله والغَصَصِ^٢ ، فلم تطل المدّة حتى غضب عليه المنصور واعتقله ، ونقله معه في الغزوات واحتمله^٣ ، واتفق أن نزلتُ بجليقية إلى جانب خبائه في ليلة نَهَى فيها المنصورُ عن وقود النيران ليخفي على العدو أثره ، ولا ينكشف إليه خبره ، فرأيت والله عثمان ولده يُسِفُّه^٤ دقيقاً قد خلطه بماء يقيم به أودَه ، ويمسك بسببه رَمَقَه ، بضعف حال وعدم زاد ، وهو يقول^٥ :

تعاظيت^٦ صرف الحادثات فلم أزل أراها تُؤَفِّي عند موعدها الحرا
فلله أيام مضت بسبيلها فإني لا أنسى لها أبداً ذكرا

١ انظر أيضاً الذخيرة ١/٤ : ٤٩ .

٢ فانصرفت . . . والغصص : سقطت من ق .

٣ ق : وأخمله ؛ المطمح : وحمله .

٤ الذخيرة : يسقيه .

٥ انظر أيضاً الحلة ١ : ٢٦٥ .

٦ المطمح والحلة : تأملت .

تجافّت بها عنّا الحوادثُ برهةً وأبدتْ لنا منها الطّلاقَ والبِشْرا
لياليَ ما يدري الزمانُ مكاننا ولا نظرتْ منها حوادثُهُ شَزْرا
وما هذه الأيامُ إلّا سحائبٌ على كلّ أرضٍ تمطرُ الخيرَ والشرّا
انتهى .

وأما غالب الناصري فإنه حضر مع ابن أبي عامر في بعض الغزوات ، وصعد إلى بعض القلاع ، لينظرا في أمرها ، فجرت محاورة^١ بين ابن أبي عامر وغالب ، فسبّه غالب وقال له : يا كلب ، أنت الذي أفسدت الدولة ، وخربت القلاع ، وتحكمت في الدولة ، وسلّ سيفه فضربه ، وكان بعض الناس حبس يده ، فلم تتم الضربة وشجّه ، فألقى ابن أبي عامر نفسه من رأس القلعة خوفاً من أن يُجهز عليه ، فقضّى الله تعالى أنّه وجد شيئاً في الهويّ منعه من الهلاك ، فاحتمله أصحابه وعالجوه حتى برىء ، ولحق غالب بالناصرى ، فجيّش بهم ، وقابله ابن أبي عامر بمن معه من جيوش الإسلام ، فحكمت الأقدار بهلاك غالب وتم لابن أبي عامر ما جد له ، وتخلصت دولته من الشوائب .

قالوا^٢ : ولما وقعت وحشة بين ابن أبي عامر والمؤيد ، وكان سببها تضريب الحساد فيما بينهما ، وعلم أنّه ما دُهي إلّا من جانب حاشية القصر ، فرقهم ومزقهم ، ولم يدع فيه منهم إلّا من وثق به أو عجز عنه ، ثم ذُكر له أن الحرم^٣ قد انبسطت أيديهن في الأموال المختزنة بالقصر ، وما كانت السيدة صُبْح أخت رائق تفعله من إخراج الأموال عندما حدث من غيرها على ابن أبي عامر ، وأنّها أخرجت في بعض الأيام مائة كوز مختومة على أعناق الخدم الصقالبة فيها الذهب والفضة ، وموّهت ذلك كلّهُ بالمرى^٤ والشهد وغيره

١ محاورة : سقطت من ق .

٢ عاد إلى تلخيص كلام ابن حيان الذي أورده صاحب الذخيرة ٤ / ١ : ٥٢ - ٥٦ .

٣ ق ودوزي : الخدم .

٤ في الذخيرة : بالمرى ؛ والمرى - بتشديد الراء - والعامة تخففها وباللاتينية : (Muria) =

والأصباغ المتخذة بقصر الخلافة ، وكتبت على رؤوس الكيزان أسماء ذلك ، ومرت على صاحب المدينة ، فما شك في أنه ليس فيها إلا ما هو عليها ، وكان مبلغ ما حملت فيها من الذهب ثمانين ألف دينار ، فأحضر ابن أبي عامر جماعة وأعلمهم أن الخليفة مشغول عن حفظ الأموال بأنهماكه في العبادة ، وأن في إضاعتها آفة على المسلمين ، وأشار بنقلها إلى حيث يؤمن عليها فيه ، فحمل منها خمسة آلاف ألف دينار عن قيمة ورق وسبعمئة ألف دينار ، وكانت صُبْح قد دافعت عما بالقصر من الأموال ، ولم تمكن من إخراجها ، فاجتمع ابن أبي عامر بالخليفة هشام ، واعترف له بالفضل والغناء في حفظ قواعد الدولة ، فخرست ألسنة الأعداء والحسدة ، وعلم المنصور ما في نفوس الناس لظهور هشام ورؤيتهم له ، إذ كان منهم مَنْ لم يره قط ، فأبرزه للناس وركب الركبة المشهورة ، واجتمع لذلك من الخلق ما لا يحصى ، وكانت عليه الطويلة^١ والقضيب في يده زي الخلافة ، والمنصور يسايره .

ثم خرج المنصور لآخر غزواته ، وقد مرض المرض الذي مات فيه ، وواصل شن الغارات ، وقويت عليه العلة ، فاتخذ له سرير خشب ووُطِيء عليه ما يقعد عليه ، وجعلت عليه ستارة ، وكان يُحمَل على أعناق الرجال والعساكر تحف به ، وكان هَجَرَ الأطباء في تلك العلة لاختلافهم فيها ، وأيقن بالموت ، وكان يقول : إن زمامي يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما أصبح

= أنواع من مستحضرات تتخذ في صنع الأطعمة منها المري بالنقيع والطيب ومري الخبز ومري الحوت وبعض أنواعه يصنع من عصير العنب بالأفاويه دون خبز محرق ، والعامّة تصنعه من العسل المحرق والخبز المحرق وغيرهما . ويقول دوزي إنه مركب يصنع من الدقيق والملح والعسل والتمر وأشياء أخرى . ويقول ابن البيطار إن نوعاً منه يعمل من السمك المالح واللحوم المالحَة وينقل عن الجاحظ قوله « المري هو جوهر الطعام وروح البارد المستظرف والحر المستنظف . . . » (انظر قاموس دوزي «مادة مري» ومفردات ابن البيطار ٤ : ١٤٩ - ١٥٠ وكتاب الطيبخ : ٨٢ ومواضع أخرى منه) .

١ الطويلة : هي القلنسوة .

فيهم أسوأ حالة مني - ولعلّه يعني مَنْ حضر تلك الغزاة ، وإلا فعساكر الأندلس ذلك الزمان أكثرُ من ذلك العدد - واشتغل ذهنه بأمر قرطبة وهو في مدينة سالم ، فلمّا أيقن بالوفاة أوصى ابنه عبد الملك وجماعته وخلا بولده وكان يكرر وصاته ، وكلّما أراد أن ينصرف يرده ، وعبدُ الملك يبكي ، وهو ينكر عليه بكاءه ويقول : وهذا من أول العَجْز ، وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر .

وخرج عبد الملك إلى قرطبة ومعه القاضي ابن ذكوان ، فدخلها أول شوال ، وسكّن الإرجاف بموت والده ، وعرفَ الخليفة كيف تركه .

ووجد المنصور خيفةً فأحضر جماعة بين يديه ، وهو كالخيال لا يبين الكلام ، وأكثر كلامه بالإشارة كالمسلم المودع ، وخرجوا من عنده ، فكان آخر العهد به ومات لثلاث بقين من شهر رمضان ، وأوصى أن يُدفن حيث يُقبض ، فدفن في قصره بمدينة سالم . واضطرب العسكر ، وتلوّم ولده أياماً ، وفارقه بعض العسكر إلى هشام ، وقفل هو إلى قرطبة فيمن بقي معه ، ولبس فتيان^١ المنصور المُسَوَّح والأكسية بعد الوشي والحبر والخز .

وقام ولده عبد الملك المظفر بالأمر ، وأجراه هشام الخليفة على عادة أبيه ، وخلع عليه ، وكتب له السجل بولاية الحجابة ، وكان الفتيان قد اضطربوا فقوم المائل ، وأصلح الفاسد ، وجرت الأمور على السداد ، وانشرحت الصدور بما شرع فيه من عمارة البلاد ، فكان أسعد مولود ولد في الأندلس .

ولنمسك عنان القلم في أمر ابن أبي عامر ، فقد قدمنا في محلّه جملة من أحواله ، وما ذكرناه هنا وإن كان محلّه ما سبق وبعضه قد تكرر معه فهو لا يخلو من فوائد زوائد ، والله تعالى ولي التوفيق .

١ ق ودوزي : قيان .

رجع إلى أخبار صاعد اللغوي البغدادي :

حكى^١ أنه دخل على المنصور يوم عيد ، وعليه ثياب جُدُد وخفٌ جديد ، فمشى على حافة البركة لازدحام الحاضرين في الصحن ، فزلق فسقط في الماء ، فضحك المنصور ، وأمر بإخراجه ، وقد كاد البرد أن يأتي عليه ، فخلع عليه ، وأدنى مجلسه ، وقال له : هل حضرك شيء ؟ فقال :

شَيْثَانٌ كَانَا فِي الزَّمَانِ عَجَبِيَّةٍ ضَرَطَ ابْنُ وَهْبٍ ثَمَّ وَقَعَهُ^٢ صَاعِدٌ

فاستبرد ما أتى به فقال أبو مروان الكاتب الجزيري : هلا قلت :

سُرُورِي بَغَرَّتْكَ الْمَشْرِقَةُ وَدِيْمَةُ رَاحَتِكَ الْمُغْدِقَةُ
ثَنَانِي نَشْوَانٌ حَتَّى غَرَّةٌ تٌ فِي لِحَةِ الْبَرْكَةِ الْمَطْبِقَةِ
لَنْ ظَلَّ عَبْدُكَ فِيهَا الْغَرِيقَ فَجُودُكَ مِنْ قَبْلِهَا أَغْرَقَهُ

فقال له المنصور : لله درك يا أبا مروان ، قسناك بأهل بغداد ففضلتهم ، فبمن نقيسك بعد ؟ انتهى .

وقال في الذخيرة في ترجمة صاعد^٣ : وفد على المنصور نجماً من المشرق غرب ، ولساناً عن العرب أعرب ، وأراد المنصور أن يعفي به آثار أبي علي القالي فألقى سيفه كهماً ، وسحابه جهاماً ، من رجل يتكلم بملء فيه ، ولا يوثق بكل ما يذره ولا ما يأتيه ، انتهى باختصار .

وأصل صاعد من ديار الموصل ، وقال ارتجالاً وقد عبث المنصور بترنجان :

لم أدر قبل تُرُنْجَانٍ عَبِثَتْ بِهِ أَنْ الزَّمْرَدَ أَغْصَانُ وَأَوْرَاقُ

١ انظر الذخيرة ١ / ٤ : ٢٣ .

٢ الذخيرة : زلقة .

٣ الذخيرة ١ / ٤ : ٢ ؛ وبدائع البدائع ٢ : ٣١ .

من طيبه سَرَقَ الأترجُ نكهته يا قومُ حتى من الأشجار سَرَّاقُ
كأنما الحاجبُ المنصورُ علّمه فعلَ الجميلِ فطابتْ منه أخلاقُ
وقدّمه الحِجاري بقوله :

كأن إبريقنا والراحُ في فمه طيرُ تناول يا قُوتاً بمنقار
وقبله :

وقهوة من فم الإبريق صافية كدَمَعِ مفجوعة بالإلف مِعْبَارُ^١
وقال في بدائع البدائه^٢ : دخل صاعد اللغوي على بعض أصحابه في مجلس
شراب ، فملأ الساقى قدحاً من إبريق ، فبقيت على فم الإبريق نقطة من الراح
قد تكونت ولم تقطر ، فاقترح عليه الحاضرون وصف ذلك فقال :

وقهوة من فم الإبريق ساكبة

البيتين .

ثمّ قال بعدهما : وإنّما اهتدم صاعد قول الشريف أبي البركات علي بن
الحسين العلوي^٣ :

كأنّ ريح الروضِ لما أتت فتتّ علينا مسك عطّار
كأنّما إبريقنا طائر يحملُ يا قُوتاً بمنقار
انتهى .

١ ق : مغيار .

٢ بدائع البدائه ٢ : ٣٢ .

٣ ق ودوزي : اللغوي ؛ والتصويب عن اليتيمة ٤ : ٢٠ ؛ وفيه ترجمة أبي البركات والبيتان اللذان
أوردهما المقرئ ؛ وانظر الذخيرة أيضاً : ١٥ - ١٦ .

ومن نظم صاعد :

قلتُ لهُ والرقيبُ يُعجله مودعاً للفراق : أين أنا
فمَدَّ كفّاً إلى ترائبه وقال : سِرْ وادعاً فأنت هنا

وقال صاعد ، لما أمر المنصور بن أبي عامر بمعارضة قصيدة لأبي نواس :

إنّي لأستحيي علّاك من ارتجال القول فيه
من ليس يدرك^١ بالروية كيف يدرك بالبدية

وقال حاشد البغدادي في صاعد اللغوي ، وكان صاعد يشدهما ويبكي ويقول : ما هُجيت بشيء أشد علي منهما :

أقبل هُديتَ أبا العلاء نصيحتي بقبولها وبواجب الشكر
لا تهجونَّ أسنَّ منك فربما تهجو أباك وأنت لا تدري

نعوذ بالله من لسان الشعراء ، وأنواع البلاء ، بحاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن نظم صاعد قوله^٢ :

بعثتُ إليك من خيري روضٍ محرّمة^٣ كأوراق العقيق
توكل بالغروب^٤ عن التصابي وتصطادُ الخليع من الطريق

وروى صاعد عن القاضي أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي ، وأبي علي

١ ق : يحسن .

٢ الذخيرة ١/٤ : ١٢ .

٣ كذا في ق وأصل الذخيرة وجعلها دوزي : « محزمة » .

٤ كذا ولعل الصواب : بالمزوف ، أي المازف عن التصابي ، كما ثبت في الذخيرة .

الحسن بن أحمد الفارسي ، وأبي بكر ابن مالك القطيعي ، وأبي سليمان الخطابي ، وغيرهم .

قال الحميدي^١ : خرج من الأندلس في الفتنة وقصد صقلية ، فمات بها قريباً من سنة عشر وأربعمائة .

وقال ابن حزم^٢ : توفي بصقلية سنة سبع عشرة وأربعمائة .

وقال ابن بشكوال في حقّه : إنّه يُتهم بالكذب وقلة الصدق فيما يورده ، عفا الله تعالى عنه ؛ وقدم الأندلس من مصر أيام المؤيد وتحكم المنصور بن أبي عامر في حدود سنة ٣٨٠ ، فأكرمه المنصور ، وزاد في الإحسان إليه ، والإفضال عليه ، وكان عالماً باللّغة والآداب والأخبار ، سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشرة ، فكّه المجالسة .

وقال بعضهم^٣ : دخل صاعد على المنصور وعنده كتاب ورد عليه من عامل له في بعض الجهات اسمه مبرمان^٤ بن يزيد يذكر فيه القلب والتربيل ، وهما عندهم اسم الأرض قبل زراعتها^٥ ، فقال له : يا أبا العلاء ، قال : لبيك يا مولانا ، فقال : هل رأيت أو وصل إليك من الكتب القوالب والزوالب لمبرمان ابن يزيد ؟ قال : إي والله ببغداد في نسخة لأبي بكر ابن دريد بخط ككراع النمل ، في جوانبها [علامات الوضاع]^٦ فقال له : أما تستحيي أبا العلاء من هذا الكذب ؟ هذا كتاب عاملي ببلد كذا واسمه كذا يذكر فيه كذا ، فجعل يحلف له أنّه ما كذب ، ولكنه أمرٌ وافق . ومات عن سنّ عالية ، رحمه الله تعالى .

١ الجذوة : ٢٢٧ .

٢ نقله أيضاً ابن بشكوال في ترجمة صاعد ص : ٢٣٢ .

٣ راجع الجذوة : ٢٢٤ والذخيرة ١/٤ : ٢٠ .

٤ في الذخيرة : ميدان .

٥ الحميدي : وهما عندهم من معاناة الأرض قبل زراعتها .

٦ زيادة من الجذوة والذخيرة .

٦٠ - ومن الوافدين على الأندلس من المشرق الشيخ تاج الدين بن حمويه السرخسي^١ ، ولد سنة ٥٧٢ ، وقد ذكر في رحلته عجائب شاهدها بالمغرب ومشايخ لقيهم ، فمنهم الحافظ أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري ، قال : سمعت عليه سنة سبع وتسعين وخمسمائة الحديث وشيئاً من تصانيف المغاربة ، وروى لنا عن الحافظ أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف ابن إبراهيم بن قرقول ، وولي ابن حوط الله المذكور قضاء غرناطة ، وأدرك ابن بشكوال وابن حبيش وابن حميد المرسي النحوي وأبا يزيد السهيلي صاحب الروض وغيرهم . ومن الشيوخ الذين لقيهم السرخسي المذكور بالمغرب^٢ الفقيه ابن أبي تميم ، قال : وأنشدني :

اسمع أخِي نصيحتي والنصحُ من محضِ الديانة
لا تقربنَّ إلى الشَّهَادَةِ والوساطَةِ والأمانة
تَسْلَمُ مَنْ أَنْ تُعْزَى لَزْوٍ رٍ أَوْ فُضُولٍ أَوْ خِيَانَةٍ

وذكر أنه أدرك الشيخ الولي العارف بالله سيدي أبا العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي صاحب الحالات والكرامات الظاهرة والطريقة الغريبة والأحوال العجيبة ، قال : أدركته بمراكش سنة أربع وتسعين وخمسمائة وقد ناهز الثمانين ، ومهما حصل عنده مال فَرَّقَهُ في الحال ، وتركته في سنة ثمان وتسعين حياً يُرْزَق ، انتهى . وولي الله السبتي قد ذكرت في غير هذا الموضع بعض أحواله ، فلتراجع في الباب الثامن من ترجمة لسان الدين ابن الخطيب ، ومحلّه مقصود

١ هو أبو أحمد عبد الله بن عمر بن محمد بن حمويه تاج الدين شيخ الشيوخ (٦٤٢ -) كان مفتياً في العلوم عارفاً بالأصليين والفروع والترسل والتواريخ والهندسة والطب ، وله كتاب المؤنس في أصول الأشياء ، وأمال وتواريخ كثيرة ، بقي في المغرب بعد وفاة يعقوب المنصور ، وعاد إلى الشام سنة ٦٠٠ وحبس سنة ٦٠٤ ، وكان نزهاً عفيفاً شريفاً النفس . (راجع ترجمته في مرآة الزمان : ٧٤٨ - ٧٤٩ وذيل أبي شامة : ١٧٤ والشذرات : ٥ : ٢١٤) .

٢ الروض ... بالمغرب : سقطت هذه العبارة من ق .

لقضاء الحاجات ، وقد زرتة مراراً عديدة سنة ١٠١٠ .

وقال لسان الدين في « نفاضة الجراب » : كتبت عن السلطان الغني بالله محمد بن يوسف بن نصر ونحن بفاس يخاطب الضريح المقصود ، والمنهل المورد ، والمرعى المنتجع ، والخوان الذي يكفي الغرثي ، ويمرض المرضى ، ويقوت الزمئي ، ويتعداهم إلى أهل الحدة زعموا والغني ، قبر ولي الله سيدي أبي العباس السبي نفعنا الله به ، وجبر حالنا ، وأعاد علينا النعم ، ودفع عنا النقم :

يا وليَّ الإلهِ أَنْتَ جَوَادٌ وَقَصَدْنَا إِلَى حِمَاكَ الْمَنِيْعِ
رَاعَتَا الدَّهْرُ بِالْخُطُوبِ فَجِئْنَا نَرْجِي مِنْ عِلَّاكَ حُسْنَ الصَّنِيْعِ
فَمَدَدْنَا لَكَ الْأَكْفَ نَرْجِي عَوْدَةَ الْعِزِّ تَحْتَ شَمْلٍ جَمِيْعِ
قَدْ جَعَلْنَا وَسِيلَةً تُرَبِّكَ الزَّاكِي وَزُلْفَى إِلَى الْعَلِيمِ السَّمِيْعِ
كَمْ غَرِيبٍ أَسْرَى إِلَيْكَ فَوَافِي بَرْضَى عَاجِلٍ وَخَيْرٍ سَرِيْعِ

يا وليَّ الله الذي جعل جاهه سبباً لقضاء الحاجات ، ورفع الأزمات ، وتصريفه باقياً بعد الممات ، وصدَّقَ نقولَ الحكايات ظهورُ الآيات ، نفغني الله بنيتي في بركة تربك ، وأظهر عليَّ أثرَ توسُّلي بك إلى الله ربك ، مُزَقَّ شَمْلِي ، وفُرق بيني وبين أهلي ، وتُعدي عليَّ ، وصُرفت وجوه المكاييد إليَّ ، حتى أُخرجت من وطني وبلدي ، ومالي وولدي ، ومحل جهادي ، وحقِّي الذي صار لي طوعاً عن آبائي وأجدادي ، عن بيعة لم يحلَّ عقدتها الدين ، ولا ثبوتُ جرَّحة تشين ، وأنا قد قرعت بابَ الله سبحانه بتأميلك ، فالتمس لي قبوله بقبولك ، وردُّني إلى وطني على أفضل حال ، وأظهر علي كرامتَكَ التي تُشدُّ إليها ظهور الرِّحال ، فقد جعلتُ وسيلتي إليك رسول الحق ، إلى جميع الخلق ، والسلام عليك أيها الولي الكريم ، الذي يأمن به الخائف ويتنصف الغريم ، ورحمة الله ، انتهى .

رجع - والسرخسي المذكور قال في حقِّه بعض الأئمة : إنَّه الشيخ الإمام ،

شيخ الشيوخ ، تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه ، له رحلة مغربية ، انتهى .

وهو من بيت كبير ، وقال البدرى في تاريخه في حقّه ما صورته : تاج الدين ، شيخ الشيوخ بدمشق ، أحد الفضلاء المؤرخين المصنفين ، له كتاب في ثمانى مجلدات ذكر فيه أصول الأشياء ، وله « السياسة الملوكية » صنفها للملك الكامل محمد ، وغير ذلك ، وسمع الحديث ، وحفظ القرآن ، وكان قد بلغ الثمانين ، وقيل : لم يبلغها ، وقد سافر إلى بلاد المغرب سنة ثلاث وتسعين ، واتصل بمراكش ، عند ملكها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، فأقام هنالك إلى سنة ستمائة ، وقدم مصر ، وولي مشيخة الشيوخ بعد أخيه صدر الدين ابن حمويه ، انتهى .

وقال غيره : إنّه كان فاضلاً متواضعاً نزهاً حسن الاعتقاد ، قال أبو المظفر : كان يحضر مجالسي ، وأنشدني يوماً :

لم ألقَ مستكبراً إلا تحوّل لي عند اللقاء له الكبرُ الذي فيه
ولا حلّالي من الدنيا ولدتها إلاّ مقابلي للتيه بالتيه

وقال السرخسي المذكور في رحلته : إنّي وإن كنت خراساني الطينة ، لكني شامي المدينة ، وإن كانت العمومة من المشرق ، فإن الخؤولة من المغرب ، فحدّث باعثٌ يدعو إلى الحركات والأسفار ، ومشاهدة الغرائب في النواحي والأقطار ، وذلك في حال ريّعان الشباب الذي تعصده عزائم النفوس بنشاطها ، والجوارح بحفّة حركاتها وانبساطها ، فخرجت سنة ثلاث وتسعين وخمسائة إلى زيارة البيت المقدس وتجديد العهد ببركاته ، واغتنام الأجر في حلول بقاعه ومزاراته ، ثم سرت منه إلى الديار المصرية ، وهي آهلة بكل ما تتجمل به البلاد وتردهي ، ويتتهي وصف الواصف لشؤونها ولا تنتهي ، ثم دخلت المغرب من الإسكندرية في البحر ودخلت مدينة مراكش أيام السيد الإمام أمير المؤمنين

أبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، فاتصلت بخدمته ، والذي علمت من حاله أنه كان يجيد حفظ القرآن ، ويحفظ متون الأحاديث ويُثَقِّنُها ، ويتكلَّم في الفقه كلاماً بليغاً ، وكان فقهاء الوقت يرجعون إليه في الفتاوى ، وله فتاوى مجموعة حسبما أدَّى إليه اجتهاده ، وكان الفقهاء ينسبونه إلى مذهب الظاهر ، وقد شرحت أحوال سيرته ، وما جرى في أيام دولته ، في كتاب التاريخ المسمَّى « عطف الذيل » . وقد صنف كتاباً جمع فيه متون أحاديث صحاح تتعلق بها العبادات سمَّاه « الترغيب » . وتهدَّده ملك الإفرنج الفُتُشُّ في كتابه فمزقه ، وقال لرسوله : ﴿ اَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (النمل : ٣٧) إن شاء الله تعالى ، ثم قال للكاتب : اكتب على هذه القطعة ، يعني من كتابه الذي مزَّقه : الجواب ما ترى لا ما تسمع :

فلا كُتِبَ إِلَّا الْمَشْرِفِيَّةُ وَالْقَنَا وَلَا رُسُلٌ إِلَّا الْخَمِيسُ الْعَرَمَرُمُ^١

ومن شعره أبيات كتب بها إلى العرب ، وهي :

يا أيُّها الراكبُ المُزجِجِي مطيَّته	على عُدافرة تشقَّى بها الأكمُ
بلغ سُلَيْماً على بُعد الديارِ بها	بَيْتِي وَبَيْنَكُمْ الرَّحْمَنُ وَالرَّحِيمُ
يا قومنا لا تشبُّوا الحربَ إن خمدتُ	واستمسكوا بعرى الإيمان واعتصموا
كم جرَّبَ الحربَ مَنْ قد كان قبلكمُ	من القرونِ فبادتْ دونها الأممُ
حاشا الأعاربَ أن ترضى بمنقصة	يا ليت شعري هل تراءهمُ علموا
يقودهمُ أرمنيُّ لا خلاقَ لهُ	كأنه بينهمُ من جهلهم علمُ

يعني بالأرمني قراقوش مملوك بني أيوب الذي كان ذهب إلى بلاد الغرب

١ ورد هذا الجواب في الحلل الموشية : ٣٠ ولكنه منسوب هناك ليوسف بن تاشفين وكذلك قال ابن عبد الغفور في أحكام صنعة الكلام ص : ١٦٤ ؛ والبيت المتنبي .

الأدنى ، وأوقد النار الحربية من طرابلس إلى تونس مع ابن غانية اللّمتوني ،
وحديثه مشهور^١ ، وتما الأبيات :

الله يعلم أني ما دعوتكم دُعاء ذي قوّة يوماً فينتقم
ولا بلحأت لأمرٍ يُستعانُ بهِ من الأمور وهذا الخلقُ قد علموا
لكن لأجزي رسولَ الله عن نسبٍ يُنمى إليه وترعى تلكم الذمم
فإن أتيتم فجل الوصل متصل وإن أتيتم فعند السيف نحتكم

ثمّ قال السرخسي : وبلغني أن قوماً من الغرباء قصدوه ، ومعهم حيوانات
مُعَلّمة منها أسد وغراب ، أمّا الأسد فيقصده من دون أهل المجلس ، ويربض
بين يديه ، وربّما أوماً بالسجود ومدّ ذراعيه ، وأمّا الغراب فكان يقول :
النصر والتمكين لسيدنا أمير المؤمنين ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

أنيس الشبلُ ابتهاجاً بالأسدُ ورأى شبهه أبيه فقصد
أنطق الخالق مخلوقاته شهدوا والكلُّ بالحقّ شهد
أنك الخيرة من صفوته بعدما طال على الناس الأمد

فأعطاهم وكساهم ، وأحسن حياهم . وبلغني أن قوماً أتوه بفيل من بلاد
السودان هدية ، فأمر لهم بصلة ، ولم يقبله منهم ، وقال : نحن لا نريد أن نكون
أصحاب الفيل .

وقال لي يوماً : كيف ترى هذه البلاد ؟ وأين هي من بلادك الشامية ؟
فقلت : يا سيدنا ، بلادكم^٢ حسنة أنيقة مجملّة مكملّة ، وفيها عيب واحد ،
فقال : ما هو ؟ فقلت : أنّها تُنسي الأوطان ، فتبسم وظهر لي إعجابه

١ تجد تفصيلاً لأعمال قراقوش وابن غانية في رحلة التجاني وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون (الجزء
السّادس) والبيان المغرب (الجزء الثالث) وراجع كتابي « تاريخ ليبيا » : ١٥٧ - ١٩٤ .
٢ ق : بلاد .

بالجواب ، وأمر لي من غد بزيادة رتبة وإحسان .
وحدثني بعض عمالهم أنه فرّق على الجنّد والأمرء والفقراء في عيد سنة
أربع وتسعين ثلاثة وسبعين ألف شاة من ضأن ومعر .
ودرّج إلى رحمة الله تعالى سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وكان قد
استخلف ولده محمداً وقرّر الأمر له ، انتهى .

قلت : بهذا وأمثاله تعلم فساد ما زعمه غير واحد أن يعقوب المنصور هذا
تخلّى عن الملك ، وفر زهداً فيه إلى المشرق ، وأنه دفن بالبقاع ، لأن هذه مقالة
عامية لا يثبتها علماء المغرب ، وسبب هذه المقالة تولّع العامة به ، فكذبوا في
موته ، وقالوا : إنّه ترك الملك ، وحكوا ما شاع إلى الآن وذاع ممّا ليس له
أصل . ويرحم الله تعالى الإمام العلامة القاضي الشريف الغرناطي شارح الخرزجية ،
إذ قال في شرح مقصورة حازم عند ذكره وقعة الأرك ما معناه^١ : إن بعض
الناس يزعمون أن المنصور ترك الملك وذهب إلى المشرق ، وهذا كلام لا يصح ،
ولا أصل له . انتهى . وقال في « المغرب » : كان أبوه يوسف قد استوزره في
حياته ، وتخرّج بين يديه ، وتمرّس ، وهزم الفرنج الهزيمة العظيمة ، وتولّع
بالعلم حتى نفى التقليد وحرّق كتب المذاهب ، وقتل على السكر ، انتهى .
وحكى لسان الدين الوزير ابن الخطيب في شرح كتابه « رقم الحُلل في
نظم الدول » أن المنصور طلب من بعض أعيان دولته رجلين لتأديب ولده
يكون أحدهما برّاً في عمله ، والآخر بجرّاً في علمه ، فجاءه بشخصين زعم
أنهما على وفقٍ مقترح المنصور ، فلمّا اختبرهما لم يجدهما كما وصف ، فكتب
إلى الآتي بهما ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الروم : ٤١) انتهى . وناهيك

١ نص ما أورده الشريف الغرناطي (رفع الحجب ٢ : ١٥٥) « وكذب الكافة من العامة بوفاته
فأؤنة يجعلونه يرابط ببلاد الأندلس مستكتماً بها ، وقارة يقولون إنه خرج زاهداً في الملك فتوجه
نحو بيت الله وجاور في المدينة عند قبر رسول الله (ص) حيث يخفي أمره ، ولهم في ذلك حكايات
يقولونها إلى الآن ، كلها تخرص وأباطيل » ، وانظر البيان المغرب ٣ : ٢١١ (ط . تطوان) .

بهذا دلالةً على قوة فطنته ومعرفته ، رحمه الله تعالى .

رجع إلى أخبار السرخسي :

وقال في رحلته لما ذكر السيد أبا الربيع سليمان بن عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي^١ ، وكان في تلك المدة يلي مدينة سجلماسة وأعمالها : اجتمعت به حين قدم إلى مراكش بعد وفاة المنصور يعقوب لمبايعته ولده محمد ، فرأيتُه شيخاً بهي المنظر ، حسن المخبر ، فصيح العبارة باللغتين العربية والبربرية ، ومن كلامه في جواب رسالة إلى ملك السودان بغانة ينكر عليه تعويق التجار قوله : نحن نتجاوز بالإحسان ، وإن تخالفنا في الأديان ، ونتفق على السيرة المرضية ، ونتألف على الرفق بالرعية ، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تعانیه إلاّ النفوس الشريرة الجاهلة ، وقد بلغنا احتباسُ مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده ، وتردد الجلالة إلى البلد مفيد لسكانها ، ومعين على التمكن من استيطانها ، ولو شئنا لاحتبسنا مَنْ في جهاتنا من أهل تلك الناحية لكنّا لا نستصوب فعله ، ولا ينبغي لنا أن ننهي عن خلق ونأتي مثله ، والسلام .

ووقع إلى عامل له كثرت الشكاوى منه : قد كثرت فيك الأقوال ، وإغضائي عنك رجاء أن تتيقّظ فتتصلح الحال ، وفي مُبادرتي إلى ظهور الإنكار عليك نسبة إلى شر الاختيار وعدم الاختبار ، فاحذر فإنّك على شفا جُرْفٍ هارٍ . ومن شعره المشهور قصيدة يمدح فيها ابن عمّه المنصور يعقوب^٢ :

١ أبو الربيع الموحدي سليمان بن عبد الله (- ٦٠٤) ، ولي بجاية ، وشارك في بعض الأعمال الحربية ضد ابن غانية بتونس ؛ وقال الشقندي فيه إنه من مفاخر بني عبد المؤمن ، كان قديراً على النظم حافظاً للأدب ، وله ديوان شعر (انظر الفصون اليانعة : ١٣١ - ١٣٤) ويبدو أن قسماً من هذا الشعر قد نخله إياه أحد كتّابه (المعجب : ٣٧٨) .

٢ هي في ديوانه ص ٢٠ (وخطوطة الرباط من ديوانه : الورقة ١٥٧) قالها بهيئ الخليفة أبا يوسف بفتح قفصة سنة ٥٨٣ .

وَجَرَتْ بِسَعْدِكُمُ النُّجُومُ الطُّلَعُ
أَنْ الْأُمُورَ إِلَى مُرَادِكُ تَرْجِعُ
مَلَأَ الْبَسِيطَةَ نُورُهُ الْمُشْتَعِشُ
نَفْسًا تُفَدِّيَهَا الْخَلَائِقُ أَجْمَعُ
بِعِزِّهِ كَالسَّيْفِ بَلْ هِيَ أَقْطَعُ
وَالْخَيْلُ تُجْرِي وَالْأَسِنَّةُ تَلْمَعُ
مَا إِنْ لَهُ غَيْرُ التَّوَكُّلِ مَقْزَعُ
يَوْمًا إِذَا أَضْحَى الْجَوَارُ يُضَيِّعُ

هَبَّتْ بِنَصْرِكُمُ الرِّيحُ الْأَرْبَعُ
وَاسْتَبْشَرَ الْفَلَكَ الْأَثِيرُ تَيْقَنًا
وَأَمَدَكَ الرَّحْمَنُ بِالْفَتْحِ الَّذِي
لَمْ لَا وَأَنْتَ بَدَلْتَ فِي مَرْضَاتِهِ
وَمَضَيْتَ فِي نَصْرِ الْإِلَهِ مُصَمَّمًا
لِلَّهِ جَيْشُكَ وَالصَّوَارِمُ تُنْتَضَى
مِنْ كُلِّ مَنْ تَقْوَى إِلَهُ سِلَاحُهُ
لَا يُسْلَمُونَ إِلَى النَّوَازِلِ جَارَهُمْ

ومنها يصف انهزام العدو :

فَبَجْهَلِهِ قَدْ ظَنَّ مَا لَا يَنْفَعُ
وَالْأَرْضُ تُنْشَرُ فِي يَدَيْكَ وَتَجْمَعُ
فَتَحُّ يُمَدُّ بِمَا سِوَاهُ وَيُشْفَعُ
وَلَبَسْتَ مِنْهُ أَنْتَ مَا لَا يُخْلَعُ
وَاللَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ
وَمَنْ ادَّعَاهُ يَقُولُ مَا لَا يُسْمَعُ
فَإِلَيْكَ يَا يَعْقُوبُ تَوَمِّي الْإِصْبَعُ
أَنْتَ الْمَقْدَمُ وَالْخَلَائِقُ تُبْعُ
مَنْ قَلْبٍ صَدَقَ لَمْ يَشْنَعُ تَصْنَعُ
أَنْتَ الْمَلَاذُ لَهَا وَأَنْتَ الْمَفْزَعُ
وَالْمَدْحُ مِنْ غَيْرِي إِلَيْكَ تَطْبَعُ
يَفْنَى الزَّمَانُ وَعَرَفُهَا يَتَضَوَّعُ

إِنْ ظَنَّ أَنْ فِرَارُهُ مُنْجٍ لَهُ
أَيْنَ الْمَفَرُّ وَلَا فِرَارَ لِهَارِبٍ
أَخْلِيقَةَ اللَّهِ الرِّضَى هُنَيْتُهُ
فَلَقَدْ كَسَوْتَ الدِّينَ عِزًّا شَاخًا
هِيَهَاتَ سِرُّ اللَّهِ أَوْدَعَ فِيكُمْ
لَكُمْ الْهُدَى لَا يَدَّعِيهِ سِوَاكُمْ
إِنْ قِيلَ مَنْ خَيْرُ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا
إِنْ كُنْتَ تَتْلُو السَّابِقِينَ فَإِنَّمَا
خُذْهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَدِيحَةً
وَاسْلَمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَأَمَّةٍ
فَالْمَدْحُ مِنِّي فِي عِلَّاكَ طَبِيعَةٌ
وَعَلَيْكَ يَا عَلَمَ الْهُدَاةِ تَحِيَّةٌ

قال لي الفقيه أبو عبد الله محمد القسطلاني : دخلت إلى السيد أبي الربيع بقصر
سجلماسة ، وبين يديه أنطاع عليها رؤوس الخوارج الذين قطعوا الطريق على
السفار بين سجلماسة وغانة ، وهو ينكت الأرض بقضيب من الآبنوس ،
ويقول :

ولا غرو أن كانت رؤوسُ عِدَاتِهِ جواباً إذا كان السيوفُ رسائلهُ
ومات بعد الستمائة ، رحمه الله تعالى ، انتهى .

وقال لما هجره أمير المؤمنين يعقوب المنصور ، ووافق ذلك أن وقدَ على
حضرة الخلافة مراکش جمعٌ من العرب والغز^١ من بلاد المشرق ، ونزلوا
بتمرتانسقت ظاهر مراکش ، واستأذنوا في وقت الدخول ، فكتب إلى المنصور^٢ :

يا كعبةَ الجودِ التي حَجَّتْ لها عَرَبُ الشَّامِ وَغَزَاها وَالِدَيْلَمُ
طوبى لمن أَمسى يطوفُ بها غداً وَيَحِلُّ بالبيتِ الحرامِ وَيُحَرِّمُ
ومن العجائبِ أن يفوزَ بنظرةٍ مَنْ بالشَّامِ ومن بمكةَ يُحَرِّمُ
فعفا عنه ، وأحسن إليه ، وأمره بالدخول بهم ، والتقدم عليهم .

وقال في « المغرب » في حق السيد أبي الربيع المذكور ، ما ملخصه^٣ : لم يكن
في بني عبد المؤمن مثله في هذا الشأن الذي نحن بصددده ، وكان تقدم على مملكتي
سجلماسة وبجاية ، وكان كاتباً شاعراً أديباً ماهراً ، وشعره مدون ، وله ألغاز ،

١ الغز : فريق من الجيش الذي كان يلتف حول شرف الدين قراقوش وفيه عناصر تركية في الأغلب
وردوا المغرب حوالي ٥٨٢ هـ أو التي بعدها ، فأكرمهم الخليفة الموحي وجعل لهم جامكية شهرية
لا تحتل (انظر المعجب : ٣٦٥ - ٣٦٧) حين رتبهم في جيشه ، وقد نوه المنصور بالغز في
وصيته حين قال : « وهؤلاء الأغزاز أمرنا لهم بهذه البركة يأخذونها فاتركوها على ما رتبنا وربطنا
لأن الموخدين لهم سهام يرجعون إليها وليس للأغزاز سهام » (البيان ٣ : ٢٠٨ ط . تطوان) .

٢ الأبيات في ديوانه : ١٤٤ .

٣ لم ترد هذه الترجمة في المغرب المطبوع .

وهو القائل في جارية اسمها ألوف^١ :

خليليّ قولاً أين قلبي ومنّ به وكيف بقاء المرء من بعد قلبه
ولو شئتُما اسمَ الذي قد هويتهُ لصحفتُما أمري لكم بعد قلبه^٢

وله الأبيات المشهورة التي منها^٣ :

أقول لركب أدلجوا بسُحيرة قفُوا ساعةً حتى أزورَ ركبها
وأملأ عيني من محاسن وجهها وأشكو إليها أن أطالت عتابها
فإن هي جادت بالوصالِ وأنعمت وإلاّ فحسبي أن رأيتُ قبابها

وقال يخاطب ابن عمّه يعقوب المنصور^٤ :

فلأملأن الخافقين بذكركم ما دمت حيّاً ناظماً ومُرسلاً
ولأبدلن نصحي لكم جهدي وذا جهْدُ المقلِّ وما عسى أن أفعل
ولأخلِصنّ لك الدعاء ، وما أنا أهلٌ له ، ولعلّه أن يُقبلاً

وله مختصر كتاب « الأغاني » ، انتهى .

رجع - وذكر السرخسي أيضاً في رحلته السيد أبا الحسن علي بن عمر ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وقال في حقّه : إنّه كان من أهل الأدب والطرب ، ولي بجاية مدة ، ثمّ عزّل عنها لإهماله وإغفاله وانهماكه في ملاذه ، أنشدني محمد ابن سعيد المهدي كاتبه قال : كتب الأمير أبو الحسن إلى أمير المؤمنين يعقوب يمدحه ويستريده ، ويطلب منه ما يقضي به ديونه :

١ الديوان : ١١٧ .

٢ أمره هو الفعل « قولاً » في البيت الأول ، وتصحيحه بعد قلبه هو « ألوف » .

٣ الديوان : ٤٩ .

٤ الديوان : ٣٩ .

وَجُؤهُ الْأَمَانِي بِكُمْ مُسْفِرَةً ۚ وَضَاحِكَةً لِي ۚ مُسْتَبَشِّرَةً
وَلِي أَمَلٌ فَيَكُمُ صَادِقٌ ۚ قَرِيبٌ عَسَى اللَّهُ قَدْ يَسَّرَهُ
عَلَيَّ دُيُونٌ وَتَصْحِيفُهَا وَعِنْدَكُمْ الْجُودُ وَالْمَغْفِرَةُ

يعني ذنوب .

وحدثني الشيخ أبو الحسن ابن فشتال^١ الكاتب وقد أنشدته :

أَوْحَشْتَنِي وَلَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَى الَّذِي لَكَ فِي ضَمِيرِي لَمْ تَكُنْ لِي مَوْحِشًا

فقال : أنشدته هذا البيت في مجلس السيد أبي الحسن ، فقال لي ولئن حضر :
هل تعرفون لهذا البيت ثانياً ؟ فما فينا من عرفه ، فأئشدنا :

أَتَرَى رُشِيَّتَ عَلَى أَطْرَاحِ مَوَدَّتِي وَلَقَدْ عَهْدَتِكَ لَيْسَ تَشْنِيكَ الرُّشَا
أَوْحَشْتَنِي - البيت ، انتهى .

وقال في « المغرب » في حق السيد المذكور ، ما ملخصه : كان هذا السيد
أبو الحسن قد ولي مملكة تلمسان وبجاية ، وله حكايات في الجود برمكية ،
ونفس عالية زكية ، كتب إليه السيد أبو الربيع يوم الجمعة^٢ :

الْيَوْمُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ۚ يَوْمُ سُرُورٍ وَدَعَةٍ ۚ
وَشَمَلْنَا مَفْتَرَقٌ ۚ فَهَلْ تَرَى أَنَّ نَجْمَعَهُ ۚ

فأجابه بقوله :

الْيَوْمُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ۚ وَرَبَّنَا قَدْ رَفَعَهُ ۚ
وَالشَّرْبُ فِيهِ بَدْعَةٌ ۚ فَهَلْ تَرَى أَنَّ نَدَعَهُ ۚ

١ ق : قشتال .

٢ ديوان أبي الربيع : ١٣٧ .

قال : ولقطة « السيد » في المغرب بذلك العصر لا تطلق إلا على بني عبد المؤمن بن علي ، انتهى .

رجع — قال السرخسي ، وقد ذكر في الرحلة المذكورة السيد أبا محمد عبد الله صاحب فاس : وله من أبيات في الفخر وقد انتحلها غيره :

أَلَسْتُ ابْنَ مَنْ تَخْشَى اللَّيَالِي انْتِقَامَهُمْ وَتَرْجُو نَدَاهُمْ غَادِيَاتُ السَّحَابِ
يَخْطُونَ بِالْخَطِّ فِي حَوْمَةِ الْوَعْيِ سَطُورَ الْمَنَايَا فِي نَحْوِ الْمَقَانِبِ
كِتَابًا بِأَطْرَافِ الْعَوَالِي وَنِقْسُهُ دَمُ الْقَلْبِ مَشْكُولًا بِنَضْحِ التَّرَائِبِ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَهُمْ أَنَّ مَعْشَرًا أَقَامُوا كِتَابًا مِنْ نَفُوسِ الْكُتَائِبِ

وأنشدني المقدم الأمير أبو زيد بن يكيك قال : أنشدني بعض السادة من بني عبد المؤمن :

فَدَيْتُ مَنْ أَصْبَحْتُ فِي أَسْرِهِ وَلَيْسَ لِي مِنْ حَكْمِهِ فَادِي
إِنْ حَلَّ يَوْمًا وَادِيًا كَانَ لِي جَنَّةٌ عَدْنٍ ذَلِكَ الْوَادِي

ثم ذكر رحمه الله تعالى جملة من علماء الأندلس والمغرب لقيهم في هذه الرحلة .

ومن نظم السرخسي المذكور قوله رحمه الله تعالى :

يَا سَاهِرَ الْمَقْلَةِ لَا عَن كَرَرِي غَفَلْتُ عَنْ هَجْعِي وَأَوْصَابِي
لَوْ لَمْ يَكُنْ وَجْهُكَ لِي قِبَاةً مَا أَصْبَحَ الْحَاجِبُ مُحْرَابِي

وكان مفتشاً في العلوم ، وهو عمُّ الأمراء الوزراء الرؤساء فخر الدين وإخوته ، ومن مصنفاته « المسالك والممالك » و « عطف الذيل » في التاريخ ، وله أُمَالٍ وتُخَارِيجٌ وقدمه المنصور صاحب المغرب على جماعة ، وتوفي رحمه الله تعالى بدمشق ، ودفن في مقابر الصوفية عند المنيع ، وكان عالي الهمة ،

شريف النفس ، قليل الطمع ، لا يلتفت إلى أحد رغبة في دُنْيَاه ، لا من أهله ولا من غيرهم ، وذكره صاحب « المرأة » وغيره ، وترجمته واسعة ، رحمه الله تعالى .

٦١ - ومن الوافدين على الأندلس ظفر البغدادي^١ ، سكن قرطبة ، وكان من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط كعباس بن عمرو الصقلي ويوسف البلوطي وطبقتهما ، واستخدمه الحكم المستنصر بالله في الوراقاة ، لما عُلِمَ من شدة اعتناء الحكم بجمع الكتب واقتنائها ، وقد أشار ابن حيّان في كتاب « المقتبس » إلى ظفر هذا ، رحمه الله تعالى .

٦٢ - ومنهم الرازي ، وهو محمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط ، الكتافي ، الرازي^٢ ، والد أبي بكر أحمد بن محمد صاحب التاريخ ، غلب عليه اسم بلده ، وكان يفد من المشرق على ملوك بني مروان تاجراً ، وكان مع ذلك متقناً^٣ في العلوم ، وهلك مُنْصَرَفَه من الوفادة على الأمير المنذر بن محمد بالبيرة ، في شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣ ، ذكره ابن حيّان في « المقتبس » .

٦٣ - ومنهم الوزير أبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز ابن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان التميمي ، الدارمي ، البغدادي^٤ . سمع من أبي طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص^٥

١ ترجمة ظفر الوراق في التكملة : ٣٤٦ .

٢ انظر ترجمته في التكملة : ٦٧٠ .

٣ التكملة : مفتناً .

٤ ترجمة أبي الفضل البغدادي في الجذوة : ٦٨ (وبغية الملتبس رقم : ٢٠٩) والذخيرة ٤ / ١ : ٦٧ - ٩٢ وفيه تفصيل رحلته وتقلبه في البلاد .

٥ في الجذوة : سمع من أبي طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص جزمين ، وقد يومهم أن « المخلص » اسم كتاب ، وعند حاجي خليفة « المخلصيات » من حديث أبي طاهر لابن العباس ابن مخلص الذهبي . (ص ١٦٣٩) .

وغيره ، وخرج من بغداد رسولاً عن أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسي رضي الله تعالى عنه إلى صاحب إفريقية المعز بن باديس ، واجتمع مع أبي العلاء المعري بالمرعة ، وأنشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب ، فقبل عينيه ، وقال له :
 لله أنت من ناظم ؛ وخرج من إفريقية من أجل فتنة العرب ، وخيّم عند المأمون ابن ذي النون بطليطلة^١ ، وله فيه أمداح كثيرة ، ومن فرائد شعره قوله^٢ :

يا ليلُ ألاّ انجلَيْتَ عن فلَقٍ طُلْتُ ولا صبرَ لي على الأرقِ
 جفا لحاظي^٣ التغميضُ فيك فما تُطبّق أجفانها على الحدقِ
 كأنتي صورةٌ ممثلةٌ ناظرها الدهرُ غيرُ منطبقِ

وقال :

يزرعُ ورداً ناضراً ناظري في وَجَنَةٍ كَالْقَمَرِ الطالعِ
 أُمْنَعُ أنْ أَقْطَفَ أَزْهَارَهُ في سُنَّةِ المتبوعِ والتابعِ
 فلمْ منعَمْ شَقِي قَطْفُهَا والحكمُ أنْ الزرعُ للزراعِ

هكذا نسبها له غير واحد كابن سعيد وابن كتيلة^٥ ، وبعضهم ينسبها للقاضي عبد الوهّاب .

قلت : وقد أجاب عنها بعض المغاربة بقوله :

سَلَّمْتُ أنَّ الحكمَ ما قَلَمُ وهو الذي نُصَّ عن الشارعِ

١ كان دخوله طليطلة يوم الجمعة لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة ٤٥٤ .

٢ الذخيرة : ٧٥ .

٣ الذخيرة : جفوني .

٤ الذخيرة : تسبل أشفارها .

٥ في ق : وأبو كيلة ، وقد اضطربت في النسخ بين : كتيلة ، كتيلة ، كتيلة ، كما جاء موضعها بياض في نسخ أخرى .

فكيف تبغي شَفَةَ قَطْفِهِ وَغَيْرُهَا المدعوُّ بالزراعِ

ورده شيخُ شيوخنا الإمام الحافظ أبو عبد الله التَّنَسِّي ثم التلمساني بقوله :

في ذا الذي قد قَلِمَ مَبِحثٌ إِذ فيه إِيهامٌ على السامعِ
سَلِمَتمُ الحكمَ لَهُ مُطلقاً وَغَيْرُ ذَا نُصٍّ عن الشارعِ

يعني أَنَّهُ يلزم على قول المجيب أَن يباح له النظر مُطلقاً ، والشرع خلافه .
وأجاب بعض الحنفية بقوله :

لأنَّ أَهلَ الحبِّ في حكمنا عبيدنا في شرعنا الواسعِ
والعبدُ لا مِلِكَ لَهُ عندنا فَحقُّهُ للسَّيِّدِ المانعِ
وهو جواب حسن لا بأس به .

ورأيت جواباً لبعض المغاربة على غير رَوِيَّهِ ، وهو :

قل لأبي الفضلِ الوزيرِ الذي باهى به مَغْرِبَتنا الشرقُ
غَرَسَتْ ظِلماً وأردت الجنى وما لِعِرْقٍ ظالمٍ حقُّ

قلت : وهذا ممَّا يُعَيِّنُ أَنَّ الأبيات لأبي الفضل الدارمي المذكور في
الذخيرة ، لا للقاضي عبد الوهاب ، والله تعالى أعلم .

ومن شعر الوزير المذكور قوله :

بينَ كرَيمينِ منزلٍ واسعٍ وَالوُدُّ حالٌ تُقَرَّبُ الشاسعُ
والبيتُ إن ضاق عن ثمانيةٍ متسعٌ بالودادِ للتاسعُ

وولد رحمه الله تعالى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ، وهو من بيت علم وأدب ،
قال الحميدي : أخبرني بذلك أبو عمر^١ رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز

١ الجلوده : أبو محمد .

ابن الحارث ، وتوفي بطليطة سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، وقال ابن حيّان :
توفي ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس وخمسين
وأربعمائة ، في كنّف المأمون يحيى بن ذي النون ، وذكر أنّه كان يُتّمهم
بالكذب ، فالله تعالى أعلم بحقيقة الأمر .

وقال ابن ظافر في كتابه « بدائع البدائ »^١ ما نصّه : حضر أبو الفضل الدارمي
البغدادى مجلس المعزّ بن باديس ، وبالمجلس ساقٍ وسيم قد مَسَّكَ عذاره
وردّ خديه ، وعجزت الراح أن تفعل في الندامى فعلَ عينيه ، فأمره المعز
بوصفه ، فقال بديهاً :

وَمُعَدَّرْ نَقْشَ الْجَمَالِ بِمِسْكِهِ خَدَّآ لَهُ بِدَمِ الْقُلُوبِ مُضَرَّجَا
لَمَّا تَيَقَّنَ أَنَّ سَيْفَ جَفْوَنِهِ مِنْ تَرْجِسٍ جَعَلَ الْعَذَارَ بِنَفْسِجَا

وقوله في جارية تبخرت بالنند^٢ :

وَمَحْطُوطَةُ الْمَتْنِ مَهْضُومَةُ الْحِشَا مُنْعَمَةُ الْأُرْدَافِ تَدْمِي مِنَ اللَّمْسِ
إِذَا مَا دُخَانَ النَّدِّ مِنْ جَيْبِهَا عَلَا عَلَى وَجْهِهَا أَبْصُرَتْ غَيْمًا عَلَى شَمْسِ

وقوله^٣ :

لَأَغْرَرَنَّ بِمَهْجَتِي فِي حَبِّهِ غَرَرًا يَطِيلُ مَعَ الْخُطُوبِ خُطَابِي
وَلَنْ تَعْزُزَ إِنِّ عِنْدِي ذَلَّةٌ تَسْتَعِظُ الْأَعْدَاءُ لِلْأَحْبَابِ

وقوله^٤ :

١ بدائع البدائ ٢ : ٤٠ وانظر الذخيرة ١ / ٤ : ٧٣ .

٢ الذخيرة : نفس الصفحة .

٣ الذخيرة : ٧٤ .

٤ الذخيرة : ٧٥ .

دَعَتْنِي عَيْنَاكَ نَحْوَ الصَّبَا دُعَاءُ يَكْرُرُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
وَلَوْلَا وَحَقُّكَ عَذْرُ الْمَشِيبِ لَقَلْتُ لَعِينِكَ سَمْعًا وَطَاعَةً

وقد تمثل بهذين البيتين لسان الدين ابن الخطيب في خطبة تأليفه المسمّى
بـ «روضة التعريف بالحلب الشريف» .

وقال أبو الفضل الدارمي المذكور أيضاً^١ :

سَطَا الْفِرَاقُ عَلَيْهِمْ غَفْلَةً فَعَدَوْا مِنْ جَوْرِهِ فِرَاقًا مِنْ شِدَّةِ الْفِرَاقِ
فَسَرْتُ شَرْقًا وَأَشْوَاقِي مُغْرَبَةً يَا بَعْدَ مَا نَزَحْتُ عَنْ طُرُقِهِمْ طُرُقِي
لَوْلَا تَدَارُكُ دَمْعِي يَوْمَ كَاطِمَةٍ لِأَحْرَقَ الرِّكْبَ مَا أَبْدَيْتُ مِنْ حُرْقِي
يَا سَارِقَ الْقَلْبِ جَهْرًا غَيْرَ مَكْتَرٍ أُمِنْتُ فِي الْحَبِّ أَنْ تُعْدِيَ عَلَى السَّرْقِ
أُرْمَقُ بَعِينَ الرِّضَى تُنْعِشُ بِعَاطِفَةٍ قَبْلَ الْمُنِيَّةِ مَا أَبْقَيْتُ^٢ مِنْ رَمَقِي
لَمْ يَبْقَ مِنِّي سِوَى لَفْظٍ يَبُوحُ بِمَا أَلْقَى فَيَا عَجَبًا لِلْفَظِّ كَيْفَ بَقِيَ
صِلْتَنِي إِذَا شِئْتَ أَوْ فَاهِجْرٍ عِلَانِيَةً فَكَلْتُ ذَلِكَ مَحْمُولًا عَلَى الْحَدَقِ

وقال^٣ :

تَذَكَّرَ نَجْدًا وَالْحُمَى فَبَكَى وَجَدَا وَقَالَ : سَقَى اللَّهُ الْحُمَى وَسَقَى نَجْدَا
وَحَيَّتُهُ^٤ أَنْفَاسَ الْخُزَامَى عَشِيَّةً فَهَاجَتْ إِلَى الْوَجْدِ الْقَدِيمِ بِهِ وَجَدَا
فَظَاهَرَ سُلُوءَانًا وَأَضْمَرَ لَوْعَةً إِذَا طُفِئَتْ نِيرَانُهَا وَقَدَّتْ وَقَدَا
وَلَوْ أَنَّهُ أَعْطَى الصَّبَابَةَ حُكْمَهَا لِأَبْدَى الَّذِي أَخْفَى وَأَخْفَى الَّذِي أَبْدَى

١ الذخيرة : ٨٤ .

٢ الذخيرة : ما أوهيت .

٣ الذخيرة : ٧٨ .

٤ في ق : وخفة ؛ والتصويب عن الذخيرة .

وقال أيضاً^١ :

قلتُ للملقى على الخ	لدين من وَرْدٍ خمارا
أسبَل الصَّدْعُ على خ	مدَّكَ من مِسْكٍ عذارا
أم أعان الليلَ حتَّى	قهرَ الليلُ النهارا
قال : ميدانٌ جرى الحس	نُ عليه فاستدارا
ركضتُ فيه عيونٌ	فأثارتهُ غبارا

وقال^٢ :

وكاتبٌ أهديتُ نَفْسِي لهُ	فَهَيَّ من السوءِ فدا نَفْسِي
فلستُ أدري بعد ما حلَّ بي	بمِسْكِهِ أَتلفُ أمْ نَفْسِي
سلَّطَ خَدَيْهِ على مُهْجَتِي	فاستأصلَتْها وَهْيَ من غرسِهِ

وقال :

وشادنٌ أسرفَ في صدِّهِ	وزادَ في التيهِ على عبدِهِ
الحسنُ قد بثَّ على خدِّهِ	بنفسجاً يزهو على وردِهِ
رأيتُهُ يكتبُ في طرسِهِ	خطاً يباري الدرَّ من عقدِهِ
فخِلْتُ ما قد خَطَّه كَفُّهُ	للحسنِ قد خُطَّ على خدِّهِ

وقال :

إنِّي عشقتُ صغيراً	قد دبَّ فيه الجمالُ
وكاد يُفْشِي حديثاً	مفضول منه الدَّلالُ
لو مرَّ في طُرُقِ الهج	رٍ لاعتراه ضلالُ

١. الذخيرة : ٧٧ .

٢. وردت سائر القطع في الذخيرة ، فلا حاجة إلى إثبات ذلك عند كل قطعة .

يريك بدرأ منيراً في الحسنِ وهو هلالٌ

وقال :

ظبيُّ إذا حرَّكَ أصداعهُ لم يلتفتْ خلَّقْ إلى العِطرِ
غنى بشعري منشداً ليتني الا فظُّ الذي أودعتهُ شعري
فكلَّما كرَّرَ إنشادهُ قبلَّتهُ فيه ولم يدُرِ

وقال :

أينفَعُ قولي إنَّتي لا أحبهُ ودمعي بما يُمليه وجدي يكتبُ
إذا قلتُ للواشينَ لستُ بعاشقٍ يقولُ لهم فيض المدامعِ يكذبُ

وقال :

وهبني قد أنكرتُ حُبَّك جملةً وآليتُ أنِّي لا أروم مَحَطَّها
فمن أين لي في الحبِّ جرحُ شهادةٍ سقامي أملاها ودمعي خطَّها

وقال :

أنا أخشى إن دام ذا الهجرُ أن يُنْ شطَّ من حُبِّه عقالُ وثاقي
فأريحُ الفؤاد ممَّا اعتراهُ وأردُّ الهوى على العشاقِ

وقال :

كلانا لعمري ذائبان^١ من الهوى فناركُ من جمرٍ وناري من هجرٍ
فأنتِ على ما قد تقاسين من أذى فصدركِ في نارٍ وناري في صدري

١ الذخيرة : ذو بيان .

وقال :

ومن عَجَبِ العَشْقِ أَنْ القَتِيلَ يَحْنُ وَيَصْبِرُ إِلَى القَاتِلِ

وقال :

أَلَمْ أَجْعَلْ مُثَارَ النِّعِ بِحَرٍّ عَلَى أَنَّ الجِيَادَ لَهُ سَفِين

وقال :

أَصْبَحْتُ أَحْلَبُ تَيْسًا لَا مَدَرَ لَهُ وَالتَّيْسُ مَنْ ظَنَّ أَنَّ التَّيْسَ مَحْلُوبُ

وأما الحكيم أبو محمد المصري وهو القائل ^١ :

رعى اللهُ دهرًا قد نعمنا بطييه ليليه من شمس الكؤوسِ أصائل
ونرجسنا درًّا على التبرِ جامدٌ وخمرتنا تَبْرًا على الدرِّ سائل

فقد ترجمه في « الذخيرة » فليراجع ، فإن الذخيرة غريبة في البلاد الشرقية .
وقد كان عندي بالمغرب من هذا النوع ما أستعين به ، فخلفته هنالك ، والله تعالى
يلم الشمل . وقد ذكر فيها أنه مغربي سافر إلى مصر ، فقليل له « المصري »
لذلك ، فليُعلم ، والله تعالى أعلم .

٦٤ - ومن الوافدين على الأندلس أشهب بن العضد الخراساني . قال ابن

سعيد : أنشدنا لما وفد على ابن هود في إشبيلية قصيدة ابن النبيه :

طاب الصَّبُوحُ لَنَا فهاك وهات ^٢

وادعاها ، وفيها :

١ هو أبو محمد عبد الله بن خليفة المصري ، ترجم له ابن بسام في الذخيرة في قسم الغرباء الطائرين
على الأندلس بعد ترجمة ابن حمديس (في القسم الذي لم يطبع بعد) وانظر ١/٤ : ٦٩ - ١٠٥ ،
وقد ذمه ابن خيَّان دون أن يذكر اسمه ص : ١٠٩ .
٢ عجزه : واشرب هنيئًا يا أخا اللذات (الفوات ٢ : ١٤٧) .

في روضة غنّا تخال طيورَها وغصونَها همزاً على أَلِفَاتٍ

ولم أجد هذا البيت في قصيدة ابن النبيه ، انتهى .

٦٥ - ومن الوافدين على الأندلس من المشرق أبو الحسن البغدادي
الفُكَيْكُ ، وهو مذكور في الذخيرة ، وكان حلوَ الجواب ، مليح التندر ،
يُضحك من حضر ، ولا يضحك هو إذا ندّر ، وكان قصيراً دميماً . قال :
ورأيته يوماً وقد لبس طاقاً أحمر على بياض ، وفي رأسه طرطور أخضر ،
عمم عليه عمّة لازوردية ، وهو بين يدي المعتمد بن عباد ينشد شعراً قال فيه :

وأنت سليمانُ في مُلكِهِ وبين يديكَ أنا الهُدُ هُدُ

وأنشد له في المعتمد :

أبا القاسمَ الملكَ المعظّمَ قَدَرُهُ	سواك من الأملاكِ ليس يُعظّمُ
لقد أصبحتُ حمصٌ بعدلكَ جَنَّةٌ	وقد أبعدتُ عن ساكنيها جَهَنمُ
ولي بحياكِ الربيعُ عاماً وأشهرأ	أزخرفُ أعلامَ الثناء وأرقمُ
وأنفقتُ ما أعطيتني ثقةً بما	أؤملُ فالدينارُ عندي درهمُ
وقلبي إلى بغدادَ يَصُبُّو ولأني	لنَشْرِ صباها دائماً أُنسَمُ

وقال :

وذرى على ربيعِ العقيقِ دموعه	عقيقاً ففيها تَوَامٌ وفريدُ
شهدتُ وما تغني شهادةُ عاشقٍ	بأن قتلَ الغانياتِ شهيدُ

ومنها :

١ راجع فهرست الذخيرة ١ / ١ : ١٩ وهو في القسم الذي لم يطبع بعد ، في تراجم الغرباء الطائرين
على الأندلس .

إذا قابلوه قَبَلُوا تُرْبَ أَرْضِهِ وهمْ لِعُلَاهُ رُكَّعٌ وَسُجُودُ
وقد هَزَّ مِنْهُ اللهُ لِلْمَلِكِ صَارِمًا تُقَامُ بِحَدَّيْ شَفَرَتَيْهِ حُدُودُ

وقال :

لَأَيَّةِ حَالٍ حَالٍ عَنْ سِنَةِ الْكَرَى ولم أَصْغِ يَوْمًا فِي هَوَاهِ إِلَى الْعَذْلِ

ومنها :

كَأَنَّ بَقَاءَ الطَّلِّ فَوْقَ جَفُونِهَا دُمُوعُ التَّصَابِي حِرْنٌ فِي الْأَعْيُنِ النَّجْلِ

ومنها :

تَمَلَّكَتْ رَقِيَّ بِالْعَوَارِفِ مَنَعِمًا وَأَغْنَيْتَنِي بِالْجُودِ عَنْ كُلِّ ذِي فَضْلِ
وَأَنْسَيْتَنِي أَرْضَ الْعِرَاقِ وَدَجَلَةً وَرَبَّعِي حَتَّى مَا أَحْنُ إِلَى أَهْلِي

وقال في المقتدر بن هود :

لِعَزِّكَ ذَلَّتْ مَلُوكُ الْبَشَرِ وَعَفَّرْتَ تَيْجَانَهُمْ فِي الْعَفْرِ
وَأَصْبَحْتَ أَخْطَرَهُمْ بِالْقَنَا وَأَرْكَبَهُمْ لِحَوَادِ الْخَطَرِ
سَهَرْتَ وَنَامُوا عَنِ الْمَأْثُرَاتِ فَمَا لَهُمْ فِي الْمَعَالِي أَثَرُ
وَجَلَيْتَ فِي حَيْثُ صَلَّى الْمَلُوكُ فَكُلُّ بَذِيلٍ الْمُنَى قَدْ عَثَرُ

ومنها :

وَأَنْتُمْ مَلُوكٌ إِذَا شَاجَرُوا أَظَلَّتْهُمْ مِنْ قَنَاهُمْ شَجَرُ

وقال الفكيك من قصيدة :

غَنَى حُسَامُكَ فِي أَرْجَاءِ قَرْطَبَةٍ صَوْتًا أَبَادَ الْعَدَى وَاللَّيْلُ مَعْتَكُرُ
حَيْثُ الدَّمَاءُ مُدَامٌ وَالْقَنَا زَهَرٌ وَالْقَوْمُ صُرْعَى بِكَاسِ الْحَتَفِ قَدْ سَكُرُوا

وكان مشهوراً بالهجاء ، وله في نقيب بغداد وكانت في عنقه غُدَّة :
بَلَعَ الأمانةَ فهي في حلقومه لا تَرْتَقِي صُعداً ولا تَنْزَلُ
وقال في ناصر الدولة بن حمدان :

ولئن غلطتُ بأن مَدَحْتُكَ طالباً جَدُّوَكَ مَعَ علمي بأنك باخلُ
فالدولةُ الغراء قد غلطتُ بأن سَمَّتْكَ ناصرَها وأنتَ الخاذلُ
إنْ تمَّ أمرك مع يدٍ لك أصبحتُ شلاءً فالأمثالُ شيءٌ باطلُ
ومما ينسب إليه ، وقيل لغيره :

ووعدتني وَعْداً حَسْبَكَ صادقاً فجعلتُ من طمعي أجىء وأذهبُ
فإذا اجتمعتُ أنا وأنتَ بمجلسٍ قالوا مسيلمةٌ وهذا أشعبُ

٦٦ - ومنهم إبراهيم بن سليمان الشامي ، دخل الأندلس من المشرق في
آخرِ أيامِ الحكمِ شادياً للشعر ، وهو من موالي بني أمية ، ولم ينفق على الحكم ،
وتحرك في أيام ولده الأمير عبد الرحمن فنفق عليه ، ووصله ، ثم في أيام الأمير
محمد بن عبد الرحمن ، وكان أدرك بالمشرق كبار المحدثين كأبي نواس وأبي
العتاهية . ومن شعره ما كتب به إلى الأمير عبد الرحمن :

يا مَنْ تَعَالَى مِنْ أُمِيَّةٍ فِي الذرى قِدْماً فأصبحَ عاليَ الأركانِ
إنَّ الغمامَ غِيَاثُهُ فِي وقتهِ والغيثُ مِنْ كَفْيِكَ كلُّ أوانٍ
فالغيثُ قد عمَّ البلادَ وأهلها وظمئتُ بينهمُ قَبْلَ لساني

وله في الأمير عبد الرحمن بن الحكم :

ومن عبَدَ شمسٍ بالمغربِ عَصْبَةٌ فأسعدَها الرحمنُ حيثُ أحلَّها
دَحَا تحتها مهداً من العزِّ آمناً ومَدَّ جناحاً فوقها فأظَلَّها

٦٧ - ومنهم أبو بكر ابن الأزرق ، وهو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن حامد بن موسى بن العباس بن محمد بن يزيد، وهو الحصني ، ابن محمد ابن مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، من أهل مصر ، خرج من مصر سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة ، وصار إلى القيروان ، وامتنحن بها مع الشيعة ، وأقام محبوساً بالمهدية ، ثم أطلق ووصل الأندلس سنة تسع وأربعين ، فأحسن إليه المستنصر بالله الحكم ، وكان أديباً حكيماً ، سمع من خاله أبي بكر أحمد بن مسعود الزهري ، وولد سنة تسع عشرة وثلاثمائة بمصر ، وتوفي بقرطبة في ذي القعدة سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، رحمه الله تعالى .

٦٨ - ومن الواردين على الأندلس من المشرق رئيس المغنين أبو الحسن علي بن نافع ، الملقب بزرياب^١ ، مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي . قال في «المقتبس» : زرياب لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه ، مع فصاحة لسانه ، وحلاوة شمائله ، شبهَ بطائر أسود غرّد عندهم ، وكان شاعراً مطبوعاً ، وكان ابنه أحمد قد غلب عليه الشعر أيضاً ، وكان من خبره في الوصول إلى الأندلس أنه كان تلميذاً لإسحاق الموصلي ببغداد ، فتلقف من أغانيه استراقاً ، وهُدِي من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت وصورة الطبع إلى ما فاق به إسحاق ، وإسحاق لا يشعر بما فُتِح عليه ، إلى أن جرى للرشد مع إسحاق خبره المشهور في الاقتراح عليه بمغنٍ غريب مجيد للصنعة ، لم يشتهر مكانه إليه ، فذكر له تلميذه هذا ، وقال : إنه مولى لكم ، وسمعت له نزعاً حسنة ، ونغمات رائعة ملتأمة بالنفس ، إذا أنا وَقَفْتُه على ما استغرب منها وهو من اختراعي واستنباط فكري ، أحس أن يكون له شأن ، فقال الرشيد : هذا طلبيتي ، فأحضرني لعل حاجتي عنده ، فأحضره ، فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه

١ انظر الجزء الأول من النفع : ٣٤٤ ، وقد توفي زرياب سنة ٢٣٨ قبل وفاة الأمير عبد الرحمن بأربعين يوماً (المقتبس : ٨٧ وترجمته فيه قد سقطت) ؛ وانظر المغرب ١ : ٥١ .

بأحسن منطق وأوجز خطاب ، وسأله عن معرفته بالغناء ، فقال : نعم أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه ، ممّا لا يحسن إلا عندك ولا يُدخّر إلا لك ، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك ، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق ، فلما أدنى إليه وقف عن تناوله ، وقال : لي عود نَحْتَه بيدي وأرهفته بإحكامي ، ولا أرتضي غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه ، فأمر بإدخاله إليه ، فلما تأمله الرشيد وكان شبيهاً بالعود الذي دفعه قال له : ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ فقال : إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده ، وإن كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي ، فقال له : ما أراهما إلا واحداً ، فقال : صدقت يا مولاي ، ولا يؤدي النظر غير ذلك ، ولكن عودي وإن كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه فهو يقع من وزنه في الثلث أو نحوه ، وأوتاري من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناثة ورخاوة ، وبمّثها ومثلثتها اتخذتهما من مُصْران شبلٍ أسدي ، فلها في الترنم والصفاء والجمّارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوّة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها ، فاستبرع الرشيد وصفه وأمره بالغناء ، فجس ، ثم اندفع فغنّاه :

يا أيّها الملكُ الميمونُ طائرهُ هارونُ راحَ إليك الناسُ وابتكروا

فأتمّ النوبة ، وطار الرشيد طرباً ، وقال لإسحاق : والله لولا أنّي أعلم من صدقتك لي على كتمانك إياك لما عنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه ، فخذك إليك واعتن بشأنه ، حتى أفرغ له ، فإن لي فيه نظراً ، فسقط في يد إسحاق ، وهاج به من داء الحسد ما غلبَ صبره ، فخلا بزرياب وقال : يا علي ، إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتّانة ، والشركة في الصناعة عداوة ، لا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك وعلوّ طبقتك ، وقصدت منفعتك

فإذا أنا قد أتيت نفسي من مأمنها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلي ، وترتقي أنت فوقتي ، وهذا ما لا أصحابك عليه ولو أنك ولدي ، ولولا رعيي لذمة تربيتك لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك ، يكون في ذلك ما كان ، فتخير في ثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطيني على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمي مستهدفاً إليّ ، فخذ الآن حذرك مني فلست والله أبقي عليك ، ولا أدع اغتيالك باذلاً في ذلك بدني ومالي ، فاقض قضاءك . فخرج زرياب لوقته ، وعلم قدرته على ما قال ، واختار الفرار قدامه ، فأعانه إسحاق على ذلك سريعاً ، وراش جناحه ، فرحل عنه ، ومضى يبغى مغرب الشمس ، واستراح قلب إسحاق منه .

وتذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه ، فأمر إسحاق بحضوره ، فقال : ومن لي به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه ، فما يرى في الدنيا من يعُدِّله ، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته ، فقدّر التقصير به والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عني ، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمر المؤمنين ، فإنه كان به لم يمش يمشاه ويفرط خبطه ، فيفزع من رآه ، فسكن الرشيد إلى قول إسحاق ، وقال : على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير . ومضى زرياب إلى المغرب فنسي بالمشرق خبره ، إذ لم يكن اسمه شهر هنالك شهرته بالصقع الذي قطنه ونزعت إليه نفسه وسمت به همته ، فأمر أمير الأندلس الحكم المباين لمواليه ، وخاطبه وذكر له نزاعه إليه واختياره إياه ويعلمه بمكانه من الصناعة التي ينتحلها ويسأله الإذن في الوصول إليه ، فسُرَّ الحكم بكتابته وأظهر له من الرغبة فيه والتطلع إليه وإجمال الموعد ما تمنّاه ، فسار زرياب نحوه بعياله وولده ، وركب بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء ، فلم يزل بها حتى توات عليه الأخبار بوفاة الحكم ، فهم بالرجوع إلى العُدوة ، فكان معه منصور

اليهودي المغني رسول الحكم إليه ، فثناه عن ذلك ورغبه في قصد القائم مقام الحكم ، وهو عبد الرحمن ولده ، وكتب إليه بنجر زرياب ، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلّعه إليه والسرور بقدمه عليه ، وكتب إلى عمّاله على البلاد أن يحسنوا إليه ويوصلوه إلى قرطبة ، وأمر خصياً من أكابر خصيانه أن يتلقّاه ببغال ذكور وإناث وآلات حسنة ، فدخل هو وأهله البلد ليلاً صيانة للحُرْم ، وأنزله في دار من أحسن الدور ، وحمل إليها جميع ما يُحتاج إليه ، وخلع عليه ، وبعد ثلاثة أيام استدعاه ، وكتب له في كل شهر بمائتي دينار راتباً ، وأن يجري على بنيه الذين قدموا معه — وكانوا أربعة : عبد الرحمن ، وجعفر ، وعبيد الله ، ويحيى — عشرون ديناراً لكل واحد منهم كل شهر ، وأن يجري على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، منها لكل عيد ألف دينار ، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار ، وأن يُقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مدي ثلثها شعير وثلثها قمح ، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار . فلما قضى له سؤله وأنجز مواعده^١ وعلم أن قد أرضاه وملك نفسه استدعاه ، فبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه ، فما هو إلا أن سمعه فاستهوله واطّرح كل غناء سواه ، وأحبه حبّاً شديداً وقدمه على جميع المغنين ، وكان لما خلا به أكرمه غاية الإكرام وأدنى منزلته وبسط أمله ، وذاكره في أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء ، فحرك منه بجزاً زخراً عليه مدّة ، فأعجب الأمير به وراقه ما أورده ، وحضر وقت الطعام فشرّفه بالأكل معه هو وأكابر ولده ، ثمّ أمر كاتبه بأن يعقد له صكّاً بما ذكرناه آنفاً ، ولما ملك قلبه واستولى عليه حبه فتح له باباً خاصّاً يستدعيه منه متى أراد .

وذكر أن زرياباً ادعى أن الجن كانت تعلّمه كل ليلة ما بين نوبة إلى

صوت واحد ، كان يَهْبُ من نومه سريعاً فيدعو بجاريته غزلان وهنيدة ، فتأخذان عودهما ، ويأخذ هو عوده ، فيطارحهما ليلته ويكتب الشعر ثم يعود عجلًا إلى مضجعه ؛ وكذلك يحكى عن إبراهيم الموصلي في لحنه البديع المعروف بالماخوري أن الجن طارحته إياه ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

وزاد زرياب بالآندلس في أوتار عوده وترّاً خامساً اختراعاً منه ، إذ لم يزل العودُ ذا أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قبلت بها الطبائع الأربع ، فزاد عليها وترّاً خامساً أحمر متوسطاً ، فاكسب به عوده ألطفَ معنى وأكمل فائدة ، وذلك أن الزير صُيغ أصفر اللون ، وجُعِل في العود بمنزلة الصفراء من الجسد ، وصُيغ الوتر الثاني بعده أحمر ، وهو من العود مكان الدم من الجسد ، وهو في الغلظ ضعف الزير ، ولذلك سمي مثنى ، وصُيغ الوتر الرابع أسود ، وجُعِل من العود مكان السوداء من الجسد ، وسمي البمّ ، وهو أعلى أوتار العود ، وهو ضعف المثلث الذي عُطِل من الصبغ وترك أبيض اللون ، وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد ، وجُعِل ضعف المثنى في الغلظ ، ولذلك سمي المثلث ، فهذه الأربعة من الأوتار مقابلة للطبائع الأربع تقضي طبائعها بالاعتدال ، فالبم حار يابس يقابل المثنى وهو حار رطب وعليه تسويته ، والزير حار يابس يقابل المثلث وهو حار رطب ، وقبل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاقه ، إلاّ أنّه عطل من النفس ، والنفس مقرونة بالدم ، فأضاف زرياب من أجل ذلك إلى الوتر الأوسط الدموي هذا الوتر الخامس الأحمر الذي اخترعه بالآندلس ، ووضعه تحت المثلث^١ وفوق المثنى ، فكمل في عوده قوى الطبائع الأربع ، وقام الخامس المزيّد مقام النفس في الجسد .

وهو الذي اخترع بالآندلس مضراب العود من قوادم التّسرّ ، معتاضاً به من مرهف الخشب ، فأبرع في ذلك للطف قشر الريشة ونقاؤه وخفته على

الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إيتاه .

وكان زرياب عالماً بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة واختلاف طبائعها وأهويتها وتشعب بحارها وتصنيف بلادها وسكانها ، مع ما سنع له من فك كتاب الموسيقى ، مع حفظه لعشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها ، وهذا العدد من الألحان غاية ما ذكره بطليموس واضع هذه العلوم ومؤلفها .

وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظرف وفنون الأدب ، ولطف المعاشرة ، وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يُجِدْه أحد من أهل صناعته ، حتى اتخذ ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنّه لهم من آدابه ، واستحسنه من أطعمته ، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوماً به : فمن ذلك أنه دخل إلى الأندلس وجميع من فيها من رجل أو امرأة يرسل جُمُته مفروقاً وسط البحرين عامّاً للصدغين والحاجبين ، فلماً عاين ذوو التحصيل تخذيفه هو وولده ونساؤه لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ، وتدويرها إلى آذانهم ، وإسدالها إلى أصداعهم — حسبما عليه اليوم الخدم الخصية والجواري — هوت إليه أفئدتهم ، واستحسنوه . وممّا سنّه لهم استعمال المترك المتخذ من المرداسنج لطرد ريح الصنان من مغابنهم ، ولا شيء يقوم مقامه ، وكانت ملوك الأندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد ، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وَصَر ، فدلهم على تصعيدها بالملح ، وتبييض لونها ، فلماً جربوه أحمده جِدّاً . وهو أوّل من اجتنى بقلّة الهليون المسماة بلسانهم الإسفراج^١ ، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله . وممّا اخترعه من الطبخ اللون المسمى عندهم بالتفايا^٢ ، وهو مصطنع بماء الكزبرة

١ في مفردات ابن البيطار : الاسفراج ، والصواب بالراء المهملة ، وهو يقابل (Asparagus) .

٢ التفايا : عدها صاحب كتاب الطبخ من بسائط الأطعمة وهي أنواع منها التفايا البيضاء وتخضر من لحم الضأن الفتي السمين في قطع صغار ويضاف إليها ملح وفلفل وكزبرة يابسة ويسير من ماء=

الرطبة محلى بالسنبوسق والكباب ، ويليه عندهم لون الثقلية المنسوبة إلى زرياب . ومما أخذه عنه الناس بالآندلس تفضيله آتية الزجاج الرفيع على آتية الذهب والفضة ، وإيثاره فرش أنطاع الأديم اللينة الناعمة على ملاحف الكتان ، واختياره سُفر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية إذ الوضر يزول عن الأديم بأقل مسحة ، ولبسه كل صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به ، فإنه رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم للملون من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن في ست بقين من شهر يونية الشمسي من شهورهم الرومية ، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسي منها ثلاثة أشهر متوالية ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة ، ورأى أن يلبسوا في الفصل الذي بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من مصبغهم جباب الخبز والملمح والمحزر والدَّرَارِيع التي لا بطائن لها لقربها من لطف ثياب البياض الظواهر التي ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشي ، ثياب العامة ، وكذا رأى أن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفاف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرس البرد في الغدوات ، إلى أن يقوى البرد فينتقلوا إلى أثخن منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف القراء .

واستمر بالآندلس أن كل من افتتح الغناء فيبدأ بالنشيد أول شدّوه بأي نقير كان ، ويأتي إثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والأهازج تبعاً لمراسم زرياب . وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة ، وأن يشدّ صوته جداً إذا كان قوي الصوت ، فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة ، فإن ذلك ممّا يقوى الصوت ، ولا يجرد متسعاً في الجوف

= بصلة مدقوقة ومغرفة من الزيت العذب وماء وتجعل على نار لينة وتحرك ، ويجعل فيها بندق ولوز مقشر مقسوم ، فإذا أردتها خضراء أضفت إليها ماء الكزبرة الرطبة ، ومنها نقايا مبيضة وأخرى مقلية وأنواع منها مشرقية (كتاب الطبخ ٨٥ - ٨٨ ، ١١٨ - ١١٩) .

عند الخروج على القسم ، فإن كان الصَّ الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، رآضه بأن يُدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكَّاه ، وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته : يا حَجَّام ، أو يصيح : آه ، ويمدَّ بها صوته ، فإن سمع صوته بهما صافياً ندياً قوياً مؤدياً لا يعتريه غُنَّة ولا حبسة ولا ضيق نفَس عرف أن سوف ينجب وأشار بتعليمه ، وإن وجده خلاف ذلك أبعده .

وكان له من ذكور الولد ثمانية : عبد الرحمن وعبيد الله ويحيى وجعفر ومحمد وقاسم وأحمد وحسن . ومن الإناث ثنتان : عليّة وحملدونة . وكلّهم غنّى ومارس الصناعة ، واختلفت بهم الطبقة ، فكان أعلاهم عبيد الله ويتلوه عبد الرحمن ، لكنّه ابتلي من فرط التيه وشدة الزهو وكثرة العُجب بغناؤه والذهاب بنفسه بما لم يكن له شبه فيه ، وقلّما يسلم مجلس حضوره من كدر يحدّثه ، ولا يزال يجترىء على الملوك ، ويستخفُّ بالعظماء ، ولقد حمّله سخفه على أن حضر يوماً مجلس بعض الأكابر الأعظم في أنس قد طاب به سروره ، وكان صاحب قنص تغلب عليه لذّته ، فاستدعى بازياً كان كليفاً به كثير التذكّر له ، فجعل يمسح أعطافه ويُعدّل قوادمه ويرتاح لنشاطه ، فسأله عبد الرحمن أن يهبّه له ، فاستحيا من رده وأعطاه إيّاه مع ضنّه به ، فدفعه عبد الرحمن إلى غلامه ليعجل به إلى منزله ، وأسرّ إليه فيه بسيرّ لم يطلع عليه ، فمضى لشأنه ، ولم يلبث أن جاءه بطيفورية مُغطّاة مكّرمة بطابع مختوم عليها من فضّة ، فإذا به لونٌ مصوصٌ قد اتخذ من البازي بعد ذبحه على ما حده لأهله ، وذهب إلى الانتقال عليه في شرابه ، وقال لصاحب المجلس : شاركني في نقلي هذا فإنّه شريف المركّب^١ بديع الصنعة ، فلمّا رآه الرجل أنكر صفته ، وعاب

١ ق ودوزي : الموكب ؛ والمركب يعني التركيب .

لحمه ، وسأله عنه ، فقال : هو البازي الذي كنت تعظم قدره ، ولا تصبر عنه ، قد صيرته إلى ما ترى ، فغضب صاحب المنزل حتى ربا في أثوابه وفارقه حلمه وقال له : قد كان والله أيتها الكلب السفیه على ما قدرته وما اقتديت فيه إلا بكبار الناس المؤثرین لمثله ، وما أسعفتك به إلاّ معظماً من قدرك ما صَغُرَتْ من قدری ، وأظهرت من هَوَانِ السَّنة عليك باستحلالك لسباع الطير المنهي عنها ، ولا أدع والله الآن تأديبك إذ أهملك أبوك معلّم الناس المروءة ، ودعا له بالسَّوط وأمر بترع قلنسوته وساط هامته مائة سوط ، فاستحسن جميع الناس فعله به وأبدوا الشّماتة به .

وكان محمد منهم مؤثراً ، وكان قاسمهم أحذقهم غناء مع تجويده ، وتزوج الوزير هشام بن عبد العزيز حمدونة .
وذكر عبادة الشاعر أن أول من دخل الأندلس من المغنين علون وزرقون ، دخلا في أيام الحكم بن هشام ، فنفقا عليه ، وكانا محسنين ، لكن غناؤهما ذهب لغلبة غناء زرياب عليه .

وقال عبد الرحمن بن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن ونديمه في زرياب :

يا عليّ بن نافع يا عليّ أنت أنت المهدّب اللّوذعيّ
أنت في الأصل حين يُسأل عنه هاشميّ وفي الهوى عبّشيّ

وقال ابن سعيد : وأنشد لزرياب والذي في معجمه :

علّقْتُها رِيحانةً هيفاء عاطرةً نضيرةً
بين السمينَةِ والحزِيهِ لمة والطويلة والقصيرة
للهِ أَيّامٌ لنا سلفت على دَيْرِ المطيرة
لا عيبَ فيها للمتيِّمِ مِ غير أن كانت يسيره

انتهى .

وكان لزرياب جارية اسمها مُتَنَعَة ، أدَّبها وعلَّمها أحسن أغانيه حتى شبت ، وكانت رائعة الجمال ، وتصرفت بين يدي الأمير عبد الرحمن بن الحكم تغنيه مرةً وتسقيه أخرى ، فلما فطنت لإعجابه بها أبدت له دلائل الرغبة ، فأبى إلا التستر ، فغنته بهذه الأبيات ، وهي لها في ظن بعض الحفاظ :

يا من يُغَطِّي هواهُ من ذا يُغَطِّي النهار؟
قد كنتُ أملكُ قلبي حتى عَليقتُ فطارا
يا ويلتا أتراهُ لي كان ، أو مستعارا
يا بأبي قُرشي خلعتُ فيه العذارا

فلما انكشف لزرياب أمرُها أهداها إليه فحظيت عنده .

وكانت حمدونة بنت زرياب متقدمة في أهل بيتها ، محسنة لصناعتها ، متقدمة على أختها عليّة ، وهي زوجة الوزير هاشم بن عبد العزيز كما مرّ ، وطال عمر عليّة بعد أختها حمدونة ، ولم يبق من أهل بيتها غيرها ، فافتقر الناس إليها ، وحملوا عنها .

وكانت مصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل أخذت عن زرياب الغناء ، وكانت غاية في الإحسان والنبيل وطيب الصوت ، وفيها يقول ابن عبد ربّه صاحب العقد الفريد ، وكتب به إلى مولاها^١ :

يا من يَضَنُّ بصوتِ الطائرِ الغرْدِ ما كنتُ أحسبُ هذا الضنَّ من أحدٍ
لو أن أسمع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

من أبيات ، فخرج حافياً لما وقف على ذلك ، وأدخله إلى مجلسه ، وتمتع من سماعها ، رحم الله تعالى الجميع .

١ انظر الجذوة : ٩٥ .

وقال علويه : كنت مع المأمون لما قدم الشام ، فدخلنا دمشق ، وجعلنا نطوف فيها على قصور بني أمية ، فدخلنا قصرأ مفروشأ بالرخام الأخضر ، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها فيسقي بستانأ ، وفي القصر من الأطيار ما يغني صوته عن العود والمزمار ، فاستحسن المأمون ما رأى ، وعزم على الصبوح ، فدعا بالطعام فأكلنا وشربنا ، ثم قال لي : غَنِّ بأطيب صوت وأطربه ، فلم يمر على خاطري غير هذا الصوت :

لو كان حولي بنو أمية لم ينطق رجال أراهمُ نطقوا

فنظر إلي مغضبأ ، وقال : عليك لعنة الله وعلى بني أمية ، فعلمت أني قد أخطأت ، فجعلت أعتذر من هَفَوْتِي ، وقلت : يا أمير المؤمنين ، أتلومني أن أذكر موالي بني أمية ، وهذا زرياب مولاك عندهم بالأندلس ، يركب في أكثر من مائة مملوك وفي ملكه ثلاثمائة ألف دينار دون الضياع ، وإنني عندكم أموت جوعأ ، وفي الحكاية طول واختلاف ، ومحل الحاجة منها ما يتعلق بزرياب ، رحم الله تعالى الجميع .

وذكرها الرقيق في كتاب « معاقرة الشراب » على غير هذا الوجه ، ونصه : وركب المأمون يوماً من دمشق يريد جبل الثلج ، فمر ببركة عظيمة من برك بني أمية ، وعلى جانبها أربع سروات ، وكان الماء يدخل سيحأ ، فاستحسن المأمون الموضع ، ودعا بالطعام والشراب ، وذكر بني أمية ، فوضع منهم وتَنَقَّصَهُمْ ، فأخذ علويه العود واندفع يغني :

أرى أسرتي في كل يومٍ وليلةٍ يَرُوحُ بهم داعي المنون ويغتدي
أولئك قومٌ بَعْدَ عزٍّ وثَرْوَةٍ تَفَانُوا فِإِلَّا أَذْرِفِ العَيْنَ أَكْمَدِ

فضرب المأمون بكأسه الأرض ، وقال لعلويه : يابن الفاعلة ، لم يكن لك وقت تذكر مواليك فيه إلاّ هذا الوقت ؟ فقال : مولاكم زرياب عند موالي بالأندلس يركب في مائة غلام ، وأنا عندكم بهذه الحالة ! فغضب عليه نحو شهر ، ثم

رضي عنه ، انتهى .

ونحوه لابن الرقيق في كتابه « قطب السرور » وقال في آخر الحكاية :
وأنا عندكم أموت من الجوع ، ثم قال : وزرياب مولى المهدي ، ووصل إلى
بني أمية بالأندلس فعلت حاله ، حتى كان قال علويه ، انتهى .
ولما غنى زرياب بقوله ^١ :

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقي حمام تداعت في الديار وقوعُ
تداعين فاستبكين مَنْ كان ذا هوى نوائح ما تجري لهنّ دموعُ
ذيلها عباس بن فرناس يمدح بعض الرؤساء بديهة فقال :

شدتُ بمحمود يداً حين خانها زمانٌ لأسباب الرجاء قَطُوعُ
بنى لِمَساعي الجودِ والمجدِ قبلةً إليها جميع الأجودين ركوعُ

وكان محمود جواداً ، فقال له : يا أبا القاسم ، أعزّ ما يحضرنى من مالى
القُبّة ، يعنى قبة قامت عليه بخمسمائة دينار ، وهى لك بما فيها مع كسوتى هذه ،
ونكون فى ضيافتك بقية يومنا ، ودعا بكسوة فلبسها ، ودفع إليه الكسوة .

٦٩ - ومن الوافدين من المشرق الأمير شعبان بن كوجبا ^٢ ، من غزّ
الموصل ، وفد على أمير المؤمنين يعقوب المنصور ملك الموحدين ، ورفع له
أمداحاً جليلة ، وقدمه على إمارة مدينة بسطة من الأندلس .

قال أبو عمران بن سعيد : أنشدنى لنفسه :

يقولون إن العدل فى الناس ظاهر ولم أر شيئاً منه سرّاً ولا جهراً

١ الشعر لذي الرمة فى ديوانه : ٣٥٢ .

٢ ق : كوحيا ؛ وقد ذكر عبد الواحد المراكشي « شعبان الغزي » دون أن يذكر اسم أبيه فى المعجب
٣٦٧ ، وقال إنه سأله أن يكتب من شعره فأبى ، وكان ربما بدرت له الأبيات الجيدة .

ولكن رأيتُ الناسُ غالبُ أمرهم إذا ما جنى زيد أقادوا به عمراً
وإلاّ فما بالُ النطاسيّ كلّما شكوت له يُمتنى يدي فصد اليسرى

٧٠ - ومن الوافدين من المشرق على الأندلس أبو اليسر إبراهيم بن أحمد
الشيبياني^١ ، من أهل بغداد ، وسكن القيروان ، ويُعرف بالرياضي ، وكان له
سماع ببغداد من جِلّة المحدثين والفقهاء والنحويين ، لقي الجاحظ والمبرد
وثعلباً وابن قتيبة ، ولقي من الشعراء أبا تمام والبحري ودّعبللاً وابن الجهم ،
ومن الكتاب سعيد بن حميد وسليمان بن وهب وأحمد بن أبي طاهر وغيرهم ،
وهو الذي أدخل إفريقية رسائل المحدثين وأشعارهم وطرائف أخبارهم ،
وكان عالماً أديباً ، ومرسلاً بليغاً ، ضارباً في كل علم وأدب ، سمع وكتب
بيده أكثر كتبه ، مع براعة خطّه وحسن وِرَاقته .

وحكي أنّه كتب على كبره كتاب سيبويه كلّهُ بقلم واحد ، ما زال
يَبْرِيهِ حتى قَصُر ، فأدخله في قلم آخر ، وكتب به حتى فني بتمام الكتاب .
وله تآليف : منها « لقيط المرجان » وهو أكبر من « عيون الأخبار » ،
وكتاب « سراج الهدى » في القرآن ومشكله وإعراجه ومعانيه ، و « المرصعة »
و « المدبجة » .

وجال في البلاد شرقاً وغرباً من خراسان إلى الأندلس ، وقد ذكر ذلك
في أشعار له . وكان أديب الأخلاق ، نزيه النفس ، كتب لأمير إفريقية إبراهيم
ابن أحمد بن الأغلب ، ثمّ لابنه أبي العباس عبد الله ، وكان أيام زيادة الله بن
عبد الله آخر ملوك الأغالبة على بيت الحكمة ، وتوفي بالقيروان سنة ثمان وتسعين
ومائتين في أوّل ولاية عبيد الله الشيعي ، وهو ابن خمس وسبعين سنة . وممّن
ألّمّ بذكره المؤرخ الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق .
وقال عريب بن سعد في حقّه : إنّه كان أديباً شاعراً مرسلاً حسن التأليف ،

١ ترجمة أبي اليسر الرياضي في التكملة : ١٧٣ .

وقدم الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن ، وذكر له معه قصة ذكرها ابن الأثير في كتابه «إفادة الوفاة» وحكى أن له مسنداً في الحديث ، وكتاباً في القرآن سمّاه «سراج الهدى» والرسالة الوحيدة ، والمؤنسة ، وقطب الأدب ، وغير ذلك من الأوضاع . قال : وكتب لبني الأغلب حتى انصرفت أيامهم ، ثم كتب لعبيد الله حتى مات ، ومن الرواة عنه أبو سعيد عثمان بن سعيد الصيقل مولى زيادة الله بن الأغلب ، وأسند إليه الحافظ ابن الأثير رواية شعر أبي تمام بأن قال : قرأت شعر حبيب علي أبي الربيع ابن سالم ، وقرأت جملة منه على غيره ، وناولني جميعه وحدثني به عن أبي عبد الله ابن زرقون عن الخولاني عن أبي القاسم حاتم بن محمد عن أبي غالب تمام بن غالب بن عمر اللغوي عن أبيه أبي تمام عن أبي سعيد المذكور ، يعني ابن الصيقل ، عن أبي اليسر عن حبيب ، وهو إسناد غريب ، انتهى .

٧١ - ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن خلف بن منصور ، الفسافي ، الدمشقي ، المعروف بالسهنوري^١ - وسنهو : من بلاد مصر - روى عن أبي القاسم ابن عساكر وأبي اليمن الكندي وأبي المعالي الفراوي وأبي الطاهر الخشوعي وغيرهم .

قال أبو العباس النبائي : قدم علينا - يعني إشبيلية - سنة ثلاث وستمائة ، وسمى جماعة من شيوخه ، وحكى أنه كان يروي موطأ أبي مصعب وصحيح مسلم بعلو .

وقال أبو سليمان ابن حوط الله : أجازني وابني محمد جميعاً ما رواه عن شيوخه الذين منهم أبو الفخر فناخسرو بن فيروز الشيرازي ، وذكر أن روايته بتزول ، لأنه لم يرحل إلا بعد وفاة الشيوخ المشاهير بهذا الشأن . وقال أبو الحسن ابن القطان ، وسمّاه في شيوخه : قدم علينا تونس سنة

١ ترجمة السهنوري في التكملة : ١٧٦ .

اثنتين وستمائة ، واستجزته لابني حسن فأجازه وإياي ، قال : وانصرف من تونس إلى المغرب ، ثم الأندلس ، وقدم علينا بعد ذلك مراکش مُفْلِتاً من الأسر ، فظهر في حديثه عن نفسه تجازف واضطراب وكذب زهّد فيه ، وإثر ذلك انصرف إلى المشرق راجعاً ، وقد كان إذا أجاز ابني كتب بخطّه جملة من أسانيده وسمى كتباً منها الموطأ والصحيحان وغير ذلك ، قال : وقد تبرأت من عهدة جميعه لما أثبت من حاله ، وحدثني أبو القاسم ابن أبي كرامة صاحبنا بتونس أن السنهوري هذا لما انصرف إلى مصر امتحن بملكها الكامل محمد بن العادل أبي بكر ابن أيوب لأجل مُعاداته أبا الخطاب ابن الحمّيل ، فضرب بالسياط ، وطيف به على جمل مبالغة في إهانته ، انتهى .

وقال بعض المؤرخين في حقّه ما نصّه : الشيخ المحدث الرحالة إبراهيم السنهوري صاحب الرحلة إلى البلاد ، دخل الأندلس كما ذكره ابن النجار وغيره ، وهو الذي ذكر لمشايع الأندلس وعلماؤها أن الشيخ أبا الخطاب ابن دحية يدّعي أنّه قرأ على جماعة من شيوخ الأندلس القدماء ، فأنكروا ذلك وأبطلوه وقالوا : لم يَلْقَ هؤلاء ولا أدركهم ، وإنّما اشتغل بالطلب أخيراً ، وليس نسبة بصحيح فيما يقوله ، ودحية لم يُعقب ، فكتب السنهوري محضراً وأخذ خطوطهم فيه بذلك ، وقدم به ديار مصر ، فعلم أبو الخطاب ابن دحية بذلك ، فاشتكى إلى السلطان منه ، وقال : هذا يأخذ عرضي ويؤذيني ، فأمر السلطان بالقبض عليه ، فقبض وضرب بالسياط^١ وأشهر على حمار ، وأخرج من ديار مصر ، وأخذ ابن دحية المحضّر وحرّقه ، ولم يزل ابن دحية على قرب من السلطان إلى حين وفاته ، وبني له داراً للحديث ، وهي الكاملية ببين القصرين ، فلم يزل يحدث بها إلى أن مات .

وقد ذكرنا في ترجمة ابن دحية من هذا الكتاب شيئاً من أحواله ، وأن الناس

١ بالسياط : سقطت من ق .

فيه معتقد ومنتقد ، وهكذا جرت العادة خصوصاً في حق الغريب المنتسب للعلم :

وعند الله تجتمع الخصوم

وممن كان عليه لا له أبو المحاسن محمد بن نصر المعروف بابن عنين فإنه
قال فيه ^١ :

دحية لم يُعقَبْ فلمْ تعتري إِلَيْهِ بِالْبُهْتَانِ والإِفْكَ
ما صحَّ عند الناس شيء سوى أَتَكَ من كَلْبٍ بلا شكَّ

هكذا ذكره ابن النجار ، وأطال في الواقعة في أبي الخطاب ابن دحية .
وقال الذهبي : قرأت بخط الضياء عندما ذكر ابن دحية أنه قال : لقيته
بأصبهان ، ولم أسمع منه شيئاً ، وأخبرني إبراهيم السنهوري بأصبهان أنه دخل
المغرب ، وأن مشايخه كتبوا له جَرَحَه وتضعيفه ، وقد رأيت أنا منه غير شيء
مما يدل على ذلك ، وبسببه بنى السلطان الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة
وجعله شيخها ، وقد سمع منه الإمام أبو عمرو ابن الصلاح الموطأ سنة نيِّف
وستمائة ، وأخبره به عن جماعة منهم أبو عبد الله ابن زرقون .

وقال ابن واصل : كان أبو الخطاب ، مع فرط معرفته بالحديث ، وحفظه
الكثير منه ، متهماً بالمجازفة في النقل ، وبلغ ذلك الملك الكامل ، فأمره أن
يعلق شيئاً على كتاب « الشَّهاب » ، فعلق كتاباً تكلَّم فيه على أحاديثه وأسانيده ،
فلما وقف الملك الكامل على ذلك قال له بعد أيام : قد ضاع مني ذلك الكتاب ،
فعلِّق لي مثله ، ففعل ، فجاء في الثاني مناقضة للأول ، فعلم الملك الكامل صحة
ما قيل عنه ، ونزلت مرتبته عنده ، وعزله عن دار الحديث أخيراً ، وولى أخاه
أبا عمرو عثمان .

١ ديوان ابن عنين : ٢٢٠ .

وقال ابن نقطة : كان أبو الخطاب موصوفاً بالمعرفة والفضل ، ولم أره ، إلا أنه كان يدعي أشياء لا حقيقة لها ، ذكر لي أبو القاسم ابن عبد السلام - وكان ثقة - قال : نزل عندنا ابن دحية فقال : إنني أحفظ صحيح مسلم والترمذي ، فأخذت خمسة أحاديث من الترمذي ومثلها من المسند ومثلها من الموضوعات ، فجعلتها في جزء ، ثم عرضت عليه حديثاً من الترمذي فقال : ليس بصحيح ، وآخر فقال : لا أعرفه ، ولم يعرف منها شيئاً ، فأفسد نفسه بذلك .

وقال سبط ابن الجوزي^١ : إنه كان يتريد في كلامه ، ويثلب المسلمين ، ويقع فيهم ، فترك الناس الرواية عنه وكذبوه ، وقد كان الملك الكامل مقبلاً عليه ، فلما انكشف له شأنه أخذ منه دار الحديث وأهانته .

وقال العماد ابن كثير : قد تكلم الناس فيه بأنواع من الكلام ، ونسبه بعضهم إلى وضع حديث في قصر صلاة المغرب ، وكنت أود أن أقف على إسناده ليعلم كيف رجاله ، وقد أجمع العلماء - كما ذكره ابن المنذر وغيره - على أن صلاة المغرب لا تقصر ، واتفق أنه وصل في جمادى الأولى سنة ٦١٦ إلى غزة ، فخرج كل من في غزة بالأسلحة والعصي والحجارة إلى الموضع الذي هو فيه ، وضربوه ضرباً شديداً بعد أن انهزم من كان معه ، انتهى .

وقدّمنا في ترجمته توثيق جماعة له ، فربك أعلم بحاله .

٧٢ - ومنهم عبد الله بن محمد بن آدم ، القاري ، الخراساني^٢ ، رحل من خراسان إلى الأندلس ، يكنى أبا محمد ، ذكره أبو عمرو المقرئ ، وقال : سمعته يقرأ مرات كثيرة ، فكان من أحسن الناس صوتاً ، ولم تكن له معرفة بالقراءة ولا دراية بالأداء ، انتهى .

١ امرأة الزمان : ٦٩٨ .

٢ التكملة : ٩١٣ .

٧٣ - ومنهم عبد الرحمن بن داود بن علي ، الواعظ^١ ، من أهل مصر ، يُعرف بالزبزاري ، يكنى أبا البركات وأبا القاسم ، ويلقب زكي الدين ، قدم على الأندلس ، وتجوّل في بلادها واعظاً ومذكراً ، وسمع منه الناس بقرطبة وإشبيلية ومُرْسِيّة وبلنّسيّة سنة ٦٠٨ .

قال ابن الأبار : وسمعت وعظه إذ ذاك بالمسجد الجامع من بلنّسيّة ، وادعى الرواية عن أبي الوقت السّجزي والسّلفي وأبي الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي وأبي محمد ابن المبارك بن الطباخ وأبي الفضل محمد بن يوسف الغزنوي وشهادة الكاتبة بنت الإبري ، زعم أنّه قرأ عليها صحيح البخاري ، وجماعة بالمشرق والأندلس لم يلقّهم ولم يسمع منهم ، وربما حدّث بواسطة عن بعضهم ، وأكثرهم مجهولون ، وقفت على ذلك في فهرست روايته ، فزهد أكثر السامعين منه ، واطّرحوا الرواية عنه ، ومنهم أبو العباس النبائي وأبو عبد الله ابن أبي البقاء وجمع أربعين حديثاً مسلسلّة سمّاها بالآلئ المفضلة ، حدث فيها عن ابن بشكّو والوابن غالب الشراط وغيرهما من الأندلسيين الذين لم يلقّهم ولا أجازوا له ، أخذها عنه ابن الطيّلسان وغيره ، وكان - مع هذا - فقيهاً على مذهب الشافعي ، رضي الله تعالى عنه ، فصيحاً مشاركاً في فنون من العلم ، سمح الله تعالى له ، انتهى .

ولا بأس أن نذكر جملة من النساء القادمات من المشرق على الأندلس ، ثمّ نعود أيضاً إلى ذكر أعلام الرجال ، فنقول :

٧٤ - من النساء الداخلات الأندلس من المشرق عابدة المدنية ، أم ولد حبيب بن الوليد المرواني ، المعروف بلدحون . وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة ، حالكة اللون ، غير أنّها تروي عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة

وغيره من علماء المدينة ، حتى قال بعض الحفاظ : إنها تروي عشرة آلاف حديث .

وقال ابن الأبار : إنها تسند حديثاً كثيراً ، وهي أم ولده بشر بن حبيب ، والذي وهبها لدحون في رحلته إلى الحج هو محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك ابن مروان ، فقدم بها الأندلس ، وقد أعجب بعلمها وفهمها ، واتخذها لفراشه ، رحم الله تعالى الجميع .

٧٥ - ومنهن فضّل المدنية ، وكانت حاذقة بالغناء ، كاملة الحصال ، وأصلها لإحدى بنات هرون الرشيد ، ونشأت وتعلّمت ببغداد ، ودرجت من هناك إلى المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ؛ فازدادت ثمّ طبقتها في الغناء ، واشترت هنالك للأمير عبد الرحمن صاحب الأندلس مع صاحبها علم المدنية ، وصواحب غيرها إليهنّ تُنسب دار المدنيات بالقصر ، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ونصاعة ظرفهن ورقة أدهن ، وتضاف إليهن جارية [يقال لها] قلم ، وهي ثالثة فضل وعلم في الحظوة عند الأمير المذكور ، وكانت أندلسيّة الأصل رومية من سبي البشكنس ، وحملت صبيّة إلى المشرق ، فوقعت بمدينة النبي صلى الله عليه وسلّم ، وتعلّمت هنالك الغناء فحذقته ، وكانت أديبة ذاكرة حسنة الخط ، راوية للشعر حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الآداب .

٧٦ - ومن النساء الداخلات إلى الأندلس من المشرق قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي ، صاحب إشبيلية^١ ، وكانت من أهل الفصاحة والبيان ، والمعرفة بصوغ الألقان ، وجلبت إليه من بغداد ، وجمعت أدباً وظرفاً ، ورواية وحفظاً ، مع فهم بارع ، وجمال رائع ، وكانت تقول الشعر بفضل

١ التكملة رقم : ٢١١٤ .

أدبها ، ولها في مولها تمدحه :

ما في المغارب من كريم يُرْتَجَى إلا حَلِيف الجودِ لإبراهيم
إنّي حللتُ لديه منزلَ نعمةٍ كلُّ المنازل ما عداه ذميم

وأنشد لها السالمي لما ذكرها عدّة أشعار ، منها قولها تتشوّق إلى بغداد :

آهاً على بغدادها وعراقها وظبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عندَ الفرات بأوجه تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات في النعيم كأنّما خلّق الهوى العُدْريّ من أخلاقها
نفسى الفداء لها فأَيُّ محاسن في الدهر تُشْرق من سنا إشراقها

٧٧ - ومنهن الجارية العجفاء^١ ، قال الأرقمي^٢ : قال لي أبو السائب - وكان من أهل الفضل والنسك - هل لك في أحسن الناس غناء ؟ فجئنا إلى دار مسلم بن يحيى مولى بني زهرة ، فأذن لنا فدخلنا بيتاً عرضه اثنا عشر ذراعاً في مثلها ، وطوله في السماء ستّة عشر ذراعاً ، وفي البيت نُمرُقتان قد ذهب عنهما اللحم وبقي السدى ، وقد حُشيتا بالليف ، وكريسيّان قد تفكّكا من قدمهما ، ثم اطلعت علينا عجفاء كلفاء ، عليها [قرقل] هرّوي أصفر غسيل ، وكأن وركبها في خيط من رَسَحها^٣ ، فقلت لأبي السائب : بأبي أنت ! ما هذه ؟ فقال : اسكت ، فتناولت عوداً فغنّت^٤ :

بيد الذي شغفَ الفؤاد بكُمُ تفريج ما ألقى من همٍ
فاستيقني أن قد كلّفتُ بكم ثم افعلي ما شئت عن علم
قد كان صرْمٌ في الممات لنا فعجلت قبل الموت بالصرم

١ هذا الخبر عن العجفاء في الأغاني ٢٣ : ٢٨٥ .

٢ سماه في الأغاني : غرير بن طلحة .

٣ ق ودوزي : من وسخها ، والتصويب عن الأغاني .

٤ الشعر لأبي صخر الهذلي (الأغاني ٢٣ : ٢٨٢) .

قال : فتحسنت في عيني ، وبدا ما أذهب الكلف عنها ، وزحف أبو
السائب وزحفت معه ، ثم تغنت :

برح الخفاء فأبما بك تكتم^١ ولسوف يظهر ما تسر فيعلم^٢
مما تضمن من غريرة^٣ قلبه يا قلب إنك بالحسان لمغرّم
ياليت أنك يا حسام بأرضنا تلقي المراسي طائعا وتخيّم
فتدوق لذّة عيشنا ونعيمه ونكون إخوانا فماذا تنقم

فقال أبو السائب : إن نقم هذا فأعضّه الله تعالى بكذا وكذا من أبيه ، ولا
يكفي ، فرحفت مع أبي السائب حتى فارقنا النمرقتين ، وربت العجفاء في
عيني كما يربو السوق بماء مزرنة^٤ ، ثم غنت :

يا طول ليلي أعالج السقما إذ حل^٢ كل^٢ الأجنة الحرما
ما كنت أخشى فراقكم أبداً فالיום أمسى فراقكم عزما

فألقيت طيلساني ، وأخذت شاذكونة^٣ فوضعتها على رأسي ، وصحت كما
يصاح على اللوبيا بالمدينة ، وقام أبو السائب فتناول ربة^٤ في البيت فيها قوارير
ودهن ، فوضعها على رأسه ، وصاح صاحب الجارية وكان ألثغ : قوانيني ،
يعني قواريري ، فاصطكت القوارير وتكسرت ، وسال الدهن على رأس أبي
السائب وصدره ، وقال للعجفاء : لقد هيجت لي داء قديماً ، ثم وضع الربة .
وكنّا نختلف إليها حتى بعث عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس فابتيعت
له العجفاء ، وحملت إليه .

١ الأغاني : عزيرة .

٢ ق ودوزي : أدخل .

٣ الشاذكونة : مضربة كبيرة .

٤ الربة : جونة المطار .

٧٨ - ومن القادمين على الأندلس من المشرق الشيخ عبد القاهر بن محمد ابن عبد الرحمن ، الموصلي . قال أبو حيان : قدم علينا رسولاً من ملك مصر إلى ملك الأندلس ، فسمعت منه بالمرية ، انتهى .

٧٩ - ومنهم أحمد بن الحسن بن الحارث بن عمرو بن جرير بن إبراهيم ابن مالك ، المعروف بالأشتر ، بن الحارث ، النخعي^١ ، يكنى أبا جعفر ، دخل الأندلس في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وأصله من الكوفة ، وكان يروي أحاديث عظيمة العدد ، ذكر ذلك الرازي ، وحكى أن الأمير محمداً روى عنه منها ، وأنزله ببرية .

٨٠ - ومنهم أحمد بن أبي عبد الرحمن ، واسمه يزيد بن أحمد بن أبي عبد الرحمن القرشي ، الزهري ، من ولد عبد الرحمن بن عوف^٢ ، من أهل مصر ، وفد على الناصر بقرطبة ، وكان دخوله إليها في محرم سنة ٣٤٣ ، فأكرم الناصر مشواه ، وكان فقيه أهل مصر ، ذكره ابن حيان .

٨١ - ومنهم أبو الطاهر إسماعيل ابن الإسكندراني^٣ ، لقي ببلده أبا طاهر السلفي ، وسمع منه ، ودرس عليه كتاب « الاصطلاح » للسمعاني ، وقدم الأندلس ، ودخل مرسية تاجراً ، وكان فقيهاً على مذهب الشافعي ، وأنشد عن السلفي قوله :

أنا من أهل الحديث وهم خيرُ فته
عشت تسعين وأرجو أن أعيشَ لماثه

فعاش كما تمنى ، رحمه الله تعالى .

١ ترجمته في التكملة : ١٢٦ .

٢ ترجمته في التكملة : ١٢٧ .

٣ ترجمته في التكملة : ١٩٠ .

٨٢ - ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل بن بشر ، الأنطاكي ، الإمام ، أبو الحسن ، التميمي^١ ، نزيل الأندلس ومقرئها ومسندها ، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن إبراهيم بن عبد الرزاق ومحمد بن الأخرم وأحمد ابن يعقوب التائب وأحمد بن محمد بن خشيش ومحمد بن جعفر بن بيان ، وصنف قراءة ورش ، قرأ عليه جماعة : منهم أبو الفرج الهيثم الصباغ وإبراهيم بن مبشر المقرئ وطائفة آخرون من قراء الأندلس ، وسمع منه عبد الله بن أحمد ابن معاذ الداراني .

قال أبو الوليد ابن الفريسي : أدخل الأنطاكي الأندلسَ علماً جماً ، وكان بصيراً بالعربية والحساب ، وله حظ من الفقه ، قرأ الناسُ عليه ، وسمعت أنا منه ، وكان رأساً في القراءات ، لا يتقدمه أحد في معرفتها في وقته ، وكان مولده بأنطاكية سنة ٢٩٩ ، ومات بقرطبة في ربيع الأول سنة ٣٧٧ ، رحمه الله تعالى .

٨٣ - ومنهم عمر بن مودود بن عمر ، الفارسي ، البخاري ، يكنى أبا البركات^٢ ، ولد بسلامس ، ونشأ بها ، وكتب الحديث هنالك ، وتعلم العربية والفقه ، وهو من أبناء الملوك ، وانتقل إلى المغرب ، فدخل الأندلس ، ونزل مالقة في حدود ثلاثين وستمائة ، ودخل إشبيلية ، وكانت له رواية بالمشرق . قال ابن الأبار : أجاز لي ما رواه^٣ ، ولم يسم أحدًا من شيوخه ، وبلغني أنه سمع صحيح البخاري بالدامغان على أبي عبد الله محمد بن محمود ، وكانت إجازته لي سنة ٦٣١ ، وعاش بعد ذلك ، وتوفي بمراكش بعد الأربعين وستمائة^٤ ، وحدث بالأندلس ، وأخذ عنه الناس ، وكان من أهل التصوف والتحقق بعلم

١ ترجمة الأنطاكي في ابن الفريسي ١ : ٣٦١ وغاية النهاية ١ : ٥٦٤ .

٢ ترجمته في التكملة رقم : ٢٢٥٢ وصلة الصلة : ٧٤ .

٣ صلة الصلة : سنة ٦٣٩ .

الكلام ، رحمه الله تعالى .

٨٤ - ومنهم الشريف الأجلُّ الرحالة الشيخ نجم الدين بن مهذب الدين ،
وكنت لا أتُحقّق من أي البلاد هو من المشرق ، ثمّ لاني علمت أنّه من بغداد
إذ وقفت على كتابين كتبهما في شأن العناية به الأديبُ العلامة أبو المطرّف
أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي : أحدهما لأبي العلاء حسان ، والثاني للكاتب
أبي الحسن العنسي ، وهو الذي يُفهم منه أنّه من بغداد .
ونصُّ الأول :

يا ابن الوصي إذا حملت وصيتي	أوجبت حقاً للحقوق يُضافُ
وتحيي كلُّ التحايا دونها	وكذاك دونَ رسولها الأشرافُ
أحسِنْ بأن تلقى ابن حسان بها	مهترةً لورودها الأعطافُ
كالروضِ باكره الندى فلعرّفها	يا ابن النبي على النديّ مطافُ
وعلاك إنَّ أبا العلا ومكانه	يلُفّي به الإسعاد والإسعافُ
وأحقُّ من عرف الكرام بوصفهم	من جمعت منهم له أوصافُ

هذه يا سيدي تحية تجب لها إجابة وحيّة ، وتصلح بها هشاشة وأريحية ،
أودعتها بطن هذه العُجالة ، وبعثتها مع صدر من أبناء الرسالة ، والله دره من
راضع درّ النبوة ، متواضع مع شرف الأبوة ، نازعته طرق الأشعار ،
وأطراف الأخبار ، فوجدت بحراً حصاه الدرّ النفيسُ ، وروضاً يَجني منه
أطايب السمر الجليسُ ، ويُنعَتُ بنجم الدين وهو كنعته نجم يضيء سناه ،
ويحلُّ بيتاً من الشرف ربّه بَناه ، وقد جاب الفضاء العريض ، ورأى القصور
الحمراء والبُيض ، وورد الحَجّون ، بعدما شرب من ماء جيحون ، وزار مشاهد
الحرمين ، ثم سار في أرض الهرمين ، وفارق إفريقية لهذا الأفق مختاراً ، وعَبَرَ
إلى الأندلس فأطال بها اعتباراً ، وتشوّق إلى حضرة الأنوار المُفاضة ، والنعم
السابعة المُفضاضة ، وجعل قصدها بحجّة سفره طَوَاف الإفاضة ، وهمّه أن

يشاهد سَنَاهَا العلوي ، ويبصر ما يحقر عنده المرثي والمروي ، وهي غاية يقول للأمل : عليها أطلت حَوْمِي ، وجَنَّةٌ يتلو الداخل لها ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي﴾ وسيدي هو منها باب على الفتح بُني ، وجنابُ عَنَانُ الأمل إليه تُني ، وقَصْدُهُ من هذا الشريف أَجَلٌ قاصد ، وأَظْلَمَتُهُ سماءُ المجد بجمال المشتري وظرف عَطَّارِد ، ومتى نعتناه فالخبر ليس كالعيان ، ومتى شَبَّهْنَاهُ فالتمويه بالشبه عقوق العقيان ، ومن يفضح قريحته بأن يقول لها صِفِيهِ ، لكن يعرف عن نفسه بما ليس في وسع واصفيه ، ويقتضي من عزيمة برّه ما لا سَعَةَ للمترخص فيه ، إن شاء الله تعالى ، وهو يديم علاكم ، ويحرس مجدكم وسناكم ، بمنّه ، والسلام الكريم ، الطيب العميم ، يَخْصِّكُمْ به معظمُ مجدكم ، المعتدّ بذخيرة ودكم ، المحافظ على كريم عهدكم ، ابن عميرة ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، في الرابع والعشرين لربيع الآخر من سنة ٦٣٩ ، انتهى .

ونصُّ الثاني :

هل لك يا سيدي أبا الحسن فيمن له كلُّ شاهدٍ حَسَنٍ
في الشرفِ المنتقى لَهُ قدمٌ أثبتها بالوصيِّ والحَسَنِ

أَيُّهَا الأخ الذي مَلَكَته قيادي ، وأَسَكَنَته فَوَادِي ، عهدي بك تَعَتُّامُ
الآدابِ النقية ، وتشتاق اللطائف المشرقية ، وتنصف فَرَى أن في سيلنا جُفَاء ،
وفي مغربنا جُفَاء ، وأن المحاسن نَبَتُ أرضٍ ما بها وُلْدُنَا ، وزرعُ وادٍ ليس
مِمَّا عَهْدُنَا ، وأنا في هذا أَشَاعِيكَ وَأَتَابِعُكَ ، وَأُناضِلُ من يَنَازِلُكَ وَيَنَازِعُكَ ،
وقد أَنَا الله تعالى بحجة تقطع الحجج ، وتُسَكِّتُ المهج ، وهو الشريف الأجلُّ ،
السيد المبارك نجم الدين بن مهذب الدين نجل الذرية المختارة ، ونجم الدرية
السيارة ، جَرَى مع زَعَزَعٍ ونسيم ، ورتَعَ في جميم وهشيم ، وشاهدَ عجائب
كلِّ إقْلِيمٍ ، وشرَّقَ إلى مطلع ابن جَلَا ، وغرَّبَ حتى نزل شاطئ سَلَا ، وقد
توجّه الآن إلى حضرة الإمامة الرشيدية أيدها الله تعالى لينتهي من أصابع العدّ

إلى العقدة ، ويحصل من مخض الحقيقة على الرُبدة ، وقد علم أنه ما كل الخطب كخطبة المنبر ، ولا جميع الأيام مثل يوم الحج الأكبر ، وأدبه يا سيدي من نسبة أفقه ، بل على شكل حسبه وخلقه ، فإذا رأيته شهدت بأن الشرق قد أتخف لإفريقية ببغادذه ، بل رمانا بجملة أفلاذه ، والحظ فيما يجب من بره وتأنيسه ، إنما هو في الحقيقة جليسه ، فيا غبطة من يسبق لجواره ، ويقبس من أنواره ، وأنت لا محالة تفهمه فهمي ، وتشيم من شيمه عارضاً برّي القلوب الهيم يَهْمِي ، وتضرب في الأخذ من فوائده وقلائده بسهم وددت أنه سهمي ، والسلام ، انتهى .

٨٥ - ومنهم تقي الدين محمد ابن الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن الغرس ، الحنفي ، المصري . قال الوادي آشي فيه : إنه من أعيان مصر ، قال : وسألته هل يقع بين أهل مصر تنازع في تفضيل بعض المذاهب على بعض ؟ فأجابني بأن هذا لا يقع عندهم بين أهل الرسوخ في العلم ، وذوي المعرفة والفهم^١ ، وإنما يصدر هذا بين الناشئين ، قال : وللحنفية الظهور عليهم حين يقولون لهم : لنا عليكم اليد الطولى في الخبز ، لكونه بمصر يُطبخ في القرن بأرواث الدواب ، وكذلك تسخين الحمام ، فإن المالكية وغيرهم بمصر يقلدون الحنفية في ذلك ، قال : وسألته حفظه الله تعالى : هل للوباء بمصر وقتٌ معلوم ؟ فقال لي : جرت العادة عندهم بقدر الله تعالى وسره في خليقته أن كل سنة أولها ثاء مثلثة يكون فيها الوباء ، والله تعالى أعلم ، وأن هذا مُتعارَفٌ عندهم ، هكذا قال لي . وعيَّبَ ما يقع من بعض النقّاد بتونس وما يصدر عنهم بكثرة من إلقائهم الأسئلة العويصة في أصول الدين وغيرها على مَنْ يرد عليهم قصداً في تعجيزه وتعنيته ، ثم قال : إن من المنقول عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى أن من حُفِظَ عنه تسع وتسعون خصلة تقتضي الكفر وواحدة تقتضي الإيمان

١ ق : والوهم .

أن الواحدة المقتضية للإيمان تغلب وتبقى حرمتها عليه ، انتهى .
وقد ذكرنا في الباب الأول من هذا القسم حكاية البصري المغني القادم من
المشرق من البصرة على عبد الوهاب الحاجب بإفريقية في دولة بني المعز بن
باديس ، وسردنا دخوله عليه في مجلس أنسه ، وما اتفق في ذلك له معه ، وأنه
وصف له بلاد الأندلس وحسنها وطيبها ، فارتحل المغني إليها ، ومات بها ،
حسبما لحصناه من كلام الكاتب ابن الرقيق الأديب المؤرخ في كتابه « قطب
السرور » ولولا أنه لم يسم المغني المذكور لجعلنا له ترجمة في هذا الباب ، إذ
هو به أليق ، والأمر في ذلك سهل ، والله تعالى الموفق للصواب .

٨٦ - ومنهم الولي الصالح العارف بالله سيدي يوسف الدمشقي ، رضي
الله تعالى عنه ، وهو كما قال ابن داود من كبار الأولياء ، شاذلي الطريقة ،
قدم من المشرق إلى الأندلس ، وكان يأتي مدينة وادي آش الكرّة بعد الكرّة
لزيرة معارف له بها ، وكان من الذين أخفاهم الله ، لا يعرف به إلا من تعرف
له ، أعاد الله تعالى علينا من بركاته .

قال العلامة ابن داود : وحدثني مولاي والذي رضي الله تعالى عنه من لفظه
بتلمسان أمّنها الله تعالى يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول
سنة ٨٩٥ ، قال : دخل عليّ سنة شهر رمضان المعظم في زمان ولايتي
الخطابة والإمامة بالعراص من خارج وادي آش ، أعادها الله تعالى ، فقعدت
أول ليلة منه منفرداً بالمسجد الأعظم من الرباط المذكور بين العشاءين ، وفكرت
في ذكر أتخذ في هذا الشهر المبارك يكون جامعاً بين الدنيا والآخرة ، فأجمعت على
مطالعة « حلية » النواوي لعلّي أقف على ما اختاره لذلك ، فلمّا أصبحت
دخلت إلى المدينة ، ولم أكن أطلعت على فكري أحدًا ، فلقيني الحاج الأستاذ
أبو عبد الله ابن خلف رحمه الله تعالى في الطريق ، فقال لي : سيدي يوسف
الدمشقي يسلم عليك ويقول لك : الذكر الذي تعمر به هذا الشهر الفاضل :

« اللهم ارزقني الزهد في الدنيا ، ونور قلبي بنور معرفتك » ، قال لي والدي رضي الله تعالى عنه : وكان هذا سبب تعرّفي له ، ولقائي إيّاه ، وكنت قبل ذلك منكراً عليه لكثرة الدعاوى في هذا الطريق ، نفع الله تعالى به ، انتهى .
ولنجعل هذه الترجمة آخر هذا الباب ، تبرّكاً بهذا الولي الصالح ، نفعا الله تعالى ببركاته ، مع علمي بأن الوافدين من المشرق على الأندلس كثيرون جدّاً ، إلاّ أن عدم المادة التي أسْتَعِين بها في هذه البلاد تين عذري ، ولو اجتمعت على كتبي المخلّفة بالمغرب لأتيت في ذلك وغيره بما يشفي ويكفي :

وفي الإشارة ما يُغْنِي عن الكلام.



الباب السابع

في نبذة مما منّ الله تعالى به على أهل الأندلس من توقّد الأذهان ، وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالى ما عَزَّ أو هان ، وحوّزهم في ميدان البراعة ، من قصب اليراعة ، خَصَل الرهان ، وجملة من أجوبتهم ، الدالة على لودعيتهم ، وأوصافهم المؤذنة بالمعيتهم ، وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فضلهم أوضح برهان

[نقول في فضائل الأندلس]

[١ - عن فرحة الأنفس]

اعلم أن فضل أهل الأندلس ظاهر ، كما أن حُسن بلادهم باهر ، ولذلك ذكر ابنُ غالب في « فرحة الأنفس » لما أثنى على الأندلس وأهلها أن بَطْلَيْمُوسَ جعل لهم - من أجل ولاية الزُّهْرَةَ لبلادهم - حُسْنَ الهمة في الملبس والمطعم ، والنظافة والطهارة ، والحب للهو والغناء ، وتوليد اللحون ، ومن أجل ولاية عطارِد حُسْنَ التدبير ، والحرص على طلب العلم ، وحبّ الحكمة والفلسفة والعدل والإنصاف . وذكر ابنُ غالب أيضاً ما خُصُّوا به من تدبير المشتري والمريخ . وانتقد عليه بعضهم بأن أقاليم الأندلس الرابع والخامس والسادس في ساحلها الشمالي ، والسابع في جزائر المجوس ، وللإقليم الرابع الشمس ، وللخامس الزُّهْرَةَ ، والسادس عطارِد ، والسابع القمر ، والمشتري للإقليم الثاني ، والمريخ للثالث ، ولا مدخل لهما في الأندلس ، انتهى .

ثم قال صاحب الفرحة ١ : وأهلُ الأندلس عرب في الأنساب والعزة

١ م : ثم قال صاحب فرحة الأنفس .

والأَتَمَّةَ وَعُلُوَّ الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم والتزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية ، هِنْدِيَّونَ في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ورقّة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحِدَّة أفكارهم ونفوذ خَوَاطِرهم ، يونانيون في استنباطهم للمياه ومُعَانَاتهم لضروب الغراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للنباتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر ، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة ، ومنهم ابن بصال صاحب « كتاب الفلاحة » الذي شهدت له التجربة بفضلِهِ ، وهم أصبر الناس على مُطَاوَلَةِ التعب في تجويد الأعمال ومُقَاسَاة النَّصَبِ في تحسين الصنائع ، أحذق الناس بالفِرُوسِيَّةِ ، وأبصرهم بالطعن والضرب .

وَعَدَّ ^(وَعَدَّ) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ فضائلهم اختراعهم للخطوط المخصوصة بهم ، قال : وكان خطهم أولاً مشرقياً ، انتهى . قال ابن سعيد : أمّا أصول الخط المشرقي وما تجدد له في القلب واللعظ من القبول فمسلّم له ، لكن خط الأندلس الذي رأيتُهُ في مصاحف ابن غطوس الذي كان بَشْرِقَ الأندلس وغيره من الخطوط المنسوبة عندهم له حسن فائق ، وروثق آخذ بالعقل ، وترتيب يشهد لصاحبه بكثرة الصبر والتجويد ، انتهى .

ونحو صدر كلام ابن غالب السابق مذكورٌ في رسالة لابن حزم ، وقال فيها : إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المِهَنِ الصورية ، تُرَكِّبونَ في مُعَانَاةِ الحروب ومعالجة آلاتها والنظر في مهماتها ، انتهى . وعَدَّ ابنُ غالبٍ مِنْ فضائلهم اختراعهم للموشحات التي قدَّ استحسنها

١ م : وأصناف .

٢ قد : سقطت من ب .

أهل المشرق وصاروا يترعون مترعها ، وأما نظمهم ونثرهم فلا يخفى على من وقف عليهما علو طبقاتهم .

ثم قال ابن غالب : ولما نَفَدَ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المُبيرة تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العُدوة مع بلاد إفريقية ، فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه ، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه ، وغرسوا الأشجار ، وأحدثوا الأرحيَّ الطاحنة بالماء وغير ذلك ، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها ، فشرت بلادهم وصلحت أمورهم وكثرت مُستَغلاتهم وعمتهم الخيرات ، فهم أشبه الناس باليونانيين فيما ذكرت ولأن اليونانيين سكنوا الأندلس فورثوا عنهم ذلك ، وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها ، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتّاب والعمّال وجُباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة ، ولا يُستعمل بلدي ما وجد أندلسي ، وأما أهل الصنائع فإنّهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا معاشهم ، وأخملوا أعمالهم ، وصيروهم أتباعاً لهم ، ومتصرفين بين أيديهم ، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدّة ، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يُميلون به النفوس إليهم ، ويصير الذكر لهم ، قال : ولا يدفع هذا عنهم إلا جاهل أو مبطل ، انتهى .

[٢ - عن ابن سعيد]

وقال ابن سعيد ، لما ذكر جملة من محاسن الأندلسيين : يعلم الله تعالى أنّي ما أقصد إلا إنصاف المنصفين الذين لا يميل بهم التعصب ، ولا يجمع بهم الهوى ، ولكن الحق أحق أن يُستع ، فلعلّ مُطّلعاً يقف على ما ذكره ابن غالب فيقول : تعصب هذا الرجل لأهل بلده ، ثمّ يغمس التابع له والراضي بنقل قوله في هذه الصبغة ويحمله على ذلك بُعداً عن الأرضين :

ولو أَبْصَرُوا لَيَلَى أَقْرَبُوا بِحَسْنِهَا وَقَالُوا بِأَتَى فِي الثَّنَاءِ مُقَصَّرٌ

ويكفي في الإنصاف أن أقول : إن حضرة مراکش هي بغداد المغرب ، وهي أعظم ما في بر العدوّة ، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنّما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صنّاع الأندلس من جزيرتهم^١ ، وذلك مشهور معلوم إلى الآن . ومدينة تونس بإفريقية قد انتقلت إليها السعادة التي كانت في مراکش^٢ بسلطان إفريقية الآن أبي زكريا يحيى بن أبي محمد ابن أبي حفص ، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ما شابها به بلاد الأندلس وعرفاء صنّاعه من الأندلس وتماثيله التي يبني عليها ، وإن كان أعرف خلق الله باختراع محاسن هذا الشأن ، فإنّما أكثرها من أوضاع الأندلسيين ، وله من خاطره تنبيهات وزيادة ظهّر حسن موقعها ، ووجوه صنّاع دولته لا تكاد تجدهم إلّا من الأندلس ، فصح قول ابن غالب ، انتهى .

[٣ - عن الحميدي]

قال الحميدي : أنشد بحضرة بعض ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق ، وهي :

وماذا عليهم لو أجابوا^٣ فسلموا وقد علموا أنّي المشوق المتيمّم
سروا ونجوم الليل زهر طوالع على أنّهم بالليل للناس أنجم
وأخفوا على تلك المطايا مسيرهم فنمّ عليها في الظلام التسمّم

فأفرط بعض الحاضرين في استحسانها ، وقال : هذا ما لا يقدر أندلسي

١ م : جزيرتها .

٢ م : بمراكش .

٣ ق ب : أنابوا (اقرأ : أنابوا) .

٤ ب : عليهم .

على مثله ، وبالحضرة أبو بكر يحيى^١ بن هذيل ، فقال بديهاً :

عرفت بعرفِ الريح أين تيمّموا	وأين استقلّ الظاعنون وخيّموا
خليليّ ردّاني إلى جانبِ الحمى	فلستُ إلى غيرِ الحمى أتيّمُ
أبيتُ سميّرَ الفرقدين كأنّما	وسادي قتادُ أو ضجيجي أرقمُ
وأحورَ وسنانِ الجفونِ كأنّه	قضيبُ من الريحانِ لدنُ منعّمُ
نظرتُ إلى أجفانهِ وإلى الهوى	فأيقنتُ أنّي لستُ منهنّ أسلمُ
كما أنّ إبراهيمَ أوّلَ نظرةٍ	رأى في الدراري أنّه سوف يسقمُ

انتهى .

[٤ - عن ابن بسّام]

ومن كلام ابن بسّام صاحب « الذخيرة » في جزيرة الأندلس^٢ : أشرف
عرب المشرق افتتحوها ، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها ، فبقي النسل
فيها بكل إقليم ، على عرق كريم ، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر ،
وشاعر قاهر . وذكر أنّ أبا علي البغدادي صاحب الأملالي الوافد على الأندلس
في زمان بني مروان قال : لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمرّ به من أهل
الأمصار فأجدهم درجاتٍ في العبارات^٣ وقلة الفهم ، بحسب تفاوتهم في
مواضعهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم
مُحاصّة ومُقايسة . قال أبو علي : فقلت إن نقصَ أهل الأندلس عن مقادير
من رأيتُ في أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمّن قبلهم فسأحتاج إلى ترجّمان ،
في هذه الأوطان ؛ قال ابن بسّام : فبلغني أنّه كان يصلُّ كلامه هذا بالتعجب

١ ق ب م ودوزي : أبو بكر ابن يحيى .

٢ بعض هذا النص في مقدمة الذخيرة ١ / ١ : ٤ .

٣ الذخيرة : في الغباوة .

٤ م : نقص .

من أهل هذا الأفق الأندلسي في ذكائهم ، ويتغنى عنهم عند المباحثة والمفاتشة ، ويقول لهم : إن علمي علم رواية ، وليس بعلم دراية ، فخذوا عني ما نقلت ، فلم آل لكم أن صححت ، هذا مع إقرار الجميع له يومئذ بسعة العلم وكثرة الروايات ، والأخذ عن الثقات ، انتهى .

[٥ - عن الحجاري]

ومن كلام الحِجَارِيِّ في « المسهب » : الأندلس عِرَاقُ المغرب عزّة أنساب ، ورقّة آداب ، واشتغالا بفنون العلوم ، وافتنانا في المنثور والمنظوم ، لم تضق لهم في ذلك ساحة ، ولا قصرت عنه راحة ، فما مرّ فيها بمصرٍ إلا وفيه نجوم وبلدور وشموس ، وهم أشعر الناس فيما كثره الله تعالى في بلادهم ، وجعله نُصَبَ أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار والكؤوس ، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن ، وابنُ خَفَاجَة سابقهم في هذا المِضْمار الحائر فيه قصب الرهان . وأما إذا هبَّ نسيم ، ودار كأس في كف ظبي رخيم ، ورجع بسم وزير ، وصفق للماء خرير ، أو رقت العشية ، وخلعت السحب أبرادها الفضية والذهبية ، أو تبسم عن شعاع ثغر نهر ، أو تفرق بطل جفن زهر ، أو خفق بارق ، أو وصل طيف طارق ، أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح ، وبات مع من يهواه كالماء والراح ، إلى أن ودّع حين أقبل رائد الصباح ، أو أزهرت دوحة السماء بزهر كواكبها ، أو قوّضت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها ، فأولئك هم السابقون السابقون ، الذين لا يجارون ولا يلحقون ، وليسوا بالمقصّرين في الوصف إذا تقعّعت السلاح ، وسالت خلجان الصّوارم بين قضبان الرماح ، وبنت الحرب من العجاج سماء ، وأطلعت شبه النجوم أسنة وأجرت شبه الشفق دماء ، وبالجملة فإنهم في جميع الأوصاف والتخييلات أئمة ، ومن وقف على أشعارهم في هذا الشأن فضّلهم فيه على أصناف الأمة ،

وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم العربية ، وبقاعهم النضرة وهمهم الأبيّة .
ولشطار الأندلس من النوادر والتنكيّات ، والتركيبات وأنواع المضحكات ،
ما تملأ الدواوين كثرتّه ، وتضحك الثكلى وتُسَلّي المسلوب قصّته ، ممّا لو
سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وما ركّب ، ولا استغرب أحدٌ ما أورده
ولا تعجّب ، إلّا أن مؤلّفني هذا الأفق طمحت همهم عن التصنيف في هذا
الشأن فكاد يمرّ ضياعاً ، فقامت محتسباً للظرف فتداركته جامعاً فيه ما أمسى
شعاعاً ، انتهى .

[٦ - رسالة ابن حزم في فضل الأندلس]^١

قلتُ : وقد رأيت أن أذكر رسالة أبي محمد ابن حزم الحافظ التي ذكر فيها بعض
فضائل علماء الأندلس ، لاشتمالها على ما نحن بصددّه . وذلك أنّه كتب أبو علي
الحسن بن محمد بن أحمد بن الرّيبب التميمي القيرواني^٢ ، إلى أبي المغيرة عبد
الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد^٣
أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم ، ما صورته :
كتبْتُ يا سيدي ، وأجلّ عُددي ، كتب الله تعالى لك السعادة ، وأدام لك
العز والسيادة ، سائلاً مسترشداً ، وباحثاً مستخبراً ، وذلك أنّي فكرت في بلادكم
إذ كانت قرارة كل فضل ، ومنهّل كل خير ، ومقصد كل طُرْفَة ، ومورد
كل تحفة ، وغاية آمال الراغبين ، ونهاية أمانى الطالبين ، إن بارت تجارة فإليها

١ سماها ابن خير (الفهرسة : ٢٢٦) رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها .

٢ ترجم العمري في المسالك ١١ : ٣١٩ نقلاً عن أنموذج ابن رشيّق لمن اسمه ابن الرّيبب القاضي
الحسين بن محمد التميمي ، وقال إن أصله من تاهرت ، وكان عارفاً بالأدب وعلم النسب قوي
الكلام يتكلفه بعض تكلف ، وكان عبد الكريم النهشلي أستاذ ابن رشيّق يعده شاعراً مقدماً .

٣ ب : تخليص .

تُجَلَّب، وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق، مع كثرة علمائها، ووفور أدبائها^١،
وجلالة ملوكها، ومحبتهم في العلم وأهله، يُعَظَّمون من عَظَمته علمه،
ويرفعون من رفعه أدبه، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب: يقدمون من
قدمته شجاعته، وعظمت في الحروب نكايته، فشجع الجبان، وأقدم الهيبان،
ونبّه الخامل، وعلم الجاهل، ونطق العيى، وشعر البكي، واستنسر
البُغاث، وتشعبن الحفّاث^٢، فتنافس الناس في العلوم، وكثر الخذاق في
جميع^٣ الفنون، ثم هم مع ذلك على غاية التقصير ونهاية التفريط، من أجل أن
علّماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم، وخلّدوا في الكتب مآثر بلدانهم،
وأخبار الملوك والأمراء، والكتّاب والوزراء، والقضاة والعلماء، فأبقوا لهم
ذكراً في الغابر ينجدّد على مرّ الليالي والأيام، ولسان صدق في الآخرين
يتأكّد مع تصرف الأعوام، وعلماءكم مع استظهارهم على العلوم كلّ امرئ
منهم قائم في ظلّه لا يبرح، وراتب على كعبه لا يتزحزح، يخاف إن صنّف،
أن يُعَنّف، وإن ألّف أن يُخالّف، ولا يؤالّف، أو تخطفه الطير أو تهوي
به الريح في مكان سحيق، لم يُتعب أحد منهم نفساً في جمع فضائل أهل بلده،
ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه، ولا بلّ قلماً بمناب كتابه ووزرائه،
ولا سوّد قرطاساً بمحاسن قضاة وعلمائه، على أنّه لو أطلق ما عقّل الإغفال
من لسانه، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه، لوجد للقول مساعداً، ولم تضق
عليه المسالك، ولم تخرج به المذاهب، ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد،
ولكنّهم أحدهم أن يطلب شأواً من تقدمه من العلماء ليحوز قصبات السبق،
ويفوز بقيدح ابن مُقبِل، ويأخذ بكظم دغفل، ويصير شجاً في حلق أبي

١ ق ب : آدابها .

٢ تشعبن الحفّاث : أخذ هيئة الثعبان ؛ والحفّاث : حيوان كالثعبان يفتح قخيه ويثب مثل وثبه
ولكنه غير مؤذ (انظر الحاشية ص ٦٤٦ من الجزء الأول) .

٣ ب : لجميع ؛ ق : بجميع .

الْعَمِيْشَل ، فإِذَا أَدْرَكَ بَغِيَّتَهُ ، وَاخْتَرَمَتْهُ مَنِيَّتُهُ ، دَفَنَ مَعَهُ أَدْبَهُ وَعِلْمَهُ ، فَمَاتَ ذَكَرَهُ ، وَانْقَطَعَ خَبْرُهُ ، وَمَنْ قَدِمْنَا ذَكَرَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ احْتَالُوا لِبَقَاءِ ذَكَرِهِمْ احْتِيَالَ الْأَكْيَاسِ ، فَالْتَفَوْا دَوَاوِينَ بَقِيَ لَهُمْ بِهَا ذِكْرٌ مُجَدَّدٌ طَوَّلَ الْأَبَدَ .

فَإِنْ قُلْتُ : إِنَّهُ كَانَ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ عُلَمَائِنَا ، وَالْتَفَوْا كِتَابًا لَكِنَّا لَمْ تَصِلْ إِلَيْنَا ، فَهَذِهِ دَعْوَى لَمْ يَصْحَبْهَا تَحْقِيقٌ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنُنَا وَبَيْنَكُمْ غَيْرَ رَوْحَةٍ رَاكِبٍ ، أَوْ رَحْلَةٍ قَارِبٍ ، لَوْ نَفَقْتُ مِنْ بَلَدِكُمْ مَصْدُورٌ ، لِأَسْمَعُ مَنْ بِلَدُنَا فِي الْقُبُورِ ، فَضْلًا عَمَّنْ فِي الدُّورِ وَالْقُصُورِ ، وَتَلَقَّوْا قَوْلَهُ بِالْقَبُولِ كَمَا تَلَقَّوْا دِيْوَانَ أَحْمَدَ ابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِالْعَقْدِ ، عَلَى أَنَّهُ يَلْحَقُهُ فِيهِ بَعْضُ الْوَمِّ ، لَا سِيَّمَا إِذْ لَمْ يَجْعَلْ فَضَائِلَ بَلَدِهِ وَاسْطَةَ عَقْدِهِ ، وَمَنَاقِبَ مَلُوكِهِ يَتِيْمَةَ سُلُوكِهِ ، أَكْثَرَ الْحَزِّ وَأَخْطَأَ الْمَقْصَلِ ، وَأَطَالَ الْهَزَّ لِسَيْفٍ غَيْرِ مِقْصَلٍ ، وَقَعْدَ بِهِ مَا قَعَدَ بِأَصْحَابِهِ مِنْ تَرَكَ مَا يَعْنِيهِمْ ، وَإِغْفَالَ مَا يَهْمُهُمْ . فَأَرْشِدُ أَخَاكَ أَرْشِدُكَ اللَّهُ وَاهْدِهِ هَذَاكَ اللَّهُ إِنْ كَانَتْ عِنْدَكَ فِي ذَلِكَ الْجَلِيَّةُ ، وَبِيَدِكَ فَصْلُ الْقَضِيَّةِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

فَكَتَبَ الْوَزِيرُ الْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلِيٌّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ بْنِ حَزْمٍ ، عِنْدَ وَقُوفِهِ عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ ، مَا نَصَّه :

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ، وَعَلَى أَصْحَابِهِ الْأَكْرَمِينَ ، وَأَزْوَاجِهِ أَمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَذُرِّيَّتِهِ الْفَاضِلِينَ الطَّيِّبِينَ .
أَمَّا بَعْدُ يَا أَخِي يَا أَبَا بَكْرٍ^١ ، سَلَامٌ عَلَيْكَ سَلَامٌ أَخٍ مَشُوقٍ طَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ الْأُمِّيَالُ وَالْفَرَاخُ ، وَكَثُرَتْ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي ، ثُمَّ لَقَيْكَ^٢ فِي حَالِ سَفَرٍ وَنُقْلَةٍ ، وَوَادَّكَ فِي خِلَالِ جَوَالَةٍ وَرَحْلَةٍ ، فَلَمْ يَقْضِ مِنْ مَجَاوِرَتِكَ أَرْبَابًا ، وَلَا بَلْغَ فِي

١ هو أبو بكر محمد بن إسحاق المهلبسي الإسحاقى الوزير ، من أهل الأدب والفضل (الجدوة : ٤٢) .
وقد كان صديقاً لابن حزم ينتقلان معاً في أرجاء الأندلس ، واعتقلهما خيران معاً كذلك .

٢ ق م : لقيتك .

محاورتك مطلباً ، وإنّي لما احتللت بك ، وجالت يدي في مكنون كتبك ، ومضمون دواوينك ، لمحت عيني في تضاعيفها درجاً ، فتأملت ، فإذا فيه خطاب لبعض الكتاب من مصاقبين في الدار أهل إفريقية ، ثم ممن ضمته حاضرة قيسروانهم ، إلى رجل أندلسي لم يعينه باسمه^١ ، ولا ذكره بنسبه ، يذكر له فيها أن علماء بلدنا بالأندلس - وإن كانوا على الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم ، وفي الغاية القصوى من التحكّم على وجوه المعارف - فإن همهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم ، ومكارم ملوكهم ، ومحاسن فقهاءهم ، ومناقب قضاتهم ، ومفاخير كتّابهم ، وفضائل علمائهم ، ثم تعدّى ذلك إلى أن أخلى أرباب العلوم منّا أن يكون لهم تأليف يحيي ذكرهم ، ويبقي علمهم ، بل قطع على أن كل واحد منهم قد مات فدفن علمه معه ، وحقق ظنه في ذلك ، واستدل على صحته عند نفسه بأن شيئاً من هذه التأليف لو كان منّا موجوداً لكان إليهم منقولاً ، وعندهم ظاهراً ، لقرب المزار ، وكثرة السفار^٢ ، وتردّدهم إليهم ، وتكرّرهم علينا . ثم لما ضمّنا المجلس الحافل بأصناف الآداب ، والمشهد الأهل بأنواع العلوم ، والقصر المعمور بأنواع الفضائل ، والمترل المحفوف بكل لطيفة وسبعة من دقيق المعاني وجليل المعالي ، قرارة المجد ومحل السؤدد ، ومحط رحال الحائزين ، وملقى^٣ عصا التسيار عند الرئيس الأجل الشريف قديمه وحسبه ، الرفيع حديثه ومكتسبه ، الذي أجله عن كل خطّة يشركه فيها من لا توازي قومه نومه ، ولا ينال حضرة هويّناه ، وأربأ به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه ، ولا يدنو من المعالي دنوه ، ولا يعلو في حميد

١ لعل ابن حزم يعني أنه لم يجد في الرسالة التي بعثها ابن الريب اسم المرسل إليه ونسبته ، وقد صرح ابن بسام - كما ذكر المقرئ في النسخ - أن ابن الريب خاطب أبا المغيرة ابن حزم ، وأن أبا المغيرة رد عليه برسالة أطال فيها القول وختم بذكر جملة من تواليف أهل الأندلس (الذخيرة

١/١ : ١١١ - ١١٦) .

٢ م : السفرة .

٣ م : ومحط ؛ ب : ومحطى .

الخلال علوه ، بل أكتفي من مدحه باسمه المشهور ، وأجتري من الإطالة في
تقريظه بمتناه المذکور ، فحسبي بذینک العَلَمین دليلاً على سَعْيِهِ المشكور ،
وفضله المشهور ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم صاحب البونت^١ أطال
الله بقاءه ، وأدام اعتلاءه ، ولا عَطَلَ الحامدين من تحليهم بحُلَاة ، ولا أخلى
الأيام من ترينها بعلاه ، فرأيتُه أعزّه الله تعالى حريصاً على أن يجابو هذا
المخاطب ، وراغباً في أن يبين له ما لعلّه قد رآه فنسي أو بعد عنه فخفي ، فتناولت
الجواب المذكور بعد أن بلغني أن ذلك المخاطب قد مات ، رحمنا الله تعالى وإياه ،
فلَمْ يكن لقصده بالجواب معنى ، وقد صارت المقابر له مَعْنَى ، فلسنا بِمُسْمِعِينَ
مَنْ في القبور ، فصرفت عِنانَ الخطاب إليك ، إذ مِنْ قِبَلِك صرت إلى الكتاب
المجاوب عنه ، ومن لدنك وصلت إلى الرسالة المعارضة ، وفي وصول كتابي على
هذه الهيئة حيثما وصل كفاية لمن غاب عنه من أخبار تأليف أهل بلدنا مثل ما غاب
عن هذا الباحث الأول ، والله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن كنت في إخباري
إياك بما أرسمه في كتابي هذا كمهدٍ إلى البُرْكان نار الحُبّاحب ، وباني صَوْنِي في
مَهْنَعِ القَصْدِ اللاحب ، فإنّك وإن كنت المقصود والمواجه ، فإنّما المراد من
أهل تلك الناحية مَنْ نأى عنه علم ما استجلبه السائل الماضي ، وما توفيقي إلا
بالله سبحانه .

فأمّا مآثر بلدنا فقد ألّف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي^٢ كتاباً
جَمّة : منها كتاب ضخّم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها ، وأمّهات مدنها
وأجنادها الستة ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه ممّا ليس في غيره ، وهو

١ ذكر ابن الأبار في التكملة : ٣٨٨ أن ابن حزم كتب هذه الرسالة بطلب من أبي عبد الله محمد بن
عبد الله الفهري صاحب البونت ويلقب : « يمين الدولة » ؛ والبونت (Alpuente) من أعمال
بلنسية استقل فيها بنو قاسم الفهريون بعد الفتنة ، وأولهم عبد الله بن قاسم (٤٢١ -) وخلفه
يمين الدولة وبقي حاكماً حتى سنة ٤٣٤ (أعمال الأعلام : ٢٠٨) .

٢ ترجمة الرازي في الجذوة : ٩٦ وطبقات الزبيدي : ٣٢٧ .

كتاب مريح مليح ، وأنا أقول : لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله صلى الله عليه وسلم بشّر به^١ ووصف أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرة في الحديث الذي رَوَيْنَاهُ من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان زوج أبي الوليد عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين حدثته به عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أخبرها بذلك^٢ ، لكفى شرفاً بذلك يَسُرُّ عاجله ، ويغبط آجله . فإن قال قائل : فلعلّه صلوات الله تعالى عليه إنّما عَنَى بذلك الحديث أهلَ صقلية وإقريطش ، وما الدليلُ على ما ادعيتَه من أنه صلى الله عليه وسلم عَنِ الأندلس حتماً ؟ ومثلُ هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذُو وَرَعٍ دون برهان واضح ، وبيان لائح ، لا يحتمل التوجيه ، ولا يقبل التجريح ، فالجواب - وبالله التوفيق - أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب ، وأُمِرَ بالبيان لما أُوحي إليه ، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثَبَجَ هذا البحر غزاة واحدة بعد واحدة ، فسألته أم حرام أن يدعو ربّه تعالى أن يجعلها منهم ، فأخبرها صلى الله عليه وسلم وخبره الحق بأنّها من الأولين ، وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، وهو لإخباره بالشيء قبل كونه ، وصح البرهان على رسالته بذلك ، وكانت من الغزاة إلى قبرس ، وخَرَّتْ عن بغلتها هناك ، فتوفيت ، رحمها الله تعالى ، وهي أول غزاة ركب فيها المسلمون البحر ، فثبت يقيناً أن الغزاة إلى قبرس هم الأولون الذين بشّر بهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت أم حرام منهم كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، ولا سبيل أن يُظن به

١ م : إلا ما بشر به رسول الله . . . إلخ .

٢ صحيح مسلم ٢ : ١٠٤ ، وفيه أن رسول الله (ص) نام ثم استيقظ وهو يضحك ، فقالت له أم ملحان : ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : ناس من أمّتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة . . . إلخ ، وأنه نام مرة أخرى ، وفعل كفعله الأول ، فلما قالت له أم ملحان : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : أنت من الأولين .

وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان أنه يذكر طائفتين قد سمي إحداهما أولى
إلا والتالية لها ثانية ، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد ، وهذا يقتضي
طبيعة صناعة المنطق ، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانية ، ولا الثانية ثانية إلا
لأولى ، فلا سبيل إلى ذكر ثالث إلا بعد ثان ضرورة ، وهو صلى الله عليه وسلم
إنما ذكر طائفتين ، وبشّر بفتنتين ، وسمّى إحداهما الأولين ، فاقضى ذلك
بالقضاء الصدق آخرين ، والآخر من الأول هو الثاني الذي أخبر صلى الله عليه
وسلم أنه خير القرون بعد قرنه ، وأولى القرون بكل فضل بشهادة رسول
الله صلى الله عليه وسلم بأنه خير من كل قرن بعده ، ثم ركب البحر بعد ذلك
أيام سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية ، وكان الأمير بها في تلك السفن
هُبيرة الفزاري ، وأما صقلية فإنّها فُتحت صدر أيام الأغالبة سنة ٢١٢ ، أيام
قاد إليها السفن غازياً أسدُ بن الفرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله
تعالى ، وبها مات ، وأما إقريطش فإنّها فُتحت بعد الثلاث والمائتين ^١ ، افتتحها
أبو حفص عمر بن شعيب المعروف بابن الغليظ ^٢ ، من أهل قرية بطروج من
عمل فحَص البَلُوط المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس ، وكان من فلّ
الرَبَضِيِّين ، وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي
غنمها في أيامه أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ ، وكان أكثر
المفتحين لها أهل الأندلس .

١ في الجذوة : بعد الثلاثين والمائتين ؛ وفي ياقوت (إقريطش) : بعد سنة ٢٥٠ ، وذكر أبو سعيد
ابن يونس أن شعيب بن عمر بن عيسى أبا عمر ، تولى فتح جزيرة إقريطش بعد ستة عشرين ومائتين ،
وقال البلاذري (فتوح : ٢٧٩) إن أبا حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالإقريطشي
غزاها في خلافة المأمون وافتتح حصناً واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح منها شيئاً بعد شيء ؛ ولعل هذا
هو سبب الاختلاف في تاريخ فتحها .

٢ ترجمة عمر بن شعيب في الجذوة* : ٢٨٢ نقلا عن ابن حزم .

٣ افتتحها أرمانوس في منتصف المحرم ٣٥٠ فقتل ونهب وأخذ صاحبها عبد العزيز بن شعيب وبني
عمه وأموالهم إلى القسطنطينية (ياقوت : إقريطش) .

وأما في قسم الأقاليم فإن قُرْطُبَةَ مَسْقَطَ رُؤُوسِنَا ، وَمَعَقَّ^١ تَمَائِمِنَا ، مع سُرٍّ من رأى في إقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا ، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلاّ مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور ، وذلك عند المحسنين للأحكام التي تدل عليها الكواكب ناقص من قُوَى دلائلها ، فلها من ذلك على كل حال حظ يفوق حظ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد النّيرين بها تسعين درجة ، وذلك من أدلّة التمكن في العلوم والنفاذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدق ذلك الخبر ، وأبأنته التجربة ، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات وحفظ كثير من الفقه والبصّر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكانٍ رَحْبِ الفِئَاءِ واسع العَطَنِ متناهي الأقطار فسيح المجال ، والذي نعاه علينا الكاتبُ المذكور لو كان كما ذكر لكنّا فيه شركاء لأكثر أمهات الخواضر وجلال البلاد ومُتَسَّعات الأعمال ، فهذه القيروان بلد المخاطِبِ لنا ، ما أذكر أنّي رأيت في أخبارها تأليفاً غير « المغرب »^٢ عن أخبار المغرب » وحاشا لتأليف محمد بن يوسف الوراق^٣ ، فإنّه أَلَفَ للمستنصر رحمه الله تعالى في مسالك إفريقية وممالكها ديواناً ضخماً ، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتباً جمّة ، وكذلك أَلَفَ أيضاً في أخبار تيهرت ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة^٤ وغيرها تأليف حسناً ، ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع ، آباؤه من وادي الحِجَارَةِ ، ومَدْفُونه بقرطبة ، وهجرته إليها ، وإن كانت نشأته بالقيروان .

ولا بد من إقامة الدليل على ما أشرت إليه هاهنا إذ مرادنا أن نأتي منه

١ ب : ومعد ؛ ومعق التائم ، أي موضع قطعها دلالة على تجاوز سن الطفولة .

٢ ق : المغرب .

٣ محمد بن يوسف أبو عبد الله التاريخي الوراق (الجدوة : ٩٠ وبغية الملتبس رقم : ٣٠٤ وفيهما ما قاله ابن حزم) .

٤ يعني بصرّة المغرب ، وكانت قريباً من مدينة أصيلا .

بالمطلب ، فيما يستأنف إن شاء الله تعالى ، وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقيين ، دون محاشاة أحد ، بل قد تيقنّا إجماعهم على ذلك ، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكنائها إلى أن مات ، فإن ذكروا الكوفيّين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم صدّروا بعلي وابن مسعود وحذيفة رضي الله تعالى عنهم ، وإنّما سكن عليّ الكوفة خمسة أعوام وأشهرًا ، وقد بقي ٥٨ عامًا وأشهرًا بمكة والمدينة شرفهما الله تعالى . وكذلك أيضًا أكثر أعمار من ذكرنا ، وإن ذكروا البصريين بدأوا بعمران بن حصّين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبي بكرة ، وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف ، وجمهرة أعمارهم خلت هنالك ، وإن ذكروا الشاميين نوّها بعُبادة بن الصامت وأبي الدرداء وأبي عبّيدة بن الجراح ومُعاذ ومعاوية ، والأمر في هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم ، وكذلك في المصريين عمّرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوي ، وفي المكيّين عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير ، والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا ، فمَن هاجر إلينا من سائر البلاد ، فنحن أحقُّ به ، وهو منّا بحكم جميع أولي الأمر منّا الذين إجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ^١ ، ومن هاجر منّا إلى غيرنا فلا حظّ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره أسعدُ به ، فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم ^٢ فكذلك لا ننازع في محمد بن هانيء سوانا ^٣ ، والعدلُ أولى ما حرص عليه ، والنصف أفضل ما دُعي إليه ، بعد التفصيل الذي ليس هذا موضعه ، وعلى ما ذكرنا من الأنصاف تراضى الكل .

١ م : اقترابه ؛ ق : اقترانه .

٢ يريد أبا علي القالي ، أي أنه يعمده أندلسياً - حسب مقياسه - لأنه هاجر إلى الأندلس وأقام فيها حتى توفي .

٣ سوانا : سقطت من م .

وهذه بغداد حاضرة الدنيا ومعدن كل فضيلة ، والمحلة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف ، والتدقيق في تصريف العلوم ، ورقة الأخلاق والنباهة والذكاء ووحدة الأفكار ونقد الخواطر ، وهذه البصرة وهي عين المعمور في كل ما ذكرنا ، وما أعلم في أخبار بغداد تأليفاً غير كتاب أحمد بن أبي طاهر^١ ، وأمّا سائر التواريخ التي ألّفها أهلها فلم يخصّوا بلدتهم بها دون سائر البلاد ، ولا أعلم في أخبار البصرة غير كتاب عمر بن شبة^٢ ، وكتاب لرجل من ولد الربيع ابن زياد المنسوب إلى أبي سفيان في خطط البصرة وقطائعها ، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبد القاهر كريزي النسب [في] صفاتها^٣ وذكر أسواقها ومحالها وشوارعها ، ولا أعلم في أخبار الكوفة غير كتاب عمر^٤ بن شبة ، وأمّا الجبال وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان والري^٥ والسند وأرمينية وأذربيجان وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا أعلم في شيء منها تأليفاً قصد به أخبار ملوك تلك النواحي ، وعلمائها وشعرائها وأطبائها^٦ ، ولقد تأقت النفوس إلى أن يتصل بها تأليف في أخبار فقهاء بغداد ، وما علمناه علم ، على أنهم العلية الرؤساء ، والأكابر العظماء ، ولو كان في شيء من ذلك تأليف لكان الحكم في الأغلب أن يبلغنا كما بلغ سائر تأليفهم ، وكما بلغنا كتاب حمزة بن الحسن الأصبهاني في أخبار أصبهان^٧ ،

١ أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور (- ٢٨٠) وكتابه المشار إليه « بغداد » بقيت منه قطعة نشرها هنسي كلر بالزنكوغراف (١٩٠٨) وأعيد طبعها بمصر (١٣٦٨ هـ) ؛ انظر ترجمته في معجم الأدباء ١ : ١٥٢ .

٢ هو كتاب « أخبار أهل البصرة » ومؤلفه ترجمة في معجم الأدباء ٦ : ٤٨١ ؛ والتذهيب ٧ : ٦٠ ؛ وبغية الوعاة : ٣٦١ ونور القيس : ٢٣١ .

٣ ب ق : وصفاتها .

٤ عمر : سقطت من ق .

٥ والري : زيادة من ق ب .

٦ كثرت المؤلفات في البلدان بعد ابن حزم ؛ انظر الإحاطة ١ : ٩٠ والإعلان : ١٢١ - ١٣٥ .

٧ انظر ترجمة حمزة الأصبهاني في تاريخ أصبهان ١ : ٣٠٠ وقد وصلنا من كتبه كتابه تواريخ =

وكتاب الموصلي^١ وغيره في أخبار مصر ، وكما بلغنا سائر تواليفهم في أنحاء العلوم ، وقد بلغنا تأليف القاضي أبي العباس محمد بن عبدون القيرواني في الشروط^٢ ، واعتراضه على الشافعي رحمه الله تعالى ، وكذلك بلغنا رد القاضي أحمد بن طالب التميمي على أبي حنيفة^٣ وتشيعه على الشافعي ، وكتب ابن عبدوس^٤ ومحمد بن سحنون^٥ وغير ذلك من خوامل^٦ تأليفهم دون مشهورها .
وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر « أزهد الناس في عالم أهله » ، وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبي حرمة إلا في بلده » وقد تيقنا ذلك بما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من قريش - وهم أوفر الناس أحلاماً وأصحهم عقولاً وأشدهم تثباً ، مع ما خصّوا به من سكناتهم أفضل البقاع ، وتغذيتهم بأكرم المياه - حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس ، والله يؤتي فضله من يشاء ؛ ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم ، واستقلالهم

= سي ملوك الأرض والأنبياء ، والدرة الفاخرة (مخطوط) وشرح ديوان أبي نواس ، أما كتابه في تاريخ بلده فلم يصلنا .

١ في م : الوصلي ، ولعلها أن تقرأ « المصري » إذ لا أعلم - بعد البحث - أن موصلياً ألف في تاريخ مصر وأخبارها ؛ ومن الكتب التي يرجح أن ابن حزم عرفها في تاريخ مصر كتاب (أو كتب) أبي عمر الكندي صاحب تاريخ الولاة والقضاة ، وتاريخ مصر لمحمد بن عبد الحكم (توفي ٢٦٨) .

٢ أبو العباس محمد بن عبدون بن أبي ثور ، كان قاضياً على القيروان نحو ثلاثين شهراً ، وعزله عنها إبراهيم بن الأغلب ؛ وكان حافظاً للمذهب أبي حنيفة موثقاً كاتباً للشروط والوثائق (علماء إفريقية : ٢٤١ ، ٣٠٧) .

٣ صوابه : عبد الله بن أحمد بن طالب ، قال فيه الحشني : وكان له نظر ومناظرة وكتب يرد فيها على الشافعي لا بأس بها (علماء إفريقية : ٢٥٧ ، ٢٩٧) .

٤ هناك اثنان هما محمد وإسحاق ابنا إبراهيم بن عبدوس والأول منهما كان حافظاً للمذهب مالك ، وله على مذهبه كتاب اسمه « المجموعة » (توفي سنة ٢٥٨) . انظر علماء إفريقية : ١٨٢ .

٥ انظر علماء إفريقية : ٢٥٦ ، ٢٩٦ .

٦ في الأصول : حواصل .

كثيراً ما يأتي به ، واستهجانهم حسنة ، وتبّعهم سقطاته وعثراته ، وأكثّر ذلك مدّة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارق مغير ومنتحل مدّع ، وإن توسّط قالوا : غث بارد وضعيف ساقط ، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلّم ؟ وفي أي زمان قرأ ؟ ولأمّه الهبل ! وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين إمّا شفوفاً بائناً يعليه على نظرائه أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها فهناك حمي الوطيس على البائس ، وصار غرضاً للأقوال وهذفاً للمطالب ونصباً للتسبب إليه ونهباً للألسنة وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نُحل ما لم يقل وطوّق ما لم يتقلّد وأُلحق به ما لم يفقه به ولا اعتقده قلبه ، وبالحرى وهو السابق المبرّز إن لم يتعلق من السلطان بحظ أن يسلم من المتآلف وينجو من المخالف ، فإن تعرض لتأليف غمز ولمز وتعرّض وهمز واشتط عليه ، وعظم سير خطبه واستشنع حين سقطه وذهبت محاسنه وسُتّرت فضائله وهُتِف ونودي بما أغفل ، فتنكس لذلك همته وتكلّ نفسه وتبرد حميته ، وهكذا عندنا نصيب من ابتدأ يحوك شعراً ، أو يعمل رسالة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النُصب إلا الناهض القاتل والمطفّف المستولي على الأمد .

وعلى ذلك فقد جُمع ما ظنّه الظان غير مجموع ، وأُلّفت عندنا تأليف في غاية الحسن ، لنا خطر السبق في بعضها : فمنها كتاب « الهداية » لعيسى بن دينار^١ ، وهي أرفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم ، وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب ، فمنها كتاب الصلاة وكتاب البيوع وكتاب الجدار^٢ في الأقضية وكتاب النكاح والطلاق ، ومن الكتب المالكية التي

١ عيسى بن دينار بن واقد الغافقي (الجدوة : ٢٧٩ وبغية الملتبس رقم : ١١٤٤ وابن الفريسي : ١ : ٣٧٣) . صاحب عبد الرحمن العتيقي صاحب مالك وتفقه عليه وأصبح إماماً في الفقه على مذهب مالك (توفي سنة ٢١٢) .

٢ موضع كلمة « الجدار » بياض في ب .

ألفت بالأندلس كتاب القطني مالك بن علي^١ ، وهو رجل قرشي من بني فهر لقي أصحاب مالك وأصحاب أصحابه ، وهو كتاب حسن فيه غرائب ومستحسنات من الرسائل المولدات ، ومنها كتاب أبي إسحاق [يحيى بن]^٢ إبراهيم بن مزين في تفسير الموطأ والكتب^٣ المستقصية لمعاني الموطأ وتوصيل مقطوعاته من تأليف ابن مزين أيضاً ، وكتابه في رجال الموطأ وما للمالك عن كل واحد منهم من الآثار في موطأه .

وفي تفسير القرآن كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره^٤ .

ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبته^٥ على أسماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف ، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ، فهو مصنف ومسند ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه ، فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائرهم أعلام مشاهير . ومنها مصنفه في فضل^٦ الصحابة والتابعين ومن دونهم

١ هو مالك بن علي بن مالك بن عبد الملك بن قطن الفهري (ولذلك يقال له القطني ؛ وفي دوزي والأصول القصي) أبو خالد الزاهد ، له مختصر في الفقه على مذهب مالك ، وتوفي سنة ٢٦٨ ؛ انظر الجذوة :

٣٢٤ وبغية الملتبس رقم : ١٣٥٠ وابن الفرضي ٢ : ٣ .

٢ زيادة لازمة أدخلت بها الأصول ؛ وقد قال الحميدي (الجذوة : ١٤٨) إن إبراهيم بن مزين لم تكن له رواية ؛ أما ابنه يحيى فهو الذي يقصده ابن حزم هنا ؛ توفي سنة ٢٥٩ (انظر الجذوة :

٣٥٠ وبغية الملتبس رقم : ١٤٥٧ وابن الفرضي ٢ : ١٧٨) .

٣ كذا بصيغة الجمع ولعله يعني الأجزاء ؛ وذكر ابن الفرضي أن له كتاباً استقصى فيه علل الموطأ سماه « المستقصية » .

٤ انظر الجذوة : ١٦٧ (وهو ينقل كلام ابن حزم) والصلة : ١١٨ .

٥ م : ألفه ورتبه .

٦ الجذوة : فتاوى .

الذي أربى فيه على مصنف أبي بكر ابن أبي شيبة ومصنف عبد الرزاق بن همام ومصنف سعيد بن منصور وغيرها وانتظم علماً عظيماً لم يقع في شيء من هذه ، فصارت تأليف هذا الإمام الفاضل قواعد للإسلام ، لا نظير لها ، وكان متخيراً لا يقلد أحداً ، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه .

ومنها في أحكام القرآن كتاب ابن أمية^١ الحجاري ، وكان شافعي المذهب بصيراً بالكلام على اختياره ، وكتاب القاضي أبي الحكم منذر بن سعيد ، وكان داودي المذهب قوياً على الانتصار له ، وكلاهما في أحكام القرآن غاية ، ولمنذر مصنفات منها كتاب « الإبانة عن حقائق أصول الديانة » .

ومنها في الحديث مصنف أبي محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح ، ومصنف محمد بن عبد الملك بن أيمن^٢ ، وهما مصنفان رفيضان احتويا من صحيح الحديث وغيره على ما ليس في كثير من المصنفات ، ولقاسم بن أصبغ هذا تأليف حسان جدّاً ، منها أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل^٣ وكلامه ، ومنها كتاب « المجتبى على أبواب كتاب ابن الجارود المنتقى » وهو خير منه وأتقى حديثاً وأعلى سنداً وأكثر فائدة ، ومنها كتاب في فضائل قریش وكنانة^٤ ، وكتابه في الناسخ والمنسوخ ، وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس ممّا ليس في الموطأ . ومنها كتاب « التمهيد » لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبد البر ، وهو الآن بعد في الحياة^٥ لم يبلغ سن الشيخوخة ، وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً فكيف أحسن منه ، ومنها كتاب « الاستذكار » وهو اختصار التمهيد^٦ المذكور ، ولصاحبنا أبي عمر ابن عبد البر

١ الجذوة : ابن آمنة (ص : ٣٨٠) .

٢ انظر الجذوة : ٦٣ .

٣ يعني إسماعيل بن إسحاق القاضي (الجذوة : ٣١١) وبقية النص عن قاسم بن أصبغ مثبت في الجذوة .

٤ وكنانة : لم تذكر في الجذوة .

٥ م : بقاء الحياة ، وقد توفي ابن عبد البر سنة ٤٦٣ (راجع الصلة : ٦٤٠ والجذوة : ٣٤٤) .

٦ م : التهذيب .

المذكور كتب^١ لا مثيل لها : منها كتابه المسمّى بالكافي في الفقه على مذهب مالک وأصحابه خمسة عشر كتاباً^٢ اقتصر فيه على ما بالمفتي الحاجة إليه وبوبه وقرّبه فصار مغنياً عن التصنيفات الطوال في معناه ، ومنها كتابه في الصحابة ليس لأحد من المتقدمين مثله على كثرة ما صنفوا في ذلك^٣ ، ومنها كتاب « الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو ابن العلاء ، والحجة لكل واحد منهما » ، ومنها كتاب « بهجة المجالس وأنس المجالس » ممّا يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات ، ومنها كتاب « جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته »^٤ .

ومنها كتاب شيخنا القاضي أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن الفرضي في المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال ، ولم يبلغ عبد الغني الحافظ البصري في ذلك إلا كتابين ، وبلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين لا أعلم مثله في فنّه البتّة ، ومنها تاريخ أحمد بن سعيد^٥ ، ما وضع في الرجال أحد مثله إلا ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي البغدادي ، ولم أره ، وأحمد بن سعيد هو المتقدم إلى التأليف القائم في ذلك ، ومنها كتب محمد بن [أحمد بن] يحيى بن مفرج القاضي ، وهي كثيرة منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري ، وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهري .

وممّا يتعلّق بذلك شرح الحديث لقاسم بن ثابت^٦ السرقسطي ، فما شاء

١ الجذوة : ستة عشر جزءاً .

٢ يعني كتاب « الاستيعاب » .

٣ من كتب ابن عبد البر أيضاً الدرر في اختصار المغازي والسير ، والشواهد في إثبات خبر الواحد ، والبيان عن تلاوة القرآن ، والعقل والعقلاء ، وأخبار أئمة الأنصار ، والقصد والأهم ، وغيرها .

٤ أحمد بن سعيد الصديقي ألف في تاريخ الرجال كتاباً كبيراً جمع فيه جميع ما حصل عليه من أقوال في التعديل والتجريح ، توفي سنة ٣٥٠ (الجذوة : ١١٧ وابن الفرضي ١ : ٥٥) .

٥ زيادة من الجذوة : ٣٨ .

٦ في الأصول ودوزي : لعامر بن خلف ، وهو خطأ واضح ؛ ولقاسم كتاب « غريب الحديث » =

أبو عبيد إلا بتقدم العصر فقط .

ومنها في الفقه « الواضحة » والمالكيون لا تمنع بينهم في فضلها واستحسانهم إياها ، ومنها « المستخرجة من الأسمعة » وهي المعروفة بـ « العتبية » ، ولها عند أهل إفريقية القدر العالي والطيران الحثيث ^١ ، والكتاب الذي جمعه أبو عمر أحمد ابن عبد الملك بن هشام الإشبيلي المعروف بابن المكوي ^٢ ، والقرشي أبو مروان المعيطي ^٣ في جمع أقاويل مالك كلتها على نحو الكتاب « الباهر » الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد البصري أقاويل الشافعي كلتها ، ومنها كتاب « المنتخب » ^٤ الذي ألّفه القاضي محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة ، وما رأيت للمالكي قط كتاباً أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقتها وتفرع وجوهها ، وتأليف قاسم بن محمد المعروف بصاحب الوثائق ، وكلتها حسن في معناه ، وكان شافعي المذهب نظاراً جارياً في ميدان البغداديين ^٥ .

ومنها في اللغة الكتاب « البارع » ^٦ الذي ألّفه إسماعيل بن القاسم يحتوي على لغة العرب ، وكتابه في « المقصور والممدود والمهموز » لم يؤلف مثله في بابيه ، وكتاب « الأفعال » لمحمد بن عمر بن عبد العزيز ^٧ المعروف بابن القوطية بزيادات ابن طريف مولى العبيدين ^٨ فلم يوضع في فنّه مثله ، وكتاب جمعه أبو

= وقول ابن حزم فيه مذكور في الجذوة : ٣١٢ .

١ الواضحة لعبد الملك بن حبيب والعتبية لتلميذه العتبي (الجذوة : ٢٦٤ ، ٣٧) .

٢ في الأصول : الكوي ، والتصويب عن الجذوة : ١٢٣ والصلة : ٢٨ ؛ (توفي سنة ٤٠١) .

٣ المعيطي هو محمد بن عبيد الله القرشي ، وقد قال ابن بشكوال إنهما جمعا الكتاب للمستنصر أما الحميدي فذكر أنهما جمعهما بأمر المنصور بن أبي عامر ، واسم الكتاب « الاستيعاب » .

٤ انظر الجذوة : ٩١ وأورد قول ابن حزم .

٥ قاسم بن محمد (توفي سنة ٢٧٨) وله كتاب « الإيضاح في الرد على المقلدين » - الجذوة : ٣١٠ .

٦ بقيت من هذا الكتاب قطعة أخرجها فلتون (Fulton) بالزنكوغراف (لندن : ١٩٣٣) .

٧ في الأصول : لمحمد بن عامر الغزي ؛ وكتابه « الأفعال » مطبوع مرتين ، إحداها بمصر .

٨ ترجمة ابن طريف في الجذوة : ٣٨١ .

غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياتي^١ في اللغة لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً وثقة نقل ، وهو أظن^٢ في الحياة بعد . وههنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها ، وهي أن أبا الوليد عبد الله بن محمد بن عبد الله المعروف بابن الفرضي ، حدثني أن أبا الجيش مجاهداً صاحب الجزائر ودانية وجهه إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية وأبو غالب ساكن بها ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور « ممّا ألقه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد » فردّ الدنانير وأبى من ذلك ، ولم يفتح في هذا باباً البتة ، وقال : والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب ، لأنّي لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب ، فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوّها ، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها .

ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد^٣ في اللغة المعروف بكتاب « العالم » نحو مائة سفر على الأجناس في غاية الإيعاب ، بدأ بالفلك وختم بالذرة ؛ وكتاب « النوادر »^٤ لأبي علي إسماعيل بن القاسم ، وهو مبارٍ لكتاب « الكامل » لأبي العباس المبرد ، ولعمري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً فإن كتاب أبي علي أكثر لغةً وشعراً ، وكتاب « الفصوص »^٥ لصاعد بن الحسن الربيعي ، وهو جارٍ في مضمار الكتّابين المذكورين .

ومن الأنحاء تفسير الجُرُفي^٦ لكتاب الكسائي ، حسن في معناه ، وكتاب

١ ترجم له الحميدي مرتين : ١٧٢ ، ٣٨٠ وأورد في الأولى قصته مع أبي الجيش مجاهد بصدد كتابه في اللغة واسمه « تلقيح العين » .

٢ م : أظنه .

٣ ق : سعيد ؛ م : سيدة ؛ و ترجمة ابن سيد في الجذوة : ١١٠ والصلة : ١٤ وكان صاحب الشرطة بقرطبة وتلمذ للقالي ، توفي سنة ٣٨٢ ، وترجم له الحميدي مرة أخرى تحت « ابن سيد » (ص : ٣٨١) .

٤ هو المعروف بكتاب أمالي القالي .

٥ من هذا الكتاب مخطوطة جيدة بخزانة القرويين بفاس .

٦ في الأصول : الحوفي والتصويب عن الجذوة : ٣٨٤ إذ ضبطه بالبحيم المضمومة .

ابن سيده في ذلك المنبوز بـ « العالم والمتعلم » وشرح له لكتاب الأخفش^١ .
ومما ألف في الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء في « أخبار شعراء الأندلس »
كتاب حسن^٢ ، وكتاب « الحدايق » لأبي عمر أحمد بن فرج عارض به كتاب
الزهرة لأبي محمد ابن داود رحمه الله تعالى ، إلا أن أبا بكر إنمّا أدخل مائة باب
في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت ليس منها
باب تكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً ، وأحسن الاختيار
ما شاء وأجاد ، فبلغ الغاية ، وأتى الكتابُ فرداً في معناه^٣ ، ومنها كتاب
« التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » جمعه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي
الحسن الكاتب ، وهو حي بعد^٤ ، ومما يتعلق بذلك شرح أبي القاسم لإبراهيم
ابن محمد بن الإفليبي لشعر المتنبي ، وهو حسن جداً^٥ .

ومن الأخبار تواريخ^٦ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك
الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم ، وذلك كثير جداً ، وكتاب له في صفة
قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار
بغداد وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها ، وتواريخ متفرقة رأيت
منها : أخبار عمر بن حفصون القائم برية ووقائعه وسيره وحروبه ، وتاريخ
آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقي القائم بالحواف ، وفي أخبار بني

١ ذكر الحميدي كتابي « العالم والمتعلم » و « شرح كتاب الأخفش » لأبان بن سيد المتقدم الذكر ،
لا لابن سيده صاحب المخصص والمحكم .

٢ لم يصلنا هذا الكتاب ، ولكن ابن سعيد ينقل عنه في المغرب .

٣ أورد الحميدي (ص : ٩٧) نص كلام ابن حزم هذا في الحدايق ، وأكثر الحميدي وابن الأبار
في الخلية وابن سعيد في المغرب ، النقل عن هذا الكتاب .

٤ ترجمة ابن أبي الحسن في الجذوة : ٢٩٠ ، قال الحميدي : وعاش إلى أيام الفتنة .

٥ هذا الشرح موجود ولكنه لم ينشر بعد .

٦ م : تاريخ ؛ وهذا النص في الجذوة : ٩٧ .

قسيّ والتَّجِيبِينَ وبني الطَّوِيلِ بالثَّغْرِ^١ ، فقد رأيت من ذلك كتباً مصنَّفة في غاية الحسن ، وكتاب مجزأ في أجزاء كثيرة في أخبار رِيَّة وحصونها وحروبها وفقهاؤها وشعرائها تأليف إسحاق بن سلمة بن إسحاق القيَّني^٢ ، وكتاب محمد ابن الحارث الخشني في « أخبار القُضاة بقرطبة^٣ وسائر الأندلس » ، وكتاب « في أخبار الفقهاء » بها ، وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في « أنساب مشاهير أهل الأندلس » في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها ، وكتاب قاسم بن أصبغ في « الأنساب » في غاية الحسن والإيعاب والإيجاز ، وكتابه في « فضائل بني أمية » ، وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره وانتشر ذكره ، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعامل والأجناد الستة بالأندلس ، ومنها كتب كثيرة جُمِعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى ، رأيت منها « أخبار شعراء البيرة » في نحو عشرة أجزاء ، ومنها كتاب « الطوالع » في أنساب أهل الأندلس ، ومنها كتاب « التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس » تأليف أبي مروان ابن حيَّان نحو عشرة أسفار من أجل كتاب ألَّف في هذا المعنى^٤ ، وهو في الحياة بعدُ لم يتجاوز الاكتهال ، وكتاب « المآثر العامرية » لحسين بن عاصم في سير ابن أبي عامر وأخباره^٥ ، وكتاب الأَقْشَتِينَ^٦ محمد بن عاصم النحوي في

١ ورد طرف من أخبار هؤلاء النادرين في المقتبس وابن عذاري ، وانظر في أنسابهم كتاب الجهمرة :

٤٦٤ .

٢ في الأصول : الليثي ، والتصويب عن الجذوة : ١٥٩ ، ومعجم البلدان (رية) .

٣ كتاب « قضاة قرطبة » للخشني مطبوع مع « علماء إفريقية » له بمصر سنة ١٣٧٢ هـ عن نشرة ريبرا (١٩١٤) .

٤ أبو مروان ابن حيَّان كبير مؤرخي الأندلس وصاحب المقتبس والمتين وغيرهما (الصلة : ١٥٠ والذخيرة ١ / ٢ : ٨٤ - ١١٤) وقد نشر من مقتبسه ثلاث قطع ، ويعتمد ابن بسام عليه في الأجزاء التاريخية من كتاب الذخيرة .

٥ انظر الجذوة : ١٨١ .

٦ الأَقْشَتِينَ (Augustine) له ترجمة في الجذوة مرتين ٧٤ ، ٨٢ مرة باسم محمد بن عاصم ومرة باسم محمد بن موسى بن هاشم (وبغية الملتبس رقم : ٢٤٣ ، ٢٦٨) وطبقات الزبيدي : ٣٠٥ =

« طبقات الكتّاب بالأندلس » ، وكتاب سكن بن سعيد في ذلك^١ ، وكتاب أحمد ابن فرج في « المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم » ، وكتاب « أخبار أطباء الأندلس » لسليمان بن جلجل^٢ .

وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن إسحاق^٣ وهي كتب رفيعة حسان ، وكتب محمد بن الحسن المذحجي أستاذنا رحمه الله تعالى ، وهو المعروف بابن الكتاني^٤ ، وهي كتب رفيعة حسان ، وكتب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش^٥ الزهراوي ، وقد أدركناه وشاهدناه ، ولئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدّقن^٦ ، وكتب ابن الهيثم^٧ في الخواص والسموم والعقاقير من أجل الكتب وأنفعها .

وأما الفلسفة فلنّيت رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السّرقسّطي المعروف بالحمّار دالة على تمكّنه من هذه الصناعة^٨ ، وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة .

= (وكتب خطأ: الأفشنيق) وابن الفرضي ٢ : ٣١ والقفطي ٣ : ٢١٦ ، وأكبر الظن أن هناك خطأ وقع بين «عاصم» و«هاشم» . ولم يذكر الزبيدي «محمد بن عاصم» في النحويين ، وهو أعرف بهم .
١ انظر ترجمة سكن بن سعيد في الجذوة : ٣١٩ والبغية رقم : ٨٣٤ .
٢ نشره الأستاذ فؤاد السيد (القاهرة : ١٩٥٥) مع مقدمة ضافية في التعريف بالكتاب ومؤلفه .
٣ ترجمته في ابن جلجل : ١٠٠ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٣ والجذوة : ٣٥١ والبغية رقم : ١٤٦٠ .
٤ ترجمته في ابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٥ والجذوة : ٤٥ والبغية رقم : ٨١ وهو أيضاً صاحب كتاب التشبيهات ، وانظر هناك تحقيقنا لاسمه ومواضع ترجمته .
٥ في النسخ عياش ؛ وفي المصادر التي ترجمت له (ابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٢ والجذوة : ١٩٥ والبغية رقم : ٧١٥) «عباس» ومن كتابه التصريف نسخ في برلين وباريس وولي الدين وغيرها (راجع بروكلمان) .

٦ هو عبد الرحمن بن إسحاق (ابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٦) .
٧ سعيد بن فتحون السّرقسّطي : ترجمته في طبقات صاعد : ٦٨ والجذوة : ٢١٦ وبغية الملتبس رقم : ٨١٣ وبغية الوعاة : ٢٥٦ والذيل والتكملة ٤ : ٤٠ وانظر فهرست كتاب التشبيهات لابن الكتاني .

وأما العدد والهندسة فلم يُقسَمَ لنا في هذا العلم نفاذ ، ولا تحققنا به ، فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا إلاّ أنّي سمعت مَنْ أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممّن اتفق على رسوخه فيه يقول : إنّه لم يؤلف في الأزياج مثل زيّج مسلمة^١ وزيج ابن السّمح^٢ ، وهما من أهل بلدنا ، وكذلك كتاب المساحة المجهولة لأحمد بن نصر فما تقدّم إلى مثله في معناه . وإنّما ذكرنا التّأليف المستحقّة للذكر ، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة^٣ التي لا يؤلف عاقل عالم إلاّ في أحدها ، وهي إمّا شيء لم يسبق إليه يخترعه ، أو شيء ناقص يتمّه ، أو شيء مستغلق يشرحه ، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق يجمعه ، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه . وأمّا التّوَاليف المقصورة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهي عندنا من تآليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها .

وأما علم الكلام فإنّ بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقلّ لذلك تصرّفهم في هذا الباب ، فهي على كل حال غير عريّة عنه ، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال ، نظار على أصوله ، ولهم فيه تواليف : منهم خليل بن إسحاق^٤ ، ويحيى بن السمينيّة^٥ ، والحاجب موسى بن حدير وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد^٦ ، وكان داعية إلى الاعتزال

-
- ١ يعني أبا القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي (توفي ٣٩٨) ، وله تعديل زيّج البتاني . انظر ابن أبي أصيبعة ٢ : ٣٩ وطبقات صاعد : ٧٨ وتاريخ الحكماء : ٣٢٦ وملحق بروكلمان .
 - ٢ هو أصبغ بن محمد بن السّمح المهندس الفرائضي ، ألف زيّجاً عل أحد مذاهب الهند (وتوفي سنة ٤٢٦) ، انظر ابن أبي أصيبعة ٢ : ٣٩ وطبقات صاعد : ٧٩ وملحق بروكلمان .
 - ٣ قارن هذا بما ذكره ابن حزم في كتاب «التقريب لحد المنطق» ص : ١٠ .
 - ٤ لعل صوابه «خليل بن عبد الملك» وهو من أصحاب ابن مسرة ، وعليه درس ابن السمينيّة (ابن الفرضي ١ : ١٦٥ والتكملة : ٣٠٩) .
 - ٥ يحيى بن السمينيّة توفي سنة ٣١٥ (انظر الجذوة : ٣١٦ والبنية رقم : ١٣٢٠) .
 - ٦ راجع ترجمة موسى بن حدير في الجذوة : ٣١٦ والبنية رقم : ١٣٢٠ ، وكان أخوه أحمد بن محمد صاحب الوزارة أيام عبد الرحمن الناصر .

لا يستتر بذلك . ولنا على مذهبن الذي تخيرناه من مذاهب أصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى^١ ، وهو وإن كان صغير الحرم قليل عدد الورق يزيد على المائتين زيادة يسيرة فعظيم الفائدة لأننا أسقطنا فيه المشاغب كلها ، وأضربنا عن التطويل جملة ، واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة إلى شهادة الحس وبديهية العقل لها بالصحة . ولنا فيما تحققنا به تأليف جمّة ، منها ما قد تم ، ومنها ما شارف التمام ، ومنها ما قد مضى منه صدر ويعين الله تعالى على باقيه ، لم نقصد به قصد مباهاة فنذكرها ، ولا أردنا السمعة فنسميها ، والمراد بها ربنا جلّ وجهه ، وهو ولي العون فيها ، والمليّ بالمجازاة عليها ، وما كان لله تعالى فسيبدو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وبلدنا هذا - على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء - فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طُلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك ، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها .

ونحن إذا ذكرنا أبا الأجر جعونة بن الصمّة الكلابي^٢ في الشعر لم نُبَاه به إلا جريراً والفرزدق ، لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جارٍ على مذهب الأوائل ، لا على طريقة المحدثين ، وإذا سمينا بقيّ بن مخلد لم نسابق به إلاّ محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري وسليمان ابن الأشعث السجستاني وأحمد بن شعيب النسائي ، وإذا ذكرنا قاسم بن محمد^٣ لم نباه به إلاّ القفال ومحمد بن عقيل الفريابي ، وهو شريكهما في صحبة المزني أبي إبراهيم والتلمذة له ، وإذا نعتنا عبد الله بن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد لم نجار

١ أغلب الظن أنه يعني كتاب « المجل » وهو متن شرحه بالمجل .

٢ ترجمة أبي الأجر في الجذوة : ١٧٧ وبغية الملتبس رقم : ٦٢٦ والمغرب ١ : ١٣١ .

٣ قد مر ذكره ، وهذا النص عنه ثابت في الجذوة .

٤ في الأصول : بن .

بهما إلا أبا الحسن ابن المفلس والخلال والديباجي ورؤيم بن أحمد . وقد شاركهم عبد الله في أبي سليمان وصحبته ، وإذا أشرنا إلى محمد بن عمر بن لبابة وعمه محمد بن عيسى وفضل بن سلمة لم نناطح بهم إلا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومحمد بن سخون ومحمد بن عبدوس^١ ، وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرباحي^٢ وأبي عبد الله محمد بن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد . ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القسطلتي لما تأخر عن شأو بشار بن برد^٣ وحبيب والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ، ومحمد بن شخيص ، وأحمد بن فرج ، وعبد الملك بن سعيد المرادي^٤ ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه ، وحصان ممسوح الغرة .

ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا ، وهو حي بعد لم يبلغ سن الاكتمال ، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل^٥ ومحمد بن عبد الله بن مسرة^٦ في طريقه التي سلك فيها ، وإن كنا لا نرضى مذهبه ؛ في جماعة يكثر تعدادهم .

-
- ١ وإذا أشرنا . . . عبدوس : ورد هذا النص في الجذوة : ٧١ وبغية الملتبس رقم : ٢٢٢ .
 - ٢ الرباحي (نسبة إلى قلعة رباح) من كبار نحويي الأندلس قبل دخول القالي إليها ؛ انظر طبقات الزبيدي : ٣٣٥ وابن الفرضي ٢ : ٧١ والجذوة : ٩١ وبغية الملتبس رقم : ٣١٢ والقفطي ٣ : ٢٢٩ والوافي ٢ : ٣٧٢ وبغية الوعاة : ١١٣ .
 - ٣ بن برد : زيادة من ق .
 - ٤ أحمد بن عبد الملك بن مروان (الجذوة : ١٢٣) وأغلب بن شعيب الجلياني من شعراء عبد الرحمن الناصر (ص : ١٦٥) ومحمد بن شخيص (الجذوة : ٨٤ واليتيمة ٢ : ٢٣ والمغرب ١ : ٢٠٣ وصفحات متفرقة من المقتبس تحقيق حمي) ، وعبد الملك بن سعيد المرادي الخازن (الجذوة : ٢٦٦) .
 - ٥ يريد : عمرو بن بحر الجاحظ وسهل بن هارون .
 - ٦ في ابن مسرة ومذهبه كتاب مستوفى للمستشرق آئين بلاسيوس وخلاصة عنه في تاريخ الفكر الأندلسي لبالثيا ، وانظر كتاب تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة : ٥٢ وما بعدها .

وقد انتهى ما اقتضاه خطاب الكاتب رحمه الله تعالى من البيان ، ولم نتريد فيما رغب فيه إلّا ما دعت الضرورة إلى ذكره لتعلّقه بجوابه ، والحمد لله الموفق لعلمه ، والهادي إلى الشريعة المزلفة منه والموصلة ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلّم ، وشرف وكرّم . انتهت الرسالة .

وكتب الحافظ ابن حجر على هامش قوله فيها « وإنّما سكن على الكوفة خمسة أعوام وأشهرًا » ما نصّه : صوابه أربعة أعوام ، انتهى .

[٧ - تذيل ابن سعيد على رسالة ابن حزم]

وقال ابن سعيد ، بعد ذكره هذه الرسالة ما صورته : رأيت أن أذيلَ ما ذكره الوزيرُ الحافظُ أبو محمد ابن حزم من مفاخر أهل الأندلس بما حضرني والله تعالى ولي الإعانة .

أما القرآن فمن أجلّ ما صنّف في تفسيره كتاب « الهداية إلى بلوغ النهاية » في نحو عشرة أسفار ، صنّفه الإمام العالم الزاهد أبو محمد مكّي بن أبي طالب القرطبي^١ ، وله كتاب « تفسير إعراب القرآن » ، وعدّ ابن غالب في كتاب « فرحة الأنفس » تأليف مكّي المذكور ، فبلغ بها ٧٧ تأليفاً ، وكانت وفاته سنة ٤٣٧ ، ولأبي محمد ابن عطية الغرناطي في تفسير القرآن الكتاب الكبير الذي اشتهر وطار في الغرب والشرق ، وصاحبه من فضلاء المائة السادسة^٢ .

وأما القراءات فلمكي المذكور فيها كتاب « التبصرة » ؛ وكتاب « التيسير »

١ ترجمته في الصلة : ٥٩٧ وغاية النهاية ٢ : ٣٠٧ ؛ أقرأ في جامع الزاهرة حتى انقضت دولة العامرين فنقله المهدي إلى المسجد الجامع بقرطبة وأقرأ فيه مدة الفتنة إلى أن قلده أبو الحزم ابن جمهور الصلاة والخطبة بالمسجد الجامع ؛ ومن الغريب أن ابن حزم أغفل ذكره مع أنه عاصره .

٢ توفي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي سنة ٥٤٢ (انظر الصلة : ٣٦٧ والقلائد ٢٠٨ والمرقبة العليا : ١٠٩ والديباج : ١٧٤ والمغرب ٢ : ١١٧ ؛ والنفع ٢ : ٥٢٦) .

لأبي عمرو الداني^١ مشهور^٢ في أيدي الناس .

وأما الحديث فكان بعصرنا في المائة السابعة الإمام أبو الحسن عليّ بن القطان القرطبي الساكن بحضرة مراكش^٣ ، وله في تفسير غرائب وفي رجاله مصنفات ، وإليه كانت النهاية والإشارة في عصرنا ، وسمعت أنّه كان اشتغل بجمع أمهات كتب الحديث المشهورة ، وحذف المكرر ، وكتاب رزين بن عمّار الأندلسي^٤ في جمع ما يتضمّنه كتاب مسلم البخاري والموطأ والسنن والنسائي والترمذي كتاب جليل مشهور في أيدي الناس بالشرق والمغرب ، وكتاب « الأحكام » لأبي محمد عبد الحق الإشبيلي مشهور متداول القراءة ، وهي أحكام كبرى ، وأحكام صغرى ، قيل : ووسطى ، وكتاب « الجمع بين الصحيحين » للحميدي مشهور . وأما الفقه فالكتاب المعتمد عليه الآن الذي ينطلق عليه اسم الكتاب عند المالكية حتى بالإسكندرية فكتاب « التهذيب » للبراذعي السرقسطي^٥ ، وكتاب « النهاية »^٥ لأبي الوليد ابن رشد كتاب جليل معظم معتمد عليه عند المالكية ، وكذلك كتاب « المنتقى » للباجي .

وأما أصول الدين وأصول الفقه فللإمام أبي بكر ابن العربي الإشبيلي من

١ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني من شيوخ القراء وأبدهم شهرة ؛ انظر في أخباره وكتبه مقدمة المحكم تحقيق الدكتور عزة حسن (دمشق ١٩٦٠) . والنسخ ٢ : ١٣٥ (رقم : ٧٦) .

٢ ترجمة ابن القطان في التكملة رقم : ١٩٢٠ وصلة الصلة : ١٣١ (توفي سنة ٦٢٨) وقد استدرك على كتاب الأحكام الآتي ذكره لابن عبد الحق بكتاب سماه « الوهم والإيهام الواقعين على كتاب الأحكام » .

٣ هو رزين بن معاوية بن عمار العبدي سرقسطي يكنى أبا الحسن ، توفي سنة ٥٢٤ وكان من علماء الحديث (صلة : ١٨٤) .

٤ البراذعي واسمه خلف بن أبي القاسم الأزدي ، قيرواني ارتحل إلى صقلية وألف فيها كتابه تهذيب المدونة (الديباج : ١١٢) وفرغ منه سنة ٣٧٢ هـ وليس البراذعي سرقسطياً ، ويبدو أنه نسب إلى سرقوسة بصقلية واضطرب الأمر في ذلك على ابن سعيد ؛ ومن التهذيب نسخة خطية بدار الكتب رقم : ٤٠٥ فقه مالكي ؛ وانظر كتابنا العرب في صقلية : ٩٧ - ٩٨ .

٥ هو كتاب « نهاية المجتهد » (ابن أبي أصيبعة ٢ : ٧٧) .

ذلك ما منه كتاب « العواصم والقواصم » المشهور بأيدي الناس ، وله تأليف في غير هذا ، ولأبي الوليد ابن رشد في أصول الفقه ما منه « مختصر المستصفي » . وأما التواريخ فكتاب ابن حيان الكبير المعروف « بالمتين » في نحو ستين مجلدة وإنّما ذكر ابن حزم كتاب « المقتبس » وهو في عشر مجلدات ، والمتين يذكر فيه أخبار عصره ويعن فيها ممّا شاهده ، ومنه ينقل صاحب الذخيرة ، وقد ذيل عليه أبو الحجاج البيّاسي أحد معاصرينا ، وهو الآن بإفريقية في حضرتها تونس عند سلطانها تحت إحسانه الغمر ، وكتاب المظفر بن الأفطس ملك بَطْلَيْوَسَ المعروف « بالمظفري » نحو كتاب « المتين » في الكبر ، وفيه تاريخ على السنين ، وفنون آداب كثيرة ، وتاريخ ابن صاحب الصلاة في الدولة الامتونية ^١ ، وذكر ابن غالب أن ابن الصيرفي الغرناطي له كتاب في « أخبار دولة لمتونة » ^٢ ، وأن أبا الحسن السالمي له كتاب « في أخبار الفتنة الثانية بالأندلس » ^٣ بدأ من سنة ٥٣٩ ، ورتبه على السنين وبلغ به سنة ٥٤٧ ، وأبو القاسم خلف بن بشكوال له كتاب في « تاريخ أصحاب الأندلس » من فتحها إلى زمانه ، وأضاف إلى ذلك من أخبار قرطبة وغيرها ما جاء في خاطره ، وله كتاب « الصلة » في تاريخ العلماء ، ولحميدي قبله « جذوة المقتبس » وقد ذيل كتاب الصلة في عصرنا هذا أبو عبد الله ابن الأبار البلسنسي كاتب سلطان إفريقية . وذكر ابن غالب أن الفقيه أبا جعفر ابن عبد الحق الخزرجي القرطبي له كتاب كبير بدأ فيه من بدء

١ لابن صاحب الصلاة عبد الملك بن محمد الباجي كتاب في ثورة المرينيين ، ولا أعرف له كتاباً في تاريخ المتونيين ؛ وهو أيضاً صاحب كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » .
 ٢ يعد ابن الصيرفي حجة في تاريخ المرابطين ؛ وينقل عنه لسان الدين في أعمال الأعلام أخباراً عن دول الطوائف ليس فيها تحامل امرئ . كان وثيق الصلة بالمرابطين ؛ انظر ترجمته في المغرب ٢ : ١١٨ والتكملة : ٧٢٣ .

٣ سماه ابن عبد الملك (الذيل ٦ : الورقة ٣ من نسخة المتحف البريطاني) « في الفتنة الكائنة على المتونيين بالأندلس سنة أربعين وما يليها » ؛ وله مختصر سماه « عبرة العبر وعجائب القدر في ذكر الفتن الأندلسية والعدوية بعد فساد الدولة المرابطية » .

الخليقة إلى أن انتهى في أخبار الأندلس إلى دولة عبد المؤمن ، قال : وفارقت
سنة ٥٦٥ . وأبو محمد ابن حزم صاحب الرسالة المتقدمة الذكر له كتب جمّة
في التواريخ ، مثل كتاب « نقط العروس في تواريخ الخلفاء » وقد صنّف
أبو الوليد ابن زيدون كتاب « التبيين في خلفاء بني أميّة بالأندلس » على مترع
كتاب « التعيين في خلفاء المشرق » للمسعودي . وللقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد
الطليطلي كتاب « التعريف بأخبار علماء الأمم من العرب والعجم » وكتاب
« جامع أخبار الأمم » . وأبو عُمَرَ ابن عبد البر له كتاب « القصص والأمم
في معرفة أخبار العرب والعجم » . وعريب بن سعد القرطبي له كتاب « اختصار
تاريخ الطبري » قد سعد باغتيال الناس به ، وأضاف إليه تاريخ إفريقية
والأندلس ، ولأحمد بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن [أبي] الفياض كتاب
« العبر »^٢ ، وكتاب أبي بكر الحسن بن محمد الزبيدي في « أخبار النحويين واللغويين
بالمشرق والأندلس »^٣ ، وكتاب القاضي أبي الوليد ابن الفرّاضي في « أخبار
العلماء والشعراء » وما يتعلق بذلك ، وليحيى بن حكم الغزال تاريخ ألفه كلّ
منظوماً^٤ ، كما صنع أيضاً بعده أبو طالب المتنبي من جزيرة شُقُر في التاريخ
الذي أورد منه صاحب الذخيرة ما أورد^٥ ، وكتاب « الذخيرة » لابن بسام في
جزيرة الأندلس ليس هذا مكان الإطناب في تفصيلها وهي كالذيل على حداثق
ابن فرج ، وفي عصرها^٦ صنّف الفتح كتاب « القلائد » وهو مملوء بلاغة ،

-
- ١ ب : تاريخ .
٢ ابن أبي الفياض أصله من إستجة وسكن المرية ، قال ابن بشكوال (الصلة : ٦٣) له تأليف في
الخبر والتاريخ ، ولكنه لم يسمه ؛ توفي سنة ٤٥٩ .
٣ هو الذي نشير إليه في هذه التعليقات باسم « طبقات الزبيدي » .
٤ انظر ترجمة الغزال في النسخ ٢ : ٢٥٤ (رقم : ١٦٥) .
٥ راجع الذخيرة ٢/١ : ٤٠٥ حيث تجد أرجوزة ابن عبد الجبار المتنبي .
٦ م : عصرنا .

والمحاكمة بين الكتابين ذكرت بمكان^١ آخر ، ولصاحب القلائد كتاب « المطمح » وهو ثلاث نسخ : كبرى ، ووسطى ، وصغرى ، يذكر فيها من الذين ذكرهم في القلائد ومن غيرهم الذين كانوا قبل عصرهم ، وكتاب « سبط الجمان وسقط^٢ المرجان » لأبي عمرو ابن الإمام بعد الكتابين المذكورين ، ذكر من أخلا بتوفيته حقه من الفضلاء ، واستدرك من أدركه بعصره في بقية المائة السادسة ، وذيل عليه - وإن كان ذيلًا قصيرًا - أبو بحر^٣ صفوان بن إدريس المرسي بكتاب « زاد المسافر » ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة ، وكتاب أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الحجاري المسمى بـ « المسهب في فضائل المغرب » صنفه بعد « الذخيرة » و « القلائد » من أول ما عمرت الأندلس إلى عصره ، وخرج فيه عن مقصد الكتابين إلى ذكر البلاد وخواصها مما يختص بعلم الجغرافيا ، وخلطه بالتاريخ وتفنن الأدب على ما هو مذكور في غير هذا المكان ، ولم يصنف في الأندلس مثل كتابه ، ولذلك فضله المصنف له عبد الملك بن سعيد ، وذيل عليه ، ثم ذيل على ذلك ابنه أحمد ومحمد ثم موسى بن محمد ثم علي بن موسى كاتب هذه النسخة ومكمل كتاب « فلك الأدب المحيط بحلى لسان العرب » المحتوي على كتابي « المشرق في حلى المشرق » و « المغرب في حلى المغرب » ، فيكفي الأندلس في هذا الشأن تصنيف هذا الكتاب بين ستة أشخاص في ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥ ، وقد احتوى على جميع ما يذكر به ويحاضر بحلاه من فنون الأدب المختارة على جهد الطاقة في شرق وغرب على النوع الذي هو مذكور في غير هذا الموضع ، ومن أغفل التنبيه على عصره ، وغير ذلك من المصنفين المتقدمي الذكر ، فيطلب الملتبس منهم في مكانه المنسوب إليه كابن

١ ق : في مكان .

٢ ب م : وسقط ؛ وعن هذا الكتاب ينقل ابن سعيد في المغرب .

٣ ق : أبو يحيى ؛ وهو خطأ .

بسام في شَنْتَرين ، والفتح في إشبيلية ، وابن الإمام في إَسْتِجَة ، والحجاري في وادي الحجارة .

وأما ما جاء مثوراً من فنون الأدب فكتاب « سراج الأدب » لأبي عبد الله ابن أبي الخصال الشقوري رئيس كتاب الأندلس^١ ، صنّفه على مترع كتاب « النوادر » لأبي علي ، و « زهر الآداب » للحُصْري ؛ وكتاب « واجب الأدب » لوالدي موسى بن محمد بن سعيد ، واسمه يغني عن المراد به ؛ وكتاب « اللآلئ » لأبي عبيد البكري على كتاب « الأمالي » لأبي علي البغدادي مفيد في الأدب ، وكذلك كتاب « الاقتضاب في شرح أدب الكتاب » لأبي محمد ابن السيّد البطّليّوسي ، وأما شرح « سقط الزند » له فهو الغاية ، ويكفي ذكره عند أرباب هذا الشأن وثناؤهم عليه ، وشرح أبي الحجاج الأعلام لشعر المتنبي والحماسة وغير ذلك مشهورة .

وأما النحو فالأهل الأندلس من الشروح على « الحمل »^٢ ما يطول ذكره ، فمنها شرح ابن خروف ، ومنها شرح الرُّندي ، ومنها شرح شيخنا أبي الحسن ابن عصفور الإشبيلي ، وإليه انتهت علوم النحو ، وعليه الإحالة الآن من المشرق والمغرب ، وقد أتيت له من إفريقية بكتاب « المقرب » في النحو فتلقّي باليمين من كل جهة ، وطار بجناح الاغتراب ، ولشيخنا أبي علي الشلوبين كتاب « التوطئة » على الجزولية وهو مشهور ، ولابن السيّد وابن الطراوة والسّهيلي من التقييدات في النحو ما هو مشهور عند أصحاب هذا الشأن معتمد عليه ، ولأبي الحسن ابن خروف شرح مشهور على كتاب سيبويه .

وأما علم الجغرافيا فيكفي في ذلك كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري

١ راجع ترجمة أبي عبد الله ابن أبي الخصال في المطرب : ١٨٧ وبغية الملتبس رقم : ٢٨٢ وقلاند

العقيان : ١٧٥ والصلة : ٥٥٧ وبغية الوعاة : ١٠٤ ورايات المبرزين : ٧٤ ، وله ذكر في

المعجب والمغرب ومعجم شيوخ الصدي وجذوة الاقتباس .

٢ انظر كشف الظنون : ٦٠٣ - ٦٠٤ ففيه ذكر لبعض شروح الحمل من تأليف الأندلسيين وغيرهم .

الأونبي وكتاب «معجم ما استعجم من البقاع والأماكن» ، وفي كتاب «المسهب»
للحجاري في هذا الشأن وتذييلنا عليه في هذا الكتاب الجامع ما جمع زيد^١ الأولين
والآخرين في ذلك .

وأما الموسيقى فكتاب أبي بكر ابن باجة الغرناطي في ذلك فيه كفاية وهو
في المغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق ، وإليه تُنسب الألحان المطربة بالأندلس
التي عليها الاعتماد ، وليحيى الخدوج^٢ المرسى كتاب «الأغاني الأندلسية»
على منزع الأغاني لأبي الفرج ، وهو ممن أدرك المائة السابعة .

وأما الطب فالمشهور بأيدي الناس الآن في المغرب ، وقد سار أيضاً في
المشرق لنبله ، كتاب «التيسير»^٣ لعبد الملك بن أبي العلاء ابن زُهر ، وله كتاب
«الأغذية»^٤ أيضاً مشهور مغتبط به في المغرب والمشرق ، ولأبي العباس ابن
الرومية الإشبيلي^٥ من علماء عصرنا بهذا الشأن كتاب في الأدوية المفردة ، وقد
جمع أبو محمد المالقي^٦ الساكن الآن بقاهرة مصر كتاباً في هذا الشأن حشر عليه
ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي
وكتاب الشريف الإدريسي الصقلي وغيرها وضبطه على حروف المعجم ، وهو
النهاية في مقصده .

وأما الفلسفة فإمامها في عصرنا أبو الوليد ابن رُشد القرطبي ، وله فيها
تصانيف جَحدَها لما رأى انحراف منصور بني عبد المؤمن عن هذا العلم ،

١ م : زبدة .

٢ في الأصول : الخدج : وقد ضبطه الرعي في برناجه : ١٦٤ وهو أبو زكرياء يحيى بن إبراهيم
الأصبحي الحكيم ؛ قال : عرض علي كتابه الكبير الذي سماه الأغاني الأندلسية وقرأت عليه خطبته
ومواضع منه وفأولني جميع أسفاره .

٣ هو كتاب التيسير في المداواة والتدبير (ابن أبي أصيبعة ٢ : ٦٧) .

٤ ألف ابن زهر كتاب الأغذية للخليفة عبد المؤمن بن علي (المصدر السابق) .

٥ انظر ترجمة ابن الرومية في ابن أبي أصيبعة ٢ : ٨٧ والإحاطة ١ : ٨٨ (ط . السلفية) والنفع
٢ : ٥٩٦ (رقم : ٢٢١) ومزيداً من المصادر في الحاشية .

٦ يريد ابن البيطار صاحب كتاب المفردات وقد مرت ترجمته في المجلد ٢ : ٦٩١ (رقم : ٣٠٤) .

وسجنه بسببها ، وكذلك ابن حبيب^١ الذي قتله المأمون بن المنصور المذكور على هذا العلم بإشبيلية ، وهو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره ، فلذلك تخفى تصانيفه .

وأما التنجيم فلا بن زيد الأسقف القرطبي فيه تصانيف ، وكان مختصاً بالمستنصر بن الناصر المرواني ، وله ألف كتاب « تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان » وفيه من ذكر منازل القمر وما يتعلق بذلك ما يستحسن مقصده وتقريبه ، وكان مطرف الإشبيلي في عصرنا قد اشتغل بالتصنيف في هذا الشأن ، إلا أن أهل بلده كانوا ينسبونه للزندقة بسبب اعتكافه على هذا الشأن فكان لا يظهر شيئاً مما يصنف .

[٨ - رسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس]

ثم قال ابن سعيد : أخبرني والدي قال : كنت يوماً في مجلس صاحب سبته أبي يحيى ابن أبي زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن ، فجرى بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى ابن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البرين ، فقال الشقندي : لولا الأندلس لم يذكر بر العدو ، ولا سارت عنه فضيلة ، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم ، فقال الأمير أبو يحيى : أتريد أن تقول كون أهل برنا عرباً وأهل بركم^٢ بربر ؟ فقال : حاش لله ! فقال الأمير : والله ما أردت غير هذا ، فظهر في وجهه أنه أراد ذلك ، فقال ابن المعلم : أقول هذا وما الملك والفضل إلا من بر العدو ؟ فقال الأمير : الرأي عندي أن يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل بره ، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعاً ، وأرجو إذا أخليتما له فكركما يصدر عنكما ما يحسن تخليده ، ففعلا ذلك :

١ هو ابن حبيب القصري (المغرب ١ : ٢٩٦) .

٢ م : بلدنا . . . بلدكم .

فكانت رسالة الشقندي : الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بجزيرة الأندلس^١
أن يتكلم ملء فيه ، ويطنب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه ولا من يتثنيه ،
إذ لا يقال للنهار : يا مظلم ، ولا لوجه النعيم : يا قبيح .

وقد وجدت مكان القول ذاسعة^٢ فإن وجدت لساناً قاثلاً^٣ فقل

أحمده على أن جعلني ممّن أنشأته ، وجباني بأن كنت ممّن أظهرته ،
فامتدّ في الفخر باعي ، وأعاني على الفضائل كرم طباعي ، وأصلي على سيّدنا
محمد نبيّه الكريم ، وعلى آله وصحبه الأكرمين ، وأسلم تسليمًا .

أمّا بعد ؛ فإنه حرك مني ساكنًا ، وملأ مني فارغًا ، فخرجت عن سجيتي في
الإغضاء ، مكرهاً إلى الحميّة والإباء ، منازعٌ في فضل الأندلس أراد أن يخرق
الإجماع ، ويأتي^٤ بما لا تقبله النواظر والأسماع ، إذ من رأى ومن سمع
لا يجوز عنده^٥ ذلك ، ولا يفضله من تاه في تلك المسالك ، رام أن يفضل بر
العدوة على بر الأندلس فَرَام^٦ أن يفضل على اليمين اليسار ، ويقول : الليل
أضوأ من النهار ، فيا عجباً كيف قابل العوالي بالزجاج ، وصادم الصفاة^٧
بالزجاج ، فيا من نفخ في غير ضرَم ، ورام صيّد البُرّة بالرخم ، كيف
تتكثر بما جعله الله قليلاً ، وتغزّر بما حكم الله أن يكون ذليلاً ؟ ما هذه المباهة
التي لا تجوز ؟ وكيف تبدي أمام الفتاة العجوز ؟ سلّ العيون إلى وجه من تميل ؟
واستخير الأسماع إلى حديث من تصغي^٨ ؟

١ ب : بر الأندلس .

٢ ب : ويتأق .

٣ م : له .

٤ م : رام .

٥ م : قابل اللاقي . . . الصفاح ؛ ب : الصفة بالزجاج .

٦ البيت لربيعة الرقي . انظر الأغاني ١٦ : ١٨٩ وفيه هجاء ليزيد بن أسيد السلمي وكان جليلاً عند
المنصور والمهدي ، وتفضيل ليزيد بن حاتم الأزدي .

لشَتَان ما بين اليزيديين في الندى يزيدِ سُلَيْم والأغرَّ بن حاتم

اقن حَيَاءك أيَّها المغرد^١ بالنحيب ، المتزين بالخلق المتحبَّب إلى الغواني
بالمشيب الخضيب ، أين عَزَبَ عقلك ؟ وكيف نكص على عقبه^٢ فهمك ولُبُّك ؟
أبَلغت العصبية من قلبك ، أن تطمس على نورَي^٣ بصرك ولُبَّك ؟
أما قولك « الملوك منّا » فقد كان الملوك منّا أيضاً ، وما نحن إلا كما قال
الشاعر :

فيومٌ علينا ويومٌ لَنَا ويومُ نساء ويومُ نُسَرَّ

إن كان الآن كرسيُّ جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بني عبد المؤمن ،
أدامها الله تعالى ، فقد كان عندنا بخلافة القرشيين الذين يقول مشرقهم :

ولائِي مِن قوم كرام أعزَّة لأقدامهم صيغت رؤوس المنابر
خلائف في الإسلام في الشرك قادة بهم وإليهم فخر كل مفاخر
ويقول مغربهم^٤ :

ألسنا بني مروان كيف تبدلت بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولد المولود منّا تهللت له الأرض واهتزت إليه المنابر

وقد نشأ في مدتهم من الفضلاء والشعراء ما اشتهر في الآفاق ، وصار أثبت
في صحائف^٥ الأيام ، من الأطواق في أعناق الحمام :

١ ق : المفرد .

٢ م : على عقبه ، ب : على عقب .

٣ م : نور ، وسقطت اللفظة من ق هي والعبارة من قوله : أبلفت . . . لبك .

٤ البيتان من شعر محمد بن عبد الملك حفيد عبد الرحمن الناصر (الحلقة ١ : ٢٠٩) قال ابن الأبار :

وقد أنشد أبو منصور الثعالبي في اليتيمة من تأليفه هذا الشعر ونسبه إلى الحكم المستنصر بالله . . .
وهذا من أغلاط أبي منصور وأوهامه الفاحشة .

٥ ب ودوزي : على صحائف .

وسار مسير الشمس في كل بَلْدَةٍ وَهَبَّ هبوبَ الريح في البر والبحر

ولم تزل ملوكهم في الاتساق كما قيل :

إن الخلافة فيكم لم تزل نَسَقًا كالعقدِ مَنْظومة فيه فرائده

إلى أن حكم الله بنثر سِلِكهم ، وذَهَابِ مُلْكهم ، فذهبوا وذهبت أخبارهم ،
ودَرَسُوا ودرست آثارهم ^١ :

جمالَ ذي الأرضِ كانوا في الحياة وهم بعدَ المماتِ جَمالُ الكُتُبِ والسَّيرِ
فكم مكرمة أنالوها ، وكم ^٢ عثرة أقالوها :

وإنما المرء حديثٌ بعده ^٣ فكنْ حديثاً حسناً لمن وعى

وكان من حَسَنَاتِ مَلِكهم المنصور بن أبي عامر ، وما أدراك ، الذي بلغ في
بلاد النصراني غازياً إلى البحر الأخضر ، ولم يترك أسيراً في بلادهم من المسلمين ،
ولم يبرح ^٤ في جيش الهرقل وعزمة الإسكندر ، ولما قضى نَحْبَهُ كُتِبَ
على قبره ^٥ :

آثاره ^٦ تُنبيكَ عن أوصافه حتّى كأنك بالعيانِ تراه
تالله لا يَأْتِي الزَّمانُ بمثله أبداً ولا يحمي الثغورَ سواه

وقد قيل فيه من الأمداح ، وألّف له من الكتب ، ما سمعت وعلمت ،
حتى قُصِدَ من بغداد ، وعمَّ خيرُهُ وشرُّه أَقاصي ° البلاد ، ولما ثار بعد انتشار

١ زاد في م : كما قيل .

٢ م : وكم من .

٣ م : ولم يزل .

٤ مر البيتان ، انظر النفع ج : ١ ص : ٣٩٨

٥ أَقاصي : سقطت من م .

هذا النظام ملوك الطوائف وتفرقوا في البلاد ، كان في تفرقهم اجتماعٌ على
النعم لفضلاء العباد ، إذ تَفَقَّحُوا سوق العلوم ، وتباروا في المثوبة على المشور
والمنظوم ، فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول : العالم الفلاني عند الملك الفلاني ،
والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني ، وليس منهم إلا مَنْ بذل وسَّعَه في
المكارم ، ونبت الأمداح من مآثره ما ليس طول الدهر بنائم ، وقد سمعت ما
كان من الفتيان العامرية مجاهد ومنذر وخيران ، وسمعت عن الملوك العربية :
بنو عبّاد وبنو صُمّادح وبنو الأفطس وبنو ذي النون وبنو هود ، كل منهم قد
خلد فيه من الأمداح ، ما لو مدح به الليلُ لصار أضواً من الصباح ^١ ، ولم
تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادي التواسم بين الرياض ، وتفتك في أموالهم
فتكة البرّاض ، حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم في أمداحه
أن حلف أن لا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلا بمائة دينار ، وأن المعتضد بن عبّاد
على ما اشتهر من سَطَوته وإفراط هيئته كلفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى
يعطيه ما شرّطه ^٢ في قسمه ، ومن أعظم ما يُحكى من المكارم التي لم نسمع لها
أختاً أن أبا غالب اللغوي ألف كتاباً ، فبذل له مجاهد العامري مَلِكُ دانية ألفَ
دينار ومركوباً وكسّى على أن يجعل الكتاب باسمه ، فلم يقبل ذلك أبو غالب ،
وقال : كتاب ألفته ليستفّع به الناس ، وأخلد فيه همّتي ، أجعل في صدره
اسمَ غيري ، وأصرف الفخر له ، لا أفعل ذلك ، فلمّا بلغ هذا مجاهداً استحسّن
أنقّته وهمتّه ، وأضعف له العطاء ، وقال : هو في حِلٍّ من أن يذكرني
فيه ، لا نصدّه عن غرضه ^٣ . وإن كان كل ملوك الأندلس المعروفين بملوك
الطوائف قد تنازعوا في ^٤ ملاءة الحُضُر ، فإنّي أخص منهم بني عبّاد ، كما قال الله

١ م : النهار .

٢ م : شرط .

٣ مرت الحكاية في رسالة ابن حزم ؛ انظر ما تقدم ص : ١٧٢ .

٤ الصواب إسقاط « في » ، من قول الخنساء : يتنازعان ملاءة الحضّر .

تعالى ﴿فِيهِمَا فَكِيهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (الرحمن : ٦٨) فلان الأيام لم تنزل بهم
 كأعياد ، وكان لهم من الخنوع على الأدب ، ما لم يقم به بنو حمدان في حلب ،
 وكانوا هم وبنوهم ووزرائهم صدوراً في بلاغي النظم والنثر ، مشاركين في
 فنون العلم ، وآثارهم مذكورة ، وأخبارهم مشهورة ، وقد خلّدوا من المكارم
 التامة ، ما هو متردد في ألسن الخاصة والعامة ، وبالله إلا سميت لي بمن
 تفخروا قبل هذه الدعوة المهدية ، أسقوت^١ الحاجب ؟ أم بصالح البرغواطي^٢ ؟
 أم بيوسف بن تاشفين الذي لولا توسط ابن عباد لشراء الأندلس في مدحه
 ما أجروا له ذكراً ، ولا رفعوا الملكة قدرأ ؟ وبعدما ذكروه بوساطة المعتمد
 ابن عباد فإن المعتمد قال له ، وقد أنشدوه : أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ قال :
 لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز ، ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه
 كتب له^٣ المعتمد رسالة فيها :

بنم وبنّا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
 حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارئ :

يطلب منا جوارى سوداً وبيضاً ، قال : لا يا مولانا ، ما أراد إلا أن ليله
 كان بقرب أمير المسلمين نهراً لأن ليالي السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلاً
 لأن أيام الحزن ليال سود ، فقال : والله جيد ، اكتب له في جوابه : إن دموعنا

١ ب : أسقمود ؛ ق ودوزي : أسقموت ؛ وهو سقوط البرغواطي المتغلب على مدينة سبته ومنه
 أخذها يوسف بن تاشفين (انظر مفاخر البربر : ٥٤ وما بعدها) .

٢ هو صالح بن طريف الذي استحدث لبرغواطة مذهباً مستقلاً ، حوالي سنة ١٢٣ هـ . (انظر
 الاستبصار ١٩٨ - ٢٠٠ في بعض الأخبار عنه وعن مذهبه) . وفي م : البرغواطي .

٣ زاد في م : يتشوق .

٤ م : هو يطلب ؛ وسقطت « هو يطلب منا » في ب .

٥ م : ببعده أمير المسلمين .

تجري عليه ، ورؤوسنا توجعنا من بعده ، فليت العباس بن الأحنف قد عاش حتى يتعلم من هذا الفاضل رقة الشوق :

ولا تُنْكِرَنَّ مهما رأيت مقدماً على حُمْرٍ بَغْلًا فَمَّ تَنَاسُبُ

فاسكتوا^١ فلولاً هذه الدولة ، لما كان لكم على الناس صولة :

وإن الورد يُقْطَفُ من قَتَادٍ وإنَّ النارَ تُقْبَسُ من رَمَادٍ

وإنَّكَ إن تعرضت للمفاضلة بالعلماء^٢ فأخبرني : هل لكم في الفقه مثل عبد الملك بن حبيب الذي يُعْمَلُ بأقواله إلى الآن ، ومثل أبي الوليد الباجي ، ومثل أبي بكر ابن العربي ، ومثل أبي الوليد ابن رشد الأكبر ، ومثل أبي الوليد ابن رشد الأصغر ؟ وهو ابن ابن الأكبر ، نجوم الإسلام ، ومصابيح شريعة محمد عليه السلام ، وهل لكم في الحفظ مثل أبي محمد ابن حزم الذي زهد في الوزارة والمال ومال إلى رتبة العلم ، ورآها فوق كل رتبة ، وقال وقد أحرقت كتبه^٣ :

دعوني من إحراق رَقٍّ وكاغِدٍ وقولوا بعلمٍ كي يرى الناس من يدري فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمَّنه القرطاس ، إذ هو في صدري

ومثل أبي عمر ابن عبد البر صاحب « الاستذكار » و « التمهيد » ومثل أبي بكر ابن الجدد حافظ الأندلس في هذه الدولة ، وهل لكم في حِفْظِ اللِّغَةِ كابن سيده صاحب كتاب « المحكم » وكتاب « السماء والعالم » الذي إن أعمى الله بصره فما أعمى بصيرته ، وهل لكم في النحو مثل أبي محمد ابن السَّيِّدِ وتصانيفه ؟ ومثل ابن الطراوة ، ومثل أبي علي الشلوبين الذي بين أظهرنا الآن ، وقد سار في المغارب والمشارك ذكره ، وهل لكم في علوم اللحن والفلسفة كابن باجة ،

١ م : فاسكتوا يا أهل العدو .

٢ انظر ج ٢ : ٨٢ .

٣ ب : للعلماء .

وهل لكم في علم النجوم والفلسفة والهندسة ملك كالمقتدر بن هُود صاحب سَرَقُسطَة ، فإنه كان في ذلك آية ؟ وهل لكم في الطب مثل ابن طُفَيْل صاحب رسالة « حي بن يقظان » المقدم في علم ' الفلسفة ، ومثل بني زُهْر أبي العلاء ثم ابنه عبد الملك ثم ابنه أبي بكر ثلاثة على نَسَق ؟ وهل لكم في علم التاريخ كابن حَيَّان صاحب « المتين » و « المقتبس » ؟ وهل عندكم في رؤساء علم الأدب مثل أبي عُمَرَ بن عبد ربّه صاحب « العقد » ؟ وهل لكم في الاعتناء بتخليد مآثر فضلاء إقليمه والاجتهاد في حشد محاسنهم مثل ابن بَسَّام صاحب « الذخيرة » ؟ وهَبْ أَنَّهُ كان يكون لكم مثله فما تصنع الكَيِّسَة في البيت الفارغ ؟ وهل لكم في بلاغة النثر كالفتح بن عُبَيْد الله الذي إن مدح رفع ، وإن ذمّ وضع ، وقد ظهر له من ذلك في كتاب « القلائد » ما هو أعدل شاهد ، ومثل ابن أبي الحِصَال في ترسيله ، ومثل أبي الحسن سَهْل بن مالك الذي بين أظهرنا الآن في خطبه ، وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله ٢ :

وليل بسُدّ النهر أنساً قطعته بذات سِوارٍ مثل منعطف النهر
نَضَتْ بُرُدها عن غصنٍ بانٍ منعم فيا حسن ما انشق الكمام عن الزهرِ
وقوله في أبيه ٣ :

سَمَيْدَعٌ يهب الآلاف مبتدئاً وبعد ذلك يُلْفَى وهو يعتذرُ
له يدٌ كلُّ جبارٍ يقبلها لولا نداها لقلنا إنها الحجرُ

ومثل ابنه الراضي ٥ في قوله :

-
- ١ ب : المتقدم ؛ م : في علوم .
٢ ديوانه : ١٢ والمقتطف ، الورقة : ٣١ وعنوان المرقصات : ٢٢ والقلائد : ٦ .
٣ ديوانه : ٣٧ - ٣٨ وعنوان المرقصات : ٢٢ والثاني في المقتطف : ٢٩ .
٤ ب : معتذر .
٥ م : الراضي بالله ؛ وانظر البيتين في الحلقة ٢ : ٧١ .

مَرُّوا بِنَا أَصْلًا مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ فَأَوْقِدُوا نَارَ قَلْبِي أَيُّ إِيقَادٍ
لَا غُرُو أَنْ زَادَ فِي وَجْدِي مَرُورُهُمْ فَرُؤْيَا الْمَاءِ تَذَكِّي غَلَّةِ الصَّادِي

وهل لكم ملك أَلَفَ في فنون الآداب كتاباً في نحو مائة مجلدة مثل المظفر
ابن الأفتس ملك بَطْلَيْوَسْ ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همّة الأدب ؟
وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد من مثل ،
وأحب إلى الأسماع من لقاء حبيب وصل ؟ التي منها :

أَثْمَرْتُ رُمَحَكَ مِنْ رُؤُوسِ مَلُوكِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرًا
وَصَبَغْتَ دِرْعَكَ مِنْ دِمَاءِ كُمَاتِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْحَسْنَ يَلْبَسُ أَحْمَرًا

ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يُقَلِّ مع طولها في النسيب أرقّ منها ،
وهي التي يقول فيها :

كَأَنَّا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا
سِرَّانَ فِي خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصَّبْحِ يُفْشِينَا

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبُون في بديته بين يدي المعتمد بن عباد
وإصابته الغرض حين استحسّن المعتمد قول المتنبي :

إِذَا ظَفَرْتُ مِنْكَ الْمَطْيُ بِنَظَرَةٍ أَثَابَ بِهَا مُعْنِي الْمَطْيُ وَرَازِمُهُ
فَارْتَجَلُ :

لَنْ جَادَ شَعْرُ ابْنِ الْحُسَيْنِ فَإِنَّمَا تُجِيدُ الْعَطَايَا وَاللَّهْمَا تَفْتَحِ اللَّهُمَّا
نَبَأَ عُجْبًا بِالْقَرِيضِ وَلَوْ دَرَى بِأَنَّكَ تَرَوِي شَعْرَهُ لَتَأَلَّهَا

١ أورد المقرئ قصيدة ابن عمار ، في النفع ج : ١ ص : ٦٥٥ .

وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن درّاج الذي قال فيه الثعالبي^١ « هو بالصقع
الأندلسي كالشني بصقع الشام » الذي إن مدح الملوك قال مثل قوله^٢ :

ألم تعلمي أنّ الثّواء هو التّوّى	وأنّ بيوت العاجزين قبور
وأنّ خطيرات المهالك ضُمنّ	لراكبها أنّ الجزاء خطير
تخوّفتي طول السّفار وإنّه	بتقبيل كفّ العامريّ جدّير ^٣
مجير الهدى والدين من كلّ ملّحد	وليس عليّه للضّلال مجير
تلاقت عليّه من تميم ويعرب	شموس تلاقّت في العلّا وبدور
همّ يستقلّون الحياة لراغب	ويستصغرون الخطب وهو كبير
ولما توافوا للسلام ورُفّعت	عن الشمس في أفق الشروق مستور
وقد قام من زرق الأسنّة دونها	صفوف ومن بيض السيوف سطور
رأوا ساعة الرحمن كيف اعترازاها	وآيات صنع الله كيف تُنير
وكيف استوى بالبر والبحر مجلس	وقام بعبء الراسيات سرير
فجاءوا عجالاً والقلوب خوافق	وولّوا ببطاء والنواظر صور
يقولون والإجلال يخرس ألسناً	وحازت عيون ملأها وصدور
لقد حاط أعلام الهدى بك حائط	وقدرَ فيك المكرمات قدير

وأنا أقسم بما حازته هذه الأبيات ، من غرائب الآيات ، لو سمع هذا
المدح سيد بني حمّدان لسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر ، ورأى
أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما تفنن فيه كل ناظم ونائر .
وإن ذكر الغربة عن الأوطان ، ومكابدة نوائب الزمان ، قال^٤ :

١ م : الثعالبي في اليتيمة .

٢ ديوان ابن دراج : ٢٩٨ .

٣ الديوان : لتقبيل كف العامري سفير .

٤ ديوان ابن دراج : ١١٠ ، ١١٢ وانظر المغرب ٢ : ٦١ .

قالت وقد مزج الفراقُ مدامعاً بمدامع وتراثباً بتراثب
 أتفرَّقُ حتى بتمزلِ غربة كم نحنُ للأَيَّامِ نهبه ناهب
 ولئن جنيتُ عليك تَرَحُّمَةً راحل فأنا الزعيم لها بفرحة آيب
 هل أبصرتُ عيناك بدرأ طالعاً في الأفقِ إلّا من هلال غارب
 وإن شبّه قال ¹ :

كمعاقلٍ من سوسنٍ قد شيدت أيدي الربيعِ بناءها فوق القضب
 شُرُفَاتُهَا من فضّة وحُمَاتُهَا حول الأمير لهم سيوف من ذهب
 وهل من شعرائكم مَنْ تعرَّضَ لذكر العفّة فاستنبط ما يسحر به السحر ،
 ويطيّب به الزهر ، وهو أبو عمر ابن فرج في قوله ² :

وطائفة الوصالِ عففتُ عنها وما الشيطانُ فيها بالمطاعِ
 بدتُ في اللَّيْلِ سافرةً فَبَاتَتْ دياجي اللَّيْلِ سافرةً القناعِ
 وما من لحظةٍ إلّا وفيها إلى فنّ القلوب لها دواعي
 فملّكتُ النّهيَ جَمّحاتٍ شوقي لأجريَ في العفافِ على طباعي
 وبتُ بها مبيت السَّقْبِ ³ يظما فيمنعه الكِعامُ من الرضاعِ
 كذاكَ الروض ما فيهٍ لمثلي سوى نظرٍ وشمٍ من متاعِ
 ولستُ من السوائِمِ مُهمّلات فأتخذُ الرياض من المراعي
 وهل بلغ أحد من مُشبّهي شعرائكم أن يقول مثل قول أبي جعفر اللمائي ⁴ :

١ ديوانه : ٣٦ .
 ٢ الأبيات لأبي عمر أحمد بن محمد بن فرج الجبائي (الجزوة : ٩٧ - ٩٨ والمطمح : ٨٠ والمغرب :
 ٢ : ٥٦) .
 ٣ م : السقط .
 ٤ ترجمته في المطمح : ٢٥ ولم يورد البيتين ؛ والذخيرة ٢/١ : ١٣٢ ، وهما منسوبان لابن برد
 في الذخيرة ٢/١ : ٤٧ ، وأوردهما ابن سعيد اللمائي في عنوان المرقصات : ٢٢ .

عارض "أقبلَ في جُح الدُّجى يتَهادى كَتَهادي ذي الوجى
بدَدَت^١ رِيحُ الصَّبَا لؤلؤهُ فانبرى يوقدُ عنها سُرُجا

ومثل قول أبي حفص ابن بُرد^٢ :

وكأنَّ الليلَ حينَ لوى ذاهباً^٣ والصبحُ قد لاحا
كِلةٌ سوداءُ أحرقها عامدٌ أسرج مصباحا

وهل منكم مَنْ وصف ما تحدته الحمرة من الحمرة على الوجنة بمثل قول
الشريف الطليق^٤ :

أصبحتُ شمساً وفوه مغرباً ويدُ الساقى المحيى مشرقاً
وإذا ما غربتُ في فمه تركتُ في الحدِّ منه شفقاً

بمثل هذا الشعر^٥ فليطلق اللسان ، ويفخر^٦ كلُّ إنسان .

وهل منكم من عمد إلى قول امرئ القيس^٧ :

سَمَوْتُ إليها بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُو حَبَابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالِ

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار ، واستلبه^٨ بلطف استلاب ثغر
الشمس لرُضاب طلِّ الأسحار ، فلففه تلطيفاً يمتزج بالأرواح ، ويغني في

١ الذخيرة : أتلفت .

٢ البيتان في الذخيرة ٢/١ : ٤٨ وعنوان المرقصات : ٢٢ .

٣ الذخيرة : هارباً .

٤ من قصيدة أورد أكثرها ابن بسام في الذخيرة ٢/١ : ٨١ - ٨٢ .

٥ ب : الشاعر .

٦ ب م : ويفخر على .

٧ هذا هو ما ذكره ابن شهيد نفسه (الذخيرة ١/١ : ٢٤٤ - ٢٤٥) .

٨ ق : وسلبه .

الارتياح عن شرب الراح ، وهو ابن شهيد في قوله ^١ :

ولما تَمَلَّأ من سكره ونام ونامت عيونُ الحرسِ
دنوت إليه على رِقْبَةٍ ^٢ دنوٌ رفيق درى ما التمسِ
أدبٌ إليه دبيب الكرى وأسمو إليه سموً النَّقَسِ
أَقْبَلُ مِنْهُ بَيَاضُ الطُّلَى وأرشفُ منه سواد اللِّعَسِ
فَبِتُّ بِهِ لَيْلَتِي ناعماً إلى أن تبسم ثغر الغَلَسِ

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه فعارض الصَّهِيل
بالنُّهَاق ، وقابل العَدْبَ بالزُّعَاق ، فقال وليته سكت :

ونفضت عني العين أقبلت مشية الـ حُبَابٍ ورُكْنِي خيفة القوم أزوَرُ
وأنا أقسم ^٣ لو زار جملٌ محبوبه له لكان ألطف في الزيارة من هذا الأزور
الركن المنفض للعيون ، لكنّه إن أساء هنا فقد أحسن في قوله ^٤ :

قالت لقد أعيينا حجةً فأت إذا ما هَجَعَ الساهر
واسقُطْ علينا كسقوط الندى ليلة لا ناهٍ ولا زاجر

ولله در محمد بن سَفَرٍ أحد شعرائنا المتأخرين عصرًا ، المتقدمين قدرًا ،
حيث نقل السعي إلى محبوبته فقال وليته لم يزل يقول مثل هذا ، فبمثله ينبغي أن
يتكلّم ، ومثله يليق أن يدوّن :

١ في قوله : سقطت من م .

٢ في الأصول : على قربه .

٣ م : أقسم أن .

٤ ينسب هذا الشعر لوضاح اليمن .

٥ أبو الحسين محمد بن سفر (أو صفر) شاعر المرية في عصره ؛ انظر المغرب ٢ : ٢١٢
والتحفة : ١٠١ والوافي ٣ : ١١٤ والنفع ج : ١ ص : ٤٧٦ ، وقد نسب المريني في النفع
وعنوان المرقصات وأغلب الظن أن صوابه « المريي » نسبة إلى بلده المرية .

وواعدتها والشمس تبحج للنوى بزورها شمساً وبدر الدجى يسري
فجاءت كما يمشي سنا الصبح في الدجى وطوراً كما مرّ النسيم على النهر
فعطرت الآفاق حولي فأشعرت بمقدمها والعرف يشعير بالزهر
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها كما يتقصى قارىء أحرف السطر
فبت بها والليل قد نام والهوى تنبه بين الغصن والحيف والبدر
أعانقها طوراً وألثم تارة إلى أن دعّتنا للنوى راية الفجر
ففضت عقوداً للتعانق بيننا فيا ليلة القدر اتركي ساعة النفر

وهل منكم من قيّد بالإحسان فأطلق لسانه الشكر ، فقال وهو ابن اللبّانة ^١ :

بنفسي وأهلي جيرة ما استعتهم على الدهر إلا وانثيتُ معانا
أراشوا جناحي ثمّ بلكوه بالندى فلم أستطع من أرضهم طيراً أنا

ومن يقول وقد قطع عنه ممدوحه ما كان يعتاده منه من الإحسان ،
فقابل ذلك بقطع مدحه له ، فبلغه أنّه عتبه على ذلك ، وهو ابن وضّاح ^٢ :

هل كنتُ إلاّ طائراً بشنائكم في دوح مجدكم أقومُ وأقعدُ
إن تسلبوني ريشكم وتقلّصوا عني ظلالكم فكيف أغردُ

وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجّوا من سماع تشبيه الثغر بالآفاق ،
وتشبيه الزهر بالنجوم ، وتشبيه الخدود بالشقائق ، فتلطّف لذلك في أن يأتي
به في مترع يصير خلقه في الأسماع جديداً ، وكليله في الأفكار حديداً ،
فأغرب أحسن إغراب ، وأغرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إغراب ، وهو
ابن الزقاق ^٣ :

١ البيتان في عنوان المرقصات : ٣٦ .

٢ عنوان المرقصات : ٣٨ .

٣ مقطوعات ابن الزقاق هذه في ديوانه : ١٢٤ ، ١٩٧ ، ١٢٥ وفيه التخرجات .

وَأَغْيَسَ طَافَ بِالْكُؤُوسِ ضُحَى وَحَثَّهَا وَالصَّبَاحُ قَدْ وَضَحَا
وَالرَّوْضُ أَهْدَى لَنَا شَقَائِقَهُ وَأَسَهُ الْعَنْبَرِيُّ قَدْ نَفَحَا
قُلْنَا : وَأَيْنَ الْأَقَاحُ ؟ قَالَ لَنَا : أَوْدَعْتَهُ ثَغَرَ مَنْ سَقَى الْقَدَحَا
فَظَلَّ سَاقِي الْمُدَامِ يَجْحَدُ مَا قَالَ فَلَمَّا تَبَسَّمَ افْتَضَحَا

وقال :

أَدِيرَاها عَلَى الرَّوْضِ الْمُنْدَى وَحَكَمُ الصَّبْحِ فِي الظُّلُمَاءِ مَاضِي
وَكَأْسُ الرَّاحِ تَنْظُرُ عَنْ حَبَابِ يَنْوِبُ لَنَا عَنِ الْخَدَقِ الْمَرَضِي
وَمَا غَرِبَتْ نَجُومُ الْأَفْقِ لَكِنْ نُقْلَنَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الرِّيَاضِ

وقال :

وَرِيَاضٍ مِنَ الشَّقَائِقِ أَضَحَتْ يَتَهَادَى بِهَا نَسِيمُ الرِّيَاحِ
زَرْتَهَا وَالْغَمَامُ يَجْلِدُ مِنْهَا زَهْرَاتِ تَرُوقُ لَوْنُ الرَّاحِ
قُلْتُ : مَا ذَنْبُهَا ؟ فَقَالَ مَجِيباً : سَرَقَتْ حُمْرَةَ الْخُدُودِ الْمَلَّاحِ

فانظر كيف زاحم بهذا الاختيال المخترعين ؟ وكيف سابق بهذا اللفظ
المبتدعين ؟

وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه وما يتعلق بذلك فانتهي
إلى راية السباق ، وفضح كل من طمع بعده في اللحاق ، وهو أبو إسحاق ابن
خفاجة القائل ^١ :

وَعَشِيَّ أَنْسٍ أَضْجَعَتْنَا نَشْوَةً فِيهَا يُمَهِّدُ مَضْجَعِي وَيُدَمِّتُ
خَلَعَتْ عَلَيَّ بِهَا الْأَرَاكَةُ ظِلَّهَا وَالْغَصْنُ يُصْغِي وَالْحَمَامُ يُحَدِّثُ

١ م : في قوله ؟ وأشار ابن خفاجة هذه في ديوانه : ٢٨٥ ، ٣٥٦ ، ٢٥٤ ، ٢٩١ ، ١٤٠ ،

١١٩ ، ٢٣٥ ، ١٢٣ .

والشمسُ تَجْنَحُ للغروبِ مريضةٌ والرعدُ يَرْقِي والغمامةُ تَنْفُثُ

والقائل :

لله نهرٌ سالَ في بطحاء متعطفٌ مثلَ السَّوارِ كأنَّه
قد رَقَّ حتَّى ظنَّ قرصاً مفرغاً وغدت تحفُّ به الغصونُ كأنَّها
ولطالما عاطيتُ فيه مُدَّامةً والريحُ تُعبثُ بالغصونِ وقد جرى
أشهى وروداً من لَمَى الحسناء والزهرُ يَكْنُفُهُ مَجَرُّ سماء
من فضةٍ في بُردةٍ خضراء هُدْبٌ تحفُّ بمقلةٍ زرقاء
صفراء تخضبُ أيديَ الندماء ذَهَبُ الأصيلِ على بلحِنِ الماء

والقائل :

حَثَّ المدامةَ والنسيمُ عليلُ والروضُ مهتزُّ المعاطفِ نعمةً
ريَّانَ فَضَضَهُ الندى ثمَّ انجلى والظلُّ خَفَّاقُ الرواقِ ظليلُ
نشوانٍ تعطفه الصَّبَا فيميلُ عنه فذَهَبَ صفحتهِ أصيلُ

والقائل :

أذِنَ الغمامُ بديمةٍ وعُقارٍ وأربعٌ على حُكْمِ الربيعِ بأجرعٍ
متقسِّمِ الأخطافِ بينَ محاسنٍ نثرت بحجرِ الروضِ فيه يدُ الصَّبَا
وهفتُ بتغريدِ هنالك أَيْكَةٍ هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا ولربَّما
فامزجَ بلحِيناً منهما بنُضارٍ هَزَجَ الندامى مُفْصِحِ الأطيارِ
من ردْفِ رابيةٍ وخَصَرِ قرارِ دُرَرَ النَّدَى ودَراهمَ الأنوارِ
خَفَّاقَةً بمهبِّ رِيحِ عَرَّارِ خلعت عليه مَلَأَةً النُّوَارِ

١ م : الأنوار .

والقائل :

سَقَباً لها من بطاح خَزِيٍّ ودَوَّحٍ نَهْرٍ بها مَطْلٌ
إِذْ لَا تَرَى غَيْرَ وَجهِ شَمْسٍ أَطْلٌ فِيهِ عِذَارُ ظِلٍّ

والقائل :

نَهْرٌ كَمَا سَالَ اللَّيْ سِلْسَالُ وَصَبّاً بَلِيلٌ ذَيْلُهَا مَكْسَالُ
وَمَهَبٌ نَفْحَةٌ رَوْضَةٌ مَطْلُولَةٌ فِي جَانِبَيْهَا لِلتَّسِيمِ مَجَالُ
غَازَلَتْهَا وَالْأَقْحُونَةُ مَبْسِمٌ وَالْآسُ صُدْعٌ وَالْبَنْفَسُجُ خَالُ

والقائل :

وَسَاقٍ كَحِيلِ اللَّحْظِ فِي شَاوِحُسْنِهِ جَمَاحٌ وَبِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ حِرَانُ
تَرَى لِلصَّبَا نَاراً بِخَدَيْهِ لَمْ يَشُرْ لَهَا مِنْ سَوَادَتِي عَارِضِيهِ دَخَانُ
سَقَاها وَقَدْ لَاحَ الْهَلَالُ عَشِيَّةً كَمَا اعْوَجَّ فِي دِرْعِ الْكَمِي سَنَانُ
عُقَاراً نَمَاهَا الْكُرْمُ فَهِيَ كَرِيمَةٌ وَلَمْ تَزَنْ بِابْنِ الْمَزْنِ فَهِيَ حَصَانُ
وَقَدْ جَالَ مِنْ أَجْوُنِ الْغَمَامَةِ أَدْهَمُ لَهُ الْبَرْقُ سَوَاطٍ وَالشَّمَالُ عَنَانُ
وَضَمَخَ رَدْعُ^٢ الشَّمْسِ نَحْرَ حَدِيقَةٍ عَلَيْهِ مِنَ الطَّلِّ السَّقِيطِ جُمَانُ
وَنَمَتْ بِأَسْرَارِ الرِّيَاضِ خَمِيلَةٌ لَهَا النَّوْرُ ثَغْرٌ وَالنَّسِيمُ لِسَانُ

والقائل في وصف فرس ولم يخرج عن طريقته :

وَأَشْقَرٍ تُضْرَمُ مِنْهُ الْوَغَى بِشَعْلَةٍ مِنْ شَعَلِ الْبَاسِ
مِنْ جَلَنَارٍ نَاضِرٍ لَوْنُهُ وَأُذْنُهُ مِنْ وَرَقِ الْآسِ
يَطْلُعُ لِلْغَرَةِ فِي شَقْرَةٍ حَبَابَةٌ تَضْحَكُ فِي كَاسِ

١ م : جال في .

٢ في الأصول : درع ؛ والردع : الخلوق .

وهل منكم من يقول مُنادماً لنديمه وقد باكر رَوْضاً بمحجوب وكأس ،
فألفاه قد غطى محاسنه ضباب ، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى
ذلك ، وهو أبو الحسن ابنُ بَسَّام^١ :

ألا بادِرْ فما ثانٍ سوى ما عهدتَ الكأس والبدر التمام
ولا تكسلْ برؤيته ضباباً تغصُّ^٢ به الحديقة والمدام
فإنَّ الروضَ ملثمٌ إلى أن توافيهُ فينحطَّ اللثام

وهل منكم مَنْ تَغَزَّلَ في غلام حائك بمثل قول الرصافي^٣ :

قالوا وقد أكثروا في حبه عذلي لو لم تهمْ بمُدْأَلِ القَدْرِ مبتدلٍ
فقلتُ : لو كانَ أمري في الصبابةِ لي لاخترتُ ذاكَ ، ولكن ليس ذلك لي
عُلَّقَتْهُ حَبَبِي الثَّغْرِ عاطرهُ حُلُوَ اللَّمَى ساحرَ الأجفانِ والمقلِّ
غَزِيلٌ لم تزلْ في الغزلِ جائلةٌ بنانهُ جَوْلانَ الفكرِ في الغزلِ
جدلانَ تلعبُ بالمحوكِ أنملهُ على السدى لعبَ الأيامِ بالأملِ
ضماً بكفيه أو فحصاً بأخمصه تحبُّطَ الظبيِ في أشراكِ محتبلِ

ومثل قوله في تغلُّب مسكة الظلام على خلق الأصيل^٤ :

وعشِّي رائقٍ منظرهُ قد قطعناه على صرف الشمولِ
وكانَ الشَّمْسُ في أثناهُ ألصقت بالأرض خدّاً للنزولِ
والصبأ ترفعُ أذيالَ الرُّبَى ومُحَيَّا الجو كالنَّهْرِ الصَّقِيلِ
حبذا منزِلُنَا مغتبقاً حيثُ لا يطرُقنا غيرُ الهديلِ

١ الأبيات في عنوان المرقصات : ٣٦ .

٢ ب م : تغص .

٣ ديوان الرصافي : ١٢١ .

٤ ديوان الرصافي : ١٢٣ .

طائرٌ شادٍ وغصنٌ مثنيٌ والدجى تشربُ صهباءُ الأصيلِ

وهل منكم من يقول في مَوْشَحٍ فيما يحره هذا المعنى :

ورداء الأصيلِ تطويه كَفُ الظلامِ

وهو أبو قاسم ابن الفرس^١ .

وهل منكم من وصف غلاماً جميل الصورة راقصاً بمثل قول ابن خروف^٢ :

ومُنَزَعٌ^٣ الحركاتِ يلعبُ بالنُّهى لبس المحاسنِ عند خلعِ لباسِه
متأوداً كالغُصْنِ وسطَ رياضِه مُتلاعِباً كالظبيِ عندِ كناسِه
بالعقلِ يلعبُ مقبلاً أو مدبراً كالدهرِ يلعبُ كيف شاء بناسِه
ويضمُّ للقدمين منه رأسَه كالسيفِ ضمَّ ذُبَابَه لرئاسِه

وهل منكم من وصف خالاً بأحسن من قول النشار^٤ :

الْوَامي على كلفِي بيَحْيى متى مِن حُبِّه أرجو سَراحِ
وبينَ الخلدِ والشفَتين خالٌ كزنجيٍ أتى روضاً صَباحِ
تَحْيِرَ في جَنّاه فليس يلدي أيجي الورْدَ أم يجني الأفاحا

وهل منكم الذي اهتدى إلى معنى في لثم وردة الخلدِ وَرَشَفَ رُضَابِ الثغرِ
لم يهتد إليه أحد غيره ، وهو أبو الحسن سلام بن سلام المالقي^٥ في قوله :

- ١ ق ب : أبو القاسم ؛ والأرجح أن هذا البيت من موشحة له في المغرب ٢ : ١٢٢ .
٢ ابن خروف هذا هو علي بن محمد بن يوسف بن خروف القيسي الراحل إلى المشرق ؛ توفي بحلب
حوالي سنة ٦٢٠ و ترجمته في الذيل والتكملة ٥ : ٣٩٦ ، ومصادر ترجمته في الحاشية ؛ وأبياته
في الذيل وصلة الصلة : ١١٥ وانظر النفع ٢ : ٦٤٠ (رقم ٢٦٧) .
٣ كذا في أصول النفع ؛ وفي الذيل : ومنوع .
٤ أبو علي النشار بلنسي من شعراء زاد المسافر (ص : ٥٧) وأبياته هناك .
٥ صاحب المقامات السبع وكتاب الذخائر والأعلاق في أدب النفوس ومكارم الأخلاق (توفي ٥٤٤) . =

لَمَّا ظَفَرْتُ بِلَيْلَةٍ مِنْ وَصْلِهِ وَالصَّبُّ غَيْرُ الْوَصْلِ لَا يَشْفِيهِ
أَنْصَجْتُ وَرَدَةَ خَدَّهْ بِتَنْفَسِي وَطَفَقْتُ أَرْشَفُ مَاءَهَا مِنْ فِيهِ

وهل منكم مَنْ هجا من غير النطق بإقذاع فبلغ ما لم يبلغه المقذع ، وهو
المخزومي في قوله ^١ :

يُودُّ عَيْسَى نَزُولَ عَيْسَى عَسَاهُ مِنْ دَائِهِ يَرِيحُ
وَمَوْضِعُ الدَّاءِ مِنْهُ عُضُوٌّ لَا يَرْضِي مَسَّهُ الْمَسِيحُ

ولمَّا أَقْذَعُ أَتَى أَيْضاً بِأَبْدَعُ ، فقال :

يَا فَارِسَ الْخَيْلِ وَلَا فَارِسُ* إِلَّا عَلَى مَتْنِ جَوَادِ الْخَيْصِ
زَدْتَ عَلَى مُوسَى وَآيَاتِهِ تَفْجَرُ الْمَاءَ وَتُخْفِي الْعَصَا

وهل منكم من مَدَحَ بمعنى فبلغ به النهاية من المدح ، ثم نقله إلى الهجاء
فبلغ به النهاية من الذم ، وهو اليكي ^٢ في قوله مادحاً :

قَوْمٌ لَهِمْ شَرَفُ الْعَلَا فِي حِمِيرٍ وَإِذَا انْتَمَوْا لِمَتُونَةٍ فَهَمْ هُمْ
لَمَّا حَوَّوْا أَحْرَازَ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَلَبَ الْحَيَاءُ عَلَيْهِمْ فَتَلْثَمُوا

وفي قوله هاجياً :

إِنْ الْمَرَابِطَ بِاخِلٍ* بِنَوَالِهِ لَكِنَّهُ بَعِيَالَهُ يَنْتَكِرُمُ

= راجع ترجمته في المغرب ١ : ٤٣٤ والذيل والتكملة ٤ : ٤٨ وجمله ابن عبد الملك إشبيلياً ؛ وبيتاه
في المغرب .

١ هو المخزومي الأعشى الذي مرت قصته مع زهون (النفح ١ : ١٩٠-١٩٣) ، انظر بيتيه الأولين
في زاد المسافر : ٧٥ .

٢ سناه ابن سعيد (المغرب ٢ : ٢٦٦) « ابن رومي عصرنا وحطيطه دهرنا » وبيتاه الأولان في
المغرب : ٢٦٨ .

الوجهُ منه مُخَلَّقٌ بقبيح ما يأتية فهو مِن آجله يتلثمُ
 وهل منكم مَنْ هجا أشتر العين بمثل قول أبي العباس ابن حنّون^١ الإشبيلي :

يا طلعةً أبدت قبائحَ جمّةً فالكلُّ منها إن نظرتَ قبيحُ
 أبعينك الشراء عينٌ ثرّةٌ منها ترقرق دمعها المسفوحُ
 شتيرت قلنا : زورقٌ في لجةٍ مالت بإحدى دفتيه الريحُ
 وكأنما إنسانها ملاّحها قد خاف من غرقٍ فظلّ يميحُ

وهل منكم مَنْ حضر مع عدوّ له جاحدٍ لما فعله معه من الخير ، وأمامهما
 زجاجة سوداء فيها خمر ، فقال له الحسود المذكور : إن كنت شاعراً فقل في
 هذه ، فقال ارتجالاً ، وهو ابن مُجبر^٢ :

سأشكو إلى الندمان أمرَ زجاجةٍ تردّت بثوبٍ حالك اللون أسحمـ
 نصبُ بها شمسُ المدامة بيّتنا فتعربُ في جنحٍ من الليل مظلمـ
 وتجنّحدُ أنوارَ الحميّا بلونها كقلب حسودٍ جاحدٍ يدَ منعمـ

وهل منكم من قال لفاضل جمع بينه وبين فاضل ، وهو أبو جعفر الذهبي^٣ :

١ أبو العباس أحمد بن حنّون (عنوان المرقصات : حيون) الإشبيلي ، أمله من أغنياء إشبيلية اتهم
 بالقيام على الموحدين ، ثم عفي عنه في مدة منصور بني عبد المؤمن (راجع ترجمته في المغرب ١ :
 ٢٤٤ وزاد المسافر : ٥٠ وشعره فيهما وفي عنوان المرقصات : ٤٤) .

٢ يحيى بن مجبر أبو بكر من بلش (Velez Malaga) ، توفي سنة ٥٨٨ بمراكش ؛ ترجمته في زاد
 المسافر : ٩ وبغية الملتبس رقم : ١٤٩٣ وله شعر كثير سيرد في النفع ؛ وفي شرح المقصورة
 والجزء الثالث من البيان المغرب .

٣ هو أبو جعفر أحمد بن عتيق بن جرج المعروف بابن الذهبي من أعيان بلنسية غلبت عليه الفلسفة ،
 وهو من أصحاب ابن رشد ، إلا أنه اختفى حين طلب أستاذه إلى أن صدر العفو عنه (انظر المغرب
 ٢ : ٣٢١ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٨١ والديباج : ٦٩ وبغية الوعاة : ١٤٤ والغصون اليانعة : ٣٦
 والتكملة : ٩٥ وأبياته في المغرب) .

أيتها الفاضلُ الذي قد هداني نحو من قد حمدتهُ باختبارِ
شكر الله ما أتيتَ وجازا لك ولا زلتَ نجمَ هدى لساري
أيُّ برقٍ أفادَ أيُّ غمامٍ وصباح أدى لضوء نهارِ
وإذا ما غدا النسيمُ دليلي لم يحلني إلا على الأزهارِ

وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره وسواد شعره ، وهو التَّطيلي^١ :

أما اشتفتَ مِنِّي الأيامُ في وطني حتى تضايق فيما عن من وطري
ولا قضتَ من سواد العين حاجتها حتى تكرَّ على ما طلَّ في الشعرِ

وهل منكم الذي طار في مشارق الأرض ومغاربها قوله ، وهو أبو القاسم
محمد بن هانيء الإلبيري :

فتفت لكم ريح الجلالِ بعنبرٍ وأمدكم فلق الصُّباحِ المسفرِ
وجنيمٌ ثمرَ الوقائعِ يانعاً بالنصرِ من ورق الحديد الأخرِ

وقد سمعت فائتية في النجوم ، ولولا طولها لأنشدتها هنا ، فإنها أحسن ما قيل
في معناها .

وهل منكم من قال في الزهد مثل قول أبي وهب العبَّاسي القرطبي^٢ :

أنا في حالي التي قد تَراني إن تأملت أحسنُ الناس حالا
متزلي حيثُ شئتُ من مستقرِّ الـ أرضٍ أسقى من المياه زلالا
ليس لي كسوةٌ أخافُ عليها من مغيرٍ ولا ترى لي مالا
أجعلُ الساعدَ اليمينَ وسادي ثم أني إذا انقلبتُ الشمالا

١ ديوان التطيلي : ٤٩ .

٢ له ترجمة مسهبه في المغرب ١ : ٥٨ وأبياته مثبتة هناك .

لَيْسَ لِي وَالِدٌ وَلَا لِي مَوْلُو دٌ وَلَا حَزْتُ مَذْ عَقَلْتُ عِيَالَا
قَدْ تَلَذَذْتُ حَقْبَةً^١ بِأُمُورٍ فَتَأَمَّلْتُهَا^٢ فَكَانَتْ خِيَالَا

ومثل قول أبي محمد عبد الله بن العسال الطليطلي^٣ :

انظر الدنيا فإن أبْدَ صَرَّتْهَا شَيْئًا يَدُومُ
فاغْدُ منها في أمانٍ إن يساعذك النعيمُ
وإذا أَبْصَرْتَهَا مَذْ كَ على كره نعيمُ
فاسلُ عنها واطرحها وارتحلْ حيثُ تقيمُ

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولادة المروانية^٤ التي تقول مُداعبة للوزير
ابن زيدون ، وكان له غلام اسمه « علي » :

ما لابن زَيْدُون على فَضْلِهِ يَغْتَابُنِي ظِلْمًا وَلَا ذَنْبَ لِي
ينظرني شَرَّراً إذا جِثَّتْ كَأَنَّمَا جِثْتُ لِأَخْصِي عَلِي

ومثل زينب بنت زياد المؤدب الوادي أشية التي تقول :

ولمَّا أبى الواشونَ إِلَّا فِرَاقَنَا وَمَا لُهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ ثَارٍ
وَشَنُّوا عَلَيَّ أَسْمَاعَنَا كُلَّ غَارَةٍ وَقَلَّ حُمَاتِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي
غَزَوْتُهُمْ مِنْ مَقْلَتِيكَ وَأَدْمَعِي وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيْفِ وَالْمَاءِ وَالنَّارِ

وأنا أختم هذه القطع المتخيرة بقول أبي بكر ابن بقي ليكون الختام مسكاً^٥ :

١ م : خيفة .

٢ المغرب : فتدبرتها .

٣ م : أبي عبد الله محمد ؛ وراجع ترجمة ابن العسال في المغرب ٢ : ٢١ والحاشية .

٤ ستأتي تراجم لأدبيات الأندلس في النفع وسيجري التعريف بهن وبمصادر ترجمتهن هناك .

٥ اشتهرت هذه الأبيات عند المشاركة ، فعارضوها ووردت في عدة مصادر ؛ انظر المغرب ٢ : ٢١ .

ومعجم الأدباء ١٩ : ٢١ .

عاطيته والليل يسحبُ ذيله صهباء كالملك الفتيق لناشق
وضمته ضمَّ الكميَّ لسيفه وذؤابته حمائلٌ في عاتقي
حتى إذا مالت به سِنَّةُ الكرى زحزحته شيئاً وكان مُعانيقي
باعدته^١ عن أضلعٍ تشاقه كيلاً ينامَ على وسادٍ خافقٍ

وبقول القاضي أبي حفص ابن عمر القرطبي^٢ :

هُمْ نظروا لواحظها فهموا وتشربُ لبَّ شاربها المدامُ
يخافُ الناس مُقلتها سواها أيدعِر قلبَ حامله الحسام
سما طرفي إليها وهَوَ باكٍ وتحت الشمس ينسكب الغمام
وأذكر قَدَّها فأنوح وجداً على الأغصان تَسْتَدِبُ الحمام
وأعقبَ بينها في الصدر غمّاً إذا غربت ذُكَاءُ أتى الظلام

وبقوله أيضاً :

لها رِدْفٌ تعلّق في لطيف وذاك الردفُ لي ولها ظلُّومُ
يُعَدِّبني إذا فكَّرتُ فيه ويَتُعبها إذا رامت تقومُ

وقد أطلتُ عِنانَ النظم^٣ ، على أنِّي اكتفيتُ عن الاستدلال على النهار
بالصباح ، فبالله إلا ما أخبرني^٤ : مَنْ شاعركم الذي تقابلون به شاعراً ممّن
ذكرت ؟ لا أعرف لكم أشهر ذكراً ، وأضخم شعراً ، من أبي العباس الجراوي ،

١ ب : أبعدته .

٢ هو القاضي الأديب أبو حفص عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر السلمي ، كان
من أهل الفتيّا بمدينة فاس ثم ترقى إلى الخطابة والقضاء ، ولاء المنصور الموحدي قضاء إشبيلية ومات
بها وهو قاض سنة ٦٠٣ (انظر الفصون اليانعة : ٩١ وصلة الصلة : ٧٢ وزاد المسافر : ١٠١ ؛
والقطعتان في الفصون والثانية في زاد المسافر ؛ وفي الشريشي : ١ : ١٥٨) .

٣ م : عنان القلم في النظم .

٤ ق : أخبرت .

وأولى لكم أن تجحدوا فخره ، وثنسوا ذكره ، فقد كفاكم ما جرى من الفضيحة عليكم في قوله من قصيدة يمدح بها خليفة :

إذا كان أملاكُ الزمان أراقماً فإنك فيهم دائم الدهر ثعبانُ

فما أقبح ما وقع « ثعبان » وما أضعف ما جاء « دائم الدهر » ، ولقد أنشدت أحد ظرفاء الأندلس هذا البيت ، فقال : لا يُنكر هذا على مثل الجراوي ، فسبحان من جعل نسبه وروحه وشعره تتناسب في الثقالة ^١ .

وإن أردت الافتخار بالفرسان ، والتفاضل بالشجعان ، فمن كان قبلنا منهم في مدة المنصور بن أبي عامر ومدة ملوك الطوائف أخبارُهُم مشهورة ، وآثارهم مذكورة ، وكفاك من أبطال عصرنا ما سمعت عن الأمير أبي عبد الله ابن مرْدَيش وأنه كان يدفع في المواكب ويشقها يمينا ويساراً منشداً :

أكرُّ على الكتيبة لا أبالي أحتفي كانَ فيها أمٌ سواها

حتى إنّه دفع يوماً في موكب من النصارى فصَرَ وقاتل ، وظهر منه ما أعجبت به نفسه ، فقال لشيخ من خواصّه ، عالم بأمور الحرب مشهور بها : كيف رأيت ؟ فقال له : لو رآك السلطان زاد فيما لك في بيت المال ، وأعلى مرتبتك ، أمن يكون رأس جيش يقدم هذا الإقدام ، ويتعرض بهلاك نفسه إلى هلاك جيشه ^٢ ؟ فقال له : دعني فإنّي لا أموت مرتين ، وإذا مت أنا فلا عاش منْ بعدي .

والقائد أبو عبد الله ابن قادس الذي اشتهر من شجاعته ومواقفه في النصارى وحسن بلائه ما صير النصارى من رُعبه والإقرار بفضلته في هذا الشأن أن يقول

١ في الثقالة : سقطت من ب .

٢ ب : هلاكهم ؛ ق : هلاككم .

أحدهم لفرسه إذا سقاه فلم يُقبل على الماء : ما لك ؟ أ رأيت ابن قادس في الماء ؟
وهذه مرتبة عظيمة :

والفضلُ ما شهدت به الأعداء

ولقد أخبرني مَنْ أثق به أنه خرج من عسكر في كتيبة مجردة برسم الغارة على بلاد النصارى ، فوقع في جمع كبير منهم ، فجهد جهده في الخلاص منهم والرجوع إلى العسكر ، فجعل يقاتل مع أصحابه في حالة الفرار إلى أن كبا بأحد جنده فرسه ، وفرّ عنه ، فناداه مستغيثاً ، فقال : اصبر ، ثم نظر إلى فارس من النصارى قد طرق فقال : اجرِ إلى هذا النصراني فخذ فرسه ، وركض نحوه فأسقطه ، وقال لصاحبه : اركب ، فركب ونجا معه سالماً ؛ وأمثال هذا كثير ، وإنما جئت بحصاة من ثبير .

وأما كرم النفس وشمائل الرياسة ، فأنا أحكي لك حكاية تتعجب منها ، وهي ممّا جرى في عصرنا ، وذلك أن أبا بكر ابن زُهر نشأت بينه وبين الحافظ أبي بكر ابن الجحد عداوة مفرطة للاشتراك في العلم والرياسة وكثرة المال والبلدية^١ ، فأجرى ابن زُهر يوماً ذكره في جماعة من أصحابه ، وقال : لقد آذانا هذا الرجل أشد أذيةً ، ولم يقصر في القول عند أمير المؤمنين وعند خواص الناس وعوامهم ، فقال له أحد عوامهم : إنّي^٢ أذكر لك عليه عقداً فيه مخاصمة في موضع ممّا يعزّ عليه من مواضعه ، ومتى خاصمته في ذلك بلغت منه في النكاية أشد مبلغ ، فخرج ابن زُهر ، وأظهر الغضب الشديد ، والإنكار لذلك ، وقال لو كيّله : أمثلي يجازي على العداوة بما يجازي به السفل والأوباش ؟ وإنّي أجعل ابن الجحد في حل من موضع الخصام ، وأمر بأن يحمل له العقد ، ثم قال : وإنّي

١ وكثرة . . . والبلدية : سقطت من م .

٢ م : أنا .

والله ما أروم بذلك أن أصلحه ، فإن عداوته من حسد ، وأنا أسأل الله تعالى أن
يُدِّعِمَهَا لأنها مقترنة بدوام نعم الله علي .

وإن تعرضت إلى ذكر البلاد ، وتفسير محاسنها ، وما خَصَّصَهَا الله تعالى به
مما حرّمها غيرها ، فاسمع ما يميت الحسود كمدأ :

أما إشبيلية فمن محاسنها اعتدالُ الهواء ، وحسن المباني ، وتزيين الخارج
والداخل ، وتمكن التمصر ، حتى إن العامة تقول : لو طُلب لبْنُ الطير في
إشبيلية وجِد ، ونهرها الأعظم الذي يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم يحسر ،
وفيه يقول ابن سفر :

شقّ النسيمُ عليه جَيْبَ قميصه فانساب من شَطِيّهِ يطلب ثارَهُ
فتضاحكت ورُقُ الحمام بدّوحها هزْءًا فضم من الحياء إزارَهُ
وزيادته على الأنهار كون ضفتيه مطررتين^١ بالمنازه والبساتين والكروم
والأنشام^٢ متصل ذلك اتصالاً لا يوجد على غيره .

وأخبرني شخص من الأكياس دخل مصر وقد سأله عن نيلها أنه^٣ لا تتصل
بشطية البساتين والمنازه اتصالها بنهر إشبيلية ، وكذلك أخبرني شخص آخر دخل
بغداد ، وقد سعد هذا الوادي بكونه لا يخلو من مَسَرَّة ، وأن جميع أدوات
الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر لا ناهٍ عن ذلك ولا منتقد ، ما لم يؤدّ السكرُ
إلى شر وعربدة ، وقد رام مَنْ وليها من الولاة المظهرين للدين قَطْعَ ذلك ، فلم
يستطيعوا إزالته ، وأهله أخف الناس أرواحاً ، وأطبعهم نواذر ، وأحملهم لمزاح
بأقبح ما يكون من السب ، قد مرّونا على ذلك ، فصار لهم دَيْدَنًا حتى صار
عندهم مَنْ لا يبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتاً ثقيلاً . وقد سمعت عن شَرْفِ
إشبيلية الذي ذكره أحد الوشّاحين في مَوْشَحَةٍ مدح بها المعتضد بن عبّاد :

١ في الأصول : مطرزة .

٢ الأنشام : نوع من الشجر .

٣ م : فذكر أنه .

إشيبيليا عروساً وبَعْلُها عباد
وتاجُها الشرف وسِلْكُها الواد

أي شرف قد حاز ما شاء من الشرف إذ عم أقطار الأرض خيره ، وسفر ما يعصر من زيتونه من الزيت حتى بلغ الإسكندرية ، وتزید قُراه على غيرها من القرى بانتخاب مبانها ، وتهمم سكّانها فيها داخلاً وخارجاً ، إذ هي من تبييضهم لها نجوم في سماء الزيتون .

وقيل لأحد من رأى مصر والشام : أيّها رأيت أحسن هذان أم إشيبيلية ؟ فقال بعد تفضيل إشيبيلية : وشرفها غابة بلا أسد ، ونهرها نيل بلا تمساح . وقد سمعت عن جبال الرحمة بخارجها ، وكثرة ما فيها من التين القوطي والشعري ، وهذان الصنفان أجمع المتجولون في أقطار الأرض أن ليس في غير إشيبيلية مثل^١ لهما ، وقد سمعت ما في هذا البلد من أصناف أدوات الطرب كالخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس^٢ والكثيرة^٣ والفنار^٤ والزلامي والشقرة^٥ والنورة - وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه - والبوق^٦ ، وإن كان جميع هذا موجوداً في غيرها من بلاد الأندلس فإنّه فيها أكثر وأوجد ، وليس في بر العدوة من هذا شيء إلا ما جلب إليه^٧ من الأندلس وحسبهم الدف وأقوال واليرا وأبو قرون ودبدبة السودان وحماقي البرابر ، وأمّا جواربها ومراكبها برّاً وبحراً ومطابخها وفواكهها الخضراء واليابسة فأصناف

١ م : والدنس .

٢ دوزي : الكثيرة .

٣ دوزي : الفنار .

٤ ب : والسفرة .

٥ قد أثبت دوزي أسماء هذه الآلات الموسيقية في ملحقات المعاجم ولكنه لم يحدد مدلولاتها في الأكثر ، ومن الصعب ضبط بعض أسمائها .

٦ م : إليها .

أخذت من التفضيل بأوفر نصيب ، وأمّا مَبَانِيهَا فقد سمعت عن إتقانها واهتمام أصحابها بها وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجاري والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك ، وأمّا علماؤها في كل صنف رفيع أو وضع جَدًّا أو هزلاً فأكثر من أن يُعَدُّوا ، وأشهر من أن يُذكَروا ، وأمّا ما فيها من الشعراء والوشّاحين والزجالين فما لو قُسموا على بر العُدوة ضاق بهم ، والكل يتالون خير رؤسائها ويرفدّهم ، وما من جميع ما ذكرت في هذه البلدة الشريفة إلا وقصّدي به العبارة عن فضائل جميع الأندلس ، فما تخلو بلادها من ذلك ، ولكن جعلت لإشبيلية ، بل الله جعلها أمّ قُرَاهَا ، ومركز فخرها وعُلاها ، إذ هي أكبر مدنها ، وأعظم أمصارها .

وأمّا قرطبة فكرسي المملكة في القديم ، ومركز العلم ومَنَارُ التقي ومحل التعظيم والتقديم ، بها استقرت ملوك الفتح وعظماؤه ، ثم الملوك المروانية ، وبها كان يحيى بن يحيى راوية مالك ، وعبد الملك بن حبيب ، وقد سمعت من تعظيم أهلها للشرعة ، ومنافستهم في السؤدد بعلمها ، وأن ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها ، ويرفعون أقدارهم ، ويصدرون عن آرائهم ، وأنهم كانوا لا يقدّمون وزيراً ولا مشاوراً ما لم يكن عالماً ، حتى إن الحكم المستنصر لما كره له العلماء شرب الخمر^١ همّ بقطع شجرة العنب من الأندلس ، فقبل له : فإنّها تُعصر من سواها ، فأمسك عن ذلك ، وأنهم كانوا لا يقدمون أحداً للفتوى ولا لقبول الشهادة حتى يطول اختباره ، وتُعقد له مجالس المذاكرة ، ويكون ذا مال في غالب الحال خوفاً من أن يميل به الفقر إلى الطمع^٢ فيما في أيدي الناس فيبيع به حقوق الدين ، ولقد أخبرت أن الحكم الربضي أراد تقديم شخص من الفقهاء يختص به للشهادة ، فأخذ في ذلك مع يحيى بن يحيى وعبد الملك وغيرهما من أعلام العلماء ، فقالوا له : هو أهل ، ولكنّه شديد الفقر ، ومن

١ م ق : بفرض الخمر .

٢ ب : للطمع .

يكون في هذه الحالة لا تأمنه^١ على حقوق المسلمين ، لا سيما وأنت تريد انتفاعه وظهوره في الدخول في الموارث والوصايا وأشباه ذلك ، فسكت ولم يَرِ منازعتهم ، وبقي مهموماً من كونهم لم يقبلوا قوله ، فنظر إليه ولده عبد الرحمن الذي ولي الملك بعده ، وعلى وجهه أثر ذلك ، فقال : ما بالك يا مولاي ؟ فقال : ألا ترى هؤلاء الذين تقدمهم ونُؤَّه عند الناس بمكانهم حتى إذا كلفناهم ما ليس عليهم فيه شَطَط ، بل ما لا يعيهم^٢ ، ولا هو ممّا يرزؤهم شيئاً صدُّونا عنه ، وغلقوا أبواب الشفاعة ، وذكر له ما كان منهم ، فقال : يا مولاي ، أنت أولى الناس بالإنصاف ، إن هؤلاء ما قدمتهم أنت ولا نَوَّهتَ بهم ، وإنما قدمهم ونوّه بهم علمُهم ، أو كُنْتُ تأخذ قوماً جهالاً فتضعهم في مواضعهم ؟ قال : لا ، قال : فأنصفهم فيما تعبوا فيه من العلم لينالوا به لذة الدنيا وراحة الآخرة ، قال : صدقت ، ثم قال : وأمّا كونهم لم يقبلوا هذا الرجل لشدة فقره فالعلة في ذلك تنحسم بما يبقي لك في الصالحات ذكراً ، قال : وما هو ؟ قال : تعطيه من مالك قَدَرًا ما يلحق به من الغنى ما يؤهله لتلك المنزلة ، ويزيل عنك هذا خجل ردهم لك ، وتكون هذه مكرمة ما سبقك إليها أحد ، فتَهَلَّل وجهُ الحكم وقال : إليّ إليّ ، إنها والله شِنْشِنَة عَبْشَمِيَة وإن الذي قال فينا لصادق :

وأبناء أُملاك خضارم سادة صغيرُهم عند الأنام كبيرُ

ثم استدعى عبد الملك بن حبيب وسأله عن قدر ما يؤهله لتلك المرتبة من الغنى ، فذكر له عدداً ، فأمر له به في الحين ، ونَبَّه قدره بأن أعطاه من إصطبله مركوباً ، وكانت هذه أكرومة^٣ لا خفاء بعظمها :

١ ب : ومن يكن . . . تؤمنه .

٢ ب : بل ما لا يعينهم .

٣ م : مكرمة .

يفنى الزمان وما بَنَتْهُ^١ مُخَلَّدٌ

ثمَّ إِنَّهُ إِذَا كَانَ لَهُ مِنَ الْغِنَى مَا يَكْفِيهِ عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ ، وَمَنِ الدِّينَ مَا يَصْدَهُ
عَنْ مُحَارَمِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَنِ الْعِلْمَ مَا لَا يَجْهَلُ بِهِ التَّصَرُّفَ فِي الشَّرِيعَةِ ، أَبَاحُوا لَهُ
الْفَتْوَى وَالشَّهَادَةَ ، وَجَعَلُوا عَلَامَةً لِدَلَالَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ الْقَالِسِ وَالرَّدَاءِ .

وَأَهْلُ قُرْطُبَةَ أَشَدَّ النَّاسِ مُحَافِظَةً عَلَى الْعَمَلِ بِأَصْحَ الْأَقْوَالِ الْمَالِكِيَّةِ ، حَتَّى
لِإِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤَلِّقُونَ حَاكَمًا إِلَّا بِشَرَطِ أَنْ لَا يَعْدِلَ فِي الْحُكْمِ عَنْ مَذْهَبِ ابْنِ
القَاسِمِ .

وقال ابن سارة لما دخل قرطبة :

الحمدُ لله قد وافيتُ قرطبةَ دارَ العلوم وكرسيَّ السلاطين

وهي كانت مجمع جيوش الإسلام ، ومنها نصر الله على عبيدته^٢ الصليب .
يقال : إن المنصور بن أبي عامر - حين تم له ملك البرين ، وتوفرت
الجيوش والأموال - عَرَضَ بظاهر قرطبة خيلَه ورجلَه ، وقد جمع من أقطار
البلاد ما ينهض به إلى قتال العدو وتدويخ بلاده ، فنيّف الفرسانُ على مائتي
ألف ، والرجالة على ستمائة ألف . وبها حتى الآن من صناديد المسلمين وقوادهم
مَنْ لَا يَفْتُرُ عَنْ مُحَارَبَةٍ ، وَلَا يَمَلُّ مِنْ مُضَارَبَةٍ ، أَسْمَاؤُهُمْ بِأَقَاصِي بِلَادِ النَّصَارَى
مشهورة ، وآثارهم فيها مأثورة ، وقلوبهم على البعد بخوفهم معمورة .

ويحكى أن العمارة في مباني قرطبة والزاهرة والزهراء اتصلت إلى أن كان
يمشي فيها لضوء السُّرُجِ المتصلة عشرة أميال ، وأما جامعها الأعظم فقد سمعت
أن ثريّاته من نواقيس النصارى ، وأن الزيادة التي زاد في بنائه ابنُ أبي عامر
من ترابٍ نَقَلَهُ النَّصَارَى عَلَى رُؤُوسِهِمْ مِمَّا هُدِمَ مِنْ كَنَائِسِ بِلَادِهِمْ ، وَقَدْ

١ ب : بنيته ، والصواب « بنيت » .

٢ م : عباد .

سمعت أيضاً عن قنطرتها العظمى وكثرة أرحي واديها ، يقال : إنَّها تنيف على خمسة آلاف حجر ، وقد سمعت عن كنبانيتها وما فضل الله تعالى به تربها من بركة وما ينبت فيها من القمح وطيبه ، وفيها جبال الورد الذي بلغ الربع منه مرات إلى ربع درهم ، وصار أصحابه يرون الفضل لمن قطف بيده ما يمنحونه منه ، ونهرها إن صغر عندها عن عظمه عند إشبيلية فإن لتقارب برّيه هنالك وتقطع غُدُّره ومُرُوجه معنى آخر وحلاوة أخرى ، وزيادة أنس ، وكثرة أمان من الغرق ، وفي جوانبه من البساتين والمروج ما زاده نضارة وبهجة .

وأما جِيَّان فإنَّها لبلاد الأندلس قلعة ، إذ هي أكثرها زرعاً ، وأصرمها أبطالاً ، وأعظمها منعة ، وكم رامتها من عساكر النصارى عند فترات الفن فرأوها أبعد من العيوق ، وأعزَّ منالاً من بيض الأنوق ، ولا خلت من علماء ولا من شعراء ، ويقال لها « جيان الحرير » لكثرة اعتناء باديتها وحاضرتها بدود الحرير .

ومما يُعدُّ في مفاخرها ما ببياسة إحدى بلاد أعمالها من الزعفران الذي يسفّر^١ برّاً وبحراً ، وما في أبدة من الكروم التي كاد العنب فيها لا يباع ولا يشتري كثرة ، وما كان بأبدة من أصناف الملاحى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ، فإنَّهن أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدك ، وإخراج القروى والمرابط والمتوجه^٢ .

وأما غرناطة فإنَّها دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأبصار ، ومطمح الأنفس ، لها القصبة المنيعـة ذات الأسوار الشاحنة ، والمباني الرفيعة ، وقد اختصت بكون النهر يتوزع على ديارها وحماماتها وأسواقها وأرحاها الداخلة والخارجة وبساتينها ، وزانها الله تعالى بأن جعلها مرتبة على بسطها الممتد الذي تفرغت^٣

١ ب : يسافر .

٢ ب : والمتوجه .

٣ م : تفرغت .

فيه سبائك الأنهار بين زَبَرْجَدَ الأشجار ، ولنسيم نَجْدُها وبهجة منظر حورها
 في القلوب والأبصار، استلطافٌ يَرُوقُ الطباع ، ويحدث فيها ما شاءه الإحسان
 من الاختراع والابتداع ، ولم تخلُ من أشرف أمائل ، وعلماء أكابر ، وشعراء
 أفاضل ، ولولم يكن لها إلا ما خَصَّها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها من
 الشواعر مثل نَزْهُونَ القلاعية وزينب بنت زياد ، وقد تقدّم شعرهما ، وحفصة
 بنت الحجاج ، وناهيك في الظرف والأدب ، وهل ترى أظرف منها في جوابها
 للوزير الحسيب الناظم النائر أبي جعفر ابن القائد الأجلّ أبي مروان ابن سعيد ،
 وذلك أنهما باتا بحورٍ مؤمّل على ما يبيت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة
 ونضارة النعيم ، فلمّا حان الانفصال قال أبو جعفر ^١ :

رعى الله ليلاً لم يَرُعْ بمدّمْ	عشيّة وارانا بحورٍ مؤمّلٍ
وقد خفقت من نحو نجدٍ أريجةً	إذا نَقَحَتْ هبت برياً القرّنفُلِ
وغرّد قُمْرِيٌّ على الدَّوْحِ وانثى	قضبٌ من الرياح من فوق جدولٍ
ترى الروضَ مسروراً بما قد بدا له	عناقٌ وضمٌ وارثافٌ مُقبِلِ

وكتبه إليها بعد الافتراق ، لتجاوبه على عاداتها في ذلك ، فكتبت له ما لا
 يخفى فيه قيمتها :

لعمرك ما سُرَّ الرياضُ بوصلنا	ولكنّه أبدى لنا الغلّ والحسدُ
ولا صَفَّقَ النهرُ ارتياحاً لقربنا	ولا صدَحَ القُمْرِيُّ إلا بما وجد ^٢
فلا تُحسِنِ الظنَّ الذي أنت أهله	فما هو في كل المواطن بالرشدُ
فما خلتُ هذا الأفقُ أبدى نجومه	لأمرٍ سوى كيما تكون لنا رَصَدُ

وأما مالقة فإنّها قد جمعت بين منظر البحر والبر بالكروم المتصلة التي

١ ستأتي أخبار أبي جعفر ابن سعيد وحفصة مفصلة في النفع .

٢ ق : وجداً بما وجد .

لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر ، والبروج التي شابهت نجوم السماء ، كثرة عدد وبهجة ضياء ، وتخلل الوادي الزائر لها في فصلي الشتاء والربيع في سرر بطحائها ، وتوشحه لخصور أرجائها ، ومما اختصت به من بين سائر البلاد التين الريبي المنسوب إليها ، لأن اسمها في القديم رية ، ولقد أخبرت أنه يُباع في بغداد على جهة الاستطراف^١ ، وأما ما يسفر منه المسلمون والنصارى في المراكب البحرية فأكثر من أن يعبر عنه بما يحصره ، ولقد اجتزت بها مرة ، وأخذت على طريق الساحل من سهيل إلى أن بلغت إلى بليش قدر ثلاثة أيام متعجباً فيما حوته هذه المسافة من شجر التين ، وإن بعضها ليحتجني جميعها الطفل الصغير من لزوقها بالأرض ، وقد حوت ما يتعب الجماعة كثرة ، وتين بليش^٢ هو الذي قيل فيه للبربري : كيف رأيته ؟ قال : لا تسألني عنه ، وصُبَّ في حلقي بالقفّة ؛ وهو لعمر الله معذور ، لأنه نعمة حرمت بلاده منها ، وقد خُصّت بطيب الشراب الحلال والحرام ، حتى سار المثل بالشراب المالحقي ، وقيل لأحد الخلاء ، وقد أشرف على الموت : أسأل ربك المغفرة ، فرفع يديه وقال : يا رب ، أسألك من جميع ما في الجنة خمر مالقة وزبيبي^٣ إشييلية ، وفيها تُنسج الحُلل الموشية التي تجاوز أثمانها الآلاف ذات الصور العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء فمن دونهم ، وساحلها محط تجارة لمراكب^٤ المسلمين والنصارى .

وأما المريّة فإنّها البلد المشهور الذكر ، العظيم القدر ، الذي خُصّ أهله باعتدال المزاج ، ورونق الديباج ، ورقة البشرة ، وحسن الوجوه والأخلاق ، وكرم المعاشرة والصحبة ، وساحلها أنظف السواحل وأشرحها^٤ وأملحها منظراً ،

١ م : لأجل الاستطراف .

٢ م : بليش .

٣ م : مراكب .

٤ م : وأشرقها .

وفيهما الحصى الملوّن العجيب الذي يجعله رؤساء مراکش في البراريد^١ والرخام
الصقيل الملوكي ، وواديها المعروف بوادي بجانة^٢ من أفرج الأودية ، ضفّته
بالرياض كالعذارين حول الثغر ، فحق أن ينشد فيها :

أرض وطئت الدر رضاضاً بها والترّب مسكاً والرياض جناناً^٣

وفيهما كان ابن ميمون القائد الذي قهرّ النصارى في البحر ، وقطع سفرهم
فيه ، وضرب على بلاد الرمانية ، فقتل وسبي ، وملاً صدور أهلها رعباً ، حتى
كان منه كما قال أشجع^٤ :

فلإذا تنبّه رُعتُهُ وإذا غفا سلّت عليه سيوفك الأحلام^٥

وبها كان محطّ مراكب النصارى ، ومجتمع ديوانهم ، ومنها كانت تسفّر^٦
لسائر البلاد بضائعهم ، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التي تصلح لهم ،
وقصد بضبط ذلك بها حصر ما يجتمع في أعشارهم ، ولم يوجد لهذا الشأن مثلها ،
لكونها متوسطة ومتسعة قائمة بالوارد والصادر ، وهي أيضاً مصنع للحلّل
الموشية النفيسة .

وأما مرسية^٧ فإنّها حاضرة شرق الأندلس ، ولأهلها من الصرامة والإباء
ما هو معروف مشهور ، وواديها قسيم وادي إشبيلية ، كلاهما ينسب من
شقورة وعليه من البساتين المتهذبة الأغصان ، والنواعير المطربة الألحان ، والأطيار
المغرّدة ، والأزهار المتنضدة ، ما قد سمعت ، وهي من أكثر البلاد فواكه
وريحاناً ، وأهلها أكثر الناس راحت وفرجاً لكون^٨ خارجها معيناً على ذلك

١ ب : البواريد .

٢ ب م : جنابا .

٣ هو أشجع السلمي ، وبيته من قصيدة في مدح الرشيد .

٤ م : تسافر ؛ وكانت سقطت من ق .

٥ ب : يكون .

بحسن منظره ، وهي بلدة تجهز منها العروس التي تنتخب شورتها لا تفتقر في شيء من ذلك إلى سواها ، وهي للمرية ومالقة في صناعة الوشي ثالثة ، وقد اختصت بالبسط التتلية التي تسفر^١ لبلاد المشرق ، وبالخضر التي تغلف بها الحيطان المبهجة للبصر ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره ، ولم تخل من علماء وشعراء وأبطال .

وأما بِلَنْسِيَّةُ فإنها لكثرة بساينها تُعرف بمطيب الأندلس ، ورُصافتها من أحسن متفرجات الأرض ، وفيها البحيرة المشهورة الكثيرة الضوء والرونق ، ويقال إنه لمواجهة الشمس لتلك البحيرة يكثر ضوء بِلَنْسِيَّةِ إذ هي موصوفة بذلك ، ومما خُصَّت به النسيج البلنسي الذي يسفر لأقطار المغرب ، ولم تخل من علماء ولا شعراء ، ولا فرسان يكابدون مصابقة^٢ الأعداء ، ويتجرعون فيها النعماء ممزوجة بالضراء ، وأهلها أصلح الناس مذهباً ، وأمتهم ديناً ، وأحسنهم صحبة ، وأرفقهم بالغريب .

وأما جزيرة مَيُورقة فمن أخصب بلاد الله تعالى أرجاء ، وأكثرها زرعاً ورزقاً وماشية ، وهي على انقطاعها من البلاد مستغنية عنها ، يصل فاضل خيرها إلى غيرها ، إذ فيها من الحضارة والتمكن والتمصر وعظم البادية ما يغنيها ، وفيها من الفوائد ما فيها ، ولها فضلاء وأبطال اقتصروا على حمايتها من الأعداء المحدقة بها :

من كلِّ مَنْ جعل الحسامَ خليله لا يبتغي أبداً سواه مُعِيناً

هذا — زان الله تعالى فضلكَ بالإنصاف ، وشرف كرمك بالاعتراف —
ما حضرني الآن في فضل جزيرة الأندلس ، ولم أذكر من بلادها إلا ما كُلُّ

١ ب : تسافر .

٢ ب : مصادمة ؛ م : مصافقة ، وأثبتنا ما في ق .

بلد منها مملكة مستقلة يليها ملوك بني عبد المؤمن على انفراد ، وغيرها في حكم التبع .

وأما علماؤها وشعراؤها فإنني لم أعرض منهم إلا لمن هو في الشهرة كالصباح ، وفي مسير الذكر كمسير الرياح ، وأنا أحكي لك حكاية جرت لي في مجلس الفقيه الرئيس أبي بكر ابن زهر ، وذلك أنني كنت يوماً بين يديه ، فدخل علينا رجل عجمي من فضلاء خراسان ، وكان ابن زهر يكرمه ، فقلت له : ما تقول في علماء الأندلس وكتّابهم وشعرائهم ؟ فقال : كبرتُ ، فلم أفهم مقصده ، واستبردتُ^١ ما أتى به ، وفهم مني أبو بكر ابن زهر أنني نظرتَه نظر المستبرد المنكر ، فقال لي : أقرأت شعر المتنبي ؟ قلت : نعم ، وحفظت جميعه ، قال : فعلى نفسك إذن فلتنكر ، وخاطِرَكَ بقلّة الفهم فلتتهم ، فذكرني بقول المتنبي :

كبرتُ حول ديارهم لما بدتُ منها الشموسُ وليس فيها المشرقُ

فاعتذرت للخراساني ، وقلت له : قد والله كبرت في عيني بقدر ما صغرت نفسي عندي ، حين لم أفهم نُبْلَ مقصودك^٢ ، فالحمد لله الذي أطلع من المغرب هذه الشموس ، وجعلها بين جميع أهله بمنزلة الرؤوس ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيّه المختار من صفوة العرب ، وعلى آله وصحبه ، صلاةً متصلة إلى^٣ غابر الحقب .

كملت رسالة الشقندي .

[ترجمة الشقندي]

وهو أبو الوليد إسماعيل بن محمد ، وشقندة المنسوب إليها قرية مطلة

١ ب : واستريت ؛ وهو خطأ .

٢ ب : مقصودك .

٣ ب : على .

على نهر قرطبة مجاورة لها من جهة الجنوب . قال ابن سعيد^١ : وهو ممن كان بينه وبين والذي صحبة أكيدة ، ومجالسات أنس عديدة ، ومزاورات^٢ تتصل ، ومحاضرات لا تكاد تنفصل ، وانتفعت بمجالسته ، وله رسالة في تفضيل الأندلس ، يعارض بها أبا يحيى في تفضيل بر العدو^٣ وأورد فيها من المحاسن ما يشهد له بلطافة المتزع وعذوبة المشرع ، وكان جامعاً لفنون من العلوم الحديثة والقديمة ، وعني^٤ بمجلس المنصور ، فكانت له فيه مشاهد غير ذميمة ، وولي قضاء بياسة وقضاء لورقة^٥ ، ولم يزل محفوظ^٤ الجانب ، محمود المذهب ، سمعته ينشد والذي قصيدة^٥ في المنصور وقد نهض للقاء العدو ، منها :

إذا نهضت فإن السيف منتهض^٥ ترمي السعود سهاماً والعدا غرض^٥
لك البسيطة تطويها وتنشرها فليس في كل ما تنويه معترض^٥

قال : وسمعته يقول له : أنشدت الوزير أبا سعيد ابن جامع قصيدة أولها :

استوقف الركب قد لاح لك الدار^٥ واسأل برقع تناءت عنه أقمار^٥
لا خفف الله عني بعد بينهم^٥ فإنتي سرت والأحباب ما ساروا

ومنها :

ألا رعى الله ظيماً في قبابهم^٥ منه لهم في ظلام الليل أنوار^٥

وله :

عللاني بذكر من همت فيه^٥ وعيداني عنه بما أرتجيه^٥

١ انظر اختصار القدح : ١٢٨ .

٢ القدح : ومداورات .

٣ القدح : وعين .

٤ القدح : ملحوظ .

٥ القدح : السعد منتصر .

وإذا ما طربتما لارتياحي فاجعلا خمرتي مُدَامَةً فيه
 لَيْتَ شعري وكم أَطِيلُ الأمانِي أَيَّ يومٍ في خلوةٍ ألتقيه
 وإذا ما ظفرتُ^١ يوماً بشكوى قال لي : أين كلُّ ما تدَّعيه
 لا دموع ولا سقام فماذا شاهدٌ عنك بالذي تدَّعيه^٢
 قلتُ دعي أُمْتُ بدائي فلأتي لو برَّاني الغرامُ لا أُبديه
 وقال في عَوْدِهِ لما مرض^٣ :

لَئِنِّي مرضتُ مرضَةً أُسْقِطَ منها في يدي
 فكان في الإخوان مَنْ لم أَرَهُ في العَوْدِ
 فقلتُ في كلِّهم قولَ امرئٍ مقتصدٍ
 أير الذي قد عادني في آسَتِ الذي لم يَعُدِ

مات بإشبيلية سنة ٦٢٩ ، انتهى .

[استطراد في الإشادة بالأندلس]

وقال ابن سعيد : أنشدني والذي للحافظ أبي الطاهر السلفي ، قال وكفى
 به شاهداً ، وبقوله مفتخراً :

بلادُ أَذْرَبِيجَانَ في الشرقِ عندنا كأندلسٍ بالغربِ في العلم والأدبِ
 فما إنْ تَكَادُ الدهرَ تلقى مميّزاً مِنْ أَهْلِيهِمَا إلا وقد جَدَّ في الطلبِ
 وحكى غيرُ واحد كابن الأبار أن عباس بن ناصح الشاعر لما توجه من قرطبة

١ القدح : ظهرت .

٢ القدح : بالذي تخفيه ؛ وهو أجود لكي لا تتكرر القافية .

٣ م : في عوده لمن مرض .

إلى بغداد ، ولقي أبا نُواس ، قال له : أنشدني لأبي الأجر ، قال : فأنشدته ،
ثم قال : أنشدني لبكر الكناني ، فأنشدته ، وهذان شاعران من الأندلس .

[حكايات وأشعار أندلسية]

واعلم أننا إن تتبعنا كلام الأندلسيين وحكاياتهم الدالة على سبقهم طال
بنا الكتاب ، ولم نستوفِ المراد ، فرأينا أن نذكر بعضاً من ذلك بحسب ما اقتضاه
الحال وأبداه ، ليكون عنواناً دالاً على ما عداه :

يَكْفِي من الحلْيِ ما قد حَفَّ بالعُنُقِ

١ — ولنبداً ما نسوقه من أخبار الأندلسيين وأشعارهم وحكاياتهم في الجدة
والهزل ، والتولية والعزل ، بقول الفقيه الزاهد أبي عمران موسى بن عمران
المارتي^١ ، وكان سكن إشبيلية :

لا تَبْكِ ثوبَكَ إن أَبْلَيْتَ جِدَّتَهُ وابكِ الذي أَبْلَيْتَ الأيامَ من بدنك^٢
ولا تَكُونَنَّ مَخْتالاً بِجِدَّتِهِ فربّما كان هذا الثوبُ من كفنك
ولا تَعَفَّهُ إذا أَبْصَرْتَهُ دَنِساً فإنما اكْتَسَبَ الأوساخَ من درنك^٣

٢ — وقال أبو عمرو، اليَحْضِي اللّوْشِي :

شَرَّدَ النّومَ عن جفونكَ وانظُرْ حكمةً توقظُ النفوسَ النياما

١ المارتي ويكتب أيضاً الميرتي نسبة إلى بلده « حصن مارتلة » من حصون باجة ؛ أحد شعراء الزهد
بالأندلس ؛ توفي سنة ٦٠٤ (انظر المغرب ١ : ٤٠٦ والنصوص الياضعة : ١٣٥ والتكملة :
٦٨٧) وله شعر كثير في شرح الشريشي على المقامات .

٢ م : جسدك .

٣ م ق : بدنك .

٤ ق ب : عمر .

فحرامٌ على امرئٍ لم يشاهدُ حكمةَ الله أن يذوق المناما
وقال أيضاً :

ليس للمرء اختيارٌ في الذي يتمنى من حراكٍ وسكونٍ
إنما الأمرُ لربِّ واحدٍ إن يشأ قال له : كن فيكون

٣ - وقال أبو وهب القرطبي ^١ :

تنامُ وقد أُعِدَّ لك السهادُ وتوقنُ بالرحيلِ وليس زادُ
وتصبحُ مثل ما تسمي مضيعاً كأنك لست تدري ما المراد
أتطمعُ أن تفوزَ غداً هنيئاً ولم يكُ منك في الدنيا اجتهاد
إذا قرطتَ في تقديم زرعٍ فكيف يكونُ من عدمٍ حصاد

وقيل : إن الأبيات السابقة التي أولها : « أنا في حالي التي . . . الخ » وجدتُ
في تركته بخطه في شقف ^٢ ، وبعضهم ينسبها لغيره ، واسم أبي وهب المذكور
عبد الرحمن ، وذكره ابن بشكُووال في الصلَّة ^٣ ، وأثنى عليه بالزهد والانقطاع ،
وكان في أول أمره قد حسب عامة الناس أنه مختلّ العقل ، فجعلوا يؤذونه
ويرمون به بالحجارة ، ويصيحون عليه : يا مجنون يا أحمق ، فيقول :

يا عاذلي أنت به جاهلٌ دعني به لست بمغبونٍ
أما تراني أبداً والهاً فيه كمسحورٍ ومفتونٍ
أحسن ما أسمع في حبه وصفي بمختلٍ ومجنونٍ

١ مرت الإشارة إليه ، انظر ما تقدم ص : ٢٠٧ .

٢ م : شقة .

٣ لم أجد له ترجمة في الصلَّة ؛ وأغلب الظن أن هذا وهم من المقرئ ، لأن ابن بشكُووال أفرد للعباسي مؤلفاً خاصاً .

٤ - وقال الخطيب أبو محمد ابن برطله :

بأربعة أرجو نجاتي وإنها لأكرم مذخور لدي وأعظم
شهادة إخلاصي وحيي محمداً وحسن ظنوني ثم أني مسلم

٥ - وقال ابن حبيش :

قالوا تصبر عن الدنيا الدنية أو كن عبداً واصطبر للذل واحتمل
لا بد من أحد الصبرين ، قلت : نعم الصبر عنها بعون الله أوفق لي

٦ - وقال ابن الشيخ :

اطلب لنفسك فوزها واصبر لها نظّر الشفيق وخف عليها واتق
من ليس يرحم نفسه ويصدّها عما سيهلكها فليس بمشفق

٧ - وقال أبو محمد القرطبي ^١ :

لعمرك ما الدنيا وسرعة سيرها بسكانها إلا طريق مجاز
حقيقتها أن المقام بغيرها ولكنهم قد أولعوا بمجاز

٨ - وقال السمسير ^٢ :

لله في الدنيا وفي أهلها مغميات قد فككتناها
من بشر نحن فمن طبعنا نحب فيها المال والجها
دعني من الناس ومن قولهم فلانما الناس خلاها ^٣

١ هو عبد الله بن الحسن بن أحمد الأنصاري القرطبي أبو محمد (انظر ترجمته في الذيل والتكملة
٤ : ١٩١ والتكملة : ٨٧٩ وتذكرة الحفاظ : ١٣٩٦ وبرنامج الرعي : ١٤١) والبيتان في
البرنامج والذيل : ٢١٠ .
٢ في الأصول ودوزي : الشمس ؛ وصوبناه .
٣ في ب : الناس أخلاها .

لم تُقْبِلِ الدنيا على ناسكٍ إلا وبالرحبِ تَلَقَّاهَا
ولَئِنَّمَا يُعْرِضُ عَنْ وَصْلِهَا مَنْ صَرَفَتْ عَنْهُ مُحَيَّاهَا

٩ - وقال أبو القاسم ابن بقي :

ألا لَئِنَّمَا الدنيا كَرَّاحٍ عَتِيقَةٍ أَرَادَ مُدِيرُوهَا بِهَا جَلَبَ الْأَنْسِ
فَلَمَّا أَدَارُوهَا أَثَارَتْ حَقُودَهُمْ فَعَادَ الَّذِي رَامُوا مِنَ الْأَنْسِ بِالْعَكْسِ

١٠ - وقال أبو محمد عبد الله بن العسال الطَّلَيْطَلِي^١ :

انظُرِ الدُّنْيَا فَإِنْ أَبَدَ صَرَّتْهَا شَيْئًا يَدُومُ
فَاغْدُ مِنْهَا فِي أَمَانٍ إِنْ يَسَاعِدُكَ النِّعَمُ
وَإِذَا أَبْصَرْتَهَا مِنْذُكَ عَلَى كَرِهٍ تَهِيمُ^٢
فَاسْأَلْ عَنْهَا وَاطَّرَحْهَا وَارْتَحِلْ حَيْثُ تُقِيمُ

١١ - وقال ابن هشام القرطبي :

وَأَبِي الْمَدَامَةِ مَا أُرِيدُ بِشَرْبِهَا صَلَفَ الرَّقِيعِ وَلَا انْهَمَاكَ الْإِلَهِ
لَمْ يَبْقَ مِنْ عَهْدِ الشَّبَابِ وَطِيبِهِ شَيْءٌ كَعَهْدِي لَمْ يَحُلْ إِلَّا هِيَ
إِنْ كُنْتُ أَشْرَبْتُهَا لَغَيْرِ وَفَائِهَا فَتَرَكْتُهَا لِلنَّاسِ لَا لِلَّهِ

١٢ - وقال أبو محمد ابن السيد البطلَيْيُوسِي مما نسبته إليه في « المغرب »^٣ :

أَخُو الْعِلْمِ حَيٌّ خَالِدٌ بَعْدَ مَوْتِهِ وَأَوْصَالُهُ تَحْتَ التَّرَابِ رَمِيمٌ
وَذُو الْجَهْلِ مَيِّتٌ وَهُوَ مَاشٍ عَلَى الثَّرَى يُظَنَّ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَهُوَ عَدِيمٌ

١ انظر ما تقدم ص : ٢٠٨ .

٢ م ق : تقيم .

٣ ليس في ترجمته في المغرب (١ : ٣٨٥) وهما في أزهار الرياض ٣ : ١٠٣ .

١٣ - وقال أبو الفضل ابن شرف^١ :

لعمرك ما حصَلْتُ على خطيرٍ من الدنيا ولا أدركتُ شيئاً
وها أنا خارجٌ منها سليماً أقلبُ نادماً كلتا يديّنا
وأبكي ثم أعلم أن مبكا ي لا يُجدي فأمسحُ مقلتيّنا
ولم أجزعُ لهول الموتِ لكنْ بكيتُ لقلّةِ الباكي علينا
وأنّ الدهرَ لم يعلمْ مكاني ولا عرفتُ بنوهُ ما لدينا
زمانٌ سوف أنشرُ فيه نشراً إذا أنا بالحمام طُويتُ طيّاً
أسرُّ بأنّي سأعيشُ ميتاً به ويسوعي أنْ متُ حيّاً

١٤ - وقال الزاهد العارف بالله سيدي أبو الغيث ابن العريف فنعنا الله تعالى به^٢ :

سلوا عن الشوقِ مَنْ أهوى فإنّهمُ أدنى إلى النفسِ من وهني ومن نفسي
فمنْ رسولي إلى قلبي ليسألهمُ عن مشكلٍ من سؤالِ الصبِّ ملتبسٍ
حلّوا فؤادي فما يَندي، ولو وطنوا صخرأً لحادٍ بماءٍ منه منبجسٍ
وفي الحشا نزلوا والوهمُ يجرّحهمُ فكيف قرّوا على أذكى من القَبَسِ
لأنهضنَّ إلى حشري بحبهمُ لا باركَ الله فيمن خانهمُ ونسي

قلت : وقد زرت قبره المعظم بمراكش سنة عشر وألف ، وهو ممّن

١ راجع أبياته في التكملة : ٨٧٠ .

٢ أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي المشهور بابن العريف ؛ صاحب كتاب « محاسن المجالس » اختار طريقة الزهد والتصوّف ، وصادف ذلك ظهور جماعة من المتصوفة بمدينة شلب وانتشر مذهبهم فيها وفي ليلة ومارتلة ، ثم تفرقوا ووصل رئيسهم إلى المرية وفيها شيخ المتصوفة ابن العريف ، فوجه علي بن يوسف اللمتوني في طلبه وطلب أبي الحكم ابن برجان ، فتوفيا بمراكش سنة ٥٣٧ هـ (أو ٥٣٦) . انظر وفيات الأعيان ١ : ١٥١ وأعمال الأعلام : ٢٤٨ - ٢٤٩ والمغرب ٢ : ٢١١ وبغية الملتبس ص : ١٥٤ والصلة : ٨٤ والمطرب : ٩٠ ومعجم الصديقي : ١٨ والتحف : ١٧ والوافي : ٨ الورقة : ٥٠ وأبياته في المغرب والمطرب .

يُتَبَرَكُ بِهِ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ ، وَيُسْتَسْقَى بِهِ الْغَيْثُ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْمَرْيَةِ ، وَأَحْضَرَهُ
السلطان إلى مراکش فمات بها ، وله كرامات شهيرة ومقامات كبيرة ، نفَعْنَا
الله تعالى به .

١٥ - واعلم أن أهل الأندلس كانوا في القديم^١ على مذهب الأوزاعي ،
وأهل الشام منذ أول الفتح ، ففي دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل -
وهو ثالث الولاة بالأندلس من الأمويين - انتقلت الفتوى إلى رأي مالك بن أنس
وأهل المدينة ، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعاً ، بل والمغرب ،
وذلك برأي الحكم واختياره ، واختلفوا في السبب المقتضي لذلك ، فذهب
الجمهور إلى أن سببه رحلة علماء الأندلس إلى المدينة ، فلمّا رجعوا إلى الأندلس
وصفّوا فضل مالك وسعة علمه ، وجلالة قدره ، فأعظموه كما قدمنا ذلك ،
وقيل : إن الإمام مالكا سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس ،
فوصف له سيرته ، فأعجبت مالكا لكون سيرة بني العباس في ذلك الوقت لم تكن
بمرضية . وكابد لما صنع أبو جعفر المنصور بالعلوية بالمدينة من الحبس والإهانة
وغيرهما على ما هو مشهور في كتب التاريخ ، فقال الإمام مالك رضي الله تعالى
عنه لذلك المخبر : نسأل الله تعالى أن يزين حرمتنا بملككم ، أو كلاماً هذا
معناه ، فنُسِيت المسألة إلى ملك الأندلس ، مع ما علم من جلالة مالك ودينه ،
فحمل الناس على مذهبه ، وترك مذهب الأوزاعي ، والله تعالى أعلم .

١٦ - وحكي أن القاضي الزاهد أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن أبي
يغمور لما نذبه أهل الأمر لولاية القضاء بمدينة فاس استعفى ، فلم يُقبل منه ،
وخرج إلى تلك الناحية ، وخرج الناس لوداعه ، فأنشد :

عليكم سلامُ الله إنّي راحلٌ وعياني من خوفِ التفرقِ تدمعُ

١ في القديم : سقطت من م .

فإن نحنُ عشنا فهوَ يجمعُ بيننا وإن نحنُ متُّنا فالقيامةُ تجمعُ

وأنشد أصحابه رحمه الله تعالى ، ولا أدري هل هي له أو لغيره :

كنّا نعظمُ بالآمالِ قدركمُ حتى انقضتْ فتساوى عندنا الناسُ
لم تفضلونا بشيءٍ غيرِ واحدةٍ هي الرجاء فسوى بيننا اليأسُ

وأنشد أيضاً :

بلوتُهُمُ مذ كنتُ طفلاً فلم أجد كما أشتي منهم صديقاً وصاحباً
فصوّبتُ رأيي في فراري منهم وشمرتُ أذيالي وأمعتُ هارباً

وأنشد لغيره في الكتمان :

أخفى الغرامَ فلا جوارحهُ شرتُ بذلكَ ولا مفاصلهُ
كالسيفِ يصحبه الحِمَامُ ولم يعلمُ بما حمَلتُ حمائلهُ

وأنشد :

قد كنتُ أمرضُ في الشيبةِ دائماً والموتُ ليسَ يمرُّ لي في البالِ
والآنَ شبتُ وصحَّتِي موجودةٌ وأرى كأنَّ الموتَ في أذيالي

ولما أنشده تاج الدين بن حمويه السرخسي الوافدُ على المغرب من المشرق

قول بعضهم :

فلا تحقِّرنَّ عدوّاً رماك وإن كان في ساعديه قِصرُ
فإن السيوفَ تحزُّ الرقابَ وتعجزُ عمّا تنالُ الإبرُ

قال : حسنٌ جيدٌ ، ولكن اسمع ما قال شاعرنا القسطلتي ^١ ، وأنشد :

١ يريد ابن دراج ، والأبيات من قصيدته في مدح المنصور بن أبي عامر (ديوانه : ٢٠٣) .

أثّرني لكشف الخطب والخطبُ مشكلٌ وكِلْتا لِيثِ الغابِ وهو هَصُورٌ
فقد تخفّضُ الأسماءُ وهي سواكنٌ ويعملُ في الفعلِ الصريحِ ضميرٌ
وتنبؤُ الردينيّاتُ ، والطولُ وافرٌ ويبعدُ وقَعُ السهمِ وهو قصيرٌ

١٧ - وكان الوزير الكريم أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري^١ أحد
وزراء الأندلس كثير الصنائع جزل المواهب عظيم المكارم ، على سنن عظماء
الملوك وأخلاق السادة ، لم يُر بعده مثله في رجال الأندلس ، ذا كراً للفقه والحديث ،
بارعاً في الآداب ، شاعراً مجيداً ، وكاتباً بليغاً ، كثير الخدم والأهل ، ومن آثاره
الحمام بجوفي الجامع الأعظم من غرناطة ، وزاد في سقف الجامع من صحنه
وعوّض أرجل قِسيّه أعمدة الرخام ، وجلب الرؤوس والموائد من قرطبة ،
وفرش صحنه بكذبان الصخر . ووجهه أميره علي بن يوسف بن تاشفين إلى
طرطوشة برسم بنائها ، فلما حلّها سأل قاضيها فكتب له جملة من أهلها ممّن
ضعفت حاله وقلّ تصرفه من ذوي البيوتات ، فاستعملهم أمناء ، ووسّع
أرزاقهم ، حتى كمل له ما أراد من عمله ، ومن عجز أن يستعمله وصله من
ماله ، فصدر عنها وقد أنعش خلقاً ، رضي الله تعالى عنه ورحمه .
ومن شعره في مجلس أطربه سماعه ، وبسط احتشاد الأنس فيه واجتماعه ،
فقال^٢ :

لا تلمني إذا طربتُ لشجوي يبعثُ الأنسَ فالكريم طرُوبُ
ليس شتّى الجيوب حقّاً علينا إنّما الحقُّ أنْ تُشقَّ القلوبُ

وقطف غلام من غلمانهِ نَوّارة ومَدَّ بها يده إلى أبي نصر الفتح بن عبيد الله ،
فقال أبو نصر :

١ ترجمته في القلائد : ١٧٠ .

٢ القلائد : ١٧٠ ؛ والنقل عنه حتى قوله « من النوى » .

وَبَدْرٍ بَدَا وَالطَّرْفُ مَطْلَعُ حُسْنِهِ . وفي كَفِّهِ مِنْ رَائِقِ النَّوْرِ كَوْكَبُ
فَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ مَالِكٍ ^١ :

يُرَوِّحُ لَتَعْدِيبِ النُّفُوسِ وَيَغْتَنِي وَيَطْلُعُ فِي أَفْقِ الْجَمَالِ وَيَغْرُبُ
وَيَحْسُدُ مِنْهُ الْغَصْنُ أَيَّ مَهْفَهفٍ يَجِيءُ عَلَى مِثْلِ الْكُثِيبِ وَيَذْهَبُ
وَقَدْ سَبَقَ هَذَا .

وكتب إلى الفتح من غير تروٍّ : يا سيدي ، جرت الأيام بفراقك ، وكان الله
جارك في انطلاقك ^٢ ، فغيرك رَوَّعَ بِالظَّعَنِ ، وأوقد للوداع جاحمَ الشَّجَنِ ،
فإنَّكَ من أبناء هذا الزمن ، خليفة الخضر لا يستقرُّ على وطن ، كأنَّكَ - واللهُ
يختار لك ما تأتيه وما تدعه - موكل بفضاء الأرض تذرعه ^٣ ، فحسب من نوى
بعشرتكَ الاستمتاع ، أن يعدَّكَ من العَوَّاري السريعة الارتجاع ، فلا يأسف على
قلَّةِ السَّوَا ، وينشد :

وفارقتُ حتى ما أبالي من النَّوَى ^٤

ومات رحمه الله تعالى بغرناطة سنة ٥١٨ ، وحضر جنازته الخاصَّة والعامة ،
وهو من محاسن الأندلس ، رحمه الله تعالى .

١٨ - ومن نواذر الاتفاق ^٥ أن جارية مَشَّتْ بين يدي المعتمد ، وعليها
قميص لا تكاد تفرق بينه وبين جسمها ، وذوائبُها تخفي آثار مشيها ، فسكب

١ البيت الأول من هذين ورد منسوباً للفتح نفسه في أصول النفع .

٢ من قول البحري :

الله جارك في انطلاقك تلقاء شامك أو عراقك

٣ عجز بيت لابن زريق البغدادي ، وصدره : كأنما هو في حل ومرتل .

٤ ق م : من الهوى .

٥ انظر هذه القصة في بدائع البدائع ١ : ١٠٦ .

عليها ماء ورد كان بين يديه ، وقال :

عُلِّقَتْ جَائِلَةُ الْوِشَاحِ غَرِيرَةً تَخْتَالُ بَيْنَ أَسْنَةِ وَبَوَاتِرِ

وقال لبعض الخدم : سر إلى أبي الوليد البَطْلَيْوْسِي المشهور بالنحلي
وخذه بإجازة هذا البيت ، ولا تفارقه حتى يفرغ منه ، فأجاب النحلي لأول
وقوع الرقعة بين يديه :

رَاقَتْ مُحَاسِنُهَا وَرَقَّ أَدِيمُهَا فَتَكَادُ تَبْصُرُ بَاطِنًا مِنْ ظَاهِرِ
وَتَمَاطِلُ كَالْغَصَنِ فِي دَعْصِ النَّقَا تَلْتَفُّ فِي وَرَقِ الشَّبَابِ النَّاصِرِ
يَنْدَى بِمَاءِ الْوَرْدِ مُسْبِلُ شَعْرِهَا كَالطَّلِّ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِ الطَّائِرِ
تُزْهِى بِرَوْنَقِهَا وَعَزَّ جَمَالُهَا زَهْوُ الْمُؤَيَّدِ بِالثَّنَاءِ الْعَاطِرِ
مَلِكٌ تَضَاءَلَتِ الْمُلُوكُ لِقَدْرِهِ وَعَنَّا لَهُ صَرْفُ الزَّمَانِ الْجَائِرِ
وَإِذَا لَمَحْتَ جَبِينَهُ وَبِمِينِهِ أَبْصَرْتَ بَدْرًا فَوْقَ بَحْرِ زَاخِرِ

فلما قرأها المعتمد استحضره ، وقال له : أحسنت ، أو معنا كنت ؟ فقال
له : يا قَاتِلَ الْمَحَلِّ ، أما تَلُوتٌ ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ (النحل : ٦٨) .
وأصبح المعتمد يوماً ثَمِيلًا فدخل الحمام ، وأمر أن يدخل النحلي معه ،
فجاء وقعد في مسيح^١ الحمام حتى يستأذن عليه ، فجعل المعتمد يحق في الحمام
وهو خالٍ وقد بقيت في رأسه بقية من السكر ، وجعل كلما سمع دوي ذلك
الصوت يقول : الجوز ، اللوز ، القسطل ، ومر على هذا ساعة ، إلى أن تذكر
النحلي ، فصادفه^٢ ، فلما دخل قال له : من أي وقت أنت هنا ؟ قال : من أول
ما رتب مولانا الفواكه في النصبه ، فغشي عليه من الضحك ، وأمر له بإحسان .
والنصبه : مائدة يصبون فيها هذه الأصناف .

١ ق : مسلخ .

٢ ق م : فصادمه .

ولمّا استحسن المعتمد قول المتنبي ^١ :

إذا ظفرت منك المطيُّ بنظرة أثاب بها معني المطيِّ ورأزمه

قال ابن وهبون بديهة : « وقالوا أجاد ابن الحسين . . . إلخ البيتين » ، وقد تقدم ذكرهما ، فأمر له بمائتي دينار .

ولمّا قال ابن وهبون المذكور :

غاض الوفاء فما تلقاه في رجُلٍ ولا يمرُّ لمخلوقٍ على بالٍ
قد صار عندهمُ عنقاءٌ مغربةٌ أو مثل ما حدّثوا عن ألفٍ مثقالٍ

قال له المعتمد : عنقاء مغربة وألف مثقال يا عبد الجليل عندك سواء ؟ فقال : نعم ، قال : قد أمرنا لك بألف دينار وبألف دينار أخرى تنفقها .

١٩ - وذكر القرطبي صاحب « التذكرة » في كتابه « قمع الحرص بالزهد والقناعة » ، ما صورته : روي أن الإمام أبا عمر ابن عبد البر رضي الله تعالى عنه بلغه وهو بشاطبة أن أقواماً عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه ، فقال :

قل لمن ينكرُ أكلي لطعام الأمراء
أنت من جهلك هذا في محل السفهاء

لأن الاقتداء بالصالحين ، من الصحابة والتابعين ، وأئمة الفتوى من المسلمين ، من السلف الماضين ، هو مِلاك الدين ، فقد كان زيد بن ثابت - وكان من الراسخين في العلم - يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد ، وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما - مع ورعه وفصله - يقبل هدايا صهره المختار بن أبي عبيد ، ويأكل

١ انظر ما تقدم ص : ١٩٤ .

طعامه ، ويقبل جوائزه ، وقال عبد الله بن مسعود - وكان قد مُلئ علماً - لرجل سأله ، فقال : إن لي جاراً يعمل بالربا ، ولا يجتنب في مكسبه الحرام ، يدعوني إلى طعامه ، أفأجيبه ؟ قال : نعم ، لك المهنأ وعليه المأثم ، ما لم تعلم الشيء بعينه حراماً ، وقال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه - حين سئل عن جوائز السلاطين - : لحم ظبي ذكي ، وكان الشعبي - وهو من كبار التابعين وعلمائهم - يؤدب بني عبد الملك بن مروان ، ويقبل جوائزه ويأكل طعامه ، وكان إبراهيم النخعي وسائر علماء الكوفة والحسن البصري - مع زهده وورعه - وسائر علماء البصرة وأبو سلمة ابن عبد الرحمن وأبان بن عثمان والفقهاء السبعة بالمدينة - حاشا سعيد بن المسيب - يقبلون جوائز السلطان ، وكان ابن شهاب يقبلها ، ويتقلب في جوائزهم ، وكانت أكثر كسبه ، وكذلك أبو الزناد ، وكان مالك وأبو يوسف والشافعي وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء ، وكان سفيان الثوري - مع ورعه وفضله - يقول : جوائز السلطان أحبُّ إليَّ من صلة الإخوان ، لأن الإخوان يَمُنُّون والسلطان لا يَمُنُّ ، ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير ، وقد جمع الناس فيه أبواباً ، ولأحمد بن خالد فقيه الأندلس وعالمها في ذلك كتاب حمله على وضعه وجمعه طعن أهل بلده عليه في قبوله جوائز عبد الرحمن الناصر ، إذ نقله إلى المدينة بقرطبة ، وأسكنه داراً من دور الجامع قربه ، وأجرى عليه الرزق من الطعام والإدام والناض ، وله ولثله في بيت المال حظ ، والمستول عن التخليط فيه هو السلطان ، كما قال عبد الله بن مسعود « لك المهنأ وعليه المأثم ، ما لم تعلم الشيء بعينه حراماً » ، ومعنى قول ابن مسعود هذا قد أجمع العلماء عليه ، فمن علم الشيء بعينه حراماً مأخوذاً من غير حلّه كالجريمة وغيرها وشبهها من الطعام أو الدابة وما كان مثل ذلك كله من الأشياء المتعيّنة غضباً أو سرقة أو مأخوذة بظلم يبيّن لا شبهة فيه فهذا الذي لم يختلف أحد في تحريمه ، وسقوط عدالة آكله ، وأخذِهِ وتملكه ، وما أعلم من علماء التابعين أحداً تورّع عن جوائز السلطان ، إلا سعيد بن المسيب بالمدينة ، ومحمد بن

سيرين بالبصرة ، وهما قد ذهبا مثلاً في التورع ، وسلك سبيلهما في ذلك أحمد ابن حنبل وأهل الزهد والورع والتقشف ، رحمة الله تعالى عليهم أجمعين .
والزهد في الدنيا من أفضل الفضائل ، ولا يحلُّ لمن وفقه الله تعالى وزهدَ فيها أن يحرِّم ما أباح الله تعالى منها ، والعجب من أهل زماننا يعيبون الشبهات ، وهم يستحلون المحرِّمات ، ومثالهم عندي كالذين سألوا عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن المحرِّم يقتل القرَّاد والحلمة ، فقال للسائلين له : من أنتم ؟ فقالوا : من أهل الكوفة ، فقال : تسألوني عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما ؟ وروى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أتاك من غير مسألة فكله وتموِّله » ، وروى هذا الحديث أيضاً عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما « ما أتاك من غير مسألة فكله وتموِّله » ، وروى أبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم معناه ، وفي حديث أحدهما « إنَّما هو رزق رزقكَّه الله تعالى » ، وفي لفظ بعض الرواة « ولا تردَّ على الله رزقه » ، وهذا كله مركب مبني على ما أجمعوا عليه ، وهو الحق ، فمن عرف الشيء المحرِّم بعينه فإنَّه لا يحلُّ له ، فهذه المسألة من كلام ابن عبد البر ، انتهى .

٢٠ - وحضر ابنُ مجبر مع عدوِّ له جاحد لمعروفه ، وأمامهما زجاجة سوداء فيها خمر ، فقال له الحسود : إن كنت شاعراً فقل في هذه ، فقال ارتجالاً : « سأشكو إلى الندمان » ، إلى آخر الحكاية ، وقد تقدمت في رسالة الشقندي رحمه الله تعالى .

[ترجمة ابن مجبر وشعره]

وابن مجبر هو أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر النهري ،

كان في وقته شاعر المغرب ، ويشهد له بقوة عارضته وسلامة طبعه قصائده التي صارت مثلاً ، وبعدت على قربها مثلاً ، وشعره كثير يشتمل على أكثر من تسعة آلاف وأربعمائة بيت ، واتصل بالأمير أبي عبد الله ابن سعد بن مردنيش ، وله فيه أمداح ، وأنشد يوسف بن عبد المؤمن يهنيه بفتح :

إنَّ خيرَ الفتوح ما جاء عَفْوَاً مثل ما يخطبُ الخطيبُ ارتجالاً

وكان أبو العباس الجراوي حاضراً ، فقطع عليه لحسادةٍ وجدها ، وقال :
يا سيدنا اهتدم بيت وضاح :

خيرُ شرابٍ ما كان عَفْوَاً كأنه خطبةُ ارتجالٍ

فبدر^١ المنصور ، وهو حينئذ وزير أبيه وسنه قريب العشرين ، وقال :
إن كان اهتدمه فقد استحقه لنقله إياه من معنى خسيس إلى معنى شريف ،
فسرّ أبوه بجوابه ، وعجب الحاضرون .

ومرّ المنصور أيام إمرته بأوينة^٢ من أرض شلب ، فوقف على قبر الحافظ أبي محمد ابن حزم ، وقال : عجيباً لهذا الموضع ، يخرج منه مثل هذا العالم ،
ثم قال : كل العلماء عيال على ابن حزم ، ثم رفع رأسه وقال : كما أن الشعراء عيال عليك يا أبا بكر ، يخاطب ابن مجبر .

ومن شعر ابن مجبر يصف خيل المنصور من قصيدة في مدحه :

له حَلَبَةٌ الحَلِيلِ العِتَاقِ كأنها نشاوى تهاوتَ تطلُبُ العزْفَ والقصفا
عرائسُ أغنتها الحَجُولُ عن الحلي فلم تَبْغِ خِلخالاً ولا التمسَتْ وقفا
فمِنْ يَقْقِ كالطُّرسِ تحسبُ أنه وإن جردوهُ في مُلاءته التفتا

١ م : فنطق .

٢ ق : بأوقية ؛ ب : بأوقية .

وأبلى أعطى الليل نصف إهابه
وورد تغشى جلده شفق الدجى
وأشقر مجّ الراح صرفاً أديمه
وأشهب فضي الأديم مدّثر
كما خطّط الزاهي بمهرق كاتب
نهب على الأعداء منها عواصف
ترى كل طرف كالغزال فتمتري
وقد كان في البيداء يالف سربه
تناوله لفظ الجواد لأنّه
وغار عليه الصبح فاحتبس النصف
فإذ حازه دلى له الذيل والعرفا
وأصفر لم يمسح بها جلده صرفا
عليه خطوط غير مفهمة حرفا
فجرّ عليه ذيله وهو ما جفا
ستنسف أرض المشركين بها نسفا
أظنيا ترى تحت العجاجة أم طرفا
فربّته مهراً وهي تحسبه خشنا
إذا ما أردت الجري أعطاكه ضعفا

ولما اتخذ المنصور مقصورة الجامع بمراكش بدار ملكها ، وكانت مدبرة
على انتصابها إذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاّه ، واختفائها إذا انفصلوا
عنها ، أنشد في ذلك الشعراء فقال ابن مجبر من قصيدة أولها :

أعلمني ألقي عصا التسيار في بلدة ليست بدار قرار

إلى أن قال ٢ :

طورا تكون بمن حوته محيطة
وتكون حيناً عنهم مخبوءة
وكأنها علمت مقادير الورى
فإذا أحست بالإمام يزورها
يلو فتبدو ثم تخفى بعده
فكأنها سور من الأسوار
فكأنها سر من الأسرار
فتصرف لهم على مقدار
في قومه قامت إلى الزوار
كتكون الحالات للأقمار

١ ق ب : عل .

٢ وردت هذه الأبيات في الحلل الموشية : ١٢٠ .

وممن روى عنه أبو علي الشلوبين وطبقته ، وتوفي بمراكش سنة ٥٨٨ ، وعمره ٥٣ سنة ، رحمه الله تعالى .

وقد حكى الشريف الغرناطي شارحُ المقصورة هذه الحكاية بآتم مما ذكرناه ، فقال عن الكاتب ابن عياش كاتب يعقوب المنصور الموحدي ، قال^١ : كانت لأبي بكر ابن مجبر وفادةٌ على المنصور في كل سنة ، فصادف في إحدى وفاداته فراغه من إحداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعه المتصل بقصره في حضرة^٢ مراكش ، وكانت قد وُضعت على حركات هندسية تُرفع بها لخروجه وتخفّض لدخوله ، وكان جميعُ من بباب المنصور يومئذ من الشعراء والأدباء قد نظموا أشعاراً أنشدوه إياها في ذلك ، فلم يزدوا على شكره ، وتجزّيته الخيرَ فيما جدّد من معالم الدين وآثاره ، ولم يكن فيهم من تصدّى لوصف الحال ، حتى قام أبو بكر ابن مجبر فأنشد قصيدته التي أولها « أعلمني ألقى عصا التسيار » واستمر فيها حتى ألمّ بذكر المقصورة فقال يصفها « طوراً تكون - إلخ » فطرب المنصور لسماعها ، وارتاح لاختراعها ، انتهى .

وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن ، وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف ، والله تعالى وارثُ الأرض ومنّ عليها .
ومن نظم ابن مجبر أيضاً ما كتب به إلى السلطان ملك المغرب ، رحمه الله تعالى ، وقد ولد له ابن ، أعني لابن مجبر :

وُلِدَ الْعَبْدُ الَّذِي إِنْعَامُكُمْ طِينَةٌ أَنْشَى مِنْهَا جَسَدُهُ
وَهُوَ دُونَ اسْمٍ لِعَلَمِي أَنَّهُ لَا يُسَمِّي الْعَبْدَ إِلَّا سَيِّدُهُ
وقوله :

مَلِكُ ثُرُوكَ مِنْهُ شَيْمَةٌ أَنْسَتِ الظَّمَانَ زُرْقَ النَّطْفِ

١ انظر شرح المقصورة ١ : ٧١ .

٢ م : مدينة .

جمعتُ من كلِّ مجدٍ فحكْتُ لفظةٌ قد جمعتُ من أحرفِ
يعجبُ السامعُ من وصفي لها ووراء العجزِ ما لم أصِفِ
لو أعار السهمَ ما في رأيه من سدّاد وهُدَى لم يَصِفِ
حلمهُ الراجحُ ميزانُ الهدى يزنُ الأشياءَ وزنَ المنصفِ

٢١ - وقال ابن خفاجة ^١ :

صحَّ الهوى منكَ ولكنني أعجبُ من بينٍ لنا يُقدَرُ
كأننا في فلكٍ دائرٍ فأنتَ تخفى وأنا أظهرُ

وهما الغاية في معناهما ، كما قاله ابن ظافر ، رحمه الله تعالى .

٢٢ - وقال الأعمى التُّطيلي ^٢ :

أما اشتفتُ منِّي الأيامُ في وطني حتى تُضايقَ فيما عزَّ من وطري
فلا قصّتُ من سوادِ العينِ حاجتها حتى تكرَّ على ما طلَّ في الشعْرِ

٢٣ - وقال القاضي أبو حفص ابن عمر القرطبي ^٣ :

همُ نظروا لواحظَها فهاموا وتشربُ لبَّ شاربها المدامُ
يخافُ الناسُ مقتلَها سواها أيذُ عرُّ قلبَ حامله الحُسامُ
سما طرفي إليها وهو باك وتحت الشمسِ ينسكبُ الغمامُ
وأذكرُ قدَّها فأنوحُ وجداً على الأغصانِ تنتدبُ الحمامُ
فأعقبَ بينَها في الصدرِ غمماً إذا غرَبَت ذُكاءُ أتى الظلامُ

٢٤ - وقال الحاجب عبد الكريم بن مغيث ^٤ :

١ ليسا في ديوان ابن خفاجة .

٢ انظر ما سبق ص : ٢٠٧ ؛ وديوان الأعمى : ٤٩ .

٣ انظر ما سبق ص : ٢٠٩ .

٤ عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث كان حاجباً للحكم الرضي ، وكان بليفاً شاعراً مفوهاً (انظر =

طارَتْ بنا الخيلُ ومن فوقها شُهْبُ بُزاةٍ لِحِمَامِ الحِمَامِ
كأنَّما الأيْندي قسيٌّ لها والطيرُ أهدافٌ وهُنَّ السهامُ

٢٥ - وقال أخوه أحمد :

اشْرَبْ على البستانِ من كَفَ مَنْ يسقيكَ مِنْ فِيهِ وأحداقِهِ
وانظر إلى الأيكةِ في بُردِهِ ولاحِظِ البدرَ بأطواقِهِ
وقَدْ بدا السَّروُ على نهرِهِ كخائضٍ شَمَرَ عَنْ ساقِهِ

٢٦ - وقال أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله ابن أمية البَلَنْسِي :

إذا كان ودِّي وهو أنفَسُ قُريَةٍ يُجَازِي ببغضٍ فالقطيعةُ أحزَمُ
ومن أضيعِ الأشياءِ ودٌّ صرفتَهُ إلى غير من تحظى لديه وتكرمُ

[حكايات في البديهة والارتجال]

٢٧ - ومن حكايات أهل الأندلس^١ في خلع العذار والطرب والظرف وغير ذلك كسرعة الارتجال ما حكاها صاحب « بدائع البدائنه »^٢ قال : أخبرني مَنْ أثق به بما هذا معناه ، قال : خرج الوزير أبو بكر ابن عمَّار والوزير أبو الوليد ابن زَيْدُون ومعهما الوزير ابن خلدون من إشبيلية إلى منظره لبني عباد بموضع يقال له الفَنْت^٣ تحفُّ بها مَرْوَجٌ مشرقة الأنوار ، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متبسمة عن ثغور النُّوَّار ، في زمان ربيع سقت الأرض السُّحْبُ فيه

= الحلة ١ : ١٣٥ - ١٣٦) وكان له أخ اسمه عبد الملك تولى سرقسطة ، ولم يذكر ابن الأبار أخاه أحمد .

١ هنا يأخذ المقرئ بالنقل عن بدائع البدائنه لابن ظافر الأزدي أكثر حكايات هذا الباب .

٢ بدائع البدائنه ١ : ٢١٤ .

٣ في الأصول : القنت ؛ والبدائع : الغيث .

بوسميتها ووليها ، وجلتها في زاهر ملبسها وباهر حليتها ، وأرداف الرثي
قد تأزرت بالأزر الخضر من نباتها ، وأجياذ الجداول قد نظم الثوار قلائده
حول لباتها ، ومجامر الزهر تعطر أردية النسائم عند هباتها ، وهناك من البهار
ما يزرري على مدهن النضار ، ومن الرجس الريان ما يهزأ بنواعس الأجفان ،
وقد نوا الانفراد للهو والطرب ، والتتزه في روضي النبات والأدب ، وبعثوا
صاحباً لهم يسمى خليفة هو قوام لذتهم ، ونظام مسرتهم ، ليأتيهم بنبيذ
يذهبونهم بذهبه في لجين زجاجه ، ويرمونه منه بما يقضي بتحريكه للهرب
عن القلوب وإزعاجه ، وجلسوا لانتظاره ، وترقب عوده على آثاره ، فلما
بصروا به مقبلاً من أول الفج بادروا إلى لقائه ، وسارعوا إلى نحوه وتلقائه ،
واتفق أن فارساً من الجند ركض فرسه فصدمه ووطىء عليه فهشم أعظمه وأجرى
دمه ، وكسر قمعل^٢ النبيذ الذي كان معه ، وفرق من شملهم ما كان الدهر
قد جمعه ، ومضى على غلوائه راكضاً حتى خفي عن العين ، خائفاً من
متعلق به يحين بتعلقه الحين ، وحين وصل الوزراء إليه ، تأسفوا عليه ،
وأفاضوا في ذكر الزمان وعدوانه ، والخطب وألوانه ، ودخوله بطوام
المضرات ، على تمام المسرات ، وتكديره الأوقات المنعمات ، بالآفات المؤلمات ،
فقال ابن زيدون :

أتلهو والحتوف بنا مطيفة^١ ونأمن والمنون لنا مخيفة^٢

فقال ابن خلدون :

وفي يومٍ وما أدراك يومٍ مضى قمعلنا ومضى خليفة^٣

١ البدائع : بمدهن .

٢ القمعل : القدح الضخم .

فقال ابن عمار :

هما فَخَّارَتَا راحٍ وروحٍ تَكْسِرَتَا فَأَشْقَفْتُ^١ وجيفه

انتهى .

٢٨ - وذكر ابن بسام ما معناه^٢ أن أبا عامر ابن شهيد حضر ليلة عند الحاجب أبي عامر المظفر بن المنصور بن أبي عامر بقرطبة ، فقامت تسقيهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق^٣ ، ولم تزل تسهر في خدمتهم إلى أن همَّ جند الليل بالانهزام ، وأخذ في تقويض خيام الظلام ، وكانت تسمى أسيماء ، فعجب الحاضرون من مكابذتها السهر طول ليلتها^٤ على صغر سنها ، فسأله المظفر وصفها ، فصنع ارتجالاً :

أفدي أسيماء من نديمٍ ملازمٍ للكؤوسِ راتبٍ
قد عجبوا في السُّهادِ منها وهي لعمرى من العجائب
قالوا : تجافى الرقادُ عنها فقلت : لا ترقُدُ الكواكب

٢٩ - وحكى ابن بسام^٥ ما معناه أن ابن شهيد المذكور كان يوماً مع جماعة من الأدباء عند القاضي ابن ذكوان ، فجيء بباكورة باقلاً ، فقال ابن ذكوان : لا ينفرد بها إلا من وصفها ، فقال ابن شهيد : أنا لها ، وارتجل :

إنَّ لآلِيكَ أَحَدَتَتْ صَلَفًا فاتخذت من زُمُرْدٍ صدفا
تسكنُ ضَرَّاءَ بُحُورٍ وذِي تسكن للحسنِ روضةً أنفا
هامتُ بِلِحْفِ الجبالِ فاتخذتُ من سندسٍ في جناها لحفا

١ البدائع : فشقفات .

٢ بدائع البدائه ٢ : ٣٢ .

٣ البدائع : وصيفة صغيرة ظريفة الخلق .

٤ البدائع : ليلها .

٥ بدائع البدائه ٢ : ٣٣ ؛ وانظر الذخيرة ١/٤ : ٢٨ .

شَبَّهْتُهَا بِالْثَغُورِ مِنْ لُطْفٍ حَسْبُكَ هَذَا مِنْ بَرٍّ مِنْ لُطْفَا
جَازَ ابْنُ ذَكْوَانَ فِي مَكَارِمِهِ حَدُودَ كَعْبٍ وَمَا بِهِ وَصِيفَا
قَدَّمَ دُرَّ الرِّيَاضِ مُمْتَحِبًا مِنْهُ لِأَفْرَاسٍ مَدَحَهُ عُلْفَا
أَكَلَ ظَرِيفٌ وَطَعَمَ ذِي أَدَبٍ وَالْفُؤْلُ يَهْوَاهُ كُلُّ مَنْ ظَرُفَا
رَخَّصَ فِيهِ شَيْخٌ لَهُ قَدْرٌ فَكَانَ حَسْبِي مِنَ الْمَنَى وَكَفَى

٣٠ - وقال ابن بسام^٢ : إن جماعة من أصحاب ابن شهيد المذكور قالوا له : يا أبا عامر ، إنك لآتٍ بالعجائب ، وجاذب بدوائب الغرائب ، ولكنك شديد الإعجاب بما يأتي منك ، هازئ لعطفك عند النادر يُتاح لك ، ونحن نريد منك أن تصف لنا مجلسنا هذا ، وكان الذي طلبوه منه زبدة التعنيت ، لأن المعنى إذا كان جلفاً ثقيلاً على النفس ، قبيح الصورة عند الحس ، ككَلَّتِ الفكرة عنه وإن كانت ماضية ، وأساءت القريحة في وصفه وإن كانت محسنة ، وكان في المجلس بابٌ مخلوع معترض على الأرض ولبد أحمر مبسوط قد صفت خفافهم^٣ عند حاشيته ، فقال مسرعاً :

وَفَتِيَّةٌ كَالنَّجُومِ حُسْنًا كُلَّهُمْ شَاعِرٌ نَبِيلٌ
مُتَّقِدُ الْجَانِبِينَ مَاضٍ كَأَنَّهُ الصَّارِمُ الصَّقِيلُ
رَامُوا انْصِرَافِي عَنِ الْمَعَالِي وَالْغَرْبُ مِنْ دُونِهَا كَلِيلٌ
فَاشْتَدَّ فِي إِثْرِهَا فَسِيحٌ كُلُّ كَثِيرٍ لَهُ قَلِيلٌ
فِي مَجْلَسٍ زَانَهُ التَّصَابِي وَطَارَدَتْ وَصْفَهُ الْعُقُولُ

١ دوزي : رُفْد .

٢ بدائع البدائع ٢ : ٣٣ ؛ وانظر الذخيرة ١/٤ : ٢٧ .

٣ ب : قد رصت ؛ البدائع : نعالهم .

٤ في الأصول : قليل ، والتصويب عن البدائع والذخيرة ؛ وفي الأصول أيضاً : عن دونها .

٥ في الأصول : فالشد في أمرها .

كَأْتَمَا بِبَابِهِ أُسِيرُ قَدْ عَرَضْتُ ١ دُونَهُ نُصُولُ
 يَرَادُ مِنْهُ الْمَقَالُ قَسْرًا وَهُوَ عَلَى ذَاكَ لَا يَقُولُ
 نَنْظُرُ مِنْ لِبْدِهِ لَدَيْنَا بِحَرٍّ دَمٍ تَحْتُنَا يَسِيلُ
 كَانَ أَخْفَافَنَا عَلَيْهِ مَرَاكِبُ مَا لَهَا دَلِيلُ
 ضَلَّتْ فَلَمْ تَدْرِ أَيْنَ تَجْرِي فَهَلْ عَلَى شَطِّهِ تَقِيلُ

فَعَجِبَ الْقَوْمُ مِنْ أَمْرِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ فَمَرَّ عَلَى بَعْضِ مَعَارِفِهِ مِنَ
 الطَّرَافِيِّينَ وَبَيْنَ يَدَيْهِ زَنْبِيلٌ مَلَّانَ حَرَشْفًا ٢ ، فَجَعَلَ يَدُهُ فِي الْجَامِ بِغَلْتِهِ ، وَقَالَ :
 لَا أَتْرُكَكَ أَوْ تَصِفَ الْحَرَشْفَ ، فَقَدْ وَصَفَهُ صَاعِدٌ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ
 شَهِيدٍ : وَيْحَكَ ! أَعْلَى مِثْلَ هَذِهِ الْحَالِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَارْتَجَلَ ٣ :

هَلْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ يَا خَلِيلِي قَنَافِذَا تُبَاعُ فِي زَنْبِيلِ
 مِنْ حَرَشَفٍ مُعْتَمِدٍ جَلِيلِ ذِي إِبْرَةٍ تَنْفُذُ جِلْدَ الْفِيلِ
 كَأَنَّهَا أَنْيَابُ بَنَاتِ الْغُولِ لَوْ نَخَسَتْ فِي أَسْتِ أَمْرِي ثَقِيلِ
 لَقَفَزَتْهُ نَحْوَ أَرْضِ النَّيْلِ لَيْسَ يَرَى طِيَّ حَشَا مِنْدِيلِ
 نَقْلُ السَّخِيفِ الْمَائِنِ الْجُهُولِ وَأَكْلُ قَوْمٍ نَازِحِي الْعُقُولِ
 أَقْسَمْتُ لَا أَطْعِمُهَا أَكِيلِي وَلَا طَعَمْتُهَا عَلَى شَمُولِ
 انتهى .

٣١ - وَقَالَ فِي « بَدَائِعِ الْبَدَائِهِ » ٤ : دَخَلَ الْوَزِيرُ أَبُو الْعَلَاءِ زُهْرُ بْنُ
 الْوَزِيرِ أَبِي مَرْوَانَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ زُهْرٍ عَلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ رَزِينَ فِي مَجْلَسِ
 أَنْسَ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ سَاقٌ يَسْقِي خَمْرِينَ مِنْ كَأْسِهِ وَلِحْظُهُ ، وَيَبْدِي دُرِينَ مِنْ حَبَابِهِ

١ ب : عارضت .

٢ ب : زنبيل حرشف .

٣ الذخيرة ١/٤ : ٢٨ .

٤ ب ودوزي : نبت .

٥ بدائع البدائه ٢ : ٤٢ .

ولفظه ، وقد بدا خَطُّ عِذاره في صحيفة خَدَّه ، وكل حسنه باجتماع الضدّ
منه مع ضده ، فكأنّه بسحر لحظه أبدى ليلاً في شمس ، وجعل يومه في الحسن
أحسن من أمس ، فسأله ابنُ رزين أن يصنع فيه ، فقال بديهاً :

تضاعف وجدي إذ تبدّى عِذارُهُ ونمَّ فخانَ القلبِ منّي اصطبارُهُ
وقد كان ظنّي أن سيمحقُ ليلُهُ بدائعَ حسنٍ هامَ فيها نهاره
فأظهر ضدُّ ضدهُ فيه إذ وَشَتْ بعنبره في صفحة الخدّ ناره
واستزاده ، فقال بديهاً :

مُحِبِّتُ آيةُ النهارِ فأضحى بَدَرَ تيمٍّ وكان شمسَ نهارِ
كان يُعْثِي العيونَ نوراً إلى أن شَغَلَ اللهُ خَدَّهُ بِالْعِذارِ
وصنع أيضاً :

عِذارُ أَلَمٍ فأبْدَى لَنَا بدائعَ كُنّا لها في عَمَى
ولو لم يَجَنَّ النهارُ الظلا مٌ لم يستبِنْ كوكبٌ في السما
وصنع أيضاً :

تَمَّتْ محاسنُ وجهه وتكاملتْ لما استدار به عِذارُ مَوْنِقُ
وكذلك البدرُ المنيرُ جمالهُ في أن يكتفّه سماءُ أَزْرَقُ
انتهى .

٣٢ - وحكى الحميدي^١ وغيره أن عبد الله بن عاصم صاحب الشرطة بقرطبة
كان أديباً شاعراً سريع البديهة ، كثير النوادر ، وهو من جلساء الأمير محمد بن
عبد الرحمن الأموي ملك الأندلس ، وحكوا أنّه دخل عليه في يوم ذي غَيْمٍ ،

١ الخذوة : ٢٤٥ ؛ وبدائع البداهة ٢ : ٨٦ .

وبين يديه غلام حسن المحاسن ، جميل الزي ، لَيِّنُ الأخلاق ، فقال الأمير :
يا ابن عاصم ما يصلح في يومنا هذا ؟ فقال : عُقَار تنفّر الذبّان^١ ، وتؤنس
الغزّلان ، وحديث كقطع الروض قد سقطت فيه مؤونة التّحفّظ ، وأرخي
له عِنَانُ التّبسُّط ، يديرها هذا الأغيد المليح ، فاستضحك الأمير ، ثم أمر
بمراتب الغناء ، وآلات الصّهباء ، فلمّا دارت الكأس ، واستمطر الأمير
نواده^٢ ، أشار إلى الغلام أن يُلحَّ في سقّيه ، ويؤكد عليه ، فلمّا أكثر رفع
رأسه إليه وقال على البديهة :

يا حَسَنَ الْوَجْهِ لَا تَكُنْ صَلِفًا ما لِحسانِ الْوُجُوهِ وَالصَّلَفِ
تُحَسِّنُ أَنْ تُحَسِّنَ الْقَبِيحَ وَلَا ترثي لَصَبٍّ مَتِيْمٍ دَتِفِ

فاستبدع الأمير بديهته ، وأمر له ببدره ، ويقال : إنّه خيره بينها وبين
الوصيف ، فاخترها نفياً للظنّة عنه^٣ ، انتهى .

[استطراد حول ابن ظافر]

قلتُ أذكرتني هذه الحكاية ما حكاها علي بن ظافر عن نفسه إذ قال^٤ :
كنت عند المولى الملك الأشرف بن العادل بن أيّوب سنة ٦٠٣ بالرها ، وقد وردتُ
إليه في رسالة ، فجعلني بين سمعه وبصره ، وأنزلني في بعض دوره بالقلعة بحيث
يقرب عليه حضوري في وقت طلبتي أو لإرادة الحديث معي ، فلم أشعر في بعض
الليالي وأنا نائم في فراشي إلّا به ، وهو قائم على رأسي ، والسكر قد غلب عليه ،
والشمع تزهّر حوّاليه^٥ ، وقد حف مماليكه به ، وكأنتهم الأقمار الزواهر ، في

١ في أصول النفع : تنفد الدنان .

٢ ب : نواره .

٣ ويقال . . . عنه : سقطت هذه العبارة من ب .

٤ بدائع البدائه ٢ : ٦١ .

٥ البدائع : والشموع تزهّر بين يديه .

ملابس كالرياض ذات الأزاهر ، فقامت مُروَّعاً ، فأمسكني وبادر بالجلوس إلى جانبي بحيث منعني عن القيام عن الوساد ، وأبدى من الحميل ما أبدلني بالنفاق بعد الكساد ، ثم قال : غلبني الشوق إليك ، ولم أُرِدْ إزعاجك والتثقيب عليك ، ثم استدعى مَنْ كان في مجلسه من خواص القوالين ، فحضروا وأخذوا من الغناء فيما يملأ المسامع التذاذاً ، ويجعل القلوب من الوجد جُذْذاً ، وكان له في ذلك الوقت مملوكان هما نَيْرا سماء ملكه ، وواسطتا درَّ سِلْكِه ، وقطبا فلك طربه ووجده^١ ، وركنا بيت سروره ولوه ، وكانا يتناوبان في خدمته ، فحضر أحدهما في تلك الليلة وغاب الآخر ، وكان كثيراً ما يُداعِبني في أمرهما ، ويستجلب مني القول فيهما والكلام في التفضيل بينهما ، فقلت للوقت :

يا مالكا لم يحك سِرَّتَه ماضٍ ولا آتٍ من البشرِ
اجتمعَ لَنَا تفديك أنفُسُنَا في الليلِ بينَ الشمسِ والقمرِ

فطرب ، وأمر في الحال باستدعاء الغائب منهما ، فحضر والنوم قد زاد أجفانه تفتيراً ، ومعاطفه تكسيراً ، فقلت بين يديه بديهاً في صفة المجلس :

سقى الرحمنُ عَصراً قد مضى لي بأكثاف الرُّها صَوْبَ الغمامِ
وليلاً باتتِ الأنوارُ فيه تَعَاوَنُ في مدافعةِ الظَّلَامِ
فنورٌ من شموعٍ^٢ أو ندامى ونورٌ من سُقاةٍ أو مُدامِ
يطوفُ بأنجمِ الكاساتِ فيه سُقاةٌ مثلُ أقمارِ التمامِ
تريك بهِ الكؤوسُ جمودَ ماءٍ فتحسبُ راحها ذَوْبَ الضَّرامِ
يُمِيلُ بهِ غصوناً من قدودِ غناء مثلِ أصواتِ الحِمَامِ
فكم من مَوْصِلٍ فيه يَشْدُو فيُنْسِي النفسَ عاديةَ الحِمَامِ

١ البدائع : وزهوه .

٢ ب : شمع .

وكم من زُلْزُلٍ للضربِ فيه وكم للزَّمرِ فيه من زُنامِ
لدى موسى بن أيوبَ المرجي إذا ما ضنَّ غَيْثٌ بانسجامِ
ومن كمظفَرِ الدين المليكِ إلَّ أَجَلَ الأشرفِ النَّدْبِ الهمامِ
فما شمسٌ تُقاسُ إلى نجومِ تحاكي قدرهُ بينَ الكرامِ
فدامَ مُخلِّداً في الملكِ ببقَى إذا ما ضنَّ دهرٌ بالدوامِ

فلما أنشدتها قام فوضع فرجية من خاص ملابسه كانت عليه على كتفي ،
ووضع شربوشه بيده على رأس مملوك صغير كان لي ، انتهى .

ولابن ظافر هذا بدائع : منها ما حكاه عن نفسه إذ قال ^١ : ومن أعجب
ما دُهِيت به ورُميت ، إلّا أن الله بفضله نصر ، وأعطى الظفر ، وأعان
خاطري الكليل ، حتى مضى مضاء السيف الصقيل ، أتني كنت في خدمة مولانا
السلطان الملك العادل بالإسكندرية سنة إحدى وستمئة مع من ضمته حاشية
العسكر المنصور من الكتّاب والحواشي والخدام ، ودخلت سنة اثنتين وستمئة
ونحن بالثغر مقيمون في الخدمة ، مرتضعون لأفاويق النعمة ، فحضرتُ في
جملة مَنْ حضر الهناء ، من الفقهاء بالثغر والعلماء ، والمشايخ والكبراء ،
وجماعة الديوان والأمرء ، واتفقَ أن كان اليومُ من أيام الجلوس لإمضاء
الأحكام والعرض لطوائف الأجناد ، فلم يبق أحد من أهل البلد ولا من أهل
العسكر إلّا حضر مهنيّاً ، ومثّل شاكرّاً وداعياً ، فحين غصّ المجلس بأهله ،
وشرق بجمع السلطان وحفّله ، وخرج مولانا السلطان إلى مجلسه ، واستقرّ في
دستّه ، أخرج من بركة قبائه كتاباً ناوله للصاحب الأجلّ صفي الدين أبي محمد
عبد الله بن علي وزير دولته ، وكبير جملته ، وهو مفضوض الختام ، مفكوك
الفِدام ، ففتحه فإذا فيه قطعة وردت من المولى الملك المعظم كتبها إليه يتشوّقه
ويستعطفه لزيارته ، ويرققه ويستحثّه على عود ركابه إلى بلاد الشام ، للمثاغرة

بها ، وقمّع عدوّها ، ويعرض بذكر مصر وشدة حرّها ، ووقد جمرها ، وذلك
بعد أن كان وصل إلى خدمته بالثغر ثمّ رجع إليها ، والأبيات :

أروي رماحك من نخور عيداكا	وانهب بخيلك من أطاع سواكا
واركب خيولا كالسّعالى شزّبا	واضرب بسيفك من يشق عصاكا
واجلب من الأبطال كل سّميّدع	يقري بعزمك كل من يشناكا
واسترعيف السّمّر الطوال وروّها	واسق المنيّة سيفك السفّاكا
وسير الغداة إلى العداة مبادرا	بالضرب في هام العدو دراكا
وانكح رماحك للثغور فإنّها	مُشّاقة أن تبني بعلاكا
فالعز في نصّب الخيام على العدا	تردي الطّعاة وتدفع الملائكا
والنصر مقرون بهمتك التي	قد أصبحت فوق السّمّاك سماكا
فإذا عزمت وجدت من هو طائع	وإذا نهضت وجدت من يخشاكا
والنصر في الأعداء يوم كريمة	أحلى من الكأس الذي رواقا
والعجز أن تضنحي بمصر راهنا	وتحل في تلك العيراص عراكا
فأريح حشاشتك الكريمة من لظى	مصر لكي تحظى الغداة بذاكا
فلقد غدا قلبي عليك بحرقه	شغفا ولا حرّ البلاد هناكا
وانهض إلى راجي لقاك مسارعا	فمنّاه من كلّ الأمور لقاكا
وأبرد فؤاد المستهام بنظرة	وأعد عليه العيش من رؤياكا
واشف الغداة غليل صبّ هائم	أضحى منّاه من الحياة منّاكا
فسعادتي بالعدل الملك الذي	ملك الملوك وقارن الأفلاكا
فبقيت لي يا مالكي في غبطة	وجعلت من كلّ الأمور فيداكا

فلما تلا الصاحب على الحاضرين محكم آياتها ، وجلا منها العروس التي
حازت من المحاسن أبعدا غاياتها ، أخذ الناس في الاستحسان لغريب نظامها ،

١ م : أبداع .

وتناسق الثامها ، والثناء على الخاطر الذي نظم بديع أبياتها ، وأطلع من مشرق فكره آياتها ، فقال السلطان : نريد مَنْ يجيبه عنا بأبيات على قافيتها ، فالتفت مسرعاً إليّ وأنا عن يمينه ، وقال : يا مولانا مملوكك فلان هو فارس هذا الميدان ، والمعتاد للتخلص من مضايق هذا الشأن ، ثم قطع وصلاً من درج كان بين يديه ، وألقاه إلي ، وعمد إلى دواته فأدارها^١ بين يديّ ، فقال له السلطان : أهكذا على مثل هذا الحال ؟ وفي مثل هذا الوقت ؟ فقال : نعم ، أنا قد جربته فوجدته مُتقد الخاطر ، حاضر الذهن ، سريع إجابة الفكر ، فقال السلطان : وعلى كل حال قُمْ إلى هنا لتتكفّ عنك أبصار الناظرين ، وتنقطع عنك ضوضاء الحاضرين ، وأشار إلى مكان عن يمين البيت الخشب الذي هو بالجلوس فيه منفرد ، فقمْتُ وقد فقدت رجلي اتخذالاً ، وذهني اختلالاً ، لهيبة المجلس في صدرِي ، وكثرة من حضره من المترقبين لي ، المنتظرين حلول فاقرة الشماتة بي . فما هو إلا أن جلست حتى ثاب إليّ خاطري ، واثال الكلامُ على سرائري^٢ ، فكنت أتوهم أن فكري كالبازي الصيود لا يرى كلمة إلا أنشب فيها منسِره ، ولا معنى إلا شك فيه ظُفره ، فقلت في أسرع وقت :

وَصَلَّتْ من الملك المعظم تحفة	ملأتُ بفاخرِ دُرِّها الأسلاك
أبياتُ شعري كالنجومِ جلاله	فلذا حكْتُ أوراقها الأفلاك
عجباً وقد جاءت كمثلِ الروضِ إذ	لم تُذوِّها بالحرِّ نارُ ذكاكا
جلَّتِ الهمومُ عن الفؤادِ كمثلِ ما	تجلو بغرةِ وجهك الأحلاك
كقميصِ يوسف إذ شفت يعقوبَ ربه	أهْ شَفَتْنِي مثلهُ ريباكا
قد أعجزتُ شعراءَ هذا العصرِ كلّ	همُ فلمْ لا تُعجزُ الأملاك
ما كان هذا الفضلُ يمكن مثله	أن يحتويه من الأنام سواكا

١ م : فألقاها .

٢ البدائع : واثال الشعر على ضمائري .

لِمَ لَا أُغِيبُ عَنِ الشَّامِ وَهَلْ لَهُ
أَمْ كَيْفَ أَخْشَى وَالْبِلَادُ جَمِيعُهَا
يَكْفِي الْأَعَادِي حَرًّا بِأَسِكَ فِيهِمْ
مَا زَرْتُ مَصْرَ لَغَيْرِ ضَبْطِ ثَغُورِهَا
أَمْ الْبِلَادُ عَلَا عَلَيْهَا قَدْرُهَا
طَابَتْ وَحُقَّ لَهَا وَلَمْ لَا وَهِيَ قَدْ
أَنَا كَالسَّحَابِ أَزُورُ أَرْضًا سَاقِيًا
مَكْنِي جِهَادٌ لِلْعَدُوِّ لِأَنْتِي
لَوْلَا الرِّبَاطُ وَغَيْرُهُ لَقَصَدْتُ بَا
وَلَكِنْ أَتَيْتُ إِلَى الشَّامِ فَإِنَّمَا
لِإِنِّي لِأَمْنُحَكَ الْمَحَبَّةَ جَاهِدًا
فَافْخَرْ فَقَدْ أَصْبَحْتَ بِي وَبِأَسِكَ
لَا زِلْتُ تَقْهَرُ مَنْ يَعَادِي مَلَكْنَا
وَأَعِيشُ أَبْصِرُ لِبَنِكَ الْبَاقِي أَبَا
مَنْ حَاجَةٌ عِنْدِي وَأَنْتَ هُنَاكَ
مَحْمِيَّةٌ فِي جَاهٍ طَعْنُ قَنَاكَ
أَضْعَافُ مَا يَكْفِي الْوَلِيَّ نَدَاكَ
فَلَذَا صَبِرْتُ فُدَيْتَ عَنْ رُؤْيَاكَ
لَا سِيَّمَا مَذْ شَرَّفَتْ بِخَطَاكَ
حَوَتْ الْمَعْلَى فِي الْقِدَاحِ أَخَاكَ
حِينَ ، وَأَمْنَحَ غَيْرَهَا سُقْيَاكَ
أَغْزَوْهُ بِالرَّأْيِ السَّيِّدِ دِرَاكَ
سِيرَ الْحَثِيثِ إِلَيْكَ نَيْلَ رِضَاكَ
يَحْتَنِي شَوْقٌ إِلَى لُقْيَاكَ
وَهَوَايَ فِيمَا تَشْتَهِيهِ هَوَاكَ
حَامِي وَكُلُّ مَمْلَكٍ يَخْشَاكَ
أَبْدًا ، وَمَنْ عَادَاكَ كَانَ فِدَاكَ
وَتَعِيشُ تُخْدَمُ فِي السَّعُودِ أَبَاكَ

ثمَّ عدتُ إلى مكاني وقد بيّضتها، وحليت بزهرها ساحة القرطاس وروّضتها،
فلما رآني السلطانُ قد عدتُ قال لي : هل عملت شيئاً ؟ ظنّاً منه أن العمل في
تلك اللوحة القريبة معجز متعذر، وبلوغ الغرض فيها غير متصور ، فقلت :
قد أجبت ، فقال : أنشدنا^١ ، فصمت الناسُ ، وحدّقت الأبصار ، وأصاحت
الأسماع ، وظنّ الناسُ بي الظنون ، وترقبوا منّي ما يكون ، فما هو إلا أن
توالى الإنشاد لأبياتها حتى صفقت الأيدي إعجاباً ، وتغامزت الأعين استغراباً ،
وحين انتهيت إلى ذكر مولانا الملك الكامل ، بأنّه المعلّى في البنين إذا ضربت
قِدَاحهم ، وسُرّدت أمداحهم ، اغرورقت عيناه دمعاً لذكره ، وأبان صمته

١ ب : أنشد .

مخفي المحبة حتى أعلن بسرّه ، وحين انتهيت إلى آخرها فاض دمعته ، ولم يمكنه دفعه ، فمدّ يده مستدعيّاً للورقة ، فناولتها إلى يد الصاحب ، فناولها له ، وعند حصولها في يده قام من غير إشعار لأحد بما دار من إرادة القيام في خلكه ، سراً لما ظهر عليه من الرقة على الموالي الأولاد ، وكتماً لما عليه من الوجد بهم والمحبة لهم ، وانفض المجلس .

وإنّما حمل الصاحب على هذا الفعل الذي غرّر بي فيه وخاطر بي بالتعريض له أشياء كان يقترحها عليّ فأنفذ فيها من بين يديه ، ويخف الأمر منها عليّ لدالتي عليه ، منها أنني كنت في خدمته سنة ٥٩٩ بدمشق ، فورد عليه كتاب من الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة ، وقد بعث صحبته نسخة من ديوان شعره فتشاغل بتسويد جواب كتابه ، فلمّا كتب بعضه التفت إليّ وقال : اصنع أبياتاً أكتبها إليه في صدرّ الجواب ، واذكر فيها شعره ، فقلت له : على مثل هذه الحال ؟ فقال : نعم ، فقلت بقدر ما أنجز بقية النسخة :

أيا ملكاً قد أوسع الناس نائلاً	وأغرقهم بئزلاً وعمّهم عدلاً
فدينك هب للناس فضلاً يزينهم	فقد حزت دون الناس كلّهم الفضلاً
ودونك فامنحهم من العلم والحجى	كما منحتهم كفك الجود والبذلاً
إذا حزت أوفى الفضل عفواً فما الذي	تركت لمن كان القريض له شغلاً
وماذا عسى من ظلّ بالشعر قاصداً	لبابك أن يأتي به جلّ أو قلاً
فلا زلت في عزّ يدوم ورفعة	تحوّز ثناء يملأ الوعر والسهلاً

ووقع لابن ظافر أيضاً من هذا النمط^١ أنّه دخل في أصحاب له يعودون صاحباً لهم ، وبين يديه بركة قد راق ماؤها ، وصحّت سماؤها ، وقد رُصّ تحت دساتيرها نارنج فتن قلوب الحضّار ، وملأ بالمحاسن عيون النظار ، فكأنّما

١ بدائع البداه ٢ : ٥٤ .

رُفِعَتْ صَوَالِجُ فَضَّةٍ عَلَى كِرَاتٍ مِنَ النَّضَارِ ، فَأُشَارَ الْحَاضِرُونَ إِلَى وَصْفِهَا ،
فَقَالَ بَدِيهًا :

أَبْدَعْتَ يَا بَنَ هَلَالَ فِي فَسْقِيَّةٍ جَاءَتْ مُحَاسِنُهَا بِمَا لَمْ يُعْهَدِ
عَجَبًا لِأَمْوَهِ الدَّسَاتِيرِ الَّتِي فَاضَتْ عَلَى نَارِنِجْهَا الْمُتَوَقَّدِ
فَكَأَنَّهُنَّ صَوَالِجٌ مِنْ فَضَّةٍ رُفِعَتْ لِضَرْبِ كِرَاتٍ خَالِصٍ عَسَجِدِ

[قُدْرَةُ ابْنِ قَلَاقِسٍ فِي الْإِرْتِجَالِ]

وَمِنْ بَدِيعِ الْإِرْتِجَالِ مَا حَكَاهُ الْمَذْكُورُ عَنْ ابْنِ قَلَاقِسٍ الْإِسْكَانْدَرِيِّ رَحِمَهُ
اللَّهُ تَعَالَى إِذْ قَالَ ^١ : دَخَلَ الْأَعَزُّ أَبُو الْفَتْوحِ ابْنُ قَلَاقِسٍ عَلَى بِلَالٍ بْنِ مَدَافِعٍ بْنِ
بِلَالٍ الْفَزَارِيِّ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ سَيْفًا قَدْ نَظَّمَ الْفَرِيدُ فِي صَفْحَتِهِ جَوْهَرَهُ ، وَأَذَكَّى
الدَّهْرَ نَارَهُ وَجَمَدَ نَهْرَهُ ، وَأَلْبَسَهُ مِنْ سِلَاحِ الْأَفَاعِي رِدَاءً وَجَسَّمَهُ رَدًى أَوْ دَاءً ،
لَا يَمْنَعُ مِنْ بَرْقِهِ بَدْرٌ مَجْنٌ وَلَا ثَرِيًّا مَغْفَرٌ ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ حُدَّةٍ مَنْ ثَبِتَ وَلَا يَنْجُو
لَطُولُهُ مِنْ فَرٍّ ، فَهُوَ يَبْكِي لِلنَّفَاقِ وَيَضْحَكُ ، وَيُرْعِدُ لِلْغَيْظِ وَيَفْتِكُ ، وَأَمْرُهُ
بِصِفَةِ شَانِهِ ، فَقَالَ عَلَى لِسَانِهِ :

أُرْوَقُ كَمَا أُرْوَعُ فَإِنْ تَصِيفْنِي فَلِئَنِّي رَاقٍ الصَّفَحَاتِ رَائِعُ
تَدَافِعُ بِي خُطُوبَ الدَّهْرِ حَتَّى نَقَلْتُ إِلَى بِلَالٍ عَنِ مَدَافِعُ

وَقَالَ أَيْضًا فِيهِ :

رَبِّ يَوْمٍ لَهُ مِنَ النَّقْعِ سُحْبٌ مَا لَهَا غَيْرَ سَائِلٍ ^٢ الدَّمِ وَدَقُ
قَدْ جَلَّتْهُ يَمْنَى بِلَالٍ بِجَدِّي فَكَأَنِّي فِي رَاحَةِ الشَّمْسِ بِرَقُ

١ المصدر نفسه ٢ : ٤٧ .

٢ ب : مائت .

وقال أيضاً فيه :

أنا في الكريهة كالشهاب الساطعِ من صفحة تبْدو وحدّ قاطعِ
فكأنّما استمليتُ تلك وهذه من وصفِ كفّ بلالِ ابنِ مدافعِ

وقال أيضاً فيه :

انظر لمُطَرِدِ المياه بصفحتي ولنار حدّتي كم بها من صالي
قد عاد شدّتي في المضايق شيمي كبلالِ ابنِ مدافعِ بنِ بلالِ
وسأله صاحبٌ له وصَفَ مشطِ عاجٍ قد أشبه الثريا شكلاً ولوناً ، وشقّ ليلاً
من الشعرِ جَوْنًا ، فقال :

ومتيّمٌ بالآبنوسِ وجسمهُ عاجٌ ومن أدهانهِ شُرْفاتهُ^١
كتمتُ دِياجِي الشعرِ منه بدرها فوشّتْ بهِ للعينِ عَيّوقاتهُ

وقال فيه :

وأبيض ليل الآبنوسِ إذا سرى تمزّقَ عن صُبْحٍ من العاجِ باهرِ
وإن غاص في بحرِ الشعورِ رأيتَه تُبَشِّرنا أطرافهُ بالجوهرِ

وقال فيه :

ومشرق يشبه لونَ الضحى حسناً ويسري في الدجى الفاحمِ
وكلّما قلبَ في لَمّةٍ أضحكها عنْ ثَغْرِ باسمِ

وجلس بمصر في دار الأنماط يوماً مع جماعة ، فمرت بهم امرأة تُعرف
بأبنة أمين الملك ، وهي شمس تحت سحاب النّقاب ، وغصن في أوراق الشباب ،

١ ب : حرقاته .

فحدّثوا إليها تحديق الرقيب إلى الحبيب ، والمريض إلى الطبيب ، فجعلت تتلفت
تَلَفَّتْ الطّبي المذعور ، أفرقه القانصُ فهرب ، وتثنى تثنى الغصن الممطور
عانقه النسيم فاضطرب ، فسألوه العمل في وصفها ، فقال : هذا يصلح أن يعكس
فيه قول العطار الأزدي القيرواني :

أعرضنَ لما أن عرضنَ ، فإن يكنْ حذراً فأين تَلَفَّتْ الغِزلانِ
ثمَّ صنع :

لها ناظرٌ في ذرّا ناضِرٌ كما رُكِبَ السنُّ فوق القنّاةِ
لوتُ حينَ ولّتْ لنا جيدها فأَيّ حياةٍ بدّتْ من وفاةٍ
كما ذُعِرَ الطّبيُّ من قانصٍ فمرَّ وكرّرَ في الالتفاتِ^١

ثمَّ صنع أيضاً :

ولطيفةِ الألفاظِ لكنْ قلبُها لم أشكُ منه لَوَعَةٌ إِلَّا عَتَا
كملتْ محاسنُها فودَّ البدرُ أن يحظى ببعضِ صفاتها أو ينعتا
قد قلتُ لما أعرضتْ وتعرضتْ يا مؤيساً يا مُطمعاً قُلْ لي متى
قالَتْ أنا الطّبيُّ الغريرُ وإنّما ولّى وأوجسَ نَبْأَةً^٢ فتلفتنا

قال علي بن ظافر : وحضر يوماً عند بني خليف بظاهر الإسكندرية في
قصر رسا بناؤه وسما ، وكاد يمزق بمزاحمته أثواب السما ، قد ارتدى جلايبَ
السحاب ولات عمام الغمام ، وابتسمت ثنايا شرفاته ، واتسمت بالحسن
حنايا غرفاته ، وأشرف على سائر نواحي الدنيا وأقطارها ، وحبّته الرياض
بما ائتمنتها عليه السحب من ودائع أمطارها ، والرمل بفنائها قد نثر تبره في زبرجد

١ سقط البيت من ب .

٢ في الأصول : نبوة .

كرومه ، والجو قد بعث بذخائر الطيب لَطِيْمَةً نسيمه ، والنخل قد أظهرت
جواهرها ، ونشرت غدائرها ، والطلُّ ينثر لؤلؤه في مسارب النسيم ومساحبه ،
والبحر يرعد غيظاً من عبث الرياح به ، فسأله بعضُ الحضور أن يصف ذلك
الموضع الذي تمت محاسنه ، وغُيِّط به ساكنه ، فجاشت لذلك لُجَجُ بحره ،
وألقت إليه جواهره لترصيع لَبَّةِ ذلك القصر ونَحْرِهِ ، فقال :

قصرٌ بمَدْرَجَةِ النسيم تحدثُ	فيه الرياضُ بسرّها المستورِ
خفَضَ الخورُ نَقْ والسَّديرُ سُمُوهُ	وثني قصورَ الروم ذاتَ قُصُورِ
لا ث الغمامَ عمامةً مِسْكِيَّةً	وأقام في أرضٍ من الكافورِ
غنى الربيعُ به محاسنَ وَصْفِهِ	فاقرَّ عن تَوْرِ يروقُ ونُورِ
فالدَّوحُ يسحبُ حُلَّةً من سندسٍ	تزهُي بلؤلؤ طللها المنثورِ
والنخلُ كالغيدِ الحسانِ تَقَرَّطَتْ	بسبائكِ المنظومِ والمنثورِ
والرملُ في حُبِّكَ النسيم كأنما	أبدى غصونَ سِوَالفِ المذعورِ
والبحرُ يرعدُ متنه فكأنه	درعٌ تُشَنُّ بِمِعْطَفِي مَقْرورِ
وكاننا والقصرُ يجمعُ شملنا	في الأفقِ بينَ كواكبٍ وبلُورِ
وكذاك دهرُ بني خليفٍ لم يزلْ	يثني المعاطفَ في حَبِيرِ حُبُورِ

ثم قال ابن ظافر : وأخبرني الفقيه أبو الحسن علي ابن الطوسي المعروف بابن
السيوري الإسكندري النحوي بما هذا معناه ، قال : كنت مع الأعز بن قلاقس
في جماعة ، فمر بنا أبو الفضائل ابن فتوح المعروف بالمصري ، وهو راجع من
المكتب ، ومعه دواته ، وهو في تلك الأيام قُرَّةَ العين ظرفاً وجمالاً ، وراحة
القلب قُرْباً ووصالاً ، كل عين إلى وجهه مُحَدِّقَةٌ ، ولمشهد خديهِ بِخَلُوقِ
الحجل مُخَلِّقَةٌ ، فاقرحنا عليه أن يتغزل فيه ، فصنع بديهاً :

عَلَّقَتْهُ مُتَعَلِّقًا بِالْحِطِّ مَعْتَكِفًا عَلَيْهِ
حَمَلَ الدَّوَاءَ وَلَا دَوَا ۞ لِعَاشِقٍ يُرْجَى لَدَيْهِ
فَدَمَاءُ حَبَاتِ الْقُلُوبِ بَ تَلُوحُ صَبْغًا فِي يَدَيْهِ
لَمْ أَدْرِ مَا أَشْكُو إِلَيْهِ هَ أَهْجَرَهُ أَمْ مَقْلَتِيهِ
وَالْحُبُّ يُخْرِسُنِي عَلَى أَنْتِي الْكَعْ سَيَبُوبِهِ
مَا لِي إِذَا أَبْصَرْتُهُ ١ شُغْلٌ سَوَى نَظَرِي إِلَيْهِ

وقد آن وقت الرجعة إلى كلام الأندلسيين الذي حلا ، وأبعدنا عنه بما مر
النَّجْمَةُ ، فنقول :

٣٣ - ذكر الفتح في قلائد العقيان ، كما قال ابن ظافر ، ما معناه ٢ :
أخبرني الوزير أبو عامر ابن بشتغير أنه حضر مجلس القائد أبي عيسى ابن لبّون
في يوم سَفَرَتْ فيه أَوْجُهُ الْمَسَرَاتِ ، ونامت عنه أعين المضرات ، وأظهرت
سقاته غصوناً تحمل بدوراً ، وتطوف من المدام بنار مازَجَتْ من الماء نوراً ،
وشموس الكاسات تطلع في أكفِّها كالورد في السوسان ، وتغرب بين أقاحي
نجوم الثغور فتدبل نرجس الأجفان ، وعنده الوزير أبو الحسن ابن الحاج
اللورقي ، وهو يومئذ قد بذل الجهد ، في التحليّ بالزهد ، فأمر القائد بعض
السُّقَاة أن يعرض عليه ذهب كاسه ، ويحييه بزبرجد آسه ، ويغazole بطرفه
ويميل عليه بعِطْفِهِ ، ففعل ذلك عَجِلاً ، فأنشد أبو الحسن مرتجلاً :

ومَهْفُفٍ مَزَجَ الْفَتُورَ بِشَدَّةٍ وَأَقَامَ بَيْنَ تَبْذُلٍ وَتَمْنَعٍ
يَشْنِيهِ مِنْ فَعْلِ الْمَدَامَةِ وَالصَّبَا سَكْرَانٍ سَكْرُ طَبِيعَةٍ وَتَطْبَعٍ
أَوْ مَا إِلَيَّ بِكَاسِهِ فَكَفَفْتُهَا وَرَنَا فَشَفَعَهَا بِلَحْظٍ مُطْمَعٍ

١ البدائع : قابلته .

٢ بدائع البدائه ٢ : ٨٧ ؛ والقلائد : ١٣٩ .

والله لولا أن يقال هوى الهوى منه بفضل عزيمة وتورع
لأخذت في تلك السبيل بما أخذي فيما مضى ونزعت فيها مترعي

٣٤ - وحكى الحميدي^١ أن عبد الملك بن إدريس الجزيري كان ليلة بين
يدي الحاجب ابن أبي عامر والقمر يبدو تارة ، ويخفيه السحاب تارة ، فقال بديهاً :

أرى بدر السماء يلوح حيناً فيبدو ثم يلتحف السحابا
وذلك لأنه لما تبدت وأبصر وجهك استحيا فغابا
مقال لو نمي غني إليه لراجعي بتصديقي جوابا

٣٥ - وكان صاعد اللغوي^٢ صاحب كتاب « الفصوص » - وقد تكرر
ذكره في هذا الكتاب - كثيراً ما يمدح بلاد العراق بمجلس المنصور بن أبي عامر ،
ويصفها ويقرظها ، فكتب الوزير أبو مروان عبد الملك بن شهيد والد الوزير
أبي عامر أحمد بن شهيد صاحب الغرائب ، وقد تقدم بعض كلامه قريباً ،
إلى المنصور في يوم برّد - وكان أخصّ وزرائه به - بهذه الأبيات :

أما ترى برّد يومنا هذا صيرنا للكمون أفذاذا
قد فطرت صحة الكبود به حتى لكادت تعود أفذاذا
فادع بنا للشمول مضطلياً نغد سيراً إليك إغذاذا
وادع المسمى بها وصاحبه^٣ تدع نبلاً وتدع أستاذاً
ولا تبال أبا العلاء زها بخمر قطربل وكلواذا
ما دام من أرملاط مشربنا دغ دبر عمتي وطيزنا باذا^٤

١ جنوة المقتبس : ٢٦٢ ؛ وبدائع البدائنه ٢ : ٩٦ .

٢ بدائع البدائنه ٢ : ١٠٣ ؛ والذخيرة ١/٤ : ١٦ .

٣ يريد غلاماً اسمه « شمول » .

٤ سقط هذا البيت من م .

وكان المنصور قد عزم ذلك اليومَ على الانفراد بالحرم ، فأمر بإحضار مَنْ جرى رَسْمُهُ من الوزراء والندماء ، وأحضر ابن شُهَيْد في محفّة لنقرس كان يعتاده ، وأخذوا في شأنهم ، فمر لهم يوم لم يشهدوا مثله ، ووقت لم يعهدوا نظيره ، وطَما الطربُ وسما بهم ، حتى تهايج القوم ورقصوا ، وجعلوا يرقصون بالنوبة ، حتى انتهى الدور إلى ابن شُهَيْد ، فأقامه الوزيرُ أبو عبد الله ابن عباس ، فجعل يرقص وهو متوكيء عليه ، ويرتجل ويوميء إلى المنصور ، وقد غلب عليه السكر^١ :

هاك شيخاً قاده عُدْرٌ لكا قام في رقصته مستهلكا
لم يُطِقْ يرقصها مستتباً فأننى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزّها منفرداً نقرسٌ أخنى عليه فاتكا
من وزيرٍ فيهمُ رقاصةٌ قام للسكرِ يناغي ملكا
أنا لو كنتُ كما تعرفني قمتُ لإجلالٍ على رأسي لكا
قهقهة الإبريقُ مني ضاحكاً ورأى رِعْشَةَ رجلي فَبَكِي

قال ابن ظافر : وهذه قطعة مطبوعة ، وطرفها الأخير واسطتها ، وكان حاضرهم ذلك اليوم رجلٌ بغدادي يعرف بالفكيك ، حسن النادرة سريعها ، وكان ابن شُهَيْد استحضره إلى المنصور فاستطبعه ، فلما رأى ابن شُهَيْد يرقص قائماً مع ألم المرض الذي كان يمنعه من الحركة قال : لله درك يا وزير ! ترقص بالقائمة ، وتصلّي بالقاعدة ، فضحك المنصور ، وأمر لابن شُهَيْد بمال جزيل ، ولسائر الجماعة ، وللبغداي .

٣٦ - وقال ابن بسام^٢ : حدث أبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر بن

١ الذخيرة ١/٤ : ١٧ ؛ وزاد في م : وقال ارتجالاً .

٢ بدائع البدائ ٢ : ١٠٦ .

عثمان المصحفي قال : دخلت يوماً على أبي عامر ابن شهيد ، وقد ابتدأت علته التي مات بها ، فأنيسَ بي ، وجرى الحديث إلى أن شكوت له تجنّي بعض أصحابي علي ، ونفاره عني ، فقال لي : سأسعى في إصلاح ذات البين ، فخرجت عنه ، واتفق لقائي لذلك المتجنّي عليّ مع بعض أصحابي^١ وأعزهم علي ، فلما رأني ذلك الصديق مؤلياً عنه أنكر عليه ، وسأله عن السبب الموجب ، فأخبره ، وزاد في مشيئتهما حتى لحقا بي ، وعزم علي في مكاملة صاحبي ، وتعاينا عتاباً أرق من الهواء ، وأشهى من الماء على الظّماء ، حتى جئنا دار أبي عامر ، فلما رأنا جميعاً ضحك وقال : مَنْ كان الذي تولى إصلاح ما كنا سرّرنّا بفساده ؟ قلنا : قد كان ما كان ، فأطرق قليلاً ثمّ أنشد :

مَنْ لَا أَسْمِي وَلَا أَبُوحُ بِهِ أَصْلَحَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَهْوَى
أُرْسَلْتُ مَنْ كَابَدَ الْهَوَى فَدَرَى كَيْفَ يَدَاوِي مَوَاقِعَ الْبَلْوَى
وَلِي حَقُّوقٌ فِي الْحَبِّ ثَابِتَةٌ لَكِنْ لَأُنْفِي يَعْدُهَا دَعْوَى

وقد ذكرنا في هذا الكتاب من غرائب أبي عامر ابن شهيد في مواضع متفرقة الغرائب ، وقدمنا في الباب الرابع حكايته مع المرأة الداخلة في رمضان للجامع قرطبة وحكيّا [ها] هناك بلفظ « المطمح » فلتراجع .

وعبّر ابن ظافر عن معناها بقوله^٢ : إن أبا عامر كان مع جماعة من أصحابه بجامع قرطبة في ليلة السابع والعشرين من رمضان^٣ ، فمرت امرأة به من بنات أجلاء قرطبة ، قد كملت حسناً وظرفاً ، ومعها طفل يتبعها كالظبية تستتبع خشفاً ، وقد حفّت بها الجوّاري ، كالبدّر حُفّ بالدراري ، فحين رأت تلك الجماعة ، المعروفة بالخلاعة ، وقد رمقوا ذلك الظبي بعيون أسودٍ رأت فريسة ،

١ البدائع : إخواني .

٢ بدائع البداهة ٢ : ١٠٧ .

٣ من رمضان : سقطت من ب .

ارتاعت وتخوّفت أن تخطف منها^١ تلك الدرة النفيسة ، فاستدنت إليها خشفها ،
والزمت عطفها ، فارتجل ابن شهيد قائلاً :

وناظرة تحت طيّ القناع .. إلخ

ومرت في الباب الرابع هذه الأبيات .

٣٧ - وقال الرئيس أبو الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشدي^٢ : لما نعت
أبا عامر ابن شهيد إلى أبي عبد الله الحنّاط^٣ الشاعر ، وقد عرف ما كان بينهما
من المنافسة ، بكى وأنشدني لنفسه بديهة :

لما نعى الناعي أبا عامرٍ أيقننتُ أنني لستُ بالصابرِ
أودى فتى الظرفِ وتربُّ الندى وسيدُ الأولِ والآخِرِ

٣٨ - وقال ابن بسّام^٤ : اصطبج المعتصم بن صُمداح يوماً مع ندمائه ،
فأبرز لهم وصيفة مهذوية متصرفة في أنواع اللعب المطرب من الدك ، وحضر
أيضاً هناك لاعب مصري ساحر فكان لعبه حسناً ، فارتجل أبو عبد الله ابن الحداد :

كذا فلتلخُ قمرًا زاهرا وتجنّي الهوى ناظراً ناضرا
وسيبُك سيبُ ندَى مُغْدِقٍ أقامَ لنا هامياً هامرا
وإنَّ ليومك ذا رَوْنَقاً مُنيراً كنورِ الضُّحى باهرا
صباحُ اصطباجٍ بإسفاره لحظنا مُحياً العُلا سافرا
وأطلعت فيه نجوم الكؤوس فما زال كوكبها زاهرا
وأسمعنا لاحقاً فاتناً وأحضرتنا لاعباً ساحرا

١ منها : سقطت من ب .

٢ بدائع البداهة ٢ : ١٠٩ .

٣ في الأصول : الخياط .

٤ بدائع البداهة ٢ : ١٢١ .

يرفرف فوق رؤوس القيّانِ فننظرُ ما يُذهلُ الناظرا
ويحفظها ذيلُ سرباله فننظرُ طالعتها غائرا
فظاهرها ينثني باطناً وباطنها ينثني ظاهرا
وثناه ثانٍ لألعابه دقائق تنثي الحجي حائرا^١
وفي سورة الراح من سحره خواطرُ دلّته الخاطرا
إذا وردَ اللَّحْظُ أثناءها فما الوهمُ عن وِردِها صادرا
ومن حُسْنِ دهره إبداعه فما انفكَّ عارضها ماطرا
وسعدك يجتلبُ المغرباتِ فيجعلُ غائبها حاضرا

٣٩ - قال^٢ : وحضر الأديب أحمد بن الشقاق عند القائد ابن دري^٣
بجيان ، هو وأبو زيد ابن مَقَّانَا الأشبوني ، فأحضر لهما ؛ عباً أسود مُغَطَّى
بورق أخضر ، فارتجل ابن الشقاق :

عَبٌ تَطَلَّعَ مِنْ حَشَا وَرَقٍ لَنَا صُبِغَتْ غَلَائِلُ جِلْدِهِ بِالْإِثْمِ
فَكَأَنَّهُ مِنْ بَيْنِهِنَّ كَوَاكِبٌ كَسَفَتْ فَلَاحَتْ فِي سَمَاءِ زَبَرَجَدٍ

٤٠ - قال^٤ : وحضر ابنُ مرزقان ليلةً عند ذي النون بن خلدون ،
وبحضرتة وصيفة تحمل شمعاً ، فاستحسنها ابن مرزقان ، فقال بديهاً :

يَا شَمْعَةً تَحْمِلُهَا أُخْرَى كَأَنَّهَا شَمْسٌ عَلَتْ بِدْرَا
امْتَحَنْتَ إِحْدَاكُمَا مُهْجَتِي بِمَثَلٍ مَا تَمْتَحِنُ الْأُخْرَى

١ اضطربت النسخة م بعد هذا البيت وسقط منها قسط كبير وسنشير إلى موضع التثامها مع النسختين ق ب.

٢ بدائع البداهة ٢ : ١٢٢ وروى ابن بسام القصة (الذخيرة ٢/١ : ٢٦٢) عن المفتل عبد العزيز

ابن خيرة القرطبي .

٣ ق ب : ابن دريد .

٤ ب : فأحضرهما .

٥ ب : له ؛ الذخيرة : ندي .

٦ بدائع البداهة ٢ : ١٢٣ .

٤١ - قال ١ : ودخل الأديب غانم يوماً على باديس صاحب غرناطة ، فوسّع له على ضيق كان في المجلس ، فقال بديهاً :

صَيَّرَ فؤادَكَ للمحبوبِ منزلةً سَمَّ الخياطِ مجالاً للمحبِّينِ
ولا تسامحْ بغيضاً في معاشرته فقلّما تنسَعُ الدنيا بَغِيضِينَ
وأخذه من قول الخليل « ما تضايق سَمَّ الخياطِ بمتحابين ، ولا اتسعت الدنيا
لمتباغضين » ٢ . وكان الخليل على نُمرقة صغيرة ، والمجلسُ متضايق ، فدخل
عليه بعضُ أصحابه ، فرحّب به وأجلسه معه على النمرقة ، فقال له الرجل :
إنّها لا تسعنا ، فقال ما ذكر .

٤٢ - وقال ابن بسّام أيضاً ٣ : أمر الحاجب المنذر بن يحيى التجيبي
صاحب سرقسطة بعرض بعض الجند في بعض الأيام ، ورئيسهم مملوك له
رومي يقال له خيار في نهاية الجمال ، فجعل ينفخ في القرن ليجتمع أصحابه على
عادة لهم في ذلك ، فقال ابن هندو الداني فيه ارتجالاً ٤ :

أَعَنَ بَابِلُ أَجْفَانُ عَيْنِكَ تَنْفُثُ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أَنْتَ لِلْعَهْدِ تَنْكُثُ
أَفِي الْحَقِّ أَنْ تَحْكِي سَرَافِيلَ نَافِخاً وَأَمْكُثُ فِي رَمْسِ الصُّدُودِ وَأَلْبُثُ
عَسَاكَ ، نَبِيَّ الْحَسَنِ ، تَأْتِي بَابِي فَتَنْفَخُ فِي مِيتِ الصُّدُودِ فَيُبْعَثُ

٤٣ - قال : وكان بقرطبة غلام وسيم ، فمر عليه ابن فرج الجياني ،
ومعه صاحب له ، فقال صاحبه : إنّه لصبيح لولا صفرة فيه ، فقال ابن فرج
ارتجالاً ٥ :

١ المصدر نفسه : ١٢٣ .

٢ ب : بمتباغضين .

٣ الذخيرة (٣ : ٢٨٢) .

٤ الذخيرة (٣ : ٢٨٠) .

قالوا : بهِ صُفْرَةٌ عابت محاسنهُ فقلتُ : ما ذاك من عيبٍ بهِ نزلا
عيناهُ تطلبُ في أوتارٍ من قتلتُ فليستَ تلقاهُ إلاّ خائفاً وجيلاً

قال : وكان يوماً مع لمة من أهل الأدب في مجلس أنس ، فاحتاج رب
المنزل إلى دينار ، فوجههُ إلى السوق ، فدخل به عليهم غلام من الصيارف في
نهاية الجمال ، فرمى بالدينار إليهم من فيه تماجنأً ، فقال ابن فرج ^١ :

أبصرتُ ديناراً بكفٍّ مهفهِفٍ يُزهِى بهِ من كثرةِ الإعجابِ
أوما بهِ من فيه ثمّ رمى بهِ فكأنه بدرٌ رمى بشهابِ

٤٤ - قال ^٢ : وخرج الأديب أبو الحسن ابن حصن الإشيلي إلى وادي
قُرْطُبَة في نزهة ، فتذكر إشبيلية ، فقال بديهاً :

ذكرتُك يا حمصُ ذكرى هوى أُماتِ الحسودِ وتعنيتهُ
كأنّك والشمسُ عند الغروبِ عروسٌ من الحسنِ منحوتهُ
غدا النهرُ عقدك والطودُ تا جك والشمسُ أعلاه ياقوته
انتهى .

٤٥ - وعبر بعضهم ، وهو صاحب « بدائع البدائه » عن بعض حكايات
صاحب القلائد بما يقاربها في المعنى ، فقال ^٣ : إن المستعين بن هُودٍ ملكَ
سَرْقُسْطَة والثغور ركب نهر سَرْقُسْطَة يوماً لتفقد بعض معاقله ، المنتظمة بجيد
ساحله ، وهو نهر رِقّ ماؤه وراق ، وأزرى على نيل مصر ودجلة العراق ، قد
اكتشفته البساتين من جانبيه ، وألقت ظلّالها عليه ، فما تكاد عين الشمس أن

١ الذخيرة (٣ : ٢٨٠) .

٢ بدائع البدائه ٢ : ١٢٤ .

٣ بدائع البدائه ٢ : ١٢٤ .

تنظر إليه ، هذا على اتساع عرضه ، وبُعد سطح مائه من أرضه ، وقد توسَّط زورقه زوارق حاشيته توسَّطَ البدر للهالة ، وأحاطت به إحاطة الطفاوة^١ بالغزالة ، وقد أعدُّوا من مكاييد الصيد ما استخرج ذخائر الماء ، وأخاف حتى حوت السماء ، وأهيلة الهالات طالعة من الموج في سحب ، وقانصة من بنات الماء كُلَّ طائفة كالشهاب ، فلا ترى إلاَّ صيوداً كقصَدِ الصوارم ، وقدود اللهاذم ، ومعاصم الأبقار النواعم ، فقال الوزير أبو الفضل ابن حسداي والطربُ قد استهواه ، وبديع ذلك المرأى قد استرقَّ هَوَاهُ :

لله يومٌ أنيقٌ واضحُ الغررِ	مفضَّضٌ مُذهبُ الآصال والبكرِ
كأنما الدهرُ لما ساءَ أعتبنا	فيه بعثي فأبدي صفحَ معتذرِ
نسيرُ في زورقٍ حَفَّ السرورُ به	من جانبيه بمنظومٍ ومُنثَرِ
مدَّ الشراعُ به قدَّأ على ملكٍ	بدَّ الأوائلَ في أيامه الأخيرِ
هو الإمامُ الهمامُ المستعينُ حوى	علياء مؤتمنٍ في هدْيٍ مقتدرِ
تحوي السفينةُ منه آيةً عجبا	بحرٌ تَجَمَّعَ حتى صار في نهرِ
تثار من قعره النينانُ مُصعدةٌ	صيдаً كما ظفر الغواصُ بالدرِ
وللندامى به عِبٌّ ومرتشفٌ	كالريق يعذبُ في ورْدٍ وفي صدرِ
والشربُ في ودِّ مولى خلَّقه زهرٌ	يذكو وبهجتهُ أبهى من القمرِ

ثمَّ قال ما معناه^٢ : وقوله « نينان » غير معروف ، فإن نونا لم يحىء جمعها على نينان ، وقد كان سيويوه لحنٌ بشار بن برد في قوله في صفة السفينة :

تلاعبُ نينانُ البحورِ وربَّما رأيتَ نفوسَ القومِ من جَرِّها تجري

فغيره بشار بـ « تيار البحور » ، وقد قال أبو الطيب يصف خيلاً :

١ الطفاوة : دائرة الشمس .

٢ بدائع البداه ٢ : ١٢٧ .

فهنَّ مع السيِّدان في البرِّ عُسْلٌ^١ وهُنَّ مع النينانِ في البحرِ عُوْمٌ
انتهى .

والمستعين بن هود هو أحمد بن المؤتمن على أمرِ الله يوسف بن المقتدر بالله
أحمد بن المستضيء بالله سليمان بن هود ، الجُذامي ، رحم الله تعالى الجميع .

٤٦ - وعبر المذكور عن قضية ابن وهبُون في هلال شوال بما نصّه^١ :
خرج ابن وهبون يوماً لنظر هلال شوال ، وأبو بكر ابن القَبْطُرُنة الوزير يسايره ،
وهو يومئذ غلام يُخْجَل البدر ، ويدوي^٢ الغُصْن النَّضْر ، وصفحته لم يسطرها
العِذارُ بأنقاسه ، ووردة خده لم يسترها الشَّعر بآسه ، فارتجل عبد الجليل :

يا هلالُ اسْتَتِرْ بوجهك عني إنَّ مولاكَ قابضٌ بشمالي
هَبْكَ تحكي سناه خدّاً بخدِّ قم فجنني لقدّه بمثالِ

وقد ذكرنا هذه الحكاية في غير هذا الموضع بلفظ الفتح في « القلائد » ولكنّا
أعدناها هنا لتعبير صاحب « البدائع » عنها محاكياً لطريقته .

٤٧ - وذكر ابن بَسَّام^٣ أن الوزير أبا عبد الله ابن أبي الخصال وقف بباب
بعض القضاة ، واستأذن عليه ، فحُجِب عنه ، فكتب إليه بديهاً^٤ :

جئنَاك للحاجةِ الممتولِ صاحبُها وأنتَ تَنعَمُ والإخوانُ في بوسِ
وقد وقفنا طويلاً عند بابكمُ ثم انصرفنا على رأي ابن عبْدوسِ

أشار به إلى قول الوزير أبي عامر ابن عبدوس :

١ المصدر السابق ٢ : ١٢٨ .

٢ البدائع : ويزري .

٣ بدائع البدائع ٢ : ١٤٧ .

٤ ب : بديهة .

لنا قاضٍ له خُلُقٌ أَقْلُ ذِمِّهِ النَّزَقُ
إذا جِئناهُ يَجْبِنَا فَنَلْعَنُهُ وَنَفْتَرِقُ

وهو تملّيح ملىح ، سامح الله تعالى الجميع .

٤٨ - وقال أبو جعفر الكاتب القرطبي الربضي ^١ :

وأبي المدامة ما أريد بشرها صَلَفَ الرقيق ولا انهماك اللاهي
لم يبقَ من عَصْرِ الشبابِ وطيبه شيء كعهدي لم يحُلْ إلاّ هي
إن كنتُ أشربها لغير وفائها فتركتها للناس لا لله

وبعضهم ينسبها لأبي القاسم عامر بن هشام ، والصواب - كما قال ابن الأبار ^٢ - الأول .

وقال أبو جعفر المذكور في فواردة رخام كلّفه وصفها والي قرطبة ^٣ :

ما شَغَلَ الطَّرْفَ مثْلُ فائِرةٍ تَمَجُّ صِرْفَ الحِياةِ مِنْ فيها
أشربُ بها والحبابُ في جَدَلٍ يُظْهره حُسْنُها ويخفيها
تكاد من رَقّةٍ تَضْمِنُها تخطبها العينُ إذ توافيها
كانها دُرّةٌ مُنَعَمَةٌ زهراءُ قد ذاب نصفها فيها

ومن شعره أيضاً :

١ انظر ما سبق ص : ٢٢٨ ، وأبو جعفر هذا هو أحمد بن عبد الرحمن اللخمي الكاتب من أهل قرطبة ويعرف بالربضي لسكنائه بالربض الشرقي منها ؛ توفي سنة ٦١٠ (المقتضب من تحفة القادِم : ١٢٦) .

٢ قال ابن الأبار : وهذه الأبيات قد أنشدنيها بعض الأعلام لأبي القاسم عامر بن هشام وإنما هي لأبي جعفر هذا أنشدنيها صاحبنا أبو الحسن حازم بن محمد الأديب . . . إلخ (الوافي ٧ : ٢٤ نقلًا عن التحفة ولم يرد في المقتضب) .

٣ الأبيات في الوافي ٧ : الورقة ٢٤ ؛ وكذلك الأبيات التي تليها .

ضحك المشيبُ براسِه فيكي بأعينِ كاسِه
رجُلٌ تخوّنه الزّما نُ بيؤسه وبياسِه
فجرى على غلّوائِه طلقَ الجموحِ بناسِه
أخذاً بأوفرِ حظّه لرجائه من ياسِه

٤٩ - وقال أحد بني القبطرنة الوزراء^١ :

ذكرتُ سليمي ونارُ الوغى بقلبي كساعةٍ فارقتها
وأبصرتُ قدّ القنا شبيهاً وقد ملنَ نحوي فعانقتها

وهذا معنى بديع ما أراه سبق به .

٥٠ - وقال أبو الحسن ابن الغليظ المالقي^٢ : قلت يوماً للأديب أبي عبد الله
ابن السراج المالقي ، ونحن على جرية ماء : أجز :

شربنا على ماء كأنّ خريره

فقال مبادراً :

بكاء محبّ بان عنه حبيبُ

فمن كان مشغولاً كثيراً بإلفه فإني مشغوفٌ به وكثيرُ

٥١ - وكتب أبو بكر البلسنسي^٣ إلى الأديب أبي بحر صفوان بن إدريس
هذين البيتين يستجيزه القسم الأخير منهما :

١ انظر القلائد : ١٥٥ والمغرب ١ : ٣٦٨ .

٢ بدائع البدائنه ١ : ٧٣ .

٣ بدائع البدائنه ١ : ٧٩ .

خليلي أبا بحرٍ وما قرَّ قَفُ اللَّمَى^١
أجز غير مأمورٍ قسيماً نظمتُهُ
بأعذبَ من قولي خليلي أبا بحرٍ
تأملْ على نحرِ المياهِ حلَى الزَّهرِ
فأجازه :

تأملْ على نحرِ المياهِ حلَى الزَّهرِ
وقد ضحككتُ للياسمينِ مباسمٌ
كعهدك بالخضراءِ والأنجمِ الزَّهرِ
سروراً بآدابِ الوزيرِ أبي بكرٍ
وأصغتُ من الآسِ النضيرِ مسامعٌ
لتسمعَ ما يتلوه من سورِ الشعرِ
٥٢ - وقال ابن خفاجة^٢ :

وما الأنسُ إلّا في مجاحِ زجاجةٍ
ولاني وإن جئتُ المشيبَ لمولعٌ
ولا العيشُ إلّا في صريرِ سريرِ
بطرّةٍ ظلّ فوقَ وجهِ غديرِ
وقال ابن خفاجة أيضاً^٣ :

وأسودَ يسبحُ في لُجّةٍ
كأنها في شكلها مُقلّنةٌ
لا تكتمُ الحصباءُ غُدرانها
وذلك الأسودُ إنسانها

[قصائد لابن زيدون]

٥٣ - وكتب الوزير الشهير أبو الوليد ابن زيدون إلى الوزير أبي عبد الله ابن
عبد العزيز إثر صدوره عن بِلَنْتِنية^٤ :

راحتْ فصَحَّ بها السقيمُ
مقبولةٌ هبَّتْ قَبو
ريحٌ معطرّةٌ النَّسيمُ
لأَ فهي تعبقُ في الشميمِ

١ ب : الطلي .

٢ ديوان ابن خفاجة : ١٨١ .

٣ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٣ ؛ وفي ق : وله .

٤ ديوان ابن زيدون : ٢٠١ ، وهي في الذخيرة والقلائد .

٥ الديوان : فراح .

أفضيضُ مسكٍ أم بَلَنُ
بلدٌ حبيبٌ أفقُهُ
إيه أبا عبدٍ إلا
إن عيل صبري من فرا
أو أتبعَتَكَ حنينَها
ذكرى لعهدي كالعرا
مهما ذممتُ فما زما
زمنٌ كمألوفِ الرضا
أيامٌ أعقدُ ناظري
وأرى الفتوةَ غضةً
اللهُ يعلمُ أنَّ حُبَّ
ولئن تحمَّلَ عنك لي
قلُّ لي بأيّ خلالٍ سر
ألمجدك العَمَمِ الذي
أم ظرفيك الغضَّ الجنى
أم برِّكَ العذبِ الجما
إن أشمستُ تلكَ الطلا
أم بالبدائعِ كالآ
لبلاغةٍ إن عدَّ أه
فقرَّ تسوَّغُ بها المدا
إنَّ الذي قسمَ الخطو
لا أستريدهُ اللهُ نُه
فلقد أقرَّ العينَ أذ
حسي الثناء بحسنِ برِّ

سِةٌ لربّاهَا نعيمُ
لفتى يحلُّ به كريمُ
ه نداء مغلوبِ العزيمِ
قِكْ فالعذابُ به أليمُ
نَفْسِي فأنت لها قسيمُ
رِ سرى فبرَّحَ بالسليمِ
ني في ذمامِكْ بالذميمِ
ع يشوقُ ذكراه الفطيمِ
في ذلك المرأى الوسيمِ
في ثوبٍ أوَاهٍ حلِيمِ
لكَ من فؤادي في الصميمِ
جسمٌ فعن قلبٍ مقيمِ
ك فيك أفتنُّ أو أهيمِ
نَسَقَ الحديثِ مع القديمِ
أم عِرَضِكَ الصافي الأديمِ
م وبشرِكَ الغضَّ الجميمِ
قهُ فالندى منها مغيمِ
لي من نثيرٍ أو نظيمِ
لموها فأنت بها زعيمِ
م إذا يُكرِّرها النديمِ
ظَ حَبَاكَ بالخلقِ العظيمِ
حى فيك لا بل أستديمِ
لكَ غُرَّةُ الزمنِ البهيمِ
كَ ما بدا برقٌ وشيمِ

ثُمَّ الدُّعَاءُ بِأَنْ تُهَـ^١ نَأْ طَوَّلَ عَيْشَكَ فِي نَعِيمٍ
ثُمَّ السَّلَامُ تُبَلِّغُنِ^٢ هُ فَغِيبُ مُهْنِدِهِ سَلِيمٍ

ولما ورد إشيلية نزل بدار الوزير الكاتب ذي الوزارتين أبي عامر ابن مسلمة وهو يني مجلساً ، فصنع أبياتاً كتبت فيه ^١ :

عُمَرُ مَنْ يَعْمُرُ ذَا الْمَجْلِسَا أَطْوَلَ عُمُرٍ يُبْهِجُ الْأَنْفُسَا
وبعد ذَا عَوْضَ مِنْ دَارِهِ عَدْنَا وَمِنْ دِيَابِجِهِ السُّنْدَسَا
وَلُقِّيَ النَّوْرَ^٢ بِهَا وَالرَّضَى وَوُقِّيَ الْأَسْوَاءَ وَالْأَبْؤَسَا
ودام عِبَادُ لِعُضْدِ^٣ الْهَدَى يَحْرُسُ حَتَّى يَفْنِيَ الْأَحْرَسَا
مَعْتَضِدُ^٤ بِاللَّهِ إِحْسَانُهُ جَمُّ إِذَا مَا الدَّهْرُ يَوْمًا أَسَا
الْمَلِكُ الْغَمْرُ الْهَدَى الْمُقْتَنِي مِنْ كُلِّ حَمْدٍ عُلِقَهُ الْأَنْفَسَا
إِنْ رَامَ يَوْمًا وَصَفَ عَلَيْهِ^٥ مَفْوَةٌ مُقْتَدِرٌ أُخْرِسَا
لَا زَالَ بَدْرًا طَالِعًا نَيِّرًا يَكْشِفُ عَنْ آمَالِنَا الْحِنْدِسَا

وقال فيه أيضاً ^٤ :

أَدْرِهَا فَقَدْ حَسَّنَ الْمَجْلِسُ وَقَدْ آتَى أَنْ تُتْرَعَ الْأَكْوَسُ
وَلَا تَنْسَ أَنْ^٥ أَوَانَ الرَّبِيعِ^٥ إِذَا لَمْ تَجِدْ فَقَدْهُ الْأَنْفُسُ
فَإِنَّ خِلَالَ^٦ أَبِي عَامِرٍ بِهَا يُحَقِّقُ الْوَرْدُ وَالزَّرْجَسُ

وكتب إلى الوزير أبي المعالي المهلب بن عامر يستدعيه ^٦ :

١ ديوان ابن زيدون : ٢٢٧ .

٢ الديوان : ووفي الفوز .

٣ الديوان : لمهد .

٤ ديوان ابن زيدون : ٢٢٨ .

٥ الديوان : ولا بأس إن كان ولي الربيع .

٦ الديوان : ٢٢٨ .

طابتْ لنا ليلتنا الخالية فلتُنْجِعْنا هذِهِ الثانيه^١
أبا المعالي نحن في راحة فانقلْ إلينا القَدَمَ العاليه
لأنها^٢ عاطلةٌ إن تَغِبْ عَنَّا فزَرنا كي تُرى حاله
أنت الذي لو تُشْتَرى ساعةٌ منه بدهرٍ لم تكنْ غاليه

وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عامر المذكور معاتباً^٣ :

تباعدنا على قُربِ الجِوارِ كأننا صَدَدنا شَحْطُ المزارِ
تطلع لي هلالُ الهجرِ بدرأ وصار هلالٌ وصلك في سرارِ
وشاع شنيعُ قطعك لي بوصلي فهلاً كان ذلك في استتارِ
أجمل أن تُرى عني صَبوراً فأصبحَ مولعاً دون اصطبارِ
وكنْتُ أزيدُ سمعك من عتابي ولكن عاقبي قَرطُ الخُمارِ
فراعِ مودتي واحفظْ جِواري فإنَّ الله أوصى بالجِوارِ
وزرني مُنعِماً من غيرِ أمرٍ وأنسِ موحشاً من عقرِ داري

فكتب إليه ابنُ زيدون^٤ :

هوايَ وإن تناءت عنك داري كمثلي هوايَ في حالِ الجِوارِ
مقيمٌ لا تغيره عِوَادُ تُباعدُ بينَ أحيانِ المزارِ
رأيتُكَ قلتَ إنَّ الهجرَ بدرٌ متى خَلَّتِ البدورُ من السَرارِ
ورابك أنتي جلدٌ صَبورٌ وكم صبرٍ يكونُ عنِ اصطبارِ

١ الديوان : فلتُنْجِعْنا ... الثانيه .

٢ الديوان : ليلتنا .

٣ الديوان : ٢٠٤ .

٤ ب : وأصبح .

٥ الديوان : ٢٠٥ .

ولم أهجرُ لعتبٍ ، غير أني
 وإنَّ الخمر ليس لها خُمارٌ
 وهل أنسى لديك نعيم عيشٍ
 وساعات يحولُ اللهو فيها
 وإن بكُ فَرَّ عنك اليوم جسمي
 وكنتَ على البعاد أجلَّ شيءٍ
 أضرتُ بي معاقرَةُ العُقارِ^١
 يبرِّحُ بي فكيف مع الخُمارِ
 كوثني الخدَّ طُرَّرَ بالعِذارِ
 مجالَ الطَّلِّ في حدَقِ البهارِ^٢
 فُدِيتَ فما لقلبي من فرارٍ
 لديَّ فكيف إذ أصبحت جاري

وكان أبو العَطَّافِ إذ ورد إشبيلية رسولا^٣ قد سأله أن يُريَه شيئاً من شعره فمطله به ، حتى كتب إليه شعراً يستبطئه ، فأجابه ابن زيدون في العَرُوض والقافية^٤ :

أفدَّتني من نفائسِ الدُّرِّ
 من لفظةٍ قارنتُ نظائرها
 ما أبرزته غوائصُ الفِكْرِ
 قرآنَ سَقَمِ الجفونِ للحوَرِ
 وهي أكثر مما ذكره .

وكتب رحمه الله تعالى - أعني ذا الوزارتين ابن زيدون - إلى ولادة^٥ :

أضحى التَّنائي بدِيلاً من تدانينا
 ألا وقد حانَ صُبْحُ الليلِ صَبَّحنا
 ونابَ عن طيبِ دُنْيانا تجافينا
 حينَ فقامَ بنا للحينِ ناعينا
 حُزنًا مع الدهرِ لا يَبلى ويُبَلِّينا
 أنساً بقرَبهمُ قد عادَ يُبْكينا
 غِيظَ العدا مِن تساقينا الهوى فدعوا
 بأن نَغصَّ فقال الدهرُ آمينا

١ هذا البيت والذي يليه سقطا من ب .

٢ في الأصول : الظل . . . النهار ، والتصويب عن الديوان .

٣ الديوان ٢٠٦ .

٤ ب : أفادني .

٥ هي في عشرين بيتاً .

٦ ديوان ابن زيدون : ١٢١ .

فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا
 بالأمسِ كُتِّا^١ وما يُعشى تفرقنا
 يا ليت شعري ولم نُعتبْ أعاديكمُ
 لم نعتقدْ بعدكم إلاّ الوفاء لكمُ
 كُتِّا نرى اليأس تُسلينا عوارضهُ
 بنم وبنا فما ابتلَّتْ جوانحنا
 نكادُ حين تناجيكمُ ضمائرنا
 حالتْ لفقدكمُ أيماننا فغدتْ
 إذ جانبُ العيشِ طلقُ من تألَّقنا
 وإذا هصرنا فنونَ الوصلِ دانيةً
 ليسقَ عهدكمُ عهدُ السرورِ فما
 لا تحسبوا نأيكمُ عنا يغيرنا
 والله ما طلبتْ أهواؤنا بدلاً
 يا ساريَ البرقِ غادِ القصرَ فاسقِ به
 واسألْ هنالك هل عني تذكرنا
 ويا نسيمَ الصَّبَا بَلِّغْ نحيبتنا
 من لا يرى الدهر يقضيها مساعفةً
 من بيتٍ^٢ ملك كأنَّ الله أنشأه
 أو صاغه ورقاً محضاً وتوجّه
 إذا تأوَّد آدته رفاهيةً

وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا
 واليومَ نحنُ وما يُرجى تلاقينا
 هل نال حظاً من العُتبى أعادينا
 رأياً ولم نقتلِدْ غيره ديناً
 وقد يشنا فما لليأس يغرينا
 شوقاً إليكمُ ولا جفَّتْ مآقينا
 يقضي علينا الأسى لولا تأسَّينا
 سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
 وموردُ اللهوِ صافٍ من تصافينا
 قُطوفُها فجنينا منه ما شينا
 كنتم لأرواحنا إلاّ رياحيننا
 أن طالَ ما غيَّرَ النَّأيُ المُحبِّينا
 منكم ولا انصرفتْ عنكم أمانينا
 من كان صرف الهوى والودَّ يسقيننا
 إلفاً تذكرهُ أمسى يُعَنِّينا
 من لو على البعدِ حيّاً كان يحينا
 فيه وإن لم يكن عنا يقاضينا
 مسكاً وقد أنشأ الله الورى طينا
 من ناصع التبرِ إبداعاً وتحسينا
 تومُ العقودِ^٣ وأدمته البرى لينا

١ الديوان : وقد نكون .

٢ الديوان : ربيب .

٣ ب : تدمي العقول .

كانت له الشمسُ ظئراً في تكلُّه
 كأنما أثبتت في صحن وجنته
 ما ضرَّ أن لم نكن أكفاءهُ شرفاً
 يا روضةً طالما أجت لواحظنا
 ويا حياةً تملَّينا بزهرتها
 ويا نعيماً خطرنا من غضارته
 لسنا نسميك إجلالاً وتكرمةً
 إذا انفردت وما شورك في صفة
 يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها
 كأننا لم نبت والوصلُ ثالثنا
 سران في خاطر الظلماء نكتننا
 لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت
 إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً
 أمّا هواك فلم نعدل بمشربه
 لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
 ولا اختياراً تجنّبناك عن كشب
 نأسى عليك إذا حثت مشعشةً
 لا أكؤسُ الراح تبدي من شمائلنا
 دومي على العهد ما دمنا محافظةً
 فما استعضنا خليلاً عنك يحبسنا
 ولو صبا نحونا من أفق مطلعته
 أبلي وفاء وإن لم تبذل صلّةً
 وفي الجواب متاع لو شفعت به
 عليك مني سلامُ الله ما بقيت

بل ما تجلّى لها إلاّ أحياننا
 زهر الكواكب تعويذاً وتزيينا
 وفي المودة كاف من تكافينا
 ورداً جلاه الصبا غصّاً ونسرنا
 منى ضروباً ولذات أفانينا
 في وشي نعيم سحبا ذيله حيننا
 وقدرك المعتلي عن ذاك يغينا
 فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبييناً
 والكثير العذب زقوماً وغسلينا
 والسعد قد غص من أجفان واشينا
 حتى يكاد لسان الصبح يفشيننا
 عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
 مكتوبةً وأخذنا الصبر تلقينا
 شرباً وإن كان يروينا فيظميننا
 سالين عنه ولم نهجره قالينا
 لكن عدتنا على كره عوادينا
 فينا الشمول وغنّانا مغنينا
 سيما ارتساح ولا الأوتار تلهينا
 فالحر من دان إنصافاً كما دينا
 ولا استفدنا حبيباً عنك يغينا
 بدر الدجى لم يكن حاشاك يصينا
 فالطيف يقنعنا والذكر يكفيننا
 بيض الأيادي التي ما زلت تولينا
 صبا بك نخفيها وتخفيننا

وإنما ذكرت هذه القصيدة - مع طولها - لبراعتها ، ولأن كثيراً من الناس لا يذكر جملتها ، ويظن أن ما في القلائد وغيرها منها هو جميعها ، وليس كذلك ، فهي وإن اشتهرت بالمشرق والمغرب لم يذكر جملتها إلا القليل ، وقد كنت وقفت بالمغرب على تسديس لها لبعض علماء المغرب ، ولم يحضرني منه الآن إلا قوله في المطلع :

ما للعيونِ بسهمِ الغنَجِ تُصْنِمينَا وعن قطافِ جنى الأعطافِ تحمينَا
تألفُ كان يحينا ويُضْنِينَا تفرَّقُ عاثٌ في شملِ المحبينَا
أضحى التناثي بديلاً من تدانينا ونابَ عن طيبِ ديانا تجافينا

وما أحسن قوله في هذا التسديس :

ما للأحبة دانوا بالنوى ورأوا تعريضَ عهد اللقا بالبعدِ حين نأوا
رعاهمُ الله كانوا للعهودِ رَعَوْا فغيرتهم وشاةٌ بالفسادِ سَعَوْا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدَعَوْا بأن نَغْصَّ فقال الدهر آمينا

وقد ذكرنا في الباب الرابع موشحة ابن الوكيل التي وطأ فيها لنونية ابن زيدون هذه فلتراجع^١ .

رجع - وقال ذو الوزارتين ابن زيدون يتغزل^٢ :

وَصَحَّ الصَّبْحُ^٣ المبينُ وجلا الشكَّ اليقينُ
ورأى الأعداءُ ما غ رتهمُ منك الظنونُ
أملوا ما ليس يُمتنى ورجوا ما لا يكونُ
وتمنوا أن يخونَ ال عبْدَ مولى لا يخونُ

١ انظر النفع ج ١ ص : ٦٣٢ .

٢ ديوان ابن زيدون : ١٧٦ .

٣ الديوان : الحق .

فإذا الغيبُ سليمٌ
 قل لمن دان بهجري
 أرخص الحبِّ فؤادي
 يا هلالاً تراء
 عجباً للقلب يقسو
 ما الذي ضرك لو س
 وتلطفت بصب
 فوجوه اللطف شتى
 وإذا العهد مصونٌ
 وهواني إذ يسدين^١
 لك والعلقُ ثمينٌ
 هُ نفوسٌ لا عيونٌ
 منك والعطفُ يلينُ
 مرّاً بمراك الحزين
 حينه فيك يحين
 والمعاذيرُ فنون

وقال أيضاً^٢ :

إليك من الأنام غدا ارتياحي
 وما اعترضت هموم النفس إلا
 فديتك إن صبري عنك صبري
 ولي أملٌ لو الواشون كفوا
 وأعجب كيف يغلبني عدو
 ولما أن جلتك لي اختلاسا
 رأيت الشمس تطلع في نقاب
 فلو أسطيع طرت إليك شوقاً
 على حالي وصال واجتناب
 وحسي أن تظالمك الأماني
 فؤادي من أسى بك غير خال
 وأنت من الزمان مدى اقتراحي
 ومن ذكراك ريجاني وراحي
 لدى عطشي عن الماء القراح
 لأطلع غرسه ثمر النجاح
 رضاك عليه من أمضى سلاح
 أكف الدهر للحين المتاح
 وغصن البان يرغل في وشاح
 وكيف بطير مقصوص الجناح
 وفي يومي دئو وانتراح
 بأفقك في مساء أو صباح
 وقلبي من هوّى لك غير صاح

١ الديوان : وهواه لي دين .

٢ ديوانه : ١٤٨ .

وَأَنْ تَهْدِيَ السَّلَامَ إِلَيَّ شَوْقًا
وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيحِ
وَقَالَ ١ :

لِلَّهِ مَا لَقِيَ الْفُؤَادُ	كَمْ ذَا أُرِيدُ وَلَا أُرَادُ
لَمْ يَصِفْ لِي مِنْهُ الْوَدَادُ	أُصْفِي الْوَدَادَ إِلَى الَّذِي ٢
مَثَوَاهُ مِنْ قَلْبِي السَّوَادُ	كَيْفَ السَّلَوُ عَنْ الَّذِي
فِي كُلِّ حِينٍ أَوْ يَكَادُ	يَقْضِي عَلَيَّ دَلَالَهُ
فَلَهَا إِذَا أَمَرَ انْقِيَادُ	مَلِكَ الْقُلُوبِ بِحَسَنِهِ
دُ الصَّبْرِ عَنْكَ فَلَا أُفَادُ	يَا هَاجِرِي كَمْ أُسْتَفِي
تُ وَحَشَوُ مَقْلَتِهِ السَّهَادُ	أَفْلا رَثِيتَ لِمَنْ يَبِي
خَطَأً فَقَدْ يَكْبُو الْجَوَادُ	إِنْ أَجْنُ ذَنْبًا فِي الْهَوَى
أَنْ يَعْقُبَ الْكُونَ الْفَسَادُ	كَانَ الرِّضَى وَأَعِيذُهُ

وَقَالَ ٣ :

يَا رَاحَتِي وَعَذَابِي	مَتَى أَنْبَيْكَ مَا بِي
فِي شَرْحِهِ عَنْ كِتَابِي	مَتَى يَنْوِبُ لِسَانِي
أَصْبَحْتُ فَيْكَ لَمَّا بِي	اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي
وَلَا يَسُوعُ شَرَابِي	فَمَا يَلِدُ مَنَْامِي
وَحُجَّةَ الْمُتَصَابِي	يَا فِتْنَةَ الْمُتَعَزِّي
عَنْ نَظَرِي بِالْحُجَابِ ٤	الشَّمْسُ أَنْتَ تَوَارَتْ

١ ديوان ابن زيدون : ١٧٨ .

٢ الديوان : مدلا .

٣ ديوانه : ١٤٩ .

٤ إلى هنا ينتهي ما سقط من النسخة م .

ما النورُ شَفَّ سَنَاهُ على رقيقِ السَّحَابِ
إِلَّا كوجْهكَ لَمَّا أضاء تحتَ النَّقَابِ

وقال ١ :

هَلْ لِدَاعِيكَ حَيِّبُ أَمْ لَشَاكِيكَ طَيِّبُ
يَا قَرِيباً حِينَ يَنَاقِي حَاضِراً حِينَ يَغِيبُ
كَيْفَ يَسْلُوكَ مَحَبُّ زَانَهُ مِنْكَ حَيِّبُ
إِنَّمَا أَنْتَ نَسِيمٌ تَتَلَقَّاهُ الْقُلُوبُ
قَدْ عَلِمْنَا عِلْمَ ظَنٍّ هُوَ لَا شَكَّ مَصِيبُ
إِنَّ سِرَّ الْحَسَنِ مِمَّا أَضْمَرَتْ تِلْكَ الْقُلُوبُ

وقال ٢ :

أَنْتَى تُضَيِّعُ عَهْدَكَ أَمْ كَيْفَ تَخْلَفُ وَعْدَكَ
وَقَدْ رَأَيْتَكَ الْأَمَانِي رَضَى فَلَمْ تَتَعَدَّكَ
يَا لَيْتَ شَعْرِي وَعِنْدِي مَا لَيْسَ فِي الْحَبِّ عِنْدَكَ
هَلْ طَالَ لَيْلُكَ بَعْدِي كَطَوَّلَ لَيْلِي بَعْدَكَ
سَلَّتْنِي حَيَاتِي أَهْبَهَا فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكَ
الدَّهْرُ عَبْدِي لَمَّا أَصْبَحْتُ فِي الْحَبِّ عَبْدَكَ

وقال رحمه الله تعالى ، وقد أمره السلطان أن يعارض قطعاً كان يغني بها
واستحسن ألحانها ٥ :

١ ديوان ابن زيدون : ١٦٤ .

٢ ديوانه : ١٦٥ .

٣ الديوان : يا ليت مالك عندي من الهوى لي عندك

٤ الديوان : فطال .

٥ ديوانه : ٥١٢ .

وَيَشْفِي وَصَالِكَ قَلْبِي الْعَلِيلَا
فَقَدْتُ نَسِيمَ الْحَيَاةِ الْبَلِيلَا
وَلَمْ يُبْدِ عَذْرِي وَجْهًا جَمِيلَا
وَيَدَّ بِاللَّهِ مَوْلَى مُقِيلَا
يُظِلُّ الصَّرِيرُ يَبَارِي الصَّلِيلَا

يُقَصِّرُ قَرْبُكَ لَيْلِي الطَّوِيلَا
وَإِنْ عَصَفَتْ مِنْكَ رِيحُ الصَّدُودِ
كَمَا أَتَنِي إِنْ أَطَلَّتْ الْعِثَارُ
وَجَدْتُ أَبَا الْقَاسِمِ الظَّافِرِ الْمَا
لْأَقْلَامِهِ فِعْلٌ^١ أَسْيَافِهِ

وَقَالَ يَهْنِيهِ بِالْقُدُومِ مِنَ السَّفَرِ^٢ :

وَاجْتَلِ التَّائِيدَ فِي أَهْبَى الصُّورِ
فِيهِ مِنْ غَرَسِ الْمَنَى أَحْلَى الثَّمَرِ
شَاقِقٍ مِنْكَ إِلَى أَنْسِ الصَّدْرِ
عَاطِرِ الْآصَالِ وَضَّاحِ الْبُكْرِ
يَشْتَكِي مِنْ لَيْلِهِ مَطْلَ السَّحَرِ
وَلشَادِينَا يُطِيلُ^٣ قَطْعَ الْوَتَرِ

أَيْهَا الظَّافِرُ أَبْشُرْ بِالظَّفَرِ
وَتَفِيًّا ظِلٌّ سَعْدٍ يُجْتَنِي
وَرِدِ النَّجْحَ فَكَمْ مَسْتَوْحِشٍ
كَانَ مِنْ قَرْبِكَ فِي عَيْشٍ نَدٍ
فَتَوَى دُونَكَ مَثْوَى قَلْقٍ
قُلْ لِسَاقِينَا يَجِدُ أَكْؤُسَهُ

وَمِنْهَا :

جَالِبِ التَّمْرِ إِلَى أَرْضِ هَجَرَ
نِعْمَةُ الْمَوْلَى عَلَيْهِ فَشْكُرُ
قَاضِيًا أَثْنَاءَهُ كُلَّ وَطَرُ
سَرَتْ فِي إِرْضَائِهِ أَزْكَى السَّيْرِ
فَانْتَحْتَهُمْ مِنْكَ صَمَاءُ الْغَبَرِ^٤

لِي فِيهِ الْمَثَلُ السَّائِرُ فِي
ثُمَّ قَدْ وَفَّقَ عَبْدٌ عَظُمْتُ
لَا عَدَا حَظَّكَ إِقْبَالَ يَرَى
وَاصْطَبَحَ كَأْسَ الرِّضَى مِنْ مَلِكٍ
حِينَ صَمِمْتَ إِلَى أَعْدَائِهِ

١ الديوان : وأقلامه وفق .

٢ ديوانه : ٥١٤ .

٣ الديوان : يحجز . . . يصل .

٤ صماء الغبر : الداهية .

فاض غَمَرٌ للندى من فوقهم
سبَقَ الناسَ فصلتى سابقٌ
كان يروي شربهم منه الغَمَرُ
إِذْ رأى آثاره مثلَ الزَّهَرِ^١
وهي طويلة .

وقال رحمه الله تعالى^٢ :

لم يكنْ هَجَرٌ حبيبي عن قِلي
سَرَّهُ دعوى ادعائي ثمَّ لم
أنا راضٍ بالذي يرضى به
مَثَلٌ في كلِّ حُسْنٍ مثلَ ما
يا فتيتَ المسكِ يا شمسَ الضحى
إنْ يكنْ لي أملٌ غيرُ الرضى
لا ولا ذاكَ التجنِّي مَلَا
يَدْرُ ما غاية صبري فابتلِ
لي من لو قال مُتْ ما قلتُ لا
صار حالي في هواهُ مَثَلَا
يا قضيبَ البانِ يا ظبيَ الفلا
منك لا بُلُغْتُ ذاكَ الأَمَلَا

وقال رحمه الله تعالى^٣ :

أذكَرْتَنِي سالفَ العيشِ الذي طابا
إِذْ نحنُ في روضةٍ للوصلِ أنعمها
إنِّي لأعجبُ من شوقِ يطالبني
كمْ نظرةً لكْ عندي قدْ علِمْتُ بها
قلبٌ يطيلُ معاصاتي لطاعتِكُمْ
يا ليتَ غائبَ ذاكَ الوقتِ قد آبا
من السرورِ غمامٌ فوقها صابا
فكلِّما قيلَ فيه قد قضى ثابا
يومَ الزيارة أنَّ القلبَ قدْ ذابا
فإنْ أَكَلَّفَهُ يوماً سَلْوَةً يابى

وقال رحمه الله تعالى^٤ :

١ الديوان : منك من إن رأى آثاره الزهر اقتفر

٢ ديوانه : ١٦٥ .

٣ ديوانه : ١٢٣ .

٤ الديوان : المهد .

٥ ديوانه : ١٩٢ .

واستحدث القلبُ بعدَ العشقِ سلواني
من الأُجَيْنِ عليها تاجُ عَقِيَانِ
تَسْبِي القلوبِ بِسَاجِي الطَّرْفِ وَسَنَانِ
يُحْنِي سَوَالِفَ أَيَّامِي وَأَزْمَانِي
نَسَخْتُ فِي حُبِّهَا كُفْرًا بِإِيمَانِ

عاودتُ ذكْرَ الهوى من بعدِ نسياني
من حبٍّ جاريةٍ يبدو بها صَنَمٌ
غريرةٌ لم تفارقها تماثمها
لأَسْتَجِدَّنَ في عشقي لها زمناً
حتى يَكُونَ لِمَنْ أَحْبَبْتُ خاتمةً

وقال رحمه الله تعالى ^١ :

وسَيِّلُ الهوى وَقَصْدُ الوَلَوَعِ
لك عند الغروبِ فَضْلُ الطَّلَوَعِ
بَ دِلَالاً من الرضى الممنوعِ
كوكبٌ يَسْتَقِيمُ بعد الرجوعِ

أَنْتَ معنى الهوى وسرُّ الدموعِ
أَنْتَ والشمسُ ضَرَّتَانِ ولكنْ
ليس يا مؤنسي نكلك ^٢ العتة
إنما أَنْتَ والحسودُ مُعَنَّى

وقال رحمه الله تعالى ^٣ :

إِلَّا كعهدي قِصْرَكَ
ما بَتْ أَرعى قَمَرَكَ
أَلْتَدُّ عَنْهُ خَبْرَكَ
فَقَالَ لَا بَلْ غَدَرَكَ

يا ليلُ طُلْ لا أَشْتَهِي
لو باتَ عِندي قَمَرِي
يا ليلُ خَبِّرْ أَتْنِي
بِاللهِ قَلْ لِي هَلْ وَفَى

وقال رحمه الله تعالى ^٤ :

لئن فاتني منكَ حظُّ النظرِ
لأَكْتَفِيَنَّ بِسَمَاعِ الْخَبَرِ

١ ديوانه : ١٦٦ .

٢ الديوان : تكلفك .

٣ ديوانه : ١٨٢ .

٤ الديوان : بوصل .

٥ ديوانه : ١٦٨ .

وإن عرضتُ غفلةً للرقيب
أحاذرُ أن يتَجَنَّى^٢ الوشاةُ
فأصبرُ مستيقناً أنه
فحسبي بتسليمةٍ^١ تُختصرُ
وقد يُستدامُ الهوى بالحدزُ
سيحظى بنيلِ المني من صبرُ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى^٣ :

أيها البدرُ الذي يـ
حمل القلبُ تباريـ
ثم لا تياسُ^٤ فكم قد
لأ عيْنِي مَنْ تأملُ
ح التَّجَنَّى فتحملُ
نيلَ أمرٍ لم يؤملُ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى^٥ :

أجِدُ ومن أهواهُ في الحبِّ عابثُ
حبيبُ نأى عني مع القُربِ ، والأسى
جفاني بالطفِ العدا وأزاله
تَغَيَّرَ عن عهدي وما زلتُ واثقاً
وما كنتُ إذ ملكتك القلبَ عالماً
ستبلى الليالي والودادُ بحاله
فلو أني أقسمتُ أنك قاتلي
وأوفي له بالعهدِ إذ هو ناكثُ
مقيمٌ له في مُضْمَرِ القلبِ ماكثُ
عن الوصلِ رأيٌ في القطيعةِ حادثُ
بعهدك لكن غيرتك الحوادثُ
بأنّي عن حتفي بكفي باحثُ
مقيمٌ ، وغضُّ وهو للأرض وارثُ
وأني مقتولٌ لما قيل حانثُ

وقال رحمه الله تعالى^٦ :

١ الديوان : تسليمة .

٢ الديوان : يتظنى .

٣ الديوان : ١٨٢ .

٤ الديوان : لا يأس .

٥ الديوان : ١٨٣ .

٦ الديوان : ١٨٦ .

يا غزالاً أصارني موثقاً في يد المحن
إتني منذ هجرتني لم أذق لذة الوسن
ليت حظي إشارة منك أو لحظة تعن^١
شافعي يا معذبي في الهوى وجهك الحسن
كنت خلواً من الهوى وأنا اليوم مرتهن
كان سرّي مكتماً وهو الآن قد علن
ليس لي عنك مذهب فكما شئت لي فكن^٢

وقال رحمه الله تعالى^٣ :

أيوحش لي الزمان وأنت أنسي ويظلم لي النهار وأنت شمسي؟
وأغرس في محبتك الأمان وأجني الموت من ثمرات غرسي
لقد جازيت غدراً عن وفائي وبعث مودتي ظلماً ببخس
ولو أن الزمان أطاع حكمي فديتك من مكارهه بنفسي^٤

ومحاسن ابن زيدون كثيرة ، وقد ذكرنا منها في غير هذا المحل جملة .
وسألت جارية من جوارى الأندلس ذا الوزارتين أبا الوليد ابن زيدون أن
يزيد على بيت أنشدته إياه ، وهو^٥ :

يا معطشي من وصال كنتُ واردهُ هل منك لي غلة إن صحتُ واعطشي
قال : وكانت الجارية المذكورة تتعشق فتى قرشياً ، والوزير يعلم ذلك ،
وهي لا تعلم أنه يعلم ، فقال :

١ الديوان : عنن .

٢ الديوان : ١٨٥ .

٣ استطردت نسخة م بعد هذا البيت بإيراد أشعار أخرى لابن زيدون وذكر ترجمته من القلائد .

٤ ديوان ابن زيدون : ١٧٠ .

كَسَوْتَنِي مِنْ ثِيَابِ السُّقْمِ أَسْبَغَهَا
 أَنَّنِي بِصَرْفِ الْهَوَى عَنْ مَقْلَةٍ كُحِلَتْ
 لَمَّا بَدَا الصَّدْعُ مَسُوداً بِأَحْمَرِهِ
 أَوْفَى إِلَى الْخَدِّ ثُمَّ انْصَاعَ مَنَعُفًا
 لَوْ شِئْتَ زَرْتِ وَسَلَكِ اللَّيْلُ ٢ مُنْتَظِمٌ
 جَفَا إِذَا التَّذَاتِ الْأَجْفَانُ طِيبَ كَرَى
 هَذَا وَإِنْ تَلَفْتَ نَفْسِي فَلَا عَجَبٌ
 ظَلَمًا وَصَيَّرْتَ مِنْ لَحْفِ الضَّنَى فُرْشِي
 بِالسَّحْرِ مِنْكَ وَخَدَّ بِالْجَمَالِ وَشِي
 أَرَى التَّشَاكُلَ ١ بَيْنَ الرُّومِ وَالْحَبَشِ
 كَالْعَقْرُبَانِ انْتَنَى مِنْ خَوْفِ مَحَرَشِ
 وَالْأَفَقُ يُخْتَالُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْغَبَشِ
 جَفَنِي ٣ الْمَنَامُ وَصَاحَ اللَّيْلُ : يَا قُرْشِي
 قَدْ كَانَ قَتْلِي فِي تِلْكَ الْجَفُونِ حُشِي

٥٤ - وكان لابن الحاج صاحب ٤ قرطبة ثلاثة أولاد من أجمل الناس
 صورة : رحمون ، وعزؤون ، وحسون ، فأولع بهم الحافظ الشهير أبو محمد ابن
 السيد البطلاني صاحب « شرح أدب الكاتب » وغيره وقال فيهم :
 أَخْفَيْتُ سُقْمِي حَتَّى كَادَ يُخْفِينِي وَهَمْتُ فِي حَبِّ عَزْؤُنِ فَعَزَّوْنِي
 ثُمَّ أَرْحَمُونِي بِرَحْمُونٍ وَإِنْ ظَمْتُ نَفْسِي إِلَى رَيْقِ حَسُونٍ فَحَسَّوْنِي
 قال : ثم خاف على نفسه ، فخرج عن قرطبة ، وهو القاتل :

نَفْسِي الْفِدَاءُ لَجُؤَذِرٍ حَلَوِ اللَّيْمِ مُسْتَحْسَنٍ بِصُدُودِهِ أَفْنَانِي
 فِي فِيهِ سِمَاطُ جَوْهَرٍ يَرْوِي الظَّمَا لَوْ عَلَّنِي بِبَرُودِهِ أَحْيَانِي

وهذان البيتان تخرج منهما عدة مقطعات كما لا يخفى .

٥٥ - وقال أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الإشبيلي المعروف بالأبيض ،

١ الديوان : التسالم .

٢ الديوان : النجم .

٣ الديوان : صبا جفا .

٤ انظر أزهار الرياض ٣ : ١٠٢ ، ١٣٤ ؛ والقطعة الثانية تنفك منها ست قطع .

في تهنته بمولود ، قال ابن دحية^١ : وهذا أبدع ما قيل في هذا المعنى :

أصاحت الخيلُ آذاناً لصرخته واهتزَّ كلُّ هزْبٍ عندما عطسا
تَعَشَّقَ الدرْعَ مذْ شُدَّتْ لفائفُهُ وأبغضَ المهدَ لما أبصرَ الفرسا
تعلَّم الركنُ أيتامَ المخاضِ به فما امتطى الخيلَ إلّا وهو قد فرسا

٥٦ - وقال الوزير الكاتب أبو عامر السامي^٢ في غلام يرش الماء على خديه فتزداد حمتهما :

لقد نعمتُ بحمامٍ تطلَّعَ في أرجائه قمرٌ والحسنُ يكمله
أبصرتهُ كلما راقَتْ محاسنُهُ ونعمةُ الجسم والأردافِ تُخجلُهُ
يرشُ بالماء خديه فقلتُ له : صف لي لما أحمرُ الباقوتِ تصقله
فقال : طرفي سَفَاكُ بصارمه دماء قومٍ على خدِّي فأغسله

وقال أيضاً^٣ :

أوقدَ النارَ بقلبي ثم هبَّتْ ريحُ صدَّةٍ
فشرارُ النارِ طارت فانطفتْ في ماء خدَّةٍ

وهو تخيل عجيب .

٥٧ - وقال ابن الخطاط المكفوف الأندلسي في المعنى المشهور^٤ :

لم يخلُ منْ نوبِ الزمانِ أديبُ كلاًّ فشأنُ النائباتِ عجيبُ
وغضارةُ الأيتامِ تأبى أن يرى فيها لأبناء الذكاء نصيبُ

١ المطرب : ٧٦ .

٢ المطرب : ٧٧ والشعر ليس للسامي ، وإنما أنشده السامي وهو لأبي الحسين ابن مظفر .

٣ المطرب : ٧٨ ؛ وهذا الشعر صحيح النسبة للسامي .

٤ الذخيرة ١/١ : ٣٩٢ .

وكذلك مَنْ صَحِبَ اللَّيَالِي طَالِباً جَدّاً وفهماً فاتهُ المطلوبُ

[أشعار لابن الزقاق]

٥٨ - وكان ابن الزقاق الأندلسي الشاعر المشهور - وقد تكرر ذكره في هذا التأليف مرات كثيرة - يسهر في الليل ، ويشغل بالأدب ، وكان أبوه فقيراً جداً ، فلامه ، وقال له : نحن فقراء ، ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه ، فاتفق أن برع في الأدب والعلم ونظم الشعر ، فقال في أبي بكر ابن عبد العزيز صاحب بكتنسية قصيدة أولها ١ :

يا شمسَ خديرٍ ما لها مغربُ أرامهُ خِدرُكِ أم يثربُ
ذهبتِ فاستعبرَ طريقي دماً مفضضُ الدمعِ به مذهبُ

ومنها :

ناشدتُكَ اللهَ نَسيمَ الصَّبَا أني استقرتُ بعدنا زينبُ
لم نسرِ إلا بشدا عرفها أو لا فماذا النفسُ الطيبُ
إيه وإن عذبتي حبُّها فمن عذابِ النفسِ ما يعذبُ

فأطلق له ثلاثمائة دينار ، فجاء بها إلى أبيه وهو جالس في حانوته مكباً على صنعته ، فوضعها في حجره ، وقال : خذها فاشتر بها زيتاً .

وقال رحمه الله تعالى في غلام رمى حجراً فشده وجهه ٢ :

وأحوى رمى عن قسيِّ الحورِ سهاماً يفوقهنَّ النظَرُ
يقولون وجنته قُسمت ورسمُ محاسنه قد دثرُ

١ ديوان ابن الزقاق : ٨٠ والمغرب ٢ : ٣٢٥ والفيث ٢ : ٨٤ .

٢ ديوانه : ١٧٩ والمغرب : ١٠١ ولج السحر : ٤٨ والمغرب ٢ : ٣٣٢ والوافي : ١٣٤ .

وما شَقَّ وَجَنَّتَهُ عَابِثًا وَلَكِنَّهَا آيَةٌ لِلْبَشَرِ
جَلَاها لَنَا اللهُ كَيْما نَرى بِها كَيْفَ كان انشِقاقُ القَمَرِ

وقال أيضاً^١ :

بأبي وغير أبي أغْنُ مهْفَهْفُ مَهْضُومُ ما خَلَفَ الوِشاحَ خَمِيصُهُ
لَبِسَ السَّوَادَ^٢ وَمَزَقَّتَهُ جُفُونُهُ فَأَتَى كَيْسُفَ حِينَ قَدْ قَمِيصُهُ

وقال أيضاً^٣ :

سَقَّتَنِي يُمْنُها وفيها فَلَمْ أَزَلْ يَجاذِبُنِي مِنْ ذَا وَمِنْ هَذِهِ سَكْرُ
تَرَشَّفْتُ فَها إِذْ تَرَشَّفْتُ كَأَسَها فَلَاهُوى لَمْ أَذِرْ أَهْمَها الحَمَرُ

وقال^٤ :

رَقَّ النَّسِيمُ وراقَ الرُّوضُ بِالزَّهَرِ فَنَبَّهَ الكَأْسَ والإِبْرِيْقَ بِالوَتْرِ
ما العِشُّ إِلَّا اصْطَباحُ الرِّاحِ أو شَنَبُ يُغْنِي عَنِ الرِّاحِ مِنْ سِلْسَالِ ذِي أَشْرِ
قُلْ لِلْكَواعِبِ غَضِي لِلْكَرَى مُقْلًا فَأَعْيُنُ الزَّهَرِ أَوَّلِي مِنْكَ بِالسَّهْرِ
وَالصَّبَاحِ أَلَا فَانْشُرْ رِداءَ سَنًا هَذَا الدَّجَى قَدْ طَوَتْهُ رَاحَةُ السَّحَرِ
وَقامَ بالقَهْوَةِ الصَّهْبَاءُ ذُو هَيْفٍ يَكادُ مِعْطَفُهُ يَنْقَدُّ بِالنَّظَرِ
يُطْفِئُ عَلَيْها إِذا ما شَجَّها دُرُّ تَخالها اخْتَلِستَ مِنْ ثَغْرِها الحَصِرِ
والكَأْسُ مِنْ كَفِّها بِالرِّاحِ مُحَدَّقَةٌ كَهالَةٍ أَحَدَقْتُ فِي الْأَفْقِ بِالْقَمَرِ

١ الديوان : ١٩٦ والمطرب : ١٠٣ والشريشي : ٢ : ١٦٤ والمغرب : ٢ : ٣٣٤ .

٢ الديوان : الفؤاد .

٣ ديوان ابن الزقاق : ١٧٨ والمطرب : ١٠٤ والفوات : ٢ : ١٢٦ والوائي : ١٣٤ .

٤ الديوان : ١٧٣ والمطرب : ١٠٦ والمغرب : ٢ : ٣٣٢ .

٥ الديوان : لوتة راحة السر .

وقال^١ :

تضوَعن أنفاساً وأشرقن أوجُهاً فهنَّ منيراتُ الصباحِ بَواسمُ
لئن كنَّ زُهرًا فالجوانحُ أبرجُ وإن كنَّ زُهرًا فالقلوبُ كمائمُ
وهو من بديع التقسيم .

٥٩ - وقال السمسير^٢ :

تحفَظُ من ثيابك ثمَّ صنُها وإلاَّ سوفَ تلبسُها حدادا
وميزُ في زمانك كلَّ حبرٍ وناظرُ^٣ أهله تسُدُ العبادا
وظنَّ بسائرِ الأجناسِ خيرا وأما جنسُ آدمَ فالبعادا
أرادوني بجمعهم فَرُدُّوا على الأعقابِ قد نكصوا فُرَادى
وعادوا بعد ذا إخوانَ صدقٍ كبعضِ عقاربٍ رجعتْ جرادا

٦٠ - وقال ابن رزين ، وهو من رجال الذخيرة^٤ :

لأَسْرَحَنَّ نواظري في ذلك الروضِ النضيرِ
ولأَكُلَنَّكَ بالمتى ولأَشْرَبَنَّكَ بالضميرِ

٦١ - وقال سلطان بَلَنْسِيَّة عبد الملك بن مروان بن عبد الله بن عبد العزيز^٥ :

ولا غَرَوَ بعدي أن يُسَوِّدَ معشرُ فيُضْحِي لهم يومٌ وليس لهم أمسُ
كذلك نجومُ الجوّ تبدو زواهراً إذا ما توارتْ في مغاربها الشمسُ

١ الديوان : ١٤٦ والمطرب : ١٠٨ والشريشي : ٣٥٣ .

٢ الذخيرة ٢/١ : ٣٨٣ .

٣ الذخيرة : كل حين ، ونافر . . .

٤ ترجمته في الذخيرة ٣ : ٣٣ والمغرب ٢ : ٤٢٨ والقلائد : ٥١ .

٥ المغرب ٢ : ٣٠٠ .

٦٢ - وتحاكم إلى أبي أيوب سليمان بن محمد بن بطلال البطلانيوسي المعروف بالملتس^١ غلامان جميلان لأحدهما وفرة شقراء ، وللآخر سوداء : أيهما أحسن ؟ والملتس المذكور هو صاحب كتاب « الأحكام فيما لا يستغني عنه الحكام » ، فقال :

وشادنين ألما بي على مقة
كان لمة ذا من نرجس خلقت
وحكما الصب في التفضيل بينهما
فقام يذلي إليه الريم حجتته
فقال : وجهي بذر يستضاء به
وكحل عيني سحر للنهي وكذا
فقال صاحبه : أحسنت وصفك
أنا على أفقي شمس النهار ، ولم
وفضل ما عيب في عيني من زرق
قضيت للمة الشقراء حيث حك
فقام ذو اللمة السوداء يرشقي
وقال جررت فقلت الجور منك على
فقلت عفوك إذ أصبحت متهما

تنازعا الحسن في غايات مستبق
على بهار وذا مسك على ورق
ولم يخافا عليه رشوة الحدق
مبيناً بلسان منه منطلق
ولون شعري مصبوغ من الغسق
والسحر أحسن ما يعزى إلى الحدق
كن فاستمع لمقال في متشق
تغرب ، وشقرة شعري حمرة الشفق
أن الأسنة قد تعزى إلى الزرق
نوراً^٢ كذا حبها يقضي على رمقي
سهام أجفانه من شدة الحنق
قلبي ولي شاهد من دمعي الغدق
فقال دونك هذا الجبل فاختنق

٦٣ - وقال أبو محمد عبد الله بن غالب :

ومُهَفِّهَف خَنَثِ الجفون كأنما
فتخاله ليلاً إذا استقبلته
من أرجل النمل استفاد عذارا
وتخال ما يجري عليه نهرا

١ ترجمته في الجذوة : ٢٠٦ وبغية الملتس رقم : ٧٦٢ وقصيدته هذه في التشبيهات : ١٢٦ .

٢ ب م : لوني .

٦٤ - وقال أبو القاسم خلف بن فرج السميسر المتقدم^١ :

الناسُ مثلُ حَبَابٍ والدهرُ بلحّةُ ماء
فعالمٌ في طُفُوٍّ وعالمٌ في انطفاء

٦٥ - وقال أحمد بن بُرْدُ الأندلسي في الرجس ، وهو البهار عند
الأندلسيين ، ويسمى العَبْهَرُ^٢ :

تنبّه فقد شقّ البهارُ مَغْلَساً كمائمه عن نَوْرِهِ^٣ الخضل النّدي
مداهنٌ تبرّ في أناملِ فضّةٍ على أذرعٍ مخروطةٍ من زبرجدٍ

٦٦ - وقال الوزير عبد المجيد بن عبدون في دار أنزله بها المتوكل بن
الأفطس وسقفها قديم ، فهطل عليه المطر منه :

أيا سامياً من جانبَيْهِ إلى العلّا « سموّ حَبَابِ الماءِ حالاً إلى حالٍ »
لعبْدِكَ دارٌ حلّ فيها كأنها « ديارٌ لسلمى عافياتٌ بذى الحالِ »
يقولُ لها لما رأى من دثورها « ألا عِمّ صباحاً أيها الظلل البالي »
فقلتُ وما عيّت جواباً بردّها « وهل يعمّن من كان في العُصرِ الخالي »
فمرّ صاحبُ الانزالِ فيها بفاصلٍ « فإنّ الفتي يتهذّي وليس بفَعّالٍ »

قيل : وهو أبو عُدْرَةَ تضمين لامية امرئ القيس ، وقد أولع الناس بعده
بتضمينها .

٦٧ - وقال أبو الفضل ابن حسداي^٤ ، وكان يهودياً فأسلم ، ويقال : إنه

١ تقدم هذان البيتان في م على اللذين قبلهما (رقم : ٦٣) .

٢ الذخيرة ١ / ٢ : ٤٨ .

٣ الذخيرة : زهره .

٤ ترجمته في القلائد ١٨٣ والأبيات فيه ص : ١٨٤ وانظر المجلد الأول : ٦٤٠ .

من ولد موسى على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام :

توريدُ خدكَ للأحداقِ لذاتُ عليه من عنبرِ الأصداغِ لاماتُ
نيرانُ هجركَ للعشاقِ نارُ لَظيَ لكن وصالكَ إن واصلتَ جناتُ
كأنما الراحُ والراحاتُ تحمِلُها بدورُ تيمٍ وأيدي الشَّربِ هالاتُ
حُشاشةٌ ما تركنا الماءَ يقتلُها إلّا لتحيا بها منّا حُشاشاتُ
قد كان من قبلها في كأسها ثِقَلُ فخفَ إذ مُلئتُ منها الزجاجاتُ

وقد تبارى المشاركة والمغاربة من المتقدمين والمتأخرين في هذا الوزن والقافية ،
ولولا خوف السامة لذكرت من ذلك الجملة الشافية الكافية ^١ .

٦٨ - ومن سرعة جواب أهل الأندلس ^٢ أن ابن عبد ربه كان صديقاً لأبي
محمد يحيى القلقاط الشاعر ، ففسد ما بينهما بسبب أن ابن عبد ربه صاحب العقد ^٣
مرّ به يوماً وكان في مشيه اضطراب ، فقال : أبا عمر ما علمت أنك آدر إلّا
اليوم لما رأيت مشيك ، فقال له ابن عبد ربه : كذبتك عرسك أبا محمد ، فعزّ
على القلقاط كلامه ، وقال له : أنتعرض للحُرْم ؟ والله لأرينك كيف الهجاء ،
ثم صنع فيه قصيدة أولها :

يا عِرسَ أحمدَ إني مُزْمِعٌ سفراً فودَّ عيني سرّاً من أبي عمراً

ثم تهاجيا بعد ذلك ، وكان القلقاط يلقبه بطلاس لأنه كان أطلس اللحية ،
ويسمّي كتاب العقد جبل الثوم ، فاتفق اجتماعهما يوماً عند بعض الوزراء ،
فقال الوزير للقلقاط : كيف حالك اليوم مع أبي عمر ؟ فقال مرتجلاً :

١ م : جملة كافية شافية .

٢ بدائع البدائ ١ : ٥١ .

٣ صاحب العقد : سقطت من ب .

حال طِلاسُ ليَ عَن رائيهِ وَكنتُ في قُعدُدِ أبنائيهِ

فبدر ابن عبد ربه وقال :

إن كنتَ في قُعدُدِ أبنائيهِ فقد سقى أُمَّكَ من مائه

فانقطع القلفاط خجلاً ؛ وعاش ابن عبد ربه ٨٢ سنة ، رحمه الله تعالى .

٦٩ - ومن الحكايات في مروءة أهل الأندلس ما ذكره صاحب «الملتمس» في ترجمة الكاتب الأديب الشهير أبي الحسين ابن جبير صاحب الرحلة ، وقد قدمنا ترجمته في الباب الخامس من هذا الكتاب ، وذكرنا هنالك أنه كان من أهل المروءات عاشقاً في قضاء الحوائج والسعي في حقوق الإخوان ، وأنشدنا هنالك قوله :

يحسبُ الناسُ بأني مُتَعَبٌ ... إلخ .

وقد ذكر ذلك كله صاحب «الملتمس» ثم قال - أعني^١ صاحب «الملتمس» - ومن أغرب ما يحكى أني كنتُ أحرصُ الناسَ^٢ على أن أصادر قاضي غرناطة أبا محمد عبد المنعم بن الفرس ، فجعلته - يعني ابن جبير - الواسطة حتى تيسر ذلك ، فلم يوفق الله ما بيني وبين الزوجة ، فجنثته وشكوت له ذلك ، فقال : أنا ما كان القصد لي في اجتماعكما ، ولكن سعت جهدي في غرضك ، وها أنا أسعى أيضاً في افتراقكما ، إذ هو من غرضك ، وخرج في الحين ففصل القضية ، ولم أر في وجهه أولاً ولا آخرأ عنواناً لامتنان ولا تصعيب ، ثم إنه طرق بابي ، ففتحت له ، ودخل وفي يده محفظة فيها مائة دينار مؤمنية ، ثم قال^٣ : يا ابن

١ أعني : سقطت من م .

٢ الناس : سقطت من م .

٣ م : فقال .

أخي ، اعلم أنني كنت السبب في هذه القضية ، ولم أشك أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذي وجدته الآن عند عمك ، فبالله إلا ما سررتني بقبوله ، فقلت له : أنا ما أستحيي منك في هذا الأمر ، والله إن أخذت هذا المال لأتلفنه فيما أتلفت فيه مال والذي^١ من أمور الشباب ، ولا يحل لك أن تتمكني منه بعد أن شرحت لك أمري ، فتبسم وقال : لقد احتلت في الخروج عن المنّة بحيلة ، وانصرف بماله ، انتهى .

٧٠ - ثم قال صاحب «الملمس» : وتذاكرنا يوماً معه حالة الزاهد أبي عمران المارتلي ، فقال : صحبته مدة فما رأيت مثله ، وأنشدني شعرين ما نسيتهما ولا أنساهما ما استطعت ، فالأول قوله^٢ :

إلى كم أقولُ فلا أفعلُ	وكم ذا أحومُ ولا أنزلُ
وأزجرُ عيني فلا ترعوي	وأنصحُ نفسي فلا تقبلُ
وكم ذا تعللُ لي ويحها	بعلٌ وسوف وكم تمطلُ
وكم ذا أوملُ طولَ البقا	وأغفلُ والموتُ لا يغفلُ
وفي كل يومٍ يُنادي بنا	منادي الرحيلِ ألا فارحلوا ^٣
أمن بعد سبعين أرجو البقا	وسبعٍ أتتْ بعدها تعجلُ
كأن بي وشيكاً إلى مصرعي	يُساقُ بنعشي ولا أمهلُ
فيا ليت شعري بعد السؤالِ	وطولِ المقامِ لما أنقلُ

والثاني قوله :

اسمعُ أخَيَّ نصيحتي والنصحُ من مخضِ الديانة

١ م : مالي ومال أبي .

٢ هاتان القطعتان في ترجمته في المغرب والفصون الياضة ، والثانية منهما مرت فيما تقدم ص : ٩٩ .

٣ المغرب : ألا فازلوا .

٤ م : كاني .

لا تَقْرَبَنَّ إِلَى الشَّهَاءِ دَةَ وَالْوَسَاطَةَ وَالْأَمَانَةَ
تَسْلَمُ مِنْ أَنْ تُعْزَى لَزْوٍ رِيٍّ أَوْ فَضُولٍ أَوْ خِيَانَةٍ

قال : فقلت له : أراك لم تعمل بوصيته في الوساطة ، فقال : ما ساعدتني رقة
وجهي على ذلك ، انتهى .

رجع إلى نظم الأندلسيين :

٧١ - وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ^١ :

أَفْضَلُ مَا اسْتَصْحَبَ النَّبِيلُ فَلَا	تَعْدِلُ بِهِ فِي الْمَقَامِ وَالسَّقَرِ
جِرْمٌ إِذَا مَا التَّمَسَّتْ قِيَمَتُهُ	جَلَّ عَنْ التَّبَرِّ ^٢ وَهُوَ مِنْ صُفْرِ
مُخْتَصِرٌ وَهُوَ إِذْ تَفْتَشُّهُ	عَنْ مُلْحِ الْعِلْمِ غَيْرِ مُخْتَصِرِ
ذُو مُقَلَّةٍ تَسْتَبِينُ مَا رَمَقَتْ	عَنْ صَائِبِ اللَّحْظِ صَادِقِ الْخَبْرِ
تَحْمِلُهُ وَهُوَ حَامِلٌ فَلَكَا	لَوْ لَمْ يَدْرُ بِالْبَنَانِ لَمْ يَدْرُ
مَسْكَنُهُ الْأَرْضُ وَهُوَ يُنْبِئُنَا	عَنْ كُلِّ مَا فِي السَّمَاءِ مِنْ خَبَرِ
أَبْدَعُهُ رَبُّ فِكْرَةٍ بَعُدَتْ	فِي اللَّطْفِ عَنْ أَنْ تَقَاسَ بِالْفَكْرِ
فَاسْتَوْجَبَ الشُّكْرَ وَالثَنَاءَ بِهِ	مِنْ كُلِّ ذِي فِطْنَةٍ مِنَ الْبَشَرِ
فَهُوَ لِذِي اللَّبِّ شَاهِدٌ عَجَبٌ	عَلَى اخْتِلَافِ الْعُقُولِ وَالصُّوَرِ

قلت : وهي من أحسن ما سمعت في الاضطراب .

وأمر رحمه الله تعالى أن يكتب على قبره ^٣ :

سَكَنْتُكَ يَا دَارَ الْفَنَاءِ مُصَدِّقًا
وَأَعْظَمُ مَا فِي الْأَمْرِ أَنِّي صَائِرٌ
بَآئِي إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ أَصِيرُ
إِلَى عَادِلٍ فِي الْحُكْمِ لَيْسَ يَجُورُ

١ الخريدة ١ / ٤ : ٢٧٢ .

٣ مرت في المجلد الثاني : ١٠٨ .

٢ ب : جل على التبر .

فيا ليت شعري كيف ألقاهُ عندها وزادي قليلٌ والذنوبُ كثيرُ
 فإن ألكُ مَجْزِيًّا بذنبي فإنتي بِشَرِّ عقابِ المذنبين جَدِيرُ
 وإن يكُ عفوٌ من غنيٍّ ومُفْضِلٍ فثمَّ نعيمٌ دائمٌ وسرورُ

٧٢ - وقال ابن خفاجة^١ ، وهو ممّا أورده له صاحب الذخيرة :

لقد زار من أهوى على غير موعد فعايَنتُ بدَرَ التَّمِّ ذاك التلاقيا
 وعاتبته والعتبُ يحلو حديثُهُ وقد بَلَغَتْ رُوحِي لديه التراقيا
 فلما اجتمعنا قلتُ من فَرَحِي به من الشعر بيتاً والدموع سواقيا
 « وقد يجمعُ الله الشَّتَيْتَيْنِ بَعْدَما يظنّان كلَّ الظنِّ أن لا تلاقيا »

٧٣ - ومن مُجَوِّن الأندلسيين هذه القصيدة المنسوبة لسيدي أبي^٢ عبد الله

ابن الأزرق ، وهي :

عِمْ باتصالِ الزمنِ ولا تُبالي بِمَنِ
 وهو يواسي بالرضى من سَمَحٍ أو حَسَنِ
 أو من عجوزٍ تحتَظي^٣ والظهرُ منها منحنِ
 أو من مليحٍ مُسْعِدٍ موافقٍ في الزمنِ
 مهما تبدّى خدّه يبدو لك الوردُ الجني
 والغصنُ في أثوابهِ إذا تَمَشَّى بِنَشْئِي
 لا أُمَّ لي لا أُمَّ لي إن لم أبردْ شَجَئِي
 وأخلَعَنَ في المجو نِ والتصابي رَسَئِي
 وأجعلُ الصبرَ على هَجَرِ الملاحِ دِينِي

١ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٥ (نقلا عن النفع) .

٢ م : لأبي .

٣ م : تحتَظي .

يا عاذلي في مَذْهَبِي أَرْدَاكَ شُرْبُ اللَّبَنِ
أَعْطَيْتَ فِي الْبَطْنِ سِنَا نَأْ إِنْ تَخَالَفَ سَنِّي
أَيُّ فَتَى خَالَفَنِي يَوْمًا وَلَمَّا يَلْفَنِي
فإِنِّي لَنَاصِحٌ وَإِنِّي وَإِنِّي
فَلَا تَكُنْ لِي لَاحِيًا وَفِي الْأُمُورِ اسْتَفْتَنِي
فَلَمْ أَزَلْ أُعْرَبُ عَنْ نَصَحِي لِمَنْ لَمْ يَلْحَنِي
وإِنْ تُسَفِّهُ نَظْرِي وَمَذْهَبِي وَتَنْهِي
فَالصَّفْعُ تَسْتَوْجِبُهُ نَعَمْ وَنَتَفُ الذَّقَنِ
وَالزَّبْلُ فِي وَجْهِكَ يَهْ لَوْ بِاتِّصَالِ الزَّمَنِ
وَبَعْدَ هَذَا أَشْتَقِي مِنْكَ وَيَبْرَأُ شَجْتِي
وَأُضْرِبُ الْكَفَّ أَمَّا مَ ذَلِكَ الْوَجْهَ الدُّنْيَا
طَقَطُ طَقَطِ طَقَطُ طَقَطِ أَصْخَ بِسَمْعِ الْأُذُنِ
فَحَقَّقْ قَحْ قَحَقَّ قَح الضَّحْكَ يُغْلِبُنِي
قَدْ كَانَ أَوَّلُ بَكَ عَنْ هَذِي الْمَخَازِي تَنْشِي
النَّفْيِ تَسْتَوْجِبُهُ لَوَاسِطِ أَوْ عَدَنِ
عَرَضْتَ بِالنَّفْسِ كَذَا إِلَى ارْتِكَابِ الْمُحَنِ
أَفْدِي صَدِيقًا كَانَ لِي بِنَفْسِهِ يُسْعِدُنِي
فَتَارَةً أَنْصَحُهُ وَتَارَةً يَنْصَحُنِي
وَتَارَةً أَلْعَنُهُ وَتَارَةً يَلْعَنُنِي
وَرَبَّمَا أَصْفَعُهُ وَرَبَّمَا يَصْفَعُنِي
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فَهْ إِذَا الْقَوْلُ لَا يَعْجِبُنِي
يَا لَيْتَ هَذَا كُلَّهُ فِيمَا مَضَى لَمْ يَكُنْ

أضحكتُ والله بهذا الـ
دهرُ تولى وانقضى
يا ليتني لم أره
دَتَسْتُ فيه جاني
وبعتُ فيه عيشتي
كأنتي ولستُ أدُ
والله ما التشبيه عنـ
لكنه أنطقَني
وا حسرتي وا أسفي
لو أنصف الدهرُ لما
وليس لي من جنةٍ
أَسْرَحُ الطرفَ وما
وليس لي من فرسٍ
يا ليت شعري وعسى
هل أمتطي يوماً إلى الـ
وأجتلي ما شئتُه
حينئذ أخلعُ في
وتحسنُ الفكرة بالـ
واللحم مع شحمٍ ومع
والبيض في المقلاة بالـ

حديث من يسمعي
عني كطيف الوسن
وليسته لم يرني
وملبسي بالدرن
لكن بيخس الثمن
ري الآن ما كأنتي
مد شاعر بهين
بالقول ضيق العطن
زلت وضاعت فطني
أخرجني من وطني
وليس لي من مسكن
لي دمنة في الدهن
وليس لي من سكن
يا ليت أن تنفعي
شرق ظهور السفن
في المنزل المؤمن^٢
هذي القوافي رستي
مُدوس^٣ والسمنسي^٤
طوابق الكباش الثني
زيت الازيد الدهن

١ سقط البيت من م .

٢ ب : المؤمن .

٣ ب : بالغندوس .

٤ ب : والشمشي ؛ م : والستني .

وجلدة الفروج مش
 من منقذي أفديه من
 وعلة^١ قد استوى
 هل للريد عودة^٢
 تغوص فيه أنملي
 ولي إلى الإسفنج شو
 وللأرز الفضل إذ
 وللشواء والرقا
 واسكت عن الجبن فإن
 ظاهرها كالورد أو
 أي أمرى أبصرها
 تميم فيها فكر الأس
 لو كان عندي معدن
 لكنني عزمت أن
 والكم قد أكسبه
 لا تنسبوا لي سفها
 وهات ذكر الكسكو
 لا سيما إن كان مص
 أرفع منه كوراً
 وإن ذكرت غير ذا
 فابدأ من المثوما

وياً كثير السمن
 ذا الجوع والتمسكن
 فيها الفقير والغني
 إلي قد شوقي
 غوص الأكل المحسن
 ق دائم يطربني
 تطبخه باللبن
 ق من هيام أنني
 بنته تذهلي
 باطنها كالسوسن
 يوماً ولم يفتن
 تاذ والمؤذن
 لبعث فيها معدني
 أبيع كم البدن
 بعد ولا يكسبني
 فالجوع قد أرشدني
 فهو شريف وسني
 نوعاً بقتل حسن
 بهن تدوي^٢ أذني
 أطعمة في الوطن
 ت بالجن الممكن

١ م : وقلة .

٢ ب : (بها) تداوى .

من فوقها الفُرُوجُ قد أنهي في التسمنِ
 وثنٌ بالعصيدةِ ال تي بها تطربي
 لا سيما إن صنعتُ على يدي ممركنِ
 كذلك البلياطُ بال زيت الذي يقنعي
 تطبخهُ حتى يرى يحمرّ في التلّونِ
 والزبزينُ في الصحا ف حسب أهل البطنِ^١
 فاسمعُ قضاءً ناصحِ يأتي بنصحِ بيتنِ
 من اقتنى التفين فه و الآن نعم المقتني
 وإن في شاشية ال فقير أنسا للغني
 تبعدي عن وصلها عن وصلها تبعدي
 تؤنسي^٢ عن اللقا عن اللقا تؤنسي^٢
 فأضلعي إن ذُكرتُ تهفو كمثل الغصنِ
 كم رُمتُ تقريباً لها لكنه لم يهنِ
 وصدّتي عن ذاك و لمة الوفا بالثمنِ
 إيه خليلي هذه مطاعم لكنني
 أعجب من ريقك إذ يسيل فوق الذقنِ
 هل نلت منها شعباً فذكرها أشعني
 وإن تكن جوعان يا صاح فكل بالأذنِ
 فليس عند شاعري غير كلام الألسنِ
 يصورُ الأشياء وه ي أبداً لم تكن

١ سقط من م ؛ وأول لفظة فيه بياض في ب .

٢ م : تؤنسي .

فقلهٗ يريكَ ما ليسَ يرى بالممكنِ
فاسمعْ وسامعْ واقتنعْ واطوِ حشاك واسكنِ
ولتنصرف فقصدنا إطرافُ هذا الوطنِ
انتهى .

٧٤ - وقال ابن خفاجة رحمه الله تعالى ١ :

درسوا العلوم ليملكوا يجداهمُ فيها صدورَ مراتبٍ ومجالسِ
وتزهدوا حتى أصابوا فرصةً في أخذ مالٍ مساجدٍ وكنائسِ
وهذا المعنى استعمله الشعراء كثيراً .

٧٥ - وقال - فيما أظن - الفقيه الكاتب المحدث الأديب الشهير أبو عبد
الله محمد بن الأبار القُضاعي ، وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب في مواضع :

لقد غَضِبْتُ حتى على السَّمْطِ نَحْوَةً فلم تتقلد غير مبسمها سِمطاً
وأنكرتِ الشَّيْبَ المُلِمَّ بِلِمَتِي ومن عَرَفَ الأيامَ لم ينكرِ الوخطا

[نقول من القدح المعلق]

٧٦ - وقال ابن سعيد في القدح المعلق في حقه ٢ : كاتب مشهور ، وشاعر
مذكور ، كتب عن ولاية بَلَنْسِيَّة ، وورد رسولاً حين أخذ النصارى بمَخَنَقِ
تلك الجهات ، وأنشد قصيدته السينية :

أدركْ بخيلِكَ خيلَ اللهِ أنلدسا إنَّ السَّيْلَ إلى منجاتها دَرَسَا
وعارضه جمع من الشعراء ما بين مخطيء ومحروم ، وأغري الناس بحفظها

١ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٦ (عن النفح) .

٢ اختصار القدح : ١٩١ .

إغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم ، إلا أن أخلاقه لم تُعِنه على الوفاء بأسباب الخدمة ، فقلصت عنه تلك النعمة ، وأخر عن تلك العناية ، وارتحل إلى بجاية ، وهو الآن بها عاطل من الرُتب ، خالٍ من حلى الأدب ، مشغولٌ بالتصنيف في فنونه ، متنقلٌ منه بواجبه ومسئولته ، ولي معه مجالسات آتق من الشباب ، وأبهج من الروض غبّ نزول السحاب ، ومما أنشدنيه من شعره ٢ :

يا حَبّذاً بحديقةٍ دولابُ سكنتُ إلى حركاته ٣ الألبابُ
غنّني ولم يطربْ وسقّني وهو لم يشرب ومنه العُود والأكوابُ
لو يدعني لطفَ الهواء أو الهوى ما كنتُ في تصديقه أرتابُ
وكأنّه ممّا شدا مُستهزئٌ وكأنّه ممّا بكى ندّابُ
وكأنّه بنّاره ومداره فلكٌ كواكبُه لها أذئابُ

٧٧ — وقال أبو المعالي القيحاوي ٥ :

فقلت يا ربّعهمُ أينَ مَنْ أحبّته فيك وأينَ النديمُ
فقال عهدٌ قد غدا شمله كمثل ما يُنشرُ درّ تنظيمُ

٧٨ — وقال أبو عمرو ابن الحكم القبطي ٦ ، وقبلة من أعمال وادي

إشبيلية :

كمْ أقطعُ الدهرَ بالمِطالِ ؟ ساءت وحقّ الإله حالي

١ القدح : ظل تلك .

٢ القدح : ١٩٢ .

٣ ب : بحركاتها .

٤ القدح : مستهتر .

٥ القدح : ٢١١ .

٦ القدح : ٢٠٠ ؛ وفي ب : عبد الحكم .

رحلتُ أبغي بكمُ نجاحاً فلم تفيدوا سوى ارتحالي
وعَدْتُمُ ألفَ ألفٍ وعَدٍ لكنني عُدْتُ بالمحالِ

٧٩ - وقال أبو عمران القلعي ^١ :

طلعتَ عليَّ والأحوالُ سودٌ كما طلع الصبحُ على الظلامِ
فقل لي كيف لا أوليك شعري وإخلاصَ التحيّةِ والسّلامِ

٨٠ - وقال أبو إسحاق إبراهيم بن أيوب المرسى ^٢ :

أنا سكرانٌ ولكنّ من هوى ذاك الفلاني
كلّما رمتُ سلّواً لم يزل بين عياني

وقال :

حبيبي ما لصبك من مرادٍ سوى أن لا تدومَ على البعادِ
وإن كان ابتعادك بعد هذا مقيماً فالسّلامُ على فؤادي

قال ابن سعيد : وكان المذكور إذا غنى هذه الأشعار اللطيفة على الأوتار لم يبق لسامعه عند الهموم من ثار ، مع أخلاق كريمة ، وآداب كانسكاب الدّيمة ، انتهى .

٨١ - وقال ابن سعيد ^٣ في أبي بكر محمد بن عمّار البرجي كاتب ابن

هود القائل :

١ القدح : ٢٠١ .

٢ القدح : ٢١٤ وفيه ابن لبون .

٣ القدح : ٢١٧ .

[قل] لمن يشهد حرباً تحت رايات ابن هود

الخ ... :

يا ابن عمار لقد أحبيت لي ذاك السميّاً
في حليّ نظمٍ ونثرٍ علّقاً في مسمعيّاً
ولقد حزت مكاناً من ذرى الملك عليّاً
مثل ما قد حاز لكن عيش بنعماك هنيّاً

٨٢ — وقال أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز الإشبيلي المعروف بابن صاحب

الرد^١ :

يا أبدع الخلق بلا مريّة وجّهك فيه فتنة الناظرين
لا سيّما إذ نلتقي خطرة فيغلب الورد على الياسمين
طوبى لمن قد زرتّه خالياً فمتعّ النفس ولو بعد حين
من ذلك الثغر الذي وردّه ما زال فيه لذة الشاربين
وما حوى ذاك الإزار الذي لم يعدّ عنه أمل الزائرين

وهذه الأبيات يقولها في غلام كان أدباء إشبيلية قد فتنوا به ، وكان مروره

على داره .

وحكى عنه أنه أعطاه في زيارة خمسين ديناراً ، ومرت أيام ثمّ صادفه عند داره ، فقال له : أتريد أن أزورك ثانية ؟ فقال له : لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وهذا الجواب — على ما فيه من قلة الأدب ، وهتك حجاب الشريعة — من أشد الأجوبة لإصابة الغرض ، والله تعالى يسمح له ، فقد قال ابن سعيد في حقه : إن بيته بإشبيلية من أجل البيوت ، ولم يزل له مع تقلّب الزمان ظهور

١ القتح : ١١٢ - ١١٣ .

وخفوت ، وكان أديباً شاعراً ذوّاقاً لأطراف العلوم ، انتهى .

٨٣ - ومن المشهورين بالمجون والخلاعة بالأندلس - مع البلاغة والبراعة - أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير الكاتب^١ ، وهو من بيت مشهور من جزيرة شقر ، من عمل بِلَنْسِيَّةَ ، وكتب عن ولاية من بني عبد المؤمن ، ثم استكتبه السلطان ابن هود حين تغلب على الأندلس ، وربما استوزره في بعض الأحيان . قال ابن سعيد : وهو ممتن كان والذي يكثر مجالسته ، ولم أستفد منه إلا ما كنت أحفظه في مجالسته ، وكان شديد التهور ، كثير الطيش ، ذاهباً بنفسه كل مذهب ، سمعته مرة وهو في محفل يقول : تقيمون القيامة لحبيب والبحري والمتنبي وفي عصركم من يهتدي إلى ما لم يهتدوا إليه ؟ فأهوى له شخص له قِحةٌ وإقدام ، فقال : يا أبا جعفر ، فأرنا برهان ذلك ، ما أظنك تعني إلا نفسك ، فقال : نعم ، ولم لا ؟ وأنا الذي أقول ما لم يتنبه^٢ إليه متقدم ، ولا يهتدي لمثله متأخر :

يا هل ترى أظرفَ من يومنا قلّد جيدَ الأفقِ طوقَ العقيقِ
وأنطقَ الورقَ بعيدها مرقصةً كلَّ قضيبي وريقِ
والشمسُ لا تشربُ خمرَ الندى في الروضِ^٣ إلا بكؤوسَ الشقيقِ

فلم ينصفوه في الاستحسان ، وردوه في الغيظ إلى أضيق مكان^٤ ، فقلت له : يا سيدي ، هذا هو السحر الحلال ، فبالله إلا ما زدني من هذا النمط ، فقال :

أدرها فالسماء بدت عروساً مُضْمَخَةً الملابس بالغوالي

١ ترجمته في اختصار القدح : ١١٤ وعنه ينقل المقرئ ، وانظر المغرب ٢ : ١٣٦ والمقتضب من

التحفة : ١٥٧ والإحاطة ١ : ٢٤٤ .

٢ القدح : لم يهتد ؛ دوزي : لم ينته .

٣ ب ودوزي : الأرض .

٤ القدح : إلى أشد ما كان .

وخذُ الروضَ حمَّره١ أصيلٌ وجفنُ النهرِ كُحْلٌ بالظلالِ
وجيدُ الغصنِ يُشْرِقُ في لآلٍ تضيئُ بهنَّ أكنافُ الليالي

فقلت : زد وعُدْ ، فعاد والارتياح قد ملك عِطْفَه ، والتيه قد رفع أنفه ،
فقال :

لله نهرٌ عندما زرُّته عاين طرفي منه سحراً حلالاً
إذْ أصبحَ الطَّلُّ بهِ ليلةٌ وجال فيه الغصنُ شبه الخيالِ

فقلت : زد ، فأنشد :

ولما ماج بحرُ الليلِ بيني وبينكمُ وقد جدَّتُ ذكراً
أراد لقاءكمُ إنسانٌ عَيْتِي فمدَّ له المنامُ عليه جسراً

فقلت : إيه ، فقال :

ولما أن رأى إنسانٌ عَيْتِي بصحنِ الخدِّ منه غريقَ ماءٍ
أقامَ له العِذارُ عليه جسراً كما مدَّ الظلامُ على الضياءِ

فقلت : أعد ، فأعاد ، وقال : حَسْبُكَ لئلاَّ تكثُرَ عليك المعاني ، فلا
تقوم بحق قيمتها ، وأنشد :

هات المدامَ إذا رأيتَ شبيهها في الأفقِ يا فرداً بغيرِ شبيهِ
فالصبحُ قد ذبحَ الظلامَ بنصْلِهِ فغدَّتْ تحاصمهُ الحمامُ فيهِ

ثمَّ قال : وكان قد تهتك في غلام لابن هود ، ولكثرة انهزام ابن هود ربما
انهزم مع العليج ، وفيه يقول :

١ القدح : خفره .

ألفتُ الحربَ حتى علّمتني مقارعةَ الحوادثِ والخطوبِ
ولم أكُ عالماً وأيّكُ حرباً بغيرِ لواظِ الرّشْلِ الرّيبِ
فها أنا بين تلكَ وبين هذي مصابٌ من عدوٍّ أو حبيبِ

ولما هرب بالعلاج إلى سبتة أحسن إليه القائم بها أبو العباس الينشتي^١ ، فلم يقنع بذلك الإحسان ، وكان يأتي^٢ بما يوغر صدره ، فقال يوماً في مجلسه : رميت مرة بقوس ، فبلغ السهم إلى كذا^٣ ، فقال ابن طلحة لشخص بجانبه : لو كان قوس قزح ما بلغ إلى كذا ، فشعر بقوله ، فأسرّها في نفسه ، ثمّ بلغه أنه هجاه بقوله :

سمعنا بالموقّقِ فارتحلنا وشافِعُنَا له حسبٌ وعلمُ
ورُمْتُ يداً أقبلها وأخرى أعيشُ بفضلها أبداً وأسمو
فأنشدنا لسان الحالِ فيه يدٌ شلّا وأمرٌ لا يتمُّ

فزاد في حنقه ، وبقي مترصداً له الغوائل ، فحفظت عنه أبيات قالها وهو في حالة استهتار في شهر رمضان ، وهي :

يقولُ أخو الفضولِ وقد رآنا على الإيمانِ يَغْلِبُنَا المجونُ
أَتَنْتَهَكُون شهرَ الصومِ هَلَاً حماهُ منكمُ عَقْلٌ ودينُ
فقلتُ اصحبْ سوانا ، نحن قوم زنادقةٌ مذهبنا فنونُ
ندينُ بكلِّ دينٍ غيرِ دينِ الر عاع فما به أبداً ندينُ
بحيٍّ على الصُّبوحِ الدَّهرَ ندعو وإبليسُ يقولُ لنا أمينُ

١ في الأصول : البتي ؛ وصوابه ما أثبتناه ، ويكتب أيضاً « اليناشتي » .

٢ القدح : يستريح .

٣ زاد في القدح : ذكر مدى بعيداً .

فيا شهرَ الصيامِ إليك عَنَّا إليك ففبك أكفر ما نكونُ
فأرسل إليه من هجم عليه وهو على هذه الحال ، وأظهر أنه يُرضي العامة
بقتله ، فقتله ، وذلك سنة ٦٣١ ، انتهى . وحاكى الكفر ليس بكافر ، والله
سبحانه وتعالى للزلات غير الكفر غافر .

٨٤ - وقال محمد بن أحمد الإشبيلي ابن البناء^١ :

كأنك من جنس الكواكب كنت لم يَفْتُكَ طلوفاً حالها وتواريا
تجلَّيت من شرقٍ تروقُ تلالُها فلما انتحيت الغربَ أصبحتَ هاويا

٨٥ - ولما أمر المستنصر الموحد^٢ بضرب ابن غالب الداني ألف سوط
وصلبه ، وضرب بإشبيلية خمسمائة فمات ، وضرب بقية الألف حتى تناثر
لحمه ، ثم صُلب ، قال ابنه أبو الربيع^٣ يرثيه :

جهلاً لملك أن يبكي لما قدرا وأن يقول أسي يا ليته قبرا
فاضت دموعك أن قاموا بأعظمه وقد تطاير عنه اللحم وانتثرا

ومنها :

ضاقَتْ به الأرضُ ممّا كان حملها من الأيادي فمَجَّتْ شِلْوَهُ ضَجْرا
وعزَّ جسمك^٤ أن يحظى به كفنٌ فما تسربلَ إلاَّ الشمسَ والقمرَا

٨٦ - وقال أبو العلاء عبد الحق المرسى رحمه الله تعالى ° :

١ القدح : ١١٨ والمغرب ١ : ٢٤٩ .

٢ القدح : ١٢٧ والتحفة : ٨٣ والمغرب ٢ : ٤٠٦ .

٣ ق : الربيع .

٤ القدح : إذ ذاك .

٥ القدح : ١٢٦ .

يا أبا عمرانَ دعني والذي لم يملُ بي خاطري إلاّ إليه
 ما نديمي غيرُ من يخدمني لا الذي يجلسني بين يديه
 يرفعُ الكُلْفَةَ عني ويرى أنها واجبةٌ مني عليه

٨٧ - وقال ابن غالب الكاتب بمالقّة^١ :

لا تخشَ قولاً قد عقّدتَ الألسنا وابعثْ خيالك قد سحرتَ الأعينا
 واعطفْ عليّ فإنّ روحي زاهقٌ وانظرْ إليّ بنظرةٍ إنْ أمكنا
 لا يخذعتك أن تراني لابساً ثوبي فقد أصبحتُ فيه مكفناً
 ما زال سحرك يستميلُ خواطري بأرقٍّ من ماء الصفاء واليّنَا
 حتى غلوتُ ببحرٍ حبٍّ زاخِرٍ فرمتُ بيّ الأمواجُ في شطّ الضيّ

وقال :

ما للنسيمِ لدى الأصيلِ عليلاً أترأهُ يشكو زفرةً وغيللاً
 جرّ الذبولَ على ديارٍ أحبّتي فأتى يجرُّ من السقامِ ذيولاً

٨٨ - وقال أبو عبد الله ابن عسكر الغساني قاضي مالقّة^٢ :

أهواك يا بدْرُ وأهوى الذي يَعدّلي فيك وأهوى الرقيبُ
 والجارَ والدارَ ومنّ حلّها وكلّ من مرّ بها من قريبُ
 ما إنْ تنصّرتُ ولكنّي أقولُ بالثليثِ قولاً غريبُ
 تُطابقُ الألحانَ والكاسَ إذ تسمُ عُجْباً والغزالَ الريبُ

٨٩ - وكان أبو أمية ابن عفير^٣ قاضي إشبيلية - مع براعته ، وتقدّمه في

١ القدح : ١٢٨ .

٢ القدح : ١٣٠ .

٣ القدح : ١٣٢ .

العلوم الشرعية - أقوى الناس بالعلوم الأدبية المرعية ، وقد اشتهر بسرعة الخاطر في الارتجال ، وعدم المناظر له في ذلك المجال ، قال ابن سعيد : رأيته كثيراً ما يصنع القصائد والمقطعات ، وهو يتحدث أو يفصل بين الغرماء في أكثر الأوقات ، ومن شعره :

ديارهم صاحٍ نُصِبُ عيني وليس لي وصلةٌ إليها
إلاّ سلامي لدى ابتعادٍ من بعدِ سُكَّانِها عليها

وقوله رحمه الله تعالى :

وجه تغرّقُ الأبصارُ فيه ولكن يتركُ الأرواحَ هياماً
أتاني ثمّ حيّاتي حبيبٌ به وأباحني الخلدَ الرقيماً
فمرّاً لنا مجونٌ في فنونٍ سلكتُ به الصراطَ المستقيماً

قلت : أما مجرد الارتجال فأمر عن^٢ الكثير صادر ، وأما كونه مع التحدث أو فصل الخصومات فهو نادر ، وقد حكينا منها في هذا الكتاب من القسم الأول موارد ومصادر .

[عود للحديث عن ابن ظافر]

ويعجبني من الواقع لأهل المشرق من ذلك قضية علي بن ظافر ، إذ قال^٣ :
بيتٌ ليلة والشهابُ يعقوب ابن أخت نجم الدين في منزل اعترفت له مُشَيِّدَاتُ
القصور ، بالانخفاض والقُصور ، شهدت له ساميات البروج ، بالاعتلاء
والعُروج ، قد ابيضَّت حيطانه ، وطاب استيطانه ، وابتهج به سُكَّانه وقُطَّانه ،
والبدْرُ قد محَا خِضَابَ الظُّلَمَاءِ ، وجلا محياه^٤ في زرقة قناع السماء ، وكسا الجدرانَ

١ القبح : تلك ؛ ب ق : ديارهم هي . ٢ م : فما مر من .

٣ البدائع ٢ : ٢٠٦ .

٤ ق : وحكى محياه .

ثياباً من فضة ، ونثر كافوره على مسك الثرى بعد أن سحقه ورضه ، والروض
قد ابتسم بحياته ، ووشّت بأسرار محاسنه رياته ، والنسيم قد عانق قامات الأغصان
فميلّها ، وغصّبها بماسم نورها فقبلها ، وعندنا مغمّن قد وقع على تفضيله
الإجماع ، وتغايرت على محاسنه الأبصار والأسماع ، إن بدا فالشمس طالعة ،
وإن شدا فالورق ساجعة ، تُغازله مقلّة سراج قد قصر على وجهه تحديقه ، وقابله
فقلنا البدر قابل عيوقه ، وهو يغار عليه من النسيم كلما خفق وهب ، ويستجيش
عليه بتلويح بارقه الموشى بالذهب ، ويُديم حرقة وسهده ، ويبذل في إطفاه
طاقته وجهده ، فتارة يضمّخه بخلوقه ، وتارة يُحلّيه بعقيقه ، وآونة يكسوه
أثواب شقيقه ، فلم نزل كذلك حتى نعس طرّف المصباح ، واستيقظ نائم
الصباح ، فصنعت بديهاً في المجلس ، وكتبت بها إلى الأعز بن المؤيد رحمه الله
تعالى أصف تلك الليلة التي ارتفعت على أيام الأعياد ، كارتفاع الرؤوس على
الأجياذ ، بل فضّلت ليلات الدهر ، كفضل البدر على النجوم الزهر :

غبت عني يا ابن المؤيد في وة	ت شهيّ يلهي المحب المشوقا
ليلة ظلّ بدرها يلبس الجدد	ران ثوباً مفضضاً مرموقا
وغدا الطلّ فيه ينثر كافو	رأ فيعلمسك التراب السحيقا
وتبدى النسيم يعتنق الأء	صان لما سرى عنافاً رفيقا
بت فيها منادماً لصديق	ظل بين الأنام خيلاً صدوقا
هو مثل الهلال وجهاً صيحاً	ومثال النسيم ذهنأ رقيقا
وغزال كالبدري وجهاً وغصن ال	بان قدأ والحمرة الصرْف ريقا
مظهر للعيون ردفاً مهيلاً	وحشاً ناحلاً وقدأ رشيقا
إن تغنى سمعت داود ، أو لا	ح تأملت يوسف الصديقا
وإذا قابل السراج رأينا	منه بدرأ يقابل العيوقا
وأظنّ الصباح هام بمرأ	ه فأبدي قلباً حريقاً خفوقا

هو نجمٌ ما لاح في الجُدرِ كافو رُ بياضٍ إلا كساهُ خلوقا
 ما بدا نرجسُ الكواكبِ إلا قام من نومه يرينا الشقيقا
 وإذا ما بدت جواهرها في الج وأبدى في الأرض منهم عقيقا
 فغدونا تحت الدجى نتعاطى من رقيق الآداب خمرأ رحيقا
 وجعلنا رِيحاننا طيبَ ذكرا لك فخلناهُ عنبراً مفتوقا
 ذاك وقتٌ لولا مغيبُك عنه كان بالمدحِ والثناء خليقا

قال : فأجاب عنها من الوزن دون الروي :

قد أتتني من الجمالِ قصيدٌ يا لها من قصيدةٍ غراءِ
 جمعت رقةَ الهواءِ وطيبَ ال مسك في سبكها وصفوَ الماءِ
 فأرتنسا طباعهُ وشذاهُ والذي حاز ذهنهُ من ذكاءِ
 سيدي هل جمعتَ فيها اللآلي يا أنحا المجد أم نجومَ السماءِ
 أفحمتني حسناً وحقاً أيادي لك التي لا تُعدُّ بالإحصاءِ
 فركتُ الجوابَ والله عجزاً فابسطِ العذرَ فيه يا مولائي
 هل يسامي الثرى الثرياً وأنتي يدعي النجمُ قرطاً نورِ ذُكاءِ

رجع إلى أهل الأندلس :

٩٠ - وقال ابن السماك^١ :

إياك أن تكثر الإخوان مغتنماً في كلِّ يومٍ إلى أن يكثر العددُ
 في واحدٍ منهم تُصفي الوداد له من التكاليفِ ما يفنى به الجلدُ

وله :

١ القلح : ١٣٤ ؛ وفي م : السباد ؛ ق : السباد .

تحنُّ ركابي نحو أرض وما لها وما لي من ذاك الحنين سوى الهمِّ
وكم راغبٍ في موضعٍ لا ينالُهُ وأمستُ منه مثل يونسَ في اليمِّ
بهذا قضى الرحمن في كلِّ ساخطٍ يموتُ على كرهٍ ويحيا على رغمٍ

٩١ - ولما قام الباجي^١ بإشبيلية وخلع طاعة ابن هود ، وأبدل شعاره
الأسود العباسي في البنود ، قال أبو محمد عبد الحق الزهري القرطبي في ذلك :

كأنما الرايةُ السوداءُ قد نَعَبَتْ لهم غراباً بين الأهل والولدِ
مات الهوى تحتها من فرطِ روعتهِ فأظهر الدهرُ منها لبسةَ الكمدِ
وأنشدهما القائم الباجي في جملة قصيدة .

٩٢ - وقال الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حجاج الأعمى الإشبيلي^٢ :

٩٣ -
.....
.....^٣

أَمسى الفِرَاشُ يطوفُ حولَ كؤوسنا إذ خالها تحت الدُّجى قنديلًا
ما زال يَخْفُقُ حولها بِجناحه حتَّى رَمته على الفِرَاشِ قتيلاً
وله :

لاموا على حبِّ الصَّبَا والكاسِ لما بدا وَضَحُ المشيبِ براسي
والغصنُ أُحوجُ ما يكونُ لسَقْيهِ أيَّامَ يبدو بالأزاهرِ كاسي

وله ، وقد رأى على نهر قرطبة ثلاثين نفساً مصلوبين من قطّاع الطريق :

١ القدح : ١٣٥ .

٢ ترجمة أبي الوليد إسماعيل بن حجاج الأعمى في اختصار القدح : ١٤٠ ولقبه هناك « الأفلح »
ولكن الشعر التالي ليس له .

٣ هذه الأشعار التالية لأبي يحيى ابن هشام القرطبي في القدح : ٨٩ - ٩٢ والمعتقد أن سهواً حدث
في نسخ النسخ سقط فيه شعر الأعمى واسم القرطبي صاحب هذه المقطعات .

ثلاثون قد صففوا كلهم وقد فتَحوا أذرعاً للوداعِ
وما ودَّعوا غيرَ أرواحهم فكان وداعاً لغيرِ اجتماعِ

وله في فتى وسيم عَضَّ كلبٌ وجنته :

وأغيدَ وضَّاحِ المحاسينِ باسمِ إذا قامر الأرواحِ ناظره قَمَرُ
تَعَمَّدَ كلبٌ عَضَّ وجنته التي هي الوردُ إيناعاً وأبقى بها أثرُ
فقلت لشُهَبِ الأفقِ كيف صِماَتكم وقد أثرَ العواءُ في صفحةِ القمرِ

٩٤ - وقال الفقيه أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي^٢ المؤرخ الأديب ،
المصنف الشهير ، وكان حافظاً لنُكَّتِ الأندلسيين حديثاً وقديماً ، ذاكراً
لفكاهاتهم التي صيرته للملوك خليلاً ونديماً^٣ ، في صبي من أعيان الجزيرة الخضراء
تهافت في حبه جماعة من الأدباء والشعراء^٤ :

قد سلونا عن الذي تدريهِ وجفوناهُ إذ جفا بالتيهِ
وتركناهُ صاغراً لأناسِ خدعوه بالزورِ والتمويهِ
لمضلٍ يسوقه لمضلٍ وسفيهِ يقوده لسفيهِ

وكان من القوم الذين هاموا بالمذكور ، وقاموا فيه المقام المشهور ، أديبٌ
يقال له الفار ، فسلط على البياسي حتى سافر من الجزيرة وكان يلقب بالقط ،
[فقال أحد الشعراء] :

عذرتُ أبا الحجاج من ربّ شبيبةٍ غدا لابساً في الحبّ ثوباً من القارِ
وألجأهُ الفارُ المَشارِكُ للنوى ولم أرَ قِطاً قبله فرّ من فارِ

١ ب : بغير .

٢ القدح : ٩٤ - ٩٥ .

٣ القدح : جليساً ونديماً .

٤ كان هذا النص في النسخ شديد الاضطراب ، فصوبناه على حسب رواية القدح المثل .

وله ، وقد كتب إلى بعض أصحابه يذكره بالأيام السوالم :

أبا حسنٍ لعمرُك إنَّ ذكري لأيام النعيم من الصوابِ
أمثلي ليس يذكر عهدَ حمصٍ وقد جمحتُ بنا خيلُ التصابي
ونحنُ نجرُ أثوابَ الأمانِي مُطرزةً هنالك بالشبابِ
وعهدُ بالجزيرةِ ليسَ يُنسى وإن أغفلته عند الخطابِ
هو الأحلى لديَّ وإن حماني عن العسلِ اجتماعٌ للذُّبابِ

أشار^١ إلى المبوب وكان كثير الاجتماع به في جنة لوالده على وادي العسل
وقال^٢ :

جنةٌ وادي العسلِ كم لي بها من أملٍ
لو لم يكن ذُبابُها يمنعُ ذوقَ العسلِ

قال ابن سعيد : ولما التقينا بتونس بعد إيابي من المشرق ، وقد ولج^٣ ظلام
الشعر على [صبح] وجهه المشرق ، قلت لأبي الحجاج مشيراً إلى محبوبه ، وقد
غطى هواه عنده على عيوبه :

خلَّ^٤ أبا الحجاج هذا الذي قد كنت فيه دائم الوجد
وانظر إلى لحيته واعتبر مما جنى الشعرُ على الحدِّ

والله سبحانه يسمح للجميع ، في هذا الهزل الشنيع ، ويصفح عنا في ذكره ،
إنه مجيبٌ سميع .

١ في أصول النفع : وسار ، والتصويب عن القدح .

٢ في الأصول : فقال - عطفاً على سار - قال ابن سعيد : ولما اجتمعت به مستحسناً لهذا المقصد قال
لي قد كنت ذكرته أيام تلك المزاحمات ثم أنشد « جنة وادي . . . إلخ » .

٣ القدح : دلج .

٤ القدح : خلي .

[عود إلى النقل عن بدائع البدائه]

٩٥ - وقال صاحب « البدائع »^١ ركب الأستاذ أبو محمد ابن صارة مع أصحاب له في نهر إشبيلية في عشية سال أصيلها على بلحين الماء عقيانا ، وطارت زواريقها في سماء النهر عقبانا ، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سُرراً وأعكانا ، في زورق يجول جولانَ الطَّرف ، ويسودُّ اسوداد الطَّرف ، فقال بديها :

تأملُ حالنا والحوُ طَلَّقُ حَيَّاهُ وقد طَفَّلَ المساءُ
وقد جالتُ بنا عذراء حُبلى تجاذبُ مِرْطَها رِيحُ رُخاءِ
بنهرٍ كالسَّجْنَلِ كوثرِي تُعَبِّسُ وجهها فيه السماءُ

واتفق أن وقف أبو إسحاق ابن خفاجة على القطعة واستظرفها واستلطفها ، فقال يعارضها على وزنها وروبها وطريقتها :

ألا يا حَبَّذا ضَحِكُ الحميَّا بجانتها وقد عَبَسَ المساءُ
وأدهمَ من جياذِ الماءِ مُهْرٍ^٢ تَنَازَعُ جُلَّةُ رِيحُ رُخاءِ
إذا بدت الكواكبُ فيه غَرَفَى رأيت الأرض تحسدها السماءُ

٩٦ - وقال الأديب ابن خفاجة في ديوانه^٣ : صاحبتُ في صَدَرِي من المغرب سنة ثلاث وثمانين واربعمئة أبا محمد عبد الجليل بن وهبون شاعر المعتمد ، وكان أبو جعفر ابن رشيق يومئذ قد تمتع ببعض حصون مُرْسِيَّة ، وشرع في النفاق فقطع السبيل ، وأخاف الطريق ، ولما حاذينا قلعتة وقد احتدمت جَمْرَةُ الهجير ،

١ بدائع البدائه : ٢ : ١٤٢ .

٢ ب : نهد ؛ ق : نهر .

٣ وردت هذه القصص المتعلقة بابن خفاجة في بدائع البدائه : ٢ : ١٤٣ ، ١٤٥ .

وملَّ الركبُ رَسِيمه وذَمِيله ، وأخذ كلُّ منّا يرتادُ مَقِيله ، اتفقنا على أن لا نطعم طعاماً ، ولا نذوق مناماً ، حتى نقول في صورة تلك الحال ، وذلك الترحال ، ما حضر ، وشاء الله أنْ أَجْبَلَ ابن وهبون واعتذر ، وأخذت عفوَ خاطري ، فقلت أترىص به ^١ ، وأعرض بعظم لحيته :

ألا قل للمريض القلب مهلاً فإنَّ السيف قد ضمن الشفاء
ولم أرَ كالنفاقِ شكاة حُرّاً ولا كدم الوريد له دواء
وقد دُحِيَ النَجِيعُ هناك أرضاً وقد سُمِكَ العَجَاجُ به سماء
وديسَ به انحطاطاً بطنُ وادٍ مُدَّ أعشَبَ شعْرُ لحيته ضراء

وقال ابن خفاجة أيضاً : حضرت يوماً مع أصحاب لي ، ومعهم صبي متهم في نفسه ، واتفق أنهم تحاوروا في تفضيل الرمان على العنب ، فانبرى ذلك الصبي فأفرط في تفضيل العنب ، فقلت بديهاً أعث به :

صِلْنِي لك الخيرُ برمانةٍ لم تنتقلْ عن كرم العهدِ
لا عنباً أمتصُّ عنقودَهُ ثدياً كأني بعدُ في المهدِ
وهلْ يَرى بَيْنَهُمَا نِسْبَةً مَنْ عَدَلَ الحِصْيَةَ بالنَّهْدِ

فخجل خجلاً شديداً وانصرف .

قال : وخرجتُ يوماً بشاطبة إلى باب السَّمارين ، ابتغاء الفرجة على خريز ذلك الماء بتلك الساقية ، وذلك سنة ٤٨٠ ، وإذا بالفقيه أبي عمران ابن أبي تليد رحمه الله تعالى قد سبقني إلى ذلك ، فألفيته جالساً على دكان كانت هناك مبنية لهذا الشأن ، فسلمت عليه ، وجلست إليه ، مستأنساً به ، فجري أثناء ما تناشدها ذكر قول ابن رشيق :

١ البدائع : أريض نار نزوته .

يا من يمرُّ ولا تمرُّ به القلوبُ من الفسَقِ
 بعمامةٍ من خدّه أو خدّه منها استرقُ
 فكأنّه وكأنّها قمرٌ تعمّمَ بالشفقِ
 فإذا بدا وإذا انثنى وإذا شدا وإذا نطقُ
 شغلَ الخواطرَ والجوا نحَ والمسامعَ والحدقُ

فقلت ، وقد أعجب بها جدّاً ، وأثنى عليها كثيراً : أحسن ما في القطعة
 سياقة الاعداد ، وإلاّ فأنت تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير
 والبيت الذي قبله فينزل بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها ، وهل ينزل بإزاء قوله
 « وإذا نطق » قوله « شغل الحدق » ، وكأنه نازعني القول في هذا غاية الجهد ، فقلت
 بديهاً :

ومهفَهفٍ طاوي الحشا خنث المعاطف والنظرُ
 ملأ العيونَ بصورةٍ تُلَيّتَ محاسنُها سُورُ
 فإذا رنا وإذا مشى وإذا شدا وإذا سَقَرُ
 فضحَ الغزالةَ والغما مةَ والحمامةَ والقَمَرُ

فجُنَّ بها استحساناً ، انتهى .

قال ابن ظافر : والقطعة القافية ليست لابن رشيق ، بل هي لأبي الحسين علي
 ابن بشر الكاتب أحد شعراء البيتية^١ .

٩٧ — وكان بين السميسر الشاعر^٢ وبين بعض رؤساء المريّة واقع لمحد

١ هذا وهم من ابن ظافر تابعه فيه المقرئ فإن أبا الحسن (لا أبا الحسين) علي بن أبي البشر الكاتب
 هو أحد شعراء الدرة الخطيرة لابن القطاع ، وهو من ثم أحد شعراء الخريدة (١/٤ : ٥٠ : وساء
 ابن أبي البشائر) ؛ وقد ترجم له الصفدي في الجزء الثالث من الوافي ، نسخة مكتبة أحمد الثالث ؛
 وذكره أبو الصلت في رسالته المصرية (نواذر المخطوطات ١ : ٢٢) .

٢ البدائع ٢ : ١٤٨ .

مدحه فلم يجزه عليه ، فصنع ذلك الرجل دعوة للمعتصم بن صمادح صاحب المرية واحتفل فيها بما يحتفل مثله في دعوة سلطان مثل المعتصم ، فصبر السميسر إلى أن ركب السلطان متوجهاً إلى الدعوة ، فوقف له في الطريق ، فلما حاذاه رفع صوته بقوله :

يا أيها الملك الميمون طائرهُ وَمَنْ لذي مَأْتَم في وجهه عُرْسُ
لا تفرسن^١ طعاماً عند غيركم إِنَّ الأسودَ على المأكولِ تفرسنُ

فقال المعتصم : صدق والله ، ورجع من الطريق ، وفسد على الرجل ما كان عمله .

[حكاية مشرقية]

ونظير هذه الحكاية^٢ أن عبّاد بن الحريش كان قد مدح رجلاً من كبار أصبهان أرباب الضيع والأملّك والتبع الكثير ، فمطله بالجائزة ، ثمّ أجازته بما لم يرضه ، فردّه عليه ، وبعد ذلك بحين عمل الرجل دعوة غرم عليها ألوف دنانير كثيرة لأبي دُلْف القاسم بن عيسى العجّلي على أن يجيء إليه من الكرج ، ووصل أبو دُلْف ، فلما وقعت عين عبّاد عليه وهو يساير بعض خواصه أوماً إلى ذلك السائر وأنشد بأعلى صوته :

قلْ له يا فدَيْتُهُ قولَ عبّاد : ذا سَمَجٌ
جئتَ في ألفِ فارسٍ لغَداءٍ من الكَرَجِ
ما على النَّفسِ بعدَ ذا في الدَّناءاتِ من حَرَجِ

فقال أبو دلف ، وكان أخوف الناس من شاعر : صدق والله ، أجيء من

١ البدائع : لا تقربن .

٢ البدائع ٢ : ١٤٩ .

الكرج إلى أصبهان حتى أتغدى بها ؟ والله ما بعد هذا في ذنابة النفس من شيء .
ثم رجع من طريقه ، وفسد على الرجل كل ما غرمه ، وعرف من أين أتى .
وتخوف أن يعود عباد عليه بشر^١ منها ، فسير إليه جائزة سنية مع جماعة من
أصحابه ، فاجتمعوا به ، وسألوه فيه ، وفي قبول الجائزة ، فلم يقبل الجائزة ،
ثم أنشد بديهاً :

وهبتُ يا قوم لكم عرضه

فقالوا : جزاك الله تعالى خيراً ، فقال :

كرامةٌ للشعر لا للفق

لأنه أبخلُ من ذرةٍ على الذي تجمعه في الشتا

انتهى .

٩٨ — وذكر أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي ما معناه^٢ : أنه
عزم بمصر هو ورفقة له على الاصطباح ، فقصدوا بركة الحبش ، في وقت ولاية
الغُبش ، وحتلوا منها روضاً بسم زهره ، ونسم عطره ، فأداروا كؤوساً ،
تُطلىع من المدام شمساً ، وعابنوها نجوماً ، تكون لشرطين الهموم رجوماً ،
فطرب حتى أظهر الطرب نشاطه ، وأبرز ابتهاجه وانبساطه ، فقال :

الله يومي ببركة الحبش والحوّ بين الضياء والغُبش
والنَّيلُ تحت الرياح مضطرب كصارمٍ في يمين مرتعش
ونحنُ في روضةٍ مَفوّقة دُبجَ بالنَّورِ عِطْفُها ووُشي
قد نسجتُها يدُ الغمام لنا فنحن من نورها على فُرُش

١ ب : بأشد .

٢ البدائع ٢ : ١٥١ ، ونوادير المخطوطات ١ : ٢٠ - ٢١ .

فعاظني الراح إن تاركها من سورة الهم غير متعش
وأُسْقِنِي^١ بالكبار مُتْرَعَةً فهنَّ أروى لشدة العطش
فأثقلُ الناس كلهم رجلٌ دعاهُ داعي الصبا فلم يطيش

وهذا أبو الصلت أمية من كبراء أدباء الأندلس العلماء الحكماء ، وقد ترجمناه في الباب الخامس في المرتحلين من الأندلس إلى المشرق .

٩٩ - وقال رحمه الله تعالى^٢ : كنت مع الحسن بن علي بن تميم بن المعز ابن باديس بالمهدية في الميدان ، وقد وقف يرمي بالشباب ، فصنعت فيه بديهاً :

يا ملكاً مذ خُلِقَتْ كَفَّهُ^٣ لم تدرِ إلّا الجودَ والباسا
إنَّ النجومَ الزُّهْرَ مع بُعْدها قد حَسَدَتْ في قربك الناسا
وودَّتْ الأفلاكُ لو أَتَها تحوَّلَتْ تحتك أفراسا
كما تَمْنَى البدرُ لو أنه عاد لنشأبك برّجاسا
انتهى .

١٠٠ - وصنع الوزير^٤ أبو جعفر أحمد الوقشي وزير الرئيس أبي إسحاق ابن همشك صهر الأمير أبي عبد الله محمد بن مردنیش في غلام أسود في يده قضيب نور بديهاً :

وزنجي أتى بقضيب نورٍ وقد زُفَّتْ لنا بنتُ الكرومِ
فقال فتى من الفتیان صفها فقلت الليل أقبل بالنجومِ

١ ب : وسقني .

٢ البدائع ٢ : ١٥٢ .

٣ البدائع ٢ : ١٥٣ ؛ وهذان البيتان في الحلة ٢ : ٢٦٦ للرصافي (ديوانه : ١٣٥) ؛ قال : وغلط أبو مروان ابن صاحب الصلاة الإشبيلي فنسبهما في تاريخه إلى بعض الأمراء (يعني الوقشي) ؛ وفي المغرب ٢ : ٢٥٧ أنهما لأبي علي الحسين بن أم الحور .

١٠١ - ولما أفرط أبو [بكر] بحبي اليكي^١ في هجاء أهل فاس تَعَسَّفُوا عليه ، وساعدهم واليههم مظفر الحصي من قِبَل أمير المسلمين^٢ علي بن يوسف ، والقائدُ عبد الله بن خيار الجياني^٣ ، وكان يتولى أموراً سلطانية بها ، فقدَّموا رجلاً ادعى عليه بدَّين ، وشهد عليه به رجل فقيه يُعرف بالزناتي ، ورجل آخر يكنى بأبي الحسين من مشايخ البلد ، فأثبت الحق عليه ، وأمر به إلى السجن ، فرفع إليه ، وسيقَ سوقاً عنيفاً ، فلما وصل إلى بابه طلب ورقة من كاتبه ، وكتب فيها ، وأنفذها إلى مظفر مع العون الذي أوصله إلى السجن ، فكان ما كتب :

ارشوا الزناتيَّ الفقيهَ ببيضةٍ يشهدُ بأنَّ مظفرًا ذو بيضتين
واهذوا إليه دجاجةً يحلِفُ لكم ما ناك عبدُ الله عرسَ أبي الحسين

١٠٢ - وقال أبو الحسن علي بن عتيق بن مؤمن القرطبي الأنصاري : عمل والذي محملاً للكتب من قضبان تشبه سلماً ، فدخل عليه أبو محمد عبد الله بن مفيد ، فرآه ، فقال ارتجالاً :

أيها السيّدُ الذكيُّ الجنانِ لا تقسني بسلمِ البنيانِ
فضلُ شكلي على السلامِ أنِّي محمّلٌ للعلومِ والقرآنِ
حزّتُ من حلية المجينِ ضعفي واصفراري ورقةَ الأبدانِ
فادعُ للصانعِ المجيدِ بفوزٍ ثمَّ والِ الدعاءَ للإخوانِ

ثمَّ عمل أيضاً :

أيها السيّدُ الكريمُ المساعي التفتُ صنعتي وحسنَ ابتداعي

١ البدائع ٢ : ١٥٧ ؛ وانظر بعض أهاجيه في أهل فاس في زاد المسافر .

٢ ب : المؤمنين ؛ وهو غير دقيق .

٣ راجع ترجمة ابن خيار الجياني في الحلة ٢ : ٢٣٥ .

أنا للنسخِ حملٌ خفّ حملي أنا في الشّكلِ سلّم الإطلاعِ

١٠٣ - وقال أحمد بن رضى الملقى :

ليس المدامة ممّا أستريحُ له ولا مجاوبةُ الأوتارِ والنغمِ
وإنّما لذّتي كُتُبٌ أطلعها وخادمي أبداً في نصرتي قلبي

١٠٤ - وقال أبو القاسم البلّوي الإشبيلي :

لمن أشكو مُصابي في البرايا ولا ألقى سوى رجلٍ مصابٍ
أُمورٌ لو تدبّرّها حكيمٌ لعاش مدى الزمان أخا اكتتابٍ
أما في الدهرِ مَنْ أفشي إليه بأسراري فيؤنسُ بالجوابِ ؟
يُسْتُ من الأنامِ فما جليسٌ يعزُّ على نهايَ سوى كتابي

١٠٥ - وقال أبو زكريا يحيى ، ابن صفوان بن إدريس صاحب كتاب
« العجالة » و « زاد المسافر » وغيرهما :

ليت شعري كيفَ أتمّ وأنا الصبُّ المعنّى
كلُّ شيءٍ لم تكونوا فيه لفظٌ دون معنّى

وله في نصراني وسيم لقيه يوم عيد :

توحّد في الحسن من لم يزلْ يثلث والقلبُ في صدّه
يشفُّ لك الماءُ من كفه ويقتدحُ النّارَ من خدّه

وهذان البيتان نسّبهما له بعضُ معاصريه ، وأبوه صفوان سابق الميدان .

١٠٦ - وقال ابن بسام^١ : ساير ابن عمّار في بعض أسفاره غلامان من

١ بدائع البدائه ٢ : ١٣٠ .

بني جَهْور أحدهما أشقر العِذار والآخِر أخضره ، فجعل يميل بحديثه لمخضر
العذار . ثم قال ارتجالاً :

تعلَّقته جهوريَّ النُّجار حَلِيَّ^١ اللَّمَى جوهرِيَّ الشَّنايا
من النَّفَرِ البَيضِ أَسَدِ الزَّمان رفاق الحواشي كرام السجايا
ولا غرو أن تغربَ الشارقاتُ وتبقى محاسنها بالعشايا
ولا وصلَ إلَّا جمان الحديث نساقطه من ظهور المطايا
شَنِثْتُ المثلثَ للزعفرانِ وملتُ إلى خضرةٍ في التفايا

ومعناه أن ابن عَمَّار أبغض المثلث لدخول الزعفران فيه لشبهه بعذار الأشقر
منهما ، وأحبَّ خضرة التفايا^٢ ، وهو لون طعام يُعمل بالكزبرة ، لشبهها بعذار
الأخضر منهما .

١٠٧ - وقال أبو العرب ابن معيشة الكناني السبتي^٣ : أخبرني شيخ من
أهل إشبيلية كان قد أدرك دولة آل عبَّاد . وكان عليه من أثر كبر السن ودلائل
التعمير ما يشهد له بالصدق . وينطق بأن قوله الحق ، قال : كنت في صِيايَ
حسن الصورة ، بديع الخلقة ، لا تلمحني عين أحد إلَّا ملكت قلبه ، وخبلت
خلبه ، وسلبت لبَّه ، وأطلت كربه . فبينما أنا واقف على باب دارنا إذا بالوزير
أبي بكر ابن عَمَّار قد أقبل في موكب زَجَلٍ ، على فرس كالصخرة الصماء
قُدَّتْ من قُنَّةِ الجبل ، فحين حاذاني ورآني اشرأبَ إليَّ ينظرني وبهتَ يتألمني
ثم دفع بمخضرة كانت بيده في صدري ، وأنشد :

١ ب : حلو .

٢ راجع شرح التفايا ج ٣ ص : ١٢٧ الحاشية : ٢ .

٣ بدائع البداهة ٢ : ١٣٢ وفيه « ابن معوشة » .

كُفَّ هذا النِّهْدَ عني فبقلي منه جُرْحُ
هو في صدرك نِهْدٌ وهو في صدري رُمحُ

١٠٨ - وعبر في « البدائع » على طريقة القلائد بما صورته^١ : ذكر الفتح ابن خاقان ما هذا معناه : أخبرني ذو الوزارتين أبو المطرف ابن عبد العزيز أنه حضر عند المؤمن بن هود في يوم أجرى الجوف فيه أشقرَ برقه ، ورمى بنبل ودقه ، وحملت الرياح فيه أوقار السحاب على أعناقها ، وتمائلت قامات الأغصان في الحُلُلِ الخضر من أوراقها ، والأزهار قد تفتحت عيونها ، والكمام قد ظهر مكنونها ، والأشجار قد انصقلت بالقَطَر ، ونشرت ما يفوق ألوان البز وبثت ما يعلو العطر ، والراح قد أشرفت نجومها في بروج الراح ، وحاكت شمسها شمس الأفق فتلفت بغيوم الأقداح ، ومديرها قد ذاب ظرفاً فكاد يسيل من إهابه ، وأخجل خدَّها حسناً فتكلل بعرق حبابه ، إذا بفتى رومي من أصبح فتيان المؤمن قد أقبل متدرعاً كالبدر اجتاب سحاباً ، والخمر اكتست حباباً ، والطاووس انقلب حباباً ، فهو ملكٌ حسناً إلا أنه جسد ، وغزالٌ ليناً إلا أنه في هيئة الأسد ، وقد جاء يريد استشارة المؤمن في الخروج إلى موضع كان عول فيه عليه ، وأمره أن يتوجه إليه ، فحين وصل إلى حضرته لمحهُ ابنُ عمار والسكر قد استحوذ على لبّه ، وانبت سراياه في ضواحي قلبه ، فأشار إليه وقربه ، واستبدع ذلك اللباس واستغربه ، وجدَّ في أن يستخرج تلك الدرة من ماء ذلك الدِّلاص ، وأن يحلي عنه سهكه كما يحلي الخبث عن الخلاص ، وأن يوفر على ذلك الوفر نعمة جسمه ، ويكون هو الساقى على عادته القديمة ورسمه ، فأمره المؤمن بقبول أمره وامتناله ، واحتذاء أمثاله ، فحين ظهرت تلك الشمس من حُجبها ، ورمّت شياطين النفوس من كُمتِ المدام بشُهبها ، ارتجل ابن عمار :

١ بدائع البدايه ٢ : ١٣٣ ؛ وانظر النفع ج ١ ص : ٦٥٤ .

وهَوَيْتُهُ يُسْقِي المدامَ كأنَّه
متناوح الحركاتِ يَنْدَى عِطْفُهُ
يسقي بكأسٍ في أناملِ سَوَسَنِ
يا حاملَ السيفِ الطويلِ نِجَادُهُ
إِيَّاكَ بادِرَةَ الوَغَى من فارسٍ
جَهْمٍ وإنْ حَسَرَ القِنَاعَ فإنما
يطغى ويلعبُ في دلالِ عِذاره
سَلَّمَ فقد قصِفَ القنا غصنَ النقا
عَنَّا بكأسِكَ قد كفتنا مُقْلَةً

قمرٌ يدورُ بكوكبٍ في مجلسٍ
كالغصنِ هزَّتْهُ الصَّبَا بِنَفْسٍ
ويديرُ أخرى من محاجرِ نرجسٍ
ومصرَفُ الفرسِ القصيرِ المحبسِ
خَشِنَ القِنَاعَ على عِذارِ أَمَلِسٍ
كشَفَ الظلامَ عن النهارِ المشمسِ
كالمهرِ يلعبُ في اللجامِ المجرسِ
وسطا بليثِ الغابِ ظبيِ المكنسِ
حَوَراءُ قائِمةٌ بسكرِ المجلسِ

وصنع فيه أيضاً :

وأحورَ من ظباءِ الرومِ عاطٍ
قسا قلباً وشنَّ عليه درُعاً
بكيتُ وقد دنا ونأى رضاهُ
وإنْ فَتَى تملكه برقٌ

بسالفتيه من دمعي فريدُ
فباطنه وظاهره حديدُ
«وقد يبكي من الطرب الجليدُ»
وأحرز حسنه لفتى سعيدُ

انتهى .

١٠٩ - وذكر في « البدائع » مؤلفه ما نصه^١ : خرج المعتصم بن صمادح صاحب المرية يوماً إلى بعض متزهاته ، فحلَّ بروضه قد سَفَرَتْ عن وجهها البهيج ، وتنفست عن مسكها الأريج ، وماست معاطفُ أغصانها ، وتكللت بلؤلؤِ الطلِّ أجبادُ قضبائها ، فتشوّق إلى الوزير أبي طالب ابن غانم أحدِ كبراء دولته ، وسيوف صولته ، فكتب إليه بديهاً بورقة كرنب يعود من شجرة :

١ البدائع ٢ : ١٣٩ ، وانظر أيضاً ٢ : ١٤٠ للحكاية التالية عن المعتصم .

أَقْبِلْ أَبَا طَالِبٍ إِلَيْنَا وَاسْقُطْ سَقُوطَ النَّدَى عَلَيْنَا

١١٠ - وجلس المعتصم بن صمادح المذكور يوماً وبين يديه ساقية قد أخذت يبردها حرّ الأوار ، والتوى ماؤها فيها التواء فضة السوار ، فقال ارتجالاً :
انظر إلى الماء كيف انحطّ من صَبَبِهِ كأنّه أرْقَمٌ قد جدّ في هَرَبِهِ

١١١ - وقال السميسر^١ :

بعوضٌ شربَ دمي قَهْوَةً وَغَنَيْنِي بِضُرُوبِ الْأَغَانِ
كأنّ عبروني أوتارهنّ وجسمي الربابُ وهنّ القيّان^٢

١١٢ - وأحسن منه قول ابن شرف القيرواني^٣ :

لك مجلس كملت بشارةٌ لهونا فيه ، ولكن تحت ذاك حديثُ
غَنَى الذبابُ فظلّ يَزْمُرُ حوله فيه البعوضُ ويرقصُ البرغوثُ

١١٣ - والسابق إلى هذا المعنى أبو [الحسن] أحمد بن أيوب من شعراء
اليتيمة إذ قال^٤ :

لا أعذلّ الليلَ في تطاوله لو كان يدري ما نحن فيه نَقَصُ
لي والبراغيثَ والبعوضَ إذا أجَنَّا حِنْدِسُ الظلامِ قِصَصُ
إذا تَغَنَّى بَعُوضُهُ طَرَباً أطرب^٥ برغوثة الغنا فرقصُ

١ البدائع ٢ : ١٧٦ .

٢ زاد في مطبوعة التجارية بعد هذين البيتين مقطوعتين في البرغوث والبعوض يظهر أنهما من زيادات
النساخ .

٣ البدائع ٢ : ١٧٦ والمطرب : ٧٠ ومعجم الأدباء : ١٩ : ٣٨ .

٤ بدائع البدائع ٢ : ١٧٦ واليتيمة ٤ : ٣٨٣ ، ومنه تصويب الاسم .

٥ اليتيمة : ألحفتنا .

٦ اليتيمة : ساعد .

١١٤ - ونحو هذا قول الحُصْري فيما نسبته إليه ابن دحية^١ :

ضاقَتْ بِلنْسيَّةٍ بي وذَادَ غني غموضي
رَقَصُ البراغِيثِ فيها على غناء البعوضِ

رجع إلى أهل الأندلس ، فنقول :

١١٥ - كان ابن سعد الخير البَلَنْسِي الشاعر كثير الدهول ، مفرط النسيان ، ظاهر التغفل ، على جودة نظمه . ورطوبة طبعه ، وكان كثيراً ما يسلك سكة الإسكافيين الذين يعملون الخفافَ على بغلة له ، فاتخذت البغلة النفور من أطراف الأدم وفضلات الجلود الملقاة في السكة عادةً لها ، واتفق أن عبر في السكة راجلاً ، ومعه جماعة من أصحابه ، فلما رأى الجلود الملقاة قفز ووثب راجعاً على عقبيه ، فقال له أصحابه : ما هذا أيها الأستاذ؟ فقال : البغلة نفرت ، فعجبوا من تخلفه وتغفله كيف ظن مع ما يقاسيه من ألم المشي ونَصَب التعب أنه راكب ؟ وأن حركته الاختيارية منه حركة الدابة الضرورية له ، فكان تغفله ربما أوقعه في تهمة عند من لم يعرفه ، فاقترح عليه بعض الأمراء أن يصنع بيتين أول أحدهما كتاب وآخره ذئب ، وأول الآخر جوارح وآخره أناييب ، فصنع بديهاً :

كتابُ نجيعٍ^٢ لاح في حَوْمَةِ الوغى وقَارَتَهُ نَسْرٌ هنالك أو ذيبُ
جوارحُ أهليه حروفٌ وربما تَوَلَّتْهُ من نقطِ الطعانِ أناييبُ

١١٦ - وقال الحميدي^٣ : ذكر لي أبو بكر المرواني أنه شاهد محبوباً الشاعر

النحوي قال بديهة في صفة ناعورة :

١ المطرب : ٩٤ وبدائع البدائع ٢ : ١٧٦ .

٢ م : نجيج .

٣ الجذوة : ٣٢٨ .

وذا تِ حنينٍ ما تغيضُ جفونُها من اللججِ الخضرِ الصوافي على شطِّ
وتبكي فتُحْيِي من دموعِ جفونها رياضاً تبدَّتْ بالأزاهرِ^١ في بسطِ
فمن أحمرٍ قانٍ وأصفرٍ فاقعٍ وأزهرٍ مبيضٍ وأدكنٍ مُشمطٍ
كانَ ظروفَ الماءِ من فوقِ متنها لآلي جُمانٍ قد نُظِمنَ على قُرطِ

١١٧ - وقال أبو الخطاب ابن دحية^٢ : دخلت على الوزير الفقيه الأجل^٣
أبي بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور السلمي ، فوقع الكلام في علوم لم تكن
من جنس فنونه ، فقال بديهاً :

أيها العالم أدركني سماحاً فلمثلي يحقُّ منك السماحُ
إن تخلي إذا نطقتُ عيباً فبناني إذا كتبتُ وقاحُ
أحرزُ الشاؤَ في نظامٍ ونثرٍ ثمَّ أنثي وفي العنانِ جِماحُ
فبهزلٍ كما تأوَّدَ غُصنٌ وبجدٍ كما تُهزُّ الصفاحُ

وقال^٣ : دخلت عليه منزله بشاطبة في اليوم الذي توفي فيه وهو يجود بنفسه ،
فأنشد بديهاً :

أيها الواقفُ اعتباراً بقبري استمع فيه قولَ عظمي الرميمِ
أودعوني بطنَ الضريحِ وخافوا من ذنوبٍ كلومها بأديمي
ودعوني بما اكتسبتُ رهيناً غَلِقَ الرهنَ عند مولى كريمِ

١١٨ - وقال ابن طوفان^٤ : دعا أبي أبا الوليد النحلي ، فلما قضا
وطرهم من الطعام سقيتهم ، وجعلت أترعُ الكاسات ، فلما مشت في النحلي

١ الجنوة : من أزاهر .

٢ بدائع البداه ٢ : ١٧١ ، ولم ترد في المطرب .

٣ المصدر نفسه : ١٧٢ .

٤ بدائع البداه ٢ : ١٩١ ، وفي ب : طفوان .

سورة الحمى ارتجل :

لابن طوفان أباد قل فيها مُشبهوه
ملا الكاسات حتى قيل في البيت أبوه

ونظيره قول المنفلت^١ من شعراء الذخيرة في الشاعر ابن الفراء :

فإذا ما قال شعراً نفقت سوق أبيه

١١٩ - وذكر في « بدائع البدائع »^٢ أن جماعة من الشعراء في أيام الأفضل خرجوا متنزهين إلى الأهرام ليروا عجائب مبانيها ، ويتأملوا ما سطره الدهر من العبر فيها ، فاقترح بعض من كان معهم العمل فيها ، فصنع أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي :

بعيشك هل أبصرت أعجبَ منظراً على ما رأيت عيناك من هَرَمِي مصرِ
أنافا بأعنان^٣ السماء فأشرفنا على الجوّ إشرافَ السماء أو النسر
وقد وافيا نشزاً من الأرضِ عاليّاً كأنهما نهدان قاما على صدرِ

وصنع أبو منصور ظافر الحداد :

تأملْ هيئةَ الهرمينِ وانظرْ وبينهما أبو الهولِ العجيبُ
كعمارتينِ على رحيلِ بمحبوبينِ بينهما رقيبُ
وفيضُ البحرِ عندهما دموعٌ وصوتُ الريحِ بينهما نجيبُ
وظاهر سجنِ يوسف مثل صبٍّ تخلف فهو محزونٌ كئيبُ

١ المصدر السابق : ١٩٢ .

٢ المصدر نفسه ١ : ٢٤٣ وانظر نوادر المخطوطات ١ : ٢٦ .

٣ م : بأسباب ؛ البدائع : بأكناف .

٤ العمارية : الهودج .

١٢٠ - وقال ابن بسام^١ : كان للمتوكل ابن الأفطس فرس أدهم أغر
محجل على كفله ست نقط بيض ، فندب المتوكل الشعراء لصفته ، فصنع النحلي
أبو الوليد فيه بديهاً :

ركب البدرُ جَوَاداً سَابِحاً تقفُ الريحُ لأدنى مهلهُ
لبسَ الليلَ قميصاً سابِغاً والثرياَ نُقْطُ في كفلهُ
وغديرُ الصبحِ قد خيضَ به فبدا تحجيلةُ من بللهُ
كلُّ مطلوبٍ وإن طالَتْ بهِ رجله من أجله في أجله

ثم انتدب الشعراء بعد ذلك للعمل فيه ، فصنع ابن اللبانة :

لله طِرفٌ جالٍ يا ابنَ محمدٍ فحبت^٢ به حوباؤه التأملا
لما رأى أنَّ الظلامَ أديمُهُ أهدي لأربعة الهدى تحجيلا
وكأنما في الردفِ منه مَبَاسِمٌ تبغي هناك لرجله تقيلا

وقال فيه أبو عبد الله ابن عبد البر الشنتريني من قطعة :

وكأنما عُمَرُ على صَهَوَاتِهِ قمرٌ تسيرُ به الرياحُ الأربعُ

ويعني بعمر المتوكل المذكور لأن اسمه عمر .

١٢١ - وقال أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الخزرجي قاضي إشبيلية :

لله إخوانٌ تناءت دارهمُ حفظوا الوداد على النوى أو خانوا
يهدي لنا طيبَ الثناء ودادهمُ كالندِّ يهدي الطيبَ وهو دخانُ

١ البدائع ١ : ٢٦٠ .

٢ البدائع : فحبت ؛ ب : فحبت .

[أخبار عن المروانيين]

١٢٢ - وحكي أن أيوب بن سليمان السهيلي المرواني حضر يوماً عند ابن باجة والشاعر أبو الحسن ابن جودي هناك ، فتكلم المرواني بكلام ظهر فيه نُبل وأدب ، فتشوف أبو الحسن ابن جودي لمعرفة ، وكان إذ ذاك في السن ، فقال له : من أنت أكرمك الله تعالى ؟ فقال : هلا سألت غيري عني فيكون ذلك أحسن لك أدباً ولي توقيراً ، فقال ابن جودي : قد سألت من المعرف عنك فلم يعرفك ، فقال : يا هذا ، لظالما مر علينا زمان يعرفنا من يجهل ، ولا يحتاج من يرانا فيه إلى أن يسأل ، وأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه وأنشد :

أنا ابن الألى قد عَوَّض الدهر عزهم بذلّ وقلوا واستحبوا التنكرا
ملوكٌ على مرّ الزمان بمشرقٍ وغربٍ دهاهم دهرهم وتغيرا
فلا تذكرنهم بالسؤال مُصابهم فإن حياة الرّزء أن يتذكرا

ففظن ابن جودي أنه من بني مروان ، فقام وقبل رأسه ، واعتذر إليه ، ثم انصرف المرواني ، فقال ابن باجة لابن جودي : أساء أدبك بعد ما عهدت منك ؟ كيف تعمد إلى رجل في مجلسي تراني قد قربته وأكرمته وخصصته بالإصغاء إلى كلامه فتقدم عليه بالسؤال عن نفسه ؟ فاحذر أن تكون لك عادة ، فإنها من أسوأ الأدب ، فقال ابن جودي : لم أزل من الشيخ على ما قاله أبو تمام :

نأخذ من ماله ومن أدبه^١

١٢٣ - وحكي أن بكاراً المرواني^٢ لما ترك وطنه وخرج في الجهاد وقتل ، قال صاحب السقط : إنه اجتمع به في أشبونة فقال : قصدت منزله بها ، ونفرت

١ صدر البيت : ننقل أسبابنا إلى ملك .

٢ انظر أخبار بكار وأشعاره في المغرب ١ : ٤١٥ .

الباب . فنادى : من هذا ؟ فقلت : رجل ممن يتوسل لرؤيتك بقرابة ، فقال : لا قرابة إلا بالتقى ، فإن كنت من أهله فادخل ، وإلا فتنح عني ، فقلت : أرجو في الاجتماع بك والاقتراب منك أن أكون من أهل التقى ، فقال : ادخل ، فدخلت عليه فإذا به في مُصَلَاة وسبحة أمامه ، وهو يعدّ حبوبها ويسبّح فيها ، فقال لي : ارفق عليّ حتى أتمم وظيفتي من هذا التسبيح ، وأقضي حقلك ، فقعدت إلى أن فرغ ، فلما قضى شغله عطف عليّ وقال : ما القرابة التي بيني وبينك ؟ فانتسبت له ، فعرف أبي وترحم عليه ، وقال لي : لقد كان نعم الرجل ، وكان لديه أدب ومعرفة ، فهل لديك أنت ممّا كان لديه شيء ؟ فقلت له : إنه كان يأخذني بالقراءة وتعلّم الأدب ، وقد تعلقت من ذلك^١ بما أتميز به ، فقال لي : هل تنظم شيئاً ؟ قلت : نعم ، وقد ألجأني الدهر إلى أن أرزق به ، فقال : يا ولدي إنه بشما يُرزق به ، ونعم ما يُتَحلى به إذا كان على غير هذا الوجه ، وقد قال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم : « إِنِّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةٌ » ولكن تحلّ الميتة عند الضرورة ، فأنشدني أصلحك الله تعالى ممّا على ذُكْرِكَ من شعرك ، قال : فطلبت بخاطري شيئاً أقابله به ممّا يوافق حاله فما وقع لي إلاّ فيما لا يوافق من مُجُون ووصف خمر وما أشبه ذلك ، فأطرقت قليلاً ، فقال : لعلك تنظم ، فقلت : لا ولكن أفكر فيما أقابلك به ، فقولي أكثره فيما حملني عليه الصبّا والسخف ، وهو لائق بغير مجلسك ، فقال : يا بني ، ولا هذا كله ، إنّا لا نبلي من تقوى الله إلى حدّ نخرج به عن السلف الصالح ، وإذا صح عندنا أن عبد الله ابن عباس ابن عم رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، ومفسر كتاب الله تعالى ينشد مثل قول القائل :

إِنْ يَصْدُقُ الطَّيْرُ نَنْكَ لِمِيسَا

فمن نحن حتى نأبى أن نسمع مثل هذا ؟ والله لا نشذ عن السلف الصالح ،
أنشدني ما وقع لك غير متكلف ، فلم يمدني خاطري إلى غير قولي من شعر
أجْنُ فيه :

أبطأت عني ، وإني لفي اشتياقٍ شديدٍ
وفي يدي لك شيء قد قام مثل العمودِ
لو ذقتَه مرة لم تعد لهذا الصدودِ

فتبسم الشيخ وقال : أما كان في نظمك أظهر من هذا ؟ فقلت له : ما وفقت
لغيره ، فقال : لا بأس عليك ، فأنشدني غيره ، ففكرت إلى أن أنشدته قولي :

ولما وفقتُ على رَبِّعِهِمْ تَجَرَعْتُ وَجَدِي بِالْأَجْرِ
وأرسل دمعي شرارَ الدموعِ لنارٍ تَأْجَّجُ في الأَضْلَعِ
فقال عذولي ، لما رأى بكائي : رفقا على الأدمعِ
فقلتُ له : هذه سُنَّةٌ لمن حفظ العهدَ في الأربعِ

قال : فرأيت الشيخ قد اختلط ، وجعل يحیی ويذهب ثم أفاق وقال : أعد بحق
آبائك الكرام ، فأعدتُ فأعاد ما كان فيه وجعل يردده ، فقلت له : لو علمت
أن هذا يحركك ما أنشدتك إياه ، فقال : وهل حرك مني إلا خيراً وعظة ؟ يا بني
إن هذه القلوب المخلاة لله كالورق التي جفت ، وهي مستعدة لمبوب الرياح ،
فإن هبَّ عليها أقلُّ ريحٍ لعب بها كيف شاء ، وصادف منها طَوْعُه ، فأعجبني
منزعه ، وتأنست به ، ولم أر عنده ما يعتاد من هؤلاء المتدينين من الانجماع
والانكماش ، بل ما زال يبسطني ويحدثني بأخبار فيها هزل ، ويذكر لي من
تاريخ بني أمية وملوكها ما أرتاح له ، ولا أعلم أكثره ، فلمّا كثر تأنسي به

أهويتُ إلى يده كي أُقبلُها ، فضمها بسرعة ، وقال : ما شأنك ؟ فقلت : راغباً لك في أن تشدني شيئاً من نظمك ، فقال : أما نظمي في زمان الصبا فكان له وقت ذهب ، ويجب للنظم أن يذهب معه ، وأما نظمي في هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله ، وهو يثقل عليك ، فقلت له : إن أنصف سيدي الشيخ نفعا الله تعالى به أنشدني من نظم صباه ، ومن نظم شيخوخته^١ ، فيأخذ كلانا بحظه ، فضحك وقال : ما أعصيك وأنت ضيف وقريب ولك حرمة أدب ووسيلة قصد ، ثم أنشدني وقد بدا عليه الخشوع وخسفتُه العبرة :

ثَقُ بِالَّذِي سَوَّاكَ مِنْ عَدَمٍ فَإِنَّكَ مِنْ عَدَمٍ
وَانظُرْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ قَرِّ عِ السَّنِّ مِنْ فَرَطِ النَّدَمِ
وَاحْذَرِ وُقُوتَ مِنَ الْوَرَى وَاصْحَبْهُمْ أَعْمَى أَصَمَّ
قَدْ كُنْتُ فِي تَيْهِ إِلَى أَنْ لَاحَ لِي أَهْدَى عَلَمٍ
فَاقْتَدْتُ نَحْوَ ضِيَائِهِ حَتَّى خَرَجْتُ مِنَ الظُّلُمِ
لَكِنْ قَنَادِيلُ الْهُوَى فِي نَوْرِ رَشْدِي كَالْحَمَمِ

قال : فوالله لقد أدركني فوق ما أدركه ، وغلبَ على خاطري بما سمعت من هذه الأبيات ، وفعلت بي من الموعظة غاية لم أجد منها التخلص إلاّ بعد حين ، فقال لي الشيخ : إن هذه بقطة يرجي معها خيرك ، والله مرشدك ومنقذك ، ثم قال لي : يا بني هذا ما نحن بسبيله الآن ، فاسمع فيما مضى والله وليّ المغفرة ، وإنّا لنرجو منه غفران الفعل ، فكيف القول ، وأنشد :

أَطْلَ عِذَارٌ عَلَى خَدِّهِ فَظَنُّوا سُلُوبِي عَنْ مَذْهَبِي
وَقَالُوا غَرَابٌ لَوْشِكِ النَّوَى فَقُلْتُ اكْتَسَى الْبَدْرُ بِالْغَيْهِبِ
وَنَادَيْتُ قَلْبِي أَيْنَ الْمَسِيرُ وَبَدَرُ الدَّجَى حَلَّ فِي الْعَقْرِبِ

فقال ولو رُمْتَ عن حُبِّهِ رَحِيلاً عَصِيْتُ ولم أَذهبِ

قال : فسمعت ما يقصر عنه صدور الشعراء ، وشهدت له بالتقدم ، وقلت له : لم أرَ أحسن من نظمك في جدِّ ولا هزل ، ثمَّ قلت له : أأرويه عنك ؟ فقال : نعم ، ما أرى به بأساً بعد اطلاع مَنْ يَعْلَمُ السرائر ، على ما في الضمائر ، فما قدر هذه الفكاهة في إغضاء من يغفر الكبائر ، ويغضي عن العظائم ؟ قال : فقلت له : فإن أسبغت علي النعمة بزيادة شيء من هذا الفن فعلتَ ما تملك به قلبي آخِرَ الدهر ، فقال : يا بني لا مَلَكَ قلبك غير حب الله تعالى ، ثمَّ قال : ولا أجمع عليك ردّاً قول ومنعاً ، وأنشد :

أيها الشادنُ الذي حُسْنُهُ في الورى غريبُ
لحظُ ذاك الجمالِ يُطْفِئُ ما بي من اللهبِ
وعليه أحومُ دَهْـرِي ولكنني أخيبُ
كلّما رمتُ زورةً قَبِضَ اللهُ لي رقيبُ

قال : فمازج قلبي من الرقة واللطافة لهذا الشعر ما أعجز عن التعبير عنه ، فقلت له : زدني زادك الله تعالى خيراً ، فأنشدني :

ما كان قلبي يدري قَدَرَ حَبْكُمُ حتى بعدتم فلم يقدر على الجَلَدِ
وكنْتُ أحسبُ أني لا أضيقُ به ذَرْعاً فما حان حتى فَتَّ في عضدي
ثمَّ اسْتَمَرَّتْ على كرهٍ مَرِيرَتُهُ فكاد يفرقُ بينَ الروحِ والجَسَدِ
عساكمُ أن تلاقوا باللقا رَمَقِي فليس لي مهجةٌ تقوى على الكمدِ

ثمَّ قال : حسبك ، وإن كلفتني زيادة فالله حَسْبُكَ ، فقلت له : قد وكلتني إلى كريم غفور رحيم ، فبالله إلّا ما زدني . وأكَبْتُ لأقبلَ رجله ، فضمهما وأنشد :

لله من قال لما شكوتُ فيهِ نحولي
 أمّا السبيلُ لوصلُ فما له من وصولِ
 فقلتُ حسبي التماخُ بحسنِ وجهِ جميلِ
 وجهٌ تلوحُ عليهِ علامةٌ للقبولِ
 فقال دعني فهذا تعرّضُ للفضولِ
 فقلتُ عاتبٌ وخاطبٌ بالأمنِ أهلَ العقولِ

فملاً سمعي عجائب ، وبسط أنسي ، وكتبتُ كل ما أنشدني ، ثمّ قلت له :
 لولا خوفاً من الثقل عليك لم أزل أستدعي منك الإنشاد حتى لا تجد ما تنشد ،
 فقال : إن عدت إن شاء الله تعالى إلى هنا تذكرت ، وأنشدتك ، فما عندي ممّا
 أضيفك غير ما سمعت ، وما تراه ، ثمّ قام وجاء من بيت آخر في داره بصحفة
 فيها حساً من دقيق وكسور باردة ، فجعل يفتّ فيها ، ثمّ أشار إليّ أن أشرب
 فشربت ثمّ شرب إلى أن أتينا على آخرها ، ثمّ قال لي : هذا غذاء عمك نهاره ،
 وإنه لنعمة من الله تعالى أستديم بشكرها اتصالها ، قال : فقلت له : يا عم ، ومن
 أين عيشك ؟ فقال : يا بني ، عيشتي بتلك الشبكة أصداد بها في سواحل البحر ما
 أقتات به ، ولي زوجة وبنت يعود من غزلهما مع ذلك ما نجد فيه معونة ، وهذا
 مع العافية والاستغناء عن الناس خيرٌ كثير ، جعلنا الله تعالى ممّن يلقاه على حالة
 يرضاها ، وختم لنا بخاتمة لا يخاف معها فضيحة . قال : فتركته وقمت وفي نيتي
 أن أعود إلى زيارته ، ونويت أن يكون ذلك بعد أيام خوف الثقل ، فعدت إليه
 بعد ثلاثة أيام ، فنقرت الباب ، فكلمتني المرأة بلسان عليه أثر الحزن ، وقالت :
 إن الشيخ خرج إلى الغزو ، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم ، ناله كالجنون ، فقلت
 له : ما شأنك ؟ فقال : أريد أن أموت شهيداً في الغزو ، وهؤلاء جيران لي قد

عزموا على الغزو ، وأنا إن شاء الله تعالى ماضٍ معهم ، ثم احتال في سيفٍ ورمح وتوجه معهم ، وقال : نفسي هي التي قتلني بهواها ، أفلا أقتصُّ منها فأقتلها ؟ قال : فقلت لها : مَنْ خَلَّفَ للنظر في شأنكم ؟ فقالت : ليس ذلك لك ، فالذي خلفنا له لا نحتاج معه إلى غيره ، فأدركني من جوابها روعة ، وعلمت أنها مثله زهداً وصلاً ، فقلت : إني قريبه ، ويجب عليّ أن أنظر في حالكم بعده ، فقالت : يا هذا إنك لست بذئ محرم ، ولنا من العجائز من ينظر منا ويبيع غزْلَنَا ويتفقد أحوالنا ، فجزاك الله تعالى عنّا خيراً ، انصرف عنّا مشكوراً ، فقلت لها : هذه دراهم خذوها تستعينوا بها ، فقالت : ما اعتدنا أن نأخذ شيئاً من غير الله تعالى ، وما كان لنا أن نُخِلَّ بالعادة ، فانصرفت نادماً على ما فاتني من الاستكثار من شعر الشيخ والتبرك بزيادة دعائه ، ثم عدت بعد ذلك لداره سائلاً عنه ، فقالت لي المرأة : إنه قد قبله الله تعالى ، فعلمت أنه قد قُتِلَ ، فقلت لها : أقتل ؟ فقرأت : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ — الْآيَةُ ﴾ (آل عمران : ١٦٩) فانصرفت معتبراً من حاله . رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به . وكانت للمروانيين بالأندلس يد عليّا ، في الدين والدنيا . انتهى .

١٢٤ - وقال محمد بن أيوب المرواني ، لما كلّف قوماً حاجة له سلطانية فما نهضوا بها فكلّفها رأس بني مروان القائد سعيد بن المنذر ، فنهض بها :

نهضت بما سألتك غيرَ وان وقد صعبت لسالكها الطريق
وليس يبين فضل المرء إلا إذا كلّفته ما لا يطيق

وعتبه يوماً سعيد بن المنذر في كونه يتعرض لمدح خدام بني مروان ، فقال له : أعز الله تعالى القائد الوزير ، إنكم جعلتموني ذنباً وجعلوني رأساً ، والنفس تتوق إلى من يكرمها وإن كان دونها أكثر منها إلى من يهينها وإن كان فوقها ،

وإني من هذا وهذا في أمر لا يعلمه إلاّ الذي أبلاني به ، ويا ويح الشجيّ من الخليّ ، وأنا الذي أقول فيما يتخلل هذا المنزع :

نُسبتُ لقومٍ ليتني نجلٌ غيرهم فلي نسبٌ يعلو وحظي يَسْفُلُ
أقطع عمري بالتعلُّلِ والمني وكم يخدعُ المرءُ اللبيبَ التعلُّلُ
فما لي مكانٌ أرْتضيه لهمةً ولا مال منه أَسْتَعِفُّ وأُفْضِلُ
ولكنني أقضي الحياةَ تَجْمُلًا وهل يهلكُ الإنسانَ إلاّ التَجْمُلُ

فقال له سعيد : قصدنا لومك فعطفت اللائمة علينا ، ونحن أحق بها ، وسننظر إن شاء الله تعالى فيما يرفع اللوم عن الجانبين ، ثمّ تكلم مع الناصر في شأنه ، فأجرى له رزقاً أغناه عن التكفف ، فكانت هذه من حسنات سعيد وأياديه.

١٢٥ - وقال المطرف بن عمر المرواني يمدح المظفر بن المنصور بن أبي عامر :

إنّ المظفّر لا يزال مظفّراً حكماً من الرحمن غير مبدّل
وهو الأحقُّ بكلِّ ما قد حازه من رفعةٍ ورياسةٍ وتفضّل
تلقاهُ صدرًا كلّما قلبتهُ مثل السنان بمحفّلٍ وبمحفلٍ

وحضر يوماً مع شاعر الأندلس في زمانه ابن دراج القسطلّي ، فقال له القسطلّي : أنشدني أبياتك التي تقول فيها :

على قدّرٍ ما يصفو الخليلُ يَكْدَرُ

فأنشده :

تخيّرْتُ من بين الأنامِ مُهَدِّباً ولم أدِرِ أني خائبٌ حين أخبرُ
فما زجني كالراح للماء ، واغتدى على كلّ ما جَسَّمته يتصبرُ

إلى أن دهاني إذ أمنتُ غُروره سفاهاً وأدّاني لما ليس يُذكرُ
وكدّرَ عيشي بعد صفوٍ ، وإنما على قدر ما يصفو الخليلُ يكدرُ

فاهتزّ القسطلّي وقال : والله إنك في هذه الأبيات لشاعر ، وأنا أنشدك
فيما يقابلها لبلال بن جرير :

لو كنتُ أعلمُ أن آخرَ عهدهمُ يومَ الفراقِ فعلتُ ما لم أفعلِ

ولكن جعل نفسه فاعلاً وعرضت نفسك لأن يقال : إنك مفعول ، فقال :
ومن أين يلوح ذلك ؟ فقال القسطلّي : من قولك « وأدّاني لما ليس يُذكرُ » فما
يُظنّ في ذلك إلا أنه أذاك إلى موضع فعل بك فيه ، فاغناظ الأموي وقال :
يا أبا عمر ، ومن أين جرت العادة بأن تمزح معي في هذا الشأن ؟ فقال له : حلم
بني مروان يحملنا على أن نخرق العادة في الحمل على مكارمهم ، فسكن غيظه .
وكتب المرواني المذكور إلى صاحب له يستعير منه دابة يخرج عليها للفرجة
والخلاعة : أنهض الله تعالى سيدي بأعباء المكارم ، إن هذا اليوم قد تبسم أفقّه .
بعدا بكى ودقّه . وصقلت أصداء أوراقه . وفتحت أحداق حدائقه . وقام
نوره خطيباً على ساقه . وفضضت غدراؤه ، وتوّجت أغصانه . وبرزت شمس
من حجابها ، بعدما تلفعت بسحابها ، وتنبّه في أرجاء الروض أرجُ النسيم ،
وعُرف في وجهه نضرة النعيم ، وقد دعا كلُّ هذا ناظر أخيك إلى أن يجيله في
هذه المحاسن ، ويجدد نظره في المنظر الذي هو غير مبتذل والماء الذي هو غير
أسن ، والفحص اليوم أحسن ما ملح . وأبدع ما حرن فيه وجمع . فجدّ لي
بإعارة ما أنهض عليه لمشاهدته ويرفع عني خجل الابتذال ، بمناكفة الأنذال ،
لا زلت نهاضاً بالأمال . مُسْعِفاً بمراد كل خليل غير مقصر ولا آل .

١٢٦ - وكتب الأمير هشام بن عبد الرحمن إلى أخيه عبد الله المعروف
بالبلتسي حين فرّ كتاباً يقول في بعض فصوله : والعجب من فرارك دون أن

ترى شيئاً . فخاطبه بجواب يقول فيه : ولا تتعجب من فراري دون أن أرى شيئاً ؛ لأنني خفت أن أرى ما لا أقدر على الفرار بعده ، ولكن تعجب مني أن حصلت في يدك بعدما أفلت منك .

وقال له وزيره أحمد بن شعيب البَلَنَسِي : أليس من العار أن يبلغ بك الخَوَر من هذا الصبي أن تجعل بينك وبينه البحر ، وتترك بلاد ملكك وملكك أبيك ؟ فقال : ما أعرف ما تقول ، وكل ما وُقِيَ به إتلاف النفس ليس بعار ، بل هو محض العقل ، وأوّل ما ينظر الأديب في حفظ رأسه ، فإذا نظر في ذلك نظر فيما بعده .

١٢٧ - وقال عبد الله بن عبد العزيز الأموي ويعرف بالحجر^١ :

اجعلْ لنا منك حظّاً أيها القَمَرُ فإنما حظُّنا من وجهك النظرُ
رآكَ ناسٌ فقالوا : إنَّ ذا قَمَرٌ فقلتُ : كُفُّوا فعندي منهما الخبرُ
البَدْرُ ليسَ بغيرِ النِّصْفِ بهجتهُ حتى الصباحِ وهذا كله قمرُ

١٢٨ - وقال أبو عبد الله محمد بن محمد بن الناصر يربّي أبا مروان ابن

سراج^٣ :

وكمْ مِنْ حَدِيثٍ لِلنَّبِيِّ أَبَانُهُ وَأَلْبَسَهُ مِنْ حُسْنِ مَنْطِقِهِ وَشِئَا
وكمْ مُصْعَبٍ لِلنَّحْوِ قَدْ رَاضَ صَعْبَهُ فَعَادَ ذَلُولاً بعدما كان قد أعيا

١٢٩ - وحكي أنه دخل بعض شعراء الأندلس على الفقيه سعيد بن أضحى ،

وكان من أعيان غرناطة ، فمدحه بقصيدة ، ثمّ بموشحة ، ثمّ بزجل ، فلم

١ الجذوة : ٢٤٤ (وبغية الملتبس رقم : ٩٣٣) .

٢ الجذوة : البدر ليلة نصف الشهر وهذا دهره .

٣ الذخيرة ٢/١ : ٣١٧ .

يعطه شيئاً . بل شكاً إليه فقراً ، حتى إنه بكى ، فأخذ الدواة والقرطاس وكتب ووضع بين يديه :

شكاً مثالَ الذي أشكوهُ من عدم
إنَّ المُقلَّ الذي أعطاك دمعتهُ
وساءه مثل ما قد ساءني فبكي
نعمَ الجوادُ فتَّى أعطاك ما ملكا

١٣٠ - وقال ابن خفاجة ^١ :

نهرٌ كما سالَ ^٢ اللّمي سَلَسالُ
ومَهَبٌ نَفْحَةٌ رَوْضَةٌ مَطْلُولَةٌ
وَصَباً بَلِيلٌ ذَيْلُهَا مَكْسَالُ
فِيهَا لِأَفْرَاسِ النَّسِيمِ ^٣ مَجَالُ
وَالْأَسُّ صُدْعٌ وَالْبَنْفَسُجُ خَالُ
غَازِلَتُهُ وَالْأَقْحَوَانَةُ مَبْسِمُ

وقال ^٤ :

وساقٍ كَحِيلِ الطَّرْفِ ^٥ فِي شَأْوِ حَسَنِهِ
تَرَى لِلصَّبَا نَاراً بَخْدَيْهِ لَمْ يَثُرْ
سَقَانَا وَقَدْ لَاحَ الْمَلَالُ عَشِيَّةُ
عُقَاراً نَمَاهَا الْكَثْرُ فِيهِ كَرِيمَةٌ
وَقَدْ جَالَ مِنْ جَوْنِ الْغَمَامَةِ أَدْهَمُ
وَضَمَخَ رَدْعُ الشَّمْسِ نَحَرَ حَدِيقَةٍ
وَنَمَتْ بِأَسْرَارِ الرِّيَاضِ خَمِيلَةٌ
جَمَاحٌ ، وَبِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ حِرَانُ
لَهَا مِنْ سَوَادِي عَارِضِيهِ دُخَانُ
كَمَا اعْوَجَّ فِي دَرَعِ الْكَمِيِّ سَنَانُ
وَلَمْ تَزِنْ بِابْنِ الْمَزْنِ فِيهِ حَصَانُ
لَهُ الْبَرْقُ سَوَوطٌ وَالْعَنَانُ عَنَانُ
عَلَيْهِ مِنَ الطَّلِّ السَّقِيطِ جُمَانُ
لَهَا التَّوَرُّ ثَغْرٌ وَالنَّسِيمُ لِسَانُ

١ ديوان ابن خفاجة : ١١٩ والنفع ٣ : ٢٠٢ .

٢ الديوان : ساغ .

٣ الديوان : في جلّتها للنسيم .

٤ ديوان ابن خفاجة : ٢٣٥ وقد تقدمت الأبيات ص : ٢٠٢ من هذا المجلد .

٥ ديوانه : لحيل اللحظ ؛ وهو أصوب .

وقال في وصف فرس أصفر ، ولم يخرج عن طريقته ^١ :

وأشقرَ تُضرمُ منه الوغى بشعلة من شعلِ الباسِ
من جلتارٍ ناضِرٍ لونهُ وأذنهُ من ورقِ الآسِ
يطلعُ للغرةِ في شقرةٍ حباةً تضحك في الكاسِ

١٣١ - وقال أبو بكر يحيى ^٢ بن سهل اليكبي يهجو :

أعدِ الوضوء إذا نطقتَ به مستعجلاً من قبل أن تنسى
واحفظ ثيابك إن مررتَ به فالظلُّ منه ينجسُ الشمسَا

١٣٢ - وقال ابن اللبّانة ^٣ :

أبصرتهُ قصّر في المشيةُ لما بدت في خدّه لحيه
قد كتب الشعرُ على خدّه ﴿أو كالذي مرَّ على قريه﴾

١٣٣ - وقال الوزير الكاتب أبو محمد [ابن] عبد الغفور الإشبيلي في الأمير أبي بكر سير من أمراء المرابطين ، وكتب بها إليه في غزاة غزاهَا ^٤ :

سرّ حيثُ سرتَ يحلُّه النوارُ وأراك فيه مرادك المقدارُ
وإذا ارتحلتَ فشيّعك سلامةُ وغمامةٌ لا ديمةٌ مدرارُ
تنفي الهجيرَ بظللها وتنيّم بالـ رشّ القتامِ وكيف شئتَ تدارُ
وقضى الإله بأن تعودَ مظفرّاً وقضت بسيفك نجبها الكفّارُ

١ ديوانه : ١٢٣ ومرت الأبيات ص : ٢٠٢ من هذا المجلد .

٢ في الأصول : محمد ، وهو خطأ اقتضى التصويب .

٣ القلائد : ٢٥٢ .

٤ القلائد : ١٦٣ والمغرب ١ : ١٣٧ .

٥ ب م : نحوها .

هذا غير ما تمناه الجعفي حيث قال ^١ : حيث ارتحلت وديمة ^٢ ، وما تكاد
تنفذ معها عزيمة ، وإذا سَفَحَتْ على ذي سفر ، فما أحرأها بأن تعوق عن الظفر ،
ونعتها بمدرار ، فكان ذلك أبلغ في الإضرار ، وما أحسن قول القائل :

فَسِرْ ذَا رَايَةٍ خَفَقَتْ بِنَصْرِ وَعُدْ فِي جِحْفَلٍ بِهِجِ الْجَمَالِ
إِلَى حِمْنٍ فَأَنْتَ بِهَا حُلِيٌّ تَغَايِرُ فِيهِ رَبَاتُ الْحِجَالِ

١٣٤ - وقال الحجاري في « المسهب » : كتبتُ إلى القاضي أبي عبد الله
محمد اللوشي أستدعي منه شعره لأكتبه في كتابي ، فتوقفَ عن ذلك وانقبض
عني ، فكتبتُ إليه :

يَا مَانِعاً شِعْرَهُ عَنْ سَمْعِ ذِي أَدَبٍ نَائِي الْمَحَلِّ بَعِيدِ الشَّخْصِ مَغْرِبِ
يَسِيرُ عَنْكَ بِهِ فِي كُلِّ مُتَجِّهِ كَمَا يَمُرُّ نَسِيمُ الرِّيحِ بِالْعَذْبِ
إِنِّي وَحَقَّكَ أَهْلٌ أَنْ أَفُوزَ بِهِ وَاسْأَلْ فَدَيْتَكَ عَنْ ذَاتِي وَعَنْ أَدْبِي

فكان جوابه :

يَا طَالِباً شِعْرَ مَنْ لَمْ يَسْمُ فِي الْأَدَبِ مَاذَا تَرِيدُ بِنَظْمٍ غَيْرِ مُنْتَخَبِ
إِنِّي وَحَقَّكَ لَمْ أَجُلْ بِهِ صُلْفَاً وَمَنْ يَضُنُّ عَلَى جِيدٍ بِمُخْشَلَبِ
لَكِنِّي صُنْتُ قَدْرِي عَنْ رَوَايَتِهِ فَمِثْلُهُ قُلٌّ عَنْ سَامٍ إِلَى الرُّثْبِ
خَذَهُ إِلَيْكَ كَمَا أَكْرَهْتَ مُضْطَرَباً مَحَلَّلاً ذَمَّ مَوْلَاهُ مَدَى الْحَقْبِ

قال : ثم كتبتُ لي ممّا أتخفني به من نظمه محاسن أبيه من الأعمار ، وأرقّ
من نسيم الأسحار .

١ القلائد : هذا ما تمناه الولي لا ما تمناه الجعفي حيث قال .

٢ يريد قول المتنبي :

وإذا ارتحلت فشيعتك سلامة حيث اتجهت وديمة مدارار

١٣٥ - وقال صالح بن شريف في البحر وهو أحسن ما قيل فيه :

البحرُ أعظمُ ممّا أنتَ تحسبُهُ من لم يرَ البحرَ يوماً ما رأى العجبا
طامٍ له حَبَبٌ طافٍ على زَرَقٍ مثل السَّماءِ إذا ما مُلَّتْ شُهبا
وقال أيضاً :

ما أحسنَ العقلَ وآثاره لو لازم الإنسانُ لِمِثاره
يصونُ بالعقلِ الفَي نفسه كما يصون الحرُّ أَسرارَه
لا سيّما إن كان في غُرْبَةٍ يحتاج أن يعرفَ مقدارَه

١٣٦ - وقال ابن برطله ٢ :

خطوبُ زماني ناسبتني غرابَةً لذلك يرميني بهنّ مصيبُ
غريبٌ أصابتهُ خطوبٌ غريبةٌ «وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ»
وهذا من أحسن التضمين ، الذي يُزري بالدُرِّ الثمين .

١٣٧ - ودخل ابن بقي الحماّم وفيه الأعمى التّطيلي فقال له : أجز ٣ :

حَمَامُنَا كزمانِ القَيْظِ محتدمٌ وفيه للبردِ صرٌّ غيرُ ذي ضررٍ

فقال الأعمى :

ضدّانِ يَنعَمُ جِسمُ المرءِ بينهما كالغصنِ يَنعَمُ بين الشمسِ والمطرِ
ولا يخفى حُسْنُ ما قال الأعمى .

١ م : حليت .

٢ م : برطالة .

٣ انظر مطالع البدور ٢ : ١٠ .

وقد ذكر في « بدائع البدائ »^١ البيتين معاً منسوبين إلى ابن بقيّ ، ولنذكر كلامه برمته لما اشتمل عليه من الفوائد ، ونضه : ذكر ابن بسام قال : دخل الأديبان أبو جعفر ابن هريرة التّطيلي المعروف بالأعمى وأبو بكر ابن بقيّ الحمّام ، فتعاطيا العمل فيه ، فقال الأعمى :

يا حُسْنِ حَمَامَنَا وَبَهْجَتَهُ مرأى من السحرِ كلّه حَسَنُ
ماء ونازُ حواهما كَنَفُ كالقلبِ فيه السرورُ والحَزَنُ

ثمّ أعجبه المعنى فقال :

ليسَ على لهُونِنا مزيدُ ولا لِحَمَامِنا ضريبُ
ماء وفيهِ لُهِبُ نارِ كالشمسِ في دِمةٍ تَصُوبُ
وابيضُ من تحتِ رخامٍ كالثلجِ حين ابتدا يندوبُ

وقال ابن بقيّ :

حَمَامَنَا فِيهِ فَصْلُ الْقِيْظِ - الْبَيْتَيْنِ

فقال الأعمى وقد نظر فيه إلى فتي صبيح :

هلِ استمالاكَ جسمُ ابنِ الأميرِ وقد سالتُ عليه من الحَمَامِ أُنْدَاءُ
كالغصنِ باشرَ حرَّ النارِ من كَثَبِ فظلَّ يقطرُ من أعطافه المَاءُ

[وصف حمّام مشرق] •

قلت : تذكرت هنا عند ذكر الحمّام ما حكاه بدر الدين الحسن بن زفير الإربلي المتطبب إذ قال^٢ : رأيت ببغداد في دار الملك شرف الدين هرون ابن

١ البدائع ١ : ٢٤٢ والنّخيرة ١ / ١ : ٢٥٨ .

٢ مطالع البدر ٢ : ٨ .

الوزير صاحب شمس الدين محمد الجويني حمّاماً متقن الصنعة ، حسن البناء ، كثير الأضواء ، قد احتفّت به الأزهار والأشجار ، فأدخلني إليه سائسه ، وذلك بشفاعة صاحب بهاء الدين بن الفخر عيسى المنشئ الإربلي ، وكان سائس هذا الحمّام خادماً حبشياً كبير السن والقدر ، فطاف بي عليه ، وأبصرت مياهه وشبائيكه وأنايبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية وبعضها على هيئة طائر إذا خرج منها الماء صوت بأصوات طيبة ، ومنها أحواض رخام بديعة الصنعة والمياه تخرج من سائر الأنايب إلى الأحواض ومن الأحواض إلى بركة حسنة الإلتقان ، ثمّ منها إلى البستان ، ثمّ أراني نحو عشر خلوات ، كلُّ خلوة صنعتها أحسن من صنعة أختها ، ثمّ انتهى بي إلى خلوة عليها باب مُقْفَل بقفل حديد ، ففتحه ، ودخل بي إلى دهليز طويل كله مرخم بالرخام الأبيض الساذج ، وفي صدر الدهليز خلوة مربعة تتسع بالتقريب نحو أربعة أنفس إذا كانوا قعوداً وتوسع اثنين إذا كانوا نياماً ، ورأيت من العجائب في هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقالاً لا فرق بينه وبين صقال المرأة ، يرى الإنسان سائر بشرته في أي حائط شاء منها ، ورأيت أرضها مصورة بفصوص حمر وصفر وخضر ومذهبة وكلها متخذة من بلّور مصبوغ بعضه أصفر وبعضه أحمر ، فأما الأخضر فيقال إنه حجارة تأتي من الروم ، وأما المذهب فزجاج ملبس بالذهب ، وتلك الصورة في غاية الحسن والجمال ، على هيئات مختلفة في اللون وغيره ، وهي ما بين فاعل ومفعول به ، إذا نظر المرء إليها تحركت شهوته ، وقال لي الخادم السائس : هذا صنّع على هذه الصفة لمخدومي ، حتى إنه إذا نظر إلى ما يفعله هؤلاء بعضهم مع بعض من المُجامعة والتقبيل ووضع أيدي بعضهم على أعجاز بعض تتحرك شهوته سريعاً ، فيبادر إلى مجامعة مَنْ يحبه .

قال الحاكي : وهذه الخلوة دون سائر الخلوات التي دخلت إليها هي مخصوصة بهذا الفعل ، إذا أراد الملك شرف الدين هرون الاجتماع في الحمّام بمن يهواه من الجوّاري الحسان والصور الجميلة والنساء الفاتحات الحسن لم يجتمع به إلاّ في هذه

الخلوة ، من أجل أنه يرى كل محاسن الصور الجميلة مصوّرة في الحائط ومجسمة بين يديه ، ويرى كل منهما صاحبه على هذه الصفة ، ورأيت في صدر الخلوة حوض رخام مضلع وعليه أنبوب مركب في صدره ، وأنبوب آخر^١ برسم الماء البارد ، والأنبوب الأول برسم الماء الفاتر ، وعن يمين الحوض ويساره عمدان صغار منحوتة من البلور يوضع عليها مباخر الندّ والعود ، وأبصرت منها خلوة شديدة الضياء مفرحة بديعة قد أنفق عليها أموال كثيرة ، وسألت الخادم عن تلك الحيطان المشرقة المضئئة : من أي شيء صنعت ؟ فقال لي : ما أعلم .

قال الحاكي : فما رأيت في عمري ولا سمعت بمثل تلك الخلوة ، ولا بأحسن من ذلك الحمام ، مع أنني ما أحسن أن أصفهما كما رأيتهما ، فإنه لم تتكرر رؤيتي لهما ، ولا اتفق لي الظفر بصناعتتهما ومباشرتهما ، وفي الذي ذكرت كفاية . انتهى .

[دار جمال الملك البغدادي]

ولما اتصل أبو القاسم علي بن أفلح البغدادي الكاتب بأمر المؤمنين المسترشد بالله العباسي ، ولقبه جمال الملك ، وأعطاه أربع ديار في درب الشاكرية اشترى دوراً أخرى إلى جانبها ، وهدم الكل ، وأنشأ داره الكبيرة ، وأعانه الخليفة في بنائها ، وأطلق له أموالاً وآلات البناء ، وكان في جملة ما أطلق له مائتا ألف آجرة وأجريت الدار بالذهب ، وصنع فيها الحمام العجيب الذي فيه بيت مستراح فيه أنبوب إن فركه الإنسان يميناً خرج ماء حار وإن فركه شمالاً خرج ماء بارد ، وكان على إيوان الدار مكتوباً^٢ :

إن عَجِبَ الرّاءونَ من ظاهري فباطني لو علموا أعجبُ

١ ب : وعليه مركب في صورة أنبوب آخر برسم الماء ؛ م : مركب في صدره أنبوب وآخر . . .

٢ ب م : مكتوب .

شَيْدَنِي مَنْ كَفَّهُ مُزْنَةً يَهْمِلُ مِنْهَا الْعَارِضُ الصَّيْبُ
وَدِيحَتْ رَوْضَةً أَخْلَاقَهُ فِي رِيَاضًا نَوَّرَهَا مُذْهَبُ
صَدْرُ كَسَا صَدْرِي مِنْ نَوْرِهِ شَمْسًا عَلَى الْآيَامِ لَا تَغْرُبُ

وكتب على الطرز :

وَمَنْ الْمَرْوَعَةِ لِلْفَتَى مَا عَاشَ دَارٌ فَاخِرَةٌ
فَاقْنَعِ مِنَ الدُّنْيَا بِهَا وَاعْمَلْ لِدَارِ الْآخِرَةِ
هَاتِيكَ وَافِيَةً بِمَا وَعَدْتُ ، وَهَذِي سَاخِرَةٌ^١

وكتب على النادي :

وَنَادِ كَأَنَّ جَنَّاتِ الْخُلُودِ أَعَارَتْهُ مِنْ حُسْنِهَا رَوْنَقًا
وَأَعْطَتْهُ مِنْ حَادِثَاتِ الزَّمَا نِ أَنْ لَا تُلِمَّ بِهِ مَوْثِقًا
فَأُضْحِي بَيْتَهُ عَلَى كُلِّ مَا بَنَى مَغْرِبًا كَانَ أَوْ مَشْرِقًا
تَظِلُّ الْوُفُودُ بِهِ عُكْفًا وَتُمْسِي الضُّيُوفُ بِهِ طُرْقًا
بَقِيَتْ لَهُ يَا جَمَالَ الْمَلُوكِ لِكِ وَالْفَضْلُ مَهْمَا أَرَدَتْ الْبَقَا
وَسَالَمَهُ فَيْكَ رَبُّ الزَّمَانِ وَوَقَّيْتَ فِيهِ الَّذِي يُتَّقَى

[أشعار للمشاركة في الحمام]

وعلى ذكر الحمام فما أحكم قول ابن الوردي فيما أظن^٢ :

وَمَا أَشْبَهَ الْحَمَامَ بِالْمَوْتِ لَامَرِي تَذَكَّرْ ؛ لَكِنْ أَيْنَ مِنْ يَتَذَكَّرُ
يَجْرُدُ عَنْ أَهْلٍ وَمَالٍ وَمَلْبَسٍ وَيُصْحَبُهُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ مَثَرُ

١ ب : خامسة .

٢ مطالع البدور ٢ : ١٣ .

وقال الشهاب بن فضل الله ^١ :

وحمّامكم كعبّة للوفودِ تحجّ إليه حفاةٌ عُرَاهُ
يكرّرُ صوتُ أناييه كتابَ الطهارة بابَ المياهِ

وقد تمثل بهذين البيتين البرهان القيراطي في جواب كتاب استدعاه فيه بعض أهل عصره إلى الحمام ، وافتتح الجواب بقوله ^٢ :

قد أجبنا وأنت أيضاً فصبحَ تَ بصُبحي سوافٍ وسُلافٍ
وبساقٍ يسبي العقولَ بساقٍ وقوامٍ وفقَ العناقِ خلافي
ووصله بنثر تمثل فيه بالبيتين كما مر .

ولبعضهم ^٣ :

إن حمّامنا الذي نحنُ فيه أيّ ماءٍ به وأيّةُ نارٍ
قد نزلنا به على ابن معينٍ وروينا عنه صحيح البخار [ي]
والغز بعضهم في الحمام بقوله ^٤ :

ومنزل أقوامٍ إذا ما تقابلوا تشابه فيه وغدّه ورئيسه
ينفّسُ كربى إذ ينفّسُ كربه ويعظمُ أنسى إذ يقلُّ أنيسه
إذا ما أعرت الجوّ طرّفاً تكاثرت على من به أقماره وشموسه

رجع إلى ما كنا فيه من كلام أهل الأندلس ، فنقول :

١ مطالع البدور ٢ : ١١ ، ١٧ .

٢ مطالع البدور ٢ : ١٦ .

٣ المصدر نفسه : ١٠ .

٤ المصدر نفسه : ٩ .

١٣٨ - وكان محمد بن خلف بن موسى البيري ^١ متكلماً متحققاً برأي الأشعرية ، وذاكراً لكتب الأصول في الاعتقاد ، مشاركاً في الأدب ، مقدماً في الطب ، ومن نظمه يمدح إمام الحرمين رحمه الله تعالى :

حُبُّ حَبْرٍ يَكْنَى أَبَاً لِلْمَعَالِي هو ديني ففيه لا تعذلوني
أنا والله مغرمٌ بهواه عللوني بذكره عللوني

١٣٩ - وكتب ^٢ أبو الوليد ابن الجنان الشاطبي ^٣ يستدعي بعض إخوانه إلى مجلس أنس بما صورته : نحن في مجلس أغصانهُ الندامى ، وغمامه الصهباء ، فبالله إلا ما كنت لروض مجلسنا نسيماً ، ولزهر حديثنا شميماً ، وللجسم روحاً ، وللطيب ريحاً ، وبيننا عذراء زُجاجتها خدرها ، وحبابها ثغرها ، بل شقيقة حوتها كمامة ، أو شمس حجبتها غمامة ، إذا طاف بها معصم الساقى فوردة على غصنها ، أو شربها مقهقهةً فحمامة على فَنَسْنَهَا ، طافت علينا طَوْفَانِ الْقَمَرِ على منازل الحلول ، فأنت وحياتك إكليلنا وقد آن حلولها في الإكليل ، انتهى .

وقال أبو الوليد المذكور :

فوقَ خَدِّ الْوَرْدِ دَمْعٌ من عيونِ السُّحْبِ يُدْرَفُ
برداءِ الشمسِ أَضْحَى بعدما سَالَ يَحْفَفُ

[حكاية مشرقية عن الورد والياسمين]

وتذكرت هنا بذكر الورد ما حكاه الشيخ أبو البركات هبة الله بن محمد النصيبي المعروف بالوكيل ، وكان شيخاً ظريفاً فيه آداب كثيرة ، إذ قال :

١ م : البشيري .

٢ م : وكتب الوزير .

٣ مرت ترجمته رقم : ٦٨ في الراحلين إلى المشرق (٢ : ١٢٠) .

كنت في زمن الربيع والورد في داري بنصيين ، وقد أحضر من بستاني من
الورد والياسمين شيء كثير ، وعملت على سبيل الولع دائرة من الورد
تقابلها دائرة من الياسمين ، فاتفق أن دخل علي شاعران كانا بنصيين أحدهما
يُعرف بالمهذب والآخر يُعرف بالحسن ابن البرقععيدي ، فقلت لهما : اعملا
في هاتين الدائرتين ، ففكّرا ساعة ثم قال المهذب :

يا حُسْنَهَا دائرةٌ من ياسمينٍ مُشرقٍ
والوردُ قدْ قابِلُها في حُلَّةٍ من شَفَقٍ
كعاشقٍ وحبِّه تغامزا بالحدقِ
فاحمرَّ ذا من خجلٍ واصفرَّ ذا من فَرَقِ

قال : فقلت للحسن : هات ، فقال : سبقني المهذب إلى ما لمحتّه في هذا
المعنى ، وهو قولي :

يا حُسْنَهَا دائرةٌ من ياسمينٍ كالخلي
والوردُ قد قابِلُها في حُلَّةٍ من خجلٍ
كعاشقٍ وحبِّه تغامزا بالمُقَلِّ
فاحمرَّ ذا من خجلٍ واصفرَّ ذا من وَجَلِ

قال : فعجبت من اتفاقهما في سرعة الاتحاد ، والمبادرة إلى حكاية الحال ،
انتهى .

وما أَلطف قول بعضهم :

أرى الوردَ عند الصبحِ قد مدَّ لي فَمًا يشيرُ إلى التقبيلِ في حالةِ اللَّمسِ
وبعد زوالِ الشمسِ ألقاهُ وَجَنَةً وقد أثَّرتْ في وسطها قبلةُ الشمسِ

١٤٠ - وقال ابن ظافر في « بدائع البدائيه »^١ : اجتمع الوزير أبو بكر ابن القبطرنة والأديب أبو العباس ابن صارة الأندلسيان في يوم جلا ذهب برقه ، وأذاب ورق ودقه ، والأرض قد ضحكت لتعيس السماء ، واهتزت وربت عند نزول الماء ، فقال ابن القبطرنة :

هذي البسيطة كاعب أبرادها حُلّ الربيع وحلّيتها النّوّارُ
فقال ابن صارة :

وكأنّ هذا الجوّ فيها عاشقٌ قد شفّه التعذيبُ والإضرارُ
ثم قال ابن صارة أيضاً :

وإذا شكّا فالبرقُ قلبٌ خافقٌ وإذا بكى فدموعهُ الأمطارُ
فقال ابن القبطرنة :

من أجل ذلّةِ ذا وعزة هذه يبكي الغمامُ وتضحكُ الأزهارُ
[بديهة ابن ظافر]

وتذكرت هنا ما حكاه ابن ظافر^٢ في الكتاب المذكور أنّه اجتمع مع القاضي الأعز يوماً فقال له ابن ظافر : أجز :

طار نسيمُ الروضِ من وكر الزّهرِ
فقال الأعز :

وجاء مبلولَ الجناحِ بالمطرِ

انتهى .

١ بدائع البدائيه ١ : ١٨٦ ومطالع البدور ١ : ١٢٣ .

٢ البدائع ١ : ٧٠ .

ويعجبي قول ابن قرناص^١ :

أظنُّ نسيمَ الروضِ والزهرِ قد رَوَى حديثاً ففاحت من شدَّاهُ المسالكُ
وقالَ دنا فصلُ الربيعِ فكلَّه تُغورُ لما قالَ النسيمُ ضواحكُ

رجع إلى الأندلسيين :

١٤١ - وما أرق قول ابن الزقاق^٢ :

ورياضٍ من الشقائقِ أضحت يتهدى بها نسيمُ الرياحِ
زرتها والغمامُ يجلدُ منها زهراتٍ تفوقُ لونَ الراحِ
قلتُ : ما ذنبها ؟ فقال مجيباً : سرقتُ حمرةَ الخلودِ الملاحِ

١٤٢ - وقال أبو إسحاق ابن خفاجة^٣ :

تعلقتَه نشوانٌ^٤ من خمر ريقه له رشفُها دوني ولي دونه السكرُ
ترقرق ماءً مقلتاي ووجهه ويدكي على قلبي ووجنته الجمرُ
أرقٌ نسيبي فيه رقةٌ حسنه فلم أدري أيُّ قبلها منهما السحرُ
وطبنا معاً شعراً وثغراً كأنما له منطقي ثغراً ولي ثغره شعرُ

١٤٣ - وقال أبو الصَّلْت أمية بن عبد العزيز^٥ :

وقائلة : ما بالُ مثلكَ خاملاً أأنتَ ضَعيفُ الرأي أم أنتَ عاجزُ ؟
فقلتُ لها : ذنبي إلى القومِ أنتي لما لم يحوزوه من المجدِ حائرُ

١ مطالع البدور ١ : ١٢٥ .

٢ ديوان ابن الزقاق : ١٢٥ والمغرب ٢ : ٣٢٤ والشريشي ١ : ١٢٠ وقد مرت ص : ٢٠٠ .

٣ ديوان ابن خفاجة : ٣٥٣ .

٤ الديوان : ريان .

٥ الخريدة ١/٤ : ٢٧٧ .

وما فاتني شيء سوى الحظّ وحده وأما المعالي فهي عِندي غرائر
وقال :

جدّ بقلبي وعبثُ ثمّ مضى وما اكترثُ
وأحرّبا^١ من شادنٍ في عُقْدِ الصبرِ نفثُ
يقتُلُ من شاء بعي فيه ومن شاء بعثُ

١٤٤ - وقال البليغ الفاضل يحيى بن هذيل^٢ أحد أعيان شعراء الأندلس :

نام طفل النبت في حِجْرِ النعامي لاهتزازِ الطلّ في مهد الخزامي
وسقى الوسمي أغصانَ النقا فهوت تلثمُ أفواه الندامي
كحلّ الفجرُ لهم جفنَ الدجى وغدا في وجنة الصبح لثاما
تحسب البدرَ مُحِيّا ثَمِلٍ قد سقته راحة الصبح مُداما
حوله الزهرُ كؤوسٌ قد غدت مسكة الليل عليهن ختاماً

وتذكرت هنا قول الآخر ، وأظنه مشرقياً^٣ :

بكر العارضُ تحدوه النعامي فسقاك الريّ يا دارَ أُمّاما
وتمشّت فيك أرواحُ الصبا يتأرجنَ بأنفاس الخزامي
قد قضى حفظُ الهوى أن تصبحي للمحبين مُناخاً ومُقاما
وبجرعاء الحمى قلبي ، فعج بالحمى واقراً على قلبي السلاما
وترحلّ فتحدّث عجباً أن قلباً سار عن جسمٍ أقاما
قل لجيران الغضا آهاً على طيب عيش بالغضا لو كان داما

١ الخريدة : وا حزني .

٢ الكتيبة الكامنة : ٧٤ منسوبة خطأ لابن شقرال ، ونثير الفرائد : ٣٢٢ .

٣ هي لمهيار الديلمي ، ديوانه : ٣ : ٣٢٧ .

حملُوا رِيحَ الصَّبَا من نَشْرِكُمْ^١ قَبْلَ أنْ تَحْمَلَ شَيْحاً وَثَمَاماً
وَابْعَثُوا أَشْبَاحَكُمْ لِي فِي الْكُرَى^٢ إِنْ أَذْنَمْتُ^٣ لِحَفْوَنِي أَنْ تَنَامَا

١٤٥ - وخرج بعض علماء^١ الأندلس من قُرْطُبَة إلى طَلِيْطُلَة ،
فاجتاز بحريز^٢ بن عكاشة الشجاع المشهور الذي ذكرنا في هذا الباب ما يدلُّ
على شجاعته وقوّته وأَيْدِهِ ، بقلعة رباح ، فتزل بخارجها في بعض جنباتها ،
وكتب إليه :

يا فريداً دون ثانٍ وهلالاً في العيانِ
عدم الراح فصارتْ مثلَ دُهْنِ البلسانِ

فبعث إليه بها ، وكتب معها :

جاء من شعرك روضٌ جاده صَوْبُ اللسانِ
فبعثناها سَلافاً كسجايك الحسانِ

[أشعار لابن شهيد]

١٤٦ - وقال الوزير أبو عامر ابن شُهَيْد يتغزل^٣ :

أصبحُ شَيْمَ أم برقٍ بَدَا أم سنا المحبوب أوري زَنْدَا
هَبَّ من مرقده منكسراً مُسْبِلاً للكمّ مُرَخٍ للردَا
يمسح النعسة من عيني رَشَا صائدي في كلِّ يومٍ أسدا

١ ب : شعراء ؛ ق ودوزي : أدباء .

٢ كذا في م ؛ وفي ب : بجزيرة ؛ وفي ق : بحدير .

٣ انظرها في الذخيرة ١/١ : ٢٢٣ والمطبع : ١٨ وديوان ابن شهيد : ٤٩ .

٤ الذخيرة : أصفح .

أوردته لطفاً آياته
فهو من دلّ عراه زبدة
قلت هب لي يا حبيبي قبله
فانثني يهتر من منكبهِ
كلما كلمني قبلته
كاد أن يرجع من لثمي له
ولإذا استنجزت يوماً وعده
شربت أعطافه ماء الصبا
فإذا بت به في روضة
قام في الليل بجيد أطلع
ومكان عازب عن جيرة
ذي نبات طيب أعراقه
تحسب الهضبة منه جبلاً
صفوة العيش وأرعته ددا
من مريح لم تخالط زبدا
تشف من عمك تبريح الصدى
مائلاً لطفاً وأعطاني اليدا
فهو إما قال قولاً رددا
وارتشاف الثغر منه أدردا
أمطل الوعد وقال: اصبر غدا
وسقاه الحسن حتى عرّبدا
أغيد يقرؤ نباتاً أغيدا
ينفض اللمة من دمع الندى
أصدقاء وهم عين العدا
كعدار الشعر في خدّ بدا
وحذور الماء منه أبردا

وقال يرثي القاضي ابن ذكوان ، نجيب ذلك الأوان ، وقد افتنّ في الآداب ،
وسنّ فيها سنّة ابن داب ، وما فارق ربع الشباب شرخه ، ولا استتمّ جدّ في
الكهولة عقاره ولا مرّخه ، وكان لأبي عامر هذا قسيم نفسه ، ونسيم أنسه^٣ :

ظننا الذي نادى محقاً بموته
وخيلنا الصباح الطلق ليلاً وأننا
ثكلنا الدثني لما استقلّ وإنما
وما ذهبّت إذ حلّ في القبر نفسه
لعظم الذي أنحى من الرّزء كاذبا
هبطنا خدارياً من الحزن كاربا
فقدناك يا خير البرية ناعبا
ولكنّا الإسلام أدبر ذاهبا

١ الذخيرة : قال لي يطل ذكرني غدا .

٢ الذخيرة : يعرو ؛ ب م ق : يغزو .

٣ المطمح : ١٩ ؛ وديوانه : ٢٣ .

ولمّا أبى إلاّ التحمّلَ رائحاً
يسيرُ بهِ النعشُ الأعزُّ وحوله
عليه حفيفٌ للملائكِ أقبلتْ
تخال لفيفَ الناسِ حولَ ضريحه
إذا ما امتروا سحّبَ الدموعِ تفرعتْ
فمن ذا لفصلِ القولِ يسطعُ نورُهُ
ومن ذا ربيعُ المسلمين يقوتهم
فيا لهفَ قلبي آه ذابت حُشاشتي
ومات الذي غاب السرورُ لموته
وكان عظيماً يُطرقُ الجَمْعُ عندهُ
وذا مِقْوَلٍ عَضْبُ الغِرَارينِ صارمٍ
أبا حاتمٍ صبرَ الأديبِ^١ فإنتي
وما زلتَ فينا تُرهِبُ الدهرَ سطوةً
سأستعبُ الأيامَ فيك لعلّها
لئن أفلتَ شمسُ المكارمِ عنكمُ

منحناه أعناقَ الكرامِ ركائباً
أبعدُ كانوا للمُصابِ أقارباً
تُصافحُ شيخاً ذاكرَ الله تائباً
خليطَ قطاً وافى الشريعةَ هارباً
فروعُ البكا عن بارقِ الحزنِ لاهباً
إذا نحن ناوينا الألدَّ المناوباً
إذا الناسُ شاموها بروقاً كواذباً
مضى شيخنا الدَفَّاعُ عتاً النواذباً
فليس وإن طال السُرى منه آيباً
ويعنو له ربُّ الكتيبة هائباً
يروحُ به عن حومة الدين ضارباً
رأيتُ جميلَ الصبرِ أحلى عواقباً
وصعباً به نُعيي الخطوبَ المصاعباً
لصحّةِ ذاك الجسمِ تطلبُ طالباً
لقد أسارت بدرأ لها وكواكباً

قال في «المطمح»^٢: ودبت إلى أبي عامر ابن شهيد أيام العلويين عقارب ،
برئت بها منه أباعد وأقارب ، واجهه بها صرْفُ قطوب ، وانبرت إليه منها
خطوب ، نبا لها جنبُه عن المضجع ، وبقي بها ليالي يارق ولا يهجع ، إلى أن
أعلقت في الاعتقال آماله ، وعقلته في عقال أذهب ماله ، فأقام مرتهاً ، ولقي
وهناً ، وقال :

١ ب م ق : الأديم .

٢ المطمح : ٢٠ وانظر الذخيرة ١/١ : ٢٢٤ .

قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الْهَوَانِ مَسْجِدُ
نَعَى صَبْرَهُ عِنْدَ الْإِمَامِ فَيَا لَهُ
وَمَا ضَرَّهُ إِلَّا مَزَاحٌ وَرَقَّةٌ
جَنَى مَا جَنَى فِي قُبَّةِ الْمَلِكِ غَيْرِهِ
وَمَا فِيَّ إِلَّا الشَّعْرُ أَثْبَتَهُ الْهَوَى
أَفْوَهُ بِمَا لَمْ آتِهِ مَتَعَرِضاً
فَإِنْ طَالَ ذِكْرِي بِالْمَجُونِ فَإِنَّهَا
وَهْلُ كُنْتُ فِي الْعِشَاقِ أَوَّلَ عَاقِلٍ
فِرَاقٌ وَشَجْوٌ وَاشْتِيَاقٌ وَذَلَّةٌ
فَمَنْ يَبْلُغُ الْفَتْيَانَ أَنْتَى بَعْدَهُمْ
مَقِيمٌ بَدَارٍ سَاكِنُهَا مِنَ الْأَذَى
وَيُسْمَعُ لِلْجَنَانِ فِي جَنَابِهَا
وَلَسْتُ بِذِي قَيْدٍ يَرْنُ ، وَإِنَّمَا
وَقَلْتُ لَصَدَّاحِ الْحَمَامِ وَقَدْ بَكَى
أَلَا أَيُّهَا الْبَاكِي عَلَى مَنْ تَحِبُّهُ
وَهْلُ أَنْتَ دَانٍ مِنْ مَحَبِّ نَأَى بِهِ
فَصَفَّقْ مِنْ رِيشِ الْجَنَاحِينَ وَاقْعَا
وَمَا زَالَ يَبْكِينِي وَأَبْكِيهِ جَاهِداً
إِلَى أَنْ يَبْكِيَ الْجَدْرَانُ مِنْ طَوْلِ شَجُونَا
أَطَاعَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابُ
فَلِلشَّمْسِ عَنْهَا بِالنَّهَارِ تَأْخِرُ
أَلَا إِنَّهَا الْأَيَّامُ تَلْعَبُ بِالْفَتَى
وَمَا كُنْتُ ذَا أَيْدٍ فَأَذْعَنْ ذَا قُوَى
وَرَاضَتْ صَعَابِي سَطْوَةً عَلَوِيَّةً

يَجُودُ وَيَشْكُو حُزْنَهُ فَيَسْجِدُ
عَدُوَّ لِأَبْنَاءِ الْكِرَامِ حَسُودُ
ثَنَّتْهُ سَفِيهَ الذِّكْرِ وَهُوَ رَشِيدُ
وَطُورُ مَنْ مِنْهُ بِالْعَظِيمَةِ جِيدُ
فَسَارَ بِهِ فِي الْعَالَمِينَ فَرِيدُ
لِحَسَنِ الْمَعَانِي تَارَةً فَأَزِيدُ
عِظَائِمُ لَمْ يَصْبِرْ لَهَا جَلِيدُ
هُوتَ بِحِجَاهِ أَعْيُنُ وَخُدُودُ
وَجَبَّارُ حِفَاطٍ عَلَيَّ عَتِيدُ
مَقِيمٌ بَدَارِ الظَّالِمِينَ وَحِيدُ
قِيَامٌ عَلَى جَمْرِ الْحِمَامِ قَعُودُ
بَسِيطٌ كَتَرَجِيعِ الصَّدَى وَنَشِيدُ
عَلَى اللَّحْظِ مِنْ سَخَطِ الْإِمَامِ قِيُودُ
عَلَى الْقَصْرِ إِلْفًا وَالْدُّمُوعُ تَجُودُ
كَلَانَا مُعْنَى بِالْخِلَاءِ فَرِيدُ
عَنْ الْإِلْفِ سُلْطَانُ عَلَيْهِ شَدِيدُ
عَلَى الْقَرَبِ حَتَّى مَا عَلَيْهِ مَزِيدُ
وَاللَّشُوقِ مِنْ دُونِ الضُّلُوعِ وَقُودُ
وَأَجْهَشُ بَابُ جَانِبَاهُ حَدِيدُ
تَصَرَّفُ فِي الْأَمْوَالِ كَيْفَ تَرِيدُ
وَالْبَدْرِ شَحْنًا بِالظَّلَامِ صُدُودُ
نَحُوسٌ تَهَادَى تَارَةً وَسُودُ
مَنْ الدَّهْرِ مَبْدَى صَرْفِهِ وَمَعِيدُ
لَهَا بَارِقٌ نَحْوَ النَّدَى وَرَعُودُ

تقولُ التي مِن بيتِها كُفَّ مركبي أَقْرَبُكَ دانِ أُم مَدَاكَ بَعِيدُ^١
فقلتُ لها أُمري إلى مَنْ سَمْتُ بِهِ إلى المَجْدِ آبَاءُ لَهُ وَجَدودُ

ثُمَّ قَالَ^٢ : وَلَزِمَتْهُ آخِرَ عَمْرِهِ عِلَّةٌ دَامَتْ بِهِ سِنِينَ ، وَلَمْ تَفَارِقْهُ حَتَّى
تَرَكَتْهُ يَدَ جَنِينٍ ، وَأَحْسَبُ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بِهَا تَمْحِيطَهُ ، وَإِطْلَاقَهُ مِنْ ذَنْبٍ كَانَ
قَتْنِيصَهُ ، فَطَهَرَهُ تَطْهِيراً ، وَجَعَلَ ذَلِكَ عَلَى الْعَفْوِ لَهُ ظَهْيراً ، فَإِنَّهَا أَقْعَدَتْهُ حَتَّى
حُمِلَ فِي الْمِحْفَةِ ، وَعَاوَدَتْهُ حَتَّى غَدَتْ لِرَوْنَقِهِ مُشْتَقَّةً ، وَعَلَى ذَلِكَ فَلَمْ يَعْطَلَ
لِسَانَهُ ، وَلَمْ يَبْطُلْ إِحْسَانُهُ ، وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَرِيحُ إِلَى الْقَوْلِ ، وَيُزِيحُ مَا كَانَ يَجِدُهُ
مِنَ الْغَوْلِ ، وَآخِرَ شَعْرٍ قَالَهُ قَوْلُهُ :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْعَيْشَ لَوَّى بِرَأْسِهِ
تَمَنَّيْتُ أَتَى سَاكِنٌ فِي عِبَاءَةٍ^٣
أَرْدُءُ سَقِيطَ الطَّلِّ فِي فَضْلِ عَيْشِي
خَلِيلِي مَنْ ذَاكَ الْمَنِيَّةَ مَرَّةً
كَأَنِّي وَقَدْ حَانَ ارْتِحَالِي لَمْ أَفْزُ
فَمَنْ مَبْلَغُ عَنِي ابْنِ حَزْمٍ وَكَانَ لِي
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ إِنِّي مُفَارِقُ^٤
فَلَا تَنْسَ تَأْيِينِي إِذَا مَا ذَكَرْتَنِي^٥
وَحَرَّكَ لَهُ بِاللَّهِ مِنْ أَهْلِ فَتَنَانٍ^٦

وَأَيَقَنْتُ أَنَّ الْمَوْتَ لَا شَكَّ لَاحِقِي
بِأَعْلَى مَهَبِّ الرِّيحِ فِي رَأْسِ شَاهِقِ
وَحِيداً وَأَحْسُو الْمَاءِ ثَنِي الْمَعَالِقِ
فَقَدْ ذَقْتُهَا خَمْسِينَ ، قَوْلُهُ صَادِقِ
قَدِيماً مِنَ الدُّنْيَا بِلَمْحَةٍ بَارِقِ
يَدّاً فِي مُلِمَّاتِي وَعِنْدَ مَضَائِقِي
وَحَسْبُكَ زَاداً مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِقِ
وَتَذَكَارَ أَيَّامِي وَفَضْلَ خِلَافَتِي
إِذَا غَيَّبُونِي كُلَّ شَهْمٍ غُرَانِقِ

١ م : نواك ؛ ق ب : نذاك بعيد .

٢ المطمح : ٢١ ، وانظر الذخيرة ١ / ١ : ٢٨٢ .

٣ الذخيرة : غيابة .

٤ الذخيرة : أدر .

٥ ق ب : من رام . . . فقد رمتها .

٦ الذخيرة : فقدتني .

٧ ق ب : مهما ذكرتني ، وسقط البيت من م .

عسى هامتي في القبر تسمعُ بعضه بترجيعٍ شادٍ أو بتطريب طارقٍ
فلي في ادّكاري بعد موتيّ راحةً فلا تمنعوها لي علالةً زاهقٍ
ولني لأرجو اللهَ فيما تقدّمت ذنوبي به ممّا درى من حقائقٍ

١٤٧ - وكان أبو مروان عبد الملك بن غصن مستولياً على وزارة ابن عبيدة

ولسانه ينشد :

وشيّدتُ مجدي بين أهلي ولم أقلُّ ألا ليت قومي يعلمون صنيعي
وهجا ابن ذي النون بقوله :

تلقبت بالمأمون ظلماً ، وإنّني لآمنُ كلباً حيث لست مؤمنّةً
حرامٌ عليه أن يجود ببشره وأما الندى فاندبُ هنالك مدفنته
سطور المخازي دون أبواب قصره بحجابيه للقاصدين معنوته

فلما تمكّن منه المأمون سجنه ، فكتب إلى ابن هودٍ من أبيات :

أيا راكبَ الوجناء بلغ تحيّةً أميرَ جُدّامٍ من أسيرٍ مُقيّدٍ
ولما دهنتي الحادثاتُ ولم أجدُ لها وزراً أقبلتُ نحوكَ أعتدي^١
ومثلك من يُعدي على كلِّ حادثٍ رمى بسهامٍ للردى لم ترصدٍ
فعلّك أن تخلو بفكركَ ساعةً لتنفذني من طولٍ همٍّ مجدّدٍ
وها أنا في بطنِ الثرى وهو حاملٌ فيسرّ على رُقبتي^٢ الشفاعة مولدي
حنانك^٣ ألفاً بعد ألفٍ فإنّني جعلتك بعد الله أعظمَ مقصدي
وأنت الذي يدري إذا رام حاجةً تضلُّ بها الآراء من حيث يهندي

١ ب : أعتدي .

٢ م : رمل ؛ ق : قيل .

٣ م : حنانك .

فرقَّ له ابن هود ، وتحيل حتى خلَّصه بشفاعته ، فلمَّا قدم عليه أنشده :

حياتي موهوبةٌ من علاكا وكيف أرى عادلاً عن ذراكا
ولو لم يكنْ لك من نعمة عليَّ وأصبحتُ أبغي سواكا
لناديتُ في الأرض هل مُسعفٌ مجيبٌ فلم يُصغِ إلا نَدَاكا

فطرب ابن هود ، وخلع عليه ثوبَ وزارته ، وجعله من أعلام سلطنته وإمارته .

١٤٨ - وقال المنصور بن أبي عامر للشاعر المشهور أبي عمر يوسف

الرمادي : كيف ترى حالك معي ؟ فقال : فوق قدري ودون قدرك ، فأطرق
المنصور كالغضبان ، فانسلَّ الرمادي وخرج وقد ندم على ما بدر منه ، وجعل
يقول : أخطأت ، لا والله ما يفلح مع الملوك مَنْ يعاملهم بالحق ، ما كان ضررتي
لو قلت له : إنني بلغت السماء ، وتمنطقت بالجوزاء ، وأنشدته ١ :

متى يأت هذا الموتُ لا يُلْفِ حاجةٌ لنفسي إلا قد قضيتُ قضاءها

لا حول ولا قوة إلا بالله . ولمَّا خرج كان في المجلس من يحسُّده على مكانه
من المنصور ، فوجد فرصة فقال : وصل الله لمولانا الظفر والسعد ، إن هذا
الصنف صنف زور وهذيان لا يشكرون نعمة ، ولا يرعونَ إلاَّ ولا ذمةً ،
كلابٌ من غلب ، وأصحابٌ من أخصب ، وأعداء من أجذب ، وحسبك
منهم أن الله جلَّ جلاله يقول فيهم ﴿ والشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ - إل ما
لا يَفْعَلُونَ ﴿ (الشراء : ٢٢٤) والابتعاد منهم أولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم :
ما ظنك بقوم الصدق يُستحسن إلا منهم ؟ فرفع المنصور رأسه ، وكان مُحِبّاً
في أهل الأدب والشعر ، وقد اسودَّ وجهه ، وظهر فيه الغضب المفرط ، ثم قال :
ما بال أقوام يشيرون في شيء لم يُستشاروا فيه ، ويسئون الأدب بالحكم فيما

١ البيت لقيس بن الخطيم ، ديوانه : ١٠ .

لا يلزوم أن يرزى أم يسخط ؟ وأنت أيتها المنبث للشرّ دون أن يبعث ، قد علمنا
غرضك في أهل الأدب والشعر عامة ، وحسدك لهم ، لأن الناس كما قال القائل :

من رأى الناس له فَنَصُ إلا عليهم حسدوه

وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصّة ، ولنا إن شاء الله تعالى نبيلٌ أحداً
غرضه في أحد ، ولو بلّغناكم بلغنا في جانبكم ، وإنك ضربت في حديد بارد ،
وأخطأت وجه الصواب ، فزدت بذلك احتقاراً وصغاراً ، وإنّي ما أطرقت من
خطاب الرمادي إنكاراً عليه ، بل رأيتُ كلاماً يجلُّ عن الأقدار الجليّة ، وتعجبت
من تهديّه له بسرعة ، واستنباطه له على قلته من الإحسان الغامر ما لا يستنبطه
غيره بالكثير ، والله لو حكّمته في بيوت الأموال لرأيت أنها لا ترجع ما تكلم
به قلبه ذرة^١ ، وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص قبل أن يؤخذ
معه فيه ، ولا تحكموا علينا في أوليائنا ولو أبصرتم منا التغيّر عليهم ، فإننا
لا نغيّر عليهم بغضاً لهم وانحرافاً عنهم ، بل تأديباً وإنكاراً ، فإننا من نريد
إبعاده لم نُنظّر له التغيّر ، بل ننبذه مرّة واحدة ، فإن التغيّر إنّما يكون لمن يراى
استبقاؤه ، ولو كنتُ مائل السمع لكل أحد منكم في صاحبه لفرقت أيدي سبّا ،
وجونبتُ أنا مجانبه الأجرب ، وإنّي قد أطلعتكم على ما في ضميري فلا تعدلوا
عن مرضاتي ، فتجنّبوا سخطي بما جنّيتهموه على أنفسكم ؛ ثم أمر أن يرُدَّ
الرمادي وقال له : أعد عليّ كلامك ، فارتاع ، فقال : الأمر على خلاف ما
قدرت ، الثواب أولى بكلامك من العقاب ، فسكن لتأنيسه ، وأعاد ما تكلم به ،
فقال المنصور : بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا فمّ النابغة بالدر لكلام استحسنة
منه ، وقد أمرنا لك بما لا يقصر عن ذلك ما هو أنوه وأحسن عائدة ؛ وكتب
له بمال وخيلع وموضع يتعيش منه ، ثم ردّ رأسه إلى المتكلم في شأن الرمادي ،

١ قلبه ذرة : سقطت من م .

وقد كاد يغوص في الأرض لو وجد لشدة ما حلَّ به ممَّا رأى وسمع ، وقال :
والعجب من قوم يقولون الابتعادُ من الشعراء أولى من الاقتراب ، نعم ذلك
لمن ليس له مفاخر يريد تخليدها ، ولا أيادٍ يرغب في نشرها ، فأين الذين قيل
فيهم ^١ :

على مكثريهم رَزَقَ من يعترهم وعند المقلين الساحةُ والبذلُ
وَأين الذي قيل فيه ^٢ :

إنما الدنيا أبو دُلْفٍ بين مَبْدَاهِ ^٣ ومَحْضَرِهِ
فإذا ولَّى أبو دُلْفٍ وَلَّتِ الدنيا على أثرِهِ

أما كان في الجاهلية والإسلام أكرم ممن قيل فيه هذا القول ؟ بلى ، ولكن
صحبة الشعراء والإحسان إليهم أَحْيَتْ غابر ذكْرهم ، وخصتهم بمفاخر عصرهم ،
وغيرهم لم تخلد الأمداح مآثرهم فدَثَّرَ ذكْرهم ، ودرس فخرهم ، انتهى .

[بنو صمداح]

١٤٩ - ومن حكاياتهم في العدل أنه لما بنى المعتصم بن صمداح ملك
المرية قصوره المعروفة بالصمداحية غَضَبُوا أَحَدَ الصالحين في جَنَّةٍ وألحقوها
بالصمداحية ، وزعم ذلك الصالح أنها لأيتام من أقاربه ، فبينما المعتصم يوماً يشرب
على الساقية الداخلة إلى الصمداحية إذ وقعت عينه على أنبوب قصبة مشمع ،
فأمر من يأتيه به ، فلما أزال عنه الشمع وجد فيه ورقة فيها « إذا وقفت أيَّها
الغاصبُ على هذه الورقة فاذكر قول الله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ

١ البيت لزهير بن أبي سلمى ، ديوانه : ٢٢ (شرح الأعلام) .

٢ الشعر لملي بن جبلة ، انظر طبقات ابن المعتز : ١٧٢ .

٣ م : باديه .

وَيَسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٍ وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (ص : ٢٣) لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، أَنْتَ مَلِكٌ قَدْ وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ ، وَمَكَّنَ لَكَ فِي الْأَرْضِ ، وَبَحَلَّكَ الْخَرْصُ عَلَى مَا يَفْنَى أَنْ تَضُمَّ إِلَى جَنَّتِكَ الْوَاسِعَةِ الْعَظِيمَةِ قِطْعَةَ أَرْضٍ لِأَيَّامٍ حَرَّمْتَ بِهَا حِلَّهَا ، وَخَبَثَ طَبِيعُهَا ، وَلِئِنْ تَحَجَّجْتَ عَنِي بِسُلْطَانِكَ ، وَاقْتَدَرْتَ عَلَيَّ بِعَظَمِ شَأْنِكَ ، فَتَجْتَمِعُ غَدًا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ لَا يَحْجِبُ عَنْ حَقِّ ، وَلَا تَضِيعُ عِنْدَهُ شَكْوَى . فَلَمَّا اسْتَوْعَبَ قِرَاءَتَهَا دَمَعَتْ عَيْنَاهُ ، وَأَخَذَتْهُ خَشْيَةٌ خِيفَ عَلَيْهِ مِنْهَا ، وَكَانَتْ عَادَتُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَقَالَ : عَلَيَّ بِالْمُسْتَغْلِينَ بِنَاءَ الصَّمَادِيَّةِ ، فَأَحْضِرُوا ، فَاسْتَفْسَرَهُمْ عَمَّا زَعَمَ الرَّجُلُ ، فَلَمْ يَسْمَعْهُمْ إِلَّا صَدَقَهُ ، وَاعْتَذَرُوا بِأَنْ نَقَضَهَا مِنَ الصَّمَادِيَّةِ يَغِيْبُهَا فِي عَيْنِ النَّازِرِ ، فَاسْتَشَاطَ غَضَبًا وَقَالَ : وَاللَّهِ إِنْ عِيْبَهَا فِي عَيْنِ الْخَالِقِ أَقْبَحُ مِنْ عِيْبَهَا فِي عَيْنِ الْمَخْلُوقِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ تُصَرَفَ عَلَيْهِ ، وَاحْتَمَلَ تَعْوِيرَهَا لِصَّمَادِيَّتِهِ . وَلَقَدْ مَرَّ بَعْضُ أَعْيَانِ الْمَرِيَّةِ وَأَخْيَارِهَا مَعَ جَمَاعَةٍ عَلَى هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي أُخْرِجَتْ مِنْهُ جَنَّةُ الْأَيَّامِ فَقَالَ أَحَدُهُمْ : وَاللَّهِ لَقَدْ عَوْرَتِ هَذِهِ الْقِطْعَةُ هَذَا الْمَنْظَرَ الْعَجِيبَ ، فَقَالَ لَهُ : اسْكُتْ ، فَوَاللَّهِ إِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةُ طَرَّازُ هَذَا الْمَنْظَرِ وَفَخْرُهُ ، وَكَانَ الْمُعْتَصِمُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا قَالَ : أَشْعَرْتُمْ أَنَّ هَذَا الْمَكَانَ الْمَعْجُوزَ فِي عَيْنِي أَحْسَنَ مِنْ سَائِرِ مَا اسْتَقَامَ مِنَ الصَّمَادِيَّةِ ؟ ثُمَّ إِنْ وَزِيرُهُ ابْنُ أَرْقَمٍ لَمْ يَزَلْ يَلَاطِفُ الشَّيْخَ وَالْأَيَّامَ حَتَّى بَاعَوْهَا عَنْ رِضَايَ بِمَا اشْتَهَوْا مِنَ الثَّمَنِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ ، فَاسْتَقَامَ بِهَا بِنَاءُ الصَّمَادِيَّةِ ، وَحَصَلَ لِلْمُعْتَصِمِ حَسَنُ السَّمْعَةِ فِي النَّاسِ ، وَالْجُزَاءُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى .

١٥٠ - وَلَمَّا مَاتَ الْمُعْتَصِمُ بْنُ صَمَادِحَ رَكِبَ الْبَحْرَ ابْنُهُ وَلِيُّ عَهْدِهِ الْوَائِقُ عَزَّ الدَّوْلَةَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدَ اللَّهِ^١ ، وَفَارَقَ الْمَلِكُ كَمَا أَوْصَاهُ الْمُعْتَصِمُ وَالِدَهُ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ^٢ :

١ انظر الحلقة ٢ : ٩٠ حيث سماه « أبو مروان عبید الله » .

٢ الشعر في المغرب ٢ : ٢٠١ .

لك الحمدُ بعدُ الملكِ أَصْبَحَتْ خاملاً بأرضٍ اغترابٍ لا أُميرُ ولا أُحلي
وقد أَصْدَأَتْ فيها الجذاذةُ أَنملي^١ كما نَسِيتُ ركضَ الجيادِ بها رجلي
فلا مِسْمَعِي يُصْغِي لِغَنَمَةِ شاعِرٍ وكَفَيْ لا تَمُدُّ يوماً إلى بذلِ

قال ابن اللبانة الشاعر : ما علمت حقيقة جَوَرِ الدهر حتى اجتمعت ببجاية
مع عز الدولة بن المعتصم بن صمادح فَإِنِّي رأيت منه خير من يجتمع به ، كأنه
لم يخلقه الله تعالى إلا للملك والرياسة وإحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته ثم
من تحت خموله كما يَمُ فِرْنَدُ السيف وكرمه من تحت الصدأ ، مع حفظه لفنون
الأدب والتواريخ وحسن استماعه وإسماعه ، ورقة طباعه ولطافة ذهنه ، ولقد
ذكرته لأحد من صحبته من الأدباء في ذلك المكان ووصفته بهذه الصفات ،
فتشوق إلى الاجتماع به ، ورغب إلي في أن أستأذنه في ذلك ، فلما أعلمت
عز الدولة قال : يا أبا بكر لتعلم أننا اليوم في خمول وضيق لا يتسع لنا معهما ،
ولا يحمل بنا الاجتماع مع أحد ، لا سيما مع ذي أدب ونباهة يلقانا بعين
الرحمة ، ويزورنا بمنّة التفضل في زيارتنا ، ونكابد من ألفاظ توجّعه وألحاظ
تفجّعه ما يجدد لنا همّاً قد بلي ، ويحيي كَمِداً قد فني ، وما لنا قدرة على أن
نجد عليه بما يرضى به عن همتنا ، فدعنا كأننا في قبر ، نتدّرع لسهام الدهر
بدِرْعِ الصبر ، وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاط اللحم بالدم ، وامترجت
امتزاج الماء بالخمّر ، فكأنّا لم نكشف حالنا لسوانا ، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا ،
فلا تحمل غيرك محملك ، قال ابن اللبانة : فملاً والله سمعي بلاغة لا تصدر إلا عن
سداد ونفس أبيّة متمكّنة من أعينة البيان ، وانصرفت متمثلاً :

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ولم يبقَ إلا صورة اللحم والدمِ
وكائنٌ تَرَى من صامت لك معجبٍ زيادتهُ أو نقصه في التكلمِ

١ المغرب : الهوادة ؛ دوزي : منهلي .

وكتب إليه ابنُ اللبانة^١ :

يا ذا الذي هزّ أمداحي بحليته^٢ وعزّه أن يهزّ المجدَ والكرما
واديك لا زرعَ فيه اليوم تبدُّله^٣ فخذْ عليه لأيامِ المنى سلماً
فتحيلَ في قليلِ برٍ ووجهه إليه وكتب معه :

المجدُ يخجلُ مَنْ يفديك من زمنٍ ثناكَ عن واجبِ البر الذي علما
فلونكَ التزرُّ من مُصَفِّ مودته^٤ حتَّى يوفيكَ أيامَ المنى السلما
ومن شعر عز الدولة المذكور^٥ :

أفدّي أبا عمرو وإن كان عاتياً فلا خيرَ في ودِّ يكون بلا عتبِ
وما كانَ ذاكَ الودَّ إلاّ كبارقٍ أضاء لعيني ثمَّ أظلم في قلبي
وقال الشقندي في الطرف : إن عزَّ الدولة أشعر من أبيه .

١٥١ - وأما أخوه رفيع الدولة^٦ الحاجب أبو زكريا يحيى بن المعتصم
فلهُ أيضاً نظم رائق ، ومنه ما كتب به إلى يحيى بن مطروح يستدعيه لأنس^٧ :

يا أخي بل سيدي بل سندي في مهماتِ الزمانِ الأُنكدِ
لُحْ بأفقٍ غاب عنه بدره^٨ في اختفاءٍ من عيونِ الحُسَدِ
وتعجَّلْ فحيبي حاضرٌ وفي يشتاقُ كأسِي في يدي

فأجابه ابنُ مطروح ، وهو من أهل باغه ، بقوله :

١ البيتان في الحلة ٢ : ٩١ ومعهما رد ابن صادح .

٢ ب م ق : بحليته .

٣ هذا الشعر منسوب في الحلة (٢ : ٩٦) والمغرب (٢ : ٢٠٠) لرفيع الدولة .

٤ انظر ترجمة رفيع الدولة في المطمح : ٣٠ والحلة ٢ : ٩٢ والمغرب ٢ : ١٩٩ .

٥ المغرب ٢ : ٢٠٠ .

أنا عبدٌ من أقلِّ الأعبدِ قِبَلِي وَجْهٌ بأفقِ الأسعدِ
كلّما أظمأني وردٌ فَمَا منْهلي إلا بذاك الموردِ
ها أنا بالبابِ أبغي لذنكم والظما قد مدَّ للكأسِ يدي

وكان قد سلّط عليه إنسان مختل إذا رآه يقول : هذا ألف لا شيء عليه ،
يعني أن ملكه ذهب عنه وبقي فارغاً منه ، فشكا رفيع الدولة ذلك إلى بعض
أصحابه ، فقال : أنا أكفيك مؤونته ، واجتمع مع الأحقق ، واشترى له حلواء ،
وقال له : إذا رأيت رفيع الدولة بن المعتصم فسلم عليه وقبّل يده ولا تقل هذا
ألف لا شيء عليه ، فقال : نعم ، واشترط الوفاء بذلك ، إلى أن لقيه فجرى
نحوه وقبّل يده وقال : هذا هو باء ، بنقطة من أسفل ، فقامت قِيامة رفيع الدولة ،
وكان ذلك أشد عليه ، وكان به علّة الحصى فظن أن الأحقق علم ذلك وقصده ،
وصار كلّما أحسّ به في موضع تجنّبه .

واستأذن يوماً على أحد وجوه دولة المرابطين فقال أحد جلسائه ﴿ تلك
أمةٌ قد خَلَتْ ﴾ (البقرة : ١٣٤ ، ١٤١) استحقاراً له واستنقلاً للإذن له ، فبلغ
ذلك رفيع الدولة فكتب إليه :

خَلَّتْ أمتي لكنّ ذاتي لم تَخُلْ وفي الفرع ما يغني إذا ذهب الأصلُ
وما ضرّكم لو قلتم قولَ ماجدٍ يكونُ له فيما يجيء به الفضلُ
وكلُّ إناءٍ بالذي فيه راسعٌ وهل يمنحُ الزنبورُ ما مَجَّه النحلُ
سأصرفُ وجهي عن جنابِ تحلُّه ولو لم تكنْ إلاّ إلى وجهك السُّبُلُ
فَمَا موضعٌ تحتلُّه بمرقّعٍ ولا يترتضى فيه مقالٌ ولا فعلُ
وقد كنتُ ذا عدلٍ لعلّك ترعوي ولكنْ بأربابِ العلّا يحملُ العذلُ

١٥٢ - وأمّا أخوهما أبو جعفر ابن المعتصم^١ فله ترجمة في المسهب

والمطرب والمغرب ، ومن شعره :

كتبتُ وقلبي ذو اشتياقٍ ووحشةٍ ولو أنه يسطيع مرَّ يُسلِّمُ
جعلتُ سوادَ العين فيه سَوَادَهُ وأبيضه طِرْساً وأقبلتُ أَلَمُ
فخيلَ لي أنني أقبِلُ موضعاً يصافحه ذاك البنان المسلم

وأما أختهم أم الكرم فذكرناها مع النساء فلترجع .

١٥٣ - وقال أبو العلاء ابن زُهْرًا :

تمت محاسنُ وجهه وتكاملت لما بدا وعليه صُدْعٌ مُونِقُ
وكذلك البدرُ المنيرُ جماله في أن تكتنفهُ سماءُ أزرقُ

١٥٤ - وقال أبو الفضل ابن شرف :

يا من حكى البيدقَ في شكله أصبح يحكيك وتحكيه
أسفله أوسعُ أجزاءه ورأسه أصغرُ ما فيه

١٥٥ - وقال ابن خفاجة^٢ :

يا أيها الصبُّ المعنَى به ها هو لا خلٌّ ولا خمرُ
سوّدَ ما وُرِدَ من خدّه فصار فحماً ذلك الجمرُ

١٥٦ - وقال أبو عبد الله البياسي :

صَغُرُ الرأسِ وطولُ العُنُقِ شاهدا عدلٍ بفرطِ الحُمُقِ

ولما سمعه أبو الحسن ابن حريق قال :

١ مر البيتان ص : ٢٤٧ .

٢ ديوان ابن خفاجة : ١٩٠ .

صِغَرُ الرَّأْسِ وَطُولُ الْعُنُقِ خَلْقَةٌ مُنْكَرَةٌ فِي الْخَلْقِ
فَإِذَا أَبْصَرْتَهَا مِنْ رَجُلٍ فَاقْضِ فِي الْحَيْنِ لَهُ بِالْحُمُقِ

١٥٧ - وقال أبو الحسن ابن الفضل^١ يذكر مقاماً قامه سهل بن مالك
وابن عيَّاش^٢ :

لعمري لقد سَرَّ الخِلافةَ قائماً بخطبته الغراء سهلُ بن مالكِ
وأما ابن عيَّاشٍ ومن كان مثله فصلَّوا جميعاً بينَ تلك المسالكِ
ومات وماتوا حَسْرَةً وحسادةً وغيظاً فقلنا هالكٌ في الهوالِكِ

وسهل بن مالك له ترجمة مطوَّلة ، رحمه الله تعالى .

١٥٨ - ومن حكاياتهم في الوفاء^٣ وحسن الاعتذار والقيام بحق الإخاء
أن الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم كان صديقاً للوزير هاشم بن عبد العزيز ،
ثابتاً على مودته ، ولما قضى الله تعالى على هاشم بالأسر أجرى السلطان محمد بن
عبد الرحمن الأموي ذكره في جماعة من خُدَّامه ، والوليدُ حاضر ، فاستقصره ،
ونسبه للطيش والعجلة والاستبداد برأيه ، فلم يكن فيهم من اعتذر عنه غير
الوليد ، فقال : أصلح الله تعالى الأمير ، إنَّه لم يكن على هاشم التخير في الأمور ،
ولا الخروج عن المقلود ، بل قد استعمل جهده ، واستفرغ نصحه ، وقضى
حق الإقدام ، ولم يكن ملاك النصر بيده ، فخذله من وثق به ، ونكل عنه
من كان معه ، فلم يزحزح قدمه عن موطن حِفَاطِهِ ، حتى مُلِكَ مقبلاً غير
مدبر ، مُبْتَلِياً غير فَشِيل ، فجوزي خيراً عن نفسه وسلطانه ، فإنَّه لا طريق
للملَّام عليه ، وليس عليه ما جَنَّتْهُ الحرب الغَشُوم ، وأيضاً فإنَّه ما قصد

١ ترجمته في القلح : ١٠٨ .

٢ ب : وابن يعيش .

٣ انظرها في المقتبس (تحقيق مكِّي) : ٢٣٢ (الورقة ٢٨٢ - أ) .

أن يحود بنفسه إلا رضى للأمير ، واجتناباً لسخطه ، فإذا كان ما اعتمد فيه الرضى جالب التقصير فذلك معدود في سوء الحظ ، فأعجب الأمير كلامه ، وشكر له وفاءه ، وأقصر فيما بعد عن تفنيد هاشم ، وسعى في تخليصه ، واتصل الخبر بهاشم ، فكتب إليه : الصديق من صدقك في الشدة لا في الرخاء ، والأخ من ذب عنك في الغيب لا في المشهد ، والوفى من وفى لك إذا خانك زمان ، وقد أتاني من كلامك بين يدي سيدنا — جعل الله تعالى نعمته سرمداً — ما زادني بمودتك اغتباطاً ، وبصدافتك ارتباطاً ، ولذلك ما كنت أشدُّ يدي على وصلك ، وأخصك بإخائي ، وأنا الآن بموضع لا أقدر فيه على جزاء غير الثناء ، وأنت أقدر مني على أن تزيد ما بدأت به بأن تم ما شرعت فيه ، حتى تتكمل لك المنّة ، ويستوثق عقد الصداقة ، إن شاء الله تعالى ، وكتب إليه بشعر منه :

أيا ذاكري بالغيب في محفل به تصامت جمع عن جواب به نصري
أتني والبيداء بيّني وبيّنها رقي كلمات خلّصني من الأسر
لئن قرب الله اللقاء فلّنتي سأجزيك ما لا ينقضي غابر الدهر

فأجابه الوليد : خلصك الله أيّها البدر من سِرّارك ، وعجل بطلوعك في أكمل تمامك وإبدارك ، وصلّتي شكرك على أن قلت ما علمت ، ولم أخرج عن النصيح للسلطان بما زكّته من ذلك ، والله تعالى شاهد ، على أن ذلك في مجالس غير المجلس المنقول لسيدي إن خفيت عن المخلوق فما تخفى عن الخالق ، ما أردت بها إلا أداء بعض ما اعتقده لك ، وكم سهرت وأنا نائم ، وقمت في حقّي وأنا قاعد ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ثم ذكر أبياتاً لم تحضرني الآن .

١٥٩ — ومن حكاياتهم في علوّ الهمة في العلم والدنيا أنه دخل أبو بكر ابن الصائغ المعروف بابن باجة جامع غرناطة ، وبه نحويّ حوله شباب يقرؤون ، فنظروا إليه ، وقالوا له مستهزئين به : ما يحمل الفقيه؟ وما يُحسن من العلوم؟ وما يقول؟ فقال لهم : أحمل اثني عشر ألف دينار ، وها هي تحت إبطي ،

وأخرج لهم اثنتي عشرة ياقوتة ، كل واحدة منها بألف دينار ، وأمّا الذي أحسنه فائنا عشر علماً أدونها علم العربية الذي تبحثون فيه ، وأمّا الذي أقول فأنتم كذا ، وجعل يسبهم ، هكذا نقلت هذه الحكاية من خط الشيخ أبي حيّان النحوي ، رحمه الله تعالى .

١٦٠ - ومن حكاياتهم في الذكاء واستخراج العلوم واستنباطها أن أبا القاسم عباس بن فرناس^١ ، حكيم الأندلس ، أوّل من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأوّل من فكّ بها كتاب العَرُوض للخليل ، وأوّل من فكّ الموسيقى ، وصنع الآلة المعروفة بالمنقانة^٢ ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال ، واحتال في تطيير جثمانه ، وكسا نفسه الريش ، ومدّ له جناحين ، وطار في الجوّ مسافة بعيدة ، ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه ، فتأدّى في مؤخره ، ولم يدرك الطائر انما يقع على زمكّه ولم يعمل له ذنباً ، وفيه قال مؤمن بن سعيد الشاعر من أبيات :

يطمُّ على العنقاء في طيرانها إذا ما كسا جثمانه ريشَ قشعم

وصنع في بيته هيئة السماء ، وخيّل للنّاظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود ، وفيه يقول مؤمن بن سعيد أيضاً :

سماء عباسٍ الأديبِ أبي الـ قاسم ناهيكَ حسنُ رائقِها
أمّا ضُراطُ استِه فراعدها فليّت شعري ما لمعُ بارقيها
لقد تمنيتُ حين دومتها فكريّ بالبصق في است خالقها

١ المغرب ١ : ٣٣٣ والمقتبس (تحقيق مكّي) الورقة ٢٥٦ ب .
٢ في الأصول ودوزي : بالمنقالة ؛ وهذه صورة من صور الكلمة وأقرها إلى اللفظ المغربي ما أثبتناه ، إذ تسمى في المغرب « المنجانة » وهي البنكام أو البنكان الفارسية أي الساعة أو آلة حساب الوقت ، وقد تصحفت في المغرب إلى « الميقانة » .

وأشد ابن فرناس الأميرَ محمدًا من أبيات :

رأيتُ أميرَ المؤمنينَ محمدًا وفي وجهه بذرُ المحبة يُشمرُ

فقال له مؤمن بن سعيد : قبحاً لما ارتكبته ، جعلت وجه الخليفة مَحْرُثاً يشمر فيه البذر ، فخجل وسبه .

[المشهورون بعلوم الأوائل]^١

١٦١ - وأول من اشتهر في الأندلس بعلم الأوائل والحساب والنجوم أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة ، لأنه كان يشرق في صلاته ، وكان عالماً بحركات الكواكب وأحكامها ، وكان صاحب فقه وحديث ، دخل المشرق ، وسمع بمكة من علي بن عبد العزيز ، وبمصر من المزني وغيره . ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة ، من أهل قرطبة ، وكان بصيراً بالحساب والنجوم والنحو^٢ واللغة والعروض ومعاني الشعر والفقه والحديث والأخبار والجَدَل ، ودخل إلى المشرق ، وقيل : إنه كان معتزلياً المذهب . وأبو القاسم أصبغ بن السمح ، وكان بارعاً في علم النجوم^٣ والهندسة والطب ، وله تأليف منها كتاب « المدخل إلى الهندسة في تفسير إقليدس » ، وكتاب كبير في الهندسة ، وكتابان^٤ في الأسطرلاب ، وزيج على مذاهب الهند المعروف بالسند هند . وأبو القاسم ابن الصفار ، وكان عالماً بالهندسة والعدد والنجوم ، وله زيج مختصر على مذاهب السند هند ، وله كتاب في عمل الأسطرلاب . ومنهم أبو الحسن الزهراوي ، وكان عالماً بالعدد والطب والهندسة ، وله

١ يعتمد المقرئ في هذا الفصل على طبقات صاعد ٦٤ - ٧٢ ويستمد أيضاً من المطرب : ٢٢٣ - ٢٢٤ ، والمقارنة انظر ابن أبي أصيبعة ٢ : ٣٦ - ٤٩ .

٢ والنحو : سقطت من م .

٣ ق ب : علم النحو .

٤ ب : وكتاب .

كتاب شريف في المعاملات على طريق البرهان .
ومنهم أبو الحكم عمر الكرمانى ، من أهل قرطبة ، من الراسخين في علم
العدد والهندسة ، ودخل المشرق ، واشتغل بحرّان ، وهو أوّل من دخل برسائل
إخوان الصفا إلى الأندلس .

ومنهم أبو مسلم ابن خلدون من أشراف إشبيلية ، وكان متصرفاً في علوم
الفلسفة والهندسة والنجوم والطب ؛ وتلميذه ابن برغوث ، وكان عالماً بالعلوم
الرياضية ، وتلميذه أبو الحسن مختار الرعيني ، وكان بصيراً بالهندسة والنجوم ،
وعبد الله بن أحمد السرقسطي ، كان نافذاً في علم الهندسة والعدد والنجوم ،
ومحمد بن الليث ، كان بارعاً في العدد والهندسة وحركات الكواكب ، وابن
حي ، قرطبي بصير بالهندسة والنجوم ، وخرج عن الأندلس سنة اثنتين وأربعين
وأربعمائة ، ولحق بمصر ، ودخل اليمن ، واتصل بأمرها الصليحي القائم
بدعوة المستنصر العبيدي ، فحظي عنده ، وبعثه رسولاً إلى بغداد إلى القائم بأمر
الله ، وتوفي باليمن بعد انصرافه من بغداد ، وابن الوقشي الطليطي ، عارف
بالهندسة والمنطق والزيج ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم .

وكان الحافظ أبو الوليد هشام الوقشي من أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء
والنحو واللغة ومعاني الأشعار والعروض وصناعة الكتابة والفقه والشروط
والفرائض وغيرها ، وهو كما قال الشاعر :

وكان من العلوم بحيث يُقْنَضَى له في كلّ فنٍّ بالجميع

ومن شعره قوله :

قد بيّنتُ فيه الطبيعة أنّها بدقيق أعمال المهندس ماهرة
عنيت بمبسمه فخطت فوقه بالمسك خطاً من محيط الدائرة

١ ب : من المستنصر ؛ ق ودوزي : من المستنصر .

وعزم على ركوب البحر إلى الحجاز فهاله ذلك ، فقال :

لا أركبُ البحرَ ولو أنْتِ ضربتُ فيه بالعَصَا فأنْفَلَقَ
ما إن رأتُ عينيَ أمواجهُ في فِرْقٍ إلا تناهى الفِرْقُ

وكان الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن مهند^١ مصنف الأدوية المفردة آية الله تعالى في الطب وغيره ، حتى إنّه عانى جميع ما في كتابه من الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها ، وكان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن بالأغذية أو ما يقرب منها ، وإذا اضطر إلى الأدوية فلا يرى التداوي بالمركبة ما وجد سبيلاً إلى المفردة ، وإذا اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه ، وله غرائب مشهورة في الإبراء من الأمراض الصعبة والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه .

ومنهم ابن البيطار^٢ ، وهو عبد الله بن أحمد المالقي الملقب بضياء الدين ، وله عدة مصنفات في الحشائش لم يسبق إليها ، وتوفي بدمشق سنة ست وأربعين وستمائة ، أكل عقاراً قاتلاً فمات من ساعته ، رحمه الله تعالى .

١٦٢ - ومن حكاياتهم في الحفظ أن الأديب الأوحد حافظ إشبيلية ، بل الأندلس في عصره ، أبا المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب كان أعجوبة دهره في الرواية للأشعار والأخبار ، قال ابن سعيد^٣ : أخبرني مَنْ أثق به أنّه حضر معه ليلة عند أحد رؤساء إشبيلية فجرى ذكر حفظه ، وكان ذلك في أول الليل ، فقال لهم : إن شئتم تختبروني أجبتكم ، فقالوا له : بسم الله ، إنّا نريد أن نحدّث عن تحقيق ، فقال : اختاروا أيّ قافية شئتم لا أخرج عنها ، حتى

١ في أصول النفع ودوزي : شهيد ؛ والتصويب عن ابن أبي أصيبعة (٢ : ٤٩) .

٢ ابن أبي أصيبعة ٢ : ١٣٣ والنفع ٢ : ٦٩١ .

٣ اختصار القدر : ١٥٨ والمغرب ١ : ٢٥٨ والتكملة رقم : ٢٠٢٥ .

تعجبوا^١ ، فاختاروا القاف ، فابتدأ من أوّل الليل إلى أن طلع الفجر ، وهو ينشد وزن :

أرق على أرقٍ ومِثليَ يَارقُ

وسُمّاره قد نام بعض وضج بعض ، وهو ما فارق قافية القاف .

وقال أبو عمران ابن سعيد : دخلت عليه يوماً بدار الأشراف بإشبيلية ، وحوله أدباء ينظرون في كتب منها ديوان ذي الرّمّة ، فمد الهيثم يده^٢ إلى الديوان المذكور ، فمنعه منه أحد الأدباء ، فقال : يا أبا عمران ، أوجب أن يمنعه مني وما يحفظ منه بيتاً ، وأنا أحفظه ؟ فأكذبت الجماعة ، فقال : اسمعوني وأمسكوه ، فابتدأ من أوّله حتى قارب نصفه ، فأقسمنا عليه أن يكف ، وشهدنا له بالحفظ .

وكان آية في سرعة البديهة ، مشهوراً بذلك ، قال أبو الحسن ابن سعيد : عهدي به في إشبيلية يملئ على أحد الطلبة شعراً ، وعلى ثانٍ موشحة ، وعلى ثالث زجلاً ، كل ذلك ارتجالاً .

ولما أخذ الحصار بمُخَنَّقَ إشبيلية في مدة الباجي خرج خروج القارِظَيْنِ^٣ ، ولا يدري حيثُ ولا أين .

ومن شعره وقد نزل بداره عبيدُ السلطان ، وكتب به إلى صاحب الأنزال :

كم من يدٍ لك لا أقومُ بِشُكْرِها وبها أُشيرُ إليك إن خرسَ فمي
وقد استشرتكَ في الحديثِ فهل ترى أن يدخلَ الغِربانُ وَكَرَّ الهيثمِ

١ ق ب : تعجبوا .

٢ ب : فمد يده الهيثم .

٣ يعني خرج ولم يعد ، فعل القارظين المضروب بهما المثل في عدم الأوبة .

وله ١ :

يُجْنَى الْفَقِيرُ وَيَغْشَى النَّاسُ قَاطِبَةً بَابَ الْغِنَى ، كَذَا حُكْمُ الْمَقَادِيرِ
وَلَمَّا النَّاسُ أَمْثَالُ الْفَرَاشِ فَهُمْ بَحِثْ تَبْدُو مَصَابِيحَ الدَّنَائِيرِ

وله :

عِنْدِي لِفَقْدِكَ أَوْجَالٌ أُبَيْتُ بِهَا كَأَنِّي وَاضِعٌ كَفَّتِي عَلَى قَبَسِ
وَلَا مَلَامَةَ إِنْ لَمْ أَهْدِ نِيرَهُ حَتَّى تَمُدَّ إِلَيْهَا كَفَّ مُقْتَبِسِ
قَدْ كُنْتُ أَوْدَعُ سِرِّ الشُّوقِ فِي طُرُسٍ لَكُنْتِي خَفْتُ أَنْ يَعْدُو عَلَى الطُّرُسِ

وَأَنشَدَ لَهُ أَبُو سَهْلٍ شَيْخُ دَارِ الْحَدِيثِ بِالْقَاهِرَةِ فِي إِمْلَائِهِ :

قَفْ بِالْكَثِيبِ لَغَيْرِكَ التَّائِبُ إِنَّ الْكَثِيبَ هَوَى لَنَا مَحْبُوبُ
يَا رَاحِلِينَ لَنَا عَلَيْكُمْ وَقْفَةٌ وَلَكُمْ عَلَيْنَا دَمْعُنَا الْمَسْكُوبُ
تُخْلِي الدِّيَارُ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْهَوَى أَبَدًا وَتَعْمُرُ أَضْلَعُ وَقُلُوبُ

وَقَالَ ارْتَجَالًا فِي صِفَةِ فَرَسٍ أَصْفَرٍ :

أَطِيفٌ فَاتَ طَرْفِي أَمَّ شِهَابُ هَمًّا كَالْبَرْقِ ضَرَمَهُ التَّهَابُ
أَعَارَ الصَّبِيحُ صَفْحَتَهُ نَقَابًا فَرَّ بِهِ وَصَحَّ لَهُ النُّقَابُ
فَمَهْمَا حُثَّ خَالَ الصَّبِيحِ وَافَى لِيَطْلُبَ مَا اسْتَعَارَ فَمَا يُصَابُ
إِذَا مَا انْقَضَ كَلَّ النِّجْمُ عَنْهُ وَضَلَّتْ عَنْ مَسَالِكِهِ السَّحَابُ
فَيَا عَجَبًا لَهُ فَضْلُ الدَّرَارِي فَكَيْفَ أَذَالَ أَرْبَعَهُ التَّرَابُ
سَلَّ الْأَرْوَاحَ عَنْ أَقْصَى مَدَاهِ فَعِنْدَ الرِّيحِ قَدْ يُلْفَى الْجَوَابُ

١٦٣ - وَقَالَ أَبُو عَمْرِو الطَّلْمَنَكِيُّ : دَخَلْتُ مُرُوسِيَّةً ، فَتَشَبَّثَ بِي أَهْلُهَا

١ القدح : ١٥٩ والمغرب ؛ ٢٥٨ وقد تأخر موضعهما في ب بعد وصف الفرس .

يسمعوا عليّ الغريب المصنّف ، فقلت : انظروا مَنْ يقرأ لكم ، وأمسكت
أنا كتابي ، فأتوني برجل أعمى يُعرف بابن سيده ، فقرأه عليّ من أوّله إلى
آخره ، فعجبت من حفظه ، وكان أعمى ابن أعمى ، وابن سيده المذكور هو أبو
الحسن علي بن أحمد بن سيده ، وهو صاحب كتاب « المحكم » . ومن نظمه
ممّا كتب به إلى ابن الموفق :

ألا هلّ إلى تقبيل راحتك اليُمْنى سبيلٌ فإنّ الأمنَ في ذاك واليُمْنى
ومنها :

ضحيتُ فهل في برّدٍ ظلك نومةٌ لذي كبدٍ حرّى وذِي مُقلّةٍ وسّنى
وتوفي ابن سيده المذكور سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، وعمره نحو الستين ،
رحمه الله تعالى .

١٦٤ - ومن حكاياتهم في حب العلم أن المظفر بن الأفتس صاحب
بطليّوس كان كما قال ابن الأبار كثير الأدب ، جمّ المعرفة ، محباً لأهل
العلم ، جماعةً للكتب ، ذا خزانة عظيمة ، لم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه
في أدب ومعرفة ، قاله ابن حيّان .

وقال ابن بسام^٢ : كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع ،
وله التصنيف الرائق ، والتأليف الفائق ، المترجم بالتذكرة والمشتهر أيضاً اسمه
بالكتاب المظفري ، في خمسين مجلداً ، يشتمل على فنون وعلوم من مغازٍ
وسير ومثّل وخبر وجميع ما يختص به علم الأدب ، أبقاه للناس^٣ خالداً ،
وتوفي المظفر سنة ستين وأربعمائة . وكان يحضر العلماء للمذاكرة ، فيفيد

١ ب : قرأه .

٢ الذخيرة ٢ : ٢٥٥ .

٣ الذخيرة : في الناس .

ويستفيد ، رحمه الله تعالى .

١٦٥ - ومن التأليف الكبار لأهل الأندلس كتاب « السماء والعالم »^١ الذي ألفه أحمد بن أبان صاحب شرطة قرطبة ، وهو مائة مجلد ، رأيت بعضه بفاس ، وتوفي ابن أبان سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ، رحمه الله تعالى .

[روح الفكاهة عند الأندلسيين]

ولأهل الأندلس دُعابة وحلاوة في محاوراتهم ، وأجوبة بديهة مسكتة ، والظرفُ فيهم والأدب كالغريزة ، حتى في صبيانهم ويهودهم ، فضلاً عن علمائهم وأكابرهم . ولنذكر جملة من ذكر الجلالة فنقول :

١٦٦ - حكى عن عالم المريّة القاضي أبي الحسن مختار الرعيني ، وكان فيه حلاوة ولَوْدَعية ووقار وسكون ، أنه استدعاه يوماً زهير ملك المريّة من مجلس حكمه ، فجاءه يمشي مشية قاض قليلاً قليلاً ، فاستعجله رسول زهير ، فلم يعجل ، فلما دخل عليه قال له : يا فقيه ، ما هذا البطء ؟ فتأخّر إلى باب المجلس ، وطلب عصا ، وشمّر ثيابه ، فقال له زهير : ما هذا ؟ قال : هذا يليق باستعجال الحاجب لي ، فوقع في خاطري أنه عزّلني عن القضاء وولاني الشرطة ، فضحك زهير واستحلاه ولم يعد إلى استعجاله .

وهذا القاضي هو القائل - وقد دخل حمّاماً فجلس بإزائه عاميٌ أساء الأدب عليه - :

ألا لُعِنَ الحمّامُ داراً فإنّه سواء به ذو العلم والجهل في القدر
تضعُ به الآدابُ حتّى كأنّها مصابيحُ لم تنفق على طلعةِ الفجرِ

١٦٧ - وروي أن المقرئ أبا عبد الله محمد بن الفراء إمام النحو واللغة في زمانه - وكانت فيه فطنة ولودعية - أبطأ خروجه يوماً إلى تلامذته ، فطال بهم الكلام في المذاكرة فقال أحدهم نصف بيت ، وكان فيهم وسيم من أبناء الأعيان ، وكان ابن الفراء كثير الميل إليه ، فلماً خرج قال له : يا أستاذ ، عملتُ نصف بيت ، وأريد أن تتمه ، فقال : ما هو ؟ فقال :

ألا بأبي شادنٍ أوطَفُ

فقال الأستاذ ابنُ الفراء بديهاً :

إذا كان وَرْدُكَ لَا يُقْطَفُ وَتَغْرُ ثَنَائِكَ لَا يُرْشَفُ
فأَيُّ اضْطِرَارٍ بِنَا أَنْ نَقُولَ : أَلَا بِأَبِي شَادِنٍ أَوْطَفُ ؟

وهذا ابن الفراء هو القائل^١ :

قيل لي : قد تبدَّلَا فاسألُ عنه كما سَلَا
لك سمعٌ وناظرٌ وفؤادٌ فقلت : لا
قيل : غالٍ وصالهُ قلت : لَمَّا غَلَا حَلَا
أبيها العاذل الذي بعذابي توَكَّلَا
عُدْ صحيحاً مسلماً لا تعيِّرْ فتُبْتَلَى

وتذكرت بهذا ما أنشده لسانُ الدين في كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف » :

قلتُ للساحر الذي رَفَعَ الأنفَ واعتَلَى
أنتَ لم تأمن الهوى لا تعيِّرْ فتُبْتَلَى

١ زاد المسافر : ١٠٠ .

ومن بديع نظم ابن الفراء المذكور قوله ^١ :

شكوتُ إليه بفرطِ الدَّتَفِ	فأنكر من قصتي ما عَرَفُ
وقال : الشهودُ على المدَّعي	وأما أنا فعليَّ الحلفُ
فجئنا إلى الحاكم الألميَّ	قاضي المجون وشيخِ الطُّرْفِ
وكان بصيراً بشرَّعِ الهوى	ويعلم من أين أكلُ الكُتِفِ
فقلتُ له : إقصِ ما بيننا	فقال : الشهودُ على ما تصفُ
فقلتُ له : شهدتُ أدمُعي	فقال : إذا شهدتُ تنتصفُ
ففاضت دموعي من حينها	كفيضِ السحابِ إذا ما يكِفُ
فحركَ رأساً إلينا وقال :	دعوا يا مهاتيكُ هذا الصلفُ
كذا تقتلون مشاهيرنا	إذا مات هذا فأين الحلفُ
وأوما إلى الوردِ أن يجتنى	وأوما إلى الريق أن يُرتشفُ
فلمّا رآه حبيبي معي	ولم يختلف بيئنا مختلفُ
أزالَ العنادَ فعانقتهُ	كأنيّ لامٌ وحبي ألفُ
فظلّتُ أعاتبه في الحفا	فقال : عفا الله عما سلفُ

١٦٨ - وحكي عن الزهري خطيب إشبيلية - وكان أعرج - أنه خرج

مع ولده إلى وادي إشبيلية ، فصادف جماعة في مركب ^٢ ، وكان ذلك بقرب الأضحى ، فقال بعضهم له : بكم هذا الخروف ؟ وأشار إلى ولده ، فقال له الزهري : ما هو للبيع ، فقال : بكم هذا التيس ؟ وأشار إلى الشيخ الزهري ، فرفع رجله العرجاء وقال : هو معيب لا يُجْزىء في الضحية ، فضحك كل

١ زاد المسافر : ٩٩ .

٢ ب : وكان ذلك في مركب .

مَنْ حضر ، وعجبوا من لطف خلُقه .
وركب مرّة هذا النهر مع الباجي يوم خميس ، فلما أصبحا وصعد الزهري
يخطب يوم الجمعة ، والباجي حاضر قدامه ، فنظر إليه الباجي وأوماً إلى محل
الحدّث ، وأخرج لسانه ، فجعل الزهري يلمس عصا الخطبة ، يشير بالعصا
إلى جوابه على ما قصد ، رحمه الله تعالى .

١٦٩ - ومَرَّ العالم أبو القاسم ابن وَرْدٍ صاحب التآليف في علم القرآن
والحديث بجنّة لأحد الأعيان فيها ورد ، فوقف بالباب وكتب إليه :

شاعر قد عراك يبغي أباهُ عندما اشتاق حسنه وشدّاهُ
وهو بالباب مصغيّاً لجوابٍ يرتضيه التّدَى فماذا تراهُ

فعندما وقف على البيتین علم أنّه ابن وَرْدٍ ، فبادر من جنته إليه ، وأقسم
في التزول عليه ، ونثر من الورد ما استطاع بين يديه .

١٧٠ - وحكي أن أبا الحسين سليمان بن الطراوة نحويّ المريّة حضر مع
ندماء ، وإلى جانبه مَنْ أخذ بمجامع قلبه ، فلما بلغت النوبة إليه استعفى من
الشرب ، وأبدى القطوب ، فأخذ ابنُ الطراوة الجلام من يده وشربها عنه ،
ويا برّدها على كبده ، ثم قال بديهاً :

يشربُها الشيخُ وأمثالُه وكلُّ من تُحمَدُ أفعالُه
والبكر إن لم يستطع صولةً تُلقَى على البازل أثقالُه

ودخل عليه وهو مع ندمائه غلام بكأس في يده فقال :

ألا بأبي وغير أبي غزالُ أتى وبراحيه للشربِ راحُ
فقال مُنادمي في الحسنِ صِفَه فقلتُ الشَّمْسُ جاء بها الصّباحُ

وقال فيمن جاء بالراح :

ولما رأيتُ الصبحَ لاحَ بخده دعوتهمُ رفقاَ تلحُ لكمُ الشمسُ
وأطلعها مثلَ الغزالةِ وهو كالـ غزالٍ فمَّ الطيبُ واكتملَ الأنسُ

وقال ، وقد شرب ليلة القمر :

شربنا بمصباح السماء مُدامةً بشاطي غديرٍ والأزاهرُ تنفَحُ
وظل جهُولٌ يرقبُ الصبحَ ضلَّةً ومن أكوسي لم يبرحِ الليلُ يُصبحُ

١٧١ - وكان أبو عبد الله ابن الحاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يشرب مع ندماء ظراف في جنة بهجة ، فجاءتهم ورقة من ثقليل يرغب في الإذن ، وكان له ابن مليح فكتب إليه مدغليس :

سيدي هذا مكانٌ لا يرى فيه بلحية
غير تيسٍ مصفعاذ ي له بالصفع كديه
أو له ابن شافع في ه فيلقى بالتحية
أيها القابل بادر سائقاً تلك المطية

وكان مدغليس هذا مشهوراً بالانطباع والصنعة في الأزجال ، خليفة ابن قزمان في زمانه ، وكان أهل الأندلس يقولون : ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ، ومدغليس بمنزلة أبي تمام ، بالنظر إلى الانطباع والصناعة ، فابن قزمان ملتفت إلى المعنى ، ومدغليس ملتفت للفظ ، وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قزمان ، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه .

ومن شعره قوله :

ما ضرَّكم لو كتبتمُ حرفاً ولو باليسار
إذ أنتم نور عيني ومطلبي واختياري

١٧٢ - وقال الخطيب الأديب النحوي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الفراء - المذكور قبل هذا بقريب - الضرير ، في صبي كان يقرأ عليه النحو اسمه حسن ، وهو في غاية الجمال - بعد أن سأله : كيف تقول إذا تعجبت من حُسْنِكَ ؟ فقال أقول : ما أحسنِي - :

يا حَسَنًا ما لكَ لم تُحَسِّنِ	إلى نفوسٍ بالهوى متعبَةٍ
رقت بالورد وبالسوسن	صفحة خدت بالسنا مذْهَبَةً
وقد أبى صدغك أن أجتني	منه وقد ألدغي عقربَه
يا حُسْنَهُ إذ قال ما أحسنِي	ويا لذاك اللفظ ما أعذِبَه
ف فوق السهم ولم يُخْطِنِي	وإذ رأني ميتًا أعجَبَه
وقال كم عاش وكم حبَّي	وحُبُّهُ إِيَّايَ قد عذَّبَه
يرحمه الله على أنْتِي	قَتَلِي له لم أدرِ ما أوجبَه

وهذا ابن الفراء من فضلاء المائة السادسة ، ذكره ابنُ غالب في « فرحة الأنفس في فضلاء العصر من الأندلس » وكان شاعراً مجيداً ، يُعَلِّمُ بالمِثْرِيَةِ القرآن والنحو واللغة ، وكانت فيه فطنة ولَوْذَعِيَّة ، وذكاء وألمعية ، خرق بها العوائد . وحكي أن قاضي المِثْرِيَةِ قبل شهادته في سَطْل ميزه في حمام باللمس ، واختبره في ذلك بحكاية طويلة . وذكره صفوان في « زاد المسافر » ووصفه بالخطيب .

[رسالة أبي عبد الله ابن الفراء إلى ابن تاشفين]

وجَدُّه القاضي أبو عبد الله ابن الفراء مشهور بالصلاح والفضل والزهد ، ومن العجائب أنه ليس له ترجمة في « المغرب » ، ولما كتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى أهل المِثْرِيَةِ يطلب منهم المعونة جأبه بكتابه المشهور الذي يقول فيه : فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخري عن ذلك ، وأن

الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوّة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعة في قبره ، ولا يُشك في عدله ، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بضجيعة في قبره ، ولا من لا يُشك في عدله ، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته في العدل فالله تعالى سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر رضي الله تعالى عنه حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أن ليس عنده درهم واحد في بيت مال المسلمين ينفقه عليهم ، فتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة من أهل العلم وتحلف أن ليس عندك درهم واحد ولا في بيت مال المسلمين ، وحينئذ تستوجب ذلك ، والسلام ، انتهى .

١٧٣ - وأما ابن الفراء الأخفش بن ميمون^١ الذي ذكره الحجاري في « المسهب » فليس هو من هؤلاء ، بل هو من حصن القبذاق من أعمال قلعة بني سعيد ، وتأدب في قرطبة ، ثم عاد إلى حضرة غرناطة ، واعتكف بها على مدح وزيرها اليهودي ، وهو القائل :

صاحبُ مُحيّاه تلقّ النّجح في الأملِ وانظر بناديه حُسن الشمس في الحملِ
ما إن يلاقي خليلٍ فيه من خللٍ وكلّما حالَ صرفُ الدهرِ لم يحلِ

وكان بهاجي المنفلت شاعر إلبيرة ، ومن هجاء المنفلت^٢ له قوله :

لابن ميمون قريضٌ زمهريرُ البردِ فيه
فإذا ما قالَ شعراً نفقت سوقُ أبيه

ولما وفد على المربة مدح رفيع الدولة بن المعتصم بن صمّاح بشعر ، فقال له

١ المغرب ٢ : ١٨٢ .

٢ ق ب : ومن هجائه المنفلت له ؛ والبيتان في الذخيرة ٢ / ١ : ٢٦٤ .

بعض مَنْ أراد ضرّه : يا سيدي لا تقرب هذا اللعين ، فإنه قال في اليهودي :

ولكنّ عندي للوفاء^١ شريعة تركتُ بها الإسلامَ يبكي على الكفرِ

فقال رفيع الدولة : هذا والله هو الحر الذي ينبغي أن يُصْطَنع ، فلولا وفاؤه ما بكى كافراً بعد موته ، وقد وجدنا في أصحابنا من لا يرعى مسلماً في حياته . وقال فيه المنفث^٢ :

إن كنتَ أخْفَشَ عَيْنٍ فَإِنَّ قَلْبَكَ أَعْمَى
فكَيْفَ تَنْتَرُ نَثْرًا وَكَيْفَ تَنْظُمُ نَظْمًا

ومن شعر الأخفش المذكور قوله :

إذا زرتكم غباً فلمْ أُلْتَقَ بالبرِّ وإن غبت لم أطلبْ ولم أجِرْ في الذكرِ
فإنّي إذن أولى الورى بفراقكم ولا سيّما بعدَ التجلّدِ والصبرِ

١٧٤ - ولما وفد على المنصور بن أبي عامر الشاعرُ المشهور أبو عبد الله محمد بن مسعود الغساني البجائي^٣ اتّهم برهق في دينه ، فسجنه في المطبق مع الطليق القرشي ، والطليق غلام وسيم ، وكان ابن مسعود كليفاً به يومئذ وفيه يقول :

غدوتُ في السجنِ خِدْنًا لابن يعقوبِ وكنتُ أحسبُ هذا في التكاذيبِ
رامت عُدائيَ تعذيبي وما شعرتُ أنّ الذي فعلوه ضدّ تعذبي
راموا بعادي عن الدنيا وزخرفها فكانَ ذلكَ إدنائي وتقريبي
لمْ يَعْلَمُوا أنّ سجنِي لا أبالهمْ قد كان غايةَ مأولي ومرغوبي

١ ب : في الوفاء .

٢ المغرب ٢ : ١٨٤ .

٣ في الأصول ودوزي : البجالي ؛ وترجمته في الجذوة : ٨٦ ؛ وانظر الذخيرة ٢ / ١ : ٧٩ .

٤ الذخيرة : الحب .

وانطلق ابن مسعود والطلق قبله ، ووقع بينه وبين الطليق ، وعاد المدح هجاء ، فقال فيه ^١ :

ولي جليسٌ قربه مني	بُعْدُ الأمانِي كذباً ^٢ عني
قد قَدَّيْتُ من لظه مقلي	وَقَرِحْتُ من لفظه أُذني
راهنني في السجن مَنْ قُرْبُهُ	أشدُّ في السجن من السجن
لو أنَّ خَلْقاً كانَ ضداً له	زاد على يوسف في الحسن
إذا ارتمى فكري في وجهه	سلَّط لإبطيه على ذهني
كأتما يجلسُ من ذا وذا	بينَ كنيفين من النتن

وقال يخاطب المنصور من السجن :

دعوتُ لما عيلَ صبري فهل	يسمعُ دعوايَ المليكُ الحليمُ
مولايَ مولايَ ألا عطفة	تَذْهَبُ عني بالعذابِ الأليمُ
إن كنتُ أضمرتُ الذي زخرقوا	عني فدعني للقديرِ الرحيمُ
فعنده نَزَاعَةٌ للشَّوَى	وعنده الفردوسُ ذات النعيمُ

١٧٥ - وركب بعض أهل المَرِيَّة في وادي إشبيلية ، فمرَّ على طاقة من طاقات شنتبوس ، وهو يُغني :

خلَّين من وادٍ ومن قوارب	ومن نزاها في شنتبوس
غَرَسَ الحبُّ الذي في داري	أحب عندي من العروس ^٣

فأخرجت رأسها جارية وقالت له : من أي البلاد أنت يا من غنَّي ؟ فقال :

١ الذخيرة : ٨٣ .

٢ الذخيرة : كلها .

٣ في ب ودوزي : الفردوس ، وهو خطأ ؛ والعروس من متزهات إشبيلية .

من المرية ، فقالت : وما أعجبك في بلدك حتى تفضّله على وادي إشبيلية ؟ وهو بوجه مالح وقفاً أحرش ، وهذا من أحسن تعيب ، وذلك أنّها أتنه بالنقيض من إشبيلية ، فإن وجهها النهر العذب ، وقفها بجبال الرحمة أشجار التين والعنب ، لا تقع العين إلا على خضرة في أيام الفرج ، وأين إشبيلية من المرية ، وفي المرية يقول السميسر شاعرها :

بئس دار المرية اليوم داراً ليس فيها لساكنٍ ما يُحبُّ
بلدةٌ لا تُمار إلا بريحٍ ربّما قد تهبُّ أو لا تهبُّ

يشير إلى أن مرافقها مجلوبة ، وأن الميرة تأتيها في البحر من بر العدوّة ، وفيها يقول أيضاً :

قالوا المرية فيها نظافةٌ قلتُ : إيه
كأنّها طستُ تبر ويُبصقُ الدمُ فيه

١٧٦ - وحكى مؤرخ الأندلس أبو الحجاج البياسي ، أنّه دخل عليه في مجلس أنس شيخ ضخم الجثة مستثقل ، فقال البياسي :

اسقني الكأس صاحيه ودع الشيخ ناحيه

فقال الكاتب أبو جعفر أحمد بن رضي :

إن تَكُنْ ساقياً له ليس ترويه ساقيه

١٧٧ - وحكى أن العالي إدريس الحمودي لما عاد إلى ملكه بمالقة وبخ قاضيها الفقيه أبا علي ابن حسن ، وقال له : كيف بايعت عدوي من بعدي وصحبته ؟ فقال : وكيف تركت أنت ملكك لعدوك ؟ فقال : ضرورة القدرة حملتني على ذلك ، فقال : وأنا أيضاً حصلت في يد من لا يسعني إلا طاعته .

ومن نظم القاضي المذكور :

رفعت من دهري إلى جائر ويتغي العدل بأحكامي
أضحّت به أملاكه مثل أش كال خيال طوع أيام
هذا لما أبرم ذا ناقض كأنهم في حكم أحلام

١٧٨ - وكان الفقيه العالم أبو محمد عبد الله الوحيدي^١ قاضي مالقة جرى
- كما قال الحِجاري - في صباه طلق الجموح ولم يزل يُعاقب بين غُبوق
وصُبوح ، إلى أن دعاه النذير ، فاهتدى منه بسراج منير ، وأحلت له تلك الرجعة ،
فيما شاء من الرفعة . وقال بعض مُعاصريه : كنت أُمّاشيه زمن الشباب ، فكلّما
مررنا على امرأة يدعو حسننها وشكلها إلى أن تحير الألباب ، أُمّال إليها طَرفه ،
ولم ينح عنها صرفه ، ثم سايرته بعدُ لما رجع عن ذلك واقتصر ، فرأيتَه يَغْضُ
البَصَر ، ويُخْلي الطريق معرضاً إلى ناحية ، متى زاحمته امرأة ولو حكت
الشمس ضاحية ، فقلت له في ذلك ، فقال :

ذاك وقتٌ قضيتُ فيه غرامي من شبّابي في سِرة الإِظلام
ثمّ لما بدا الصّباحُ لعيني من مشيبي ودّعته بسلام^٢

ومن شعره في صباه :

لا ترتجوا رجعتي باللّوم عن غرضي ولتركوني وصيّدي فرصة الخلس
طلبتُ رَدَّ قلبي عن صبابته ومن يردُّ عنان الجامح الشرس
ولما أقصر باطله ، وعزّيت أفراسُ الصبّا ورواحله ، قال^٣ :

١ ترجمة الوحيدي في المغرب ١ : ٤٣١ وبغية الملتبس (ص : ٣٢٦) والصلة : ٢٩٠ والمرقبة
العليا : ١٠٤ .

٢ م : بالسلام .

٣ البيتان في المغرب ١ : ٤٣١ .

ولما بدا شَيْبِي عطفْتُ على الهدى كما يهتدي حلف السَّرى بنجوم
وفارقتُ أشياع الصبابة والطلا ومِلْتُ إلى أهْلِي عُلَاً وعلوم

١٧٩ - ولما تألَّبَ بنو حَسَّون على القاضي الوحيد المذکور صادر عنه
العالم الأصولي أبو عبد الله ابن الفخار ، وطلع في حقِّه إلى حضرة الإمامة مراکش ،
وقام في مجلس أمير المسلمين ابن تاشفين ، وهو قد غصَّ بأربابه ، وقال : إنَّه
لقام كريم ، نبدأ فيه بحمد الله على الدنوّ منه ، ونصلي على خيرة أنبيائه محمد
الهادي إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابته نجوم الليل البهيم ، أمّا بعد
فإنّا نحمد الله الذي اصطفاك للمسلمين أميراً ، وجعلك للدين الحنيفي نصيراً
وظهيراً ، ونفزع إليك ممّا دَهَمنا في حِمَاك ، ونبثُ إليك ما لحقنا من الضيم
ونحن تحت ظل علاك ، ويأبى الله أن يُدْهم من احتَمى بأمر المسلمين ، ويصاب
بضيم من ادَّرَعَ بحصنه الحصين ، شكوى قمت بها بين يديك في حق أمرك الذي
عضده مؤيده ، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده ، وإن قاضيك ابن الوحيد
الذي قدمته في مالقة للأحكام ، ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصة والعوام ،
لم يزل يدلُّ على حسن اختيارك بحسن سيرته ، ويُرْضي الله تعالى ويرضي الناس
بظاهره وسريته ، ما علمنا عليه من سوء ، ولا دَرينا له موقفَ خِزْي ، ولم
يزل جارياً على ما يرضي الله تعالى ويرضيك ويرضينا إلى أن تعرضت بنو حَسَّون
إلى الطعن في أحكامه ، والهد من أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام المقدّم ، راجعٌ
على المقدّم ، بل جَمَحُوا في إلحاجهم فعموا وصمّوا ، وفعلوا وأمضوا ما به همّوا .

وإلى السُّحب يرفع الكف من قد جف عنه مسيل عين ونهر

فملاً سمعه بلاغة أعقبت نصره ونصر صاحبه .

ومن شعر ابن الفخار المذکور ، ويُعرف بابن نصف الربض ، قوله :
أَمْسَتَكَرُّ شَيْبُ المَفَارِقِ في الصَّبَا وهل يُنْكَرُ النُّورُ المَفْتَحُ في الغُصْنِ
أَظُنُّ طِلَابَ المَجْدِ شَيْبَ مَقَرِّقِي وإن كنت في إحدى وعشرين من سني

وقوله :

أَقِلَّ عَتَابَكَ إِنَّ الْكَرِيمَ يُجَازِي عَلَى حُبِّهِ بِالْقَلِيلِ
وَحَلَّ اجْتِنَابَكَ إِنَّ الزَّمَانَ يُمِرُّ بِتَكْدِيرِهِ مَا حَلَا
وَوَاصِلُ أَخَاكَ بَعَلَاتِهِ فَقَدْ يُلْبَسُ الثَّوبُ بَعْدَ الْبِلَى
وَقُلْ كَالَّذِي قَالَ شَاعِرٌ نَبِيلٌ وَحَقَّكَ أَنْ تَنْبَلَا
إِذَا مَا خَلِيلٌ أَسَا مَرَّةً وَقَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى مَجْمَلَا
ذَكَرْتُ الْمَقْدَمَ مِنْ فِعْلِهِ فَلَمْ يُفْسِدِ الْآخِرُ الْأَوَّلَا

١٨٠ - ولما وفد أبو الفضل ابن شرف من بَرْجَةِ في زي تظهر عليه
البدَاوة بالنسبة إلى أهل حضرة المملكة العظمى أنشده قصيدته الفائقة وهي ^١ :

مَطَّلَ اللَّيْلُ بِوَعْدِ الْفَلَقِ وَتَشَكَّى النِّجْمُ طَوْلَ الْأَرْقِ
ضَرَبَتْ رِيحُ الصَّبَا مَسْكَ الدَّجَى فَاسْتَفَادَ الرُّوضُ طِيبَ الْعَبَقِ
وَأَلَا حُ الْفَجْرُ خَدًّا خَجَلًا جَالٍ مِنْ رَشْحِ النَّدَى فِي عَرَقِ
جَاوَزَ اللَّيْلَ إِلَى أَنْجُمِهِ فَتَسَاقَطْنَ سَقُوطَ الْوَرَقِ
وَاسْتَفَاضَ الصَّبْحُ فِيهِ فَيْضَةً أَيْقَنَ النِّجْمُ لَهَا بِالْغَرَقِ
فَانْجَلَى ذَاكَ السَّنَا عَنْ حَلَاكِ وَانْمَحَى ذَاكَ الدَّجَى عَنْ شَفَقِ
بِأَبِي بَعْدَ الْكَرَى طَيْفٌ سَرَى طَارِقًا عَنْ سَكْنٍ لَمْ يَطْرُقِ
زَارَنِي وَاللَّيْلُ نَاعٍ سَدَفَهُ وَهُوَ مَطْلُوبٌ بِبَاقِي الرَّمَقِ
وَدُمُوعُ الطَّلِّ تَمْرِيهَا الصَّبَا وَجَفُونَ الرُّوضِ غَرْقَى الْحَدَقِ
فَتَأَنَّى فِي إِزَارٍ ثَابِتٍ وَتَنَّى فِي وَشَاحٍ قَلَقِ
وَتَجَلَّى وَجْهُهُ عَنْ شَعْرِهِ فَتَجَلَّى فَلَقَّ عَنْ غَسَقِ
نَهَبَ الصَّبْحُ دُجَى لَيْلَتِهِ فَجَبَا الْخَدَّ بِبَعْضِ الشَّفَقِ

١ انظرها في الذخيرة (٣ : ٢٧٧) وبعضها في المغرب ٢ : ٢٣٠ .

سلبت عَيْنَاهُ حَدَّيْ سِيفِهِ
وامتطى من طرفه ذا خَبَبٍ
أشْوَسَ الطرفِ علته نخوةٌ
لو تَمَطَّى بَيْنَ أَسْرَابِ الْمَهَا
حسرت دهمته عن غِرَّةٍ
لبستْ أَعْطَافُهُ ثوبَ الدجى
وانبرى تحسبه أَجْفَلٌ عن
مدرَكًا بالمهل ما لا ينتهي
ذُو رَضَى مُسْتَرٍ في غضبٍ
وعلى خَدِّ كَعْضَبٍ أبيضٍ
كلَّما نَصَّبَهَا مُسْتَمْعًا
حاذرتْ منه شَبَا خَطِيئَةٍ
كلَّما شامتْ عِذارِي خَدَّهُ
في ذَرَا ظَمَانٍ فيه هَيْفٌ
يتلقاني بكفٍّ ١ مصقعٍ
إن يَدُرْ دَوْرَةَ طَرْفٍ يَلْتَمَحُ
عصفت رِيحٌ على أَنْبُوبِهِ
كلَّما قَلَّبَهُ بَاعَدَ عن
جمع السَّرْدُ قُوَى أَرْزَارِهَا
أوجبت في الحربِ من وَخْزِ الْقَنَا
كلَّما دارتْ بها أَبْصَارُهَا
زَلَّ عَنْهُ مَنُ مَصْقُولِ الْقَوَى

وتحلَّى خَدَّهُ بِالرُّونِقِ
يلثم الغبراء إن لم يُعْنِقِ
يَتَهَادَى كَالْغَزَالِ الْخَرِقِ
نازعته في الحشا والعُنُقِ
كشفت ظلماؤها عن يَتَقِّ
وتحلَّى خَدَّهُ بِالْيَقْتِ
لَسْعَةٍ أَوْ جِنَّةٍ أَوْ أَوْلَتْ
لاحقًا بالرفق ما لم يلحقِ
ذو وقارٍ مُنْطَوٍ في خرقِ
أُذُنٌ مِثْلُ سَنَانٍ أَزْرَقِ
بدت الشَّهْبُ إِلَى مُسْتَرِقِ
لا يجيدُ الخطَّ ما لم يمشقِ
خفقتْ خَفَقَ فَوَادِ الْفَرَقِ
لم يدعهُ للقضيبِ المورقِ
يَقْتَنِي شَاوَ عِذارٍ مفلقِ
أَوْ يَجُلُّ جَوْلَ لِسَانٍ يَنْطِقِ
وجرتْ أَكْعُبُهُ فِي زَيْثِقِ
مَتْنٍ مَلَسَاءِ كَمِثْلِ الْبَرْقِ
فَتَأْخُذْنَ بَعْهَدِ مُوْتِقِ
فتوارتْ حلقًا في حلقِ
صَوَّرَتْ مِنْهَا مِثَالَ الْحَدَقِ
يرتمي في مائها بِالْحَرَقِ

لو نضا وهوَ عليه ثوبهُ لتعرى عن شواظِ محرقِ
أكهبُ من هبّواتِ أخضرُ من فيرندِ أحمرُ من علقِ
وارتوت صفحاهُ حتى خيلته بحيا منَ لكفيك سقي
يا بني معنٍ لقد ظلتُ بكم شجرُ لولاكمُ لم تورقِ
لو سقي حسانُ إحسانكمُ ما بكى ندمانهُ في جلقِ
أو دنا الطائي من حيكمُ ما حدا البرق لربعِ الأبرقِ
أبدعوا في الفضل حتى كلّفوا كاهلَ الأيام ما لم يطقِ

فلما سمعها المعتصم لعبت بارتياحه ، وحسده بعض من حضر ، وكان من جملة من حسده ابن أخت غانم ، فقال له : من أيّ البوادي أنت ؟ قال : أنا من الشرف في الدرجة العالية ، وإن كانت البادية عليّ بادية ، ولا أنكر حالي ، ولا أعرف بخالي ، فمات ابن أخت غانم خجلاً ، وشمت به كل من حضر .
وابن شرف المذكور^١ هو الحكيم الفيلسوف أبو الفضل جعفر ابن أديب إفريقية أبي عبد الله محمد بن شرف الجذامي ، وُلد ببرجة ، وقيل : إنّه دخل الأندلس مع أبيه وهو ابن سبع سنين ، ومن نظمه قوله :

رأى الحسنُ ما في خدّه من بدائع فأعجبه ما ضمّ منه وحرّفا
وقالَ لقد ألفتُ فيه نوادرأ فقلتُ له لا بل غريباً مصنفأ
وقوله :

قد وقفَ الشكر بي لديكم فلست أقوى على الوفادة
ونلتُ أقصى المراد منكم فصرتُ أخشى من الزيادة

١ ترجمة أبي الفضل ابن شرف في المغرب ٢ : ٢٣٠ والذخيرة (٣ : ٢٧٦) والقلائد : ٢٥٢ والصلة : ١٢٩ والمطرب : ٧١ وبغية الملتبس ص : ٢٣٩ .

وقوله :

إذا ما عدوك يوماً سما إلى رتبةٍ لم تُطِقْ نَقْضَهَا
فقبَّلْ ولا تأنَّفنْ كَفَّهُ إذ أنتَ لم تستطع عَضَّهَا

وقوله ، وقد تقدم به على كل شاعر :

لم يبق للجورِ في أيامهم أثرٌ إلاّ الذي في عيونِ الغيدِ من حَوَرِ
وأولّ هذه القصيدة قوله :

قامت تجرُّ ذبولِ العَصْبِ والحَبَرِ ضعيفُ الحَصْرِ والميثاقِ والنظرِ
وكان قد قَصَرَ أمداحه على المعتصم ، وكان يفد عليه في الأعياد وأوقات
الفرج والفتوحات ، فوفد عليه مرة يشكو عاملاً ناقشه في قرية يحرق فيها ،
وأنشده الرائية التي مرّ مطلعها إلى أن بلغ قوله :

لم يبق للجور . . . البيت

فقال له : كم في القرية التي تحرق فيها ؟ فقال : فيها نحو خمسين بيتاً ،
فقال له : أنا أسوّغك جميعها لهذا البيت الواحد ، ثم وقع له بها ، وعزل عنها
نظر كل والٍ .

وله ابنٌ فيلسوف شاعر مثله ، وهو أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المذكور ،
وهو القائل :

وكريمٍ أجارني من زمانٍ لم يكن من خطوبه لي بُدٌ
منشدٍ كلِّما أقولُ تناهى ما لمن يبتغي المكارمَ حدٌ

١ ترجمته في المغرب ٢ : ٢٣٢ والمسالك ١١ : ٢٣٨ .

١٨١ - وابن أخت غانم هو العالم اللغوي أبو عبد الله محمد بن معمر^١ ، من أعيان مالقة ، متفنن في علوم شتى ، إلا أن الغالب عليه علم اللغة ، وكان قد رحل من مالقة إلى المريّة ، فحلّ عند ملكها المعتصم بن صمّادح بالمكّة العلية ، وهو القائل في ابن شرف المذكور :

قُولُوا لِشَاعِرٍ بِرَجَّةٍ هَلْ جَاءَ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ فَحَازَ طَبَعَ الْبَحْرِي
وَافِي بِأَشْعَارٍ تَصْجُ بِكَفِّهِ وَتَقُولُ هَلْ أَعْزَى لِمَنْ لَمْ يَشْعِرِ
يَا جَعْفَرًا رُدَّ الْقَرِيضَ لِأَهْلِهِ وَاتْرَكَ مَبَارَاةً لَتِلْكَ الْأَبْحَرِ
لَا تَزْعَمَنَّ مَا لَمْ تَكُنْ أَهْلًا لَهُ هَذَا الرُّضَابُ لَغَيْرِ فَيْكَ الْأَبْحَرِ

وذكره ابن اليّسع في معربه^٢ وقال : إنّه حدثه بداره في مالقة وهو ابن مائة سنة ، وأخذ عنه عام أربعة وعشرين وخمسمائة ، وله تأليف منها « شرح كتاب النبات » لأبي حنيفة الديّنوري ، في ستين مجلداً ، وغير ذلك .
وغانم خاله الذي يُعرف به هو الإمام العالم غانم المخزومي ، نُسب إليه لشهرة ذكره ، وعلوّ قدره .

١٨٢ - ولما قرأ العالم الشهير أبو محمد ابن عبدون في أول شبابه على أبي الوليد ابن ضابط النحوي المالقي جرى بين يديه ذكر الشعر ، وكان قد ضجر منه ، فقال :

الشعرُ خُطَّةٌ خَسَفَ

فقال ابن عبدون معرّضاً به حين كان مُستجدياً بالنظم ، وكان إذ ذاك شيخاً :

لكلّ طالبٍ عُرِفَ

١ ترجمته في المغرب ١ : ٤٣٣ وبغية الوعاة : ١٠٦ وأبياته في المغرب ١ : ٤٣٣ .

٢ في الأصول ودوزي : مغربه .

للشيخ عَيْبَةُ عَيْبٍ وللفتي ظَرْفُ ظَرْفٍ

وابن ضابط هو القائل في المظفر بن الأفتس :

نظّمنا لك الشعر البديع لأنّا علمنا بأنّ الشعر عندك ينفقُ
فإن كنت منّي بامتداح مظفراً فإنّي في قصدي إليك موفّق^١

١٨٣ - ودخل غانم المخزومي السابق ذكره ، وهو من رجال الذخيرة ،
على الملك ابن حبّوس صاحب غرناطة ، فوسّع له على ضيق كان في المجلس ،
فقال^٢ :

صير فؤادك للمحبوب منزلة سمّ الخياط مجالاً للمحبّين
ولا تسامح بغيضاً في معاشرة فقلّما تسع الدنيا بغضين

وهو القائل :

وقد كنت أغدو نحو قطرك فارحاً فيها أنا أغدو نحو قبرك ثاكلاً
وقد كنت في مدحيك سحباناً وائل فيها أنا من فرط التأسّف باقلاً

وله أيضاً :

الصبرُ أولى بوقار الفتي من ملك يهتك ستر الوقار
من لزم الصبر على حالة كان على أيامه بالخيار

١٨٤ - وكتب أبو علي الحسن بن الغليظ إلى صاحبه أبي عبد الله ابن
السراج ، وقد قدم من سفر^٣ :

١ انظر التكملة : ٤٠٧ .

٢ مر البيتان ، انظر ص : ٢٦٥ وانظر بدائع البدائع ٢ : ١٢٣ .

٣ البيتان في المغرب ١ : ٤٣٦ .

يا من أقلبُ طرفي في محاسنه فلا أرى مثله في الناس إنسانا
لو كنت تعلم ما لقيت بعدك ما شربت كأساً ولا استحسنت ريحانا

فورد عليه من حينه وقال : أردت مجاوبتك ، فخفت أن أبطيء ، وصنعت
الجواب في الطريق :

يا من إذا ما سقتني الراح راحته أهدت إلي بها روحاً وريحانا
من لم يكن في صباح السبت يأخذها فليس عندي بحكم الظرف إنسانا
فكن على حسن هذا اليوم مصطبحاً مذكراً حسناً فيه وإحسانا
وفي البساتين إن ضاق المحل بنا مندوحة لا عدنا الدهر بستانا

١٨٥ - ووفد أبو علي الحسن بن كسرين^١ الملقب الشاعر المشهور على ملك
إشبيلية السيد أبي إسحاق إبراهيم ابن أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد
المؤمن بن علي ، فأنشده قصيدة طار مطلعها في الأقطار ، كل مطار ، وهو :

قسماً بحمص إنه لعظيمُ فبهي المقامُ وأنت إبراهيمُ

١٨٦ - ووصف الشاعر عطاء الملقب عادة جعلت على رأسها تاجاً فقال :

وذات تاج رصعوا دَوْرَه فزاد في لألائها باللال
كأنها شمسٌ وقد تَوَجَّتْ بأنجمِ الجوزاء فوق الهلال
قد اشتكى الخلخالُ منها إلى سوارها فاشتبهها في المقال
وأجرباً ذكرَ الوشاح الذي لما يزل من خصرها في مجال
فقال : لم أرض بما نلته وليني مثلكما لا أزال
أغص بالخصر وأعيا به كغص ظمان بماء زلال
ولئما الدهرُ بغيرِ الرضى يقضي فكل غير راضٍ بحال

١ في التحفة : ٩١ ابن كسرى ، وكذلك في التكملة : ٢٦٤ .

وهو القائل :

سَلْ بِحَمَانَا الَّذِي كَلَّ عَنْ شُكْرِهِ فَمَيَّ
كَمْ أَرَانِي بِقُرْبِهِ جَنَّةً فِي جَهَنَّمِ

١٨٧ - وكان يحضر حلقة الإمام السَّهَيْلِي وَضِيءُ الْوَجْهِ من تلامذته ،
فانقطع لعارض ، فخرج السَّهَيْلِي مَارًّا فِي الطَّرِيق الَّذِي جَرَتْ عَادَتُهُ بِالمَشْيِ فِيهِ ،
فوجد قَنَاطَةَ تَصْلُحُ ، فَمَنَعَتْهُ مِنَ الْمُرُورِ ، فَرَجَعَ وَسَلَكَ طَرِيقًا آخَرَ ، فَمَرَّ عَلَى
دَارِ تَلْمِيزِهِ الْوَضِيءِ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ مِمَّا زَحَا بِعُبُورِهِ عَلَى مَتَرْلِهِ ، فَقَالَ :
نَعَمْ ، وَأَنْشَدَ ارْتِجَالًا :

جَعَلْتُ طَرِيقِي عَلَى بَابِهِ وَمَا لِي عَلَى بَابِهِ مِنْ طَرِيقٍ
وَعَادَيْتُ مِنْ أَجْلِهِ جِيرَتِي وَأَخَيْتُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِي صَدِيقٍ
فَإِنْ كَانَ قَتْلِي حَلَالًا لَكُمْ فَسَيَرُوا بِرُوحِي سِيرًا رَفِيقٍ

وَأَبُو الْقَاسِمِ السَّهَيْلِي مشهور ، عَرَّفَ بِهِ ابْنَ خَلِّكَانَ وَغَيْرَهُ ، وَيَكُنَى
إِيضًا بِأَبِي زَيْدٍ ، وَهُوَ صَاحِبُ كِتَابِ «الرُّوضِ الْأَنْفِ» وَغَيْرِهِ .
وَاجْتَازَ عَلَى سَهِيلٍ وَقَدْ خَرَبَهُ الْعَدُوُّ لَمَّا أَغَارَ عَلَيْهِ وَقَتَلُوا أَهْلَهُ وَأَقَارِبَهُ ، وَكَانَ
غَائِبًا عَنْهُمْ ، فَاسْتَأْجَرَ مِنْ أَرْكَبِهِ دَابَّةً ، وَأَتَى بِهِ إِلَيْهِ ، فَوَقَفَ بِإِزَائِهِ ، وَأَنْشَدَ :

يَا دَارُ أَيْنَ الْبَيْضُ وَالْآرَامُ أَمْ أَيْنَ جِيرَانُ عَلِيٍّ كَرَامُ
رَبِّ الْمَحَبَّةِ مِنَ الْمَنَازِلِ أَنَّهُ حَيًّا فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ سَلَامُ
لَمَّا أَجَابَنِي الصَّدَى عَنْهُمْ وَلَمْ يَلْجِ الْمَسَامِعَ لِلْحَبِيبِ كَلَامُ
طَارَحَتْ وَرُقَّ حَمَامُهَا مَتَرَنًا بِمَقَالِ صَبٍّ وَالدِّمُوعُ سِجَامُ
« يَا دَارُ مَا فَعَلْتَ بِكَ الْيَامُ ضَامَتِكَ وَالْأَيَّامُ لَيْسَ تَضَامُ »

وجرى بين السهيلي والرصافي الشاعر المشهور ما اقتضى قول الرصافي :

عفا الله غني فإني امرؤٌ أتيتُ السلامة من بابِها
على أنْ عندي لمن هاجني كَنائنَ غَصَّتْ بنشأِها
ولو كنتُ أرمي بها مسلماً لكان السهيليُّ أولى بها

وتوفي السهيلي بمراكش سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وزرت قبره بها مراراً سنة عشر وألف ، وسكن رحمه الله تعالى إشبيلية مدةً ، ولازم القاضي أبا بكر ابن العربي وابن الطراوة ، وعنه أخذ لسان العرب ، وكان ضريراً .

ومن شعره أيضاً لما قال : « كيف أمسيت » موضع « كيف أصبحت » :

لئن قلتُ صباحاً كيف أمسيتَ مخطئاً فَمَا أنا في ذاك الخطأ بمَلومٍ
طلعتُ وأُفقي مُظلمٌ لفراقكم فخلتُك بدرأ والمساء هُمومي

١٨٨ - وحكي أن الوزير الكاتب أبا الفضل ابن حسداي الإسلامي السرقسطي ، وهو من رجال الذخيرة ، عشق جارية ذهبت بلبه ، وغلبت على قلبه ، فجن بها جنونه ، وخلع عليها دينه ، وعلم بذلك صاحبه فزفها إليه ، وجعل زمامها في يديه ، فتجافى عن موضعه من وصلها أنفة من أن يظن الناس أن إسلامه كان من أجلها ، فحسن ذكره ، وخفي على كثير من الناس أمره ، ومن شعره قوله ^١ :

وأطربنا غيمٌ يمازج شمسَهُ فَيُسْتَرُ طوراً بالسحاب ويُكشَفُ
تري قُرْحاً في الجو يفتحُ قوسَهُ مكباً على قطنٍ من الثلج يندفُ

وكان في مجلس المقتدر بن هودٍ ينظر في مجلد ، فدخل الوزير الكاتب أبو

١ البيتان في الذخيرة (٣ : ١٦٤) .

الفضل ابن الدباغ وأراد أن يندّر به ، فقال له ، وكان ذلك بعد إسلامه : يا أبا الفضل ، ما الذي تنظر فيه من الكتب ، لعلّه التوراة ؟ فقال : نعم ، وتجليدها من جلدٍ دَبَّغَهُ مَنْ تعلم ، فمات خجلاً ، وضحك المقتدر .

١٨٩ — وأراد الشاعر أبو الربيع سليمان السرقسطي حضور نديم له ، فكتب إليه :

بالراحِ والريحانِ والياسمينِ وبكرةِ الندمانِ قبلَ الأذنينِ
وبهجةِ الروضِ بأنْدائه مُقلداً منهُ بعقدِ ثمينِ
ألا أجِبْ سَبَقاً نِدائي إلى الـ كأسِ تَبَدَّتْ لذةُ الشاربينِ
هامتْ بها الأعينُ من قبل أن يَخْبِرَها الذوقُ بحقِّ اليقينِ
لاحتْ لَدَيْنَا شَفَقاً مُعلنًا فكنْ لها بالله صُبْحاً مَبينِ

١٩٠ — وكتب علي بن خير التُّطيلي^١ إلى ابن عبد الصمد السرقسطي يستدعيه إلى مجلس أنس : أنا — أطال الله تعالى بقاء الكاتب سراج العلم وشهاب الفهم — في مجلس قد عَبَقَتْ تَفَاحُهُ ، وضحكت راحُهُ^٢ ، وخففت حولنا للطرب ألوية ، وسالت بيننا للهو أودية ، وحضرتنا مُقَلَّةٌ تسأل منك إنسانها^٣ ، وصحيفة فَكُنْ^٤ عُنْوَانُهَا ، فإن رأيت أن تجعل إلينا القصد ، لنحصل بك في جنة الخُلد ، صَقَلْتَ نفوساً أَصْدَأَها بَعْدُكَ ، وأبرزت شمساً^٥ أدجاها ففدُك .

-
- ١ هذا النص في الذخيرة (٣ : ٢٥٦) وقد صدره ابن بسام بقوله « وأخبرت أن بعض أدباء الثغر استدعى هذا الشيخ (يعني أبا عبد الصمد) وكان في عصر أبي حفص ابن برد الأصغر ، فهو غير أبي بحر ابن عبد الصمد) لمجلس أنس بهذا النثر : أنا أطال الله بقاء الكاتب . . . إلخ .
 - ٢ الذخيرة : وصفت أقداحه .
 - ٣ الذخيرة : فنحن لتأليك عنا مقلة تسأل إنسانها .
 - ٤ الذخيرة : نشر .
 - ٥ الذخيرة : وأزرت سرجاً ؛ وهو أجود .

فأجابه أبو^١ عبد الصمد : فضضتُ - أيّها الكاتب العليم ، والمصنّع الخبير الصميم - طابعَ كتابك ، فمنحني منه جوهر منتخب ، لا يشوبه مخشّلب ، هو السحر إلاّ أنّه حلال ، دلّ على ود حنيت ضلوعك عليه ، ووثيق عهد انتدب كريم سجيتك إليه ، فسألت فالق الحب ، وعامر القلب بالحُب ، أن يصون لي حظي منك ، ويدّرأ لي النوائب عنك ، ولم يمنعي أن أصرف وجه الإجابة إلى مرغوبك ، وأمتطي جواد الانحدار إلى محبوبك ، إلاّ عارضُ ألمٍ ألمّ بي فقيّد بقيده نشاطي ، وروّى براحته بساطي ، وتركني أتملّمل على فراشي كالسليم ، وأستمطر الإصباح من الليل البهيم ، وأنا منتظر لإدباره .

١٩١ - ومن لطف أهل الأندلس ورقة طباعهم ما حكاه أبو عمرو ابن سالم المالقي قال : كنت جالساً بمنزلي بمالقة ، فهاجت نفسي أن أخرج إلى الجبّانة ، وكان يوماً شديداً الحر ، فراودتها على القعود ، فلم تمكّني من القعود ، فمشيت حتى انتهيت إلى مسجد يُعرف برابطة الغبار ، وعنده الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالقي ، فقال لي : إنّي كنت أدعو الله تعالى أن يأتيني بك ، وقد فعل ، فالحمد لله ، فأخبرته بما كان مني ، ثم جلست عنده ، فقال : أنشدني ، فأنشدته لبعض الأندلسيين :

غَضَبُوا الصَّبَاحَ فَقَسَّمُوهُ خُلُوداً وَاسْتَوْعَبُوا قُضْبَ الْأَرَاكِ قُدُوداً
وَرَأَوْا حَصَى الْيَاقُوتِ دُونَ نَحْوَرِهِمْ فَتَقَلَّدُوا شُهْبَ النُّجُومِ عَقُوداً
لَمْ يَكْفِهِمْ حَدُّ الْأَسْنَةِ وَالظُّبَى حَتَّى اسْتَعَارُوا أَعْيُنًا وَخُلُوداً

فصاح الشيخ ، وأغمي عليه ، وتصبّب عرقاً ، ثم أفاق بعد ساعة ، وقال : يا بني اعذرني فشيئان يقهراني ، ولا أملك نفسي عندهما : النظر إلى الوجه الحسن ، وسماع الشعر المطبوع ، انتهى . وستأتي هذه الأبيات في هذا الباب

١ في الأصول : ابن .

بأنهم من هذا وعلى كل حال فهي لأهل الأندلس ، لا لابن دريد كما ذكره بعضهم ، وسيأتي تسمية صاحبها الأندلسي ، كما في كتاب « المغرب » لابن سعيد العنسي المشهور ، رحمه الله تعالى .

١٩٢ - وقال بعض الأدباء ليحيى الجزار ، وهو يبيع لحم ضأن^١ :

لحمُ إناثِ الكِبَاشِ مهزولُ

فقال يحيى :

يَقُولُ للمَشْتَرِينَ مَهْ زُولُوا

١٩٣ - وقال التطيلي الأعمى في وصف أسد رخام يرمي بالماء على بحيرة^٢ :

أَسَدٌ وَلَوْ أَتَيْتُ أَنَا قَشَهُ الْحَسَابِ لَقُلْتُ صَخْرَهُ
وَكَأَنَّهُ أَسَدُ السَّمَاءِ يَمْجُ مِنْ فِيهِ الْمَجْرَةُ

١٩٤ - وحضر جماعة من أعيان الأدباء مثل الأبيض وابن بقي وغيرهما من الوشاحين ، واتفقوا على أن يصنع كل واحد منهم مَوْشَحَةً ، فلما أنشد الأعمى مَوْشَحَتَهُ التي مطلعها^٣ :

ضاحك عَنْ جِمانٍ سافر عَنْ بَلَدٍ
ضاق عَنْه الزمانُ وحواه صَدْرِي

خَرَّقَ كُلُّ مِنْهُمْ مَوْشَحَتَهُ .

١٩٥ - ونحكت امرأة إلى القاضي أبي محمد عبد الله اللازدي الأصبحي ،

١ انظر زاد المسافر : ٩٨ .

٢ ديوان التطيلي : ٢٤٩ .

٣ أزهار الرياض : ٢ : ٢٠٨ .

وكانت ذات جمال ونادرة ، فحكم لزوجها عليها ، فقالت له : من يُضيع قلبه كل طرف فاطر جدير أن يحكم بهذا ، تشير إلى قوله :

أين قلبي ؟ أضاعه كل طرف فاطر يُصرع الحليم لديه
كلما ازداد ضعفه ازداد فتكاً أي صبر ترى يكون عليه ؟

١٩٦ - وحضر أبو إسحاق ابن خفاجة مجلساً بمروسة مع أبي محمد جعفر ابن عنق الفضة الفقيه السالمي ، وتذاكرا ، فاستطال ابن عنق الفضة ، ولعب بأطراف الكلام ، ولم يكن ابن خفاجة يعرفه ، فقال له : يا هذا لم تترك لأحد حظاً في هذا المجلس ، فليت شعري من تكون ؟ فقال : أنا القائل :

الهوى علمني سُهْدَ الليالِ ونظامُ الشعر في هذي اللالِ
كلما هبت شمالُ منهمُ لعبتُ بي عن يمينِ وشمالِ
وأرقتُ فكرتي أرواحها فأنت منهمنَّ بالسحر الحلالِ
كان كالملح أجاجاً خاطري وسحابُ الحبِّ أبدته زلالِ

فاهتز ابنُ خفاجة ، وقال : من يكون هذا قوله لا ينبغي أن يُجهل ، ولك المعنرة في جهلك ، فإنك لم تُعرفنا بنفسك ، فبالله من تكون ؟ فقال : أنا فلان ، فعرفه وقضى حقه .

١٩٧ - وحكى ابن غالب في « فرحة الأنفس » أن الوزير أبا عثمان ابن شنتفيرا وأبا عامر ابن غندشلب وفدَا رسولين على المعتمد بن عباد ، عن إقبال الدولة بن مجاهد والمعتصم بن صمادح والمقتدر بن هود ، لإصلاح ما كان بين المعتمد وبين ابن ذي النون ، فسُر المعتمد بهم وأكرمهم ، ودعاهم إلى طعام صنعته لهم ، وكان لا يُظهر شرب الراح منذ ولي الملك ، فلما رأوا انقباضه عن ذلك تحاموا الشراب ، فلما أمر بكتب أجوبتهم كتب إليه أبو عامر :

١ لعله : ابن شنتفيرا كما ورد من قبل ص : ٢٥٩ .

بقيت حاجة لعبد رقيب^١ لم يدع غيرها له من نصيب
 أنا خيرية المساء حديثاً وأنا في الصباح أخشى رقيب
 فإذا أمس كان عندي نهراً لم تخفي عليه بعد الغروب
 وإذا الليل جنّ حدثتُ جلاً سي بما كان من حديث عجيب
 قيل إن الدجى لديك نهراً وكذلك الدجى نهراً الأريب
 فتمنيت ليلة ليس فيها لذكاء ذلك السنن من مغيب
 حيث أعطيك في الخلاء وتعطي ني مداماً كمثل ريق الحبيب
 ثم أغدو كأنني كنت في النور م وأخفي المنام خوف هزيب

والهزيب : الرقيب العتيد في كلام أهل الأندلس ، فسرّ المعتمد وانبسط
 بانبساطه ، وضحك من مجونه ، وكتب إليه :

يا مجاباً دعا إلى مستجيب فسمعنا دعاءه من قريب
 إن فعلت الذي دعوت إليه كنت فيما رغبت عين رقيب

واستخضره فنادمه خالياً ، وكساه ووصله ، وانقلب مسروراً ، وظن
 المعتمد أن ذلك يخفى من فعله عن ابن شنتفير ، فأعلم بالأمر القائد ابن مرتين ،
 فكاد يتفطر حسداً وكتب إلى المعتمد :

أنا عبد أوليته كل بر لم تدع^٢ من فنون برّك فتاً
 غير رفع الحجاب في شربك الرا ح فماذا جناه أن يتجنّى
 وتمنى شراب سورك في الكأ من فبالله أعطه ما تمنى

فسرته أبياته ، وأجابه :

١ م : غريب .
 ٢ في الأصول : لم يدع .

يا كريمَ المحلِّ في كلِّ معنَى والكريمُ المحلُّ ليس يُعَنَى
هذه الخمرُ تبغيك فخذها أو فدَعَهَا أو كيفما شئتَ كنّا

١٩٨ - وكان يقرأ في مجلس ملك السهلة أبي مروان ابن رزين ذي الرياستين
ديوان شعر محمد بن هانيء ، وكان القارىء فيه بَلَّه ، فلمّا وصل إلى قوله :

حرام حرام زمان الفقير

اتفق أن عَرَضَ للملك ما اشتغل به ، فقال للقارىء : أين وقفت ؟ فقال :
في حرّ أمّ ، فقام الملك ، وقال : هذا موضع لا أقف معك فيه ، ادخل أنت
وحدك ، ثم دخل إلى قصره ، وانقلب المجلس ضحكاً .

١٩٩ - وكان للملك المذكور وزير من أعاجيب الدهر ، وهو الكاتب أبو
بكر ابن سدراي^١ ، وذكره الحجاري في « المسهب » وقال : إن له شعراً أرق
من نسيم السّحر ، وأندى من الطّل على الزهر ، ومنه قوله :

ما ضرّكم لو بعثتم^١ ولو بأدنى تحية^٢
تهزّي من شدّاها إليكم الأريحية^٣
خذلوا سلامي إليكم^٤ مع الرياح النديّة^٥
في كلّ سحرة^٦ يوم تتشرى وكلّ عشيّة^٧
يا ربّ طال اضطباري ما الوجد إلا بليّة^٨
غيلان بالشرق أضحي وحلت الغرب ميّة^٩

وقوله :

سأبغي المجدّة في شرقٍ وغربٍ فما ساد الفقى دون اغترابٍ

١ انظر المغرب ٢ : ٤٣٠ وبعض أبياته هنالك .

٢ المغرب : غرة .

فإن بُلُغْتُ مأمولاً فلنني جَهِدْتُ ولم أَقْصِرْ في الطلابِ
وإن أنا لم أَفْزُ بِمِرَادِ سَعِيي فكم من حَسْرَةٍ تَحْتَ الترابِ

٢٠٠ - وقال ملك بلنسية مَرْوَان بن عبد العزيز لَمَّا ولي مكانه من لا يساويه :

ولا غَرَوَ بعدي أن يُسَوِّدَ معشرٌ فيضحي لهم يومٌ وليس لهم أَمْسٌ
كذلك نجوم الجوّ تبدو زواهرأ إذا ما توارتْ في مغاربها الشمسُ

وقال ابن دحية : دخلت عليه وهو يتوضأ ، فنظر إلى لحيته وقد اشتعلت
بالشيب اشتعالاً ، فأنشدني لنفسه ارتجالاً^١ :

ولمّا رأيتُ الشيب أيقنْتُ أَنَّهُ نَدِيرٌ لجسمي بانهدامِ بنائه
إذا ابيضَّ مخضِرُّ النباتِ فلنَّه دليلٌ على استحصادِه وفنائِه

٢٠١ - واعتل ابن ذي الوزارتين أبي عامر ابن الفرج^٢ وزير المأمون بن
ذي النون ، وهو من رجال الذخيرة والقلائد^٣ ، فوصف له أن يتداوى بالحمز
العتيق ، وبلغه أن عند بعض الغلمان منها شيئاً ، فكتب إليه يستهديه^٤ :

ابعثْ بها مثلَ وَدَّكَ أرقَّ مِن ماءِ خدِّكَ
شقيقة النفسِ ، فانضح بها جَوَى ابني وعَبْدِكَ

وهو القائل معذراً عن تخلفه عمّن جاءه منذراً^٥ :

١ المطرب : ٨٠ .

٢ ترجم له صاحب المطمح : ١٥ وانظر الذخيرة (القسم الثالث) والمغرب ٢ : ٣٠٣ والحلة

٢ : ١٧١ .

٣ كذا قال ابن سعيد أيضاً ولكن ليست لابن الفرج ترجمة في القلائد المطبوع ، وإنما ترجمته في المطمح .

٤ البيتان في المطمح والحلة .

٥ انظر المصدرين السابقين .

ما تَخَلَّفْتُ عَنْكَ إِلَّا لَعْدٍ ودليلي في ذاك خوفي عليك
هَبْكَ أَنْ الْفِرَارَ مِنْ غَيْرِ عَدْرِ أتراهُ يَكُونُ إِلَّا إِلَيْكَ ؟

وله من رسالة هَنَاء :

أَهْنِءْ بِالْعِيدِ مَنْ وَجْهَهُ هو العيدُ لو لاح لي طالعا
وأدعو إلى الله سبحانه بشملي يكونُ لنا جامعا

وكتب إلى الوزير المصري^١ يستدعيه أن يكون من ندمائه ، فكتب إليه الوزيرُ
المصري يستعلمه اليوم ، فلمّا أرادَه كتب إليه^٢ :

ها قد أَهَبْتُ بِكُمْ وَكُلُّكُمْ هَوَى وأحقُّكم بالشكرِ مِنِّي السابقُ
كالشمسِ أَنْتَ وَقَدْ أَظْلَّ طُلُوعُهَا فاطلَعُ وَبَيْنَ يَدَيْكَ فَجْرٌ صادقُ

وله في رئيس مُرْسِيَةِ أَبِي عبد الرحمن ابن طاهر ، وكان ممتع المجالسة كثير
النادرة :

قد رأينا منك الذي قد سمعنا فغدا الخُبْرُ عاصِدَ الأخبارِ
قد وردنا لديك بجرأ نَمِيراً وارْتَقِينَا حَيْثُ النجومُ الدُراري
وَلَكُمْ مَجْلِسٌ لَدَيْكَ انصرفنا عنه مِثْلَ الصَّبَا عن الأزهارِ

٢٠٢ - وشرب الأديب الفاضل أبو الحسن علي بن حريق^٣ عَشِيَةً مع
من يَهْوَاهُ ، ورام الانفصال عنه لداره ، فمنعه سَيْلٌ^٤ حال بينه وبين داره ،
فبات عنده على غير اختياره ، فقال ابن حريق^٤ :

١ هو أبو محمد المصري : (أبو محمد عبد الله بن خليفة القرطبي) .

٢ الشعر في الحلة والمطمح .

٣ ترجمته في المغرب : ٣١٨ وزاد المسافر : ٢٣ والتكملة : ٦٢٩ والفوات : ٢ : ٧٠ .

٤ هذه القطعة والثان تليانها في المغرب : ٣١٩ ، ٣١٨ .

يا ليلةٌ جادتِ الليالي بها على رغم أنف دهري
 للسيل فيها عليّ نُعْمى يقصرُ عنها لسان شكري
 أباتَ في منزلي حبيبي وقام في أهله بعذر
 فبتُ لا حالةٌ كحالي ضَجِيعَ بدرٍ صريعٍ سكر
 يا ليلةَ القدرِ في الليالي لأنتِ خيرٌ من ألف شهر

ومن حسنات ابن حريق المذكور قوله :

يا ويحَ من بالمغربِ الأقصى ثوى حِلْفَ النوى وحبيبهُ بالمشرقِ
 لولا الحذارُ على الورى للمأتُ ما بيني وبينك من زفيرٍ محرقِ
 وسكبتُ دمعي ثمَّ قلت لسكبه من لم يذبُ من زفرةٍ فليغرقِ
 لكن خَشِيتُ عقابَ ربي إن أنا أحرقتُ أو أغرقتُ من لم أخلقِ
 وله :

لم يبقَ عندي للصِّبا لذةٌ إلاّ الأحاديثُ على الخمرِ

وله :

فَقَبَّلْتُ إثرَكَ فوقَ الثرى وعانقتُ ذَكَرَكَ في مضجعي
 وله ١ :

إنَّ ماءً كان في وَجَنَتِها وردته السنُّ حتى نشفا
 وذوى العُنَابُ من أَعْمَلِها فأعادته الليالي حَشَفَا

وأورد له أبو بحر في « زاد المسافر » قوله :

١ زاد المسافر ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ (ثلاث قطع) .

كَلَمْتُهُ فاحمرَّ من خجلٍ حتى اكتسى بالعسجد الورقُ
وسألتهُ تقييلَ راحتِهِ فأبى وقال أخافُ أحترقُ
حتى زفيري عاقَ عن أُملي إنَّ الشَّقِيَّ بِرِيقِهِ شَرِقُ

وقوله في السوائي :

وكانما سكن الأراقمُ جوفَها من عهد نوحٍ مدَّةَ الطوفانِ
فإذا رأينا الماءَ يطفحُ نفضنضتُ من كل خرقٍ حيَّةٌ بلسانِ

٢٠٣ - وقال الفيلسوف أبو جعفر ابن الذهبي فيمن جمع بينه وبين أحد

الفضلاء^١ :

أيُّها الفاضلُ الذي قد هداني نحوَ من قد حمدتهُ باختبارِ
شكر الله ما أتيتَ وجازا لك ولا زلتَ نجمَ هَدْيي لساري
أيُّ برقٍ أفادَ أيَّ غمامٍ وصباحٍ أدَّى لضوءِ نهارِ
وإذا ما النسيمُ كانَ دليلي لم يُحِلِّني إلَّا على الأزهارِ

٢٠٤ - وأنشد أبو عبد الله محمد بن عبادة الوشاح المعتصم بن صمادح

شعراً يقول فيه :

ولو لم أكن عبداً لآلِ صمادحٍ وفي أرضهم أصلي وعيَشي وموَلدي
لما كان لي إلَّا إليهمُ ترحُّلٌ وفي ظِلِّهم أُمسي وأُضحى وأغتدي

فارتاح ، وقال : يا ابن عبادة ، ما أنصفناك بل أنت الحر لا العبد ، فاشرح
لنا في أملك ، فقال : أنا عبدكم كما قال ابن نُباتة :

لم يُبقِ جودُكَ لي شيئاً أوَمله تركتني أصحابُ الدنيا بلا أَمَلِ

١ مرت الأبيات ص : ٢٠٧ .

فالتفت إلى ابنه الواثق يحيى وليَّ عهده وقال : إذا اصطنعت الرجال فمثل
هذا فاصطنع ، ضمه إليك وافعل معه ما تقتضيه وصيتي به ، ونبهني إليه كل
وقت ، فأقام نديماً لوليِّ العهد المذكور .
وله فيهما الموشحات المشهورة ، كقوله ^١ :

كم في قدود البانْ تحتَ اللممْ منْ أقمِرْ عَوَاطِي
بأَعْلٍ وبَنانْ مثلِ العَنَمْ لَمْ تَنْبِرِي للعَاطِي

٢٠٥ - ولما بلغ المعتصم أن خلف بن فرج السميسر هجاه احتال في طلبه
حتى حصل في قبضته ، ثم قال له : أنشدني ما قلت فيَّ ، فقال له : وحقَّ
مَنْ حَصَّلَنِي في يدك ما قلت شرّاً فيك ، وإنما قلت :

رأيتُ آدم في نومي فقلتُ له : أبا البرية إنَّ الناسَ قد حكموا
أن البرابر نسلُ منكَ ، قال : إذن حواءُ طالقةٌ إن كان ما زعموا

فندر ابن بلقين صاحب غرناطة دمي ، فخرجت هارباً إلى بلادك فوضع
عليَّ مَنْ أشاع ما بلغك عني لتقتلني أنت فيدرك ثأره بك ، ويكون الإثم عليك ،
فقال : وما قلت فيه خاصّة مضافاً إلى ما قلته في عامة قومه ؟ فقال : لما رأيته
مشغولاً بتشديد قلعه التي يتحصن فيها بغرناطة قلت :

بيني على نفسه سفاهاً كأنه دودةُ الحريرِ

فقال له المعتصم : لقد أحسنت في الإساءة إليه ، فاختر : هل أحسن إليك
وأخلي سبيلك أم أجيرك منه ؟ فارتجل :

خَيَّرَنِي المعتصمُ وهو بقصْدي أعلمُ

١ انظر هذه الموشحة في دار الطراز : ٦٠ .

وَهُوَ إِذَا يَجْمَعُ لِي أَمْنًا وَمَنْنًا أَكْرَمُ

فقال : خاطرك خاطر شيطان ، ولك المَن والأمان ، فأقام في إحسانه بأوطانه ، حتى خلع عن ملكه وسلطانه .

٢٠٦ - ولما أنشده عمر بن الشهيد قصيدته التي يقول فيها ^١ :

سَبَطُ البَتَانِ كَأَنَّ كُلَّ غِمَامَةٍ قَدْ رُكِبَتْ فِي رَاحَتِيهِ أَنَامِلًا
لَا عَيْشَ إِلَّا حَيْثُ كُنْتُ ، وَإِنَّمَا تَمْضِي لِيَالِي الْعَمْرِ بِعَدِكَ بَاطِلًا

التفت إلى من حضر من الشعراء وقال : هل فيكم من يحسن أن يجلب القلوب بمثل هذا ؟ فقال أبو جعفر ابن ^٢ الخراز البطرني ^٣ : نعم ، ولكن للسعادة هَبَّات ، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتاً أقول فيها ^٤ :

وَمَا زِلْتُ أَجْنِي مِنْكَ وَالدهرُ مُنْحَلٌّ وَلَا ثَمَرٌ يُجْنَى وَلَا الزَّرْعُ يُحْصَدُ
ثَمَارَ أَبَادٍ دَانِيَاتٍ قُطُوفُهَا لِأَغْصَانِهَا ظِلٌّ عَلَيَّ مُمَدَّدُ
يُرَى جَارِيًا مَاءَ الْمَكَارِمِ تَحْتَهَا وَأَطْيَارُ شُكْرِي فَوْقَهَا تَغْرَدُ

فارتاح المعتصم ، وقال : أأنت أنشدتني هذا ؟ قال : نعم ، قال : والله كأنها ما مرت بسمعي إلى الآن ، صدقت ، للسعد هَبَّات ، ونحن نجيزك عليها بجائزتين : الأولى لها والثانية لمَطل راجيها وغمط إحسانها ، انتهى .

١ الذخيرة ٢/١ : ١٩٥ .

٢ ابن : سقطت من م ب .

٣ هو أبو جعفر أحمد بن الخراز (الجزار في المغرب) البطرني (نسبة إلى بطرنة من قرى بلنسية) وهو الذي أثار ابن غرسية إلى كتابة رسالته في الشعوبية وعارضه أبو جعفر برسالة تناظرها (المغرب

٢ : ٣٥٥ والحاشية) .

٤ الأبيات في المغرب ٢ : ٣٥٦ .

٢٠٧ - وقال بعض ذرية^١ ملوك إشبيلية :

نُثِرَ الوردُ بالخليج وقد درَّ جَهْ بالهبوب مرَّ الرياح
مثل درع الكمي مزقها الطع نُ فسالت بها دماء الجراح

٢٠٨ - وقال ابن صارة في النارج^٢ :

كُرَّاتٌ عقيق في غصون زبرجد بكف نسيم الريح منها صوالجُ
تقبلها طوراً وطوراً نشمتها فهنَّ خلدودٌ بيننا ونوافجُ

[أشعار لابن الزقاق]

٢٠٩ - وقال أبو الحسن ابن الزقاق ابن أخت ابن خفاجة^٣ :

وما شقَّ وجنته عابثاً ولكنَّها آيةٌ للبشر
جلاها لنا الله كيما نرى بها كيف كان انشقاق القمر

وقال :

ضربوا ببطن الوادين قبابهم بين الصوارم والقنا الميَّادِ
والورق تهتف حولهم طرباً بهم فبكل محنية ترثم شادي
يا بانه الوادي كفى حزناً بنا أن لا نظارح غير بانه وادي

وقال :

نحن في مجلسٍ به كمل الأذسُ ولو زُرَّتْنا لزد كمالا

١ ذرية : سقطت من م . والبيتان لابن الزقاق (ديوانه : ١٣١) .

٢ من أبيات في الذخيرة (٢ : ٣٢٥) .

٣ انظر هذه القطع في ديوان ابن الزقاق : ١٧٩ ، ١٤٤ والقطع الثلاث الأخيرة لم ترد في ديوانه ؛

والقطعة الأولى مرت في النفع ص : ٢٩٠ .

طلّعت فيه من كؤوس الحميا ومن الزهر أنجم* تتلّلا
غير أن النجوم دون هلالٍ فلتكن منعماً لهنّ الهلّلا

وقال :

وهويتها سمراء غنّت وانثت تشلو ووسواسُ الحلّي يجيبها
منظرتُ من ورقاء في أملودها مهما انثت في وشيها وعقودها
أوليس من بدع الزمان حمامة غنّت فغنّي طوقها في جيدها

وقال :

لئن بكيتُ دماً والعزم من شيمي على الحليط فقد يبكي الحسام دما

[أشعار للحجّام]

٢١٠ - وقال أبو تمام غالب بن رباح الحجّام^١ في دولاب طار منه لوح فوقف^٢ :

وذاث شدوّ وما لها حلّم كل فتى بالضمير حيّاها
وطار لوح بها فأوقفها كلمحة العين ثم أجراها

وكان المذكور ربّي في قلعة رباح غربي طليطلة ، ولا يُعلم له أب ،
وتعلم الحجامة فأتقنها ، ثم تعلق بالأدب حتى صار آية ، وهو القائل في ثريّا
الجامع^٣ :

تحكي الثريّا الثريّا في تألقها وقد عراها نسيم فهي تتقدّ

١ ترجمة أبي تمام غالب الحجّام في الذخيرة (٣ : ٢٥٦) والمغرب ٢ : ٤٠ والمسالك ١١ : ٤٥١ .

٢ الذخيرة : ٢٦١ .

٣ المصدر نفسه : ٢٦٠ .

كَأَنَّهَا لِنُذُويِ الْإِيْمَانِ أَفْنَدَةٌ مِنْ التَّخْشَعِ جَوْفَ اللَّيْلِ تَرْتَعِدُ

وقال :

زَرْتُ الْحَبِيبَ وَلَا شَيْءٌ أَحَازَرَهُ فِي لَيْلَةٍ خِلْتُ مِنْ حُسْنِ كَوَاكِبِهَا
دِرَاهِمًا وَحَسْبُ الْبَدْرِ دِينَارًا قَدِ لَوْتُ بِالْغَمَضِ أَشْفَارًا

وقال في الثريا أيضاً :

انْظُرْ إِلَى سُرُجٍ فِي اللَّيْلِ مُشْرِقَةٍ مِنْ الزَّجَاجِ تَرَاهَا وَهِيَ تَلْتَهَبُ
كَأَنَّهَا أَلْسُنُ الْحَيَاتِ قَدْ بَرَزَتْ عِنْدَ الْمَجِيرِ فَمَا تَنْفَكُ تَضْطَرِبُ

وقال ١ :

تَرَى النِّسْرَ وَالْقَتْلَى عَلَى عَدَدِ الْحَصَى وَقَدْ مَزَقَتْ أَحْشَاءَهَا وَالتَّرَائِبَا
مُضَرَّجَةً مِمَّا أَكَلْنَ كَأَنَّهَا عَجَائِزُ بِالْحِنَا خَضِبْنَ ذَوَائِبَا

وقال ، وقد أبدع غاية الإبداع ، وأتى بما يحير الألباب ، وإن كان أبو نواس فاتح هذا الباب :

وَكَأْسٍ تَرَى كَسْرِي بِهَا فِي قَرَارَةٍ غَرِيقًا وَلَكِنْ فِي خَلِيجٍ مِنَ الْخَمْرِ
وَمَا صَوْرَتُهُ فَارِسٌ عَبَثًا بِهِ وَلَكِنَّهُمْ جَاءُوا بِأَخْفَى مِنَ السَّحْرِ
أَشَارُوا بِمَا كَانُوا لَهُ فِي حَيَاتِهِ فَنُؤْمِي إِلَيْهِ بِالسُّجُودِ وَمَا نَدْرِي

وما أحلى قوله ٢ :

الْأَقْحَوَانُ رَمَى عَلَيْكَ ظُلَامَةً لَمَّا عَنَفْتَ عَلَيْهِ بِالسَّوَاكِ

١ المصدر نفسه : ٢٦١ .

٢ الذخيرة : ٢٦٢ .

لا يحمل النّورُ الأنيقُ تمسُّهُ كفُّ بعودٍ بِشامةٍ وأراكِ
وجلاؤه المخلوقُ فيهٍ قد كفى من أن يرَاعَ عَرَاهُ بسواكِ
وقوله ١ :

صغارُ الناسِ أكثرهم فساداً وليس لهم لصاحبةٍ نهوضُ
ألم ترَ في سباعِ الطيرِ سرّاً تسالمتنا ، ويأكلنا البعوضُ
وقد بلغ غاية الإحسان في قوله ٢ :

فما للملكِ ليس يرى مكاني وقد كحلت لواحظهُ بنوري
كذا المسواكُ مطرّحاً مهاناً وقد أبقي جِلاءً في الثغورِ
ومن حسناته قوله ٣ :

لي صاحبٌ لا كان من صاحب فإنّه في كبدي جرّحةٌ
يحكي إذا أبصر لي زلّةً ذبابةٌ تضربُ في قرّحةٍ
ولقيه أبو حاتم الحجاري على فرس في غاية الضعف والردالة قد أهلكها
الوجى ، وكانا في جماعتين ، فقال له : يا أبا تمام ، أنشدني قولك :

وتحتي ريحٌ تسبقُ الريحَ إن جرت وما خلّتُ أنّ الريحَ ذاتُ قوائمِ
لها في المدى سبّاقٌ إلى كلّ غايةٍ كأنّ لها سبقاً يفوقُ عزائمِ
وهمّةُ نفسي نَزّهَتْها عن الوجى فيا عجباً حتى العُلا في البهائمِ
فلما أنشده إياها ردّ رأسه أبو حاتم إلى الجماعتين وقال : ناشدتكُم الله

١ المغرب ٢ : ٤٠ والذخيرة : ٢٦٣ .

٢ المغرب : ٤١ .

٣ الذخيرة : ٢٦٤ .

أيجوز لحجّام على فرس مثل هذه الرمكة الهزيلة العرجاء ، أن يقول مثل هذا ؟
فضحك جميع من حضّر ، وأقبل أبو تمام في غيظه بسبّه .

ومن شعر الحجّام المذكور قوله :

لا يفخر السيفُ والأقلامُ في يده قد صار قطع سيوفِ الهندِ للقصبِ
فإن يكنْ أصلها لم يتقوْ قوَّتْها « فإنَّ في الحمرِ معنًى ليس في العنبِ »

وقال :

ثقلتُ على الأعداءِ إلّا أنّها خفّتْ على السّبّابِ والإبّهامِ
أخذتُ من الليلِ البهيمِ سوادهُ وبدتْ تنمقُ أوجهَ الأيامِ

وقال ^١ :

نظر الحسودُ فازدري لي هيئةً والفضلُ منّي لا يزال مبينا
قبّحتْ صفاتي من تغيرِ ودّه صدأُ المِرْآةِ يقبّحُ التحسينا

وقال ^٢ :

تصبّرْ وإن أبدى العدوْ مذمةً فمهما رمى ترجعْ إليه سهامهُ
كما يفعل النحلُ الملمُّ بلسعه يريد به ضراً وفيه حمامهُ

وقال :

وبارد الشعرِ لم يؤلم بهِ ولقد أضرَّ منه جميعَ الناسِ واعتزلا
كأنّه الصلُّ لا تؤذيه ريقتهُ حتّى إذا مجّها في غيرهِ قتلا

١ الذخيرة : ٢٦٣ .

٢ المصدر نفسه : ٢٦٣ .

٢١١ - وقال ابن الزقاق ^١ :

دعاك خليل^٢ والأصيل^٣ كأنه
إلى شطّ منساب كأنك ماؤه
ومهوى جناح للصبا^٤ يمسح^٥ الربى
على حين راح البرق^٦ في الجوّ مغمداً
وقد حان مني للرياض التفاتة^٧
على سطح خيري ذكرت^٨ك فأنثى
فصيل^٩ زهرات^{١٠} منه هذا كأنها
عليل^{١١} يقضي^{١٢} مدّة الرّمق^{١٣} الباقي
صفاء ضمير^{١٤} أو عدو^{١٥}بة أخلاق^{١٦}
خفي^{١٧} الخوافي^{١٨} والقوادم^{١٩} خفّاق^{٢٠}
ظباه^{٢١} ودمع^{٢٢} المزن^{٢٣} من جفنه راق^{٢٤}
حبست^{٢٥} بها كأس^{٢٦} قليلاً^{٢٧} عن الساق^{٢٨}
يميل^{٢٩} بأعناق^{٣٠} ويرنو^{٣١} بأحداق^{٣٢}
وقد خضلت^{٣٣} قطراً^{٣٤} محاجر^{٣٥} عشاق^{٣٦}

٢١٢ - ولما مدح الحبيب أبو [محمد] القاسم بن مسعدة ^٢ الأوسي ^٣ أمير المؤمنين عبد المؤمن بقوله :

حنانك مدعو^١اً ولبيك داعياً
طلعت^٢ على أرجائنا بعد فترة^٣
وقد كثرت^٤ منّا سيوف^٥ لدى العلا
وغيرك نادينا زماناً فلم يجب^٦
فكل^٧ بما ترضاه^٨ أصبح^٩ راضياً
وقد بلغت^{١٠} منّا النفوس^{١١} التراقياً
ومن سيفك المنصور^{١٢} نبغي^{١٣} التقاضياً
وعزّمك لم يحتج^{١٤} علاه منادياً

كتب اسمه وزير عبد المؤمن في جملة الشعراء ، فلما وقف على ذلك عبد المؤمن ضرب على اسمه وقال : إنّما يكتب اسم هذا في جملة الحساباء ، لا تدنّسوه بهذه النسبة ، فلسنا ممّن يتقاضى على غمط حسبه ، ثم أجزل صيلته ، وأمر له بضبيعة^١ يحرث^٢ له بها ، يعني بذلك أنّه من ذرية ملوك ، لأن جدّه كان ملك وادي الحجارة .

١ ديوانه : ٢٨٦ (عن النفح) .

٢ ب : مسعدة .

٣ م : الأونيسي ؛ وانظر ترجمته في المغرب ٢ : ٢٦ وسماء في المغرب «أبو محمد القاسم» ولذلك صوبناه في النفح ؛ والمطرب : ٢١٦ وبغية الوعاة : ٣٧٧ ؛ وأبياته هذه في المغرب .

٢١٣ - وقال أبو بكر محمد بن أزرق^١ :

هل عَلِمَ الطائرُ في أَيْكِهِ بأنَّ قَلْبِي لِلْحَمَى طائرُ
ذَكَرَنِي عَهْدَ الصَّبَا شَجْوَهُ وكلُّ صَبٍّ لِلصَّبَا ذَاكِرُ
سَقَى عَهوداً لَهُمُ بِالْحَمَى دَمَعٌ لَهُ ذَكَرَهُمْ نَائِرُ

٢١٤ - وقال أبو جعفر ابن أزرق^٢ :

أَرَاكَ مَلَكْتَ الْخَافِقِينَ مَهَابَةً بِهَا مَا تَلَحُّ الشُّهُبُ بِالْخَفَقَانِ
وَتُغْضِي الْعْيُونَ عَنْ سَنَّاكَ كَأَنَّهَا تَقَابِلُ مِنْكَ الشَّمْسُ فِي اللَّمْعَانِ
وَتَصْفِرُ أَلْوَانُ الْعُدَاةِ كَأَنَّمَا رُمُوا مِنْكَ طَوْلَ الدَّهْرِ بِالْإِرْقَانِ

٢١٥ - وقال أبو القاسم ابن أزرق :

ذَاكَ الزَّمَانُ الَّذِي تَقَضَّى يَا لَيْتَهُ عَادَ مِنْهُ حِينُ
بِكُلِّ عُمْرِي الَّذِي تَبَقَّى وَمَا أَنَا فِي الشَّرِّ غَبِينُ

٢١٦ - وقال راشد بن عريف الكاتب^٣ :

جُمِعَ فِي مَجْلِسٍ نَدَامَى تَحْسَدُنِي فِيهِمُ النُّجُومُ
فَقَالَ لِي مِنْهُمْ نَدِيمٌ : مَا لَكَ إِذْ قَمْتُ لَا تَقُومُ
فَقُلْتُ : إِنْ قَمْتُ كُلَّ حِينٍ فَإِنْ حَظَّتِي بِكُمْ عَظِيمُ
وَلَيْسَ عِنْدِي إِذْنُ نَدَامَى بَلْ عِنْدِي الْمَقْعِدُ الْمَقِيمُ

١ ترجمته وشعره في المغرب ٢ : ٢٨ ويكتب فيه « أزراق » .

٢ ترجمته وشعره في المغرب ٢ : ٢٩ .

٣ ترجمته وشعره في المغرب ٢ : ٣٢ .

٤ المغرب : خليل .

٢١٧ - وقال الحسيب أبو جعفر ابن عائش^١ :

ولي أخٌ أوردُهُ سلسلاً لكنّه يوردني مالها
ألقاه كي أبسطه ضاحكاً ويلتقيني أبداً كالها
وليس ينفكّ عنائي به ما رُمْتُ من فاسده صالحا

قال الحجاري : وكتب إلى جدي إبراهيم في يوم صحو بعد مطر :

إذا رأيتَ الجوّ يَصْحو فلا تصحُ ، سقاك الله ، من سكرِ
تعالَ فانظرْ لدموعِ الندى ما فعلتَ في ميسمِ الزهرِ
ولا تقلْ إنك في شاغلٍ فليس هذا آخرَ الدهرِ
يُخَلِّفُ ما فات سوى ساعةٍ تقصُ فيها لذةَ الحمرِ

فأجابه :

لبّيك لبّيك ولو أتني أسعى على الرأس إلى مصرِ
فكيفَ والدار جوارِي وما عندي من شغلٍ ولا عذرِ
ولو غدا لي ألفُ شُغلٍ بلا عذرٍ تركتُ الكلَّ للحشرِ
وكلّما أبصرني ناظرٌ ببابكم عَظَمَ من قدرِي
أنا الذي يشربها دائماً ما حضرتُ في الصّحو والقطرِ
وليس نَقْلِي أبداً بعدها إلا الذي تعهد من شكري

قال الحجاري : ولم يقصّر جدي في جوابه ، ولكن ابن عائش أشعر منه في
ابتدائه ، ولو لم يكن له إلا قوله « تعال فانظر - إلخ » لكفاه ، قال : وفيه يقول
جدي إبراهيم يملحه :

١ هو أحمد بن عائش أحد أعيان وادي الحجرة ، وكان في زمان المأمون بن ذي النون ملك طليطلة
(المغرب ٢ : ٢٧) .

ولو كان ثانٍ في الندى لابن عائشٍ
 يَهْشُ إلى الأمداح كالغصنِ للصَّبَا
 لما كان في شرقٍ وغربٍ أخو فقيرٍ
 وبشرٌ يحياه ينوبُ عن الزهرِ
 فياربِّ زدْ في عمره إنَّ عمره
 حياةُ أناسٍ قد كفوا كلفة الدهرِ

وقتلَه ابن مسعدة ملك وادي الحجارة الثائر بها ، ولما قدَّمه ليقتله قال : ارفق
 عليّ حتّى أخاصم عن نفسي ، فقال : على لسانك قتلناك ، فقال له : لا رَفَقَ الله
 عليك يوم تحتاج إلى رِفَقِهِ ! فقال بجبروته : مارهبنا السيوف الحداد . نرهب
 دعاء الحَسَاد !

٢١٨ - وقال أبو [علي] الحسن [بن] علي بن شعيب ^١ :

انزعني الوَشْيَ فهو يسترُ حُسْنًا لم تحزه برقمهنَّ الثيابُ
 ودعيني عسى أقبلُ ^٢ ثغراً لَدَِّ فيه اللَّمَى وطاب الرُّضابُ
 وعجيبٌ أن تهجريني ظلماً وشفيعي إلى صِباك الشبابُ

٢١٩ - وقال أخوه أبو حامد الحسين حين كبا به فرسه فحصل في أسر

العدو ^٣ :

وكنْتُ أَعِدُّ طِرْفِي للرزايا يَخْلَصُنِي إذا جعلتُ تَحُومُ
 فأصبح للعدا عوناً لأنَّني أطلتُ عناه فأنا الظلومُ
 وكم دامت مَسْرَاتِي عليه وهل شيءٌ على الدنيا يدومُ ؟

٢٢٠ - وقال أبو الحسن علي بن رجاء صاحب دار السكة والأحباس

بقرطبة :

١ المغرب ٢ : ٢٧ .

٢ المغرب : أتركيني حتّى أقبل .

٣ المغرب ٢ : ٢٨ .

يا سائلي عن حالي إنتي لا أشتكي حالي لمن يضعفُ
معَ أنني أحذرُ من نقده لا سيما إن كان لا يُنصِفُ
وأُشدُّ له الحميلي في « الجذوة »^١ :

قل لمن نال عِرْضَ من لم ينله حَسْبُنَا ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ
لم يزدني شيئاً سوى حسناتٍ لا ولا نَفْسَهُ سوى آثامِ
كان ذا مَنَعَةٍ فَثَقُلَ مِيزَا في بهذا فصار من خُدَّامي
٢٢١ - وقال أبو محمد القاسم بن الفتح^٢ :

أَيَّامُ عَمْرِكَ تَذْهَبُ وَجَمِيعُ سَعِيكَ يُكْتَنَبُ
ثمَّ الشَّهِيدُ عَلَيْكَ مِنْكَ كَ فَأَيْنَ أَيْنَ الْمَهْرَبُ ؟

٢٢٢ - وقال أبو مروان عبد الملك بن غصن^٣ :

فديتك لا تخفُ مِنِّي سُلُوءًا إِذَا مَا غَيَّرَ الشَّعْرُ الصَّغَارَا
أَهِيمُ بَدَنٍ خَمِرٍ صَارَ خَلَاءً وَأَهْوَى لِحْيَةٍ كَانَتْ عِذَارَا
وقال^٤ :

قد ألحف الغيمُ بانسكابه والتحف الجوّ في سَحَابِهِ
وقام داعي السرورِ يدعو حيَّ على الدنِّ وانتهابه
وتاه فيه النديمُ ممّا يزدحمُ الناسُ عندَ بابه

وكان أحد الأعلام في الآداب والتاريخ والتأليف .

١ الجذوة : ٢٩٥ .

٢ م : أبو القاسم محمد بن الفتح .

٣ الذخيرة (٣ : ١١٣ ، ١١٥) والمغرب ٢ : ٣٣ .

٤ الذخيرة : ١١٤ .

ونقم عليه المأمون بن ذي النون بسبب صحبته لرئيس بلده ابن عبيدة ،
وبلغه أنه يقع فيه ، فنكبه أشرّ نكبة ، وحبسه ، فكتب إليه من السجن :

فديتكَ هل لي منك رُحْمى لعلّي أفارق قبراً في الحياة فَأُنْشَرُ
وليس عقابُ المذنبين بمنكرٍ ولكن دَوامُ السخطِ والعتبِ يُنْكَرُ
ومن عَجَبٍ قولُ العُدَاةِ مثقلٌ ومثلي في إلحاحه الدهرَ يُعْذَرُ

وألّف للمأمون رسالة « السجن والمسجون والحزن والمحزون » ورسالة
أخرى سماها بـ « العشر كلمات » ، وقال ^١ :

يا فتيةً خيرةً فدَتَهُمْ من حادّثات الزمانِ نفسي
شربهمُ الخمرَ في بُكورٍ ونطقهم عندها بهَمْسٍ
أما ترون الشتاء يُلقِي في الأرضِ بُسطاً من الدمقسِ
مقطّبٌ عابسٌ يُنادي يومُ سرورٍ ويومُ أنسٍ

وقال عنه الحميدي في الجذوة ^٢ : إنّه شاعرٌ أديب ، دخلَ المشرق .
وتأدب ، وحجّ ، ورجع ، وشعره كثير . وله أبيات كتبها في طريق الحج إلى
أحد القضاة :

يا قاضياً عدلاً كأنّ إمامه مَلَكٌ يُريه واضحَ المنهاجِ
طاقت بعبدك في بلادك علّةٌ قعدت به عن مقصِدِ الحجاجِ
واعتلّ في البحر الأجاجِ فكُنْ لهُ بجرّاً من المعروفِ غيرَ أجاجِ

٢٢٣ - وقال الزاهد الورع المحدث أبو محمد إسماعيل ابن الديواني :

١ الذخيرة : ١١٥ .

٢ الجذوة : ٣٧٨ وهناك الأبيات أيضاً .

ألا أيها العائب^١ المعتدي ومن لم يزل مؤذياً ازدد
مساعدك يكتبها الكاتبون فبيّض كتابك أو سود

٢٢٤ - وقال ابنه أبو بكر محمد :

خاصم عدوك باللسان وإن قدرت فبالسنان
إنّ العداوة ليس يَصْ ليحها الخضوع مدى الزمان

٢٢٥ - وقال إبراهيم الحجاري جدّ صاحب « المسهب »^٢ :

لئن كرهوا يومَ الوداع فإنتي أهيّمُ به وجداً من أجلِ عناقه
أصافحُ من أهواه غيرَ مساترٍ وسرُّ التلاقي مُودّعٌ في فراقه

وقال :

كن كما شئت إنني لا أحولُ غير مصغٍ لما يقولُ العذولُ
لك والله في القوادِ محلُّ ما إليه مدَى الزمانِ وُصولُ
ومُرادي بأن تزورَ خفيّاً ليت شعري متى يكونُ السبيلُ

وقال :

قد توالى في حالتينا الظنونُ فلنصدق ما كذبتهُ العيونُ
ومرادي بأن تلوحَ بأفقي بدّرَ تيمّ وذاك ما لا يكونُ
أنا قد قلتُ ما دعاني إليه كثرة اليأس ، والحديث شجونُ
وإذا شئتَ أن تُسَفِّهَ رأيي فمحلّي من الرقيب مَصُونُ
وبه ما تشاء من كلّ معنى كلُّ من لم يجبْ لهُ مجنونُ

١ م : الظالم .

٢ المغرب ٢ : ٣٣ - ٣٤ وفيه البيتان .

وإلى كم تفضل ليل الأمانى ومن اليأس لاح صبح مبین

وقال :

سألتُهُ عن أبيهِ فقال خالي فلانُ
فانظر عَجَائِبَ ما قد أتت به الأزمانُ
دهرٌ عَجِيبٌ لديه عن المعالي حِرَّانُ^١
فما له غيرُ ذمٍّ كما تدينُ تُدانُ

٢٢٦ - وقال الكاتب العالم أبو محمد ابن خيرة الإشبيلي^٢ صاحب كتاب
«الريحان والريهان» يمدح السيد أبا حفص ملك إشبيلية ابن أمير المؤمنين عبد
المؤمن بن علي من قصيدة :

كأنما الأفق صَرَحَ والنجومُ بهِ
كواكبٌ وظلامُ الليل حاجبهُ
وللهلالِ اعتراضٌ في مطالعه
كأنه أسودٌ قد شابَ حاجبهُ
وأقبل الصبحُ فاستحيتُ مشارقهُ
وأدبر الليلُ فاستخفتُ كواكبهُ
كالسيد الماجدِ الأعلى الهمام أبي
حفصٍ لرحلته ضُمَّتْ مضاربهُ

وأنشد له ابن الإمام في «سمط الجمان» :

رَعِيًا لِمَنزِلِهِ الخصبِ وظلّه
وسقى الثرى النجديَّ سحَّ رَبَّابِهِ
واهاً على ساداته لا أدَّعي
كلفاً بزِينته ولا برَبَّابِهِ

ويعرف^٣ رحمه الله تعالى بابن الموايعي .

١ هذا البيت والذي يليه سقطا من م .

٢ ترجمته في المغرب ١ : ٢٤٢ والتكملة : ٥١٥ ومن كتابه «الريحان والريهان» جزء موجود
بمكتبة الفاتح باستانبول (رقم : ٣٩٠٩) .

٣ قوله : ويعرف . . . وكفا : سقط هذا كله من م .

٢٢٧ - وقال ابنه أبو جعفر أحمد :

يا أخي هاتها وحبَّبْ سناها عن مُثِيرِ بها جنونا وسخفا
هذه الشمسُ إن بدت لضعيفِ الـ عین زادت في ذلك الضعيفِ ضعفاً
إنما يشربُ المدامةَ مَنْ إن خَشِنَتْ كَفَّهُ جَفَّاهَا وكَفَّاهَا

٢٢٨ - وكتب الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حبيب الملقب بحبيب إلى أبيه^١ : لما خلق الربيع من أخلاقك الغرَّ ، وسَرَقَ زَهْرُهُ من شيمك الزُّهر ، حَسُنَ في كل عين منظره ، وطاب في كل سمعِ خبره^٢ ، وتاقت النفوسُ إلى الراحة فيه ، ومالت إلى الإشراف على بعض ما يَحْتَوِيهِ ، من النور الذي بَسِطَ على الأرض^٣ حُللاً^٤ ، لا ترى في أثنائها خُللاً ، سُلُوكُ نُثْرَتِ على الثرى ، وقد ملئت مسكاً وعنبراً ، إن تنسمتها فأرجة^٥ ، أو توسمتها فبهجة :

فالأرض في بزة من يانع الزَّهرِ تَزْري إذا قستها بالوشي والخبرِ
قد أحكمتها أكفُ الزنِّ واكفَّةً وطرزتها بما تهمني من الدرِ
تَبَرَّجَتْ فسبَّتْ منّا العيونَ هوىً وفتنةً بعد طول السرِّ والحقيرِ

فأوجد لي سبيلاً إلى إعمال بصري^٥ فيها ، لأجلو بصيرتي بمحاسن نواحيها ، والفصل على أن يكمل أوانه ، ويتصرَّم وقته وزمانه ، فلا تُخْليني من بعض التشفي منه ، لأصدر نفسي متيقظة عنه ، فالنفوسُ تصدأ كما يصدأ الحديد ، ومن سعى في جلائها^٦ فهو الرشيد السديد .

١ الذخيرة (٢ : ٤٨) وكتاب البديع : ٢٨ .

٢ ب : مخبره .

٣ البديع : كسا الأرض .

٤ ومالت . . . حلا : سقطت العبارة من م .

٥ ب : نظري .

٦ البديع : ومن أجمها .

ومن شعره يصف وَرْدًا بعث به إلى أبيه^١ :

يا من تأزَّرَ بالمكارم وارتدى بالمجد والفضل الرفيع الفائق
انظر إلى خدَّ الربيعِ مركباً في وجهِ هذا المهرَّجانِ الرائقِ
وَرَدٌ تقدَّم إذ تأخَّرَ واغتدى في الحسنِ والإحسانِ أولَ سابقِ
وافاك مشتملاً بثوبِ حياته خجلاً لأنَّ حيَّاك آخرَ لاحقِ

وله^٢ :

أتى الباقلاء الباقلُ اللونِ لابساً بُرود سماء من سحائبها غُدي
ترى نوره يلتاحُ في ورقاته كبُلُوقِ جِيادٍ في جِلالِ زمردِ

وقال^٣ :

إذا ما أدرت كؤوس الهوى ففي شربها لستُ بالمؤتلي
مُدَّامٌ تُعَتَّقُ بالنَّاظرين وتلك تعتقُ بالأرجُلِ

وكان وهو ابن سبع عشرة سنة يَنظُم النظم الفائق ، وينثر النثر الرائق ، وأبو جعفر ابن الأَبَّار هو الذي صَقَلَ مِرْآةَ ، وأقام قَنَاتَه ، وأطلعه شهاباً ثاقباً ، وسلك به إلى فُنُون الآداب طريقاً لاجِباً ، وله كتاب سماه بـ « البديع في فصل الربيع » جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة ، أعرب فيه عن أدب غزير ، وحظَّ من الحفظِ مَوْفُور ، وتوفي وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، واستوزره داهيةُ الفتنة ، ورَحَى المحنة ، قاضي إشبيلية عَبَّادُ جدُّ المعتمد ، ولم يزل يُصْغِي إلى مقالهِ ، ويرضى بفعله ، وهو ما جاوز العشرين إذ ذاك ،

١ الذخيرة : ٥٠ والبديع : ١٢٨ .

٢ م : وله في نور الباقلاء ؛ والشعر في كتاب البديع : ١٥٥ .

٣ الذخيرة : ٥٢ .

وأكثر نظمه ونثره في الأزاهر ، وذلك يدل على رقّة نفسه ، رحمه الله تعالى .

٢٢٩ - وقال الوزير الكاتب أبو الحسن علي بن حصن وزير المعتضد بن

عباد^١ :

عليّ أن أتدلّل له وأن يتدلّل
خدّ كأنّ الثريا عليه قرطٌ مسلسلٌ

وقال :

طلّ على خدّه العذارُ فافتضح الآسُ والبهارُ
وابيضّ هذا واسودّ هذا فاجتمع الليلُ والنهارُ

٢٣٠ - وقال الوزير أبو الوليد ابن طريف في المعتمد بعد خلعه :

يا آل عباد ألا عطفةٌ فالدهرُ من بعدكم مظلّمٌ
من الذي يُرجى لنيلِ العلا ومن إليه يقدّمُ المعدم
ما أنكرَ الدهر سوى أنّه بجودكم في فعله يرغم

وله :

مَنْ حَلِقَتْ لَحْيَهُ جَارٍ لَهُ فَلْيَسْكَبِ الْمَاءَ عَلَى لَحْيَتِهِ

٢٣١ - وقد أجريننا في هذا الكتاب ذكر جملة من أخبار المعتمد بن عباد

ونظمه في أماكن متعددة فلتراجع ؛ ومن نظمه^٢ :

ثلاثةٌ منَعَتْهَا عن زيارتنا خوف الرقيب وخوف الحاسدِ الحقّ

١ النخيرة ٢ : ٦٣ ، ٦٦ .

٢ م : ومن نظم المعتمد ؛ والشعر في ديوانه : ٢٢ وفي الشريفي ١ : ٢٢٥ .

ضَوْءُ الْجَيْنِ، وَوَسْوَاسُ الْحَلِيِّ، وَمَا
هَبِ الْجَيْنَ بِفَضْلِ الْكَمِّ تَسْتَرَهُ وَالْحَلِيَّ تَنْزِعُهُ، مَا حِيلَةُ الْعَرَقِ؟
تَحْوِي مَعَاطِفُهَا مِنْ عَنَبٍ عَبَقِ

وقال ١ :

يَوْمَ يَقُولُ الرَّسُولُ قَدْ أَذْنَتْ فَأَتِ عَلَى غَيْرِ رَقَبَةٍ وَلِجِ
أَقْبَلْتُ أَهْوِي إِلَى رَحْلِهِمْ أَهْدَى إِلَيْهَا بِرِيحِهَا الْأَرَجِ

قالوا : وَيُسْتَدَلُّ عَلَى الْمُلُوكِيَّةِ بِالطَّيْبِ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَكُونُ النَّاسُ فِيهَا غَيْرَ
مَعْرُوفِينَ كَالْحِمَامِ وَمَعَارِكِ الْحَرْبِ وَمَوَاسِمِ الْحَجِّ .

رجع إلى ما كنّا فيه ٢ :

٢٣٢ - وقال أبو العباس أحمد الخزرجي ٣ القرطبي :

وَفِي الْوَجَنَاتِ مَا فِي الرُّوضِ لَكِنْ لِرَوْنَقِ زَهْرِهَا مَعْنَى عَجِيبُ
وَأَعْجَبُ مَا التَّعَجُّبُ مِنْهُ أَتَى أَرَى الْبِسْتَانَ يَحْمِلُهُ قَضِيبُ

٢٣٣ - وقال الوزير أبو [أيوب] سليمان بن أبي أمية ٤ يخاطب رئيساً
قد بلغه عن بعض أصحابه كلام فيه غَضٌّ مِنْهُ :

هَوْنٌ عَلَيْكَ كَلَامُهُ وَاسْمَحْ لَهُ فِيمَنْ سَمَحَ
مَاذَا يَسُوءُكَ إِنْ هَجَا مَاذَا يَسْرُكَ إِنْ مَدَحَ
أَوْ مَا عَلِمْتَ بَلَى جَهْلًا تَ بَأَنَّهُ غِلٌّ طَفَحَ
وَخَفِيٌّ حَقْدٌ كَامِنٌ دَأَبُوا لَهُ حَتَّى اتَّضَحَ

١ ديوان المتمدن : ١١٩ .

٢ رجع . . . فيه : سقطت من م .

٣ الخزرجي : سقطت من ب .

٤ ترجمته في المغرب ١ : ٢٤٣ والمطبع : ٢٨ والمسالك ١١ : ٤٢٤ .

هذا بمُسْتَنّْ الوقا ر فكيفَ لو دار القدح
فاشْكُرْ عوارفَ ذي الجلا ل بما وقى وبما منح

٢٣٤ - وقال أبو علي عمر بن أبي خالد يخاطب أبا الحسن علي بن الفضل :

أبا حسن وما قدُمْتَ عهدٌ لنا بينَ النارة والجزيرة
أتذكر أنسنا والليلُ داجٍ بخمرٍ في زجاجتها منيرة
إذا الملاحُ ضلَّ رنا إليها فأبصرَ في مناحيه مسيره

٢٣٥ - وقال الكاتب عبد الله المهيريس^١ ، وكان حلو النادرة ، لما شرب
عند الوزير أبي العلاء ابن جامع وقد نظر إلى فاخنة فأعجبه حسننها ولحنها :

ألا خذها إليك أبا العلاء حلّى الأمداح ترفل في الثناء
وهبها قينةً تُجلى عروساً خضيبَ الكفّ قانية الرداء
لأجعلها محلّ جليس أنسي وأغنى بالهديل عن الغناء

وحكي أنه ناوله ليمونة وأمره بالقول فيها فقال :

أهدى إليّ بروضة ليمونة وأشار بالتشبيه فعل السيد
فصمتُ حيناً ثم قلت : كجلجلٍ من فضة تعلوه صفرة عسجدٍ

٢٣٦ - وقال الكاتب أبو بكر ابن البناء يرثي أحد بني عبد المؤمن ، وقد
عُزل من بِلتنسية وولي إشبيلية فمات بها^٢ :

كأنك من جنس الكواكب كنتَ لم تفارق طلوها حالها وتواريا

١ سماء في المغرب « عبد الله بن عمر الإشبيلي المهيريس وكنيته أبو محمد » (١ : ٢٤٨) وفي القدح :
أبو عبد الله محمد عمر المعروف بالمهيدر (١٩٨) وشعره في المصدرين .

٢ القدح : ١١٩ والمغرب ١ : ٢٤٩ .

تَجَلَّيْتَ مِنْ شَرْقٍ تَرُوقُ تَلَالُؤًا فَلَمَّا انْتَحَيْتَ الْغَرْبَ أَصْبَحْتَ هَاوِيَا

٢٣٧ - وكان محمد بن مروان بن زُهْر - كما في المغرب والمسهب والمطرب ، وقد قدمنا بعض أخباره - منشأ الدولة العبادية وأول من تُشْنَى عليه الخناصر ، وتستحسنه البواصر ، فضافت الدولة العبادية عن مكانه ، وأُخرج عن بلده ، فاستُصفيت أمواله ، فلحق بشرق الأندلس ، وأقام فيه بقية عمره ، ونشأ ابنه^١ الوزير أبو مروان عبد الملك بن محمد ، فما بلغ أشدّه ، حتى سَدَّ مَسَدّه ، ومال إلى التفنن في أنواع التعاليم من الطب وغيره ، ورحل إلى المشرق لأداء الفرض ، فملاً البلاد جلاله ، ونشأ ابنه أبو العلاء زُهْر بن عبد الملك ، فاخترع فضلاً لم يكن في الحساب ، وشرع نُبلاً قصرت عنه نتائج أولي الألباب ، ونشأ بشرق الأندلس والآفاق تتهاذى عجائبه ، والشام والعراق تتدارس بدائعهم وغرائبهم ، ومال إلى علم الأبدان فلولا جلاله قدره ، لقلنا جاذب هاروت طرقات من سحره ، ولولا أن الغلو آفة المديح ، لتجاوزتُ طلق الجموح ، ولكنتي اكتفيت بالكناية عن التصريح^٢ ، ولم يزل مقيماً بشرق الأندلس إلى أن كان من غزاة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ومن انضم إليه من ملوك الطوائف ما عُلِم ، وشخص أبو العلاء معهم ، فلقبه المعتمد بن عباد ، واستماله واستهواه ، وكاد يغلب على هواه ، وصرف عليه أملاكه فحنَّ إلى وطنه ، حنين النيب إلى عطنه ، والكريم إلى سكنه ، ونزع إلى مقر سَلَفه ، نزوع الكوكب إلى بيت شرفه ، إلا أنه لم يستقر بإشبيلية إلا بعد خلع المعتمد ، وحل عند يوسف بن تاشفين محلاً لم يحلّه الماء من العطشان ، ولا الروح من جسد الجبان ، ولما كتب إليه حسام الدولة ابن رَزِين ملك السهلة بقوله :

عَادِ اللَّيْمَ فَأَنْتَ مِنْ أَعْدَائِهِ وَدَعِ الْحَسُودَ بَغْلَهُ وَبَدَائِهِ

١ راجع الذخيرة (٢ : ٩١) وشعره مثبت هناك .

٢ أثبتنا هنا نص الذخيرة .

لا كان إلا من غَدَتْ أعداؤهُ مشغولةً أفواههم بجفائه
أبا العلاء لئن حُسِدَتْ لطلما حُسِدَ الكريمُ بجوده ووفائه
فَخَرَّ العلاءُ فكنَتَ من آبائه وزها السناءُ فكنَتَ من أبنائه
كن كيف شئتَ مشاهداً أو غائباً لا كان قلبٌ لستَ في سَوْدائه

أجابه بقوله :

يا صارماً حَسَمَ العدا بمضائه وتَعَبَّدَ الأحرارَ حُسْنُ وفائه
ما أثيرَ العُضْبُ الحسامُ بذاته إلا بأن سُمِّيتَ من أسمائه
وكلَّفه الحسامُ المذكور القولَ في غلام قائم على رأسه ، وقد عذَّر ،
فقال ^١ :

مُحِيَّتْ آيةُ النهار فأضحى بَدَرَ تَمَّ وكان شمسَ نهارٍ
كان يُعْشِي العيونَ ناراً إلى أن أشغل الله خدَّه بالعِذارِ
وقال :

عِذارُ أَلَمَ فأبْدَى لَنَا بدائعَ كُنَّا لها في عَمَى
ولو لم يحنَّ النهارَ الظلا مٌ لم يَسْتَبِينَ كوكبٌ في السما
وقال :

يا راشقي بسهامٍ ما لها غرضُ إلا الفؤاد وما منهُ له عوضُ
ومُمرِّضي بجفونٍ لحظها غَنَجٌ صَحَّتْ وفي طبعها التمريضُ والمرضُ
أمنٌ ولو بخيالٍ منك يؤنسني فقد يسدُّ مسدَّ الجواهرِ العَرَضُ
وهذا معنى في غاية الحسن .

وكان بينه وبين الإمام أبي بكر ابن باجة - بسبب المشاركة - ما يكون

١ مرت القطعة والتي تليها ص : ٢٤٧ .

بين النار والماء ، والأرض والسماء ، ولما قال فيه ابن باجة :

يا مَلِكَ الموتِ وابنَ زهرٍ جاوزتما الحدَّ والنهائِةَ
ترفقا بالورى قليلاً في واحد منكما الكفايةَ

قال أبو العلاء :

لا بد للزنديق أن يُصلِّباً شاء الذي يعضدُه أو أبى
قد مهد الجذعُ له نفسهُ وسدَّدَ الرمحُ إليه الشبّا

والذي يعضده مالك بن وهيب جليس أمير المسلمين وعالمه .

٢٣٨ - وأمّا حفيده أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر فهو وزير
إشبيلية وعظيمها وطبيبها وكريمها ، ومن شعره :

رَمَتْ كبدي أختُ السماء فأقصدتُ ألا بأبي رامٍ يصيبُ ولا يخطي
قريبةُ ما بين الخلاخيل إن مَشَتْ بعيدةُ ما بين القلادة والقرطِ
نعمتُ بها حتى أتيتُ لنا النوى كذا شيمُ الأيام تأخذُ ما تعطي

وتوفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وأمر أن يُكتب على قبره :

تأملْ بفضلِكَ يا واقفاً ولاحظْ مكاناً دُفَعنا إليه
ترابُ الضريح على صفحتي كأنِّي لم أَمْش يوماً عليه
أداوي الأنامَ حِذارَ المنون فها أنا قد صرتُ رهناً لديه

رحمه الله تعالى ، وعفا عنه .

وفي هذه الأبيات إشارة إلى طبه ومعالجته للناس ، رحمه الله تعالى ، وقد
ذكرنا بعض أخباره في غير هذا الموضع .

٢٣٩ - وقال أبو الوليد ابن حزم^١ :

مَرَّكَ مَرَّكَ لَا شَمْسُ وَلَا قَمَرُ وَوَرَدُ خَدَيْكَ لَا وَرَدُ وَلَا زَهَرُ
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ قَلْبُ أَنْتَ سَاكِنُهُ إِنْ بِنْتَ بَانَ فَلَا عَيْنُ وَلَا أَثَرُ

وقال^٢ :

لِلَّهِ أَيَّامٌ عَلَى وَادِي الْقَرْيِ سَلَفَتْ لَنَا وَالدهِرُ ذُو أَلْوَانِ
إِذْ نَجَسْتَنِي فِي ظِلِّهِ ثَمَرَ الْمَنَى وَالطَّيْرُ سَاجِعَةٌ عَلَى الْأَغْصَانِ
وَالشَّمْسُ تَنْظُرُ مِنْ حَاجِرٍ أَرْمَدٍ وَالطَّلُّ يَرْكُضُ فِي النِّسِيمِ الْوَآئِي
فَلَسَّمْتُ فَاهُ وَالتَّرْمْتُ عُنَاقَهُ وَيَدُ الْوَصَالِ عَلَى قَفَا الْمَجْرَانِ

٢٤٠ - وقال ابن عبد ربه^٣ :

يَا قَابِضَ الْكَفِّ لَا زَالَتْ مَقْبِضَةٌ فَمَا أَنَامِلُهَا لِلنَّاسِ أَرْزَاقُ
وَعَبَّ إِذَا شِئْتَ حَتَّى لَا تُرَى أَبَدًا فَمَا لِفَقْدِكَ فِي الْأَحْشَاءِ إِقْلَاقُ

وقال في المدح :

وَمَا خُلِقْتَ كَفَّاكَ إِلَّا لِأَرْبَعٍ عَقَائِلَ لَمْ تُخْلَقْ لَهُنَّ يَدَانِ
لِتَقْبِيلِ أَفْوَاهٍ ، وَإِعْطَاءِ نَائِلِ وَتَقْلِيلِ هِنْدِيٍّ ، وَحَبْسِ عَنَانِ

٢٤١ - وقال الكاتب أبو عبد الله ابن مصادق^٤ الرندي الأصل :

صَارَمَتُهُ إِذْ رَأَتْ عَارِضَهُ عَادَ مِنْ بَعْدِ الشَّبَابِ أَشْيَا

١ ترجمته في المغرب ١ : ٢٣٩ والذخيرة ٢ : ٢٣١ والمسالك ١١ : ٤٣٤ .
٢ الذخيرة (٢ : ٢٣٨) .
٣ هاتان المقطوعتان في الشريشي ١ : ١٨٤ .
٤ دوزي : مصادف .

قلتُ ما ضرَّكَ شيبٌ فلقد بقيتُ فيه فُكاهات الصِّبَا
هو كالعنبرِ غَالٍ نفحُه وشذاه أخضرًا أو أشهبَا

وقال :

ووردة وردت في غير موقتها والسُّحْبُ قد هملت أجفانها هطلا
وإنما الروضُ لما لم يُفدْ ثمرًا يقرِّبُكهُ انفتحتُ في خده خجلا

وله :

لم أحفل لقلوم العيدِ من زمنِ قد كان يهيجني إذ كنت في وِطني
لم ألقَ أهلي ولا إلفي^١ ولا ولدي فليت شعري سرُّوري واقعٌ بمنِ

وقال :

يقول لي العاذلُ تُبُّ عن هوى من ليس يُدُنِيكَ إلى مطلبِ
وكيف لي والدينُ دين الهوى فلا أرى أرجح من مذهبي
أليس بابُ التَّوْبِ قد سده طلوعه شمساً من المغربِ^٢

وله :

امنعْ كرائمك الخروجَ ولا تُظهرْ لذلك وجهَ منبسطِ
لا تعتبرْ منهن مسخطةً نيلُ الرضى في ذلك السخطِ
أو لسنْ مثل الدرِّ في شبه^٣ والدرُّ من صدَفٍ إلى سَفَطِ

١ ب : إلفي ولا أهلي .

٢ هو كقول الصقلي :

أيأسني التوبة من حبه طلوعه شمساً من المغرب

٣ م : سَفَط .

٢٤٢ - وقال المعتمد بن عباد^١ :

تمَّ له الحسنُ بالعدارِ واختلط الليلُ بالنهارِ
أخضرٌ في أبيضٍ تبدَّى فذاك آسي وذا بهاري
فقد حوى مجلسي تماماً إن يكُ من ريقه عُقاري

٢٤٣ - وقال ابن فرج الحبياني رحمه الله تعالى^٢ :

وطائفة الوصال صددت عنها وما الشيطانُ فيها بالمطاعِ
بدتْ في الليل سافرةً فباتت دياجي الليل سافرةً القناعِ
وما من لحظةٍ إلا وفيها إلى فتنِ القلوبِ لها دَواعي
فملكتُ الهوى جمحاتِ أمري لأجري في العفافِ على طباعي
كذلك الروضُ ما فيه لمثلي سوى نظيرٍ وشَمٍّ من متاعِ
ولستُ من السوائِمِ مهملاتٍ فأخذَ الرياضَ من المراعي
وقال^٣ :

بأيهما أنا في الشكرِ بادي بشكر الطيفِ أم شكرُ الرقادِ
سَرَى فازداد لي أُملي ولكن عَقَفْتُ فلم أُنَلِّ منه مُرادي
وما في النومِ من حَرَجٍ ولكن جريتُ مع العفافِ على اعتيادي

٢٤٤ - وقال الرصافي^٤ :

وعَشِيَّ أنسٍ للسرور وقد بدا من دون قُرْصِ الشمسِ ما يُتَوَقَّعُ

١ ديوان المعتمد : ١٧ .

٢ مرت هذه الأبيات ص : ١٩٦ وانظر الشريشي ١ : ٢١١ والجزوة : ٩٧ .

٣ انظر الجزوة : ٩٧ والمطوح : ٨٠ واليتيمة ٢ : ١٧ والشريشي ١ : ٢١١ .

٤ ب : بطيب .

٥ ديوان الرصافي : ١٠٥ .

سقطت فلم يملك نديمك^١ رَدَّها فوددتُ يا موسى لَوَأَنَّكَ يُوشَعَ

٢٤٥ - وقال ابن عبد ربه^٢ :

يِرَاعَةُ غُرَّتِي مِنْهَا وَمِيضُ سَنَاءٍ حَتَّى مَدَدْتُ إِلَيْهَا الْكَفَّ مَقْتَبَسَا
فَصَادَفْتُ حَجَرًا لَوْ كُنْتُ تَضْرِبُهُ مِنْ لُؤْمِهِ بَعْصَا مُوسَى لَمَا انْبَجَسَا
كَأَنَّمَا صَبِغَ مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَذِبٍ فَكَانَ ذَاكَ لَهُ رُوحًا وَذَا نَفْسًا

٢٤٦ - وقال ابنُ صَارَةَ فِي فِرْوَةِ^٣ :

أَوْدْتُ بِذَاتِ يَدَيِ فُرْيَةٍ أُرْنَبٍ كَفَوَادِ عُرْوَةٍ فِي الضَّئِيِّ وَالرَّقَّةِ
يَتَجَشَّمُ الْفَرَاءُ مِنْ تَرْقِيْعِهَا بَعْدَ الْمَشَقَّةِ فِي قَرِيبِ الشَّقَّةِ
لَوْ أَنَّ مَا أَنْفَقْتُ فِي تَرْقِيْعِهَا يُحْصَى لَزَادَ عَلَى رِمَالِ الرَّقَّةِ
إِنْ قُلْتُ بِسْمِ اللَّهِ عِنْدَ لِبَاسِهَا قَرَأْتُ عَلَيَّ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿

٢٤٧ - وقال الغزالي^٤ :

وَالْمَرْءُ يَعْجَبُ مِنْ صَغِيرَةٍ غَيْرِهِ أَيُّ أَمْرٍ إِلَّا فِيهِ مَقَالٌ
لَسْنَا نَرَى مِنْ لَيْسَ فِيهِ غَمِيْزَةٌ أَيُّ الرِّجَالِ الْقَائِلُ الْفَعَالُ هـ

٢٤٨ - وقال أَبُو حَيَّانَ :

لَا تَرْجُوَنَّ دَوَامَ الْخَيْرِ مِنْ أَحَدٍ فَالْشَّرُّ طَبِيعٌ وَفِيهِ الْخَيْرُ بِالْعَرَضِ
وَلَا تَظَنَّ أَمْرًا أَسْدَى إِلَيْكَ نَدَى مِنْ أَجْلِ ذَاتِكَ بَلْ أَسْدَاهُ لِلْغَرَضِ

١ م : نديمي .

٢ العقد ١ : ١٣١ والشريشي ١ : ١٢٧ .

٣ أبيات ابن صارة في أخبار وتراجم : ١٥ والقلائد : ٢٦١ والشريشي ١ : ١٢٥ .

٤ في الأصول ودوزي : الغزالي .

٥ ب : القائل البطال .

٢٤٩ - وقال ابن شهيد^١ :

ولما فشا بالدمع ما بين وجدنا
أمرنا بلمسك الدموع جفوننا
أبى دمعنا يجري مخافة شامت
وراق الهوى منّا عيوناً كريمة^٢
إلى كاشحينا ما القلوب كواتم^٣
ليشجى بما نطوي عدول^٤ ولائم^٥
فنظمه بين المحاجر ناظم^٦
تبسمن حتى ما تروق المباسم^٧

وقال في الانتحال^٨ :

وبلغت أقواماً تجيش صدورهم^٩
أصاخوا إلى قولي فأسمعت معجزاً
فقال فريق : ليس ذا الشعر شعره^{١٠}
فمن شاء فليخبر فإني حاضر^{١١}
عليّ وإني فيهم فارغ الصدر^{١٢}
وغاصوا على سري فأعجزهم أمري^{١٣}
وقال فريق أئمن الله ما ندرى^{١٤}
ولا شيء أجلى للشكوك من الخبر^{١٥}

٢٥٠ - وينظر إلى مثل هذا قصة أبي بكر ابن بقي^{١٦} حين استهدى من
بعض إخوانه أقلاماً فبعث إليه بثلاث من القصص ، وكتب معها :

خذها إليك أبا بكر العلا قصباً^{١٧}
يزهى بها الطرس حسناً ما نثرت بها^{١٨}
كأنما صاغها الصواغ من ورقه^{١٩}
مسك المداد على الكافور من ورقه^{٢٠}
فأجابه أبو بكر :

أرسلت نحوي ثلاثاً من قنأ سلب^{٢١}
فالخط ينكرها والخط يعرفها^{٢٢}
ميادة تطعن القرطاس في درقه^{٢٣}
والرق ينخدمها بالرق في عنقه^{٢٤}

١ الذخيرة ١/١ : ٢٧٦ وديوانه : ١٣٩ والشريشي ١ : ٤٦ .

٢ الذخيرة : ٢٦٢ وديوانه : ٦٨ والشريشي ١ : ٤٦ .

٣ الشريشي ١ : ٤٧ .

٤ ب م : منادة . . . في ورقه .

فحسده عليه بعض من سمعه ، ونسبه إلى الانتحال ، فقال أبو بكر يخاطب صاحبه الأول :

وجاهلٍ نسب الدعوى إلى كلمي لما رماهُ بمثلِ النبلِ في حدِّقه
فقلتُ من حنقٍ لما تعرَّض لي من ذا الذي أخرج اليربوعَ من نفقه
ما ذمَّ شعري وأيمُّ الله لي قسمٌ إلا امرؤُ ليستِ الأشعارُ من طُرِّقه
والشعرُ يشهد أني من كواكبه بل الصباحُ الذي يستنُّ من أفاقه

٢٥١ - وقال ابن شهيد أيضاً في ضيف ١ :

وما انفكَّ معشوقُ الثناء يمدُّه ٢ ببشرٍ وترحيبٍ وبسطِ بَنانٍ
إلى أن تشهَى البينَ من ذاتِ نفسه وحنَّ إلى الأهلين حنَّةَ حاني
فأتبعته ما سدَّ خلَّةَ حاله وأتبعني ذكراً بكلِّ مكانٍ

وقال ٣ :

وبتنا نراعي الليلَ لم يطوِ بُردُهُ ولم يجلُ شيبُ الصبحِ في فَوْدِهِ وخطا
تراه كملك الزنج من فرط كبره إذا رام مشياً في تبختره أبطا
مُطِلاً على الآفاقِ والبدرُ تاجُهُ وقد جعل الجوزاء في أذنيه قُرطاً

٢٥٢ - وقال بعضهم في لباس أهل الأندلس البياض في الحزن ، مع أن أهل المشرق يلبسون فيه السواد ٤ :

ألا يا أهلَ أندلسٍ فطنتُم بلُطُنُكمُ إلى أمرٍ عجيبٍ

١ الذخيرة : ٢٦٧ وديوانه : ١٦٨ .

٢ الديوان : الثواء نمده .

٣ الذخيرة : ٢٣٧ وديوانه : ٨٨ واليتيمة : ٢ : ٤٣ والشريشي : ١ : ٦٣ .

٤ الشريشي : ١ : ٤٩ .

لبستم في ماتمكم بياضاً فجئتم منه في زيّ غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن ولا حزن أشد من المشيب

٢٥٣ - وقال أبو جعفر ابن خاتمة :

هل جسوم يوم النوى ودّعوها باقيات لسوء ما أودعوها
يا حداة القلوب ما العدل هذا أتبعوها أجسامها أو دّعوها

٢٥٤ - وقال القسطلّي يصف هول البحر :

إليك ركبنا الفلك تهوي كأنها وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربان
على لجج خضر إذا هبت الصبا ترامي بها فينا ثبير وثهلان
موائل ترعى في ذراها موائل كما عبدت في الجاهلية أوثان
يقلن وموج البحر والهم والدجى يمج بها فيها عيون وآذان
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان

٢٥٥ - وقال الرمادي يهنيء ابن العطار الفقيه بمولود :

يهنيك ما زادت الأيام في عدّك من فليذة برزت للسعد من كبّدك
كأنما الدهر دهر كان مكتئباً من انفرادك حتى زاد في عددك
لا خلقتك الليالي تحت ظل ردّى حتى ترى ولداً قد شب من ولدك

٢٥٦ - وقال ابن صارة في النار :

هات التي للأيك أصل ولادها ولها جبين الشمس في الأشماس
يتشعّ الياقوت في لبّاتها بوساوس تشفي من الوسواس

١ ديوان ابن دراج : ٨٧ والخيرة ١/١ : ٧٤ .

٢ في الأصول : مقاتل موج .

أنسُ الوحيدِ وصبحُ عينِ المجتلي
حمراء ترفلُ في السوادِ كأنما
ولباسُ مَنْ أُمسى بغيرِ لباس
ضربتُ بعرقٍ في بني العباس
وقال فيها أيضاً^١ :

لابنة الزندِ في الكوانين جمرٌ
خبروني عنها ولا تكذبوني
كالدراري في الليلة^٢ الظلماء
ألديها صناعةُ الكيمياء
سبكتُ فحمها سبائك^٣ تبرٍ
رصعته بالفضة البيضاء
كلما ولول النسيمُ عليها
رقصتُ في غلالة حمراء
سقرتُ عن جبينها فأرتنا
حاجبَ الليلِ طالعاً بالعشاء
لو ترانا من حولها قلتُ قومٌ
يتعاطونَ أكؤسَ الصهباء

٢٥٧ - وقال فيها الفقيه الأديب^٤ ابن لبّال :

فحمٌ ذكا في حشاهُ جمرٌ
أو خدٌ مَنْ قد هويتُ لما
فقلتُ مسكٌ وجلنارُ
أطلّ من فوقه العذارُ

٢٥٨ - وكان أبو المطرف الزهري جالساً في باب داره مع زائر له ،
فخرجتُ عليهما من زقاقٍ ثانٍ جاريةٌ سافرة الوجه كالشمس الطالعة فحين
نظرتهما على غفلة منها نفرت خجلة ، فرأى الزائر ما أبهتته فكلّفه وصفها ،
فقال مرتجلاً :

١ القلائد : ٢٦٦ .

٢ القلائد : كالدراري في دجى .

٣ القلائد : صفائح .

٤ القلائد : سقرت في عشاها .

٥ م : الأديب الفقيه ؛ ولعله أبو الحسن علي بن أحمد بن لبّال الشريفي (- ٥٨٣) وله ترجمة في

التحفة : ٧٤ والذيل والتكملة ٥ : ١٦٩ .

يا ظبيةً نفرت والقلبُ مسكنها
لا تختشي فابنُ عبدِ الحقِّ أنْغَلتنا
خوفاً لَحْتَلِيْ بِلْ عَمْدًا لتعذيبِ
عدلاً يؤلف بينَ الظبي والذيبِ

٢٥٩ - وقال ابن شهيد^١ :

أَصْبَاحٌ لَاحَ أُمٌ بَدْرٌ بَدَا
هَبَّ مِنْ نَعْسِهِ مَنكُسرًا
يَمْسَحُ النعْسةَ مِنْ عَيْنِي رِشا
قَلْتُ هَبْ لِي يَا حَبِيبِي قُبْلَةً
فَانْتَنِي يَهْتَزُّ مِنْ مَنكِبِهِ
كَلَّمَا كَلَّمَنِي قُبْلَتَهُ
قَالَ لِي يَلْعَبُ صِدِّ لِي طَائِرًا
وَإِذَا اسْتَنْجَزْتَ يَوْمًا وَعَدَهُ
شَرِبْتُ أَغْصَانَهُ^٢ خَمَرَ الصَّبَا
رِشًا بِلْ غَادَةٍ مَمْكُورَةٍ^٣
أَحِجْتُ^٤ مِنْ عَضَةٍ فِي نَهْدِهَا
فَأَنَا الْمَجْرُوحُ مِنْ عَضَّتِهَا
أُم سَنَا الْمَحْبُوبُ أَوْرى زَنْدًا
مَسْبِلٌ لِّلْكُمْ مُرْخٌ لِّلرُّدَا
صَائِدٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَسْدًا
تَشْفِي مِنْ هَمِّكَ^٥ تَبْرِيحَ الصَّدَى
قَائِلًا لَا ثُمَّ أَعْطَانِي الْيَدَا
فَهُوَ مَا قَالَ كَلَامًا رَدَّدَا
فَتَرَانِي الدَّهْرُ أَجْرِي بِالْكَدَى
قَالَ لِي يَمْطُلْ ذَكْرُنِي غَدَا
وَسَقَاهُ الْحَسَنُ حَتَّى عَرَبَدَا
عَمَّتْ صَبْحًا بَلِيلٌ أَسودَا
ثُمَّ عَضَّتْ حُرًّا وَجْهِي عَمْدًا
لَا شَفَانِي اللَّهُ مِنْهَا أَبَدَا

٢٦٠ - وقال محمد بن هانيء في الشيب^٥ :

بَيْنْتُمْ فَلَوْلَا أَنْ أَغْبَرَّ لَمْتِي عَبَثًا وَالْقَاكُمَ عَلَيَّ غَضَابَا

١ مرت هذه القصيدة ص : ٣٥٨ .

٢ الرواية المشهورة : من عمك ؛ وتصحف إلى « غمك » .

٣ م : أعطافه ، وهو أجود .

٤ هذه رواية الذخيرة ، وفي م : أحجبت .

٥ ديوان ابن هانيء : ١٩٨ - ١٩٩ والثريشي ١ : ٢١٤ .

لخضبتُ شيئاً في مفارق لمتي^١ ومحوت محو النّفسِ عنه شبابا
وخضبتُ مَبْضِصاً^٢ الحدادِ عليكم^٣ لو أنّي أجد البياض خضابا
وإذا أردتَ على المشيب وفادةً فاجعلْ مطيِّكَ دونه الأحقابا
فلتأخذنَّ من الزمانِ حمامةً^٤ ولتدفعنَّ إلى الزمانِ غرابا

٢٦١ - وكتب ابن عمار إلى ابن رزّين وقد عتب عليه أن اجتاز ببلده ولم

يلقّه^٥ :

لم تثنِ عنك عناني سلوةً^٦ خطرتَ
لكن عدتني عنكم خجلةً خطرتَ
« لو اختصرتم من الإحسان زرتكم^٧
ولا فؤادي ولا سمعي ولا بصري
كفاني العذرُ منها بيتٌ معتذرٍ
والعذب يُهجر للإفراط في الحصرِ »

٢٦٢ - وقال ابن الجدة^٨ :

وإنّي لصبٌّ للتلاقي وإنّما
أذوبُ حياءٍ من زيارةٍ صاحبٍ^٩
يصدُّ ركابي عن معاهدك العسرِ
إذا لم يساعدني على برِّه الوفّرُ

٢٦٣ - وقال ابن عبد ربّه^{١٠} :

يا من عليه حجابٌ من جلالته
ما أنت وحدك مكسوّاً ثيابِ ضني
ألقي عليك يداً للضرّ كاشفةً
وإن بدا لك يوماً غير محجوبٍ
بل كلّنا بك من مضني ومشحوبٍ
كشافُ ضرّ نبيّ الله أيوب

١ الديوان : في عذاري كاذباً .

٢ الديوان : مسود .

٣ الذخيرة (٢ : ١٦٠) والشريشي ١ : ٢٤٣ والبيت المضمن للمعري .

٤ الشريشي ١ : ٢٤٣ .

٥ م : سيد .

٦ أبيات ابن عبد ربّه في الشريشي ١ : ٣٠٥ .

٢٦٤ - وقال النَّحْلِي في مغنية :

ولاعبةِ الوشاحِ كغصنٍ^١ بان لها أثرٌ بتقطيعِ القلوبِ
إذا سَوَتْ طريقَ العُودِ نقرأً وغنّت في حبٍّ أو حبيبِ
فيمناها تقدُّ بها فؤادي ويسراها تعدُّ بها ذنوبي

٢٦٥ - وقال ابن شهيد^٢ :

كلفت^٣ بالحب حتى لو دنا أجلي لما وجدتُ لطمعِ الموتِ من ألمِ
وعاقي^٤ كرمي عمّن ولّيت به ويّلي من الحبّ أو ويّلي من الكرمِ

٢٦٦ - وكان بشرِيش^٥ صوفي^٦ حافظ للشعر ، فلا يعرض في مجلسه معنى
إلاّ وهو ينشد عليه ، فاتفق أن عطس رجل بمجلسه ، فشمتّه الحاضرون ،
فدعا لهم ، فرأى الصوفي أنّه إن شمتّه قطع إنشاده بما لا يشاكله من النظم ،
وإن لم يشمتّه كان تقصيراً في البر ، فرغب حين أصبح من الطلبة نظم هذا المعنى ،
فقال الوزير الحبيب أبو عمرو ابن أبي محمد^٦ :

يا عاطساً يرحمك اللهُ إذ أعلنت بالحمد على عطسك^٥
ادعُ لنا ربّك يغفرَ لنا وأخلصِ النيةَ في دعوتك^٥
وقلْ له يا سيدي رغبتني حضورُ هذا الجمعِ في حضرتك^٥
وأنت يا ربَّ الندى والنوى بارك ربُّ الناس في ليلتك^٥
فإن يكنْ منكم لنا عودةٌ فأنت محمودٌ على عودتك^٥

١ ق ب : بنصن .

٢ ديوان ابن شهيد : ١٤٨ .

٣ الديوان : ألت .

٤ الديوان : وذادني .

٥ الشريشي ١ : ٣٤١ .

٦ الشريشي : ابن محمد .

وهذا الوزير المذكور كان يُصَرِّفُ شعره في أوصاف الغزلان ومخاطبات الإخوان ، وكتب إلى الشريشي - شارح المقامات^١ - يستدعي منه كتاب العقد :

أَيَا مَنْ غَدَا سِلْكَاً بِحَيْدِ مَعَارِفِهِ وَمَنْ لَفَظُهُ زَهْرٌ أُنِيقٌ لِقَاطِفِهِ
مَحَبُّكَ أَضْحَى عَاطِلَ الْجَيْدِ فَلْتَجِدْ بِعِقْدٍ عَلَى لَبَّاتِهِ وَسَوَّالِفِهِ

وَوُعِكَ فِي بَعْضِ الْأَعْيَادِ ، فَعَادَهُ مِنْ أَعْيَانِ الطَّلَبَةِ جَمَلَةٌ ، فَلَمَّا هَمُّوا
بِالْانْصِرَافِ أَنْشَدَهُمْ ارْتِجَالاً :

لِلَّهِ دَرْ أَفَاضِلُ^٢ أَمْجَادِ شَرُفَ النَّدِيِّ بِقَصْدِهِمُ وَالنَّادِي
لَمَّا أَشَارُوا بِالسَّلَامِ وَأَزْمَعُوا أَنْشَدْتَهُمْ وَصَدَقْتُ فِي الْإِنْشَادِ
فِي الْعِيدِ عُدَّتُمْ وَهُوَ يَوْمَ عَرُوبَةٍ يَا فَرِحْتِي بِثَلَاثَةِ الْأَعْيَادِ

قال الشريشي في شرح المقامات : ولقد زرت في مرضه الذي توفي فيه رحمه الله تعالى أنا وثلاثة فتيان من الطلبة ، فسألني عنهم وعن آبائهم ، فلما أرادوا الانصراف ناول أحدهم محبرة ، وقال له : اكتب ، وأملئ عليه ارتجالاً :

ثَلَاثَةُ فَتَيَانٍ يُولَفُ بَيْنَهُمْ نَدِيٌّ كَرِيمٌ لَا أَرَى اللَّهَ بَيْنَهُمْ
تَشَابَهُ خَلْقٌ مِنْهُمْ وَخَلِيقَةٌ فَإِنْ قُلْتَ أَيْنَ الْحُسْنُ فَاَنْظُرْهُ أَيْنَ هُمْ
وَزَيْنَتَهُمْ أَسْتَادُهُمْ إِذْ غَدَا لَهُمْ مَعْلَمَ آيَاتٍ فَتَمَمَ زَيْنَتَهُمْ
فَإِنْ خَفَتْ مِنْ عَيْنٍ فِي الْكُلِّ فَلْتَقُلْ وَقَى اللَّهَ رَبُّ النَّاسِ لِلْكُلِّ عَيْنَهُمْ

٢٦٧ - وقال الشريشي^٣ : حدثنا شيخنا أبو الحسين ابن زرقون ، عن أبيه أبي عبد الله ، أنه قعد مع صهره أبي الحسن عبد الملك بن عيَّاش

١ م : صاحب كتاب شرح المقامات .

٢ الشريشي : در عصابة .

٣ الشريشي ١ : ٣٦٥ .

الكاتب على بحر المجاز ، وهو مضطرب الأمواج ، فقال له أبو الحسن : أجز :

وَمُلْتَطِمْ الْغَوَارِبِ مَوَجَّتُهُ بَوَارِحُ فِي مَنَاكِبِهَا غَيُومُ

فقال أبو عبد الله :

تَمْنَعُ لَا يَعْوُمُ بِهِ سَفِينٌ وَلَوْ جَذَبَتْ بِهِ الزُّهْرُ النُّجُومُ

٢٦٨ - وكان لابن عبد ربّه قتي يهواه ، فأعلمه أنّه يسافر غداً ، فلمّا أصبح عاقه المطر عن السفر ، فأنجلى عن ابن عبد ربّه همّة ، وكتب إليه ١ :

هَلا ابْتَكَرْتَ لِبَيْنٍ أَنْتَ مَبْتَكِرُ هِيَهَاتِ يَا بَى عَلَيْكَ اللَّهُ وَالْقَدَرُ
مَا زِلْتَ أَبْكِي حَذَارَ الْبَيْنِ مَلْتَهَباً حَتَّى رَثَى لِي فَيْكَ الرِّيحُ وَالْمَطَرُ
يَا بَرْدَهُ مِنْ حَيَا مُزْنٍ عَلَى كَبَدٍ نِيرَانِهَا بِغَلِيلِ الشُّوقِ تَسْتَعْرِ
آلَيْتُ أَنْ لَا أَرَى شَمْساً وَلَا قَمَراً حَتَّى أَرَاكَ فَأَنْتَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

وقال ابن عبد ربّه ٢ :

صِلْ مِنْ هَوَيْتَ وَإِنْ أَبْدَى مَعَاتِبَةً فَاطِيبُ الْعَيْشِ وَصَلْ بَيْنَ الْفَيْنِ
وَاقْطَعْ حَبَائِلَ خِدْنٍ لَا تَلَاثِمُهُ فَقَلَمَا تَسَعُ الدُّنْيَا بَغِيضِينَ

٢٦٩ - وقال أبو محمد غانم بن الوليد المالقي ٣ :

صَبِرْ فَوَادِكَ لِلْمَحْبُوبِ مَتْرَلَةً سَمُّ الْخِيَاطِ مَجَالٌ لِلْمَحْبَبِينَ
وَلَا تَسَامَحْ بَغِيضاً فِي مَعَاشِرَةِ فَقَلَمَا تَسَعُ الدُّنْيَا بَغِيضِينَ

٢٧٠ - وكان المتوكل صاحبُ بَطْلَيْوُسَ ينتظر وفود أخيه عليه من

١ أبيات ابن عبد ربّه في المطمح : ٥١ .

٢ العقد ٢ : ٣١٦ .

٣ مر البيتان ص : ٢٦٥ ، ٣٩٨ .

شَتَرَيْن يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَأَتَاهُ يَوْمَ السَّبْتِ ، فَلَمَّا لَقِيَهُ عَانَقَهُ وَأَنشَدَهُ :

تَخَيَّرَتِ الْيَهُودُ السَّبْتَ عِيداً وَقَلْنَا فِي الْعَرُوبَةِ يَوْمُ عِيدٍ
فَلَمَّا أَن طَلَعَتِ السَّبْتُ فِينَا أَطَلَّتْ لِسَانَ مُحْتَجِّ الْيَهُودِ

٢٧١ - وقال أبو بكر ابن بقي^١ :

أَقَمْتُ فَيْكُمْ عَلَى الْإِقْتَارِ وَالْعَدَمِ لَوْ كُنْتُ حُرّاً أَبَى النَّفْسِ لَمْ أَقِمِ
فَلَا حَدِيقَتُكُمْ يُجَنِّي لَهَا ثَمَرٌ وَلَا سَمَاؤُكُمْ تُنْهَلُ بِالْدِّيمِ
أَنَا أَمْرُو إِنْ نَبَتْ بِي أَرْضُ أُنْدَلُسٍ جِئْتُ الْعِرَاقَ فَقَامَتْ لِي عَلَى قَدَمِ
مَا الْعِيشُ بِالْعِلْمِ إِلَّا حِيلَةٌ ضَعُفَتْ وَحِرْفَةٌ وَكِلْتَا الْقُعْدُدِ الْبَرَمِ

٢٧٢ - وقال الأبيض في الفقهاء المرائين^٢ :

أَهْلَ الرِّيَاءِ لِبَسْتُمْ نَامُوسَكُمْ كَالذِّبِّ يُدْلِجُ^٣ فِي الظَّلَامِ الْعَاتِمِ
فَمَلَكْتُمُ الدُّنْيَا بِمَذْهَبِ مَالِكٍ وَقَسَمْتُمْ الْأَمْوَالَ بَابِنِ الْقَاسِمِ
وَرَكِبْتُمْ شُهْبَ الْبَغَالِ بِأَشْهَبِ وَبَأَصْغٍ صَبَغَتْ لَكُمْ فِي الْعَالَمِ

وقال^٤ :

قُلْ لِلْإِمَامِ سَنَا الْأَثَمَةِ مَالِكٍ نُورِ الْعَيُونِ وَنُزْهَةِ الْأَسْمَاعِ
لِلَّهِ دَرْكٌ مِنْ هُمَامٍ مَاجِدٍ قَدْ كُنْتَ رَاعِيَنَا فَنَعَمْ الرَّاعِي
فَمَضَيْتَ مُحَمَّدُ النَّقِيبَةُ طَاهِراً وَتَرَكْنَا قَنْصاً لَشَرِّ سَبَاعِ

١ أبيات ابن بقي في القلائد : ٢٨١ .

٢ زاد المسافر : ٧١ وهي في المعجب : ٢٣٥ منسوبة لابن البني ؛ وانظر الشريشي ١ : ١٨٥ .

٣ زاد المسافر : يختل .

٤ زاد المسافر : ٧١ .

٥ م : المناقب .

أكلوا بك الدنيا وأنْتَ بمغزل طاوي الحشا متكفّت الأضلاع
تشكوك دنيا لم تزل بك برة^١ ماذا رفعت بها من الأوضاع

٢٧٣ - وقال ابن صارة :

يا من يعذبني لما تملّكني ماذا تريدُ بتعذيبي وإضراري
تروقُ حسناً وفيك الموتُ أجمعه كالصقل في السيفِ أو كالنور في النارِ

٢٧٤ - وقال عبدون البلسني^١ :

يا من مُحِيَّاهُ جَنَّاتٌ مَفْتَحَةٌ وهَجَّرَه لي ذنبٌ غير مغفورٍ
لقد تناقضت في خلقي وفي خلقي تناقضَ النارِ بالتدخينِ والنورِ

٢٧٥ - وقال الوزير ابن الحكيم :

رَسَخَتْ أَصُولُ عِلَاكُمْ تُحْتَ الثرى ولكم على خطّة المجرّة دارُ
إنّ المكارمَ صورةٌ معلومةٌ أنتم لها الأسماعُ والأبصارُ
تبدو شمسُ الدّجنِ من أطواقكم وتفيضُ من بينِ البنانِ بحارُ
ذلتُ لكم نَسَمُ الخلاقِ مثل ما ذلتُ لشعري فيكمُ الأشعارُ
فمتى مدحتُ ولا مدحتُ سواكم فمدحكم في مدحه إضمارُ

٢٧٦ - وقال القاضي أبو جعفر ابن برطال^٢ :

١ هو أبو محمد عبد الله بن يحيى الحضرمي ابن صاحب الصلاة ويعرف بعبدون من أهل دانية وسكن شاطبة وتوفي ببيلنسية (٥٧٨ هـ) وترجمته في التحفة : ٦٨ والتكملة رقم : ١٤٠٢ .
٢ هو أحمد بن محمد بن علي الأموي ويكنى أبا جعفر ويعرف بابن برطال ، كان من أهل الخير والانتباض والعفة والوقار يتكسب بصناعة التوثيق ، ثم أصبح قاضياً لفرناطة وإماماً بمسجدها الأعظم حتى عام ٧٤١ وتوفي بمالقة سنة ٧٥٠ (انظر ترجمته وشعره في الإحاطة ١ : ١٧٧ - ١٧٩) .

أستودع الرحمن مَنْ لِيُودِعَهُمْ قلبي وروحي آذنا بوداع
بانوا وطرفي والفؤاد ومِقْوَلِي بكِ ومسلوبُ العزاء وداع
فتولَّ يا مولايَ حفظهم ولا تجعلُ تفرقنا فراقَ وداع^١
٢٧٧ - وقال ابن خفاجة^٢ :

وما هاجني إلا تألَّقُ بارقِ
لبستُ به بُرْدَ الدُّجْنَةِ معلِّما
وهي طويلة .

وقال من أخرى^٣ :

جَمَعَتْ ذَوَائِبُهُ وَنورُ جبينه بينَ الدُّجْنَةِ والصباحِ المشرقِ
٢٧٨ - وقال ذو الوزارتين أبو الوليد ابن الحضرمي البَطْلَيْوْسِي في
غلامٍ للمتوكِّل بن الأَفطس يرثيه^٤ :

غالهُ أَيْدِي المَنايا وَكُنَّ في مقلتيهِ
وكان يسقي الندامى بطرفه ويديهِ
غصنٌ ذَوَى وهلالٌ جارِ الكسوفِ عليهِ

٢٧٩ - وقال الفقيه العالم أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطلال البطلَيْوْسِي
عالمها في المذهب المالكي ، وقد تحاكم إليه وسيمان أشقر وأكحل فيمن يفضل
بينهما^٥ :

وشادِنَيْنِ أَلَمَّا بي على مِقَّةٍ تنازعا الحسنَ في غاياتِ مستبقِ

١ سقط البيت من م .

٢ ديوانه : ١٧٣ .

٣ ديوانه : ١٥٠ .

٤ انظر ترجمته في المغرب ١ : ٣٦٥ .

٥ مرت الأبيات ص : ٢٩٢ .

كأنَّ لَمَّةَ ذا من نرجس خلقت
 وحكمًا الصَّبَّ في التفضيل بينهما
 فقام يُبدي هلالُ الدَّجْنِ حُجَّتَه
 فقال وجهيَ بدرٌ يستضاء به
 وكحل عينيَ سِحْرٌ للنَّهْيِ وكذا
 وقال صاحبه أحسنت وصفك لـ
 أنا على أفقي شمسُ النهار ولم
 وفضل ما عيبَ في العينين من زرقِ
 قضيتُ للَمَّةِ الشُّقراء حيث حكّت
 فقام ذو اللَمَّةِ السوداء يرشقي
 وقال جرّت فقلت الجور منك على
 وقلت عَفْوُكَ إذ أصبحتُ متهمًا
 وكان فيه ظَرْفٌ وأدبٌ ، وعنوان طبقته هذه الأبيات .
 وقال :

وغاب من الأكواسِ فيها ضَرَاغِمُ من الراحِ ألبابُ الرجالِ فريسُها
 قرعتُ بها سنَّ الحلومِ فأقطعتُ وقد كاد يسطو بالفؤادِ ريسُها

وله رحمه الله تعالى « شرح البخاري » وأكثرَ ابن حجر من النقل عنه في
 « فتح الباري » ، وله كتاب « الأحكام » وغير ذلك ، وترجمته شهيرة .

٢٨٠ - وقال الأديب النحوي المؤرخ أبو إسحاق إبراهيم بن [قاسم]
 الأعلام البطليوسي صاحب التواليف التي بلغت نحو خمسين ^١ :

١ انظر ترجمته في المغرب ١ : ٣٦٩ واختصار القدح : ١٥٧ وبنية الوعاة : ١٨٥ والبيتان في
 المغرب والقدح .

يا حِمْنُ لا زلتِ داراً لكلِّ بؤسٍ وساحه
ما فيكِ موضعُ راحه إلاّ وما فيه راحه

وهو شيخ أبي الحسن ابن سعيد صاحب « المغرب » وأنشده هذين البيتين
لما ضجر من الإقامة بإشبيلية أيام فتنة الباجي .

٢٨١ - وقال الأديب الطبيب أبو الأصبع عبد العزيز البطلوسي الملقب
بالقلمندر^١ :

جَرَتْ مِنِّي الحُمْرُ مجرى دمي فَجُلُّ حَيَاتِي من سكرها
ومهما دجتْ ظَلَمٌ للهمومِ فتمزيقُها بِسَنّا بدرها

وخرج يوماً وهو سكران ، فلقي قاضياً في نهاية من قبح الصورة ، فقال :
سكران خلوه ، فلمّا أخذه الشرط قال للقاضي : بفضل من ولاك على المسلمين
بهذا الوجه القبيح عليك إلا ما أفضلت علي وتركتني ، فقال القاضي : والله لقد
ذكرتني بفضل عظيم ؛ ودراً عنه الحد .

٢٨٢ - وقال ابن جاح الصباغ البطلوسي^٢ ، وهو من أعاجيب الدنيا ،
لا يقرأ ولا يكتب :

ولمّا وقفنا غداة النوى وقد أسقطَ البينُ ما في يدي
رأيتُ الهوادجَ فيها البلورُ عليها البراقعُ من عَسَجَدِ
وتحت البراقعِ مقلوبُها تدبُّ على وَرْدٍ خَدَّ ندي
تُسالمُ مَنْ وَطِئتْ خَدَّه وتلدغُ قلبَ الشَّجي المكدِ

١ المغرب ١ : ٣٦٩ وفيه « القلمندر » .

٢ ترجمته في الجذوة : ٣٨١ (وبغية الملتبس رقم : ١٥٦٢) ؛ والأبيات التي أوردت هنا ذكر
صاحب المطرب (١٨٤) أنها لعلي بن إسماعيل الأشبوني وأخذها ابن جاح وادعاها لنفسه .

وقال في المتوكل ، وقد سقط عن فرس :

لا عَتَبَ للطَّرْفِ إِن زَلَّتْ قَوَائِمُهُ ولا يُدَنِّسُهُ مِنْ عَائِبِ دَنَسُ
حَمَلَتْ جُوداً وَبَأْساً فَوْقَهُ وَنُهَى وكيف يحملُ هذا كَلَهُ الفرسُ

٢٨٣ - وقال الشاعر المشهور بالكميت البطليوسي ^١ :

لا تُلوموني فإني عالمٌ بالذي تأتبه نفسي وتدعُ
بالحميّا والمحيا صَبَوْتِي وسوى حبّهما عندي بَدَعَ
فُضِّلَ الجمعةُ يَوْمًا وأنا كلُّ أيامي بأفراحي جُمَعَ

٢٨٤ - وقال أبو عبد الله محمد بن البينِ البَطْلَيْسِيُّ ، وهو ممن يميل

إلى طريقة ابن هاني ^٢ :

غَصَبُوا الصَّبَاحَ ففَسَّمُوهُ خُلُودًا واستنهبوا قُضْبَ الْأَرَاكِ قُدُودًا
ورَأَوْا حَصَى الْيَاقُوتِ دُونَ مَحَلِّهِمْ فاستبدلوا مِنْهُ النُّجُومَ عَقُودًا
واستودعُوا حَدَقَ الْمَهَا أَجْفَانَهُمْ فسَبَّوْا بِهِنَّ ضَرَاغِمًا وَأُسُودًا
لم يكفهمْ حَمْلُ الْأَسْنَةِ وَالظُّبَى حَتَّى اسْتَعَارُوا أَعْيُنًا وَقُدُودًا
وتضَافَرُوا بِضَفَائِرٍ أَبَدُوا لَنَا ضَوْءَ النَّهَارِ بِلِيلِهَا مَعْقُودًا
صَاغُوا الثُّغُورَ مِنَ الْأَقَاحِي بَيْنَهَا مَاءَ الْحَيَاةِ لَوْ اغْتَدَى مَرُودًا

٢٨٥ - وكان عند المتوكل مضحك يقال له الخَطَّارَةُ ، فشرب ليلة مع

المتوكل ، وكان في السقاة وسيم ، فوضع عينه عليه ، فلمّا كان وقت السحر
دبّ إليه ، وكان بالقرب من المتوكل ، فأحسّ به ، فقال له : ما هذا يا خطارة ؟

١ ترجمة الكميّ في الخدوة : ٣١٤ (وبنية المئتمن رقم : ١٢١٥) وهو الكميّ بن الحسن أبو

بكر من شعراء عماد الدولة ابن هود بسرقة ؛ وانظر المغرب ١ : ٣٧٠ .

٢ الشعر في الذخيرة (٢ : ٣٠٧) والمغرب ١ : ٣٧٠ وانظر ما تقدم ص : ٤٠٣ .

فقال له : يا مولاي هذا وقت تفرغ الخطارة الماء في الرياض ، فقال له : لا تَعُدْ
لثلاثاً يكون ماء أحمر ، فرجع إلى نومه ، ولم يُعِدْ في ذلك كلمة بقية عمره
معه ، ولا أنكر منه شيئاً ، ولم يحدث بها الخطارة حتى قُتِل المتوكل ، رحمه
الله تعالى .

والخطارة : صنف من اللوايب الخفاف يستقي به أهل الأندلس من الأودية ،
وهو كثير على وادي إشبيلية ، وأكثر ما يياكرون العمل في السحر .

٢٨٦ - وقال الوزير أبو زيد عبد الرحمن بن مولود :

أرني يوماً مِنَ الدهرِ على وَفْقِ الأمانِ
ثمَّ دَعَنِي بَعْدَ هذا كيفما شئتَ تراني

٢٨٧ - وقال أديب الأندلس وحافظها أبو محمد عبد المجيد بن عبدون
الفهري اليابري ، وهو من رجال الذخيرة والقلائد ، وشهرته مغنية عن الزيادة ،
يخاطب المتوكل وقد أنزله في دار وكَفَّتْ عليه ^١ :

أيا سامياً من جانبيه كليهما « سُمُوَّ حباب الماء حالاً على حال »
لعبدك دارٌ حلٌّ فيها كأنّها « ديار لسلمى عافياتٌ بذى خال »
يقولُ لها لما رأى من دُثُورها « ألا عم صَباحاً أيتها الظلل البالي »
فقالَتْ وما عَيَّتْ جواباً بردّها « وهل يَعمُنُ من كان في العُصر الخالي »
فَمَرُّ صاحبِ الانزالِ فيها بعاجلٍ « فإنَّ الفتي يَهْذي وليس بفعّالٍ »

وقال في جَمْع حروف الزيادة حسبما ذكره عنه في « المغرب » ^٢ :

سألت الحروف الزائدات عن اسمها فقالت ولم تكذب : أمان وتسهيل

١ مرت هذه الأبيات ص : ٢٩٣ وانظر المطرب : ١٨٢ .
٢ لم يرد البيت في ترجمة ابن عبدون في المغرب (١ : ٣٧٤) وإنما أورده صاحب المطرب : ١٨٠ .

[ضوابط حروف الزيادة]

قلت : وعلى ذكر حروف الزيادة فقد أكثر الناس في انتقاء الكلمات الضابطة لها ، وقد كنت جمعت فيها نحو مائة ضابط ، ولنذكر الآن بعضها ، فنقول : منها « أهوى تلمسانا » ونظمناها فقلت :

قالت حروفُ زياداتٍ لسائلها هل هَوِيَتْ بلدة : أهوى تلمسانا

وجمعها ابن مالك في بيت واحد بأربعة أمثلة من غير حَشْوٍ ، وهو :

هنا وتسليم ، تلا يوم أنسه ، نهاية مشول ، أمان وتسهيل

ومنها « هَوِيَتْ السمان » . وحكي أن أبا عثمان المازني سئل عنه فأنشد :

هَوِيَتْ السمانَ فشيَّبني وقد كنتُ قِدْماً هَوِيَتْ السمانا

ف قيل له : أجبنا ، فقال : أجبتكم مرتين ، ويروى أنه قال : سألتمونيها ، فأعطيتكم ثلاثة أجوبة ، هكذا حكاه بعضُ المحققين ، وهو أرقُّ ممَّا حكاه غير واحد على غير هذا الوجه ، ومنها : « سألتمونيها » ، ومنها : اليوم تنساه ، الموت ينساه ، أسلمني وتاه ، هم يتساءلون ، التناهي سمو ، تنمي وسائله ، أسلمي تهاون ، تهاوني أسلم ، التمس هواني ، ما سألت يهون ، مؤنس التياه ، لم يأتنا سهو ، يا أويس هل نمت ، نويت سؤا لهم ، نويت مسائله ، سألتهم هواني ، تأملها يونس ، أتاني وسهيل ، هوني مسألتها ، سألت ما يهون ، وسليمان أتاها ، تسأل من يهوى ، استملاني هو ، أسلمت وهناني ، هو استملاني ، سايل وأنت هم ، يا هول استم ، أتاها وسليمان .

قلت : وليس هذا تكراراً مع السابق الذي هو « وسليمان أتاها » لأن التقديم والتأخير يصيرهما شيئين .

ومنها : الوسمي هتَّانُ ، أوليم سنه ، واليم أنسه ، أمسيت وناله ، أنله

توسيمًا ، أملتني سهوًا ، أتوسل يمنها ، سألتهن يوماً ، سألت يومنها ، سألت
ما يوهن ، نهوي ما سألت ، يهون ما سألت ، وقد سبق « سألت ما يهون »
وعَدُّهما شيئين من أجل التقديم والتأخير كما مرّ نظيره ، ألا تنس يومه ، ليتأس
ماؤه ، سله موتي أنا ، أنسته اليوم ، سألتهم هوبنا ، آوي من تسأله ، وهين ما
سألت ، وهني ما سألت ، مسألتي نواه .

ومنها : مسألتي هاون ، سهوان يتألم ، أيلتم سهوان ، أو يلتم ناسه ، مسألتي
أهون ، أو ميت تنساه ، سموتن إليها ، أملت سَهَوَان ، وسألت هينا ، يهون
ما تسأل ، أتلو من سهيا ، أسلم وانتهى ، يتأمل سهوان ، يتأمل ناسوه ، يتأملن
سواه ، يتأمل نسوه ، الهوى أتنسّم ، وليت ماه آسن ، تولين أسهما ، اتلوا
سهمين ، أول ساهمتني ، أسماؤه تنيل ، يتأملنه سوا ، أو لم يتسنّاه ، آمن
ويتساهل ، أمسين هوا ، توسميه لناء ، هو ما تسألين ، لأيهما فتوسم ، أيّهما
نتوسل ، أثنائي لسموه ، سميتهن أولاً ، أولاهن سميت ، سلمتني أهوا ،
أسلمتني هوا ، أو نستميلها ، أستمهلونا ، هنأت الموسى ، سليم انتهوا ،
وأنت سائلهم ، ساءلته ينمو ، تهنأ لا يسمو ، أسالي مؤنته ، سألتي موهناً ،
التمس هوناً ، استملي أهون ، التناه موسى ، لهواء يتسّم ، نهوي ما تسأل ،
ماؤه ليتأسن ، تنسمي لهواء ، تلومي إن سها ، أملتني سهوًا ، ستولينأ أمه ،
يتمهلون أسا ، أمهلتني سوا ، التناسي وهم ، أهويت سلمان ، هويت المأنس ،
المأنس تهوي ، هويت أم ناسل ، أوليس تم هنا ، استوهن أمني ، استهون أمني ،
استلمنا وهياً ، أستملونيهما ، أيتسلمونها ، ألا يتسمونه ، أليس توهمننا ، ألا
يتسمنوه .

فهذه مائة وأربعة وثلاثون تركيباً ، منها ما هو متين ، ومنها ما هو غير متين ،
وقد جمع ابن خروف فيها اثنين وعشرين تركيباً محكيّاً وغير محكي ، وأحسنها
بيت ابن عبدون السابق ، ويليه بيت ابن مالك ، وقال الطغمي جامعاً لها أربع
مرّات :

أَلْتَنِي سَهَوًا ، تَلُومِي إِنْ سَهَا أَوْ لَيْسَ تَمَ هُنَا ، اَلْهُوَ يَتَسَمَّ
هَكَذَا بِخَطِّهِ يَتَسَمَّ ، وَلَوْ قَالَ يَتَسَمَّ لَكَانَ أَنْسَبُ ، وَقَالَ أَيْضًا :

وَلَيْتَ مَا سَنَاهُ وَالتَّمْسِي هُنَا مَا تَسْأَلِينَ هُوَ اَلْهُنَا يَتَوَسَّم

قلت : وقد جمعت في المغرب زيادة على ما تقدم ، وكنت قدرت رسالة فيها
أسميها « إنحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة » .

٢٨٨ — وقال أبو محمد عبد الله بن الليث يستدعي الوزير أبا الحسن الياقوبي
في يوم غَيْمٍ :

رَقَمَ الرَّبِيعُ بِرَوْضِنَا أَزْهَارَهُ	فَجَرَى عَلَى صَفْحَاتِهِ أَنْهَارَهُ
فَعَسَى تَشْرَفْنَا بِبَهْجَةِ سَيِّدٍ	أَلْقَى عَلَى لَيْلِ الْخُطُوبِ نَهَارَهُ
تَتَمَتَّعُ الْآدَابُ مِنْ نَفْحَاتِهِ	فِيَشْمُ مِنْهَا وَرْدَهُ وَبَهَارَهُ
يَا سَيِّدًا بِهَرَّ الْبَرِيَّةِ سَوْدَدًا	أَبْدَى إِلَيْنَا سِرَّهُ وَجَهَارَهُ
يَوْمٌ أَظْلَّ الْغَيْمُ وَجْهَ ضِيَائِهِ	فَعَلَيْكَ يَا شَمْسَ الْعَلَا إِظْهَارَهُ

٢٨٩ — وقال أبو القاسم ابن الأبرش^١ :

أَدِرْ كَاسَ الْمَدَامِ فَقَدْ تَغَنَّى	بِفِرْعِ الْأَيْكِ طَائِرُهُ الصَّدُوحُ
وَهَبَّ عَلَى الرِّيَاضِ نَسِيمُ صَبْحٍ	يَمُرُّ كَمَا دَنَا سَارِ طَلِيحٍ
وَمَالَ النَّهْرُ يَشْكُو مِنْ حَصَاةٍ	جَرَّاحَاتٍ كَمَا أَنَّ الْجَرِيحَ

وقال :

حَلَفْتُ وَيَشْهَدُ دَمْعِي بِمَا أَقَاسِيهِ مِنْ هَجْرِكَ الزَّائِدِ

١ هو أبو القاسم خلف بن يوسف بن فرتون الأبرش النحوي (توفي : ٥٣٢) وترجمته في التحفة :
١٣ والصلة : ١٧٤ وبنية الملتبس رقم : ٧٢٢ وبنية الوعاة : ٢٤٣ .

فإن كنت تجحدُ ما أدّعي وحاشاك تُعرَفُ بالجاحدِ
فإن النبيّ عليه السلامُ قضى باليمينِ معَ الشاهدِ

٢٩٠ - وقال أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني صاحبُ الذّخيرة ،
وشهرته تغني عن ذكره ، ونظمه دون نثره ، يخاطب أبا بكر ابن عبد العزيز :

أبا بكرٍ المُجتَبى للأدبِ رفيعَ العمادِ قريعَ الحسبِ
أيلحنُ فيك الزمانُ الخؤونُ ويُعربُ عنك لسانُ العربِ
وإن لم يكنْ أبقنا واحداً فينظمنّا شملُ هذا الأدبِ

وقد ذكرنا له في غير هذا المحل قوله :

ألا بادرْ فلا ثانٍ سوى ما عَهدتَ الكأسَ والبدرُ التمامُ
... الأبيات

وتأخرت وفاته إلى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وهو منسوب إلى
« شنترين » من الكور الغربية البحرية من أعمال بطليوس .

٢٩١ - وقال أبو عمر يوسف بن كوثر :

مررتُ به يوماً يغازلُ مثله وهذا على ذا بالملاحه يمتنُ
فقلتُ: اجمعا في الوصلِ رأيكما فما لثلكما كان التغزلُ والمجنُ
عسى الصبُّ يقضي الله بينكما له بخيرٍ فقال لي: اشتهى العسلَ السمنُ

٢٩٢ - وقال أبو محمد ابن سارة^١ :

أعندك أن البدرَ بات ضجيجي فقضيتُ أوطاري بغيرِ شفيعِ

١ الذخيرة (٢ : ٣٢٤) .

جعلتُ ابنةَ العنقودِ بيني وبينهُ فكانتُ لنا أمّاً وكان رضيعي
وقال ^١ :

أيا من حارتِ الأوهامُ فيه فلم تعلم له الأقدارُ كُنْها
بجيدِ النبلِ منّا عِقدُ أنسٍ أقام بغيرِ واسطةٍ فكُنْها

٢٩٣ - وقال أبو الحسن [ابن] منذر الأشبوني :

فديتكَ لآتي عن جنّابك راحِلٌ فهل ليَ يوماً من لقائك زادُ
وحسْبُك والأيامُ خُونُ غوادِرُ فراقٌ كما شاء العدا وبعادُ

٢٩٤ - وقال خلف بن هرون القطيني :

مَنْ أنبتَ الوردَ في خديكَ يا قمرُ ومن حمى قطفه إذ ليس مصطبرُ
الزهرُ في الروضِ مقرونٌ بأزمةٍ وروضُ خدكَ موصولٌ به الزهرُ

٢٩٥ - وكان لابن الحاج صاحب قرطبة ثلاثة أولاد من أجمل الناس
حسنون وعزّون ورحمون ، فأولع بهم الإمام أبو محمد ابن السيّد النحوي ،
وقال فيهم ^٢ :

أخفيتُ سُقْمِي حتّى كاد يخفيني وهيمتُ في حُبِّ عزّونَ فعزّوني
ثم ارحموني برحمون فإن ظمئت نفسي إلى ريقِ حسنون فحسنوني

ثم خاف على نفسه فخرج من قرطبة ، هكذا رأيتُه بخط بعض المؤرخين
والله أعلم .

١ الذخيرة (٢ : ٣٢٦) .

٢ مر البيتان ص : ٢٨٧ وقد حذفهما في م وقال : « وقد تقدمت هذه الحكاية » .

٢٩٦ - وقال ابن خفاجة يُداعِب من بَقَلَ عِذارُه^١ :

أَيَّهَا التَّائِهُ مَهْلًا ساءَني أن تِهتَ جهلاً
هل ترى فيما ترى إلا شباباً قد تولى
وغراماً قد تسرى وفؤاداً قد تسلى
أين دمعٌ فيك يجري أينَ جنبٌ يتقلّى
أين نفسٌ بك تهذي وضلوعٌ فيك تُصلى
أيّ باكٍ كان لولا عارضٌ وافى قولّى
وتخلّى عنك إلا أسفاً لا يتخلّى
وانطوى الحسنُ فهلاً أجملَ الحسنُ وهلاً

أمّا بعد أيّها النبيل النبيه ، فإنه لا يجتمع العِذار والديه ، قد كان ذلك وغصن
تلك الشيبية رطب ، ومنهّل ذلك المقبل عذب ، وأما والعِذار قد بَقَلَ ،
والزمان قد انتقل ، والصبُّ قد صحا فعقل ، فقد ركبت رياحُ الأشواق ،
ورقدت عيون العشاق ، فدَعَ عنك من نظرة التجنّي ، ومشية الشنّي ، وغُضَّ
من عِنانك ، وخذ في ترضي إخوانك ، وهشَّ عند اللقاء هشّة أريجيّة ،
واقنّع بالإيماء رجّع تحيّة ، فكأنّي بفِنائك مهجوراً ، وبزائرك مأجوراً ،
والسلام .

٢٩٧ - وقال الرُّصافي لما بعث إليه من يهواه سكيناً^٢ :

تفاءلتُ بالسكين لما بعثتهُ لقد صدقتُ منّي العِياقةُ والزجرُ
فكان من السكينِ سُكنّاك في الحشا وكان من القطعِ القطيعةُ والهجرُ

١ ديوان ابن خفاجة : ١٢٩ .

٢ ديوان الرصافي : ٩٩ (عن النفح) .

٢٩٨ - وحضر الفقيه أبو بكر ابن حبيش ليلة مع بعض الجلة وطفىء السراج ، فقال ارتجالاً :
أذك السراج يرينا غرةً سمرت فبات الشمس تستحي وتستر
أو خلّه فكفانا وجه سيدنا لا يطلب النجم من في بيته القمر

٢٩٩ - وقصد أحد الأدباء بمُرْسِيَة أحد السادات من بني عبد المؤمن ، فأمر له بصلة خرجت على يد ابن له صغير ، فقال المذكور ارتجالاً :
تبرك بنجل جاء باليمن والسعد يشتر بالتأييد طائفة المهدي
تكلّم روح الله في المهد قبله وهذا براء بدّل اللام في المهد

٣٠٠ - وخرج الأستاذ أبو الحسن ابن جابر الدباج^٢ يوماً مع طلبته للترهة بخارج إشبيلية ، وأحضرت مجبنات ما خبا نارها^٣ ، ولا هدا أوارها ، فما خام عنها ولا كف ، ولا صرّف حرّها عن اختصابها البنان ولا الكف ، فقال :
أحلى مواقعها إذا قربتها وبخارها فوق الموائد سام
إن أحرقت لسا فإن أوارها في داخل الأحشاء برّد سلام

٣٠١ - وقال أبو بكر أحمد بن محمد الأبيض الإشبيلي يتهمك برجل زعم أنه ينال الخلافة^٤ :

أمير المؤمنين نداء شيخ أفادك من نصافحه اللطيفة

١ م : في وجهه .

٢ القصة والبيتان في القدر : ١٥٦ وانظر المغرب ١ : ٢٥٦ .

٣ كانت عادة أهل إشبيلية أكل هذه المجبنات يوم خميس إبريل .

٤ زاد المسافر : ٦٩ .

تَحْفَظُ أَنْ يَكُونَ الْجَدْعُ يَوْمًا سريراً من أسرتك المنيفه
أفكر فيك مطوياً فأبكي وتضحكني أمانيك السخيفه

٣٠٢ - وقال صفوان :

ونهار أنس لو سألنا دهرنا في أن يعودَ بمثله لم يقدر
خرقَ الزمانُ لنا به عاداته فلو اقترحنا النجم لم يتعذر
في فتية علمت ذكاء بحسنهم فتلفت من غيمها في مثرر
والسرحة الغناء قد قبضت بها كف النسيم على لواء أخضر
وكان شكل الغيم منخل فضة يلقي على الآفاق رطب الجوهر

٣٠٣ - واجتاز بعضُ الغلمان على أبي بكر ابن يوسف، فسلم عليه
بإصبعه ، فقال أبو بكر في ذلك وأشار في البيت الثالث إلى أن والد الغلام كان
خطيب البلد :

مرَّ الغزالُ بنا مرَّوعاً نافرأ كشبيهه في القفر ريع بصائده
لثم السَّلامى في السَّلام تستراً ثم انثنى حذر الرقيب لراصده
هلاً تكلف وقفةً لمحبه ولو أنها قصرأ كجلسة والده

٣٠٤ - وقال أبو القاسم القبتوري :

واحسرتنا لأمرٍ ليس يبلغها مالي وهنٌ مئى نفسي وآمالى
أصبحت كالآل لاجدوى لى وما آلتُ جدّاً ولكن جدّي الآلى

٣٠٥ - وقال أبو الحسن ابن الحاج ٢ :

١ ب : الماء .

٢ هو جعفر بن الحاج ، ترجم له في القلائد : ١٣٩ والمغرب ٢ : ٢٧٧ وانظر الحاشية ، وورد
البيتان فيه ص : ٢٨١ والمطرب : ١٧٥ وقد وقعا في م قبل بيتي القبتوري .

كفى حزنًا أنَّ المِشارِعَ جَمَّةٌ وعندي إليها غُلَّةٌ وأوامُ
ومن نَكَدِ الأيام أن يعلم الغنى كريمٌ وأنَّ المكثرين لثامُ

٣٠٦ - وقال أحمد بن أمية البلنسي :

قال رئيسي حين فاورضته وما درى أنَّ مقامي عسير
أقمُ فقلت الحالُ لا تقتضي فقال سرُّ قلت جناحي كسير

٣٠٧ - وقال ابن برطله :

لله ما ألقاهُ من همَّةٍ لا ترتضي إلا السُّها منزلا
ومن خمُولٍ كلما رمتُ أن أسمو به بين الورى قال لا

٣٠٨ - وكتب ابن خروف لبعض الرؤساء :

يا من حوى كلَّ مجدٍ بجدِّه وبجدِّه
أناكَ نَجَلُ خروفٍ فامننْ عليه بجدِّه

وكتب أيضاً لبعضهم يستدعي فروة :

بهاء الدين والدنيا ونور المجد والحسب
طلبتُ مخافةَ الأنوا ء من جدِّواك جلدَ أبي
وقضُّك عالمٌ أني خروفٌ بارعُ الأدب
حلبتُ الدهرَ أشطُرَه وفي حلبٍ صفا حلبي

وبعد كتَّبي لما ذكر خشيت أن يكون لابن خروف المشرقي لا الأندلسي^١ ،
والله تعالى أعلم .

١ هو كما قدر المقرئ فإن هاتين القطعتين لابن خروف أبي الحسن علي بن محمد ، ولكنه أيضاً قرطبي
الأصل استقر بحلب (انظر الفصوص الياضة : ١٣٨ وزاد المسافر : ٢٠) .

٣٠٩ - وركب محبوب أبي بكر ابن مالك^١ كاتب ابن سعد بغلة^٢ رديف^٣
رجل يُعرف بالدب ، فقال أبو بكر في ذلك :

وبغلة ما لها مثال^٤ يركبها الدب والغزال^٥
كأن هذا وذا عليها سحابة خلتها هلال^٦

٣١٠ - وخرج محبوب لأبي الحسن ابن حريق^٢ يوماً لزهة وعرض^٣
سئل عاقه عن دخول البلد ، فبات ليلة عند أبي الحسن ، فقال في ذلك :

يا ليلة جادت الأمانى بها على رغم أنف دهري
تسيل فيها علي^٤ نغمي يقصر عنها لسان شكري
أبات في منزلي حبيبي وقام في أهله بعذري
وبت لا حالة كحالي صريع سكر ضجيع بدر
يا ليلة القدر في الليالي لانت خير من ألف شهر

٣١١ - وقال أبو الحسن ابن الزقاق^٣ :

عذيري من هضم الكشح أحوى رخيـم الدلّ قد لبس الشّبابا
أعدّ الهجر هاجرة لقلبي وصير وعده فيها سرّابا

٣١٢ - وقال أبو بكر ابن الجزار السرقسطي :

ثناء الفتى يبقى ويفنى ثراؤه فلا تكتسب بالمال شيئاً سوى الذكر
فقد أبلت الأيام كعباً وحائماً وذكرهما غصّ جديد إلى الحشر

١ زاد المسافر : ٣٣ .

٢ هذا الخبر والشعر سقطا من م ، وقد مرت الأبيات ص : ٤١٠ .

٣ ديوان ابن الزقاق : ٩٨ .

٤ ب : العتب .

٣١٣ - وقال الأديب أبو عبد الله الجذامي^١ : كان لشخص من أصحابنا قَيْنَةٌ ، فبينما هو ذات يوم قد رام تقييلها على أثر سواك أبصره بمبسمها إذ مرَّ فوَّال ينادي على فول يبيعه ، قال : فكلّفتني أن أقول في ذلك شيئاً ، فقلت : ولم أنسَ يومَ الأنسِ حينَ سَمَحْتِ لي وأهديتِ لي من فيك فول سواكِ ومرَّ بنا الفوَّالُ للفولِ مادحاً وما قَصَدُهُ في المدحِ فولُ سواكِ وشرب يوماً أبو عبد الله المذكور عند بعض الأجلَّةِ وذَرَعَهُ القِيءُ ، فارتجل في العذر :

لا تَوَاخِذْ مَنْ أَخْلَّ بِهِ قَهْوَةٌ فِي الْكَاسِ كَالْقَبَسِ
كَيْفَ يُلْحَى فِي الْمَدَامِ فَتَى أَخَذْتَهُ أَخَذَ مَفْتَرَسِ
دَخَلْتُ فِي الْحَلْقِ مُكْرَهَةً ضَاقَ عَنْهَا مَوْضِعُ النَّفْسِ
خَرَجْتُ مِنْ مَوْضِعٍ دَخَلْتُ أَنْفَتُ مِنْ مَخْرَجِ النَّجَسِ

٣١٤ - وجلس سلمة بن أحمد إلى جنب وسيم يكتب من محبرة فانصبَّ الحبرُ منها على ثوب سلمة ، فخرجل الغلام ، فقال سلمة :

صَبَّ الْمَدَادَ وَمَا تَعَمَّدَ صَبَّهُ فَتَوَرَدَ الْخَدُّ الْمَلِيحُ الْأَزْهَرُ
يَا مَنْ يُوَثِّرُ حَبْرَهُ فِي ثَوْبِنَا تَأْثِيرُ لِحْظِكَ فِي فَوَادِي أَكْبَرُ

٣١٥ - وكان لأبي الحسن ابن حزمون^٢ بمُرْسِيَّةٍ محبوب يدعى أبا عامر ، وسافر أبو الحسن ، فبينما هو بخارج المَرِيَّةِ إذ لقي فتى يشبه محبوبه ، وسأله عن اسمه ، فأخبره بأنه يدعى أبا عامر ، فقال أبو الحسن في ذلك :

إِلَى كَمْ أَفِيرُ أَمَامَ الْهَوَى وَلَيْسَ لَذَا الْحَبِّ مِنْ آخِرِ

١ الخبر والبيتان التاليان ساقطة من م .

٢ من شعراء زاد المسافر : ٦٤ وله شعر في المعجب والبيان المغرب .

وكيف أفرُّ أمامَ الهوى وفي كلِّ وادٍ أبو عامرٍ

٣١٦ - وحضر أبو بكر ابن مالك كاتب ابن سعد مع محبوبه لارتقاب هلال شوال ، فأغمي على الناس ورآه محبوبه ، فقال أبو بكر في ذلك ^١ :

تواري هلالُ الأفقِ عن أعينِ الوريِّ ولاحَ لمن أهواهُ منه فحيَّاهُ ^٢
فقلتُ لهم : لم تفهموا كُنْهَ سِرِّهِ ولكنْ خذوا عني حقيقةَ معناه
بدا الأفقُ كالمرأةٍ راقِ صفاؤه فابصرَ دونَ الناسِ فيه مُحَيَّاهُ

٣١٧ - وكتب أبو بكر ابن حبيش لمن يهواه بقوله :

متى ما ترمَّ شرحاً لحالي وتبيننا فصَحَّفَ على قلبي « علومك تحيينا »
أراد « إنَّني بحبِّك مولعٌ » .

٣١٨ - وكتب القاضي ابن السليم ^٣ إلى الحكم المستنصر بالله :

لو أنَّ أعضاءَ جسمي السُّنَّ نطقتْ بشكرِ نِعَمائك عندي قلَّ شكري لكُ
أو كانَ ملكني الرحمنُ من أجلي شيئاً وصلتُ به يا سيدي أجلكُ
ومن تكنُ في الوريِّ آماله كثرتْ فإنَّما أُملي في أنْ ترى أملكُ

٣١٩ - وقال الوزير ابن أبي الخصال :

وكيف أؤدِّي شكرَ من إنْ شكرتُهُ على بَرٍّ يومٍ زادني مثلهُ غدا
فإن رمتُ أقضي اليومَ بعضَ الذي مضى رأيتُ له فضلاً عليَّ مُجَدِّداً

١ زاد المسافر : ٣٣ .

٢ م : حياه .

٣ ب : ابن سليم .

٣٢٠ - وقال الرُّصافي^١ :

قَلَدْتُ جَيْدَ الْفِكْرِ مِنْ تِلْكَ الْحُلَى مَا شَاءَ الْمَثُورُ وَالْمَنْظُومُ
وَأَشْرْتُ قَدَّامِي كَأَنِّي لَاثِمٌ وَكَأَن كَفِّي ذَلِكَ الْمَلْثُومُ

وقال :

وَيَا لَكَ نِعْمَةً رُمْنَا مَدَاهَا فَمَا وَصَلَ اللِّسَانُ وَلَا الضَّمِيرُ
عَجَزْنَا أَنْ نَقُومَ لَهَا بِشْكْرِ عَلَى أَنَّ الشُّكُورَ لَهَا كَثِيرُ

٣٢١ - وقال ابن باجة :

قَوْمٌ إِذَا انْتَقَبُوا رَأَيْتَ أَهْلَةً وَإِذَا هُمْ سَفَرُوا رَأَيْتَ بَدُورًا
لَا يَسْأَلُونَ عَنِ النَّوَالِ عُقَاتِهِمْ شُكْرًا وَلَا يَحْمُونَ مِنْهُ تَقِيرًا
لَوْ أَنَّهُمْ مَسَحُوا عَلَى جَدَبِ الرَّبِّي بِأَكْفِهِمْ نَبْتَ الْأَقَاحِ نَضِيرًا^٢

٣٢٢ - وقال ابن الأَبَّارِ يمدح أبا زكريا سلطان إفريقية :

تَحَلَّتْ بَعْلِيَاكَ اللَّيَالِي الْعَوَاطِلُ وَدَانَتْ لِسَقْيَاكَ السَّحَابُ الْهَوَاطِلُ
وَمَا زِينَةُ الْأَيَّامِ إِلَّا مَنَاقِبُ يُفَرِّعُهَا أَصْلَانِ : بَأْسٌ وَنَائِلُ
إِذَا الطَّوَلُ وَالصَّوَلُ اسْتَقْلَا بِرَاحَةٍ تَرَقَّتْ لَهَا نَحْوُ النُّجُومِ أَنَامِلُ

وقال أيضاً في سعيد بن حكيم رئيس منركة :

سَيِّدٌ أَبَدٌ رَئِيسٌ بَنِيْسٌ فِي أَسَارِيرِهِ صِفَاتُ الصَّبَاحِ
قَمَرٌ فِي أَفْقِ الْمَعَالِي تَجَلَّى وَتَحَلَّى بِالسُّودِ الْوَضَاحِ
سَلَمَ الْبَحْرِ فِي السَّمَاحَةِ مِنْهُ لِحَوَادِ سَمَوِهِ بِحَرَ السَّمَاحِ

١ ديوان الرصافي : ١٣١ ، ٨٧ .

٢ ب : صغيراً .

٣٢٣ - وقال أبو العباس أحمد الإشبيلي :

يا أفضلَ الناسِ إجماعاً ومعرفةً تُغني وما الحسنُ في ريب ولا ريبِ
ورثتَ عن سلفٍ ما شئتَ من شرفٍ فقد بهرتَ بموروثٍ ومكتسبِ

٣٢٤ - وقال ابن زهر الحفيد :

يا من يُذكّرني بعهدٍ أحبّتي طاب الحديثُ بذكرهم ويطيبُ
أعدِ الحديثَ عليّ من جنابته إنَّ الحديثَ عن الحبيب حبيب
ملاً الضلوعَ وفاضٍ عن أحنائها قلبٌ إذا ذُكر الحبيبُ يذوب
ما زال يضرب خافقاً بجناحه يا ليت شعري هل تطيرُ قلوب

وقال في زهر الكتّان :

أهلاً بزهر اللازوردِ ومرحبا في روضةِ الكتّانِ تعطفه الصبا
لو كنتُ ذا جهلٍ لخلتُك لجةً وكشفتُ عن ساقٍ كما فعلتُ سباً

ولما قال الموشحة المشهورة التي أولها :

صادني ولم يدر ما صاد

قال أبو بكر ابن الجدي : لو سئل عما صاد لقال : تيس بلحية حمراء .

ولما قال الموشحة التي أولها :

هاتِ ابنة العنبِ واشربِ

إلى قوله :

وفدّه بأبي ثمّ بي

سمعتها أبوه فقال : يفديه بالعجوز السوء أمّه ، وأما أنا فلا .

٣٢٥ - وهنالك أبو بكر ابن زهر الأصغر^١ ، وهو ابن عم^٢ هذا الأكبر .
ومن نظم الأصغر :

والله ما أدري بما أتوسَّلُ إذ ليس لي ذاتٌ بها أتوصَّلُ
لكن جعلتُ مودتي مع خدمتي لعُلاكَ أحظى شافعٍ يُتَقَبَّلُ
إن كنتُ من أدواتِ زُهرٍ عاطلاً فالزُهرُ منهنَّ السَّمَكُ الأعزلُ

وهذه الأبيات خاطب بها المأمون بن المنصور صاحب المغرب .

٣٢٦ - وقال الأديب أبو جعفر عمر ابن صاحب الصلاة :

وما زالت الدنيا طريقاً لهالك تُباين في أحوالها وتخالِفُ
ففي جانبٍ منها تقوم مآتمٌ وفي جانبٍ منها تقومُ معازِفُ
فمن كان فيها قاطناً فهو ظاعنٌ ومن كان فيها آمناً فهو خائفُ

٣٢٧ - وقال أبو بكر محمد ابن صاحب الصلاة يخاطب أخيل^٢ لما انتقل
إلى العدوَّة :

لا تُنكرنَ زماناً رماكَ مِنْهُ بسهمٍ
وأنتَ غايةُ مجدٍ في كلِّ علمٍ وفهمٍ
هذي دموعي حتى يراكَ طرفي تهمني
يا ليتَ ما كنتُ أخشى عليكَ عُدوانَهم
وإنما الدهرُ يُبدي ما لا يجوزُ بوهَمٍ
ما زالَ شَيْهَمَ مَسٍّ لكلِّ يقظانٍ شَهَمٍ

ولما وفد أهل الأندلس على عبد المؤمن قام خطيباً ناثرأ وناظماً ، فأتى

١ هو أبو بكر محمد بن قسورة بن زهر الإيادي ، وترجمته وأبياته في القدح : ١٥٠ - ١٥١ .

٢ يياض في ب ؛ م : اخال .

بالعجب ، وباهى به أهل الأندلس في ذلك الوقت .

وله في عبد المؤمن :

همُ الألى وهبوا للحربِ أنفُسَهُمْ وأنهبوا ما حوتْ أيديهمُ الصَّفَدا
ما إن يُغْبِثُونَ كحل الشمس من رَهجٍ كأنما عينها تشكو لهم رمدا

٣٢٨ - وقال ابن السَّيِّد البَطْلَيْوسِي في أبي الحكم عمرو بن مذحج
ابن حزم ، وقد غلب على لبِّه ، وأخذ بمجامع قلبه ^١ :

رأى صاحبي عَمَرًا فكلَّفَ وصفه وحمَّلني من ذاك ما ليس في الطَّوقِ
فقلتُ له : عمرو كعمرو فقال لي : صدقتُ ، ولكن ذاك شبٌّ ^٢ عن الطَّوقِ

وفيه يقول ابن عبدون ^٣ :

يا عمرو رُدَّ عَلَى الصُّدُورِ قلوبها مِن غيرِ تَقْطِيعٍ ولا تَحْرِيقِ
وأدرُ علينا من خلاك أكوساً لم نألُ تسكرنا بغيرِ رحيقِ

وفيه يقول أحدهما :

قل لعمرو بن مذحج جاء ما كنتُ أرتجي
شاربٌ من زبرجدٍ ولمسى من بنفسجِ

وكتب إليه ابن عبدون :

سلامٌ كما هبَّتْ من المزنِ نفحةٌ تنفَّسَ عند الفجرِ في وجهها الزهرُ

١ مر البيتان في المجلد الأول : ٦٣٦ وهنا خطأ فصاحب البيتين كما مر هو أبو الحسن البطليوسي

(ابن القبطورنة) ، ذكر ذلك ابن بسام في الذخيرة وابن سعيد في المغرب ١ : ٢٣٨ .

٢ ب م : ولكن ذا أشب .

٣ الذخيرة (٢ : ٢٣٢) .

ومنها :

أبا حَسَنَ أبلغَ سلامَ فَمَيِّ يَدَيَّ أبي حَسَنٍ وارفقْ فكلتاها بحرُ
ولا تَنسَ يَمناكَ الَيَّ^١ هي والندى رضيعا لِيَبانِ لا اللُّجَيْنِ ولا التَّبَرُ
فأجابه من أبيات :

تَحَيَّرَ ذهني في مَجاري صفاته فلم أدِرِ شعراً ما به فُهِتَ أم سحرُ
أرى الدهرَ أعطاكَ التقدُّمَ في العُلَى وإن كان قد وافى أخيراً بك الدهرُ
لئن حازتِ الدنيا بك الفضلَ آخراً ففي أُخْرِيَّاتِ اللَّيْلِ يَنبَلِجُ الفجرُ
ولعمرو في أبي العلاء ابن زُهْر^٢ :

قَدِمْتَ عَلَيْنَا والزمانُ جَدِيدُ وما زِلْتَ تُبْدي في الندى وتعيدُ
وحقُّ^٣ العُلا لولا مراتبك العُلا لما اخْضَرَ في أَفْقِ المكارمِ عودُ
فلُوحُوا بني زهرٍ فإنَّ وجوهكم نجومٌ بأفلاكِ العلاءِ سعودُ
وقوله لأبي الوليد ابن عمِّه^٤ :

إِنِّي لأعجبُ أن يَدنو بنا وطنُ ولا يُقْضَى من اللُّقْيا لنا وطرُ
لا غروا إن بعدت دارُ مُصَاقِبَةٍ بنا وجدَّ بنا للحضرةِ السَّفَرُ
فمحجر العينِ لا يلقاهُ ناظرها وقد توسَّعَ في الدُّنيا به النظرُ

وقال ابن عمِّه أبو بكر محمد بن مذحج يخاطب ابن عمِّه أبا الوليد^٥ :

١ الذخيرة : لي تلك الَيَّ .

٢ الذخيرة (٢ : ٢٣٤) ؛ وفي م : ولعمرو في ابن زهر .

٣ الذخيرة : وعيش .

٤ الذخيرة (٢ : ٢٣٥) .

٥ الذخيرة (٢ : ٢٤٣) .

ولما رأى حمص استخفت بقدره
تحمّل عنها والبلاد عريضة
على أنها كانت به ليلة القدر
كما سئل من غمد الدجى صارم الفجر

وقال أبو الوليد المذكور^١ :

أتجزع من دمعي وأنت أسلته
وترعم أن النفس غيرك علقت
وأنت ولا من عليك حبيبها
إذا طلعت شمس علي بسلوة
ومن نار أحشائي وأنت لهيها
أثار الهوى بين الضلوع غروبها

وله أيضاً^٢ :

لما استمالك معشر لم أرضهم
داريت دونك مهجتي فتماسكت
والقول فيك ، كما علمت ، كثير
من بعد ما كادت إليك تطير
فاذهب فغير جوانحي لك منزل
واسمع فغير وفائك المشكور

وقال :

يقول وقد لمته في هوى
أتحسني ؟ قلت : لا والذي
فلان وعرضت شيئاً قليلاً
وأحلك في الحب مرعى وبيلاً
وكيف وقد حلّ ذاك الجناب
وقد سلك الناس ذاك السبيل

وله مما يكتب على قوس^٣ :

إنّا إذا رفعت سماء عجاجة
وتمرّد الأبطال في جنباتها
والحرب تقعد بالردى وتقوم
والموت من فوق النفوس يحوم

١ الذخيرة : ٢٣٧ .

٢ المغرب ١ : ٢٤٠ .

٣ الذخيرة (٢ : ٢٤٤) م ؛ وما يكتب على قوس قوله .

مرقت لهم منا الحنوف كأنما نحن الأهلّة والسهام نجوم^١

٣٢٩ - وقال أبو الحسين ابن فندلة في كلب صيد^٢ :

فُجِعْتُ بمن لو رمتُ تعبيرَ وصفه لقلَّ ولو أنِّي غرفت من البحرِ
بأخطَلٍ وثابٍ طموحٍ مؤدَّبٍ ثبوتٍ يصيدُ النسرَ لو حلَّ في النسرِ
كلونِ الشبابِ الغضِّ في وجهه سنّاً كأنَّ ظلاماً ليس فيه سوى البدرِ
إذا سار والبازي أقولُ تعجباً ألا ليت شعري يسبقُ الطيرُ من يجري

ولا يلتفت إلى قول أبي العباس ابن سيد فيه^٣ :

الموتُ لا يُبقي على مهجةٍ لا أسداً يُبقي ولا نَعْشَلَه^٤ ،
ولا شريفاً لبني هاشم ولا وضيعاً لبني فندله^٥

وكان ابن سيد مسلطاً على هذا البيت ، قال ابن سعيد : وإنما ينبح الكلب القمر .

٣٣٠ - قال أبو العباس النجّار^٥ : كان أبو الحسين يلقّب بالوزّعة ،
فوصلتُ إلى بابه يوماً ، فتحجب عني ، فكتبت على الباب :

تحجّبَ الفندليُّ عني فساء من فعله ضميري
يَنفِرُ من رؤيتي كأنّي مضمخُ الجيبِ بالعيرِ

قال : ومن عادة الوزّعة أن تكره رائحة الزعفران وتهرب منه .

١ الذخيرة : رجوم .

٢ ترجمته في المغرب ١ : ٢٤١ والهاشية ؛ وكنيته فيه أبو الحسن .

٣ هو أحمد بن سيد الملقب باللس (المغرب ١ : ٢٥٢ والهاشية) .

٤ ب : تنفله ؛ م : شكله .

٥ ب : الأبار ؛ ق : النبار .

٣٣١ - وقال أبو القاسم ابن حسان ^١ :

ألا لَيْتَنِي مَا كُنْتُ يَوْمًا مَعْظَمًا ولا عرفوا شخصي ولا علموا قصري
أُكَلِّفُ فِي حَالِ الْمَشِيبِ بِمِثْلِ مَا تحمّله والغصنُ فِي ورقٍ نَضِرِ
فَمَا عَاشَ فِي الْأَيَّامِ فِي حَرٍّ عَيْشَةٍ سوى رجلٍ ناءٍ عن النهي والأمرِ

٣٣٢ - وقال أبو بكر ابن مرتين ^٢ :

صَحِبْتُ مِنْكَ الْعِلَا وَالْفَضْلَ وَالْكَرَمَا وشيعةً فِي النَّدى لَا تَرْضِي السَّامَا
مُودَّةٌ فِي ثَرَى الْإِنْصَافِ رَاسِخَةٌ وَسَمَكُهَا فَوْقَ أَعْنَاقِ السَّمَاءِ سَمَا

وقال :

أُنْصِفْتَنِي فَمَحْضُتُكَ الْوَدَّ الَّذِي يُجْزَى بِصَفْوَتِهِ الْخَلِيلُ الْمُنْصِفُ
لَا تَشْكُرُنَّ سِوَى خِلَالِكَ إِنَّهَا جَلَبَتْ إِلَيْكَ مِنَ الثَّنَا مَا يُعْرِفُ

وقال :

يَا هَلَالًا يَتَجَلَّى وقضياً يَتَنَّى
كُلُّ أَنْسٍ لَمْ تَكُنْهُ فهوَ لَفْظٌ دُونَ مَعْنَى

٣٣٣ - وقال القاضي أبو عبد الله محمد بن زرقون :

ذَكَرَ الْعَهْدَ وَالْذِيَارَ غَرِيبُ فَجَرَى دَمْعُهُ وَلَجَّ النَّحِيبُ
ذَكَرَ الْعَهْدَ وَالنَّوَى مِنْ حَبِيبٍ حَبَّذا الْعَهْدُ وَالنَّوَى وَالْحَبِيبُ
إِذْ صَفَاءَ الْوَدَادِ غَيْرُ مَشُوبٍ بَتَجَنٍّ وَوَدُنَا مَشُوبُ

١ ترجمته في القلح : ١٤٨ (توفي سنة ٦٢٥) .

٢ أبو بكر محمد بن مرتين وزير للظافر بن المعتد أثناء ولايته على قرطبة ؛ (انظر المغرب ١ :

٢٤٣ وفيه البيتان الأولان) .

وإذا الدهرُ دهرنا وإذا الدا رُ قريبٌ وإذا يقولُ الرقيبُ

ومنها :

أسألُ اللهَ عَفْوَهُ فلئن سا ء مقالي لقد تعفُ القلوبُ
قد ينال الفتى الصغائرَ ظرفاً لا سواها ولتذُتُوبُ ذنوبُ
وأخو الشعرِ لا جناحَ عليه وسواءُ صدوقه والكذوبُ

٣٣٤ - وقال الخطيب أبو عبد الله محمد بن عمر الإشبيلي^١ :

وكلُّ إلى طَبْعِهِ عائدٌ وإن صَدَّةَ المنعِ عن قصدهِ
كذا الماءُ من بعدِ إسْخَانِهِ يَعُودُ سَرِيعاً إلى بَرْدِهِ

وقال :

يا معدنَ الفضلِ وطَوْدَ الحجى لا زلتَ من بحرِ العلا تغترفُ
عبدك بالبابِ فقلْ منعماً يدخلُ أو يصبرُ أو ينصرفُ

٣٣٥ - وقال إمامُ اللغة أبو بكر محمد بن الحسن^٢ الزبيدي الإشبيلي :

ما طلبتُ العلومَ إلا لأتِي لم أزلْ مِنْ فنونها في رياضِ
ما سواها له بقلبي حَظٌّ غير ما كان للعيون المِرَاضِ

وقال :

أشْعِرَن قَلْبَكَ يَا سَا لَيْسَ هَذَا النَّاسُ نَاسَا
ذَهَبَ الْإِبْرِيْزُ مِنْهُمْ فَبَقُوا بَعْدُ نَحَاسَا

١ هو المعروف بالمهريس ، وقد مرت الإشارة إلى ترجمته ، قتل في واقعة تالمست سنة ٦٢٥ .

٢ ق ب : الحسين .

ساميريين يقولون جميعاً لا ميساسا

وكان كتاب « العين » للخليل مختلّ القواعد ، فامتعض له هذا الإمام ،
وصقل صدأه كما يُصقل الحسام ، وأبرزه في أجمل مترع ، حتى قيل : هذا
مما أبدع واخترع ، وله كتاب في النحو يسمى « الواضح » وصيّره الحكم
المستنصر مؤدباً لولده هشام المؤيد ، وبالجملة فهو في المغرب بمنزلة ابن دريد
في المشرق ^١ .

٣٣٦ - وقال النحوي أبو بكر محمد بن طلحة الإشبيلي ^٢ ، وشعره رقيق
خارج عن شعر النحاة ، ومنه :

إلي أيّ يوم بعده يُرْفَعُ الخمرُ وللورقِ تغريدٌ وقد خفق النهرُ
وقد صَقَلَتْ كَفُ الغزاةِ أْفَقَهَا وفوق متونِ الروضِ أُرْدِيَةٌ خَضْرُ
وكم قد بَكَتْ عَيْنُ السماءِ بدمعها عَلَيْهَا ولولا ذاك ما بَسَمَ الزهرُ

وقال ^٣ :

بَدَا الْهَلَالُ فَلَمَّا بَدَا نَقَصْتُ وَتَمَّا
كَأَنَّ جِسْمِي فَعِلُّ وسحر عينيه « لَمَّا »

وكان لا يملك نفسه في النظر إلى الصُّور الحسنان ، وأتاه يوماً أحدُ أصحابه
بولد له فتَّان الصورة ، فعندما دخل مجلسه قَصَرَ عليه طَرْفَهُ ، ولم يلتفت
إلى والده ، وجعل والده يوصيه عليه وهو لا يعلم ما يقوله ، وقد افتضح في طاعة
هواه ، فقال له الرجل : يا أبا بكر حَقَّقِ النظر فيه لعلّه مملوك ضاع لك ، وقد

١ م ب : بالمشرق .

٢ ترجمته في المغرب ١ : ٢٥٣ والتكملة : ٦٠٥ وبنية الوعاة : ٤٩ وبرنامج الرعي : ٧٩ .

٣ البيتان في المغرب .

جبره الله تعالى عليك ، ولكن على مَنْ يتركه عندك لعنة الله ، هذا ما عملت
بمحضري ، والله إن غاب معك عن بصري لمحة لتفعلن^١ به ما اشتهر عنك ؛
وأخذ ولدَه وانصرف به ، فانقلب المجلس ضحكاً .

٣٣٧ - وقال أبو جعفر أحمد بن الأبار الإشبيلي^١ ، وهو من رجال
« الذخيرة » :

زارني خيفة الرقيب مُربيا	يَتَشَكَّى منه القضيْبُ الكثيبا
رشاً راشَ لي سِهَامَ المنايا	من جفونٍ يَسْجِي بهنَّ القلوبا
قال لي ما ترى الرقيبَ مطلاً	قلتُ دعه أتى الجَنابَ الرحيا
عاطِهٍ أكْؤس المدامِ دِراكاً	وأدرُها عليه كُوباً فكوباً
واسقنيها من خمر عينيك صِرْفاً	واجعلِ الكأسَ منك ثَغْراً شنيا
ثمَّ لما أنْ نامَ مَنْ نَتَقِيهِ	وتَلَقَّى الكرى سميعاً مُجيباً ^٢
قال لا بدَّ أنْ تدبَّ عليه	قلتُ أبغي رَشاً وأخذ ذيباً
قالَ فابدأ بنا وثنَّ عليه	قلتُ عَمْرِي لقد أتيتُ قريبا
فوئبنا على الغزالِ ركوباً	وسعينا على الرقيب ديباً
فهَلْ أبصرتُ أو سمعتُ بَصَبَ	ناك محبوبه وناك الرقيباً

وأنشد له ابن حزم^٣ :

أوما رأيتَ الدهرَ أقبلَ معتباً متنصلاً بالعذرِ ممّا أذنباً
بالأمرِ أذبلَ في رياضك أيكَةً واليومَ أطلّعَ في سمالكِ كوكباً

١ انظر الذخيرة (٢ : ٥٢) والمغرب ١ : ٢٥٣ والجدوة : ١٠٧ وبغية الملتبس رقم : ٣٦٤

ووفيات الأعيان ١ : ٦٤ والمسالك ١١ : ٤١٨ .

٢ سقط من م ؛ وفي ب : ثم لما أتى الرقيب سريماً .

٣ يعني في الجدوة : ١٠٧ .

وقيل : إنه خاطب بهما ابنَ عَبَّاد ملك إشبيلية وقد ماتت له بنتٌ ووُلد له ابنٌ ، وبعضهم ينسبهما لغيره .

٣٣٨ - ودخل الأديبُ أبو القاسم [ابن] ١ العطار الإشبيلي حمّاماً بإشبيلية ، فجلس إلى جانبه وسيم خمريّ العينين ، فافتنّ بالنظر إليه والمحادثة إلى أن قام وقعد في مكانه أسود ، فقال :

مضتُ جنةَ المأوى وجاءت جهنّمُ فها أنا أشقى بعدما كنتُ أنعمُ
وما كان إلا الشمسُ حان غروبُها فأعقبها جنحٌ من الليل مظلمُ

٣٣٩ - وقال الأديب المصنّف أبو عمرو عثمان بن علي بن عثمان ابن الإمام الإشبيلي صاحب « سمط الجُمان » :

عذيري من الأيام لا درّ درّها لقد حمّلتني فوق ما كنتُ أرهبُ
وقد كنتُ جلدأ ما ينهني النوى ولا يستيني الحادثُ المتغلبُ
يقاسي صروفَ الدهر مني مع الصبّا جذيلُ حكاك أو عديقُ مرجبُ
وكنتُ إذا ما الخطبُ مدّ جناحهُ عليّ تراني تحتَه أتلّـبُ
فقد صرتُ خفّاقَ الجناح يروعي غرابٌ إذا أبصرتهُ وهو يتنعبُ
وأحسبُ مَنْ ألقى حبيباً مودعاً وأنّ بلادَ الله طرّاً مُحصَّبُ

وقد امتنع لآداب في صدر دولة بني عبد المؤمن ، فجمع شمل الفضلاء الذين اشتملت عليهم المائة السابعة إلى مبلغ سنه منها في ذلك الأوان ، واستولى بذلك على خصل الرهان ، وانفرد بهذه الفضيلة التي لم ينفرد بها إلاّ فلان وفلان .

٣٤٠ - وكان الأديب العالم الصالح أبو الحسن علي بن جابر الدباج الإشبيلي إماماً في فنون العربية ، ولكن شهر بإقراء كتب الآداب كالكمال للمبرد ونوادر

١ زيادة من المغرب ١ : ٢٥٤ وانظر القلائد : ٢٨٤ والمساك ١١ : ٣٩٤ .

القالى وما أشبه ذلك ، وكان - مع زهده - فيه لَوَذَعِيَّةٌ ، ومن ظرفه أن أحد تلامذته قال لعلام جميل الصورة : بالله أعطني قبلة تمسك رمقي ، فشكاه إلى الشيخ وقال له : يا سيدي ، قال لي هذا كذا ، فقال له الشيخ : وأعطيته ما طلب ؟ فقال : لا ، فقال له : ما هذه الثقاله ؟ ما كفاك أن حرمته حتى تشتكي به أيضاً ؟ وحسبُك من جلالة قدره أن أهل إشبيلية رضوا به إماماً في جامع العدبس .

وله ١ :

لَمَّا تَبَدَّتْ شَمْسُ الْأَفْقِ بَادِيَةً أَبْصَرْتُ شَمْسِينَ مِنْ قُرْبٍ وَمِنْ بُعْدٍ
مِنْ عَادَةِ الشَّمْسِ تُعْشِي عَيْنَ نَاطِرِهَا وَهَذِهِ نَوْرُهَا يَشْفِي مِنَ الرَّمَدِ

٣٤١ - وقال مالك بن وهيب :

أَرَامِيَّ بِالسَّحَرِ مِنْ لِحَظَاتِهَا نَعِيدُكَ كَيْفَ الرَّمِي مِنْ دُونَ أَسْهَمِ
أَلَا فَاعْلَمِي أَنَّ قَدْ أَصَبْتَ ، فَوَاصِلِي سَهَامَكَ أَوْ كُفِّي فَلَسْتُ بِمُسْلِمِ
فإنسان عين الدهر أصميت فاحذري مَطَالِبَةً بِالْقَلْبِ وَالْيَدِ وَالْقَمِ
أما هو في غيل غدا غابهُ الْقَنَا تَحْفُ بِهِ آسَادُ كُلِّ مِلْثَمِ
ولو أن لي رُكْنًا شَدِيدًا بِنَجْوَةٍ أَوَيْتُ لَهُ مِنْ بَأْسِ لِحْظِكَ فَارْحَمِي

وهو إشبيلي ، كان من أهل الفلسفة كما في « المسهب » ، قال : وهو فيلسوف المغرب ، ظاهر الزهد والورع ، استدعاه من إشبيلية أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين إلى حضرة مرآكش ، وصيره جليسه وأنيسه ، وفيه يقول بعض أعدائه :

دولة لابن تاشفين عليّ طهرت بالكمال من كل عيب
غير أن الشيطان دس إليها من خباياه مالك بن وهيب

وأمره علي بمناظرة محمد بن تومرت الملقب بالمهدي الذي أنشأ دولة بني عبد المؤمن .

[أشعار لأبي الصلت]

٣٤٢ - وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز المذكور في غير هذا الموضع من هذا الكتاب يستدعي بعض إخوانه ^١ :

بمعاليك وجدك جد بلقياك لعبدك
حضر الكل ولكن لم يطب شيء لفقدك

وقال :

وراعب في العلوم مجتهد لكنه في القبول جُلُودُ
فهو كذي عنة به شبق ومشتهي الأكل وهو معود

وقال :

لئن عرضت نوى وعدت عواد أدالت من دُنُوك بالبعاد
فما بعدت عن اللقيا جُوم تَدانت بالمحبة والوداد
ولكن قُرب دارك كان أندى على كبدي وأحلى في فؤادي

وله في مجمرة :

ومحرورة الأحشاء لم تدّر ما الهوى ولم تلدر ما يلقى المحب من الوجد
إذا ما بدا برق المدام رأيتها تثير غماماً في الندي من الند
ولم أر ناراً كلما شب جمرها رأيت الندامى منه في جنة الخلد

١ معظم هذه القطع لأبي الصلت وردت في الخريدة ٤ / ١ : ٢٥٨ - ٣٢٠ .

وقوله من قصيدة :

وإن هم نكصوا يوماً فلا عَجَبُ
العودُ أحمدُ والأيتامُ ضامنةُ
قد يَكْنَهُمُ السيفُ وهو الصارمُ الذِكرُ
عُقْبَى النجاحِ ووعدُ الله مُنْتَظَرُ

وقال :

تقريبُ ذي الأمرِ لأهلِ النُهي
هذا بهِ أولى وما ضَرَّه
أفضلُ ما ساس بهِ أمرَه
تقريبُ أهلِ اللهو في التَّدَرُّه
أدنى إلى الشمسِ من الزُّهْرَه
عطاردُ في جُلِّ أوقاته

وقوله :

تُفَكِّرُ في نُقصانِ مالِكَ دائماً
ويشْنِيكَ خوفُ الفقْرِ عن كلِّ بَغْيَةٍ
وتغفلُ عن نقصانِ جسمِكَ والعمرِ
وخوفكَ حالَ الفقرِ شرُّ من الفقرِ

وقوله :

يا ليلة لم تَبَيِّنْ من القصرِ
لم تكُ إلَّا كلاً ولا ومضتُ
كانتْها قُبْلَةً على حَدَرِ
تدفعُ في صدرها يدُ السَّحَرِ

وقال فيمن نظر إليه فأعرض عنه :

قالوا : ثنى عنك بعد البشرِ صَفْحَتَهُ
فقلتُ : لا بل درى وجدي بعارِضِهِ
فهل أصاخ إلى الواشي فغيرَه
فردَّ صَفْحَتَهُ عمداً لأبصرَه

وقال :

حكَّت الزمان تَلَوْنًا
فوصالها بردُ الأصبِ
لمحبِّها العاني الأسيرِ
لِوهجرها حرُّ الهجيرِ

وقال يستدعي :

هو يومٌ كما تراه مطيرٌ كَلِبَ القرُ فيه والزمهيرُ
وأرانا الغمامُ والبردُ ثوبيه ن عَلَيْنَا كلاهما مجرورُ
ولدينا شمسان شمسٌ من الرّا ح وشمسٌ تسعى بها وتدورُ
فمن الرّأي أن تُسَبَّ الكوانيه نُ بأجذاها وتُرْخَى الستورُ
فاتركِ الاعتذارَ فيه فتركِ الـ شربِ في مثلِ يومنا تعذيرُ

وقال :

هو البحرُ غُصٌّ فيه إذا كان ساكناً على الدرّ واحذره إذا كان مُزْبِداً

وقال :

غبتَ عنا فغاب كلُّ جمالٍ ونأى إذ نأيتَ كلُّ سرورِ
ثمَّ لما قدمتَ عاودنا الأذ سٌ وَقَرَّتْ قلوبنا في الصدورِ
فلو أنّا نَجْزِي البشيرَ بنعمي لَوَهَبْنَا حَيَاتِنَا للبشيرِ

وقال :

كم ضيّعتَ منك المني حاصلًا كان من الأحزم أن يُحَفَظَا
فالفظُ بها عنك فمن حقٌّ ما يخفي صواب الرّأي أن يُلَفَظَا
فإن تعللتَ بأطماعها فإنّما تحلُمُ مستيقظَا

وقال :

يقولون لي صبراً وإنّي لصابرٌ على نائباتِ الدهرِ وهي فواجعُ
سأصبرُ حتى يقضيَ الله ما قضى وإن أنا لم أصبرُ فما أنا صانعُ

وقال :

بأبي خَوْدُ شَمُوعٌ^١ أَقْبَلْتُ تَحْمِلُ شَمْعَهُ
فَالْتَقَى نَوْرَاهُمَا وَاحِدٌ تَلَفَا قَدْرًا وَرَفَعَهُ
وَمَسِيرُ الشَّمْسِ تَسْتُهُ لَدَى بَضْوَةِ النَّجْمِ بَدَعُهُ

وقال في فرس أشهب :

وَأَشْهَبُ كَالشَّهَابِ أَضْحَى يَلُوحُ فِي مُذْهَبِ الْجَلَالِ
قَالَ حُسُودِي وَقَدْ رَأَاهُ يَخُبُّ نَحْيِي^٢ إِلَى الْقِتَالِ :
مَنْ أَجْلَمَ الصَّبْحَ بِالثَّرِيَا وَأَسْرَجَ الْبَرْقَ بِالْهَلَالِ

وقال :

رَمَتْنِي صُرُوفُ الدَّهْرِ بَيْنَ مَعَاشِرٍ أَصَحُّهُمْ وَدَّاءَ عَدُوٍّ مُقَاتِلٍ
وَمَا غَرَبَةُ الْإِنْسَانِ فِي غَيْرِ دَارِهِ وَلَكِنَّهَا فِي قَرَبٍ مَنْ لَا يَشَاكِلُ

وقال :

أَصْبَحْتُ صَبًّا دَنَقًا مَغْرَمًا أَشْكُو جَوَى الْحَبِّ وَأَبْكِي دَمًا
هَذَا وَقَدْ سَلَّمَ إِذْ مَرَّ بِي فَكَيْفَ لَوْ مَرَّ وَمَا سَلَّمَ

وقال :

وَقَفْنَا لِلتَّوَى فَهَقَّتْ قُلُوبُ أَضَرَّ بِهَا الْجَوَى وَهَمَّتْ شُؤُونُ
يُنَاجِي بَعْضُنَا بِاللَّحْظِ بَعْضًا فَتَعَرَّبُ عَنْ ضَمَائِرِنَا الْعِيُونُ
فَلَا وَاللَّهِ مَا حَفِظْتَ عَهْدُ كَمَا ضَمِنُوا وَلَا قُضِيَتْ دِيُونُ

١ الشموع : اللعوب .

٢ الخريدة : يجنب خلفي .

ولو حكم الهوى يوماً بعدلٍ لأنصفَ من يَفي ممّن يخونُ
أمرٌ بداركم وأغصُ طرفي مخافةً أن تُظنَّ بي الظنونُ

٣٤٣ - ولما رأى عبدُ الرحمن بن سبلاق^١ الحضرمي الإشبيلي في النوم
أنّه مرَّ على قبر وقوم يشربون حوله وسط أزاهر فأمرّوه أن يرثي صاحب القبر ،
وهو أبو نُوّاس الحسن بن هانئ ، قال :

جادك يا قبرُ انسكابُ^٢ الغمامِ وعادَ بالروح عليك السلامُ
ففيك أضحي الظرفُ مستودعاً واستترتُ عنّا عيونُ الظلامِ

٣٤٤ - وقال أبو بكر محمد بن نصر الإشبيلي^٣ :

وكأنّما تلك الرياضُ عرائسُ ملبوسهن معصفرٌ ومزعفرُ
أو كالقيان لبسن مَوْشِيّ الحلى فلهنَّ في وَشِيّ اللباسِ تبخترُ

٣٤٥ - وقال أحمد بن محمد الإشبيلي^٤ :

أما ترى النرجسَ الغضَّ الذكيّ بدا كأنّه عاشقٌ شابت ذوائبُهُ
أو المحبُّ شكاً لما أضرب به قرطُ السقامِ فعادتهُ حبايبُهُ
وقال^٥ :

رُبَّ نَيْلُوفَرٍ غداً مخجلٍ الرا ثي إليه نفاسةٌ وغرابةُ
كملكٍ للزنجِ في قبةٍ بي ضياء يدنو الدجى فيعلقُ بابهُ

١ في الأصول : سبلاق ، والتصويب عن الجذوة : ٢٥٥ .

٢ الجذوة : نشاط ؛ وهو السحاب المرتفع .

٣ البيتان في كتاب البديع : ٢٧ .

٤ هو أبو جعفر ابن الأبار الذي سبق ذكره ؛ وترجم له صاحب المغرب ١ : ٢٥٩ وفيه القطعتان .

٥ البديع : ١٤٦ .

٣٤٦ - وقال أبو [الحسن] الأصمغ بن سيد :

كأنما الـرجسُ في منظرِ الـحُسنِ الذي أمثاله تُبتَغى
أناملُ من فضةٍ فوقه كأسٌ من التبرِ به أفرغا

٣٤٧ - وقال أبو إسحاق إبراهيم بن خيرة الصباغ ممّا أنشده له أبو عامر
ابن مسلمة في كتاب « حديقة الارتياح » ٢ :

يومٌ كأنَّ سحابه لبست عِمامي المصامتُ
حُجبتُ به شمس الضحى بمثالِ أجنحة الفوَاحتُ
فالغيثُ يبكي فَقَدَها والبرقُ يضحكُ مثلَ شامِتُ
والرعدُ يخطبُ مُفصِحاً والجوُّ كالمحزونِ ساكتُ
والروضُ يسقيه الحيا والنَّورُ ينظرُ مثلَ باهتُ
فاشربْ وَلَدَ بجنّةٍ واطربْ فإنَّ العمرَ فائتُ
ولهُ :

ربَّ ليلٍ طالَ لا صُبْحَ لهُ ذي نجومٍ أقسمتُ أن لا تغورُ
قد هتكنا جُنْحَهُ من فَلَقٍ من خمورٍ ووجوهٍ كالبدورِ
إذ بددتُ تشبهها في كأسها نارُ إبراهيمَ في بردٍ ونورِ
صرعَتنا إذ علونا ظَهرها في ميادينِ التصابي والسرورِ
وكانّا حينَ قمنا معشرٌ نُشِرُوا بعدَ مماتٍ من قبورِ

٣٤٨ - وقال أبو بكر ابن حجاج ٣ :

- ١ زيادة من الجذوة : ١٦٤ ؛ قال الحميدي : وهو شاعر إشبيلي رأيته قبل الخمسين وأربعمائة .
٢ الجذوة : ١٤٥ وفيه بعض الأبيات الثائية ، ونسبها لأبي عامر ابن مسلمة في المطمح : ٢٣ وهي في المغرب ١ : ٢٦٠ لابن خيرة .
٣ هو أبو بكر عبد الله بن حجاج من شعراء المعتضد ، هجر إشبيلية إلى الجزيرة الخضراء وأخذ يمدح محمد بن القاسم بن حمود (المغرب ١ : ٢٦١) .

لَمَّا كَتَمْتُ الْحَبَّ لَا عَنْ قِلَّةٍ وَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الْبُكَاءَ وَالْعَوِيلَ
نَادَيْتُ وَالْقَلْبُ بِهِ مَغْرَمٌ يَا حَسْبِيَ اللَّهُ وَنَعَمَ الْوَكِيلُ

وقال :

يقولون إِنَّ السَّحَرَ فِي أَرْضِ بَابِلٍ وَمَا السَّحَرُ إِلَّا مَا أَرْتِكَ مُحَاجِرُهُ
وَمَا الْغَصْنُ إِلَّا مَا انْتَنَى تَحْتَ بُرْدِهِ وَمَا الدَّعْصُ إِلَّا مَا طَوَّتَهُ مَآزِرُهُ
وَمَا الدَّرُّ إِلَّا ثَغْرُهُ وَكَلَامُهُ وَمَا اللَّيْلُ إِلَّا صُدُغُهُ وَغَدَاثَرُهُ

وهذه الأبيات من قصيدة في محمد بن القاسم بن حمّود ملك الجزيرة
الخرّاء ، أعادها الله تعالى .

٣٤٩ - وقال الرّصافي أبو عبد الله الشاعر المشهور ، وهو ابن روميّ
الأندلس ، في حريري^١ :

وبنفسِي من لَا أَسْمِيهِ إِلَّا بَعْضَ إِمَامَةٍ وَبَعْضَ إِيْشَارَةٍ
هُوَ وَالظُّلْمُ فِي الْمَجَالِ سَوَاءٌ مَا اسْتَفَادَ الْغَزَالَ مِنْهُ اسْتِعَارَةٍ
أَغْيَدُ يُمْسِكُ الْحَرِيرَ بَفِيهِ مِثْلَ مَا يُمْسِكُ الْغَزَالَ الْعَرَارَةَ

وهو القائل بمدح أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي :

لَوْ جِئْتَ نَارَ الْهَدْيِ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ قَبَسْتَ مَا شِئْتَ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ نَوْرِ

٣٥٠ - ولأبي جعفر أحمد بن الجزار^٢ :

وَمَا زِلْتَ أَجْنِي مِنْكَ وَالْدَهْرُ مُمَحِلٌ وَلَا ثَمَرٌ يُجْنَى وَلَا زَرْعٌ يُحْصَدُ
ثَمَارَ أَيَادٍ دَانِيَاتٍ قَطُوفُهَا لِأَوْرَاقِهَا ظِلٌّ عَلَيَّ مَمْدَدُ

١ ديوان الرصافي : ١٠٠ (عن النفع) : ٧٧ .

٢ مرقاة الأبيات ص : ٤١٣ ، وانظر المغرب ٢ : ٣٥٦ .

يُرى جارياً ماءً المكارمِ تحتها وأطيارُ شكري فوقهنّ تغرّدُ

٣٥١ - ولما نفي أبو جعفر ابن النبي^١ من ميسورقة ، وأقلع في البحر ثلاثة أميال ، ونشأت ريح ردّته ، لم يتجاسر أحد من إخوانه على إتيانه ، فكتب إليهم :

أحببتنا الألى عتبوا علينا وأقصونا وقد أزف الوداعُ
لقد كنتم لنا جدلاً وأنساً فما بالعيش بعدكم انتفاعُ
أقول وقد صدّرنا بعد يوم : أشوق بالسفينة أم نزاعُ
إذا طارت بنا حامت عليكم كأنّ قلوبنا فيها شرّاعُ

وله^٢ :

غصبت الثريا في البعاد مكانها وأودعت في عيني صادق نوثها
وفي كل حال لم تزال بخيلة فكيف أعرت الشمس حلة ضوئها

وله في غلام يرمي الطيور :

قالوا : تصيب طيور الجوّ أسهمه إذا رماها فقلنا : عندنا الخبرُ
تعلمت قوسه من قوس حاجبه وأيد السهم من أجفانه الحورُ
يلوح في برودة كالتنفس حالكة كما أضاء بجحج الليلة القمرُ
وربما راق في خضراء مونيقة كما تفتح في أوراقه الزهرُ

٣٥٢ - وقال الأديب الكاتب القاضي أبو المطرف ابن عميرة المخزومي .

١ هو شخص آخر غير أبي جعفر أحمد بن عبد الولي الذي أحرقه السيد الكنيطور في بلنسية ، وقد خلط بعض الناس بينهما ونبه ابن الأبار على ذلك في التكملة : ٢٤ . انظر ترجمة النبي في القلائد : ٢٩٨ والمطمح : ٩١ والمغرب ٢ : ٣٥٧ والهاشية ؛ وكتب اسمه في م ب « ابن البنا » .
٢ القلائد : ٣٠٠ ، والقطعتان الأخريان فيه وفي المغرب .

لَمَّا قَصَّ شَعْرُ مَلِكِ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ زِيَانَ بْنَ مَرْدَنِشٍ مَزِينَ ، فِي يَوْمٍ رَفَعَ فِيهِ

أَبُو الْمَطْرَفِ شَعْرًا ، فَخَرَجَتْ صِلَةُ الْمَزِينِ ، وَلَمْ تَخْرُجْ صِلَةُ أَبِي الْمَطْرَفِ ^١ :

أَرَى مَنْ جَاءَ بِالْمُوسَى مُوَأْسَى وَرَاحَةً مِنْ أَذَاعِ الْمَدْحِ صِفْرًا

فَأَنْجَحَ سَعْيُ ذَا إِذْ قَصَّ شَعْرًا وَأَخْفَقَ سَعْيُ ذَا إِذْ قَصَّ شِعْرًا

وَأَسَمِ أَبِي الْمَطْرَفِ أَحْمَدَ ، وَهُوَ مِنْ جَزِيرَةِ شَقَرٍ ، مِنْ كُورَةِ بِلَنْسِيَةِ .

٣٥٣ - وَكَانَ الْكَاتِبُ الْحَسِيبُ أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ طَلْحَةَ يَعِشُقُ عُلُجًا مِنْ

عُلُوجِ ابْنِ هُوْدٍ وَيَمَاشِيهِ فِي غَزَوَاتِهِ ، وَفِيهِ يَقُولُ ^٢ :

مَا أَحْضَرُ الْغَزَا مِنْ صِلَاحٍ كَلَّا وَلَا رَغْبَةَ الْجِهَادِ

لَكِنْ لَكَيْمًا يَكُونُ دَاعٍ لِقَرِينَا خَيْرَةَ الْجِيَادِ

وَقَدْ تَقَدَّمَتْ حِكَايَتُهُ فَلْتَرَجِعْ .

٣٥٤ - وَكَانَ صَنْوَبَرِيُّ الْأَنْدَلُسِ أَبُو إِسْحَاقَ ابْنَ خَفَاجَةَ ، وَهُوَ مِنْ

رِجَالِ الذَّخِيرَةِ وَالْقَلَائِدِ وَالْمَسْهَبِ وَالْمَطَرِبِ وَالْمَغْرِبِ ، وَشَهْرَتُهُ تَغْنِي عَنْ الْإِطْنَابِ

فِيهِ ، مُعْرَى بِوَصْفِ الْأَنْهَارِ وَالْأَزْهَارِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ يَسْمُونَهُ

الْجَنْتَانَ ، وَمِنْ أَكْثَرِ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ ، وَتُوفِّيَ سَنَةَ ثَلَاثٍ أَوْ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ

وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَوُلِدَ سَنَةَ خَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَمِنْ نَظْمِهِ قَوْلُهُ ^٣ :

رَبِّمَا اسْتَضْحَكَ الْحَبَابَ حَبِيبٌ نَفَضَتْ لَوْنَهَا عَلَيْهِ الْمِدَامُ

كَلَّمَا مَرَّ قَاصِرًا مِنْ خُطَاهُ يَتَهَادَى كَمَا يَمُرُّ الْغَمَامُ

١ القدح : ٤٣ .

٢ القدح ١١٤ - ١١٧ . وانظر ما تقدم ص ٣٠٧ - ٣١٠ .

٣ ديوان ابن خفاجة : ٦٢ ، ١٨٣ ، ٣٦٠ ، ٣٥٦ .

٤ م : كما تهادى .

سَلَّمَ الغصنُ والكثيبُ علينا فعلى الغصنِ والكثيبِ السَّلامُ
وبات مع بعض الرؤساء فكاد ينطفئ السراج ثم تراجع نوره ، فقال :
وأغرَّ ضاحك وجهه مصباحه فأنار ذا قمرًا وذلك فرقدًا
ما إن خبا تلقاء نورِ جبينه حتى ذكا بذكائه فتوقدا
وله :

كتبْتُ وقلبي في يدكَ أسيرُ يُقيمُ كما شاء الهوى ويسيرُ
وفي كلِّ حينٍ من هواك وأدمعي بكلِّ مكانٍ روضةٌ وغديرُ
وله :

كتابنا ولدينا البدرُ ندُّمانُ وعندنا أكؤسٌ للراح شُهبانُ
والقُضبُ مائسةٌ ، والطيرُ ساجعةٌ والأرضُ كاسيةٌ ، والجوُّ عُريانُ

٣٥٥ — ولما سئل أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري المعروف بالأبيض عن
لغة فعجز عنها بمحضر مَنْ خجل منه أقسم أن يقيد رجله بقيد حديد ، ولا
ينزعه حتى يحفظ « الغريب المصنف » فاتفق أن دخلت عليه أمه في تلك الحال ،
فارتاعت ، فقال :

ريعتُ عجوزي أن رأيتني لا بساً حلقَ الحديدِ ومثلُ ذاك يَرُوعُ
قالت : جُنِنتُ ؟ فقلت : بل هي همةٌ هي عنصرُ العلّياء واليتبوعُ
سنَّ الفرزدقُ سنَّةً فتبعْتُها إنِّي لما سنَّ الكرامُ تبَّوعُ

وكان شاعراً وشاحاً وطاح دمه على يد الزبير أمير قرطبة لما هجاه بمثل قوله :

عَكَّفَ الزبيرُ على الضلالةِ جاهداً ووزيرهُ المشهورُ كلبُ النارِ
ما زال يأخذُ سجدةً في سجدةٍ بينَ الكؤوسِ ونعمةِ الأوتارِ

فلذا اعتراه السهو سَبَّحَ خَلْفَهُ صَوْتُ الْقِيَانِ وَرَنَةُ الْمَرْمَارِ

ولما بلغ الزبير عنه ذلك وغيره أمر بإحضاره ، فقرعه ، وقال : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إنني لم أر أحقّ بالهجو منك ، ولو علمت ما أنت عليه من المخازي لهجوت نفسك إنصافاً ، ولم تكلمها إلى أحد ، فلما سمع الزبير ذلك قامت قيامته ، وأمر بقتله .

وأنشد له ابن غالب في « فرحة الأنفس » قوله في حلقة خائط :

وحلقة كشعاع الشمس صافية لو قابلت كوكباً في الجو لالتها
تأنق القَيْنُ في إحكام صنعها حتى أفاض على أطرافها الذهباً
كأنها بيضة قد قد قوَّنسها وكل جنب لها بالطعن قد ثُقباً

وقال فيمن يحدث نفسه بالخلافة^١ :

أمير المؤمنين ، نداء شيخ أفادك من أماليه اللطيفة
تحفظ أن يكون الجذع يوماً سريراً من أسرتك المنيفة
وأذكر منك مصلوباً فأبكي وتضحكني أمانيك السخيفة

وهاجى ابن سارة ، فقال فيه ابن سارة^٢ :

ومن العجائب أن يكون الأبيض بحماره بين السوابق يركض

٣٥٦ - وقال إمام النحاة بالأندلس أبو علي عمر الشلوبين فيمن اسمه

قاسم^٣ :

١ مرت الأبيات ص : ٤٦١ ؛ وقد سقطت من نسخة « م » .

٢ زاد المسافر : ٦٧ .

٣ القدح : ١٥٣ .

وممّا شَجَا قلبي وَقَضَّ مدامعي هَوَى قَدْ قلبي إذ كلفتُ بقاسم
وكنتُ أظنُّ الميم أصلاً فلم تكن وكانتُ كيمٍ أَلَحَقْتُ بالزراقم

والزراقم : الحيات ، مشتقة من الزرقة ، والميم زائدة ، يريد أن ميم قاسم
كيمها ، فهو قاسٍ ، وهو منسوب إلى حصن شلوبينة^١ على ساحل غرناطة ،
وله من الشهرة والتأليف ما يغني عن الإطناب في وصفه ، وله « التوطئة »
و « شرح الجزولية » وغيرهما ، وكان مغفلاً ، ومع ذلك فهو آية الله تعالى
في العربية ، وكان في لسانه لكنة ، ولما أراد مأمون بني عبد المؤمن التوجه إلى
مُرْسِيَّة ، وقد ثار بها ابن هودٍ ، وأنشده الشعراء ، وتكلم في مجلسه الخطباء ،
قام الشلوين وقال دعاء منه : ثَلَمَك الله ونَشْرَكَ ، يريد سَلَمَك الله ونَصْرَكَ ،
لأنه بلكنته يردّ السين والصاد ثاء ، فكان كما قال : عاد المأمون وقد ثلم
عسكره ونثر .

٣٥٧ - ولما مرض الفقيه الزاهد أبو إسحاق إبراهيم الإلبيري^٢ دخل عليه
الوزير أبو خالد هاشم بن رعاء ، فرأى ضيق مسكنه ، فقال : لو اتخذت غير
هذا المسكن لكان أولى بك ، فقال وهو آخر شعر قاله :

قالوا ألا تَسْتَجِدُ بيتاً تعجبُ من حسنه البيوتُ
فقلتُ : ما ذلكم صواباً عَشْ^٣ كثير لمن يموتُ
لولا شتاء ، وَلَفْحُ قَيْظٍ وخوفُ لص ، وحفظُ قوتُ
ونسوةٌ يَبْتَغِينَ سترأُ بنيتُ بُنيانَ عَنكَبوتُ

١ هكذا قال ابن سعيد في القدح ، ولكن يبدو أنه سمي بذلك لأن أحد أجداده كان أبيض أشقر ،
وذلك هو معنى كلمة « شلوين » ؛ انظر ترجمته في الذيل والتكملة ٥ : ٦٠ ، والهاشية ؛ وفي
م : شلوبينية .

٢ انظر ديوان الالبيري : ١٠٩ .

٣ الديوان : حفش .

٣٥٨ - وقال أبو بكر ابن عبادة القزاز الموشح في ابن بسام صاحب
« الذخيرة » :

يا منيفاً على السماكين سام - حُزَّتْ خَصَلُ السباقِ عن بسام -
إن تحك مدحةً فأنت زهيرٌ أو تشببُ فعروةُ بنُ حزام -
أو تباكرُ صيدَ المها فابنُ حُجْرٍ أو تُبَكِّ الديار فابنُ حذام -
أو تدم الزمان وهو حقيقٌ فأبو الطيب البعيد المرامي

٣٥٩ - ولما انتثر سلك نظام مُلكٍ لمتونة تفرق مُلكَ الأندلس رؤساء
البلاد ، وكان من جملتهم الأمير أبو الحسن ابن نزار لما له من الأصالة في
وادي آش ، فحسده أهل بلده ، وقصدوا تأخيرَه عن تلك المرتبة ، فخطبوا في
بلدهم للملك شرق الأندلس محمد بن مردنيس ، ووجه لهم عماله وأوصاهم أن
يُخرج هذا الأسد من غِيْلِهِ ، ويفرق بينه وبين تأميله ، ورفعوا له أشعاراً
كان يستريح بها على كاسه ، ويبثها بمحضر من يركن إليه من جُلّاسه ، ومنها
قوله ، وقد استشعر من نفسه أنها أهل للتقديم ، مستحقة لطلب سلفه القديم :

الآن أعرفُ قَدَرَ النفعِ والضّرَرِ فكيف أصدرُ ما للملك من صدرِ
وكيف أطلعُ في أفقِ العلا قمرأً ويستهلُّ بكفّي واكفُ الدررِ
وكيف أملأُ صدرَ الدهرِ من رُعبٍ وأستقلُّ بحملِ الحادثِ النُكرِ
وأستعدُّ لما ترمي الخطوبُ به وأستطيلُ على الأيامِ بالفِكْرِ
لكنتي ربما بادرتُ متتهزأً لفرصةٍ مرقتُ كاللمحِ بالبصرِ
في أمّ رأسي ما يعيا الزمانُ به - شرحاً فسّلَ بعدها الأيامُ عن خبري

فعندما وقف ابن مردنيس على هذا القول وجهه إلى وادي آش من حملة
إليه وقيده ، وقدم به إلى مُرسية أسيراً ، بعدما كان مرتقباً أن يقدم أميراً ،
فلما وقعت عين ابن مردنيس عليه قال له : أمكن الله منك يا فاجر ، فقال :

أنت — أعزك الله — أولى بقول الخير من قول الشر ، ومن أمكنه الله من القدرة على الفعل فما يليق به أن يستقدر بالقول ، فاستحيا منه ، وأمر به للسجن ، فمكث فيه مدة ، وصدرت عنه أشعار في تشوقه إلى بلاده ، منها قوله :

لقد بلغ الشوقُ فوقَ الذي حسبت فهل للتلاقي سبيلُ
فلو أتني متّ من شوقكم غراماً لما كان إلا قليلُ
تعلّلتُني بالتداني المُنَى وينشدني الدهرُ : صبرٌ جميلُ
فقل لبشيتة إن أصبحتُ بعيداً فلم يسئلُ عنها جميلُ
أغضُ جفوني عن غيرها وسمعي عن اللومِ فيها يميلُ

ولم يزل على حاله من السجن إلى أن تحيّل في جارية مُحسنة للغناء حسنة الصوت وصنع مؤشحته التي أولها :

نازَعَكَ البدرُ اللَّيَاحَ بنتَ الدنانِ
فلم يدعْ لك اقتراحَ على الزمانِ

وفيهما يقول :

يا هل أقولُ للحسودُ والعيسُ تُحْدَى

يا لائمي على السّراحِ كانت أُماني
أخرجها ذاك السّماحُ إلى العيانِ

وجعل يلقيها على الجارية حتى حفظتها ، وأحكمت الغناء بها ، وأهداها إلى ابن مردنیش بعدما أوصاها أنّها متى استدعاها إلى الغناء وظفرت به في أطرب ساعة وأسرّها غنته بهذه الموشحة ، وتلطّفت في شأن رغبتها في سراح قائلها ، فلعلّ الله تعالى يجعل في ذلك سبباً ، واتفق أن ظفرت بما أوصاها به ، وأحسنّت غناء الموشحة ، فطرب ابن مردنیش لسماع مدحه ، وأعجبه مقاصد قائلها ،

فسألها : لمن هي ؟ فقالت : لمولاي عبدك ابن نزار ، فقال : أعيدي عليّ قوله «يا لائمي على السراح» فأعادته ، فداخلته عليه الرأفة والأريحية بما أصابه ، فأمر في الحين بحلّ قيده ، واستدعى به إلى موضعه في ذلك الوقت ، فلما دخل خلع عليه وأذناه وقال له : يا أبا الحسن ، قد أمرنا لك بالسراح على رغم الحسود ، فارجع إلى بلدك مُباحاً لك أن تطلب الملك بها وبغيرها إن قدرت ، فأنت أهل لأن تملك جميع الأندلس ، لا وادي آش ، فقال له : والله يا سيدي بل ألترم طاعتك والإقرار بأنك بعثني من قبر رماني فيه الحساد والوشاة ، ثم شربا حتى تمكنت بينهما المطاينة ، فقال له : يا ابن نزار ، الآن أريد أن أسألك عن شيء ، قال : وما هو يا سيدي ؟ قال : عما في أمّ رأسك حين قلت :

في أمّ رأسي ما يعنيا الزمانُ بهِ شرحاً فسَلْ بعدها الأيام عن خبري

فقال له : يا سيدي لا تسمع إلى غرور نفس ألقتَه على لسان نَشْوان لعبت بأفكاره الأماني وغطّت على عقله الآمال ، والله لقد بَقِيْتُ في داري أروم الاجتماع بجارية مَهِينة قدر سنة فما قدرت على ذلك ، ومنعتني منها زوجتي ، فكيف أطلب ما دونه قطع الرؤوس ونهب النفوس ؟ فضحك ابن مردنِش ، وجدّد له الإحسان ، وجهزه إلى بلده ، وأمر عمّاله أن يشاركوه في التدبير ، ويستأذنوه في الصغير والكبير ، فتأثّل به مجده ، وعظّم سعده .

ومن شعره قوله :

انظر إلى الروض سُحَيْراً وقد بَثَّ به الطَّلُّ علينا العيونُ
تَرْقُبُ مِنَّا يقظةً للمنى فقلْ لها أهلاً بداعي المجونُ
وحشها شمساً إلى أن ترى شمس الضحى تطرق تلك الجفون

وقوله :

تنبه لمعشوق وكأس وقبينة وروض ونهر ليس يبرح خفقا
فقد نبهت هذي الحدايق ورقها وفتح فيها الصبح بالطل أحداقا
ومهما تكن في ضيقة فأدر لها كؤوس الطلا فالسكر يوسع ما ضاقا

وقوله :

عطف القضيبي مع النسيم تميلًا والنهر موشى الحمائل والحلى
تركته أعطاف الغصون مظللًا ولنا عن النهج القويم مضللًا
أمسى يغازلنا بمقلة أشهل والطرف أسحر ما تراه أشهلا

وقال بعضهم : استدعاني أبو الحسن ابن نزار لمجلس أنس بوادي آش ،
فلما احتفل مجلسنا ، وطابت لذتنا ، قال : والله ما تمام هذه المسرة إلا حضور
أبي جعفر ابن سعيد وهو الآن بوادي آش ، فوافقناه على ذلك لما نعلم من
طيب حالتنا معهما ، وأنهما لا يأتيان إلا بما يأتي به اجتماع النسيم والروض ،
فخلا في موضع وكتب له :

يا خير من يدعى لكاس دائر ووجوه أقمار وروض ناضر
إننا حضرنا في الندى عصابة معشوقة من ناظم أو ناثر
كل مخلّى للذي يختاره في الأمن من ناه له أو زاجر
ما إن لهم شغل بفن واحد بل كل ما يجري بوقت الخاطر
شدو ورقص واقتطاف فكاهة وتعانق وتغامز بنواظر
وهم كما تدري بأفقي أنجم لكن لنا شوق لبدر زاهر

سيدي ، لازلت متقدما لكل مكربة ، هل يجمل التخلف عن ناد قام فيه

السُرور على ساق ، وضحك فيه الأنس ملء فيه ، وانسدل^١ به ستر الصون ،
وفاء عليه ظلُّ النعيم ، وسقّرت فيه وجوه الطرب ، وركضت خيل اللهو ، وثار
قتام الند ، وهطلت سحاب ماء الورد ، وطُيبت الكؤوس ، كالعرائس
على كراسي العروس^٢ ، المثقلة بالعاج والآبنوس ، وكأنّ قطع النهار ممتزجة
بقطع الظلام ، أو بني حام قد خالطت بني سام ، وعلى رؤوس الأقداح ، تيجان
نظمها امتزاج الماء بالراح ، فطوراً تستحيي فيبدو خجلها ، وطوراً تمتزج^٣
فيظهر وجّلها ، والعُود ترجمان المسرة قد جعلته أمّه في حجّرها ، كولد
ترضعه بدرّها ، وساقى الشرب كالغصن الرطيب ، أوراقه أردية الشرب ،
وأزهاره الكؤوس ، التي لا تزال تطلع وتغرب كالشموس ، ساق يفهم
بالإشارة ، حلو الشمائل عذب العبارة ، ذو طَرَف سقيم ، وخدّ كأنّه
من خفّره لطيم ، ولدينا من أصناف الفواكه والأزاهر ، ما يحار فيه الناظر ،
وهل تكمل لذة دون إحضار خلود الورد ، وعيون النرجس ، وأصداغ الآس ،
ونهود السفرجل ، وقودود قصب السكر ، ومباسم قلوب الجوز ، وسرر
التفاح ، ورُضاب ابنة العنب ، فقد اكتمل بهذه الأوصاف المختلصة من أوصاف
الحبايب الطرب :

فَطِيرَ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ عِنْدَ وَصُولِهَا إِلَيْكَ وَلَا تَجْعَلْ سِوَاكَ جَوَابَهَا
فَلَا عَيْنَ إِلَّا وَهِيَ تَرْتَوُّ بِطَرْفِهَا إِلَيْكَ فَيَسَّرُ فِي الْمِطَالِ حَسَابَهَا
فَقَدْ أَصْبَحَتْ تَعْلُو عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ لِبُعْدِكَ فَاكْشِفْ عَنْ سَنَاهَا ضِيَابَهَا

قال أبو جعفر : فجعلتُ وصولي جواب ما نَظَمَ ونَثَرَ ، وألّفت الحالة
يقصر عن خبرها الخبر ، فانغمسنا في النعيم ، انغماس عَرَفَ الزهر في

١ ب : فانسدل .

٢ ب : العرائس .

٣ م ودوزي : يخلف .

النسيم ، ومَرَّ لنا يومٌ غَضَ الدهر عنه جَفَنَه ، حتى حسبناه عنواناً لما وعد الله تعالى به في الجنة .

وشرب يوماً مع أبي جعفر ابن سعيد والكتندي الشاعر في جنة بزاوية غَرَناطة ، وفيها صِهْرِيح ماء قد أحلق به شجر نارنج وليمون وغير ذلك من الأشجار ، وعليه أَنْبُوبُ ماء تتحرك به صورة جارية راقصة بسيوف وطيفور رخام يصنع في أنبوبة الماء صورة خباء ، فقالوا : نقسم هذه الأوصاف الثلاثة ، فقال أبو جعفر يصف الراقصة :

وراقصةٍ ليست تَحَرَّكُ دُونَ أَنْ يَلُورُ بِهَا كَرهاً فَتَنْضِي صَوَّارِماً
لِإِذَا هِيَ دَارَتْ سُرْعَةً خَلَّتْ أَنتَهَا إِلَى كُلِّ وَجْهِ فِي الرِّيَاضِ تَلَقَّتْ
وَقَالَ ابْنُ نَزَّارٍ فِي خَبَاءِ الْمَاءِ :

رَأَيْتُ خَبَاءَ الْمَاءِ تُرْسِلُ مَاءَهَا فَنَازَعَهَا هَبُّ الرِّيحِ رَدَاءَهَا
تَطَاوَعُهُ طَوَّاراً وَتَعْصِيهِ تَارَةً كَرَاقِصَةٍ حَلَّتْ وَضَمَّتْ قَبَاءَهَا
وَقَدْ قَابَلَتْ خَيْرَ الْأَنَامِ فَلَمْ تَزَلْ لَدَيْهِ مِنَ الْعِلْيَاءِ تُبْئِدِي حَيَاءَهَا
إِذَا أُرْسِلَتْ جَوْدًا أَمَامَ يَمِينِهِ أَبِي الْعَدْلِ إِلَّا أَنْ يَرُدَّ إِبَاءَهَا

وقد قيل : إن هذه الأبيات صنعها بمحضر الأمير أبي عبد الله ابن مَرْدَنِيَش ملك شرق الأندلس ، وإنه لما أبلغته الضرورة أن يرتجل في مثل ذلك شيئاً ، وكانت هذه عنده مُعَدَّةً ، فزعم أنه ارتجلها ، قال أبو عمرو ابن سعيد : وهذا هو الصحيح ، فإنه ما كانت عادته أن يخاطب عمي أبا جعفر بخير الأنام ؛ فإن كل واحد منهما كفؤ الآخر .

وقال الكتندي :

وصهريجٍ تَخَالُ بِهِ لُجَيْنًا يُذَابُ وَقَدْ يُذْهَبُ الْأَصِيلُ :

كَانَ الرُّوضُ يَعِشْقُهُ فَمِنْهُ عَلَى أَرْجَائِهِ ظِلُّ ظَلِيلٍ
 وَتَمْنَحُهُ أَكْفُ الشَّمْسِ عِشْقًا دَنَانِيرًا فَمِنْهُ لَهَا قَبُولُ
 إِذَا رَفَعَ النِّسِيمُ الْقُضْبَ عَنْهَا فَحِينَئِذٍ يَكُونُ لَهَا سَبِيلُ
 وَلِلنَّارِ نَجْ تَحْتَ الْمَاءِ لَمَّا تَبَدَّئَتْ عَكْسَهَا جَمْرٌ بَلِيلُ
 وَلِلْيَمُونِ فِيهِ دُونَ سَبْكِ جَلَّاجِلُ زُخْرُفٍ بِصَبَا تَجُولُ
 فَيَا رَوْضًا بِهِ صُقِّلَتْ جَفُونِي وَأَرْهَفَ مَتْنَهُ الزَّهْرُ الْكَلِيلُ
 تَنَاطَرُ فِيكَ أَسْلَاكُ الْغَوَادِي وَقَبْلَ صَفْحِ جَدُولِكَ الْقَبُولُ
 وَلَا بَرَحْتَ تُجَمِّعُ فِيكَ شَمْلًا مِنَ الْأَكْيَاسِ وَالْكَاسِ الشَّمُولُ
 بُدُورٌ تَسْتَدِيرُ بِهَا نَجُومٌ مَعَ الْإِصْبَاحِ لَيْسَ لَهَا أَفُولُ
 يَهِيمُ بِهِمْ نَسِيمُ الرُّوضِ الْفَأَى فَمَنْ وَجَدَ لَهُ جِسْمَ عَلِيلُ

٣٦٠ - وروي أن الوزير أبا الأصمغ عبد العزيز بن الأرقم وزير المعتصم
 ابن صُمَادِح رأى راية خضراء فيها صنيفة بيضاء في يد عِلْجٍ من علوج المعتصم
 نَشَرَهَا عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَالَ :

نَشَرْتَ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ جَنَاحًا خُضْرَاءُ صَيَّرَتْ الصَّبَاحَ وَشَاخًا
 نَحْكِي بِتَحْقِيقِ قَلْبٍ مِنْ عَادِيَتِهِ مَهْمَا يَصَافِحُ صَفْحُهَا الْأَرْوَاحَا
 ضَمَنْتُ لَكَ النِّعْمَى بِرَأْيِي ظَافِرٍ فَتَرْقُبِ الْفَأَلَ الْمُشِيرَ نَجَاحَا

وكان هذا الوزير آية الله تعالى في الوفاء ، وأرسله المعتصم إلى المعتمد بن
 عَبَّاد ، فأعجبت المعتمد محاولته ، ووقع في قلبه ، فأراد إفساده على صاحبه ،
 وأخذ معه في أن يقيم عنده ، فقال له : ما رأيت من صاحبي ما أكره فأوثر عند غيره
 ما أحب ، ولو رأيت ما أكره لما كان من الوفاء تركي له في حين فَوْضَ إِلَيَّ
 أمره ، ووثق بي ، وحمَلَنِي أَعْبَاءَ دَوْلَتِهِ ، فاستحسن ذلك ابنُ عَبَّاد ، وقال
 له : فَاكْتُمْ عَلَيَّ ، فَلَمَّا عَادَ إِلَى صَاحِبِهِ سَأَلَهُ عَنْ جَمِيعِ مَا جَرَى لَهُ ، فَقَالَ لَهُ فِي

أثناء ذلك : وجرى لي معه ما إن أعلمتك به خِفْتُ أن تحسب فيه كالامتنان والاستظهار ، وتظن أن خاطري فسَدَ به ، وإن كتمتك لم أوفِ النصيحة حقها ، وخفت أن تطَّلِعَ عليه من غيري ، فيحطُّني ذلك من عينك ، وتحسب فيه كيداً ، فحمل عليه في أن يُعلِّمه ، فأعلمه بعد أن تلطَّفَ هذا التلطف ، وهو من رجال الذخيرة والمسهب ، وابنه الوزير أبو عامر من رجال القلائد .

ومن نظم أبي عامر :

ففي الخيلِ يقتادها ذُبَّلاً خفافاً تُباري القنَّا الذابلاً
ترى كلَّ أجردٍ سامي التلِيلِ وتحسبهُ غُصْناً مائلاً

٣٦١ - وللوزير الكاتب أبي محمد ابن فرسان واسمه عبد البر ، وهو حسنة وادي آش ، يخاطب يحيى الميُورقي^١ :

أنعم بتسريح عليّ فعله سبب الزيارة للحطيم ويثرب
ولئن تقول كاشح أن الهوى درستَ معالنه وأنكر مذهبي
فمقالتي ما إن مكللت وإنما عمري أبي حمل التجاد بمنكي
وعجزت عن أن أستثير كينها وأشق بالصمصام صدر الموكب

وهذه الأبيات كتب بها إليه وقد أسنَّ وملَّ من الجهد معه ، يرغب في سراحه إلى الحجاز ، رحمه الله تعالى ، وتقبَّلَ نيته بمنه ويمنه .

٣٦٢ - وقال حاتم بن حاتم بن سعيد العنسي^٢ ، وكان صاحب سيف وقلم ، وعِلم وعَلَم :

يا دانياً مني وما أنا زائرُ لا أنت معذورٌ ولا أنا عاذرُ

١ ترجمته والشعر في المغرب ٢ : ١٤٢ وانظر التحفة : ١١٥ .

٢ ترجمته والشعر في المغرب ٢ : ١٦٨ والإحاطة ١ : ٣١٠ .

ماذا يضرك إذ ظللت بظلمة أن لا يطالع منك بدرٌ زاهرٌ

وتوفي المذكور بغرناطة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

٣٦٣ - وقال التطيلي الأعمى في أسد نحاس يقذف الماء^١ :

أَسَدٌ وَلَوْ أَنِّي أَنَا قِشُهُ الْحِسَابِ لَقَلْتُ صَخْرَهُ
فَكَأَنَّهُ أَسَدُ السَّمَاءِ يَمُجُّ مِنْ فِيهِ الْمَجْرَهُ

[من بدائه ابن ظافر]

قال ابن ظافر^٢ : صرنا في بعض العشايا على البساتين المجاورة للنيل ،
فرأينا فيه بئراً عليها دولابان متحاذيان^٣ ، قد دارت أفلاكهما بنجوم القواويس ،
ولعبت بقلوب ناظريهما لعب الأماني بالمفاليس ، وهما يثنان أنين الأشواق ،
ويفيضان ماء أغزر من دموع العشاق ، والروض قد جلا للأعين زبرجده ،
والأصيل قد راقه حسنه فنثر عليه عسجده ، والزهر قد نظم جواهره في
أجياد الفصوص ، والسواقي قد أذالت من سلاسل فضتها كل مصون ، والنبت قد
اخضر شاربه وعارضه ، وطيرف النسيم قد ركضه في ميادين الزهر راکضه ،
ورضاب الغيث قد استقر من الطين في لمى ، وحيات المجاري حائرة تخاف
من زمرد النبات أن يدركها العمى ، والبحر قد صقل النسيم درعه ،
وزعفران العشي قد ألقى في ذيل الجوّ ردّعه ، فأوسعنا ذلك المكان حسناً

١ مر البيتان ص : ٤٠٤ .

٢ بدائع البداهة ١ : ٢٣٢ .

٣ البدائع : يتحاذيان .

٤ البدائع : الماء .

٥ البدائع : والنهر .

وقلوبنا استحوذاً^١ ، وملأ أبصارنا وأسماعنا مسرةً والتذاذاً ، وملنا إلى
الدولابين شاكين أزمرًا حين سَجَعَت قيان الطير بألحانها ، وشَدَّت على
عيدانها ، أم ذكرًا أَيْام نَعِمًا وطابا ، وكانا أغصاناً رِطابا ، فنَفَقَيَا عنهما لذيد
الهجوع ، ورجعنا النوح وأفاضنا الدموع طلباً للرجوع ، وجلسنا نتذاكر ما في
تركيب الدواليب ، من الأعاجيب ، ونتناشد ما وصفت به من الأشعار ، الغالية
الأسعار ، فأفضى بنا الحديثُ الذي هو شجون ، إلى ذكر قول الأعمى التَّطِيلِي
في أسد نحاس يقذف الماء :

أسد ولو أني إلخ

فقال لي القاضي أبو الحسن علي بن المؤيد رحمه الله تعالى : يتولد من هذا
في الدولاب معنى يأخذ بمجامع المسامع ، ويضطرب الرائي والسامع ، فتأملت
ما قاله بعين بصيرتي البصيرة ، واستمددت مادة غريزتي الغزيرة ، فظهر لي
معنى ملائي أطراباً ، وأوسعني إعجاباً^٢ ، وأطرق كل منّا ينظم ما جاش به مدُّ
بحره ، وأنبأه به شيطانُ فكره ، فلم يكن إلاّ كنقرة العصفور ، الخائف
من الناطور ، حتى كمل ما أردنا من غير أن يقف واحد منّا على ما صنعه الآخر ،
فكان الذي قال :

حبذا ساعةُ العشيّة والدو لاب يُهندي إلى النفوس المسرّة^٣
أدهم لا يزال يَعدو ولكن ليس يعدو مكانه قَدَر ذرّة^٤
ذو عيون من القواديس تبكي كل عين من فائض الدمع ثرّة^٣
فلنك دائر يربنا نجوماً كل نجم يبدي لدينا المجرة^٤

١ البدائع : فاستحوذ علينا ذلك الموضع استحوذاً .

٢ واستمددت . . . إعجاباً : تغيرت صياغة هذه العبارة في البدائع .

٣ البدائع : تبدي . . . عبرة .

٤ البدائع : منها يربنا .

وكان الذي قلت :

ودولاب يثينُ أنينَ ثكلى ولا فقدأ شكاه ولا مَضَرَّةُ
ترى الأزهارَ في ضحكِ إذا ما بكى بدموعِ عينٍ منه ثرَّةُ
حكى فلَكَا تدورُ به نجومُ تؤثرُ في سرائرنا المسرةُ
يظلُّ النجمُ يشرقُ بعد نجمٍ ويغربُ بعدما تجري المجرةُ
ففعجينا من اتفاقنا ، وقضى العجب منه سائر رفاقنا ؛ انتهى .

رجع :

٣٦٤ - وكان لأبي محمد عبد الله بن شعبة الوادي أشي^١ ابن^٢ شاعر ،
فعرض عليه شعراً نظمهُ ، فأعجبه ، فقال :

شعرك كالبلستان في شكله يجمع بين الآسِ والوردِ
فاصنع به إن كنت لي طائعاً ما يصنعُ الفارسُ بالبندِ

٣٦٥ - ولشاعر الأندلس أبي عبد الله ابن الحداد الوادي أشي^٢ ، وهو من
رجال الذخيرة :

لزمْتُ قناعتي وقعدت عنهم فلستُ أرى الوزير ولا الأميرا
وكنْتُ سَمِيرَ أشعاري سفاهاً فعدتُ بها لفلسفي سَميرا

وله في العروض تأليفٌ مزجَ فيه بين الأنحاء الموسيقية ، والآراء الخليلية ،
وردَّ فيه على السرقسطي المنبوز بالحمار .

١ ترجمته والشعر في المغرب ٢ : ١٤٠ .

٢ ترجمته في الذخيرة ٢/١ : ٢٠١ والمطبع : ٨٠ والوادي ٢ : ٨٦ والإحاطة ٢ : ٢٥٠ والمسالك

١١ : ٤٠٠ والقوات ٢ : ١٦٧ والمغرب ٢ : ١٤٣ واسمه محمد بن أحمد بن الحداد ، والقطعة
الأولى في الذخيرة .

وله في المعتصم بن صُمّادح^١ :

لعلك بالوادي المقدّس شاطيء	فكالعنبر الهنديّ ما أنا واطيء
ولأتي في ريّاك واجدٌ ريجهم	فجمر ^٢ الأسى بين الجوانح ناشيء
ولي في السُرى من نارهم ومناهم	هداةٌ حُداةٌ ، والنجوم طوافيء
لذلك ما حنّت ركابي وحمحت	عِرابي وأوحى سيرها المتباطيء
فهل هاجها ما هاجني ولعلها	إلى الوحد من نيران قلبي لواجيء
رويداً فذا وادي لبّيتي وإنه	لورد لباناتي ولأتي لظاميء
موارد ^٣ تهيامي ومسرح ناظري	فللشوق غايات بها ومبادئ

واعترض عليه بعضهم بأنّه همز في هذه القصيدة ما لا يهمز ، فقال^٤ :

عجبت لغمازين علمي بجهلهم	وإنّ قناني لا تلين على الغمز
تجلّت لهم آيات فهمي ومنطقي	مبيّنة الإعجاز ملزمة العجز
ولاحت لهم همزية أوحديّة	وويل بها وويل لذي الهمز واللمز
رموها بنقص بينت فيه نقصهم	ومن لمس الأفعى شكا ألم النكر
فإن أنكرت أفهامهم بعض همزها	فقد عرفت أكبادهم صحّة الهمز

وله وهو ممّا يتغنّى به بالأندلس^٥ :

فدّر العقيق مجانباً لعقوقه	ودع العذّيب عذيب ذات الحال
أفقٌ محلّى بالقواضب والقنا	للأغبيد العطار لا المعطال

١ الذخيرة : ٢١٨ .

٢ الحريدة : فروح .

٣ الحريدة : ميادين .

٤ الذخيرة : ٢١٩ .

٥ الذخيرة : ٢٢٣ .

حجبوك إلا من تَوَهَّم خاطري وحمّوك إلا من تصوّر بالي
والقارطان جميلٌ صبري والكرى فمتى أرجي منك طيف خيال

ومن بدائع قوله ^١ :

سامح ^٢ أخاك إذا أتاك بزلّة فخلوص شيء قلما يتمكّن
في كل شيء آفة موجودة ^٣ إن السراج على سنانه يدخن

وأنشد أحد الأدباء هذين البيتين متمثلاً ، فأعجبا المعتصم ، وسأل عن قائلهما ، فأخبر ، فتبسم وقال : أتعرف إلى من أشار بهذا المعنى ؟ قال : ما أعرف إلا أنه مليح ، فقال المعتصم : كنت في الصبا وهو معي ألقت بسراج الدولة ، فقاتله الله ما أشعره ، فسلوه ، فلما باحثوه في ذلك أقر بحسن حدّس المعتصم . واكتففته سعايات ، وكان ممن يغلب لسانه على عقله ، ففر من المريّة ، وحُبس أخوه بها فقال ^٣ :

الدهر لا ينفك من حدثانه والمرء منقاد لحكم زمانه
وعلمت أن السعد ليس بمنجّج ما لا يكون السعد من أعوانه
والجدّ دون الجدّ ليس بنافع والرمح لا يمضي بغير سينانه

وبلغت الأبيات المعتصم فقال : شعره أعقل منه ، صدق فإنّه لا يتهيأ له صلاح عيش إلاّ بأخيه ، وهو منه بمنزلة السنان من الرمح ، ثم أمر بإطلاقه ولحقه به .

ولما قال في المعتصم :

١ الذخيرة : ٢٣٥ .

٢ الذخيرة : واصل .

٣ الذخيرة : ٢٣١ .

يا طالب المعروف دُونكَ فَاَتَرَكَنْ^١ دار المرية وارْفُضْ ابنَ صمادح
 رَجُلٌ إِذَا أَعْطَاكَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ أَلْقَاكَ فِي قَيْدِ الْأَسِيرِ الطَّائِحِ
 لَوْ قَدْ مَضَى لَكَ عُمُرُ نُوحٍ عِنْدَهُ لَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَالْبَعِيدِ النَّازِحِ
 اغْتَاطَ عَلَيْهِ ، وَأَبْعَدَهُ ، فَفَرَّ عَنْ بَلَدِهِ .

ومن المنسوب إليه في النساء :

خُنْ عَهْدَهَا مِثْلَ مَا خَانَكَ مُنْتَصِفًا وَاْمَنْحْ هَوَاهَا بِنْسِيَانِ وَسَلُّوَانِ
 فَالْغَيْدُ كَالرُّوْضِ فِي خُلُقٍ وَفِي خُلُقٍ إِنْ مَرَّ جَانِ أَتَى مِنْ بَعْدِهِ جَانِ
 وله :

حيثما كنتَ ظاعناً أو مقيماً دُمُ رَفِيعاً وَعَشْ مَنِيعاً سَلِيمَا

٣٦٦ - وقال ابن دَحِيَّةَ في « المطرب »^١ : إن من المجيدين في الجدلِّ
 والهلل ، ورقيق النظم والجزل ، صاحبنا الوزير أبا بلال^٢ ، وقال لي : إنَّه
 كان وبُردُ شَبَابِهِ قَشِيبٌ ، وَغُصْنُ اعْتِدَالِهِ رَطِيبٌ ، بِقَمِيصِ النَّسْكِ مُتَقَمِّصٌ ،
 وَبِعِلْمِ الْحَدِيثِ مُتَخَصِّصٌ ، فَاجْتَازَ يَوْمًا وَبِيَدِهِ مُجَلَّدٌ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ بِقَصْرِ
 بَعْضِ الْمُلُوكِ الْأَكْبَارِ ، وَمِنْ بَعْضِ مَنَازِرِهِ نَازِرٌ ، وَمَجْلِسُهُ بِخَوَاصِ نَدَمَائِهِ حَالٌ ،
 وَصَوْتُ الْمَثَانِي وَالْمَثَالِ عَالٌ ، فَقَالَ : أَطْلَعُوا لَنَا هَذَا الْفَقِيهَ ، فَلَعَلْنَا نَضْحَكُ مِنْهُ . فَلَمَّا
 مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَحَيًّا ، أَمَرَ السَّاقِي بِمُنَاوَلَتِهِ كَأْسِ الْحَمِيَا ، فَتَقَبَّضَ مُتَأَفِّقًا ،
 وَأَبْدَى تَمَعْرًا وَتَقَشَّفًا ، وَالسُّلْطَانُ يَسْتَغْرِبُ ضَحْكًا بِمَا هَجَمَ عَلَيْهِ ، وَيَدُ

١ المطرب : ٢٤١ .

٢ في المطرب : كصاحبنا الوزير أبي القاسم ابن البراق ، ومعنى ذلك أن هذا الخبر والأشعار التالية
 بعده كان يجب أن تعطى رقماً واحداً ؛ ولابن البراق ترجمة في المغرب ٢ : ١٤٩ وكنيته
 هناك أبو عمرو ، وتحفة القادِم : ٨٠ والوافي ٤ : ١٥٦ .

الساقى ممدودة إليه ، وافق أن انشقت من ذاتها الزجاجاة ، فظهر من السلطان
التطير من ذلك ، فأنشد الفقيه مرتجلاً :

ومجلس بالسّرور مُشتمل لم يخلُ فيه الزجاجُ من أدبِ
سرى بأعطافه يُرتَحُّه فشقَّ أثوابه من الطربِ

فسرَّ السلطان وسرِّي عنه ، واستحسن من الفقيه ما بدا منه ، وأمر له
بجائزة سنّية ، وخلعة رائقة [بهية] .

٣٦٧ - وما أحسن قول ابن البراق^١ :

يا سَرَحَةَ الحَيِّ يا مَطُولُ شَرَحُ الذي بَيْنَتَنَا يَطُولُ
ولي ديون عليكِ حَلَّتْ لو أَنَّهُ يَنْفَعُ الحُلُولُ

وقوله :

انظر إلى الوادي إذا ما غَرَّدَتْ^٢ أطيّاره شَقَّ النسيم ثيابه
أترأه أطرَبَهُ الهديل وزاده طرباً وحَقَّك أن حَلَّتْ جنابه
وله في غلام على فمه أثر المداد :

يا عجباً للمداد أضْحَى على فَمِ ضُمِّنَ الزُّلَّالَا
كالقار أضْحَى على الحميا والليل قد لامس الهلالا

٣٦٨ - وكتب أبو محمد عبد الله بن عذرة^٣ إلى بعض أصحابه من الأسر
في طَلَيْطَلَة :

١ المغرب : ١٤٩ ، ١٥٠ .

٢ المغرب : الذي مَذْغَرَدَتْ .

٣ في الأصول ودوزي : في معذرة ؛ وفي م : بن مغدرة والتصويب عن المغرب ٢ : ١٤٨ وفيه
الآيات .

لو كنتَ حيثُ تجيبي لأذاب قلبك ما أقول
يكفيك مني أني لا أستقل من الكبول
وإذا أردت رسالة لكم فما ألقى رسول
هذا وكم بيتنا وفي أيماننا كأس الشمول
والعودُ يخفق والدخا ن العنبريُّ به يحول
حال الزمانُ ولم يزلْ مذ كنت أعهد به يحول

٣٦٩ - ولأبي الحسن علي بن مهملل الجلياني^١ في أبي بكر ابن سعيد
صاحب أعمال غرناطة في دولة الملتمين :

لولا النهود لما عراك تنهدُ وعلى الخلود القلبُ منك يخذدُ
يا نافذاً قلبي بسهم جفونه مالي على سهم رميت به يدُ

٣٧٠ - وقال أبو زكريا يحيى بن مطروح في غلام كاتب أطلَّ عذاره^٢ :

يا حسنه كاتباً قد خطَّ عارضه في خده حاكياً ما خطَّ بالقلم
لام العذول عليه حين أبصره فقلت دعني فزين البرد بالعلم
وانظر إلى عجب ممّا تلوم به بدر له هالة قدّدت من الظلم
قولوا عن البحر ما شتم ولا عجب من عنبر الشحر أو من در مبسم

وله ، وقد عزّل عن مألقة وال غير مرضي ، ونزل المطر على إثره ،
وكان الناس في جدب :

وربّ وال سرّنا عزله فبعضنا هنأه البعض
قد واصلتنا السحب من بعده ولدّ في أجفاننا الغمض

١ ترجمته في المغرب ٢ : ١٥٠ وفيه البيتان ؛ وفي ب : « الجلياني » .

٢ ترجمته والشعر في المغرب ٢ : ١٥٥ .

لو لم يكن من نَجَسٍ شخصه ما طُهِرَتْ من بعده الأرضُ

٣٧١ - وكان الكاتب أبو بكر محمد بن نصر الأوسي^١ مختصاً بوزير عبد المؤمن أبي جعفر ابن عطية ، فقال فيه :

أبا جعفر نلتَ الذي نالَ جعفرُ ولا زلتَ بالعليا تُسرُّ وتُحِبُّ
عليكَ لنا فضل وبرٌّ وأنعمُ ونحن علينا كلُّ مدح يُحَبَّرُ

وحدَّث مَنْ حضر مجلس الوزير ابن عطية وقد أحسنَ من عبد المؤمن التغير الذي أفضى إلى قتله ، وقد افتتح ابنُ نصر مطلع هذه القصيدة ، فتغير وجه أبي جعفر ، لأن جعفر بن يحيى كان آخر أمره الصلب ، فكأن هذا عمم الدعاء ، والعجب أنه قُتل مثل جعفر بعد ذلك .

وهذا الشاعر هو القائل :

وما أنا عنْ ذاكَ الهوى مُتبدِّلُ وذا الغدْرُ بالإخوان غيرُ كريمٍ
بغيرك أُجري ذكرَ فضلكَ في الندى كما قد جرى بالروض هبُّ نسيمٍ
وإن كان عندي للجديد للذادة فلست بناسٍ حرمةً لقديمٍ

٣٧٢ - ولأبي عبد الله محمد بن علي اللوشي^٢ يخاطب صاحب « المسهب » :

بي إليكم شوقٌ شديدٌ ولكن ليسَ يبقى معَ الحفاء اشتياقُ
إن يُغيِّرَكم الفراقُ فودِّي لو خبرتم يزيدَ فيه الفراقُ

وله :

لو أنَّ لي قلباً كقلبي لكَ كنتُ أهجرُ هجرَكَ

١ ترجمته والبيتان في المغرب ٢ : ١٥٦ .

٢ ذكره ابن سعيّد في المغرب باسم « محمد بن عبد المولى » (٢ : ١٥٨) وفيه البيتان الأولان .

يكفيكَ أَنْكَ قَدْ نَسِيتُ وَلَسْتُ أَنْسِي ذَكَرَكَ
ومن العجائب أَنْتِي أَفْنِي وَأَكْتُم سِرَّكَ
كُن كَيْفَمَا تَخْتَارُهُ فَالْحُبُّ يَبْسُطُ عَذْرَكَ

وله :

هل عندكم عِلْمٌ بِمَا فَعَلْتُمْ بِنَا تِلْكَ الْجُفُونُ الْفَاتِكَاتُ بضعفها
نُصْحاً لَكُمْ أَنْ تَأْمَنُوهَا إِنَّهَا سحر النُّهْيِ ما تبصرون بطرفها

٣٧٣ - ولابنه أبي محمد عبد المولى ، وكان ماجناً ، لما نُعِيَ إليه وهو على
الشراب أحدُ أصحابه مرتجلاً :

إِنَّمَا دُنْيَاكَ أَكْلٌ وَشَرَابٌ وَقِحَابٌ
ثُمَّ مِنْ بَعْدُ صُرَاخٌ وَوَدَاعٌ وَتَرَابٌ

وله :

يا نديمُ اشْرَبْ عَلَى أَفْءٍ قِ صَقِيلٍ وَحَدِيقَةٍ
وَاسْقِنِي ثُمَّ اسْقِنِي دُمًّا مَّاسِقِي خَمْرًا وَرِيقَةٍ
مِنْ غَزَالٍ تَطْلُعُ الشَّمْسُ س بَحْدَ بِهِ أَنْيَقَةٍ
لَا تَفُوتُ سَاعَةً مِنْ كَأْسِ خَمْرٍ وَعَشِيقَةٍ
وَاجْتَنِبْ مَا سَخَرَتْ جَهَنَّمُ لَ لَهُ هَذِي الْخَلِيقَةُ
رَغَبُوا فِي بَاطِلٍ زَوْ ر بَزْهَدٍ فِي الْحَقِيقَةِ
لَيْسَ إِلَّا مَا تَرَاهُ أَنَا أَدْرِي بِالطَّرِيقَةِ

قال أبو عمران موسى بن سعيد : قلنا له : ما هذا الاعتقاد الفاسد الذي
لا ينبغي لأحد أن يصحبك به ؟ فقال : هذا قول لا فعل ، وقد قال الله تعالى

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾
(الشعراء : ٢٢٤) .

ثم قال ابن سعيد : ولولا أن حاكي الكفر ليس بكافر ما ذكرتها ، وهذا
متزع من قال من المجوس :

خُذْ من الدنيا بِحِظٍّ قبلَ أن ترحلَ عَنْهَا
فهي دارٌ لا ترى من بعدها أَحْسَنَ مِنْهَا

وهذا كفرٌ صُراح ، وقائله قد تَقَمَّصَ كُفْراً ، اللهم غَفِّراً .
وطلب منه بعض الأرذال ، أن يكتب له شفاعة عند أحد العُمَال ،
فكتب له رسالة فيها هذه الأبيات :

كتبتهُ مولاي في طالع	ما طارَ فيه طائرُ اليُمْنِ
وفكرةٌ حائلةٌ والحشا	يَنْهَبُ بالهَمِّ وبالْحُزْنِ
كَلَّفَنِي ساقطُ أخرقُ	مُشْتَهَرٌ بالطحن والقرنِ
أَكْذَبُ خلق الله أَرْدَاهُمُ	أُخْوَفُهُم في الخوفِ والأَمْنِ
يَكْفُرُ ما يُسْدى إِلَيهِ ولا	يَعْذُرُ خَلْقاً سيء الظنِّ
فإن صَنَعْتَ الخيرَ النُفَيْتِ	شراً وأضحى المجد ذا غَبْنِ
وانتقدَ الناسُ عليكَ الذي	تُسْدي له في أيِّ ما فنِّ
فافعلْ به ما هوَ أهلٌ له	واسمعه تفسيراً ولا أكني
أهِنَّهُ واصْفَعُهُ ولا تتركْ	بِوَابِ يَكْرَمِهِ لدى الإذنِ
واقطع بفيه القولَ واحرمه من	رَدِّ جوابِ أنسه يَدِنِي
وكَلِّما استنبط رأياً فس	فَهْهُ ودعه مُسْخَنَ الجفنِ
فهو إذا أَكْرَمْتَهُ فاسد	وصالحٌ بالهُونِ واللَّعْنِ

شَفَاعَتِي فِي مِثْلِهِ هَذِهِ فَلَا سِقَاهُ هَاطِلُ الْمَزْنِ

ودفع إليه الكتاب مخنوماً ، فسُرَّ به ، وحمله إلى العامل ، وسافر إليه أياماً ،
فلَمَّا دفعه إليه قرأه وضحك ، ودفعه إلى مَنْ يشاركه في ذلك من أصحابه ،
فوعده بخير وأخرجته إلى شغل لم يرضه ، فلَمَّا عاد منه قال له : أخرجتني
لأرْذَلِ شغل وأخسَّه فما فائدة الشفاعة إذن ؟ فقال له : أوتريد أن أفعل معك
ما تقتضيه شفاعة صاحبك ؟ قال : لا أقلَّ من ذلك ، فأمر من يأتيه بالأبيات ،
فقرئت عليه ، فانصرف في أسوأ حال ، فلَمَّا دخل غَرْناطة - وكان عبد المولى
تزوج فيها امرأة اغتبط بها - تزياً هذا الرجل بزي أهل البادية ، وزور كتاباً
على لسان زوجة لعبد المولى في بلدة أخرى ، وقال في الكتاب : وقد بلغني
أنك تزوجت غيري ، وأردت أن أكتب إليك في أن تطلّقي ، فوصلني كتابك
تعرفني فيه أن الزوجة الجديدة لم توافق اختيارك ، وأنتك ناظر في طلاقها ، فردني
ذلك عمّا عزمْتَ عليه ، فانظر في تعجيل ما وعدت به من طلاقها ، فإنك إن
لم تفعل لم أبقَ معك أبداً ؛ فلَمَّا مرَّ بدار عبد المولى رأى جارية زوجته فقال
لها : أنا رجل بَدَوِي أتيت من عند فلانة زوجة أبي محمد عبد المولى ، فعندما
سمعت ذلك أعلمت ستها ، وأخذت الكتاب ، فوقفت على ما فيه غير شاكّة في
صحتّه ، فلَمَّا دخل عبد المولى وجَدَهَا على خلاف ما فارقتها عليه ، فسألها عن
حالتها ، فقالت : أريد الطلاق ، فقال : ما سبب هذا وأنا أرغبُ الناسَ فيك ؟
فألقت إليه الكتاب ، فلَمَّا وقف عليه حَلَفَ لها أن هذا ليس بصحيح ، وأن
عدوّاً له اختلقه عليه ، فلم يُفِدْ ذلك عندها شيئاً ، ولم يَطِيبْ له بعد ذلك معها
عيش ، فطلّقها ، وعلم أن ذلك الرجل هو الذي فعل ذلك ، فقال له : لا جزاك
الله خيراً ، ولا أصلح لك حالاً ! فقال : وأنت كذلك ، فهذه بتلك ، والبادي
أظلم ، فما كان ذنبي عندك حين كتبت في حقّي ما كتبت ؟ فقال له : مثلكَ
لا يقول « ما ذنبي » أنت كللك ذنوب :

أَلَسْتُ بِالْأَمِّ الثَّقَلَيْنِ طُرّاً وَأَثْقَلَهُمْ وَأَفْحَشَهُمْ لِسَانًا
فَمَهْمَا تَبَغَّى بَرّاً عِنْدَ شَخْصٍ تَزَدُّ مِنْهُ بِمَا تَبَغَّى هَوَانًا
فَانصَرَفَ عَنْهُ عَالِي اللِّسَانِ بِلَعْنَتِهِ .

وكان أحد بني عبد المؤمن قد ألزمه أن ينسخ له كتاباً بموضع منفرد ، فخطر
له يوماً جلدُ عُمَيْرَة ، واتفق أن مر السيد يوماً بذلك الموضع ، فنظر إليه في
تلك الحال ، فقال له السيد^١ : ما تصنع ؟ فقال : الدواة جفّت ، ولم أجد ما
أسقيها^٢ به إلا ماء ظهري ، فضحك السيد ، وأمر له بجارية ، فقال :

قُلْ لِلْعُمَيْرَةِ طُلُقْ تَبَعْدَ طُولِ زَوَاجٍ
قَدْ كَانَ مَائِي ضِياعاً يَمُرُّ فِي غَيْرِ حَاجٍ
حَتَّى حَبَانِي بِحَسَنَاءٍ قَابِلٍ لِلنَّتَاجِ
فَكَانَ نَاقِلَ خَمْرٍ مِنْ حَنَمٍ لَزَجَاجٍ
كَانَتْ تَمُرُّ ضِياعاً فَأَصْبَحْتُ كَالسَّرَاجِ

٣٧٤ - وقال حاتم بن سعيد :

جَنَّبُونِي عَنِ الْمَدَامَةِ إِلَّا عِنْدَ وَقْتِ الصَّبَاحِ أَوْ فِي الْأَصِيلِ
وَاشْفَعُوهَا بِكُلِّ وَجْهِ مَلِيحٍ وَدَعُونِي مِنْ كُلِّ قَالٍ وَقِيلِ
وَإِذَا مَا أُرْدْتُمْ طَيْبَ عَيْشِي فَاحْجِبُونِي عَنْ كُلِّ وَجْهِ ثَقِيلِ

٣٧٥ - وقال مالك بن محمد بن سعيد^٣ :

أَتَانِي زَائِراً فَبَسَطْتُ خَدِّي لَهُ وَيَقُلُّ بَسْطُ الْخَدِّ عِنْدِي

١ ق ب : الخادم ؛ وسقطت اللفظة من م .

٢ دوزي : ماء أسقيها .

٣ ترجمته في المغرب ٢ : ١٧١ .

فقلتُ لهُ أيا مولاي ألفاً فقال وأنت ألفاً عبد عدي
وعانقتني وقبّلتني ونادى بلطف منه كيف رأيت وعدي
وقال في استهداء مقص :

ألا قل نعم في مطلب قد حكاه لا يفصل إذ نبغي الوصال موصلاً
نشق به صدرَ النهار وقد بدا ظلاماً بأمثالِ النجوم مكلّلاً
وقال :

سارت كبدٍ وليلُ الخدر يسترها ولو بدا وجهها جاءتك بالفلق
ودونها من صليل اللامعات حمى فالبرق والرعد دون الشمس في الأفق

٣٧٦ - واجتمع بغيرناطة محمد بن غالب الرصافي الشاعر المشهور ومحمد ابن عبد الرحمن الكتندي^١ الشاعر وغيرهما من الفضلاء والرؤساء ، فأخذوا يوماً في أن يخرجوا لنجد أو لخور مؤمل ، وهما منتزهان من أشرف وأظرف منتزهات غيرناطة ، ليتفرجوا ويصقلوا الخواطر بالتطلع في ظاهر البلد ، وكان الرصافي قد أظهر الزهد وترك الخلاعة ، فقالوا : ما لنا غنى عن أبي جعفر ابن سعيد ، اكتبوا له ، فصنعوا هذا الشعر وكتبوا له ، وجعلوا تحته أسماءهم :

بعثنا إلى ربّ السّماحة والمجد ومن ما له في ملّة الظرف من ند
ليسعدنا عند الصبيحة في غد لنسعى إلى الخور المؤمل أو نجد
نسرّح منّا أنفساً من شجونها ثوّت في شجون هن شرّ من اللحد
ونظفر من بخل الزّمان بساعة ألذّ من العليا وأشهى من الحمد
على جدّول ما بين ألفاف دّوحة تهزّ الصّبا فيها لواء من الرّند
ومن كان ذا شرب يخلّى بشأنه ومن كان ذا زهد تركناه للزهد
وما ظرفه يأبى الحديث على الطّلى ولا أن يدلّ الهزل حيناً من الجّد

١ ترجمة الكتندي في المغرب ٢ : ٢٦٤ والتكملة : ٥٣٥ وأدباء مالقة ، الورقة : ٢٧ .

هَزَّ معاني الشعر أغصانَ ظَرْفِهِ
وما نَغَصَّ العَيْشَ المَهْنَأَ غيرَ أنْ
نظمتنا من الخللانِ عقدَ فرائدِ
فماذا تراهُ لا عدمناكِ ساعةٌ
ورشدك مطلوبُ وأمرُكَ نحوهُ ار

فكان جوابه لهم :

هوَ القولُ منظوماً أو الدرُّ في العقدِ
أتاني وفكري في عِقالٍ من الأسى
ومن قبل علمي أين مبعثُ وجهه
وأيقنت أن الدهرَ لَيْسَ بِراجعٍ
فكلُّ أوانٍ فيهِ أعلامُ فَضلهِ
فكمَ طيِّبها من فائتٍ متردِّمٍ
فيا من بهم تُزهِى المعالي ومن لهم
فسمَّعاً وطَوَّعاً للذي قد أَشْرَتُمُ
فقوموا على اسمِ الله نحوَ حَديقةِ
بها قبةٌ تُدعى الكمامةُ فاطلَّعُوا
وعندي ما يَحْتَاجُ كلُّ مُؤمِّلٍ
فكلُّ إلى ما شاءه لستُ ثانياً
ولستُ خَلِيئاً مِنِ تَأْتِسِ قِينَةٍ
لها ولدٌ في حجرها لا تزيله
فيا لَيْتَنِي قد كُنْتُ منها مَكَانَهُ
ضمنتُ لَمَنْ قد قالَ إِنِّي زاهدٌ

ويمرح في ثوب الصباية والوجدِ
بمازجه تكليف ما ليس بالودِّ
ولمَّا نَجِدْ إلَّاكَ واسطةَ العقدِ
فنحنُ بما تبديه في جنةِ الخلدِ
تقابُ وكلُّ منكَ يَهْدِي إلى الرشدِ

هوَ الزَّهْرُ نَفَّاحُ الصبا أم شَدَا الودِّ
فحلَّ بِنَفْثِ السَّحَرِ ما حلَّ من عقدِ
علمت جنابَ الوردِ من نَفْسِ الوردِ
لتقديمِ عصرٍ أو وقوفٍ على حدِّ
ترادفِ مَوْجِ البَحْرِ رَدًّا إلى ردِّ
يَهْزُ بما قد أَضْمَرْت معطفَ الصِّلَدِ
قيادِ المعاني ما سوى قَصْدِكم قصدي
به لا أرى عنه مَدَى الدهرِ من بُدِّ
مقلَّدةِ الأجيادِ مَوْشِيَةِ البُرْدِ
بها زهراً أَذكى نَسِماً من الندِّ
من الرَّاحِ والمعشوقِ والكتبِ والوردِ
عِناناً لَهُ إنَّ المِساعدَ ذو الودِّ
إذا ما شَدَّتْ ضَلَّ الخَلِيُّ عن الرشدِ
أوانِ غناءِ ثمَّ ترميه بالبعدِ
تُقَلِّبُنِي ما بينَ خصرٍ إلى نهدِ
إذا حلَّ عِنْدِي أن يَحُولَ عن الزهدِ

فإن كانَ يرجو جنةَ الخلدِ آجلاً فعندي له في عاجلِ جنةِ الخلدِ
 فركبوا إلى جنته ، فمرّ لهم أحسن يومٍ على ما اشتهوا ، وما زالوا بالرصافي
 إلى أن شرب لما غلب عليه الطرب ، فقال الكتندي :
 غلبناك عما رُمتهُ يا ابن غالبٍ براحٍ وريحانٍ وشدوٍ وكاعبٍ
 فقال أبو جعفر :

بدا زهدهُ مثلَ الخصابِ فلم يزلْ بهِ ناصلاً حتى بدا زور كاذبٍ
 فلما غربت الشمس قالوا : ما رأينا أقصر من هذا اليوم ، وما ينبغي أن
 يترك بغير وصف ، فقال أبو جعفر : أنا له ، ثم قال بعد فكرة ، وهو من
 عجائبه التي تقدم بها المتقدمين وأعجز المتأخرين ^١ :

لله يومٌ مسرّةٌ أضوا وأقصر من ذُباله
 لما نصّبنا للمنى فيه بأوتار حباله
 طار النهار به كمر ناع فأجفلت الغزاة
 فكأننا من بعده بعنا الهداية بالضلالة

والنهار : ذكر الحُبّارى ، وإليه أشار بقوله « طار النهار » والغزاة :
 الشمس ، ولا يخفى حسن التوريتين ، فسلم له الجميع ، تسليم السامع المطيع .
 وعلى ذكر الغزاة في هذا الموضع فلا يبي جعفر أيضاً فيها ، وهو من
 بدائع ، قوله ^٢ :

بدا ذتبُ السرحان ينيءُ أنهُ تقدّم سبت ^٣ والغزاة خلفهُ

١ المغرب ٢ : ١٦٧ .

٢ المصدر نفسه .

٣ كذا في الأصول ، ولعل الصواب « سيد » بمعنى الذئب .

ولم ترَ عيني مثلهُ من مُتابع
لمن لا يزال الدهرَ يطلب حتفه
وقوله :

اسقني مثلَ ما أنار لعيني
قبلَ أن تبصر الغزالة تستد
وتأملُ لعسجد سال نهراً
شَفَقُ ألبس الصباح جمالهُ
رج منهُ على السماء غلالهُ
كرعت فيه ، أو تقصّي ، غزاله
ومن نظم أبي جعفر قوله :

لو لم يكن شدُّ الحمام فاضلاً
طربُ ثنى حتى الجماد ترتحاً
وقوله ١ :

في الروض منك مشابهٌ من أجلها
الغصنُ قد ، والأزاهر حلية ،
يهفو له طرفي وقلبي المغرمُ
والوردُ خدٌ ، والأقاحي مبسمُ
وقوله :

ألا حبذا نهر إذا ما لحظتهُ
ترى القمرين الدهر قد عنيا به
أبى أن يردَّ اللحظَ عن حسنه الأنسُ
يُفَضِّضُه بدرٌ وتُدْهِبُه شمسُ
وقوله ، وقد مرَّ بقصر من قصور أمير المؤمنين عبد المؤمن وقد رحل عنه ٢ :

قَصَرَ الخليفة لا أُخْلِيَت من كرمٍ
جزُنَا عليك فلم تنقص مهابته
وإن خلوتَ من الأعداد والعُدِ
والغِيل يخلو وتبقى هيبَةُ الأسدِ

١ المغرب ٢ : ١٦٧ .
٢ المصدر نفسه .

وقوله من أبيات :

سَرَّحَ لِحَاظِكَ حَيْثُ شَتَّ فَإِنَّهُ فِي كُلِّ مَوْقِعٍ لِحِظَةٍ مُتَأَمِّلٌ

وقوله أيضاً :

ولقد قلتُ للذي قال حلُّوا ههنا : سِرُّ فَإِنَّا مَا سَمْنَا
لا تَعَيِّنْ لَنَا مَكَانًا وَلَكِنْ حَيْثُمَا مَالَتْ اللِّوَاظُ مَلْنَا

وقال :

أَلَا هَاتِيهَا إِنَّ الْمَسْرَّةَ قَرَبَهَا وَمَا الْحَزْنَ إِلَّا فِي تَوَالِي جَفَائِهَا
مُدَامَ بَكَى الْإِبْرِيْقَ عِنْدَ فِرَاقِهَا فَأَضْحَكَ ثَغَرَ الْكَاسِ عِنْدَ لِقَائِهَا

وقال :

عَرَّجَ عَلَى الْحَوْرِ وَخَيَّمْ بِهِ حَيْثُ الْأَمَانِي ضَافِيَاتُ الْجَنَاحِ
وَأَسْبَقَ لَهُ قَبْلَ ارْتِحَالِ النَّدَى وَلَا تَزِرُهُ دُونَ شَادِي وَرَاحِ
وَكُنْ مُقِيمًا مِنْهُ حَيْثُ الصَّبَا تَمْتَارُ مَسْكَاً مِنْ أُرِيْجِ الْبَطَاحِ
وَالْقُضْبُ مَالِ الْبَعْضِ مِنْهَا عَلَى بَعْضُ كَمَا يَشْنِي الْقُدُودَ ارْتِيَاكِ
وَشَقَّ جَيْبَ الصَّبْحِ نَوْرَ كَمَا شَقَّتْ جُيُوبَ الْطَلِّ مِنْهَا الرِّيَّاحِ
لَمْ أُحْصِ كَمْ غَادِيَتُهُ ثَابِتًا وَاسْتَرْقَصْتَنِي الرَّاحُ عِنْدَ الرُّوَاكِ

وقوله :

أَلَا حَبْدًا رَوْضُ "بَكَرْنَا لَهُ ضُحَى وَفِي جَنَبَاتِ الرُّوْضِ لِلطَّلِّ أَدْمَعُ
وَقَدْ جَعَلَتْ بَيْنَ الْغُصُونِ نَسِيمَةً تَمَزَّقُ ثُوبَ الطَّلِّ مِنْهَا وَتَرْقَعُ
وَنَحْنُ إِذَا مَا ظَلَّتِ الْقُضْبُ رُكْعًا نَظْلُهَا مِنْ هَزَةِ السَّكْرِ نَرْكَعُ

١ هذه رواية م ؛ وفي ق ب : وشق جيب الصبر قصف إذا .

٣٧٧ - وكان ابن الصابوني^١ في مجلس أحد الفضلاء بإشبيلية ، فقدّم فيما قدّم خيار ، فجعل أحد الأدباء يقشرها بسكين ، فخطف ابن الصابوني السكين من يده ، فألحّ عليه في استرجاعها ، فقال له ابن الصابوني : كفّ عني وإلاّ جرحتك بها ، فقال له صاحب المنزل : اكفف عنه لئلاّ يجرحك ويكون جرحك جُبّاراً ، تعريضاً بقول النبيّ صلى الله عليه وسلّم «جُرْحُ العجماء جُبّار» ، فاغتاظ ابن الصابوني ، وخرج من الاعتدال ، وأخطأ بلسانه ، وما كفّ إلا بعد الرغبة والتضرّع .

ومن نظم ابن الصابوني^٢ :

بعثتُ بمرآةٍ إلَيْكَ بَدِيعَةً فأطْلِعْ بِساميَ أفقِها قَمَرَ السعدِ
لتنظرَ فيها حُسْنَ وجهكَ منصفاً وتعذّرني فيما أَكِينُ من الوجْدِ
فأرسلَ بذاك الخلدَ لحظكَ برهةً لتجنيَ منه ما جَنّاه من الوردِ
مثالكَ فيها منكَ أقربَ مَلَمَساً وأكثرَ إحساناً وأبقى على العهدِ

وقوله في لابس أحمر^٣ :

أقبلَ في حُلّةٍ مُورَدَةٍ كالبدّر في حُلّةٍ من الشفَقِ
تحسبُهُ كلّما أراقَ دمي يمسحُ في ثوبه ظُبيَ الحَدَقِ

ورحل إلى القاهرة والإسكندرية فلم يلتفت إليه ، ولا عوّل عليه ، وكان شديد الانحراف ، فانقلب على عقبه يعض يديه ، على ما جرى عليه ، فمات عند إيابه إلى الإسكندرية كمدّاً ، ولم يُعرف له بالديار المصرية مقدار .

١ هو أبو بكر محمد بن أحمد الصابوني شاعر إشبيلية في عصره ، رحل إلى تونس ثم إلى القاهرة وتوفي سنة ٦٣٦ (القدح : ٦٩ والمغرب ١ : ٢٦٣ والوافي ٩ : ٢ والتحفة : ١٦١ والقوات ٢ : ٢٠٩) .

٢ المغرب والقدح : ٧٢ .

٣ البيتان في القدح ، وأكثر اعتماد المقرئ عليه في سائر أخبار ابن الصابوني .

وحضر يوماً بين يدي المعتضد الباجي ملك إشبيلية وقد نُثرت أمامه جملة من
دنانير سَكَّتْ باسمه ، فأنشد :

قد فَخَّرَ الدينارُ والدرهمُ لما علا ذين لكم ميسمُ
كلاهما يُفَضِّحُ عن مجدكم وكلُّ جزءٍ منه فرد فمُ

ومرّ فيها إلى أن قال في وصف الدنانير ^١ :

كانّها الأنجمُ والبُعدُ قد حقّق عندي أنّها الأرجمُ

فأشار السلطان إلى وزيره ، فأعطاه منها جملة ، وقال له : بدّل هذا البيت
لثلاثٍ يبقى ذمّاً .

وكان يلقَّب بالحمّار ، ولذا قال فيه ابن عتبة الطيّب :

يا عيْبَرَ حِمَصٍ عيرتك الحمير بأكلك البرّ مكان الشعير

وهو أبو بكر محمد ابن الفقيه أبي العباس أحمد بن الصابوني شاعر إشبيلية
الشهير الذكر ، والذي أظهره مأمون بني عبد المؤمن ، وله فيه قصائد عدّة ،
منها قوله في مطلع :

استَوَلَّ سَبَاقاً على غاياتها نُجِجُ الأمور يبينُ في بداّتها

وله الموشحات المشهورة ، رحمه الله تعالى .

٣٧٨ - ومن حكايات الصبيان أن ابن أبي الخصال ^٢ ، وهو من شقوورة ،
اجتاز بأبدة وهو صبي صغير يطلب الأدب ، فأضافه بها القاضي ابن مالك ،

١ سقط هذا السطر من م .

٢ الشريشي ١ : ٣٦٤ .

ثم خرج معه إلى حديقة معروشة ، فقطف لهما منها عتقوداً أسود ، فقال القاضي :

انظر إليه في العصا

فقال ابن أبي الخصال :

كرأس زنجي عَصَى

فعلم أنه سيكون له شأن في البيان .

٣٧٩ - وحدث أبو عبد الله ابن زرقون^١ أن أبا بكر ابن المنخل وأبا بكر الملاح الشَّلبين كانا متواخين متصافيين ، وكان لهما ابنان صغيران قد برعا في الطلب ، وحازا قصب السبق في حلبة الأدب ، فتهاجى الابنان بأقذع هجاء ، فركب ابن المنخل في سَحَر من الأسحار مع ابنه عبد الله ، فجعل يعتبه على هجاء بني الملاح ويقول له : قد قطعت ما بيني وبين صديقي وصفيي أبي بكر في إقذاعك في ابنه ، فقال له ابنه : إنه بدأني والبادي أظلم ، وإنما يجب أن يلحى من بالشرّ تقدم ، فعَدَّره أبوه ، فبينما هما على ذلك إذ أقبل على واد تنقُّ فيه الضفادع ، فقال أبو جعفر لابنه : أجز :

تنقُّ ضفادع الوادي

فقال ابنه :

بصوتٍ غيرِ مُعتادٍ

فقال الشيخ :

كأنَّ نقيقَ مِقْوَلها

فقال ابنه :

بنو الملاح في النادي

١ المصدر نفسه وانظر زاد المسافر : ٨٨ .

فلما أحست الضفادع بهما صمتت ، فقال أبو بكر :

وتصمت مثل صمتهم

فقال ابنه :

إذا اجتمعوا على زاد

فقال الشيخ :

فلا غوثٌ للمهوف

فقال الابن :

ولا غيثٌ لمُرتادٍ

ولا خفاء أن هذه الإجازة لو كانت من الكبار لحصلت منها الغرابة ، فكيف ممّن هو في سن الصبا .

٣٨٠ — ومن حكايات النصارى واليهود من أهل الأندلس — أعادها الله

تعالى إلى الإسلام عن قريب ، إنّه سميع مجيب — ما حكى أن ابن المرعزي^١ النصراني الإشبيلي أهدى كلبة صيد للمعتمد بن عبّاد وفيها يقول :

لم أرَ ملهًى لذي اقتناصٍ ومكسباً مقنع^٢ الحريصِ
كمثل خطلاء^٣ ذات جيدٍ أتلعّ في صفرة القميصِ^٤
كالقوُس في شكلها ولكن تنفذ كالسهم للقنيصِ
إن تخذت أنفها دليلاً دلّ على الكامن العويصِ
لو أنها تستثير برقاً لم يجد البرق من محيصِ

١ في المغرب (١ : ٢٦٤) المرعز ؛ وفيه الأبيات ؛ وقد تصحف الاسم في الأصول وأثبتنا ما في ب .

٢ المغرب : ومقنع الكاسب .

٣ في الأصول : خطار ؛ والخطلاء : المسترخية الأذن .

٤ المغرب : أغيد تبرية القميص .

ومنها في المديح :

يَشْفَعُ تَنْوِيلُهُ بُودَ شَفَعَ القياسات بالتصووصِ

وقال :

اللهُ أَكْبَرُ أَنْتَ بَدْرٌ طَالَعُ والنَّقْعُ دَجَنُ وَالْكُمَاةُ نُجُومُ
والجود أَفلاكُ وَأَنْتَ مُدِيرُهَا وعدوك الغاوي وهُنَّ رُجُومُ

وقال :

نزلت في آل مكحول وضيْفُهُمْ كنازل بينَ سَمْعِ الأرض والبصرِ
لا تستضيء بضوء في بيوتهم ما لم يكن لك تَطْفِيلٌ على القمرِ
وسببهما أَنَّهُ نزل عندهم فلم يوقدوا له سراجاً .

٣٨١ - [شعراء اليهود]

١ - وقال نسيم الإسرائيلي :

يا ليتني كنتُ طيراً أَطير حتى أراكا
بمن تبدلتَ غيري أو لم تحلْ عن هواكا

وهو شاعر وشّاح من أهل إشبيلية ، وذكره الحجاري في المسهب .

٢ - وقال إبراهيم بن سهل الإسرائيلي في أصفر ارتجالاً^١ :

كانَ مُحَيَّاكَ لَهُ بهجة حتى إذا جاءك ماحي الجمال

١ انظر دراسة عنه في مقدمة ديوانه (ط . دار صادر ١٩٦٧) وفيها إلام بمصادر ترجمته . وهذه الأبيات الواردة هنا مثبتة في ديوانه .

أصبحت كالشمعة لما خبا منها الضياء اسودَّ فيها الذُّبال

وهو شاعر إشبيلية ووشّاحها ، وقرأ على أبي علي الشلوين وابن الدباج وغيرهما ، وقال العزُّ في حقّه ، وكان أظهر الإسلام ، ما صورته : كان يتظاهر بالإسلام ، ولا يخلو مع ذلك من قذح واتّهام ، انتهى . وسئل بعض المغاربة عن السبب في رقّة نظم ابن سهل ، فقال : لأنّه اجتمع فيه ذلان : ذل العشق ، وذل اليهودية . ولما غرق قال فيه بعض الأكابر : عاد الدر إلى وطنه . ومن نظم ابن سهّل المذكور قوله :

والنمي بقلبي منه جمرٌ مؤجّجٌ تراه على خديّ يندى ويبردُ
يسألني من أي دين مداعباً وشمل اعتقادي في هواه مُبدّدُ
فؤادي حنيفي ، ولكنّ مقلتي مجوسية من خدّه النارَ تعبدُ

ومنه قوله :

هذا أبو بكر يقود بوجهه جيشَ الفتور مطرّزَ الراياتِ
أهدى ربيعُ عذاره لقلوبنا حرّاً المصيف فشبّها لفحاتِ
خدُّ جرى ماء النعيم بجمره فاسودَّ مجرى الماء في الجمراتِ

وذكر الحافظ أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري في رحلته الكبيرة القدر والجرم المسماة بـ « ملء العيّبة فيما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة » خلافاً في إسلام ابن سهل باطنياً ، وكتب على هامش هذا الكلام الخطيبُ العلامة سيدي أبو عبد الله ابن مرزوق ما نصّه : صحّح لنا مَنْ أدركناه من أشياخنا أنّه مات على دين الإسلام ، انتهى .

ورأيت في بعض كتب الأدب بالمغرب أنّه اجتمع جماعة مع ابن سهل في مجلس أنس ، فسألوه لما أخذت منه الراح عن إسلامه : هل هو في الظاهر والباطن أم لا ؟ فأجابهم بقوله : للناس ما ظهر ، ولله ما استتر ، انتهى .

واستدل بعضهم على صحة إسلامه بقوله :

تسلّيت عن موسى بحبّ محمدٍ هُدَيْتُ ولولا الله ما كنت أهتدي
وما عن قِلَيّ قد كان ذاك ، وإنّما شريعة موسى عَطَّلت بمحمدٍ
وله ديوان كبير مشهور بالمغرب ، حاز به قَصَب السَّبْق في النظم والتوشيح .

وما أحسن قوله من قصيدة :

تأملْ لَطَى شوقي وموسى يَشْبُها « تجد خير نار عندها خير مُوقِدِ »

وأنشد بعضهم له قوله :

لقد كنت أرجو أن تكون مؤاصلي فأسقيتني بالبعد فاتحة الرعدِ
فبالله برّدْ ما بقلبي من الجوى بفاتحة الأعراف من ريقك الشهدِ

وقال الراعي رحمه الله تعالى : سمعت شيخنا أبا الحسن عليّ بن سمعة
الأندلسي رحمه الله تعالى يقول : شيطان لا يصحّان : إسلام إبراهيم بن سهل ،
وتوبة الزمخشري من الاعتزال ، ثم قال الراعي : قلت : وهما في مروياتي ،
أما إسلام إبراهيم بن سهل فيغلب على ظني صحّته لعلمي بروايته ، وأما الثاني
— وهو توبة الزمخشري — فقد ذكر بعضهم أنّه رأى رسماً بالبلاد المشرقية
محكوماً فيه يتضمن توبة الزمخشري من الاعتزال فقوي جانب الرواية ، انتهى
باختصار .

وقال الراعي أيضاً ما نصّه : وقد نكت الأديب البارع إبراهيم بن سهل
الإسرائيلي الأندلسي على الشيخ أبي القاسم في تغزّله حيث قال :

أموسى أيا بعضي وكلّي حقيقة وليس مجازاً قولي الكلّ والبعضا
خففت مكاني إذ جزمت وسائلتي فكيف جمعت الجزم عندي والخفضا

وفي هذا دليل على أن يهود الأندلس كانوا يشتغلون بعلم العربية ، فإن إبراهيم قال هذين البيتين قبل إسلامه ، والله تعالى أعلم . وقد روينا أنه مات مسلماً غريقاً في البحر ، فإن كان حقاً فالله تعالى رزقه الإسلام في آخر عمره والشهادة ، انتهى .

ومن نظم ابن سهل في التوجيه باصطلاح النحاة قوله :

رفعت^١ عوامله وأحسب رتبتي بنيت على خفض فلن^٢ تتغيرا

ومنه :

تنأى وتدنو والتفاتك^٣ واحد^٤ كالفعل يعمل ظاهراً ومُقَدَّراً

وقوله :

إذا كان نصرُ الله وفقاً عليكم^٥ فإن العدا التنوين يحذفه الوقف^٦

وقوله :

لَيَنفِي نلتُ منه^٧ وصلاً وأجلى ذلك الوصلُ عن صباح المنون^٨
وقرأنا باب المضاف عناقاً وحذفنا الرقيب كالتنوين^٩

وقوله :

بنيت بناء الحرف خامر طبعه فصار لتأثير العوامل مانعا^{١٠}

وقوله :

لك^{١١} الثناء فإن يذكر سواك به^{١٢} يوماً فكالرابع المعهود في البدل

١ في الأصول : رقت .

٢ هذا البيت مضطرب في الأصول وقافيته « جازما » وقد صوبناه عن الديوان .

يعني الغلط ، وقوله :

إذا اليأس ناجى النفس منك بلن ولا أجابت ظنوني ربّما وعساني^١

وقوله :

وقلت عساهُ إن أقمْتُ يرقُّ لي وقد نَسَخَتْ لا عنده ما اقتضت عسى

وقوله :

ينفي ليّ الحال ولكنّه يُدْخِلُ لا في كل مستقبل

وقوله :

خفّضتَ مقامي إذ جزمتَ وسائلي فكيف جمعتَ الحزم عندي والخفضا

وقوله في غلام شاعر :

كيف خلاصُ القلبِ من شاعِرٍ رقتَ معانيه عنِ النّقدِ
بصغرُ نثر الدرّ عن نثره ونظمه جَلَّ عنِ العقدِ
وشعره الطائل في حسنه طال على النابغة الجعدي

وحدّث أبو حيّان عن قاضي القضاة أبي بكر محمد بن أبي نصر الفتح بن علي الأنصاري الإشبيلي بغرناطة أن إبراهيم بن سهل الشاعر الإشبيلي كان يهودياً ثمّ أسلم ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقصيدة طويلة بارعة ، قال أبو حيّان : وقفت عليها ، وهي من أبدع ما نظم في معناها ، وكان سنُّ ابن سهل حين غرق نحو الأربعين سنة ، وذلك سنة تسع وأربعين وستمائة ، وقيل : إنّه جاوز الأربعين ، وكان يقرأ مع المسلمين ويخالطهم ، وما أحسن قوله :

١ في الأصول : وعساني ، وهو من قصيدة نونية (ص : ٢١٤) .

مضى الوصلُ إلاّ منية تبعث الأسى أداري بها همّي إذا الليل عَسَعَسَا
أتاني حديث الوصل زوراً على النوى أعدْ ذلك الزورَ اللّذيذَ المؤنِسا
ويا أيّها الشوق الذي جاء زائراً أصبّتَ الأمانِي خذ قلوباً وأنفُسَا
كسائي مُوسَى من سقام جفونه رداء وسقائي من الحبّ أكوسَا
ومن أشهر موشحاته قوله ^١ :

ليلُ الهوى يَقْظان والحبُّ تِرْبُ السّهْرِ
والصبرُ لي خوآن والنومُ عن عيني بَرِي

وقد عارضه غيرُ واحد فما شَقَّوا له غباراً .

3 — وأما إبراهيم بن الفخار اليهودي ^٢ فكان قد تمكن عند الأذفونش ملك طليطلة النصراني ، وصيره سفيراً بينه وبين ملوك المغرب ، وكان عارفاً بالمنطق والشعر ، قال ابن سعيد : أنشدني لنفسه يخاطب أديباً مسلماً كان يعرفه قبل أن تعلو رتبته ويسفر بين الملوك ، ولم يزده على ما كان يعامله به من الإذلال ، فضاقت ذرْعُ ابن الفخار وكتب إليه :

أيا جاعلاً أمرين شبيهين ما له من العقلِ إحساسٌ بهِ يَتَفَقَّدُ
جعلتَ الغنى والفقر والذلَّ والعُلا سواءً فما تنفكُ تشقى وتُجهدُ
وهل يستوي في الأرض نجد وتلعة فتطلب تسهلاً وسيرك مُصْعِدُ
وما كنتَ ذا مِيزٍ لمن كنتَ طالباً بما كنتَ في حال الفراغ تَعَوِّدُ
وقد حال ما بيني وبينك شاغلٌ فلا تطلبني بالذي كنتَ تعهدُ
فإن كنتَ تأبى غير إقدام جاهلٍ فإنك لا تنفكُ تلحى وتُطرِدُ

١ ديوانه : ٢٩٦ .

٢ ترجم له في المغرب ٢ : ٢٣ وأورد بيتيه في مدح الأذفونش .

ألا فأتِ في أبوابه كلَّ مسلكٍ ولا تكُ محلاً حيثما قمتَ تقعدُ

قال ابن سعيد : وأنشدني لنفسه :

ولمّا دَجَا ليلُ العِذارِ بخدّه تيقنتُ أنّ الليلَ أخفى وأستَرُ
وأصبحَ عُدّالي يقولون صاحبُ فأخلو به جهراً ولا أُنسَرُ

وقال يمدح الأذفونش لعنهما الله تعالى :

حضرة الأذفونش لا برحت غضة^١ أيامها عرسُ
فأخلع النعلين تكريمةً في ثراها إنّها قدُسُ

قال : وأدخلوني إلى بستان الخليفة المستنصر ، فوجدته في غاية الحسن كأنّه الجنة ، ورأيت على بابه بواباً في غاية القبح ، فلمّا سألتني الوزير عن حال فرجتي قلت : رأيت الجنة إلا أنّي سمعت أن الجنة يكون على بابها رضوان ، وهذه على بابها مالك ، فضحك وأخبر الخليفة بما جرى ، فقال له : قل له إنّنا قصدنا ذلك ، فلو كان رضوان عليها بواباً لخشنا أن يردّه عنها ، ويقول له : ليس هذا موضعك ، ولمّا كان هناك مالك أدخله فيها ، وهو لا يدري ما وراءه ، ويخيّل أنّها جهنم ، قال : فلمّا أعلمني الوزير بذلك قلت له : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (الأنعام : ١٢٤) .

4 - وكان في زمان الياس بن المدور^٢ اليهودي الطبيب الرُندي طبيب آخر كان يجري بينهما من المُحاسبة ما يجري بين مشتركين في صنعة ، فأصلح الناسُ بينهما مراراً ، وظهر لإلياس من ذلك الرجل الطبيب ما ينفّر الناس منه فكتب إليه :

١ في الأصول : غادة .

٢ ترجمة الياس في المغرب ١ : ٣٣٦ وهو من شعراء المائة السادسة .

لا تَخْدَعَنَّ فما تكون مودة ما بينَ مشتركينَ أمراً واحداً
انظر إلى القمرين حين تشاركا بسناهما كان التلاقي واحداً

يعني أنهما معاً لما اشتركا في الضياء وجب التحاسد بينهما والفرقة : هذا
يطلع ليلاً وهذه تطلع نهاراً ، واعتراضهما يوجب الكسوف .

5 - وكتب أيوب بن سليمان المرواني^١ إلى بسام بن شمعون اليهودي
الوَشَقِي في يوم مَطِير : لما كنتَ - وَصَل الله تعالى إخوانك وحفظك - مَطْمَحَ
نَفْسِي ، ومرتز اختيارِي من أبناء جنسي ، على جوانبك أَمِيل ، وأرتع في
رياض خُلُقِكَ الجَمِيل ، هزتني خواطرُ الطربِ والارتياح ، في هذا اليوم المطير ،
الداعي بكأوه إلى ابتسام الأقداح ، واستنطاق البِمْ والزير ، فلم أَرْ مُعِيناً على
ذلك ، ومُبلِغاً إلى ما هنالك ، إلا حسن نظرك ، وتجشّمك من المكارم ما جرت به
عادتك ، وهذا يوم حرم الطرف فيه الحركة ، وجعل في تركها الخير والبركة ،
فهل توصل مكرمتك أخاك إلى التخلّي معك في زاوية ، متكئاً على دَنٍّ مستنداً
إلى خابية ، ونحن خلال ذلك نتجاذب أهداب الحديث الذي لم يبق من اللذات
إلاّ هو ، ونُجِيل الأُلحَاط فيما تعودت عندك من المحاسن والأسماع في أصناف
الملاهي ، وأنت على ذلك قدير ، وكرمك بتكلفه جدير :

ولا يعينُ المرءُ يوماً على راحته إلاّ كريم الطباعُ
وها أنا والسمعُ مني إلى باب وذو الشوق حليف استماعُ
فإن أتى داعٍ بنَيْلِ المنى ودّعَ أشجاني ونعم الدواعُ

وهذا المرواني من ذرية عبد العزيز أخي عبد الملك بن مروان ، وهو من أهل
المائة السادسة .

١ ترجمة أيوب المرواني في المغرب ١ : ٦٠ .

6 - وكانت بالأندلس شاعرة من اليهود يقال لها قسمونة بنت إسماعيل اليهودي ، وكان أبوها شاعراً ، واعتنى بتأديبها ، وربما صنع من الموشحة قسماً فآتمتها هي بقسم آخر ، وقال لها أبوها يوماً : أجزني :

لي صاحبٌ ذو مهجةٍ قد قابلتُ نَعْمى بظلمٍ^١ واستحلّت جرْمها
ففكرت غير كثير وقالت :

كالشمس منها البدرُ يقبِسُ نوره أبداً ويكشفُ بعد ذلك جرْمها
فقام كالْمُخْتَبَلِ ، وضمتها إليه ، وجعل يقبّل رأسها ، ويقول : أنت
والعشر كلمات أشعر مني .

ونظرت في المرأة فرأت جمالها وقد بلغت أوان التزويج ولم تتزوج ، فقالت :
أرى رَوْضَةً قد حان منها قطافُها ولستُ أرى جان يمدّ لها يدا
فوا أسفا يمضي الشَّبَابُ مُضِيْعاً ويبقى الذي ما إن أُسميه مفرداً
فسمعها أبوها ، فنظر في تزويجها .

وقالت في ظبية عندها :

يا ظَبِيَّةٌ ترعى بروضٍ دائماً إنّي حكيّتك في التوحّشِ والحوَرِ
أسمى كلانا مفرداً عن صاحبٍ فلنصطبر أبداً على حكم القدرِ

٣٨٢ - واستدعى أبو عبد الله محمد بن رشيق القلنعي^٢ ثم الغرناطي بعض أصحابه إلى أنس ، بقوله :

سيدي عندي أترج وناَرْجُ وراحُ

١ في الأصول : ذو مهجة ... منأ بظهر .

٢ ترجمته في المغرب ٢ : ١٨٠ .

وَجَنَّتِي آسٍ وَزَهْرٍ وَحِمَانَا لَا يُبَاحُ
لَيْسَ إِلَّا مُطْرَبٌ يُسِّ لِي النَّدَامَى ، وَالْمَلَا حُ
وَمَكَانٌ لَانْهَتَاكَ قَدْ نَأَى عَنْهُ الْفَلَاحُ
لَا يُرَى يَطْلُعُ فِيهِ دُونَ أَكْوَاسٍ صَبَاحُ
فِيهِ فَتْيَانٌ لَهُمْ فِي لَذَّةِ الْعَيْشِ جِمَاحُ
طَرَحُوا الدُّنْيَا يَسَاراً فَاسْتَرَا حَتْ وَاسْتَرَا حُوا
لَا كَقَوْمٍ أَوْجَعْتَهُمْ لَهُمْ فِيهَا نُبَاحُ

وله :

قَالَ الْعَذُولُ : إِلَى كَمْ تَدْعُو لِمَنْ لَا يَجِيبُ
فَقُلْتُ : لَيْسَ عَجِيباً أَنْ لَا يَجِيبَ حَبِيبُ
هُوَ عَلَىكَ فَإِنِّي مِنْ حُبِّهِ لَا أَتُوبُ

قال أبو عمران ابن سعيد : دخلت عليه وهو مسجون بدار الأشراف بإشبيلية ، وقد بقي عليه من مال السلطان اثنا عشر ألف دينار قد أفسدها في لذات نفسه ، فلما لمحني أقبل يضحك ويشغل بالنادر والحكايات الطريفة ، فقلت له : قالوا : إنك أفسدت للسلطان اثني عشر ألف دينار ، وما أحسبك إلا زدت على هذا العدد لما أراك فيه من المسرة والاستبشار ، فزاد ضحكاً ، وقال : يا أبا عمران ، أتراني إذا لزمتم الهمم والفكر يرجع عليّ ذلك العدد الذي أفسدت ؟ ثم فكر ساعة وأنشدني ١ :

لَيْسَ عِنْدِي مِنَ الْهَمُومِ حَدِيثٌ كُلَّمَا سَاءَنِي الزَّمَانُ سُرِرْتُ
أَتْرَانِي أَكُونُ لِلدَّهْرِ عَوْنًا فَإِذَا مَسَّتْهُ بَضْرٌ ضَجِرْتُ

١ الأبيات في المصدر السابق .

غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي فَكَأَنِّي عِنْدَ إِقْلَاعِ هَمِّهَا مَا ضُرُرْتُ

٣٨٣ - وقال النحوي اللغوي أبو عيسى لب بن عبد الوارث القلعي^١ :

بَدَا أَلِفُ التَّعْرِيفِ فِي طِرْسِ خَدِّهِ فَيَا هَلْ تَرَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْكُرُ
وَقَدْ كَانَ كَافُورًا فَهَلْ أَنَا تَارِكُ لَهُ عِنْدَمَا حَيَّاهُ مَسْكُ وَعَنْبَرُ
وَمَا خَيْرُ رَوْضٍ لَا يَرِفُ نَبَاتُهُ وَهَلْ أَفْتَنُ الْأَثْوَابَ إِلَّا الْمَشْهَرُ

وقال :

أَبَى لِي أَنْ أَقُولَ الشَّعَرَ أَنِّي أُحَاوِلُ أَنْ يَفُوقَ السَّحَرَ شِعْرِي
وَأَنْ يُصْنِي إِلَيْهِ كُلُّ سَمْعٍ وَيَعْلَقَ ذِكْرُهُ فِي كُلِّ صَدْرٍ

قال الحِجَارِي : أخبرني أنه أحبُّ أحدَ أولاد الأعيان ممَّن كان يقرأ عليه ، فلمَّا خلا به شكاه إليه ما يجده ، فقال له : الصبيان يفتنون بنا ، فإذا أردت أن تقول شيئاً فاكتبه لي في ورقة ، [قال] : فلمَّا سمعت ذلك منه تمكَّن الطمعُ منِّي فيه ، وكتبت له :

يَا مَنْ لَهُ حُسْنٌ يَفُوقُ بِهِ الْوَرَى صِلْ هَائِمًا قَدْ ظَلَّ فِيكَ مُحَيَّرًا
وَأَمِنْ عَلَيْهِ بِقُبْلَةٍ أَوْ غَيْرِهَا إِنْ كُنْتَ تَطْمَعُ فِي الْهَوَى أَنْ تَوْجِرَا

وكتبتُ بعدها من الكلام ما رأيته ، فلمَّا حصلت الورقة عنده كتب إليَّ في غيرها : أنا من بيتٍ عادةُ أهلِهِ أَنْ يكونوا اسمَ فاعلٍ لا اسمَ مفعول ، وإنَّما أردتُ أَنْ يحصلَ عندي خطكَ شاهداً على ما قابلتني به لثلاً أشكوك إلى أبي فيقول لي : حاش لله أَنْ يقعَ الفقيه في هذا ، وإنَّما أنت خبيث ، رأيته يطالبك بالتزام الحفظ فاخترقت عليه لأخرجك من عنده ، فأبقى معذباً معك ومعه ، وإن

١ ترجمته في المغرب ٢ : ١٨٠ وبغية الوعاة : ٣٨٣ وفي المغرب أبياته الأولى .

أنا أوقفته على خطك صدّقي واسترحت ، ولكن لا أفعل هذا إلاّ إذا لم تنته عني ،
وإن انتهيت فلا أخبر به أحداً ؛ قال ابن عبد الوارث : فلما وقفت على خطّه
علمت قدر ما وقعت فيه ، وجعلت أرغب إليه في أن يردّ الرقعة إليّ ، فأبى
وقال : هي عندي رهْن على وفائك بأن لا ترجع تتكلّم في ذلك الشأن ، قال :
فكان والله يبطل القراءة ولا أجسر أكلمه ، لأنّي رأيت صيانتني وناموسي قد
حصل في يده ، وتبّنتُ من ذلك الحين عن هذا وأمثاله .

٣٨٤ - وقال جابر بن خلف الفَحْصِي - وكان في خدمة عبد الملك بن
سعيد ، وقرأ مع أبي جعفر ابن سعيد وتهذّب معه - يخاطبه حين عاثت الذئاب
في غَنَمه :

أيا قائدأ قد سما في العلا وسادَ عَلَيْنَا بذاتٍ وجدّ
غدا الذئبُ في غَنَمِي عائِثاً وقد جئتُ مستعدياً بالأسدّ

وكرر عليه الدين ، فكتب إليه أيضاً :

أفي أَيّامِكَ الغُرُّ أموتُ كذا من الضّرّ ؟
وأخبطُ في دُجى همِّي ووجهك طلعةُ الفَجْرِ

فضحك وأدّى دينه .

٣٨٥ - ولما خلع أهلُ المَرِيّة طاعةَ عبد المؤمن ، وقتلوا نائبه ابن مخلوف ،
قدّموا عليهم أبا يحيى ابن الرميمي^١ ، ثم كان عليه من النصاري ما علم ، ففرّ
إلى مدينة فاس ، وبقي بها ضائعاً خاملاً ، يسكن في غرفة ، ويعيش من النسخ ،
فقال :

١ ترجمته في المغرب ٢ : ١٩٨ ، وانظر البيان المغرب (ج ٣) والمعجب للمراكشي .

أَمْسَيْتُ بَعْدَ الْمُلْكِ فِي غُرْفَةٍ ضَيِّقَةٍ السَّاحَةِ ١ وَالْمُدْخَلِ
تَسْتَوْحِشُ الْأَرْزَاقُ مِنْ وَجْهِهَا فَمَا تَزَالُ الدَّهْرُ فِي مَغْزَلِ
النَّسْخِ بِالْقَوْتِ لَدَيْهَا وَلَا تَقْرَعُهَا كَفُّ أَخٍ مُفْضِلِ

وَأَنشَدَهَا لِبَعْضِ الْأَدْبَاءِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَنْسُخُ بِضَوْءِ السَّرَاجِ إِذَا بِالْبَابِ
يُقْرَعُ ، فَفَتَحَهُ ، فَإِذَا شَخْصٌ مَتَنَكَّرٌ لَا يَعْرِفُهُ ، وَقَدْ مَدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ بِصُرَّةٍ فِيهَا
جُمْلَةٌ دَنَانِيرُ ، وَقَالَ : خُذْهَا مِنْ كَفِّ أَخٍ لَا يَعْرِفُكَ وَلَا تَعْرِفُهُ ، وَأَنْتَ الْمَفْضِلُ
بِقَبُولِهَا ، فَأَخَذَهَا ، وَحَسَّنَ بِهَا حَالَهُ .

وَقَالَ لَهُ بَعْضٌ : هَذَا شَعْرُكَ أَيَّامَ خُلْعِكَ ، فَهَلْ قُلْتَ أَيَّامَ أَمْرِكَ ؟ قَالَ :
نَعَمْ ، لَمَّا قَتَلْتُ أَهْلَ الْمَرْيَةِ ابْنَ مَخْلُوفٍ عَامِلَ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَأَكْرَهُونِي أَنْ أَتَوَلَّى
أَمْرَهُمْ قُلْتَ :

أَرَى فِتْنًا تَكْشِفَ عَنْ لَظَاهَا رَمَادٌ بِالنِّفَاقِ لَهُ انْصِدَاعُ
وَأَلَّ بِهَا النِّظَامُ إِلَى انْتِثَارٍ وَسَادَ بِهَا الْأَسَافِلُ وَالرَّعَاعُ
سَاحِلُ كُلِّ مَا جُشِمَتْ مِنْهَا بِصَدْرِ فِيهِ لِلْهَوْلِ اتِّسَاعُ

وَأَصْلُ بَنِي الرِّمِيمِيِّ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ ، وَنُسِبُوا إِلَى رَمِيمَةَ قَرْيَةٍ
مِنْ أَعْمَالِ قَرْطَبَةَ .

٣٨٦ - وَقَالَ أَبُو بَحْرٍ يَوْسُفُ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ ٢ :

فَوَصَلْتُ أَقْطَارًا لِغَيْرِ أَحَبَّةٍ وَمَدَحْتُ أَقْوَامًا بِغَيْرِ صِلَاتِ
أَمْوَالٍ أَشْعَارِي نَمَتْ فَتَكَاثَرَتْ فَجَعَلْتُ مَدْحِي لِلْبَخِيلِ زَكَاتِي

وَهَذَا مِنْ غَرِيبِ الْمَعَانِي .

١ ب : السَّاحَاتِ .

٢ ترجمة ابن عبد الصمد في الذخيرة (٣ : ٢٥١) والمغرب ٢ : ٢٠٣ ومسالك الأبصار ١١ : ٤٥٠ .

٣٨٧ - وفي بني عبد الصمد يقول بعض أهل عصرهم ، لما رأى من كثرة عددهم ، والتباسهم بالسلطان :

ملأت قلبي هموماً مثل ما ملأ الدنيا بنو عبد الصمد
كأثر الشيخ أبوهم آدماء فغدا أكثر نسلًا وولد
كلهم ذئب إذا آمنته والرعايا بينهم مثل النقد

٣٨٨ - وكان الوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن عباس^١ وزير زهير الصقلي ملك المرية بذّ الناس في وقته بأربعة أشياء : المال ، والبخل ، والعجب ، والكتابة ؛ قال ابن حيّان : وكان قبل ميّنته صيرّ هجّيراه أوقات لعب الشطرنج أو ما يسّح له هذا البيت :

عيونُ الحوادثِ غنيّ نيامٌ وهضمي على الدهر شيء حرام
وذاع هذا البيتُ في الناس حتى قلب له مصراعه الأخير بعضُ الأدباء فقال :

سَيُوقِظُهَا قَدَرٌ لَا يَنَامُ

وكان حسن الكتابة ، جميل الخط ، مليح الخطاب ، غزير الأدب ، قوي المعرفة ، مشاركاً في الفقه ، حاضر الجواب ، جماعاً للدفاتر ، حتى بلغت أربعمائة ألف مجلد ، وأمّا الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عددها لكثرتها ، وبلغ ماله خمسمائة ألف مثقال جعفرية سوى غير ذلك ، وكان مقتله بيد باديس ابن حبّوس^٢ ملك غرناطة ، وكفى دليلاً على إعجابه قوله :

لي نفسٌ لا ترتضي الدهرَ عمراً وجميعَ الأنام طُراً عبيدا
لو ترقّت فوق السّمَاكِ محلاً لم تزل تبتغي هناك صُعودا

١ انظر الذخيرة ١/ ٢ : ١٥١ والمغرب ٢ : ٢٠٥ والإحاطة ١ : ١٢٩ .

٢ تفصيل الخبر عن مقتله في الذخيرة : ١٦٦ .

أنا مَنْ تَعْلَمُونَ شَيْدْتُ مَجْدِي في مَكَانِي ما بَيْنَ قَوْمِي وَلِيْدَا
وكان يُتَّهَمُ بَدْءَ أَبِي جَهْلٍ فِيمَا يَنْقَلُ ، حَتَّى كَتَبَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ عَلَى بَرَجِهِ
بِالْمَرِيَّةِ :

خَلَوْتَ بِالْبَرْجِ فَمَا الَّذِي تَصْنَعُ فِيهِ يَا سَخِيفَ الزَّمانِ
فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ أَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ :

أَصْنَعُ فِيهِ كُلَّ مَا أَشْتَهِي وَحَاسِدِي خَارِجَهُ فِي هَوَانِ
٣٨٩ - وكان الأعمى التُّطَيْلِيُّ^١ شاعراً مشهوراً ، وكان الصبيان يقولون
له « تحتاج كحللاً يا أستاذ » فكان ذلك سبب انتقاله من مُرْسِيَّة ، وقيل له :
يا أبا بكر ، كم تقع في الناس ؟ فقال : أنا أعمى ، وهم لا يبرحون حُفَرَاءَ فما
عذري في وقوعي فيهم ؟ فقال له السائل : والله لا كنتُ قطُّ حُفْرَةً لك ، وجعل
يواليه بَرَّةً وَرِفْدَةً .

ومن شعره :

وَجْوهٌ تَعَزُّ عَلَى مَعَشِرٍ وَلَكِنْ تَهُونُ عَلَى الشَّاعِرِ
قُرُونُهُمْ مِثْلُ لَيْلِ الْمَحَبِّ وَلَيْلُ الْمَحَبِّ بَلَا آخِرِ

وله :

زَنْجِيئُكُمْ بِالْفُسُوقِ دَارِي يُدْلِي مِنَ الْحَرَصِ كَالْحَمَارِ
يَخْلُو بِنَجْلِ الْوَزِيرِ سَرّاً فَيُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ

١ أغلب الظن أن هذا الشاعر هو التُّطَيْلِيُّ الأصغر ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد التُّطَيْلِيُّ (التحفة : ٢٧ ونكت الحميان : ٩٠) إلا إن قدرنا أن المقرئ وقع في الوهم فإن القطعة الثانية أوردها ابن سعيد للمخزومي الأعمى (المغرب ١ : ٢٢٧) وهو الذي يكنى بأبي بكر .

٣٩٠ — ومن شعر أبي جعفر أحمد بن الخيال الاستبي^١ كاتب ابن الأحمر
فيمن اسمه « فضل الله » :

من الناس من يُؤْتَى بنقديٍّ ومنهمُ بِيكرِهِ ومنهم مَن يُنَاك إذا انتشى
ومنهم فتى يُؤْتَى على كلِّ حالةٍ وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء

٣٩١ — ولعبد الملك بن سعيد الخازن^٢ :

ما حمَدناكَ إذ وقفنا ببابكُ للذي كان من طويل حجابكُ
قد ذمنا الزمانَ فيكَ فقللنا أبعدَ الله كلَّ دهرٍ أتى بكُ

٣٩٢ — وقال في « المسهب » : كنت بمجلس القاضي ابن حمدين ، وقد
أنشده شعراء قرطبة وغيرها ، وفي الحملة هلال شاعر غرناطة ، ومحمد بن
الاستحي شاعر استجة الملقب بزحكون ، فقام الاستحي وأنشد قصيدة ، منها :

إليك ابن حمدين انتخلتُ قصائدًا بها رقصتُ في القُضْبِ ورُقُ الحمامِ
أنا العبدُ لكنْ بالمودَّة أُشترى إذا كان غيري يُشترى بالدرهمِ

فشكره ابنُ حمدين ، ونبّه على مكان الإحسان ، فحسده هلال البياني على
ذلك ، فلمّا فرغ من القصيدة قال له هلال : أَعِدْ عليّ البيتَ الذي فيه « رقص
الحمام » فأعاده ، فقال له : لو أزلتَ النقطة عن الخاء كنت تصدق ، فقال
له في الحين : ولو أزلتَ النقطة عن العين كنت تحسن .
وكانت على عين هلال نقطة فكان ذلك من الاتفاق العجيب والجواب
الغريب ، وعمل فيه .

١ في القلح : ٦٦ أبو عبد الله ابن الخيال الاستحي وكان يكتب لابن الأحمر وأورد له البيتين المثبتين
هنا ؛ وفي ب : السبقي وسقطت اللفظة من م .
٢ ترجمته في الجذوة : ٢٦٧ (وبغية الملتبس رقم : ١٠٦٧) والمغرب ١ : ٢٢٨ وهناك البيتان
وانظر اليتيمة (ج ٢) وكتاب التشبيهات .

٣٩٣ - ولما قال المقدم بن المعافى^١ في رثاء سعيد بن جودي :

مَنْ ذَا الَّذِي يُطْعِمُ أَوْ يَكْسُو وَقَدْ حَوَى حِلْفَ النَّدَى رَمْسُ
لَا اخْضَرَّتْ الْأَرْضُ وَلَا أَوْرَقَ الْا مُودُ وَلَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ
بعد ابن جُودِي الَّذِي لَنْ تَرَى أَكْرَمَ مِنْهُ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ

ف قيل له : أثرته وقد ضربك ؟ فقال : والله إنّه نفعتني حتى بذنوبه ، ولقد نهاني ذلك الأدب عن مضار جمّة كنتُ أقعُ فيها على رأسي ، أفلا أرعى له ذلك ؟ والله ما ضَرَبَنِي إِلَّا وأنا ظالم له ، أفأبقى على ظلمي له بعد موته ؟ وقيل له : لم لا تهجو مؤمن بن سعيد ؟ فقال : لا أهجو من لو هجا النجوم ما اهتدى أحد بها .

٣٩٤ - وقال أبو مروان عبد الملك بن نظيف^٢ :

لَا أَشْرَبُ الرَّاحَ إِلَّا مَعَ كُلِّ خِرْقٍ كَرِيمٍ
وَلَسْتُ أَعْشَقُ إِلَّا سَاجِي الْجُفُونِ رَخِيمٍ

٣٩٥ - ومدح هلال البياضي ابن حمدين بقصيدة أولها :

عَرَّجَ عَلَى ذَاكَ الْجَنَابِ الْعَالِي وَاحْكَمْ عَلَى الْأَمْوَالِ بِالْأَمَالِ
فِيهِ ابْنُ حَمْدِينَ الَّذِي لَنَوَالِهِ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ شَدُّ كُلِّ رَحَالِ

فقال له القاضي : ما هذا الوثوب على المدح من أوّل وهلة ، ألا تدري أنهم عابوا ذلك ، كما عابوا الطول أيضاً ، وأن الأولى التوسط ؟ فقال : ياسيدي ، اعذرني بما لك في قلبي من الإجلال والمحبة ، فإني كلّما ابتدأت في مدحك لم

١ ترجمة مقدم في الجذوة : ٣٣٣ وبغية الملتبس رقم : ١٣٨٦ وشعره في سعيد بن جودي في الحلة السيرة ١ : ١٥٦ - ١٥٧ .

٢ ترجمته في الجذوة : ٢٦٨ وبغية الملتبس (رقم : ١٠٨١) .

يتركني غرامي في اسمك إلى أن أتركه عند أول بيت ، فاستحسن ذلك منه ،
وأحسن إليه .

ومن هذه القصيدة :

قاصٍ مَوَالٍ بِرَّةٌ ونوَالَهُ فلهُ جميعُ العالمين مَوَالِي

وكان يهوى وسيماً من متأدبي قرطبة ، فصنع فيه شعراً أنشده منه :

وكلتَ عيني برعني النجمِ في الظلمِ وعبرتي قد غدت مزوجةً بدمٍ

فقال له الغلام : أنت لا تبرح بكوكب من عينك ليلاً ولا نهاراً ، وعاشقاً
وغير عاشق ، فحجل هلال ، وكان على عينه نقطة .

٣٩٦ - وحكى ابن حيّان^١ أن الأمير عبد الرحمن عثرت به دابته وهو
سائر في بعض أسفاره ، وتطأطأت ، فكاد يكبو لفيه ، ولحقه جزع ، وتمثل
إثره بقول الشاعر :

وما لا ترى ممّا بقي اللهُ أكثرُ

وطلب صدر البيت فغزب عنه ، وأمر بالسؤال عنه فلم يوجد من يحفظه إلا
الكاتب محمد بن سعيد الزجالي ، وكان يلقّب بالأصمعي لذكائه وحفظه ، فأنشد
الأمير :

تَرَى الشيء ممّا يَتَقَى فتهابه

فأعجب الأمير ، واستحسن شكله ، فقال له : الزم السراوق .
وأعقب ابناً يسمى حامداً .

١ انظر المغرب ١ : ٣٣٠ والمقتبس (تحقيق مكّي) : ٣٤ .

وحضر مع الوزير عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني في مجلس فيه رؤساء ،
فعرض عليهم فرس مطهَّم ، فتمثل فيه عبد الواحد بقول امرئ القيس :

بَرِيد السُّرى بِاللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرِّبَرٍ

ففهم الزجالي أنه عرض بأنه من البربر ، فلم يحتمل ذلك وأراد الجواب ،
فقال مدبجاً لما أراده ومعرضاً : أحسن عندي من ليل يسرى بي فيه على مثل هذا
يوم على الحال التي قال فيها القائل :

وَيَوْمٍ كَظَلِّ الرَّمحِ قَصَرَ طَوْلُهُ دُمُ الزُّقِّ عَنَّا وَاصْطَفَاكَ الْمَازِهِرُ

ولأنما عرض للإسكندراني بأنه كان يشهد مجالس الراحات في أول أمره
ومعرفة الغناء ، فقلق الوزير ، وشكاه إلى الحاجب عيسى بن شهيد ، فاجتمع
مع الزجالي وأخذ معه في ذلك ، فحكى له الزجالي ما جرى من الأول إلى الآخر ،
وأنشد :

وَمَا الْحُرُّ إِلَّا مَنْ يَدِينُ بِمَثَلِ مَا يُدَانُ وَمَنْ يَخْفِي الْقَبِيحَ وَيُنْصِفُ
هُمْ شَرَعُوا التَّعْرِيزَ قَدْ فَاغْنَدُوا تَبَعْنَاهُمْ لَامُوا عَلَيْهِ وَعَنَقُوا

ومن نوادر ابنه حامد أنه غلط أمامه في قوله تعالى ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾
(النور : ٢) بأن قال « فانكحوهما » فأنشده حامد^١ :

أَبْدَعَ الْقَارِئُ مَعْنَى لَمْ يَكُنْ فِي الثَّقَلَيْنِ
أَمَرَ النَّاسَ جَمِيعاً بِنِكَاحِ الزَّانِيَيْنِ

وقال لبعض أصحابه حينئذ : أما سمعت ما أتى به إمامنا من تبديل الحدود ؟
وتصاحكا .

١ المغرب : ٣٣١ .

1 - وكتب الوزير أبو عبد الله ابن عبد العزيز^١ إلى المنصور صاحب بكنسية ، ويعرف بالمنصور الصغير ، قطعة^٢ أولها :

يا أحسن الناس آداباً وأخلاقاً وأكرم الناس أغصاناً وأوراقاً
ويا حيا الأرض لم نكبت عن سني وسقت نحوي إرعاداً وإبراقاً
ويا سنا الشمس لم أظلمت في بصري وقد وسعت بلاد الله إشراقاً
من أي باب سعت غير الزمان إلى رحيب صدرك حتى قيل قد ضاقا
قد كنت أحسبني في حسن رأيك لي أتني أخذت على الأيام ميثاقاً
فالآن لم يبق لي بعد انحرافك ما آسى عليه وأبدي منه إشفاقاً

فأجابه بهذه القطعة :

ما زلت أوليك إخلاصاً وإشفاقاً وأثني عنك متهما غبت مشتاقاً
وكان من أمني أن أقتنيك أخاً فأخفق الأمل المأمول إخفاقاً
فقلت غرس من الإخوان أكلؤه حتى أرى منه إثماراً وإبراقاً
فكان لما زهت أزهاره ودنت أثمارها حنظلاً مرّاً لمن ذاقا
فلست أول الإخوان سقيتهم صفوي وأعلقتهم بالقلب إعلاقاً
فما جزوني بإحساني ولا عرفوا قدرتي ولا حفظوا عهداً وميثاقاً

والوزير المذكور قال في حقّه في المطمح : إنه وزير المنصور بن عبد العزيز ، وربّ السبق في وده والتبريز ، ومنقّض الأمور ومُبرِّمها ، ومُحمِدُ الفتن ومُضرمها ، اعتقل بالدّهية ، واستقلّ بالأمر والنهي ، على انتهاز بين الأكفاء ، واعتراض المحو لرسومه والإعفاء ، فاستمر غير مراقب ، وأمر

ما شاء غير ممثّل للعواقب ، ينتضي عزائم تنتضي ، فإن أُلْتُ من الأيام مظلمة
أضأ ، إلى أن أودى ، وغار منه الكوكب الأهدى ، فانتقل الأمر إلى ابنه أبي
بكر ، فناهيك من أي عُرف ونُكْر ، فقد أربى على الدهاة ، وما صبا إلى
الظبية ولا إلى المهاة ، واستقلّ بالهول يقتحمه ، والأمر يسديه ويلحمه ، فأَيَّ
ندى أفاض ، وأيَّ أجنحة بمدى هاض ، فانقادت إليه الآمال بغير خطام ،
ووردت من نداه ببحر طام ، ولم يزل بالدولة قائماً ، وموقظاً من بهجتها
ما كان نائماً ، إلى أن صار الأمر إلى المأمون بن ذي النون أسد الحروب ،
ومسد الثغور والدروب ، فاعتمد عليه واتكل ، ووكل الأمر إلى غير وكيل ،
فما تعدى الوزارة إلى الرياسة ، ولا تردى بغير التدبير والسياسة ، فتركه مستبدّاً ،
ولم يجد من ذلك بدءاً . وكان أبو بكر هذا ذا رفعة غير متضائلة ، وآراء لم تكن
أفلة ، أدرك بها ما أحبّ ، وقطع غارب كل منافس وجبّ ، إلى أن طأحه
العمر وأنصاه ، وأغمده الذي انتصاه ، فخلّى الأمر إلى ابنه ، فتبدل في التدبير ،
ولم يفرقا بين القبيل والدبير ، فغلب عليهما القادر بن ذي النون ، وجلب
إليهما كل خطب^١ ما خلا المنون ، فأنجلكوا ، بعدما ألقوا ما عندهم وتخلّوا ،
وكان لأبي عبد الله نظم مستبدع ، يوضع بين الجوانح ويودع ؛ انتهى المقصود
من الترجمة .

2 - وكان للوزير أبي الفرج^٢ ابن مكبود قد أعياه علاجه ، ونهياً
للفساد مزاجه ، فدل على خمر قديمة ، فلم يعلم بها إلا عند حكم ، وكان
وسيماً ، وللحسن قسيماً ، فكتب إليه^٣ :

أرسل بها مثل ودك أرق من ماء خدك

١ ب : جلب .

٢ المطبع ١٥ - ١٦ .

٣ انظر ما سبق ص : ٤٠٨ .

شقيقة النفس فانضح بها جوى ابني وعبدك

وكتب رحمه الله تعالى معتذراً ، عما جناه منذراً :

ما تغيبتُ عنكَ إلا لعذر ودليلي في ذاك حرصي عليك
هيبك أن الفرار من عظم ذنب أتراه يكون إلا إليكما

وقال في المطمح في حق أبي الفرج : من ثنية رياسة ، وعثرة نفاسة ،
ما منهم إلا من تحلى بالإمارة ، وتردّى بالوزارة ، وأضاء في آفاق الدول ،
ونفض بين الخيل والحوال ، وهو أحد أمجادهم ، ومتقلد نجادهم ، فاتهم أدباً
ونبلًا ، وباراهم كرمًا تخاله وبلا ، إلا أنه بقي وذهبوا ، ولقي من الأيام
ما رهبوا ، فعين تنكرها ، وشرب عكرها ، وجال في الآفاق ، واستدر أخلاف
الأرزاق ، وأجال للرّجاء^١ قداحاً متواليات الإخفاق ، فأحمل قدره ، وتوالى
عليه جور الزمان وغدره ، فاندفعت آثاره ، وعفت أخباره ، وقد أثبت له
بعض ما قاله وحاله قد أدبرت ، والخطوب^٢ إليه قد انبترت ؛ أخبرني الوزير
الحكيم أبو محمد المصري وهو الذي آواه ، وعنده استقرت نواه ، وعليه كان
قادماً ، وله كان مُنادماً ، أنه رغب إليه في أحد الأيام أن يكون من جملة
ندمائه ، وأن لا يُحجب عنه وتكون منة من أعظم نعمائه ، فأجابه بالإسعاف ،
واستساغ منه ما كان يعاف ، لعلمه بقلته ، وإفراط خلته ، فلمّا كان
ظهر^٢ ذلك اليوم كتب إليه :

أنا قد أهبتُ بكم وكلكم هوى وأحقّكم بالشكر مني السابق
فالشمس أنت وقد أظلّ طلوعها فاطلع وبين يديك فجر صادق

١ م ب : الرجاء .

٢ ظهر : سقطت من ب .

3 - وقال الوزير أبو عامر ابن مسلمة^١ :

حجَّ الحَجِيجُ مِنِّي ففازوا بالمني وتفرقتُ عن خِيفَةِ الأَشْهادُ
ولنا بوجهك حجةٌ مبرورةٌ في كلِّ يومٍ تنقضي وتُعادُ

وقال الفتح في حقِّه ما صورته : نَبَّتُهُ^٢ شرفٍ باذخ ، ومَفْخَرٍ على
ذوائب الجوزاء شامخ ، وزَرُّوا للخلفاء ، فانتجعتهم الأدباء واتبعتهم العظماء ،
وانتسبت لهم النعماء ، وتنفست عن نور بهجتهم الظُّلَماء ، وأبو عامر هذا هو
جوهرهم المنتخل ، وجوادهم الذي لا يبخل ، وزعيمهم المعظَّم ، وسِلْكُ
مَفْخَرِهِم المنظَّم ، وكان فتي المدام ، ومستفقى النَّدَام ، وأكثر من النعت للراح
والوصف ، وآثر الأفراح والقصف ، وأرى قَيْنَات السرور مجلوة ، وآيات
الحسن متلوة ، وله كتاب سماه « حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح » ،
واختص بالمعتضد اختصاصاً جَرَّعَهُ رَدَاه ، وصَرَّعَهُ في مَدَاه ، فقد كان في
المعتضد من عدم تحفظه للأرواح ، وتهاونه باللَّوَام في ذلك واللَّوَّاح ، فاطمأن
إليه أبو عامر واغترَّ ، وأنس إلى ما بَسَمَ من مؤانسته وافترَّ ، حتى أمكنته في
اغتياله فرصة ، لم يعلق فيها حصّة ، ولم يطلق عليه إلا أنَّه زلت به قدمه فسقط في
البحيرة وانكفا ، ولم يُعلم به إلاَّ بعدما طفا ، فأخرج وقد قضى ، وأُدرج منه
في الكفن حُسام المجد مُنْتَضِي ، فمن محاسنه قوله يصف السوسن ، وهو ممَّا
أبداع فيه وأحسن :

وسوسنٍ راقٍ مرآهُ ومُخْبِرُهُ وجَلَّ في أعينِ النُّظَّارِ منظرُهُ
كَأَنَّهُ أَكْؤُسُ البَلْؤُرِ قد صَنَعَتْ مُسْتَنْدَسَاتِ تَعَالَى اللهُ مَظْهَرُهُ
وبينها ألسنٌ قد طُوِّقَتْ ذَهَباً من بينها قائمٌ بالملكِ يُوَثِّرُهُ

١ المطبع : ٢٣ - ٢٤ .

٢ المطبع : بيت .

إلى أن قال : واجتمع بجنّة بخارج إشبيلية مع إخوان له عليّة ، فينما هم يديرون الراح ، ويشربون من كأسها الأفراح ، والجوّ صاح ، إذا بالأفق قد غيّم ، وأرسل الدّيم ، بعدما كسا الجوّ بمطارف اللاذ^١ ، وأشعر الغصون زهر قباذ^٢ ، والشمس منتقبة^٣ بالسحاب ، والرعد يبيكها بالانتحاب ، فقال^٤ :

يومٌ كأنّ سحابه لبست عمامات الصوامت
حجبت به شمس الضّحى بمثال أجنحة الفواخت
والغيث يبكي فقدّها والبرق يضحك مثل شامت
والرعد يخطب مفصّحاً والجو كالمحزون ساكت

وخرج إلى تلك الحملة والربيع قد نشر ردّاه^٥ ، ونثر على معاطف الغصون ندّاه^٦ ، فأقام بها وقال :

وحميلة رقم الزّمان أديمها بمفضض ومقسّم ومشوب
رشت قبيل الصّبح ريق غمامة رشف المحب مرأشف المحبوب
وطردت في أكنافها ملك الصّبا وقعدت واستوزرت كلّ أديب
وأدرت فيها اللّهُو حقّ مداره مع كلّ وضّاح الجيين حسيب^٧

4 - وقال الوزير الكاتب أبو حفص أحمد بن برّد^٨ :

قلبي وقلبك لا محالة واحد^٩ شهدت بذلك بيننا الألاحظ^{١٠}

١ م : الرذاذ .

٢ م : دهر قباذ .

٣ ب : متنقية .

٤ مرت الأبيات ص : ٤٨٥ .

٥ ب والمطمح : مهوب .

٦ المطمح ٢٤ - ٢٥ .

فَتَعَالَ فَلتُغْظِ الحُودَ بوصلنا إِنَّ الحُودَ بِمَثَلِ ذَاكَ يُغَاطُ

وقال :

يا من حُرِّمْتُ لَذَاذِي بِمُسِيرِهِ هَذِي النُّوَى قَدْ صَعَّرَتْ لِي خَدَّهَا
زُودَ جَفُونِي مِنْ جَمَالِكَ نَظَرَةً وَاللَّهِ يَعْلَمُ إِنَّ رَأَيْتُكَ بَعْدَهَا

وقال في المطمح في ابن برد المذكور : إِنَّهُ غُذِيَ بِالْأَدَبِ^١ ، وعلا إلى
أسمى^٢ الرتب ، وما من أهل بيته إلا شاعر كاتب ، لازم لباب السلطان
راتب^٣ ، ولم يزل في الدولة العامرية بِسَبْقٍ يُذَكَّرُ ، وَحَقَّ لَا يُنْكَرُ ، وهو بديع
الإحسان ، بليغ القلم واللسان ، مليح الكتابة ، فصيح الخطابة ، وله « رسالة
السيف والقلم »^٤ ، وهو أوّل من قال بالفرق بينهما ، وشعره مثقف المباني ،
مُرْهَفٌ كالحسام اليماني ، وقد أثبت منه ما يلهيك سماعاً ، ويريك الإحسان
لما ، فمن ذلك قوله يصف البهار :

تأملُ فقد شقَّ البهارُ كئاماً وأبرز عن نَوَّارِهِ الحَصِيلَ الندي
مداهنَ تبرٍ في أناملِ فضةٍ على أذرعٍ مخروطةٍ من زَبَرَجَدٍ

وله يصف معشوقاً ، أهيفَ القدَمَ مشوقاً ، أبدى صفحة ورد ، وبدا في
ثوب لازورد :

لما بدا في لازور دِيَّ الحريرِ وقد بهرُ
كَبَّرْتُ مِنْ فَرْطِ الجَمَا لِي وَقُلْتُ : مَا هَذَا بَشَرُ
فَأَجَابَنِي لَا تَنْكَرُنْ ثُوبَ السَّمَاءِ عَلَى الْقَمَرِ

١ المطمح : هذه ثنية غذيت بالأدب .

٢ المطمح : وريت في سماء .

٣ ق ب ودوزي : مراتب .

٤ راجع هذه الرسالة في الذخيرة ٢/١ : ٤٣٥ .

5 - وقال الوزير الكاتب أبو جعفر ابن اللمائي^١ :

أَلَمَّا قَدَّيْتُكُمْ نَسْتَلِمُ منازلَ سَلَمَى على ذي سَلَمٍ
منازلُ كُنْتُ بها نازلاً زمانَ الصَّبَا بينَ جَيِّدٍ وفَمٍ
أما تجدُنَّ الثرى عاطراً إذا ما الرياح تنفسن ثم

وقال في المطمح فيه : إمامٌ من أئمة الكتابة ومُفَجِّرُ ينبوعها ، والظاهر على مصنوعها بمطبوعها ، إذا كتب نثر الدرَّ في المَهَارِق ، ونَمَتَ فيه أنفاسُه كالمسك في المَفَارِق ، وانطوى ذكره على انتشار إحسانه ، [وقصر أمره] مع امتداد لسانه ، فلم تَطُلْ لدَوَحَتِهِ فروع ، ولا اتصل لها من نهر الإحسان كروع ، فاندفنت محاسنه من الإهمال في قَبْرِ ، وانكسرت الآمالُ بعدم بدائعِهِ كسراً بعد جَبْرِ ، وكان كاتبَ عليّ بن حمود العلوي وذكر أنه كان يرتجل بين يديه ولا يُروِّي ، فيأتي على البدِّيه ، بما يتقبَّله المُرَوِّي ويُبْدِيهِ^٢ ، فمن ذلك ما كتب به معتنياً من بعض رسالة : رَوْضُ القلم في فَنَائِكِ مُونِقٍ ، وغُصْنُ الأدبِ بِمَائِكِ مَورِقٍ ، وقد قذف بحر الهند دُرَرَهُ ، وبعث روض نجدٍ زَهْرَهُ ، فأهدى ذلك على يدي فلان الجاري في حَمْدِهِ ، على مباني قصده .

6 - وقال الوزير حسان بن مالك بن أبي عبدة في المهرجان^٣ :

أرى المهرجانَ قد استبشرا غداةَ بكى المزنُ واستعبرا
وسربلت الأرض أمواها وجللت السندسُ الأخضرَا
وهزَّ الرياحُ صنايرَهَا فضوَّعت المسك والعنبرا
تهادى به الناسُ الطافه وسامى المقلُّ به المكثرا

١ المطمح : ٢٥ - ٢٦ .

٢ المطمح : ويفديه ؛ وفي م : بما يفصله ؛ ب : يفعلهُ ؛ دوزي : يتقبَّله .

٣ المطمح : ٢٦ - ٢٧ .

وقال في حقّه في المطمح : من بيت جلاله ، وعِثْرَة^١ أصالة ، كانوا مع عبد الرحمن الداخل ، وتوغّلوا معه في متشعبات تلك المداخل ، وسعّوا في الخلافة حتى حضر مُبايعُها ، وكثُر مُشايِعُها ، وجَدُّوا في الهدنة وانعقادها ، وأخمدوا نار الفتنة عند اتّقادها ، فأنبرمت^٢ عُرّاها ، وارتبطت أولاهها وأخراها ، فظهرت البيعة واتضحت ، وأعلنت الطاعة وأفصحت ، وصاروا تاج مَقْرِقها ، ومنهاج طُرُقها ، وهو ممّن بلغ الوزارة بعد ذلك وأدركها ، وحلّ مطلعها وفلّكها ، مع اشتها في اللغة والآداب ، وانخرط في سلك الشعراء والكتاب ، وإبداع لما ألّف ، وانتهاض بما تكلف ، ودخل على المنصور وبين يديه كتاب ابن السري وهو به كليف ، وعليه معتكيف ، فخرج وعمل على مثاله كتاباً سمّاه « ربيعة وعقيل » ، جرد له من ذهنه أيّ سيفٍ صَقِيل ، وأتى به منتسَخاً مصوراً في ذلك اليوم من الجمعة الأخرى ، وأبرزه والحسنُ يتبسّم عنه ويتفرّى ، فسُرّ به المنصور وأعجب ، ولم يَغِب عن بصره ساعة ولا حُجِب ، وكان له بعد هذه المدة حين أدجّت الفتنة ليلها وأزجت إبلها وخيلها ، اغتراب كإغتراب الحارث بن مُضاض ، واضطراب بين القوافي والمواضي ، كالحية النضاض ، ثم اشتهر بعد ، وافترّ له السعد ، وفي تلك المدّة يقول يتشوّق إلى أهله :

سقى بلداً أهلي به وأقاربي	غواد بأثقال الحيا وروائح
وهبّت عليهم بالعشي وبالضحى	نواسمُ بردٍ والظلالُ فوائحُ
تذكرتهم والنأي قد حال دونهم	ولم أنسَ لكنّ أوقد القلبَ لافحُ
ومما شجاني هاتفٌ فوق أيكّة	ينوحُ ولم يعلم بما هو نائحُ
فقلت اتّشدّ يكفيك أني نازحُ	وأن الذي أهواه عني نازحُ
ولي صبيّةٌ مثلُ الفراخِ بقفّرةٍ	مضى حاضنها فاطحتّها الطوائحُ ^٣

١ المطمح : وغرة ؛ ب : ومحمد ؛ م : ومجرة .

٢ المطمح : فأبرمت .

٣ المطمح : متى حضناها طوحتها الطوائح .

إذا عَصَفَتْ رِيحٌ أَقَامَتْ رُؤُوسَهَا فَلَمْ يَلْقَهَا إِلَّا طَيُورٌ بِوَارِحُ
فَمَنْ لَصْغَارٍ بَعْدَ فَقْدِ آبِيهِمْ سَوَى سَانِحٍ فِي الدَّهْرِ لَوْ عَنْ سَانِحُ

واستوزره المستظهر عبد الرحمن بن هشام أيام الفتنة فلم يرض بالحال ،
ولم يمحض في ذلك الانتحال ، وثناقل عن الحضور في كل وقت ، وتغافل في ترك
الغرور بذلك المقت ، وكان المستظهر يستبدُّ بأكثر تلك الأمور دونه ، وينفرد
مغيَّباً عنه شؤونه ، فكتب إليه :

إذا غبتُ لم أَحْضَرْ وإن جئتُ لم أُسَلِّ فسيانَ منِّي مشهدٌ ومغيَّبُ
فأصبحتُ تيمِّياً وما كنتُ قبلها اتيمٍ ولكنَّ الشَّيْءَ نسيبُ
وله :

رأتُ طالِعاً للشَّيْبِ بينَ ذوائبي فباحثُ بأسرارِ الدَّمْعِ السَّوَكِبِ
وقالت : أشيبُ ؟ قلتُ : صُبْحُ تجاربي أنارَ على أعقابِ ليلِ نوائبي
ولمّا مات رثاه الوزير أبو عامر ابن شُهَيْد بقوله :

أفي كلِّ عامٍ مصرعٌ لعَظِيمٍ أصابَ المَنايا حادِّي وقَدِيمي
وكيف اهتدائي في الخطوب إذا دجتُ وَقَدْ فَقَدَتْ عَيْناي ضوئَ نَجُومِ
مضى السلفُ الوضاحُ إلا بقيَّةً كغرةِ مسودِّ القميصِ بهيمِ
فإن ركبتُ مني اللَّيالي هَضِيمَةً فقبلي ما كان اهتضامُ تميمِ
أبا عبدة إنّا غدرناك عندما رجَعنا وغادرناكَ غيرَ ذميمِ
أنخذلُ من كُنّا نرودُ بأرضه ونكرعُ منه في إناءِ عُلُومِ
ويجلو العَمَى عَنّا بأنوارِ رأيهِ إذا أَظْلَمَتْ ظِلْماءُ ذاتِ غيومِ
كأنَّكَ لم تَلقُحَ بِريحٍ من الحمى عقائمَ أَفكارٍ بغيرِ عقيمِ
ولم نَعتمدْ مغناكَ غلواً ولَمْ نَنزِرْ رواحاً لفصلِ الحُكْمِ دارَ حَكِيمِ

١ المطمح : ولم نزل نؤم .

7 - وقال الوزير الفقيه أبو أيوب ابن أبي أمية^١ :

أَمِسْكَ دَارِينَ حَيَّاكَ النَّسِيمُ بِهِ أَمْ عَنَبُ الشَّحْرِ أَمْ هَذِي الْبَسَاتِينِ
بِشَاطِئِ النَّهْرِ حَيْثُ النَّوْرُ مُؤْتَلَقٌ وَالرَّاحُ تَعْبِقُ أَمْ تَلِكِ الرِّيَّاحِينِ

وحلاه في المطمح بقوله : واحد الأندلس الذي طَوَّقَهَا فَخَارًا ، وطَبَّقَهَا
بأوانه افتخارًا ، ما شئت من وقار لا تُحِيل الحركة سكونه ، ومقدار يتمنى مخبر^٢
أن يكونه ، إذا لاح رأيت المجد مجتمعاً ، وإذا فاه أضحى كل شيء مستمعاً ،
تكتحل منه مُقَلَّ المجد ، وتنتحل المعالي أفعاله انتحال ذي كَلَف بها وَوَجَد ،
لو تفرقت في الخلق سَجَايَاه لَحُمِدَت الشَّيْم ، ولو استسقيت بمحياء لما
استمسكت الدِيم ، ودعي للقضاء فما رضي ، وأعفي عنه فكأنه ما استقصي ،
لديه تثبت الحقائق ، وتثبت العلائق ، وبين يديه يُسَلِّك عَيْن الْجَدَد^٣ ، ويدَع
اللَّدِد اللَّدَد^٤ ، وله أدب إذا حاضر به فلا البحر إذا عصف ، ولا أبو عثمان
إذا وصف ، مع حلاوة مؤانسة تستهوي الجليس ، وتهوي حيث شاءت
بالنفوس ، وأما تحبيره وإنشاؤه ، ففيهما للسامع تحبيره وانتشاؤه ، وقد اثبت^٥
له بدعاً ، ينثي إليها الإحسان جيداً وأخذعاً ، فمن ذلك قوله في منزل
حله متنزهاً :

يَا مَنَزَلَ الْحَسَنِ أَهْوَاهُ وَأَلْفُهُ حَقًّا لَقَدْ جُمِعَتْ فِي صَحْنِكَ الْبِدَعُ
لِلَّهِ مَا اصْطَنَعَتْ نِعْمَاكَ عِنْدِي فِي يَوْمٍ نَعَمْتُ بِهِ وَالشَّمْلُ مَجْتَمِعُ

وحلَّ مُنِيَّةَ صَهْرِهِ الْوَزِيرَ أَبِي مَرْوَانَ ابْنَ الدَّبِّ بَعْدُوءَ إِشْبِيلِيَّةِ الْمُطَلَّةِ عَلَى
النَّهْرِ ، الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى بَدَائِعِ الزَّهْرِ ، وَهُوَ مُعْرَسٌ بِنَتِّهِ^٦ ، فَأَقَامَ بِهَا أَيَّامًا مُتَأَنِّسًا ،

١ المطمح : ٢٨ - ٢٩ ؛ وقد سقط « أبو أيوب » من م .

٢ ب : مسلك ؛ دوزي : يسلك من الحق الجدد .

٣ ق : الألد اللدد .

٤ ب : معرس مبيته ؛ م : معرس بابنته .

ولخذوة السرور مقتبساً ، فوالى عليه من التُّحَف ، وأهدى إليه من الطُّرَف ،
ما غمر كثرة ، وبهر نفاسة وأثرة ، فلمّا ارتحل وقد اكتحل من حسن ذلك
الموضع بما اكتحل ، كتب إليه :

قلْ للوزيرِ وأين الشكرُ من منيْ جاءتْ على سَنَنِ تَترى وتَتَصَلُ
غَشِيَتْ مَغْنَاكَ والروضُ الأنيقُ بهِ يَنْدَى وَصَوْبُ الحيا يَهْمِي وينهملُ
وجالَ طَرفِي في أَرْجائهِ مرحاً وَفَقَّ اجْتِيَازِي يَسْتَعْلِي ويستفلُ
نَدَعُو بِلَفْتَتِهِ حيثُ ارتَمَى زَهْرٌ عَلَيَّهِ من مِثْلي أَفْنَانُهُ كِلَلُ
محلَّ أَنَسٍ نَعِمْنَا فِيهِ آوَنَةٌ منَ الزَّمانِ وواتانا بهِ الأملُ

وحلَّ بعد ذلك منتزهاً بها على عادته ، فاحتفل في موالة ذلك البر وإعادته ،
فلمّا رحل كتب إليه :

يا دارُ أَمْنِكَ الزَّمانُ نُ صُروفُهُ ونَوائِبُهُ
وجَرَتْ سَعُودُكَ بالذي يَهْوَى نَزِيلُكَ آيُهُ
فلنعم مأوى الضيف أذ تِ إِذا تَحاموا جَانِبُهُ
خطرٌ شَاوَتْ بِهِ الدِّيارَ رَ وَأَذَعَنْتُ^١ لَكَ قَاطِبُهُ

وصنع له ولد ابن عبد الغفور^٢ رسالة سمّاها بـ «الساجعة» حذا بها حذو أبي
العلاء المعري في «الصاهل والشاحج» وبعث بها إليه ، فعرضها عليه ، فأقامت
عنده أياماً ثمّ استدعاها منه فصرفها إليه ، وكتب معها : بَكَرُ زَفَقَتْهَا أَعَزَّكَ اللهُ
تعالى نَحْوَك ، وَهَزَزَتْ بِمَقْدَمِها سَنّاك وَسَرَّوَك ، فلم أَلْفَظْها عن شِيبَع ، ولا

١ ب والمطبع : ودنت .

٢ ب : فأذعنت .

٣ هو صاحب إحكام صنعة الكلام ؛ وقد تحدث عن رسالة «الساجعة» هنالك ، وسقطت لفظة «ولد»
من م .

جهلت ارتفاعها عما يحتلى من نوعها ويُسْتَمَعَ ، ولكن لما أنسته^١ من أنسك بانتجاعها ، وحرصك على ارتجاعها ، دفعت في صدر الولوع ، وتركت بينها وبين مجامعها تلك الربوع ، حيث الأدب غَضٌّ ، وماء البلاغة مُرْفَضٌ ، فأُسْعِدَ أعزك الله بكرتها ، وسلها عن أفانين معرّتها ، بما تقطفه من ثمارك ، وتغرفه من بحارك ، وترتاح له ولإخوانه من نتائج أفكارك ، وإنّها لشِنْشِنَة أعرفها فيكم من أخزَم ، وموهبة حزتموها وأحرزتم سبق فيها منذ كم . انتهى .

8 — وابن عبد الغفور هو الوزير أبو القاسم الذي قال فيه الفتح^٢ : فتى زكا فرعاً وأصلاً ، وأحكم البلاغة معنًى وفصلاً ، وجرد من ذهنه على الأعراض نصلاً ، قدّها به وقرّاها ، وقدح زند المعالي حتى أوراها ، مع صون يرتديه ، ولا يكاد يبديه ، وشيبة ألحقته بالكهول ، فأقفرت منه ربعها المأهول ، وشرف ارتداه ، وسلّف اقتضى أثره الكريم واقتداه ، وله شعر بديع السرد ، مَؤَوّف البرد ، وقد أثبت له منه ما ألفت ، وبالدلالة عليه اكتفيت ، فمن ذلك قوله :

تركتُ التصابي للصوابِ وأهلهِ وببيضِ الطلّي للبيضِ والسّمَرِ للسّمَرِ
مُدامي مِدادِي والكؤوسُ محابري وندماي أقلامي ومنقلي سيفري
وله :

لا تُنْكروا أنّا في رحلة أبدأ نحثُّ في نَفَنَفٍ^٣ طوراً وفي هدَفِ
فدهرنا سُدْفَةٌ ونحنُ أنجُمُها وليس يُنْكُرُ مجرى النّجمِ في السُدْفِ
لو أسفر الدهرُ لي أقصرتُ عن سفري وملتُ عن كَلْفِي بهذِهِ الكَلْفِ

١ ب م : أنست .

٢ المطبع : ٢٩ - ٣٠ .

٣ ب م : ثقف .

وله من قصيدة :

رويدك يا بدّر التّمَامِ فإنتي أرى العيس حَسْرَى والكواكبَ ظُلُمَا
كَأَنَّ أديمَ الصّبحِ قد قدَّ أنجُمَا وعودرَ درعُ اللّيلِ فيها مرقعَا
فإنتي وإن كانَ الشّبابُ محببَا إليّ وفي قلبي أجلّ وأوقعا
لأنفٍ من حُسْنٍ بشِعْري مُفْتَرَى وأنفٍ من حُسْنٍ بشِعْري قُنْعَا

9 - وقال الوزير أبو الوليد ابن حَزَمٌ :

إليكَ أبا حفصٍ وما عن ملالةٍ ثنيتُ عِنائي والحبيبُ حبيبُ
مقالاً يُطيرُ الجمرَ عن جنباته ومن تحته قلبٌ عليكَ يذوبُ
مضتُ لكَ في أفياءِ ظليّ قولةً لها بينَ أحناءِ الضُّلوعِ دبيبُ
ولكن أبى إلا إليكَ التفاتهُ فزادَ عليه من هواكَ رقيبُ
وكم بيننا لو كنتَ تحمّدتُ ما مضى إذ العيشُ غَضٌّ والزمانُ قشيبُ
وتحتَ جناحِ الغيمِ أحشاءُ روضةٍ بها لخفوقِ العاصِفَاتِ وجيبُ
وللزهَرِ في ظلِّ الرّياضِ تبسُّمٌ وللطيرِ منها في الغصونِ نجيبُ

وقال في الزهد :

ثلاثٌ وستون قد جُرَّتْهَا فَمَاذَا تَوَمَّلُ أَوْ تَنْتَظِرُ
وحلَّ عليكَ نَذِيرُ المشيبِ فما تَرَعَوِي أَوْ فما تَرُدْجِرُ
تمرُّ لياليكَ مرّاً حثيثاً وأنتَ على ما أرى مستمرّ
فلو كنتَ تعقلُ ما ينقضي من العمرِ لا اعتضتَ خيراً بِشِرّ
فما لك لا تستعدُّ إذن لدارِ المَقَامِ ودارِ المَقَرّ
أترغبُ عن فجأةٍ للمَنونِ وتعلمُ أن لَيْسَ منها مفرّ

فإِمَّا إِلَى جَنَّةٍ أُزْلِفَتْ وَإِمَّا إِلَى سَقَرٍ تَسْتَعْرُ

10 - وقال ابن أبي زمنين^١ :

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشُرُ الكَفَنَا ونحنُ في غفلةٍ عما يُراد بنا
لا تطمئنُّ إلى الدنيا وبهجتها وإن توشَّحتَ من أثوابها الحسنا
أين الأحيَّةُ والجيرانُ؟ ما فعلوا؟ أين الذين همُّ كانوا لنا سَكَنًا؟
سقاَهُمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ فصيرتهم لأطباقِ الثرى رَهْنًا
تبكي المنازلُ منهم كلَّ منسجمٍ بالمكرمات وتترثي البر والمِنا
حَسَبُ الحِمَامِ لَوَاقِبَهُمْ وَأَمْهَلَهُمْ أن لا يظنَّ على مَعْلُوءَةٍ حسنا

وقال في المطمح : الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين فقيه متبتل ، وزاهد
لا منحرف إلى الدنيا ولا منتقل^٢ ، هَجَرَهَا هَجْرَ المنحرف ، وحلَّ أوطانه
فيها محلَّ المُعْتَرِف ، لعلمه بارتحاله^٣ عنها وتقويضه^٤ ، وإبداله منها وتعويضه ،
فنظر بقلبه لا بعينه ، وانتظر يوم فراقه وبَيِّنِهِ ، ولم يكن له بعد ذلك بها اشتغال ،
ولا في شِعب تلك المسالك إيغال ، وله تواليف في الوعظ والزهد وأخبار
الصالحين تدل على تخليته عن الدنيا واتِّراكه ، والتفَلَّت من حِبائِلِ الاغترار
وأشراكه ، والتنقل من حال إلى حال ، والتأهَّب للارتحال ، ويستدل به على
ذلك الانتحال ، فمنها قوله :

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشُرُ الكَفَنَا

فذكر الأبيات ، انتهى .

١ المطمح : ٤٩ - ٥٠ وزاد في م : في الزهد .

٢ المطمح : منتقل .

٣ ق ب : بارتحالها عنه .

٤ في الأصول : وتقويضه .

11 - وقال خَلَفُ بن هرون يمدح الحافظ أبا محمد ابن حزم^١ :

يخوضُ إلى المجدِ والمكرُماتِ بحارَ الخطوبِ وأهوالها
وإن ذُكرتُ للعُلا غايَةً ترقى إليها وأهوى لها

وقال في المطمح فيه : فقيه مستنبط ، ونبهه بقياسه مُرتبط ، ما تكلم تقليداً ، ولا عداً^٢ اختراعاً وتوليداً ، ما تمنّت به الأندلس أن تكون كالعراق ، ولا حنّت الأنفس معه إلى تلك الآفاق ، أقام بوطنه ، وما برح عن عطّنه ، فلم يشرب ماء الفرات ، ولم يقفُ عيشة الثمرات^٣ ، ولكنه أربى على مَنْ مِنْ ذلك غُدّي ، وأزرى على مَنْ هنالك نُعلٍ وحُدّي ، تفرّد بالقياس ، واقتبس نارَ المعارف أيّ اقتباس ، فناظر بها أهل فاس ، وصنّف وجبر حتى أفنى الأنقاس ، وناذ الدنيا ، وقد تصدّت له بأفّن مُحياً ، وأهدت إليه أعْبَقَ عَرَفَ ورَبّا ، وخلع الوزارة وقد كسّته مَلاها ، وألبسته حُلاها ، وتجرّد للعلم وطلبه ، وجدّ في اقتناء نُخبه ، وله تآليف كثيرة ، وتصانيف أثيرة ، منها « الإيصال إلى فهم كتاب الحصال » وكتاب « الإحكام لأصول الأحكام » وكتاب « الفِصل في الأهواء والملل والنحل » وكتاب « مراتب العلوم »^٤ وغير ذلك ، ممّا لم يظهر مثله من هنالك ، مع سرعة الحفظ ، وعفاف اللسان واللحظ ، وفيه يقول خلف بن هرون :

يخوضُ إلى المجدِ والمكرُماتِ

ولابن حزم في الأدب سَبَقٌ لا يُنكر ، وبديهة لا يُعلم أنّه رَوَى فيها ولا

١ المطمح : ٥٥ - ٥٦ .

٢ المطمح : تمدى .

٣ كذا ، ولعله : عيشة السمرات .

٤ م ب ق : القصد .

٥ هذه رسالة نشرتها ضمن « رسائل ابن حزم » (القاهرة ١٩٥٤) .

فَكَرَّ ، وقد أثبت من شعره ما يُعلم أنه أوحده ، وما مثله فيه أحد ، ثم ذكر جملة من نظمه ذكرناها في غير هذا الموضع .

12 — وكتب أبو عبد الله ابن مسرّة^١ إلى أبي بكر اللؤلؤي يستدعيه في يوم طين ومطر ، لقضاء أرب من الأنس ووطر :

أقبلُ فإنَّ اليومَ يومٌ دَجَنُ إلى مكانٍ كالضميرِ مكني
لعلنا نُحكِّمُ أشهى فنَّ فأنتَ في ذا اليومِ أمشى مني

وقال في المطمح : إن ابن مسرّة كان على طريق من الزهد والعبادة سبقَ فيها ، وانتسق في سلك مُقتضيها ، وكانت له إشارة غامضة ، وعبرة عن منازل الملحدِين غير داحضة ، ووجدت له مقالات ردية ، واستنباطات مُردية ، نُسب بها إليه رَهَقٌ ، وظهر له فيها مَزْحَلٌ عن الرشد ومزق ، فَتُبِعَتْ مصنفاته بالخرق ، واتسع في استباحتها الخرق ، وغدت مهجورة ، على التالين محجورة ، وكان له تنميق في البلاغة وتدقيق لمعانيها ، وتزويق لأغراضها وتشديد لمبانيها ، انتهى . وهو من نمط الصوفية الذين تكلَّم فيهم ، والتسليم أسلم ، والله تعالى بأمرهم أعلم .

13 — ومن حكايات أهل الأندلس في الانقباض عن السلطان ، والفرار من المناصب ، مع العذر اللطيف : ما حكاه في المطمح في ترجمة الفقيه أبي عبد الله الحسني^٢ إذ قال : كان فصيح اللسان ، جزيل البيان^٣ ، وكان أنوفاً منقبضاً عن السلطان ، لم يتشبَّث بدُنْيَا ، ولم يُنكث له مُبرم عَليَا ، دعاه الأمير محمد إلى

١ المطمح : ٥٨ .

٢ المطمح : ٥٦ - ٥٧ وفي ب م : الحسني .

٣ ب : التبيان .

القضاء فلم يجب ، ولم يُظهر رجاءه المحتجب ، وقال : أبَيْتُ عن أمانة هذه الديانة ، كما أبت السموات والأرض عن حمل الأمانة ، إِبَايَة إِشْفَاق ، لا إِبَايَة عصيان ونفاق ، وكان الأمير قد أمر الوزراء بإجباره ، أو حمل السيف إن تمادى على تأبّيه وإصراره ، فلمّا بلغه قوله هذا أعفاه ، قال : وكان الغالب عليه علم النسب ، واللغة والأدب ، ورواية الحديث ، وكان مأموناً ثقة ، وكانت القلوب على حبه متّفقة ، وله رحلة دخل فيها العراق ، ثم عاد إلى هذه الآفاق ، وعندما اطمأنت داره ، وبلغ أقصى مناه مدّاره ، قال :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيِّنٌ وَلَمْ تَكُ فُرْقَةٌ

الأبيات ، انتهى .

وهذه الأبيات قدمناها في الباب الخامس في ترجمة القاضي ابن أبي عيسى . فأنت ترى كلام الفتح قد اضطرب في نسبتها ، فمرة نسبها إلى هذا ، ومرة نسبها إلى ذاك ، وهي قطعة عَرَفُهَا ذاك .

٣٩٨ - ومن دُعَابَاتِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَمُلْحَمِهِمْ : مَا يَحْكِي عَنْ ابْنِ أَبِي حَلْتَى ، وَهُوَ عَلِي بْنُ أَبِي حَلْتَى الْمَكْنَسِيُّ^١ أَبُو الْحَسَنِ ، قَالَ لِسَانَ الدِّينِ : كَانَ شَيْخًا مَلِيحَ الْحَدِيثِ ، حَافِظًا لِلْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ ، قَائِمًا عَلَى الْمَدُونَةِ^٢ ، مُضْطَلَعًا بِمَشْكَلَاتِهَا ، كَثِيرَ الْحِكَايَاتِ ، يَحْكِي أَنَّهُ شَاهِدَ غَرَائِبَ وَتَمَلُّحًا فَيَنْمِقُهَا عَلَيْهِ بَعْضُ الطَّلَبَةِ ، وَيَتَعَدُّونَ ذَلِكَ إِلَى الْإِفْتِعَالِ وَالْمَدَاعِبَةِ ، حَتَّى جَمَعُوا مِنْ ذَلِكَ جُزْءًا سَمَوْهُ « السَّالِكُ وَالْمَحَلِّي فِي أَخْبَارِ ابْنِ أَبِي حَلْتَى » ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ هَرَّةٌ فَدَخَلَ الْبَيْتَ يَوْمًا فَوَجَدَهَا قَدْ بَلَتْ إِحْدَى يَدَيْهَا وَجَعَلَتْهَا فِي الدَّقِيقِ حَتَّى عَلِقَ بِهَا وَنَصَبَتْهَا

١ م : الكنافي .

٢ م ب : الدولة .

بإزاء كُوءة فأر ورفعت اليد الأخرى لصيده ، فنادها باسمها ، فردّت رأسها ، وجعلت لإصبعها على فمها ، على هيئة المشير بالصمت ، وأشبه ذلك ، وتوفّي المذكور سنة ٤٠٦ ، قاله في الإحاطة .

٣٩٩ - ومن أجوبة ملوك الأندلس : أن نزاراً العبيدي صاحب مصر كتب إلى المرواني صاحب الأندلس كتاباً يسبه فيه ويهجوّه ، فكتب إليه المرواني : أمّا بعد فإنّك عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك ، والسلام ، فاشتد ذلك على نزار وأفحمه عن الجواب ، وحكي أنّه كتب إلى العبيدي ملك مصر مفتخراً^١ :

السنا بني مروانَ كيف تبدلتُ بنا الحالُ أو دارتُ علينا الدوائرُ
إذا وُلد المولودُ منّا تهلّتُ له الأرضُ واهترتُ إليه المنابرُ

[حريز بن عكاشة]

٤٠٠ - ومن غريب ما يحكى من قوة أهل الأندلس وشجاعتهم : أن الأمير حريز بن عكاشة^٢ من ذرية عكاشة بن محصن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم لما نزل بساحة أذفونش ملك ملوك الروم ، فبدأهم بخراب ضياعها وقطع الشجر ، فكتب إليه حريز : ليس من أخلاق القدير ، الفساد والتدمير ، فإن قدرت على البلاد أفسدت ملكك ، ولو كان الملك في عشرة أمثال عددي لم ينزل لي بساحة ، ولا تمكن منها براحة ، فلمّا وصلته الرسالة عَفّ ، وأمر بالكفّ ، وبعث الملك يرغبه في الاجتماع به ، فاسترهنه في نفسه عدّة من ملوك

١ مر البيتان ص : ١٨٨ .

٢ قد مر شيء عنه ص : ٣٥٨ وانظر الحلة ٢ : ١٧٦ - ١٧٩ .

٣ الحلة : ١٧٩ والمطمح : ٣٠ .

الروم ، فأجاب إلى ما ارتهن ، ولما صاروا بالمدينة البيضاء - وهي قلعة رباح غربي طُلَيْطَلَة - خرج حريز لابساً لَأَمَةً حربه ، يرمق الروم منه شخصاً أوتي بسطة في الجسم والبسالة يتعجبون من آلات حربه ، ويتحدثون بشجاعة قلبه . ولما وصل فسطاط الملك تلقتَه المملوك بالرحب والسعة ، ولما أراد التزول عن فرسه ركز رمحهُ ، فأبصر الملك منه هيئة تشهد له بما عنه حَدَّثَ ، وهيبة يجزع للقائِها الشجَاع ويكثرُث ، فدعاه إلى البراز عظيم أبطالهم ، فقال له الملك : يا حريز أريد أن أنظر إلى مبارزتك هذا البطل ، فقال له حريز : المبارز لا يبارز إلا أكفاه ، وإن لي بيئنة على صدق قولي أن ليس لي فيهم كُفءٌ ، هذا رمحي قد ركزته ، فمن ركب واقتلعه بارزته ، كان واحداً أو عشرة ، فركب عظيمهم فلم يهز الرمح من مكانه حين رامه ، ثم فعل ذلك مراراً ، فقال له الملك : أرني يا حريز كيف تقلعه ، فركب وأشار بيده واقتلعه ، فعجب القوم ، ووصله الملك وأكرمه ، انتهى .

وكان حريز هذا شاعراً ، ولما اجتاز به كاتب ابن ذي النون الوزير أبو المطرّف ابن المنثي كتب إليه ١ :

يا فريداً دونَ ثانٍ وهلالاً في العيانِ
عُدِمَ الراحُ فَصارتْ مثلَ دُهْنِ البلسانِ

فجأوبه حريز ، وهو يومئذٍ أمير قلعته :

يا فريداً لا يُجارَى بينَ أبناءِ الزّمانِ
جاء من شعركَ روضٌ جاده صَوْبُ البَيانِ
فبعثناها سُلَفاً كسجايك الحسانِ

١ مرت هذه الحكاية ص : ٣٥٨ وانظر الحلة ٢ : ١٧٩ والمطبع : ٣٠ .

وكان لحريز كاتب يقال له عبد الحميد بن لاطون فيه تغفل شديد ، فأمره أن يكتب إلى المأمون بن ذي النون في شأن حصنٍ دخله النصارى ، فكتب : وقد بلغني أن الحصن الفلاني دخله النصارى إن شاء الله تعالى ، فهذه الواقعة التي ذكرها الله تعالى في القرآن ، بل هي الحادثة الشاهدة بأشراط الزمان ، فإننا لله على هذه المصيبة التي هدَّتْ قواعد المسلمين ، وأبقت في قلوبهم حسرة إلى يوم الدين . فلما وصل الكتاب للمأمون ضحك حتى وقع للأرض ، وكتب لابن عكاشة جوابه ، وفيه : وقد عهدناك منتقياً لأُمورك ، نقاداً لصغيرك وكبيرك ، فكيف جاز عليك أمر هذا الكاتب الأبله الجليْف ، وأسندت إليه الكتب عنك دون أن تَطَّلِع عليه ، وقد علمت أن عنوان الرجل كتابه ، ورائد عقله خطابه ، وما أدري من أيِّ شيء يتعجَّب منه ، هل من تعليقه إن شاء الله تعالى بالماضي ؟ أم من حسن تفسيره للقرآن ووضعه مواضعه ؟ أم من تورُّعه عن تأويله إلا بتوقيف من سماع عن إمام ؟ أم من تهويله لما طرأ على مَنْ يخاطبه ؟ أم من علمه بشأن هذا الحصن الذي لو أنه القسطنطينية العظمى ما زاد عن عظمه وهولهِ شيئاً ؟ ولو أن حقيراً يخفى عن علم الله تعالى لخفي عنه هذا الحصن ، ناهيك من صخرة حيث لا ماء ولا مرعى ، منقطع عن بلاد الإسلام ، خارج عن سلك النظام ، لا يعبره إلا لص فاجر ، أو قاطع طريق غير متظاهر ، حُرَّاسُهُ لا يتجاوزون الخمسين ، ولا يرون خبز البر عندهم إلا في بعض السنين ، باعه أحدهم بعشرين ديناراً ، ولعمري إنَّه لم يغبن في بيعه ولا ربح أرباب ابتياعه ، وأراح من الشين بنسبته والنظر في خداعه ، فليت شعري ما الذي عظمه في عين هذا الجاهل ، حتى خطب في أمره بما لم يخطب به في حرب واثل .

فلما وقف حريز على الكتاب كتب لابن ذي النون جواباً منه : وإن المذكور ممَّن له حرمة قديمة ، تغنيه عن أن يمتَّ بسواها ، وخدمة محمود أولها وأخرها ، ولسنا ممَّن اتسعت مملكته ، وعظمت حضرته ، فنحتاج إلى انتقاء الكُتَّاب ، والتحفظ في الخطاب ، وإنما نحن أحلاسُ نغور ، وكتَّابُ كتائب

لا سطور ، وإن كان الكاتب المذكور لا يحسن فيما يليقه على القلم ، فإنه يحسن كيف يصنع في مواطن الكرم ، وله الوفاء الذي تحدث به فلان وفلان ، بل سارت بشأنه في أقصى البلاد الرُّكبان ، وليس ذلك يَقْدَحُ عندنا فيه ، بل زاده لكونه دالاً على صحة الباطن والسذاجة في الإكرام والتنويه ، انتهى .

ولهذا الكاتب شعر يسقط فيه سقوط الأغبياء ، وقد يتنبه فيه تنبه الأذكياء ، فمنه قوله من قصيدة يمدح حريزاً المذكور مطلعها :

يذكرني بهمُ العنبرُ وظلُّمُ ثناباهمُ سكرُ
إلى أن قال :

ولولا معاليك يا ذا الندى لما كان في الأرض من يشعرُ
فلا تنكرن زحاماً على ذراك وفي كفك الكوثرُ

ومشى في موكبه وهم في سقر ، وكان في فصل المطر والطين ، فجعل فرسه في ذنب فرس ابن عكاشة ، فلما أثارت يدا فرسه طيناً جاء في عنق أميره ، ففطن لذلك الأمير ، فقال له : يا أبا محمد ، تقدّم ، فقال : معاذ الله أن أسيء الأدب بالتقدم على أميرى ، فقال : فإن كان كذلك فتأخر مع الخيل ، فقال : مثلي لا يُزال عن ركابك في مثل هذه المواضع ، فقال له : فقد والله أهلكني بما ترمي يدا فرسك عليّ من الطين ، فقال : أعزّ الله الأمير ، يعذرني ، فوالله ما علمت أن يد فرسي تصل إلى عنقك ، فضحك ابن عكاشة حتى كاد يسقط عن مركوبه .

٤٠١ - وكان بسرّ قُسْطَ غلام اسمه يحيى بن يطفث من بني يفرن ، قد نشأ عند ملكها المقتدر بن هود ، وتخلّق بالركوب والأدب ، وكان في غاية الجمال والحلاوة والظرف فعلق بقلب ابن هود ، وكم حبه زماناً فلم ينكّم ، فكتب له :

يا ظبّي بالله قل لي متى تُرى في حياي

بمرُّ عمري وحالي في خيبي منك خالي

فكتب له الغلام في ظهر الرقعة :

إن كنتُ ظلياً فأنتَ الـ هزبرُ تبغي اغتيالِي
وليسَ يخطرُ يوماً حلولُ غيلِ بيالي

ثم كتب بعدهما : هذا ما اقتضاه حكم الجواب في النظم ، وأنا بعدُ قد جعلت رَسَتي بيدِ سيدي ، فعسى أن يقودني إلى ما أحب ، لا ما أكره ، والذي أحبه أن يكون بيننا من المحبة ما يقضي بدوام الإخلاص ، ونأمن في مَغبته من العار والقصاص ، فتركه مدّة ، ثم كتب له يوماً على الصورة التي ذكرها :

ماذا ترى في يومِ أَمْنٍ طَرَزْتَ حُلَّ السحابِ به البروقُ المذهبةُ
وأنا وكاسي لا جليسٌ غيرهُ ملآن لا يخلو إلى أن تشربهُ
والأنسُ إن يَسَرَّتْهُ متيسرٌ ومتى تُصعبه فَيَا ما أصعبهُ

فأجابه :

يا مالكا بدَّ الملوكَ بعلمه وخلاله وعلوه في المرتبةُ
وافي نَدَاك فحيرتُ عند جوابه إذ ما تضمّن ريبةً مستغربةُ
إنّا إذا نخلو ، نقولُ حاسدٌ وغدا بهذا الأمرُ ينصرُ مذهبهُ
هَبْنِي إلى يومٍ تطيشُ به النُّهى والبيضُ تُنفضي والقنا متأشبهُ
وهناك فانظري بعينِ بصيرةٍ فالشبلُ يعرفُ أصله من جربةُ

ثم أعلاه إلى درجة الوزارة والقيادة ، إلى أن قُتل في جيش كان قدّمه عليه ، فقال فيه من قصيدة :

يا صارماً أغمَدَتْهُ عن ناظري الصَّوَّارمُ

وزهرة غيبتَها من الطيورِ كئاسُ
 يا كوكباً خراً من أنْ جمبي وأنفي راغمُ
 بكّتْ عليّ وشَقّتْ جيوبَهنّ الغمامُ
 قل للحمائمِ إنّي أصبحتُ أحكي الحمامُ
 وأنشُرُ الدمعَ مَهْما رأيتُ للزهرِ باسمُ
 تاللهِ لا لَدَّ عيشُ لمتَرَفٍ لكَ عادمُ

٤٠٢ - ولما رحل الوزير عبد البر بن فرسان من وادي آش إلى علي الميورقي صاحب فتنة إفريقية أقبل عليه ، ثم ولي أخوه يحيى الإمارة بعده ، فأُسند جميع أموره إليه . فقال مخاطبه :

أَجُبْنَا وَرَمَحِي ناصِرِي وحُسامي وعجزاً وعزمي قَائِدِي وإمامي
 ولي منك بَطَاشَ اليدين غَضَنَفَر يُحَارِبُ عن أشبالِهِ ويُحامي
 ألا غَنِيَانِي بالصَّهِيلِ فَإِنَّهُ سماعي ورَقْرَاقُ الدماءِ مُدامي
 وحُطّا على الرَّمضاءِ رَحْلِي فَإِنَّهَا مِهَادِي وخَفَاقُ البُنودِ خِيامي

٤٠٣ - وكان الأمير أبو عبد الله ابن مَرْدَنِيش^١ ملك شرق الأندلس من أبطال عصره ، وكان يدفع في المواقب ، ويشقّها يميناً وشمالاً منشداً :

أَكْرُ على الكَتِيبةِ لا أبالي أَحْتَنِي كان فيها أم سواها

حتى إنّه دفع مرّة في موكب النصارى ، فصَرَخَ منهم وقاتل ، وظهر منه ما أعجبت به نفسه ، فقال لشخص من خواصه عالم بأمور الحرب : كيف رأيت ؟ فقال : لو رآك السلطان لزاد فيما لك في بيت المال ، وأعلى مرتبتك ، أمن يكون رأس جيش يُقدِّم هذا الإقدام ، ويتعرّض بهلاك نفسه إلى هلاك مَنْ ؟

١ مرّت هذه الحكاية ص : ٢١٠ .

معه ؟ فقال له : دعني فإني لا أموت مرتين ، وإذا متُّ أنا فلا عاش مَنْ بعدي .

٤٠٤ - ومن حكاياتهم في الظرف ^١ : أن القاضي أبا عبد الله محمد بن عيسى من بني يحيى بن يحيى خرج إلى حضور جنازة ، وكان لرجل من إخوانه منزل بقرب مقبرة قریش ، فعزم عليه في الميّل إليه ، فترل وأحضر له طعاماً ، وغنّت جارية :

طابَتْ بطيب لثاتِكَ الأفداحُ وزهتْ بحمرة وجهك التفاحُ
وإذا الربيعُ تنسَمَتْ أرواحُهُ نمتْ بعرفِ نسيمِكَ الأرواحُ
وإذا الخنادسُ ألبستْ ظُلُماءَها فضياءَ وجهك في الدجى مصباحُ

فكتبها القاضي طرباً على ظهر يده ^٢ ؛ قال الراوي : فلقد رأيتَه يكبّرُ على الجنازة والأبيات على ظهر يده .

٤٠٥ - ومن حكاياتهم في البلاغة ما ذكره في « المطمح » أن أبا الوليد ابن عيال ^٣ لما انصرف من الحج اجتمع مع أبي الطيب في مسجد عمرو بن العاص بمصر ، ففاوضه قليلاً ، ثم قال له : أنشدني للمليح الأندلس ، يعني ابن عبد ربّه ، فأنشده :

يا لؤلؤاً يسْجِي العُقُولَ أنيقاً ورشاً بتعذيبِ القلوبِ رفيقاً
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثلهِ دُرّاً يَعودُ من الحياءِ عقيقاً
وإذا نظرتَ إلى محاسنِ وجههِ أبصرتَ وجهك في سناهُ غريقاً
يا من تقطَعَ خَصْرُهُ من رِقَّةٍ ما بالُ قلبك لا يكونُ رقيقاً

١ انظر الجذوة : ٧٠ .

٢ الجذوة : على باطن كفه .

٣ المطمح : ٥٢ وفيه أبا الوليد ابن عباد ؛ وفي م : ابن عتال .

فلما كمل إنشادها استعاده ، ثم صفقَ بيديه وقال : يا ابن عبد ربه ،
لقد تأتيتك العراق حبواً ، انتهى .

٤٠٦ - وقال مؤلف كتاب « واجب الأدب »^١ : مما يجب حفظه من
مخترعات الأندلسيين قول ابن عبد ربه^٢ :

يا ذا الذي خَطَّ العِذارُ بخدّه خطَّين هاجا لوعةً وبلا بلا
ما كنتُ أقطعُ أنْ لحظَّكَ صارمٌ حتى حملت من العِذار حَمائلا

٤٠٧ - وحكي أن الوزير أبا الوليد ابن زَيْلُون^٣ توفيت ابنته ، وبعد
الفراغ من دفنها وقف للناس عند مُنْصَرَفِهِمْ من الجنائزة ليتشكر لهم ، فقيل :
إنّه ما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لأحد ، قال الصَّفْدِي : وهذا من التوسّع
في العبارة ، والقدرة على التفنن في أساليب الكلام ، وهو أمر صعب إلى الغاية ،
وأرى أنّه أشقُّ ممّا يحكى عن واصل بن عطاء أنّه ما سُمعت منه كلمة فيها
راء ، لأنّه كان يلثغ بحرف الراء لثغة قبيحة ، والسبب في تهوين هذا الأمر وعدم
تهويله أن واصل بن عطاء كان يعدل إلى ما يُرادف تلك الكلمة ممّا ليس فيه
راء ، وهذا كثير في كلام العرب ، فإذا أراد العدول عن لفظ فرس قال جواد
أو ساعٍ أو صافين ، أو العدول عن رمح قال قناة أو صَعْدَة أو يَزَنِي أو غير ذلك ،
أو العدول عن لفظ صارم قال حسام أو لهزم أو غير ذلك ، وأمّا ابنُ زيدون
فأقول في حقّه إنّهُ أقلّ ما كان في تلك الجنائزة ، وهو وزير ، ألف رئيس
ممن يتعين عليه أن يتشكر له ، ويضطر إلى ذلك ، فيحتاج في هذا المقام إلى ألف
عبارة مضمونها الشكر ، وهذا كثير إلى الغاية ، لا سيّما من محزون ، فقد

١ هو والد الأديب الجغرافي علي بن موسى بن سعيد .

٢ البيتان في المطبع : ٥٢ .

٣ انظر الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٠ وشرح العيون : ٤ .

قطعة من كبده :

ولكنه صَوَّبُ العقول إذا انبرت سحائبُ منه أعْقِبَتْ بسحائب

وقد استعمل الحريري هذا في مقاماته عندما يذكر طلوع الفجر ، وهو من القدرة على الكلام ، وأرى الخطيب ابن نُبَّانة ممَّن لا يُلْحَق في هذا الباب ، فإنه أُملي مجلدة معناها من أولها إلى آخرها : يا أيُّها الناس اتقوا الله واحذروه فإنَّكم إليه راجعون ، وهذا أمر بارع معجز ، والناس يذهلون عن هذه النكتة فيه ، انتهى كلام الصَّفَّدي ملخصاً .

وقال في الوافي ، بعد ذكره جملةً من أحوال ابن زيدون ، ما نصّه : وقال بعض الأدباء : مَنْ لبس البياض ، وتختَّم بالعقيق ، وقرأ لأبي عمرو ، وتفقه للشافعي ، وروى شعر ابن زيدون ، فقد استكمل الظرف . وكان يسمى بِحُثْرِيَّ المغرب لحسن ديباجة نظمه ، وسهولة معانيه ، انتهى .

رجع إلى كلام أهل الأندلس :

٤٠٨ - وكان الأديب المحدث أبو الربيع سليمان بن علي الشلبي الشهير بكثير^١ يهوى مَنْ يتجنَّى عليه ويقول : إنه أبرد من الثلج ، فخاطبه كثير بقوله :

يا حبيباً له كُلامٌ خَلُوبٌ قُلِّبَتْ في لَظي هواه القلوبُ
كيف تعزو إلى محبِّكَ بَرْدًا ومن الحبِّ في حشاه لَهيبُ
أنت شمسٌ وقلتْ لِي ثَلَجٌ فلهذا إذا طلعتْ أذوبُ

١ هناك من يترجم له ابن سمي (في المغرب ١ : ٣٩٨ والقدح : ١٨٩) باسم كثير العلياوي نسبة إلى العليا وهي من قرى شلب ، وهو يقول فيه : أديب مشهور في عصرنا ، كان بإشبيلية ورحل إلى بجاية فأكثر كلامه فيما لا يعنيه فضرب وجرس ونفي في البحر ؛ ويقول إنه كان يتجنب مجالسته بإشبيلية لأنها تجلب مشاركته لعدة فيه ، ولا أقطع بأنه علي بن سليمان الشلبي هذا .

٤٠٩ - وقال ابن مهران ممّا يشتمل على أربعة أمثال^١ :

المال زينٌ ، والحياةُ شهيةٌ ، والحدودُ يَفْقَرُ ، والشجاعةُ تَقْتُلُ
والبخلُ عيبٌ ، والجبانُ مذمّمٌ ، والقصدُ أحكمٌ ، والتوسطُ أجملُ

٤١٠ - وقال ابن السّيد البَطَلَيْوْسِي متغزلاً^٢ :

نَفْسِي الفداءَ لِحُؤْذِرٍ حُلُو اللَّمَى مُسْتَحْسَنٍ بِصُلُودِهِ أَضْنَانِي
فِي فِيهِ سِمَطا جَوْهَرٍ يَرْوِي الظَّمَا لَوْ عَلَيَّ بِسَرُودِهِ أَحْيَانِي
ويخرج من هذه القطعة عدة قطع .

٤١١ - وقال ابن صارة مضمناً^٣ :

إلى كم ينفرُ الدينارُ مِنِّي ويطلبُ كَفَّ مَنْ عَنْهُ يَحِيدُ
ألمْ أنشده في وادي هيامي به لو كان يعطفه النشيدُ
حبيبي أنتَ تعلمُ ما أريدُ ولكنْ لا ترقُ ولا تجودُ
وكم غَنَيْتُ حينَ تَنَكَّبْتَنِي مِنِّي شيطانُها أبداً مريدُ
« يُريدُ المرءُ أن يؤتَى مِنْهُ » ويأبى الله إلا ما يريدُ

٤١٢ - وقال ذو الرّياستين أبو مروان عبد الملك بن رَزِين^٤ :

بالله إن لم تزد جِرْ يا مشبهَ البدرِ المنيرِ

١ لعله سليمان بن مهران السرقسطي (الجدوة : ٢٠٩ وبغية الملتبس رقم : ٧٧٣ والذخيرة ٣ : ١٥٧)

والمغرب ٢ : ٤٤٢ والمسالك ١١ : ٤٤٧) .

٢ مر البيتان ، انظر ص : ٢٨٧ .

٣ الأبيات في الذخيرة (٢ : ٣٢٧) .

٤ في الأصول : ينفد ، والتصويب عن الذخيرة .

٥ مر بيتان من هذه الثلاثة ص : ٢٩١ .

لَأَسْرَحَنَّ نَوَاطِرِي فِي ذَلِكَ الْوَرْدِ النَّصِيرِ
وَلَا كَلَنْتُكَ بِالْمَنَى وَلَا شَرَبْتُكَ بِالضْمِيرِ

٤١٣ - وقال ابن جعد ربه ^١ :

اشْرَبْ عَلَى الْمَنْظَرِ الْأَنْيَقِ وَامزَجْ بِرَيْقِ الْحَبِيبِ رَيْقِي
وَاحْلُلْ وَشَاحَ الْكَعَابِ رَفْقاً خَوْفاً عَلَى خَصْرُهَا الرِّقِيقِ
وَقُلْ لِمَنْ لَمْ يَلَمْ فِي التَّصَابِي خُلَّ قَلِيلاً عَنِ الطَّرِيقِ

وسَيأتي إن شاء الله تعالى قريباً من بلاغة أهل الأندلس في الجدل والهزل ما فيه مَقْنَعٌ لمن اقتصر عليه .

٤١٤ - ومن حكاياتهم في عدم احتمال الضيم والذل والوصف بالأنفة :
أنَّهُ لَمَّا ثَارَ أَيُّوبُ بْنُ مَطْرُوحٍ فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ فِي الْفِتْنَةِ عَلَى مَلِكِ غَرْنَاطَةِ عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ بَلْقِينِ بْنِ حَبَّوسٍ وَخَاضَ بِحَارَ الْفِتْنَةِ حَتَّى رَمَاهُ مَوْجُهَا فَيَمِنَ رَمَى عَلَى
السَّاحِلِ ، وَحَصَلَ فِيمَا بَثَ عَلَيْهِمْ يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينِ مِنَ الْحِبَائِلِ ، وَكَانَتْ لَهُ
هَمَّةٌ وَأَنْفَعَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَخُلِعَ عَنْ إِمَارَتِهِ ، وَحَصَلَ فِي حِبَالَتِهِ ، أَدْخَلَ رَأْسَهُ
تَحْتَهُ ، فَانْتَظَرَ مَنْ حَضَرَ مَعَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ أَوْ يُخْرِجَ رَأْسَهُ ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى
وَقَعَ مَيِّتاً ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

٤١٥ - وَلَمَّا ثَارَ الْمَيُورُقي بِإِفْرِيقِيَّةٍ عَلَى بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمَنِ الثَّوْرَةَ الْمَشْهُورَةَ ،
وَخَدَمَهُ جَمَلَةٌ مِنْ أَعْيَانِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ ، وَكَانَ مِنْ جَمَلَتِهِمْ مَالِكُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ
سَعِيدِ الْعَنْسِيِّ ^٢ ، كَتَبَ عَنْهُ مِنْ رِسَالَةٍ : وَبَعْدَ ، فَإِنَّا لَا نَحْتَاجُ لَكَ إِلَى بَرَهَانٍ عَلَى
أَمِيرِ لِسَانِهِ الْحَسَامِ ، وَأَيْدِهِ التَّأْيِيدِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي لَا يُسْرَامُ ، قَدْ نَصَبَ خِيَامَهُ

١ المقد ٦ : ٢٨٥ ، ٤٢٧ .

٢ انظر ترجمة مالك في المغرب ٢ : ١٧١ .

بالبراح ، ولم يتخذ سوراً غير سُمُر القنا وبيض الصفاح ، له من العزم رداء^١
ومن الرأي كمين^٢ :

إذا صدقَ الحسامُ ومُنْتَضِيهِ فكلُّ قَرَارَةٍ حصنٌ حصينٌ

وهو من القوم الذين لا يجورون على جار ، ولا يرحلون بخزينة ولا يتركون
من عار ، دينهم دين التقوى ، وإن كنت من ذلك في شك فاقدم علينا حتى
يصح لك اختبار الذهب بالسَّبْك ، وأنت بالخيار في الظعن والإقامة ، فإن حلت
نزلت خيرَ منزل ، وإن رحلت ودَّعْتَ أَفْضَلَ وَدَاعٍ ، وسرت في كنف
السلامة ، إذ قد شُهرنا بأننا لا نقيّد إلا بالإحسان ، وأن ندع لاختياره كل إنسان .

٤١٦ - ومن حكايات أهل الأندلس في الجود والفضل ومكارم الأخلاق^٣ :

أن أبا العرب الصقلي حضر مجلس المعتمد بن عباد ، فأدخلت عليه جملة من
دنانير السكّة ، فأمر له بخريطين منها ، وبين يديه تصاوير عنبر من جملتها
صورة جمل مُرَصَّع بنفيس الدر ، فقال أبو العرب : ما يحمل هذه الدنانير إلا
جمل ، فتبسم المعتمد وأمر له به ، فقال :

أعطيني جَمَلاً جَوَّناً شَفَعَتْ بِهِ حَمَلاً من الفضة البيضاء لو حملاً
نتاجُ جُودِكَ في أعطانِ مكرمة لا قِيدَ تَعْرِف من مَنعٍ ولا عَقْلاً
فاعجَبَ لَشَأْنِي فَشَأْنِي كُلَّهُ عَجَبٌ رَفَهْتَنِي فَحَمَلْتُ الحَمْلَ والجَمَلاً

ومن نظم أبي العرب المذكور :

إلامَ اتَّباعِي للأُماني الكواذبِ وهذا طريق المجدِ بادي المذاهبِ ؟

١ في الأصول : رداء .

٢ البيت للأعشى التطيلي ، ديوانه : ٢٠٢ (البيت رقم : ٢١) .

٣ بدائع البدائيه ٢ : ١٣٦ .

٤ البدائع : أجديني .

أَهْمٌ وَلِي عِزْمَان : عِزْمٌ مُشْرِقٌ وَآخِرُ يَثْنِي هِمَّتِي لِلْمَغَارِبِ
وَلَا بَدَّ لِي أَنْ أَسْأَلَ الْعَيْسَ حَاجَةً تَشَقُّ عَلَى أَحْفَافِهَا وَالْغَوَارِبِ
إِذَا كَانَ أَصْلِي مِنْ تُرَابٍ فَكَلَّهَا بِلَادِي وَكُلُّ الْعَالَمِينَ أَقَارِبِي

٤١٧ - وذكر الحافظ الحجاري في « المسهب » أنه سأل عمه أبا محمد عبد الله بن إبراهيم^١ عن أفضل من لقي من أجواد تلك الحَلَبَةِ ، فقال : يا ابن أخي ، لم يُقَدَّرْ أن يقضى لي الاستمطار بهم ، في شباب أمرهم ، وعنفوان رغبتهم في المكارم ، ولكن اجتمعت بهم وأمرهم قد هرم ، وساءت بتغير الأحوال ظنونهم ، ومَلَكُوا الشكر ، وضجروا من المروءة ، وشغلتهم المحن والفتن ، فلم يبقَ فيهم فضل للإفضال وكانوا كما قال أبو الطيب :

أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ فِي شَبَابِهِ فَسَرَّهْمُ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرَمِ

فإن يكن أتاها على الهرم فإنما أتيناها وهو في سياق الموت ، ثم قال : ومع هذا فإن الوزير أبا بكر ابن عبد العزيز ، رحمه الله تعالى ، كان يحمل نفسه ما لا يحمله الزمان ، ويبسم في موضع القطوب ، ويظهر الرضى في حال الغضب ، ويجهد ألا ينصرف عنه أحدٌ غير راضٍ ، فإن لم يستطع الفعل عوّض عنه القول . قلت له : فالمعتمد بن عباد كيف رأيته ؟ فقال : قصدته وهو مع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في غزواته للنصارى المشهورة ، فرفعت له قصيدة منها :

لَا رَوْعَ اللَّهِ سِرْبًا فِي رَحَابِهِمْ وَإِنْ رَمَوْنِي بِتَرْوِيعٍ وَلِإِعَادِ
وَلَا سِقَاهُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَطَشٍ إِلَّا بِيَعْضِ نَدَى كَفِّ ابْنِ عَبَادِ
ذِي الْمَكْرَمَاتِ الَّتِي مَا زِلْتُ تَسْمَعُهَا أَنْسَ الْمَقِيمِ فِي الْأَسْفَارِ كَالزَّادِ
بَالَيْتَ شَعْرِي مَاذَا يَرْضِيهِ لِمَنْ نَادَاهُ يَا مَوْئِلِي فِي جَحْفَلِ النَّادِي

١ ترجمة أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الحجاري في المغرب ٢ : ٣٤ .

فلَمَّا انتهيت إلى هذا البيت قال : أمّا ما أرتضيه لك فلست أقدر في هذا الوقت عليه ، ولكن خذ ما ارتضى لك الزمان ، وأمر خادماً له فأعطاني ما أعيش في فائدته إلى الآن ، فإِنِّي انصرفت به إلى المرية ، وكان يعجني سكنها والتجارة بها ، لكونها ميناء لمراكب التجار من مسلم وكافر ، فَتَجَرْتُ فيها فكان إبقاء ماء وجهي على يديه ، رحمة الله تعالى عليه . ثمّ أخذ البطاقة وجعل يجيل النظر والفكر في القصيدة ، وأنا مترقب لنقده ، لكونه في هذا الشأن من أئمنه ، وكثيراً ما كان الشعراء يتحامونه لذلك إلاّ مَنْ عرف من نفسه التبريز ، ووثق بها ، إلى أن انتهى إلى قولي :

ولا سقاهُمْ على ما كان من عطش إلاّ ببعْضِ نَدَى كف ابن عبّاد
فقال : لأي شيء بخلت عليهم أن يُسْقَوْا بكفّه ؟ فقلت : إذن كان يلحقني من النقد ما لحق ذا الرمة في قوله :

ولا زال مُنْهَلًا بجرعائك القطر^١

وكان طوفان نوح أهون عليهم من ذلك ، فتألّقت غرته ، وبدت مسرّته ، وقال : إنّنا لله على أن لم يُعِنّا الزمان على مكافأة مثلك . قال : وكنت ممّن زاره بسجنه بأغْمام ، وحملتني شدة الحميّة له والامتعاظ لما حل به أن كتبت على حائط سجنه متمثلاً :

فإنّ تَسْجُنُوا القَسْرِيَّ لا تَسْجُنُوا اسمه ولا تَسْجُنُوا مَعْرُوفَهُ في القبائل

ثمّ تفقدت الكتابة بعد أيام ، فوجدت تحت البيت : لذلك سجنّاه^٢ :

١ ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى

١ صدر البيت :

٢ البيت التالي للمتنبي .

وَمَنْ يَجْعَلِ الضَّرْغَامَ فِي الصَّيْدِ بَازَهُ تَصَيِّدُهُ الضَّرْغَامُ فِيمَا تَصَيَّدَا

فَمَا أَدْرَى مَنْ جَاوَبَ بِذَلِكَ ، ثُمَّ عَدَّتْ لَهُ وَوَجَدَتْهُ قَدْ مُحِي ، وَأَعْلَمْتُ
بِذَلِكَ ابْنَ عَبَّادٍ ، فَقَالَ : صَدَقَ الْمَجَاوِبُ ، وَأَنَا الْجَانِي عَلَى نَفْسِهِ ، وَالْحَافِرُ
بِيَدِهِ لِرَمْسِهِ ، وَلَمَّا أَرَدْتُ وَدَاعَهُ أَمَرَ لِي بِإِحْسَانٍ عَلَى قَدْرِ مَا اسْتَطَاعَ ، فَارْتَجَلْتُ :

أَلَيْتُ لَا أَقْبِلُ إِحْسَانَكُمْ وَالْدَّهْرُ فِيمَا قَدْ عَرَاكُمْ مُسِي
فَقِي الَّذِي أَسْلَفْتُمْ غُنِيَّةً وَإِنْ يَكُنْ عِنْدَكُمْ قَدْ نُسِي

قال : وفيه أقول من قصيدة :

يَا طَالِبَ الْإِنْصَافِ مِنْ دَهْرِهِ طَلَبْتُ أَمْرًا غَيْرَ مَعْتَادِ
فَلَوْ يَكُونُ الْعَدْلُ فِي طَبْعِهِ لَمَا عَدَا مَلِكُ ابْنِ عَبَّادِ

وَاللَّحِجَارِيُّ الْمَذْكُورُ كَتَابَ فِي الْبَدِيعِ سَمَاءَهُ « الْحَدِيقَةُ » وَأَنَشَدَ لِنَفْسِهِ فِيهِ ^١ :

وَشَادَنٍ يُنْصِفُ مِنْ نَفْسِهِ أَمْتَنِي مِنْ سَطْوَةِ الدَّهْرِ
يَنَامُ لِلشَّرْبِ عَلَى جَنْبِهِ وَيَصْرِفُ الذَّنْبَ إِلَى الْخَمْرِ

وله في فرس :

وَمُسْتَبَقٍ يَحَارُ الطَّرْفُ فِيهِ وَيَسْلَمُ فِي الْكِفَاحِ مِنَ الْجُمَاحِ
كَأَنَّ أَدِيمَهُ لَيْلٌ بِهِمٍ تَحَجَّلَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الصَّبَاحِ
إِذَا احْتَدَمَ التَّسَابِقُ صَارَ جِرْمًا تَقَلَّبَ بَيْنَ أَجْنَحَةِ الرِّيَاحِ

٤١٨ - وَكَتَبَ أَبُو الْعَلَاءِ إِدْرِيسُ بْنُ أَزْرَقٍ إِلَى ابْنِ رَشِيقٍ مَلِكِ مُرْسِيَّةَ ،

وَقَدْ طَالَتْ إِقَامَتُهُ عِنْدَ ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ^٢ :

١ البيتان في المغرب ٢ : ٣٤ .

٢ انظر ترجمته وشعره في الجذوة : ٨٨ وبغية الملتبس رقم : ٢٩٨ .

ألا ليت شعري هل أعودُ إلى الذي عهدتُ من النعمى لديكم بلا جهنْد
فوالله مُدُّ فارقتكم ما تخلَّصتُ من الدهر عندي ساعةٌ دون ما كدَّ
فمُنُّوا بإذنٍ كي أطيرَ إليكمُ فلا عارَ في شوقٍ إلى المالِ والمجدِ

ووقف بعضُ أعدائه على هذه الأبيات ، فوشى بها إلى ابن عبد العزيز قاصداً
ضرره ، وكان ذلك في مَحْفِلٍ ليكون أبلغ ، فقال : والله لقد ذكرتني أمره ،
ولقد أحسن الدلالة على حاله ، فإن الرجل كريم ، وعلينا موضع اللوم ، لا عليه ،
ووالله لأوسعنهُ مالاً ووُجداً بقدر وسعي ، ثم أخذ في الإحسان إليه حتى برَّ
يمينه ، رحمه الله تعالى :

هكذا هكذا تكونُ المعالي طُرُقُ الجدد غيرُ طُرُقِ المراح

٤١٩ - ولنذكر جملة من بني مروان بالأندلس ، فنقول :

١ - قال محمد بن هشام المرواني صاحب كتاب « أخبار الشعراء » ١ :

ورَوْضَةٌ من رياضِ الحَزَنِ حالفها طَلٌّ أَطَلَّتْ به في أَفْقها الحُللُ
كأنما الورد فيما بينها ملكٌ مُوفٍ ونوَّارها من حَوَلةِ خَوَلٍ

وكان في مدة الناصر ، وأدخل عليه يوماً ليذاكره ، فاستحسنه ، وأمره
بالتزام بنيه ليؤدبهم بحسن أدبه ، ويتخلَّقوا بخَلْقِهِ ، فاستعفى من ذلك ، وقال :
إن الفتيان لا يتعلمون إلاَّ بشدة الضبط والقيِّد والإغلاظ ، وأنا أكره أن أعامل
بذلك أولاد الخليفة فيكروهني ، وقد يحقد لي بعضهم ذلك إلى أن يقدر على النفع
والضرر .

قالوا : وكان يتعشَّق المستنصر بالله ولي عهد الناصر وهو غلام ، وله فيه :

١ ترجمته في الجذوة : ١٣٩ وبغية الملتبس رقم : ٤٥٧ .

مَتَّعْ بوجهك جفني يا كوكباً فوق غُصْنِ
يا من تحجبَ حتى عن كلِّ فكرٍ وأذنِ
وخامرَ الخوفُ فيه فما يحولُ بذهنِ
فليسَ للطرفِ والقَلَدِ بغيرِ دمعٍ وحُزنِ
فإنَّتي ذو ذُنُوبٍ وأنتَ جنةٌ عَدْنِ

2 - وقال أخوه أحمد بن هشام :

قطعتُ اللَّياليَ بارتجاءٍ وصالكم وما نلتُ منكم غيرَ مُتَّصِلِ الهَجْرِ
وما كنتُ أدري ما التصبرُ قبلكم فعلمتموني كيف أقوى على الصبرِ
وما كنتُ ممن يعلِّقُ الصبرُ فكرهُ ولكن خشيتُ الصبرَ يذهبُ بالعمرِ

ومن حكاياتهم في علوِّ الهمة : أنه كان سبب قراءته واجتهاده أنه حضر مجلساً فيه القائد أحمد بن أبي عبدة ، وهو غلام ، فاستخبره القائد ، فرآه بعيداً من الأدب والطرف ، ورأى له ذهنًا قابلاً للصالح ، فقال : أيُّ سيف لو كانت عليه حلية ! فقامت من هذه الكلمة قيامته ، وثابت له همة ملوكية عطفت بها على الأدب والتعلم ، إلى أن صار ابن أبي عبدة عنده كما كان هو عند ابن أبي عبدة أولاً ، فحضر بعد ذلك معه ، وجالا في مضمار الأدب ، فرأى ابن أبي عبدة جواداً لا يُشَقُّ غُبَّاره ، فقال : ما هذا ؟ أين هذا ممّا كان ؟ فقال : إن كلمتك عملت في فكري ما أوجب هذا ، فقال : والله إن هذه حلية تليق بهذا السيف ، فجزاك الله عن همتك خيراً .

ثم قال له : سر ، إن لي عليك حقاً إذ بعثتك على التأدب والتميز ، فإذا حضرنا في جماعة فلا تتناول على تقصيري ، وحافظْ على أن لا أسقط من العيون بإرباء غيري عليّ ، فقال : لك ذلك وزيادة .

3 - وكان المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط سيء الخلق في أوّل

أمره ، كثير الإصغاء إلى أقوال الوشاة ، مفرط القلق ممّا يقال في جانبه ، معاقباً على ذلك لمن يقدر على معاقبته ، مكثّر التشكي ممن لا يقدر عليه لوالده الأمير عبد الرحمن ، فطال ذلك على الأمير ، فقال لوكيل خاص به عارف بالقيام بما يكلفه به : الموضع الفلاني الذي بالجبل الفلاني المنقطع عن العمران تبني فيه الآن بناء أسكن فيه ابني المنذر ، وأوصاه بالاجتهاد فيه ، ففرغ منه ، وعاد إليه ، فقال له : تعلّم المنذر أنّي أمرته بالانفراد فيه ، ولا تترك أحداً من أصحابه ولا أصحاب غيره يزوره ، ولا يتكلّم معه البتة ، فإذا ضجر من ذلك وسألك عنه فقل له : هكذا أمر أبوك ، فتولّى الثقة ذلك على ما أمر به ، ولما حصل المنذر في ذلك المكان وبقي وحده ، وفقد حوّله ومن كان يستريح إليه^١ ، ونظر إلى ما سلبه من الملك ضجّر ، فقال للثقة : عسى أن يصلني غلماي وأصحابي أتانس^٢ بهم ، فقال له الثقة : إن الأمير أمر أن لا يصلك أحد ، وأن تبقى وحلك لتستريح ممّا يرفع لك أصحابك من الوشاية ، فعلم أن الأمير قصد محنته بذلك وتأديبه ، فاستدعى دواة وكتب إلى أبيه : إنّي قد توحشت في هذا الموضع توحشاً ما عليه من مزيد ، وعدمت فيه من كنت آنس إليه ، وأصبحت مسلوب العز فقيد الأمر والنهي ، فإن كان ذلك عقاباً للذنوب كبير ارتكبته وعلمه مولاي ولم أعلمه فلانّي صابر على تأديبه ، ضارع إليه في عفوّه وصفحه :

وإن أمير المؤمنين وفعلّه^٣ لكالدهر ، لا عار بما فعل الدهر

فلما وقف الأمير على رقعته ، وعلم أن الأدب بلغ به حقه ، استدعاه فقال له : وصلت رقعتك تشكو ما أصابك من توحش الانفراد في ذلك الموضع ، وترغب أن تانس بخوّلك وعبيدك وأصحابك ، وإن كان لك ذنب يترتب عليه

١ ب : يفزع إليه .

أن تطول سكناك في ذلك المكان ، وما فعلتُ ذلك عقاباً لك ، وإنّما رأيتُك
تكثر الضجر والتشكي من القال والقليل ، فأردنا راحتك بأن نحجبَ عنك سماع
كلام مَنْ يرفع لك وينمُّ ، حتى تستريح منهم ، فقال له : سماعُ ما كنت
أضجر منه أخفُّ عليّ من التوحّد والتوحش والتخلي ممّا أنا فيه من الرفاهية
والأمر والنهي ، فقال له : فإذا قد عرفت وتأدبتَ فارجع إلى ما اعتدته ،
وعوّل على أن تسمع كأنك لم تسمع ، وترى كأنك لم تر ، وقد قال النبي
صلى الله عليه وسلم « لو تكاشفتُم ما تدافنتُم » ، واعلم أنّك أقرب الناس إليّ
وأحبهم فيّ ، وبعد هذا فما يخلو صدرك في وقت من الأوقات عن إنكار عليّ ،
وسخط لما أفعله في جانبك أو جانب غيرك ، ما لو أطلعني الله تعالى عليه لساءني ،
لكن الحمد لله الذي حفظ ما بين القلوب بسِتْر بعضها عن بعض فيما يحول
فيها ، وإنّك لذو همّة ومطمّح ، ومن يكن هكذا يصبر ويغض ويحمل ،
ويبدل العقاب بالثواب ، ويصير الأعداء من قبيل الأصحاب ، ويصبر من
الشخص على ما يسوء ، فقد يرى منه بعد ذلك ما يسر ، ولقد يخف عليّ اليوم
مَنْ قاسيت من فعله وقوله ، ولو قطعتم عضواً عضواً لما ارتكبه مني ما شفيت
فيهم غيظي ، ولكن رأيت الإغضاء والاحتمال ، لا سيما عند الاقتدار ، أولى ،
ونظرت إلى جميع مَنْ حولي ممّن يحسن ويسيء فوجدت القلوب متقاربة
بعضها من بعض ، ونظرت إلى المسيء يعود محسناً ، والمحسن يعود مسيئاً ،
وصرتُ أندم على مَنْ سبق له مني عقاب ، ولا أندم على مَنْ سبق له مني
ثواب ، فالزم يا بنيّ معالي الأمور ، وإن جماعها في التغاضي ، ومَنْ لا يتغاضي
لا يسلم له صاحب ، ولا يقرب منه جانب ، ولا ينال ما ترقى إليه همّته ،
ولا يظفر بأمله ، ولا يجد معيناً حين يحتاج إليه ؛ فقبّل المُنذر يده وانصرف ،
ولم يزل يأخذ نفسه بما أوصاه والده حتى تخلّق بالخلق الجميل ، وبلغ ما أوصاه

به أبوه ، ورفع قدره .

ومن شعره في ابن عم له :

ومولّى أبى إلاّ أذايَ وإنّني لأحلمُ عنه وهو بالجهلِ يقصدُ
توددته فازداد بُعداً وبغضةً وهل نافعٌ عند الحسود التوددُ

وقوله :

خالف عدوك فيما أتاك فيه لينصح
فلنّما ينبغي أن تنام عنه فتريح

ومن كرم نفسه أن أحداً التجار أهدى له جارية بارعة الحسن ، واسمها طَرَب ، ولها صنعة في الغناء حسنة ، فعندما وقع بصره على حسننها ثم أذُنُه على غنائها أخذت بمجامع قلبه ، فقال لأحد خُدّامه : ما ترى أن ندفع لهذا التاجر عوضاً عن هذه الجارية التي وقعت منّا أحسن موقع ؟ فقال : تقدّر ما تساوي من الثمن وتدفع له بقدرها ، فقوّمت بخمسمائة دينار ، فقال المنذر للخديم : ما عندك فيما ندفع له ؟ فقال : الخمسمائة ، فقال : إن هذا للؤم ، رجل أهدى لنا جارية ، ف وقعت منّا موقع استحسان ، نقابله بثمانها ، ولو أنّه باعها من يَهُودي لوجد عنده هذا ، فقال له : إن هؤلاء التجار لؤماء بخلاء ، وأقلُّ القليل يقنعهم ، فقال : وإنّا كرماء سُمحاء ، فلا يقنعنا القليل لمن نجود عليه ، فادفع له ألف دينارٍ ، واشكره على كونه خَصّاً بها ، وأعلمه بأنّها وقعت منّا موقع رضى .

وفيها يقول :

ليسَ يُفِيدُ السرورُ والطربُ إن لم تقابل لواحظي طَرَبُ
أَبْهَتُ في الكأسِ لستُ أَشْرَبُها والفكرُ بين الضلوعِ يَلْتَهَبُ
يعجبُ مني معاشرٌ جهلوا ولو رأوا حسنَها لما عَجَبُوا

وقال له أبوه يوماً : إن فيك لتيهاً مُفْطَراً ، فقال له : حَقٌّ لفرعٍ أنت أصله أن يعلو ، فقال له : يا بني إن العيون تَمُجُّ التائه ، والقلوب تنحرف عنه ، فقال : يا أبي لي من العز والنسب وعلو المكان والسلطان ما يَحْمِلُ من ذلك ، وإنني لم أرَ العيون إلاّ مقبلة علي ، ولا الأسماع إلاّ مُصْغِيَة إلي ، وإن لهذا السلطان رَوْنَقاً يَرْتَقِي التبدل ، وعلوّاً يَخْفِضُه الانبساط ، ولا يصونه ويشرفه إلا التيه والانتقباض ، وإن هؤلاء الأندال لهم ميزان يَسْبُرُون به الرجل منّا ، فإن رأوه راجحاً عرفوا له قدر رَجَاحته ، وإن رأوه ناقصاً عاملوه بنقصه ، وصيروا تواضعه صغراً ، وتَخَضُّعُه خِيسَةً ، فقال له أبوه : لله أنت فابقَ وما رأيت .

4 - وكان له أخ أديب أيضاً اسمه المطرف بن عبد الرحمن الأوسط ،

ومن شعره :

أَفْنَيْتُ عَمْرِي في الشَّرِّ بِ الوجوهِ الملاحِ
ولم أَضَيِّعْ أَصِيلًا ولا اِطْلَاعَ صَبَاحِ
أُحْيِي اللَّيَالِي سُهْدًا في نَشْوَةِ وَمَرَاكِ
ولستُ أَسْمَعُ ماذا يَقُولُ دَاعِي الفلاحِ

والعياذ بالله من هذا الكلام ، وحاكي الكفر ليس بكافر .

وعتبه أحد إخوانه على هذا القول فقال : إنني قلته وأنا لا أعقل ، ولم أعلم أنه يُحْفَظُ عَنِّي ، وأنا أَسْتَغْفِرُ الله تعالى منه ، والذي يغفر الفعل أَكْرَمُ من

١ م ب : يريته .

٢ ب : وتخفضه .

أن يعاقب على القول .

ومن جيد شعره قوله :

يا أخي فَرَقَتْ صُرُوفُ اللَّيَالِي بَيْنَنَا غَيْرَ زَوْرَةٍ الْأَحْلَامِ
فغَدُونَا بَعْدَ ائْتِلَافٍ وَقَرَبٍ نَتَنَاجَى بِالسُّنَنِ الْأَقْلَامِ

5 - وقال أخوهما الثالث هشام بن عبد الرحمن فيمن اسمه ريحان :

أَحْبَبْتُ يَا رِيحَانُ مَا عَشْتُ دَائِمًا وَلَوْ لَامَتَنِي فِي حَبْكِ الْإِنْسُ وَالْجَانِ
وَلَوْلَاكَ لَمْ أَهْوِ الظَّلَامَ وَسُهْدَهُ وَلَا حُبَّبْتُ لِي فِي ذَرَا الدَّارِ غُرْبَانِ
وَمَا أَعَشَقْتُ الرِّيحَانَ إِلَّا لِأَنَّهُ شَرِيكُكَ فِي اسْمٍ فِيهِ قَلْبِي هَيْمَانِ
عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكْمَلِ الظَّرْفَ مَجْلَسٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَعَ الرَّاحِ رِيحَانِ
وله فيه :

إِذَا أَنَا مَازَحْتُ الْحَبِيبَ فَلِنَّمَا قَصَدْتُ شِفَاءَ الْهَمِّ فِي ذَلِكَ الْمَرْحِ
فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ أَرَاهُ مُضَاحِكًا كَمَا ضَحَكَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ عَنِ الصَّبْحِ

6 - وقال أخوهم الرابع يعقوب بن عيد الرحمن :

إِذَا أَنَا لَمْ أَجِدْ يَوْمًا وَقَوْمِي لَهُمْ فِي الْجُودِ آثَارَ عِظَامٍ
فَمَنْ يُرْجَى لِتَشْيِيدِ الْمُتَعَالِي إِذَا قَعَدْتَ عَنِ الْخَيْرِ الْكِرَامِ ؟

وملحه بعض الشعراء ، فأمر له بـمال جزيل ، فلمّا كان مثلُ ذلك الوقت جاءه بـمدح آخر ، فقال أحد خدام يعقوب : هذا اللّثيم له دين عندنا جاء يقتضيه ؟ فقال الأمير : يا هذا ، إن كان الله تعالى خلقك مجبولاً على كره ربّ الصنائع

١ ترجمة يعقوب في الحلة السيرة ١ : ١٢٤ وقال فيه : « كان أديباً شاعراً مطبوعاً كلفاً بالعلوم جواداً لا يليق شيئاً » .

فاجرٍ على ما جُبِلت عليه في نفسك ، ولا تكن كالأجرب يُعْدي غيره ، وإن هذا الرجل قصدنا قبلُ ، فكان منّا له ما أنيسَ به وحَمَلَه على العودة ، وقد ظنّ فينا خيراً ، فلا نخيب ظنّه ، والحديثُ أبداً يحفظ القديم ، وقد جاءنا على جهة التهنية بالعمر ، ونحن نسأل الله تعالى أن يطيل عمرنا حتى يكثر ترداده ، ويدمّر نعمنا حتى نجد ما نُنعم به عليه ، ويحفظ علينا مروءتنا حتى يعيننا على التّجمل معه ، ولا يبلينا بجليسٍ مثلك يقبض أيدينا عن إسداء الأيادي ، وأمر للشاعر بما كان أمر له به قبلُ ، وأوصاه بالعود عند حلول ذلك الأوان ما دام العمر .

7 - وقال أخوهم الخامس الأمير محمد ابن الأمير عبد الرحمن^١ لأخيهم السادس أبان وقد خلا معه على راحة : هل لك أمل نبغك إياه ؟ فقال : لم يبق لي أملٌ إلا أن يديمَ الله تعالى عمرك ويخلد ملكك ، فأعجب ذلك الأمير ، وقال : ما مالت إليك نفسي من باطل ، وكان كل واحد منهما يهيم بالآخر ، وفي ذلك يقول أبان :

يا مَنْ يَلُومُ ولا يَدْرِي بِمَنْ أنا مَهْ تونٌ لو أبصرتهُ ما كنتَ تَلَحّاني
من مازَجتُ روحه رُوحِي وشاطِرني يا حُسْنَه حينَ أهْواهُ ويَهْواني

وكان للأمير محمد ابن الأمير عبد الرحمن ثلاثة أولاد نجباء : القاسم ، والمطرف ، ومسلمة ، ولهم أخ رابع اسمه عثمان .

8 - فمن نظم القاسم^٢ في عثمان أخيه ، وقد زاره فاستسقاءه ماء ، فأبطأ عليه غلامه لعلّه لم يقبلها القاسم :

الماء في دار عثمان لهُ ثمنٌ والحبز شيءٌ لهُ شأنٌ من الشَّانِ^٣

١ ترجمته في الحلة ١ : ١١٩ .

٢ ترجمة القاسم في الحلة ١ : ١٢٧ والمقتبس (تحقيق مكّي) : ٢٠٠ .

٣ قال ابن الأبار بعد أن أورد البيهقي : كذا قال ابن حيان (المقتبس : ٢٠١) وهو غلط لا خفاء =

فاسلَحْ على كلِّ عثمانٍ مررت به غير الخليفة عثمان بن عفان
وله :

شُغِلْتُ بالكيمياء دَهْرِي فلم أُفِدْ غيرَ كلِّ خُسْرٍ
إِتْعَابُ فِكْرٍ ، خِداعُ عَقْلٍ فسادُ مالٍ ، ضِياعُ عَمْرٍ

9 - وقال شقيقه المطرف^١ ، ويُعرف بابن غزلان ، وهي أمه ، وكانت
مغنية بديعة محسنة عوادة أدبية :

هَلْ أَتَكِي مُشْرِفاً على نَهْرٍ أرمي بطرفي إليه من قَصْرِي
عندَ أخٍ لو دهتهُ حادثةٌ أعطيتهُ ما أحبَّ من عمري

10 - وقال أخوها مسلمة^٢ :

إِنَّ شَيْباً وَصَبَوَةً لمحالٍ أَوَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَكُونَ زَوَالُ
فَدَعِ النَّفْسَ عن مزاحٍ وَلَهْوٍ تلكَ حالٌ مضت وجاءتك حالٌ

وكان يقول : إنني لا أفارق إلا من اختار مفارقي ، ومن خادعني انخدعت
له ، وأريته أنني غير فطين بخداعه ، ليعجبه أمره ، وأدخل عليه مسرة بنفسه
ورأيه .

11 - وقال محمد ابن الأمير منذر ابن الأمير محمد في جاريته الأراكة :

قلْ للأراكة قد زَا د بالذنوّ اشتياقي

= به وإنما البيتان من قطعة لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي أنشدها ابن عبد البر في كتاب بهجة المجالس .

١ انظر ترجمة المطرف في الحلة ١ : ١٢٨ والمقتبس (تحقيق مكّي) : ٢٠٥ والجمهرة : ٩٨

وبيته في الحلة : ١٢٩ والمقتبس : ٢٠٨ .

٢ راجع المقتبس ص : ٢١١ .

وهاجَ ما بي إِلَيْهَا تمثُّلي للعِناقِ
وإِنتِني وبقلي جمرٌ جرى في المآقي
طوبتُ ما بي ليومٍ يَكُونُ فيه التلاقي
فإن أَعَدْتُ لاجتماعٍ حَرَمْتُ يومَ افتراقِ
لا يعرفُ الشوقَ إِلَّا مَنْ ذاقَ طعمَ الفراقِ

12 - وقال عبد الله بن الناصر^١ ، وقد أهدى له سعيد بن فرج ياسميناً
أبيض وأصفر ، وكتب معه^٢ :

مولاي قد أرسلتُ نحوكَ تُحْفَةً بمرادٍ ما أبغيه منك تَذَكُّرُ
من ياسمينٍ كاللُّجَيْنِ تبرجتُ بيضاً وصفراً والسماحُ يعبرُ
فأجابه بما نصّه :

أناكَ تفسيري ولما يحلُّ غني على أضغاث أحلامٍ
فاجعلنه رَسْماً دائماً زائراً^٣ منك ومنِّي غُرَّةَ العامِ

وبعث إليه بهذين البيتين مع ملء الطبق دنانير ودراهم ، فقال ابن فرج :

قد سمعنا بجُودِ كَعْبٍ وحاتمٍ ما سمعنا جوداً مَدَى العمر لازمٍ
فدعائي بأنْ تَدُومَ دعاءُ لي لا زالَ طولَ ما عشتَ دائمٍ
ما سمعنا كمثلَ هذا اختراعاً هكّذا هكّذا تَكُونُ المكارمُ

وتُشَبِّه هذه الحكاية حكاية اتفقت لبعض ملوك إفريقية ، وذلك أن رجلاً

١ عبد الله بن الناصر : له ترجمة في الجذوة : ٢٤٤ وبغية الملتبس رقم : ٩٤٩ والمغرب ١ : ١٨٢

والحلة السراء ١ : ٢٠٦ .

٢ البيتان وجوابهما في المغرب .

٣ المغرب : باقياً .

أهدى له في قادوس ورداً أحمر وأبيض ، فأمر أن يملأ له دراهم ، فقالت له جارية من جواريه : إن رأى الأمير أن يلوّن ما أعطاه ، حتى يوافق ما أهدها ، فاستحسن ذلك الأمير ، وأمر أن يملأ دنانير ودراهم .

وكان المرواني المذكور يساير أحد الفقهاء الظرفاء ، فمرّاً بجميل ، فمال عبد الله بطرفه على وجهه ، وظهر ذلك لمسايره ، فتبسّم ، ففهم عبد الله عنه ، فقال : إن هذه الوجوه الحسان خلابة ، ولكنّا لا نتغلغل في نظرها ، ولا ندعي العفة عنها بالجملة ، وفيها اعتبار وتذكّار بالحوار العين التي وعد الله تعالى ، فقال له الفقيه : احتجّ لروحك بما شئت ، فقال : أوّماً هي حجةٌ تُقبل ؟ فقال الفقيه : يقبلها من رَقّ طبعه ، وكاد يضيق عن الصبر وسُعه ، فقال : وأراك شريكاً لي ، فقال : ولولا ذلك للمتك ، فأطرق عبد الله ساعة ثم أنشد :

أفدي الذي مرّ بي فمال له لحظي ولكنّ ثنيته غصبا
ما ذاك إلا مخاف متقدّ فالله يعفو ويغفر الذنبا

فقال له الفقيه : إن كنت ثنيت لحظك خوف انتقادي فإنّي أدعوه إليك حتى تملأ منه ، ولا تنسب إليّ ما نسبت ، فتبسّم عبد الله وقال : ولا هذا كلّهُ ، وقال له : إن مثلك في الفقهاء لمعدوم ، فقال له : ما كنت إلاّ أديباً ، ولكني لما رأيت سوق الفقه بقرطبة نافقة اشتغلتُ به ، فقال له : ومن عقل المرء أن لا يفني عمره فيما لا ينفعه عصره .

وكان^١ عبد الله المذكور يسمّى الزاهد ، فبايع قوماً على قتل والده الناصر وأخيه الحكم المستنصر ولي العهد ، فأخذ يوم عيد الأضحى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، فذبح بين يديه ، رحمه الله تعالى .

13 — وقال أخوه أبو الأصبح عبد العزيز بن الناصر^٢ ، وقد دخل ابن له

١ ورد في المغرب نقلاً عن الرقيق .

٢ ترجمة عبد العزيز بن الناصر في الجذوة : ٢٧٠ وبغية الملتبس رقم : ١٠٩٣ والمغرب ١ : ١٨٤ =

الكتاب ، فكتب أول لوح ، فبعثه إلى أخيه الحكم المستنصر ملك الأندلس ،
ومعه :

هاك يا مولاي خَطًّا مَطَّه في اللوحِ مَطًّا
ابنُ سبعٍ في سِنِيهِ لم يُطِيقْ اللوحِ ضَبْطًا
دُمْتُ يا مولاي حتى يلدَ ابنُ ابنك سِبْطًا

وله :

زارني من همتُ فيه سَحَرًا يتهادى كنسيم السَّحَرِ
أقبَسَ الصَّبحِ ضياء ساطِعًا فأضأ والفجرُ لَمَ ينفجرِ
واستعار الروضُ منه نَفْحَةً بثَّها بين الصَّبَا والزَّهرِ
أيتها الطَّالعُ بَدْرًا نيرًا لا حلتَ الدهرَ إلاَّ بصري

وكان مُغرًى مغرمًا بالخمير والغناء ، فقطع الخمر ، فبلغه أن المستنصر لما
بلغه تركه للخمر قال : الحمد لله الذي أغنانا عن مفاتحته ، ودلَّه على ما نريد
منه ، ثم قال : لو ترك الغناء لكمل خيرهِ ، فقال : والله لا تركته حتى تترك
الطيورُ تغريدَها ، ثم قال ^١ :

أنا في صحَّة وجاه ونُعْمى هي تدعو لهذه الألحان
وكذا الطير في الحداثق تشدُّو للذي سرَّ نفسه بالقيان

14 - وقال أخوه محمد بن الناصر ^٢ لما قدم أخوهما المستنصر من غَزْوَة :

قدمتَ بحمد الله أسعدَ مقدمٍ وضدَّك أضحى لليدين وللهمـ

= والحنة ١ : ٢٠٨ وأبياته الأولى في المصادر السابقة ما عدا المغرب والقطعة الثانية في المغرب وحده .

١ المغرب : ١٨٤ .

٢ ترجمة محمد بن الناصر في المغرب ١ : ١٨٤ وفيه البيتان .

لقد حُزَّتَ فيها السبقَ إذ كنتَ أهله كما حاز « بسمِ الله » فضلَ التقدُّمِ

15 - وأما أخوهما محمد بن عبد الملك بن الناصر^١ فقال الحجاري فيه :
إنَّه لم يكن في ولد الناصر ممَّنْ لم يَلِ الملكَ أشعر منه ومن ابن أخيه ، وكتب إلى
العزيز صاحب مصر^٢ :

أَلَسْنَا بِنِي مروانَ كيف تبدَّلْتُ بنا الحالُ أو دارتْ علينا الدوائرُ
إذا وُلِدَ المولودُ مِنَّا تَهَلَّلْتُ له الأرضُ واهتزَّتْ إليه المنابرُ

وكان جواب العزيز له : أمَّا بعدُ فإنَّك علمتَنا فهجوتنا ، ولو علمناك
لهجوناك .

وله في الصنوبر :

إنَّ الصنوبرَ حِصْنٌ لديه حِرْزٌ وباسٌ
خَفَّتْ مِنْ أَجْلِ إرْها بٍ مِنْ عِداهُ تراسٌ
كَأَنَّمَا هو ضِدٌّ لِمَا حَوَاهُ الرئاسُ

وبعض سيوف الأندلس محفور صدر الرئاس على صورة قشور الصنوبر
إلاَّ أن تلك ناتئة وهذه محفورة ، وقال^٣ :

أَتَانِي وَقَدْ خُطَّ الْعِدَارُ بِخَدِّه كَمَا خُطَّ فِي ظَهْرِ الصَّحِيفَةِ عِنَاؤُ
تَرَاحِمَتِ الْأَلْحَاطُ فِي وَجَنَاتِهِ فَشُقَّتْ عَلَيْهِ لِلشَّقَاقِ أَرْدَانُ
وَزِدْتُ غَرَامًا حِينَ لَاحَ كَأَنَّمَا تَفْتَحُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالْآسِ سَوْسَانُ^٤

١ ترجمته في الحلة ١ : ٢٠٨ والمغرب ١ : ١٨٥ واليتمة ١ : ٣٥٥ .

٢ مر البيتان ص : ١٨٨ ؛ وانظر المصادر السابقة ، وفي اليتمة نسبة للحكم المستنصر وتعقبه
ابن الأبار في ذلك .

٣ هذه القطمة والتي تليها في المغرب : ١٨٥ .

٤ المغرب : آس وسوسان .

وقال :

لئن كنتُ خلّاعَ العِذارِ بشادنٍ وكأسٍ فإنتي غيرُ نَزَرِ المواهبِ
ولإنتي لَطَعَانٌ إذا اشتَجَرَ القَنَا ومُقْنَحَمٌ طرفي في صدورِ الكتائبِ
ولإنتي إذا لم ترضَ نفسي بمنزلٍ وجاش بصَدْرِي الفكرُ جمَ المَذهبِ
جليدٌ يودُّ^١ الصخرُ لو أنَّ صبرَه كصبري على ما نابني للنّوائِبِ
وأُسْرِي إلى أن يحسبَ الليلُ أنْتِي لطولِ مسيري فيه بعضُ الكواكِبِ

16 — وأما ابن أخيه مروان بن عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصر^٢
فكان في بني أمية شبه عبد الله بن المعتز في بني العباس ، بملاحة شعره وحسن
تشبيّه .

ومن شعره القصيدة المشهورة^٣ :

غُصْنٌ يَهْتَرُ في دِعْصِ نَقَا يجنّني منه فؤادي حُرْقَا
سَال لَامُ الصَّدْغِ في صَفْحَتِهِ سَيْلَانُ التَّبَرِّ وافي الورقا
فَتَنَاهَى الحَسَنُ فِيهِ إِنَّمَا يَحْسُنُ الغَصْنُ إذا ما أورقا

ومنها :

أَصْبَحَتْ شَمْساً وفوهُ مَغْرِباً ويدُ السّاقِي المَحْيِي مشرقا
فلَإِذَا مَا غَرَبَتْ في فمه تركتُ في الخلدِ منه شفقاً

-
- ١ في الأصول : يؤود ، والتصويب عن المغرب .
٢ هو المشهور باسم الشريف الطليق وله ترجمة في الحلة ١ : ٢٢٠ والجدوة : ٣٢١ وبغية الملتبس
رقم : ١٣٤٣ واليتيمة ٢ : ٦١ والذخيرة ١/٢ : ٨١ والمغرب ١ : ١٨٦ والمعجب :
٢٨٥ والمسالك ١١ : ١٧٦ وانظر كتاب التشبيهات وفهرسته .
٣ أوردها ابن بسام في الذخيرة ، ومنها قطع في المصادر المذكورة ، وفي الحلة منها قسط وافر .

ومنها :

وَكَاَنَّ الْوَرْدَ يَعْلُوهُ النَّدىُ وَجَنَّةُ الْمَحْبُوبِ تَنْدَى عَرَقًا

قالوا : وهذا النمط قد فاق به أهل عصره ، ويظن أنه لا يوجد لأحد منهم أحلى وأكثر أخذاً بمجامع القلوب من قوله :

وَدَعَتْ مَنْ أَهْوَى أَصِيلًا ، لَيْتَنِي	ذَقْتُ الْحِمَامَ وَلَا أَذُوقُ نَوَاهُ
فَوَجَدْتُ حَتَّى الشَّمْسِ تَشْكُو وَجْدَهُ	وَالْوُرُقُ تَنْدُبُ شَجْوَهَا بِهَوَاهُ
وَعَلَى الْأَصَائِلِ رَقَّةٌ مِنْ بُعْدِهِ	فَكَأَنَّهَا تَلْقَى الَّذِي أَلْفَاهُ
وَعِدَا النَّسِيمُ مَبْلَغًا مَا بَيْنَنَا	فَلَذَاكَ رَقَّ هَوَى وَطَابَ شَدَاهُ
مَا الرُّوضُ قَدْ مَزَجَتْ بِهِ أُنْدَاؤَهُ	سَحَرًا بِأَطْيَبِ مِنْ شَذَا ذِكْرَاهُ
وَالزَّهْرُ مَبْسَمُهُ وَنَكَهَتَهُ الصَّبَا	وَالْوَرْدُ أَخْضَلَهُ النَّدىُ خَدَاهُ
فَلَذَاكَ أَوْلَعُ بِالرِّيَاضِ لِأَنَّهَا	أَبْدَأُ تَذَكَّرُنِي بِمَنْ أَهْوَاهُ

ولله قوله :

وَعَشِيٍّ كَأَنَّهُ صَبَحُ عِيدٍ	جَامِعٍ بَيْنَ بَهْجَةٍ وَشَحُوبٍ
هَبَّ فِيهِ النَّسِيمُ مِثْلَ مَحَبِّ	مُسْتَعِيرًا شَمَائِلَ الْمَحْبُوبِ
ظَلَّتْ فِيهِ مَا بَيْنَ شَمْسَيْنِ هَذِي	فِي طُلُوعٍ وَهَذِهِ فِي غُرُوبِ
وَتَدَلَّتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ وَلَكِنْ	شَمْسُنَا لَمْ تَزَلْ بِأَعْلَى الْجُيُوبِ
رَبُّ هَذَا خَلَقْتَهُ مِنْ بَدِيعِ	مَنْ رَأَى الشَّمْسَ أَطْلَعَتْ فِي قُضِيبِ
أَيَّ وَقْتٍ قَدْ أَسْعَفَ الدَّهْرُ فِيهِ	وَأَجَابَتْ بِهِ الْمُنَى عَنْ قَرِيبِ
قَدْ قَطَعْنَاهُ نَشْوَةً وَوَصَالًا	وَمَلَأْنَاهُ مِنْ كِبَارِ الذُّنُوبِ
حِينَ وَجَّهَهُ السُّعُودُ بِالْبُشْرِ طَلَقَ	لَيْسَ فِيهِ أَمَارَةٌ لِلْقُطُوبِ
ضَيَّعَ اللَّهُ مِنْ يَضِيعُ وَقْتًا	قَدْ خَلَا مِنْ مُكَدَّرٍ وَرَقِيبِ

وبات عند أحد رؤساء بني مروان ، فقدّم إليه ذلك الرئيس قدحاً من فضة فيه راح أصفر ، وقال : اشرب وصِفْ فِداكَ ابنُ عمك ، فقام إجلالاً وشرب صائحاً بسروره ، ثم قال : الدواة والقرطاس ، فأحضيراً ، وكتب :

اشربْ هنيئاً لا عداك الطربُ شربَ كريم في العلا منتخبُ
وافاك بالراح وقد ألبستُ بُردَ أصيلٍ معلماً بالحبِّبُ
في قدحٍ لم يكُ يُسقى به غيرُ أولي المجدِ وأهلِ الحسبِ
ما جار إذ سقاكَ من كفه في جامدِ الفضة ذوبَ الذهبُ
فقمْ على رأسِكَ برّاً به واشربْ على ذكره طول الحقبِ^٢

ويحكى أنّه لما قتل أباه وقد وجده مع جارية له كان يهواها سجّته المنصورُ ابن أبي عامر مدة ، إلى أن رأى في منامه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يأمره بإطلاقه فأطلقه ، فمن أجل ذلك عُرف بالطلق .

17 - وقال أحمد بن سليمان بن أحمد بن [عبد الرحمن بن] عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر في ابن حزم لما عاداه علماء عصره^٣ :

لما تحلّى بخلقٍ كالمسكٍ أو نشرِ عودِ
نجلُ الكرامِ ابنُ حزمٍ وقام في العلمِ عودي
فتواه جدّد ديني جدواه أورق عودي

وله في أبي عامر ابن المظفر بن أبي عامر من قصيدة يمدحه بها :

بأبي عامرٍ وصَلْتُ حبالِي فرماني بهِ زمانٌ سعيدُ

١ م : برداً أصيلاً .

٢ متقدم على سابقه في م .

٣ الجدوة : ١١٦ وبغية الملتبس رقم : ١٠٧ والقطعة الأولى فيها .

فمَتَى زِدْتُ فِيهِ وَدَّاءَ وَشُكْرًا فَنَدَاهُ وَقَدْ تَنَاهَى يَزِيدُ
كَيْفَ لِي وَصْفِهِ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْهُ فِي الْمَكْرَمَاتِ مَعْنَى جَدِيدُ

18 - وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ النَّاصِرِ يَرِثُنِي أَبُو مَرْوَانَ ابْنِ
سَرَّاجٍ ١ :

وَكَمْ مِنْ حَدِيثٍ لِلنَّبِيِّ أَبَانَهُ وَأَلْبَسَهُ مِنْ حُسْنِ مَنْطِقِهِ وَشَيْئًا
وَكَمْ مُضْعَبٍ لِلنَّحْوِ قَدْ رَاضَ صَعْبَهُ فَعَادَ ذَلُولًا بَعْدَ مَا كَانَ قَدْ أَعْيَا

19 - وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُهْدِي ، وَهُوَ مِنْ حَسَنَاتِ بَنِي مَرْوَانَ ،
وَيُعْرَفُ بِالْأَقْرَعِ :

أَقُولُ لِأَمَالِي سَتَبْلُغُ إِنْ بَدَا مُحْيَاً ابْنَ عَطَّافٍ وَنَعَمَ الْمُؤَمَّلُ
فَقَالَتْ دُعَانِي كُلَّ يَوْمٍ تَعْلُلُ فَقُلْتُ لَهَا : إِنْ لَاحَ يَفْتَنِي التَّعْلُلُ
لَنْ كَانَ مِنِّي كُلَّ حِينٍ تَرْحَلُ فَإِنِّي إِنْ أَحْلُلُ بِهِ لَسْتُ أَرْحَلُ
فَتَنَى تَرْدُ الْأَمَالُ فِي بَحْرِ جُودِهِ وَلَيْسَ عَلَيَّ نُعْمَى سِوَاهُ الْمُعْوَلُ

وَقَالَ هَذِهِ فِي الْوَزِيرِ ابْنِ عَطَّافٍ ، فَضَنَ عَلَيْهِ حَتَّى بَرَجَعَ الْجَوَابُ ، فَكُتِبَ
إِلَيْهِ بِقَصِيدَةٍ مِنْهَا :

أَيُّهَا الْمُمْكِنُ مِنْ قُدْرَتِهِ لَا يِرَاكَ اللَّهُ إِلَّا مُحْسِنًا
إِنَّمَا الْمَرْءُ بِمَا قَدَّمَ فَتَخَيَّرَ بَيْنَ ذِمٍّ وَثَنًا
لَا تَكُنْ بِالْدَّهْرِ غَيْرًا وَإِذَا كُنْتَ فَانْظُرْ فَعَلَهُ فِي مَلَكْنَا
كُلُّ مَا خُوِّلَتْ مِنْهُ ذَاهِبٌ وَالَّذِي تَصَحَّبُ مِنْهُ الْكَفْنَا
مُدَّةً كَفَّأَ نَحْوَ كَفِّ طَالَمَا أَمْطَرَتْ فِيهِ السَّحَابُ الْهُتْنَا
أَوْ أَرَحْنِي بِجَوَابٍ مُؤَيَّسٍ فَمَطَالُ الْبَرِّ مِنْ شَرِّ الْعَنَا

١ مر البيتان ، انظر ص : ٣٤٣ .

فلم يُعطه شيئاً ، وكان له كاتب فتحيّلَ في خمسين درهماً فأعطاهما له ،
 فلما سمع الوزير بذلك طرده ، وقال له : من أنت حتى تحملَ نفسك هذا
 وتعطيه ؟ قال : فوالله ما لبث إلا قليلاً حتى مات الوزير ، وتزوج الكاتب
 بزوجته ، وسكن في داره ، ونحوّل في نعمته ، فحملني ذلك على أن كتبت
 بالفحم في حائط داره :

أيا دارُ قولي أينَ ساكنُكَ الذي أبى لؤمُهُ أن يَتَرُكَ الشكرَ خالدا
 تَسَمَّى وزيراً والوزارة سُبَّةٌ لمنْ قد أبى أن يستفيدَ المحامدا
 وولّى ولكن ليس يبرحُ ذمُّهُ فها هو قد أَرْضَى عدوًّا وناقدا
 وأضحى وكيلٌ كان يأنفُ فعلُهُ نزيلُكَ في الحوضِ المنعَّ واردا
 جزاءً بإحسانٍ لذا وإساءةٍ لذاك ، وساعٍ ورَثَ الحمدَ قاعدا

والمثل السائر في هذا «رُبَّ ساعٍ لقاعد» .

20 — وقال سليمان بن المرتضى بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، وكان
 في غاية الجمال ، ويلقب بالغزال :

قدمَ الربيعُ عليكَ بعدَ مَغِيبِ فتلقَّهُ بسُلافةٍ وحبِيبِ
 فَصَلَّ جديداً فلتجدُ حالةً يأتي الزمانُ بها على المرغوبِ
 الجوّ طَلَقُ فالتقهُ بطلاقةٍ وإذا تقطَّبَ فالتقهُ بقُطُوبِ
 لله أيامٌ ظفرتُ بها ومَنَ أهواهُ منقادٌ بغيرِ رقيبِ

وله :

لي في كَفالاتِ الرماحِ لو آتَها وَفَتَ ضَمَانٌ يُبْلَغُ الآمِلا
 وَكَلْتُ دَهْرِي في اقتضاءِ ضَمَانِها ضنّاً بهِ أنْ لا يحولَ فحالا

وكان مولعاً بالفكاهة والنادر ، محبباً في الظرفاء ، وكان يلتزم خدمته المضحك

المشهور بالزرافة ، ويحضر معه ، ولعبوا في مجلس سليمان لعبة أفضوا فيها إلى أن تقسموا اثنين اثنين ، كل شخص ورفيقه ، فقال سليمان : ومن يكون رفيقي ؟ فقال له المضحك : يا مولاي ، وهل يكون رفيق الغزال إلا الزرافة ؟ فضحك منه على عادته . ودخل عليه وهو قاعد في رحبة قصره ، وقد أطل عذاره ، فقال له : ما تطلب الزرافة ؟ فقال : ترعى الحشيش ، وأشار إلى عذاره ، فقال له : اعزُبْ لعنك الله !

ومرَّ سليمان به يوماً وهو سكران ، وقد أوقف ذكره وجعل يقول له : ماذا رأيت في القيام في هذا الزمان ؟ أما رأيت كل ملك قام كيف خلع وقُتل ؟ والله إنك سيء الرأي ، فقال له سليمان : وبم لقبت هذا الثائر ؟ فقال : يا مولاي بصفته القائم ، فقال : ويحتاج إلى خاتم ؟ فقال : نعم ويكون خاتم سليمان ، فقال له : أخزأك الله ، إن الكلام معك لفضيحة .

21 - وقال سعيد بن محمد المرواني^١ ، وقد هجره المنصور بن أبي عامر مدة لكلام بلغه عنه ، فدخل والمجلس غاص^٢ ، وأنشد :

مولاي مولاي أما آن أن تُريحني بالله من هجركا
وكيف بالهجر وأنتي به ولم أزل أسبح في بحرِكا

فضحك ابن أبي عامر^٢ على ما كان يظهره من الوقار ، وقام وعانقه وعفا عنه ، وخلع عليه .

وله :

والبدْرُ في جوِّ السماء قد انطوى طرّاه حتى عاد مثلَ الزورقِ

١ قال الحميدي (٢١٤) اختلف علي في نسبه : فهو سعيد بن عثمان بن مروان القرشي المعروف بالبلية وقيل : سعيد بن محمد ، وقيل : سعيد بن مروان ؟ ويقال له ابن عمرو ؟ وانظر المغرب ١ : ١٩٢ واليتيمة ٢ : ٥٤ وكتاب التشبيهات .

٢ ضحك ابن أبي عامر لأن سعيداً كان يلقب « البلية » أي الحوت وقد مائل بقوله « ولم أزل أسبح... »

فتراه من تحتِ المحاقِ كأنّما غرقَ الكثيرُ وبعضُهُ لم يغرقِ
وهو مأخوذ من قول ابن المعتز :

وانظر إليه كزورقٍ من فضةٍ قد أثقلتهُ حُمولةٌ من عنبرٍ

22 - وقال قاسم بن محمد المرواني^١ يستعطف المنصور بن أبي عامر ، وقد
سجّنه لقول صدر عنه :

ناشدتُكَ اللهَ العظيمَ وحَقَّهُ في عبدِكَ المتوسِّلِ المتحرِّمِ
بوسائلِ المدحِ المُعادِ نشيدُها في كلِّ مجمعٍ موكبٍ أو موسمِ
لا تستبِخْ مني حِمَى أركانِهِ يا مَنْ يرى في الله أحمى محتمي

23 - وقال الأصم المرواني^٢ يمدح أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ببجل
الفتح معارضاً بائية أبي تمام :

السيفُ أصدقُ أنباء من الكتبِ

بقصيدة طويلة منها :

ما للعدا جُنَّةٌ أوقى من الهربِ أين المفرُّ وخيلُ الله في الطلبِ
وأين يذهبُ مَنْ في رأسِ شاهقةٍ إذا رَمَتْهُ سماءُ الله بالشَّهْبِ

ومنها :

وطودِ طارقٍ قد حلَّ الإمامُ بهِ كالطُّورِ كان لموسى أيمنَ الرُّتبِ
لو يعرفُ الطُّودُ ما غشاهُ من كرمِ لم ييسطِ النورُ فيه الكفَّ للشَّحْبِ

١ ترجمة قاسم بن محمد هذا في الجذوة : ٣١٠ وبغية الملتنس رقم : ١٢٩٦ وفيهما أبياته .
٢ من شعراء زاد المسافر : ٨٤ وقال المراكشي في المعجب : ٢٨٤ إن جده هو الشريف الطليق ؛
وبعض البائية في المصدرين والقطعة الثانية والخامسة في زاد المسافر .

ولو تيقنَ بأساً حلَّ ذِروته
منه يعاودُ هذا الفتحَ ثانيةً
ويلبسُ الدينُ غضاً ثوبَ عزته
وقال في نارنجة :

وبنتِ أليكِ دنا من لثمها فزَحْ
يبدو لعينيك منها منظرٌ عَجَبُ
فصار منه على أرجائها أثرُ
كانَ موسى نبيَّ الله أقبسه
زبرجدٌ ونضارٌ صاغه المطرُ
ناراً وجَرَّ عليها كفهُ الخَضِرُ
وقال ١ :

وشادنٍ قلتُ له صفْ لَنَا
فقال لي بستانكم جنةٌ
بُستاننا هذا ونارنجنا
وقال في زَلباني ٢ :

لله سَفَاحٌ بدا لي مسحراً
ذهبتُ فضة خده بلواحظي
فأفاد علم الكيمياء يمينه ٣
وكذاك تفعلُ ناره بعجينه

وقال ، وقد نزل في فندق لا يليق بمثله :

يا هذه لا تُفَنِّدِيني
فليس قبْحُ المحلِّ ممّا
أن صرتُ في منزلٍ هَجِينِ
فالشَّمْسُ علُوِيَّةٌ ولكنْ
يقدحُ في مَنْصِبِي وديني
تغربُ في حَمَاهِ وطني

١ زاد في م : في النارنج .

٢ يريد قالي الزلابية ؛ وفي م : زلفاني .

٣ م ب : بحسنه ، ولا يستقيم مع القافية .

24 - وقال أحمد المرواني :

حلفتُ بمن رمى فأصابَ قلبي وقلَّبهُ على جمرِ الصلودِ
لقدْ أودى تذكُّرُه بجسمي ولستُ أشكُ أنَّ النفسَ تُودي
فَقِيدٌ وهو موجودٌ بقلبي فواعجبا بوجودِ فقيدِ

25 - وقال الأصبغ القرشي يرثي ابن شهيد وهو من أصحابه :

نأى مَنْ به كان السرورُ مواصلاً وأسلمَ قلبي للصَّابةِ والفكرِ
ومنها :

لعمرك ما يُجندي النعيمُ إذا نأتُ وجوههمُ عني ولا فُسحةُ العمرِ

26 - وقال سليمان بن عبد الملك الأموي :

وذي جدلٍ أطال القولَ منهُ بلا معنى وقد خفي الصوابُ
فقلتُ أجيبهُ فازداد ردّاً فقلتُ له قد ازدحمَ الجوابُ
ولم أرَ غيرَ صمتي من مريحٍ إذا ما لم يفدُ فيه الخطابُ

27 - وقال أبو يزيد ابن العاصي :

عابه الحاسدُ الذي لام فيه أنْ رأى فوقَ خدِّه جدرياً
إنما وجهه هلالٌ تمامٍ جعلوا برقاً عليه الثريا

وله :

إذا شئتَ أن يصفو صديقك فاطَّرحْ نزاعَ الذي يُبديهِ في الهزلِ والجِدِّ
وإن كنتَ من أخلاقه في جهنمٍ فأنزلهُ من مثواكَ في جنةِ الخلدِ
إلى أن يُتَّيحَ اللهُ من لطفِ صنعه فراقاً جميلاً فاجعل العذرَ في البعدِ

وليكن هذا آخر ما نورده من كلام بني مروان رحمهم الله تعالى .
ولنرجع إلى أهل الأندلس جملة ، فنقول :

٤٢٠ - أمر أبو الحجاج المنصفي أن يكتب على قبره ١ :

قالت لي النفسُ : أتاك الردى وأنت في بحر الخطايا مقيم
هلا أدخرت الزاد قلتُ : أقصري لا تحمّل الزاد لدارِ الكريم
وقد ذكرنا هذين البيتين في غير هذا الموضع ٢ .

وقال ابن مرج الكحل ٣ : اجتمعنا في حانوت بعض الأطباء بإشبيلية ،
فأضجرناه بكثرة جلوسنا عنده ، وتعذرت المنفعة عليه من أجلنا ، فأنشدنا :

خففوا عنا قليلاً ربّ ضيقٍ في براح
هل شكوتُم من سقامٍ أو جَلَسنا للصّحاح
فأضفت إليهما ثالثاً ، وأنشدته إياهُ على سبيل المُداعبة :
إن أتيتم فقرّادى ذاك حُكمُ المستراح

٤٢١ - ودخل أبو محمد غانم بن وليد مجلس باديس بن جبوس ، فوسّع
له على ضيق كان فيه ، فقال ٤ :

١ أبو الحجاج يوسف المنصفي زاهد مشهور سكن سبتة (والمُنصف التي ينسب إليها من قرى بلنسية)
راجع المغرب ٢ : ٣٥٤ .

٢ انظر المغرب .

٣ هو أبو عبد الله محمد بن إدريس يعرف بمرج كحل (توفي بجزيرة شقر سنة ٦٣٤) انظر : زاد
المسافر : ٢٧ والإحاطة ٢ : ٦٣٤ والتكملة : ٦٣٦ وشرح المقصورة ١ : ٢٥ ، ١٢٠ ،
١٩٥ والوافي ٢ : ١٨١ والمغرب ٢ : ٣٧٣ .

٤ انظر ما سبق ص : ٢٦٥ ، ٣٩٨ ، ٤٤٧ .

صَبْرُ فؤادك للمحجوب منزلةٌ سَمُّ الخياطِ مجالٌ للمحبِّينِ
ولا تسامحْ بغيضاً في معاشرَةٍ فقلّما تَسَعُ الدنيا بَغِيضِينَ

٤٢٢ - ودخل على أبي جعفر اللمائي بعضُ أصحابه عائداً في علته التي مات فيها ، وجعل يروِّح عليه بمروحة ، فقال أبو جعفر على البديهة :

روَّحني عائدي فقلتُ له : لا لا تردني على الذي أجِدُ
أما ترى النارَ وهي خامدةٌ عند هبوبِ الرياحِ تتقدُّ

٤٢٣ - وقال الأعمى : ليكن محفوظك من النظم مثل قول ابن القَبْطُرُنة^١ :

دعاكَ خليلُكَ واليومُ طلُّ وعارضُ وجهِ الثرى قد بَقِلَ
لقد رَيْنَ فاحاً وشمّامةً ولابريقِ راحٍ ونعمَ المحلِّ
ولو شاء زادَ ولكنّه يُلَامُ الصديقُ إذا ما احتفلُ

٤٢٤ - وقال أبو عامر ابن يَنقّ الشاطبي^٢ :

ما أحسنَ العيشَ لو أنَّ الفتى أبداً كالبدْرِ يرجو تماماً بعدَ نقصانِ
إذ لا سبيلَ إلى تخليدِ مأثرةٍ إذ لا سبيلَ إلى تخليدِ جثمانِ

٤٢٥ - وقال أبو الحسن اللورقي^٣ :

عجباً لمنْ طلبَ المحَا مِدَ وهوَ يَمْنَعُ ما لديهِ
ولباسطِ آمالِه للغيرِ لم ييسطِ يديهِ
لم لا أحبُّ الضيفَ أو أرتاحُ من طربِ إليهِ

١ المغرب ١ : ٣٦٨ والقلائد : ١٥٢ .

٢ ترجمة أبي عامر محمد بن ينق في القلائد : ١٨٦ والمغرب ٢ : ٣٨٨ والتكملة : ٤٧٩ ومعجم

الصدقي : ١٦٢ .

٣ هو أبو الحسن جعفر بن الحاج اللورقي وأبياته في المغرب ٢ : ٢٨٠ والقلائد : ١٤٢ .

والضَّيْفُ يَأْكُلُ رِزْقَهُ عِنْدِي وَيُحَمَّدُنِي عَلَيْهِ

٤٢٦ - وقال أبو عيسى ابن لبَّون ، وهو من قواد المأمون بن ذي النون ^١ :

نَفَضْتُ كَفِّي مِنَ الدُّنْيَا وَقُلْتُ لَهَا إِلَيْكَ عَنِّي فَمَا فِي الْحَقِّ أُعْتَبِنُ
مِنْ كَسْرِ بَيْتِي لِي رَوْضٌ وَمِنْ كَتْبِي جَلِيسٌ صَدَقَ عَلَى الْأَسْرَارِ مُؤْتَمِنُ
أَدْرِي بِهِ مَا جَرَى فِي الدَّهْرِ مِنْ خَبِيرٍ فَعَنْدَهُ الْحَقُّ مَسْطُورٌ وَمُخْتَرِنُ
وَمَا مُصَابِي سِوَى مَوْتِي وَيَدْفِنِي قَوْمٌ وَمَا لَهُمْ عِلْمٌ بِمَنْ دَفَنُوا

٤٢٧ - وقال أبو عامر ابن الحمارة ^٢ :

وَلِي صَاحِبٌ أَحْنُو عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لِيُوجِعُنِي حِينَئِذَا فَلَأُتَوَجَّعُ
أَقِيمُ مَكَانِي مَا جَفَانِي وَرَبَّمَا يَسْأَلُنِي الرَّجْعَى فَلَأُتَمْنَعُ
كَأَنِّي فِي كَفِّيهِ غُصْنٌ أَرَاكَ تَمِيلُ عَلَى حَكْمِ النَّسِيمِ وَتَرْجَعُ

٤٢٨ - وقال أبو العباس ابن السعود ^٣ :

تَبَّأَ لِقَلْبٍ عَنِ الْأَحْبَابِ مَنْصَرَفٍ يَهْوَى أَحَبَّتَهُ مَا خَالَسَ النَّظْرَا
مِثْلَ السَّجَنِجْلِ فِيهِ الشَّخْصُ تُبْصَرُهُ حَتَّى إِذَا غَابَ لَمْ يَتْرِكْ بِهِ أَثْرَا

٤٢٩ - ومرض أبو الحكم ابن غلندة ^٤ ، فعاده جماعة من أصحابه فيهم

١ أبياته في المغرب ٢ : ٣٧٧ والقلائد : ١٠٢ .

٢ ترجمته في المغرب ٢ : ١٢٠ والحاشية ؛ وفي م : وقال أبو عامر الملقب بابن الجبارة .

٣ هو أبو العباس أحمد بن السعود كاتب ابن همشك (المغرب ٢ : ٥٢) ؛ وفي م : وقال الفقيه الأديب . . . إلخ .

٤ هو أبو الحكم عبيد الله بن علي بن غلندة الكاتب من أهل سرقسطة وسكن إشبيلية وتوفي بمراكش (- ٥٨١) وقد أسن (التحفة : ٧١ وفيها البيتان) .

فتى صغير السن ، فوقاه من برّه ما أوجب تغييرهم ، ففطن لذلك وأنشد
ارتجالاً :

تَكَثَّرَ مِنَ الْإِخْوَانِ لِلدَّهْرِ عُدَّةٌ فكَثُرَ دُرُّ الْعَقْدِ مِنْ شَرَفِ الْعِقْدِ
وَعَظَّمُ صَغِيرُ الْقَوْمِ وَابْدَأُ بِحَقِّهِ فَمِنْ خِنْصَرِي كَفَيْكَ تَبْدَأُ بِالْعَقْدِ

[ثم نظر إليهم وأنشدهم ارتجالاً قوله :

مُغِيثُ أَيُوبَ وَالْكَافِي لَذِي النُّونِ يَحِلَّتِي فَرَجًا بِالْكَافِ وَالنُّونِ
كَمْ كَرْبَةٍ مِنْ كُرُوبِ الدَّهْرِ فَرَّجَهَا عَنِي وَلَمْ يَنْكَشِفْ وَجْهِي لِمَنْ دُونِي^١

٤٣٠ - وقال القاضي أبو موسى ابن عمران :

مَا لِلتَّجَارِبِ مِنْ مَدَى وَالْمَرْءُ مِنْهَا فِي ازْدِيَادِ
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ ذَا الْعِلَاءِ مَنْ حَازَ عِلْمًا وَاسْتَفَادَ
فَإِذَا الْفَقِيهُ بِغَيْرِ مَا لَ كَالْخَبَاءِ بِلَا عِمَادِ
شَرَفُ الْفَتَى بِنُضَارِهِ إِنَّ الْفَقِيرَ أَخُو الْجِمَادِ
مَا الْعِلْمُ إِلَّا جَوْهَرٌ قَدْ يَبِيعُ فِي سَوْقِ الْكِسَادِ

٤٣١ - وقال أبو بكر ابن الجزار السَّرْقُسْطِي :

إِيَّاكَ مِنْ زَلَلِ اللِّسَانِ فَإِنَّمَا عَقْلُ الْفَتَى فِي لَفْظِهِ الْمَسْمُوعِ
وَالْمَرْءُ يَخْتَبِرُ الْإِنَاءَ بِنَقَرِهِ لِيرَى الصَّحِيحَ بِهِ مِنَ الْمَصْلُوعِ

٤٣٢ - وقال أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهَيْد^٢ : تناول بعض

أصحابنا نَرْجِسَةً ، فركبها في وردة ، ثم دفعها إلي وإلى صاعد ، وقال : قولا ،

١ ما بين معقفين زيادة من م .
٢ راجع هذه القصة فيما تقدم : ٧٦ ، والزهيري قد اضطربت في الأصول ، وقد تقرأ « الزميري »
في م .

فأبهت دوننا أبواب القول ، فدخل الزهيري ، وكان أمياً لا يذكر من الكلام إلا ما علق بنفسه في المجالس ، وينفذ مع هذا في المطولات من الأشعار ، فأشعر بأمرنا ، فجعل يقول دون روية :

ما للأدبيين قد أعيتهما مليحة من ملح الجنه
نرجسة في وردة ركبت كقلة تطرف في وجهه

٤٣٣ - وقال أبو محمد ابن حزم في « طوق الحمامة »^١ :

خلوتُ بها والراحُ ثلاثة لَنَا وجنحُ ظلامِ الليلِ قد مدّ واعتلج^٢
فتاةٌ عذمتُ العيشَ إلا بقربها فهل في ابتغاءِ العيشِ ويحك من حرج^٣
كأنني وهي والكأسُ والخمرُ والدجى حياً وثرى والدرُّ والتبرُّ والسيحُ

قال : وهذه خمس تشبيهات لا يقدر أحد على أكثر منها إذ تضيق الأعارض عنه .

قال أبو عامر ابن مسلمة : ولا أذكر مثلها إلا قول بعض :

فأمطرتُ لؤلؤاً من نرجسٍ فسقتُ ورَداً وعصتُ على العُنبابِ بالبرَدِ^٤

إلا أنه لم يعطف خمسة على خمسة كما صنع ابن حزم ، بل اكتفى بالعلم في التشبيهات .

قال : ومن أغرب ما وقع لي من التشبيهات في بيت قول ابن برون الأكشوني^٥ الأندلسي يصف فرساً ورَداً أغرَّ مُحَجَّلاً :

١ طوق الحمامة : ١٦ .

٢ الطوق : قد مد ما انبلج .

٣ هامش م : المراد به الواواء الدمشقي من قصيدته الفريدة . . . إلخ . قلت انظر ديوانه : ٨٤ .

٤ لعلها « الأكشونبي » ؛ وسقطت لفظة « برون » من ب .

فَكَانَ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَاتِهِ خَمْسٌ مِنَ السُّوسَانِ وَسَطُ شَقَائِقِ
 قال : وهذا على التحقيق ستة على ستة ، ولم أسمع بمثله لأحد [من الأندلسيين
 ولا من المشاركة]^١ .
 قال ابن الجلاب : وكلام أبي عامر هذا لا يخلو من النقد .

٤٣٤ - وقال ابن صارة :

انظرُ إلى البدرِ وإشراقِهِ على غديرٍ مَوْجُهُ يَزْهَرُ
 كِشْحَدٍ من حَجَرٍ أَخْضَرٍ خُطٌّ عليه ذهبٌ أَحْمَرُ

٤٣٥ - وقال أبو القاسم ابن العطار الإشبيلي^٢ :

ركبنا^٣ سماءَ النَّهْرِ والجوَّ مشرقٌ وليس لنا إلا الحجابَ نجومُ
 وقد ألبستهُ الأيكُ بُرْدَ ظلالها وللشمسِ في تلك البرودِ رقومُ

٤٣٦ - وقال ابن صارة^٤ :

والنهرُ قد رَقَّتْ غِلَالَةُ صبغهِ وعليه من ذهب الأصيل طِرازُ
 تَرَقُّرُ الأمواجِ فيه كأنَّها عَكَنُ الخصورِ تضمُّها الأعجازُ

٤٣٧ - وقال سهل بن مالك^٥ :

وربَّ يومٍ وَرَدْنَا فيه كلَّ مُنَى وقلَّ في مثلِ ذاكِ اليومِ أن نردا
 في روضتين بشطَّيْ سلسلٍ شُبمِ كما اجتليت من المحبوبِ مفتقدا

١ زيادة من م .

٢ القلائد : ٢٨٥ .

٣ القلائد : عبرنا .

٤ انظر القلائد : ٢٧٠ ؛ وفي م : وقال الأديب البارِع . . . إلخ .

٥ زاد في م : في صفة النهر .

يبددُ القَطْرُ في أثْنائه حلقاً فتنظمُ الريحُ منها فوقه زَرْدًا^١

٤٣٨ - وقال ابن صارة :

انظرِ النهرَ في رداء عروسٍ صبغته بزعفرانِ العشيِّ
ثمَّ لما هبَّ النسيمُ عليه هزَّ عِطْفِيهِ في دلاصِ الكميِّ

٤٣٩ - ولبعضهم في شكل يرمي الماء مجوفاً مثل الخباء وتمزقه الريح أحياناً:

ومُطَنَّبٌ للماءِ ما أوتاده إلا نتائج فكر طَبِّ حاذقٍ
لعبت به أيدي الصَّبَا فكأَنَّها أيدي الصبابة بالفؤاد العاشقِ

٤٤٠ - وقال صفوانُ بن إدريس يصفُ تفاعُة في الماء :

ولم أرَ فيما تشتهي العينَ منظرًا كتفاعِةٍ في بركةٍ بقَرَارٍ
يفيضُ عليها ماؤها فكأَنَّها بقیةٌ خدٍ في اخضرارِ عِذارٍ^٢

٤٤١ - وقال أبو جعفر ابن وضاح في دولاب :

وباكيةٍ والروضُ يضحكُ كلما ألحَّتْ عليه بالدموع السَّواجِمُ
يروقك منها إن تأملتَ نحوها زئيرُ أسودٍ والتفاتُ أراقِمُ
تُخلِّصُ من ماء الغديرِ سبائكاً فتُنبتُها في الروضِ مثل الدِّراهمِ

١ زاد في م قطعتين بعد هذه لابن مالك ؛ وقال أيضاً من التشبيهات العجيبة :

وتحدث الماء الزلال مع الحصى فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى
فكان فوق الماء وشياً ظاهراً وكان تحت الماء درأً مضمرأ
وقوله أيضاً في تشبيه الحمرة وهو عجيب :

إذا كان عندي قوت يوم وليلة من الحمر تنفي الهم عني إذا امتنع
فلمست تراني سائلاً عن خليفة ولا عن وزير للخليفة ما صنع

٢ زاد بعدهما هنا في م بيتين لسهل بن مالك :

شربنا وجفن الليل يغسل كحله البيتین .

٤٤٢ - وقال الوزير ابن عمار :

يومٌ تكاثَفَ غيمُهُ فكأَنَّهُ دونَ السماءِ دخانٌ عودٌ أخضرٍ
والطلُّ مثلُ بُرَادَةٍ من فضةٍ منثورةٍ في تربةٍ من عنبرٍ
والشمسُ أحياناً تلوحُ كأنَّها أمةٌ تُعرِّضُ نفسها للمشتري

٤٤٣ - وقال أبو الحسن ابن سعد الخير^١ :

للهِ دولا بٌ يفيضُ بسلسلٍ في روضةٍ قد أينعتُ أفنانا
قد طارَحَتْهُ بها الحمائمُ شجوها فيُجيبُها ويرجعُ الألحانا
فكأَنَّهُ دَنِفٌ يدورُ بمعهدٍ يبكي ويسأل فيه عمَّنْ بانا
ضاقتُ مجاري طرفه عن دَمْعِهِ فتفتحتُ أضلاعُهُ أجفانا

٤٤٤ - وقال ابن أبي الحِصَال :

ووردَ جَنِيٌّ طالعتنا خلودُهُ ببشرٍ ونشرٍ يبعثانِ على السكرِ
وحفٌّ ترنجانٌ بهِ فكأَنَّهُ خلودُ العذارى في مقانعها الخضرِ

٤٤٥ - وقال ابن صارة^٢ :

يا ربَّ نارنجَةٍ يلهو النديمُ بها كأنَّها كُرَّةٌ من أحمرِ الذهبِ
أو جدوةٌ حملتها كفُّ قابيسها لكنَّها جذوةٌ معدومةٌ اللهبِ

٤٤٦ - وقال الخفاجي^٣ :

١ أبو الحسن علي بن سعد الخير من شعراء زاد المسافر : ١٠٣ وانظر المغرب ٢ : ٣١٧ والتكملة رقم : ١٨٦٧ والحقفة : ٥١ والذيل والتكملة ٥ : ١٨٧ ووصفه للدولاب ورد في أكثرها ؛ م : وقال أبو الحسن . . . في دولاب .

٢ القلائد : ٢٦٧ ؛ م : وقال ابن صارة في نارنجة يشبهها .

٣ ديوانه : ٦٩ ؛ م : وقال الخفاجي الأندلسي في أيكة .

ومَيَّاسَةٌ تزهو وقد خلع الحيا عليها حلّى حمراً وأردية خضرا
يذوبُ بها ريقُ الغمامةِ فضّةً ويحمدُ في أعطافِها ذهباً نضرا

٤٤٧ - وقال ابن صارة أيضاً^١ :

ونارنجةٍ لم يدعْ حُسْنُها لعيني في غيرها مذهباً
فطوراً أرى لها مضرماً وطوراً أرى شفقاً مذهباً

٤٤٨ - وقال ابن وضاح في السرو^٢ :

أيا سرّو لا يُعطِش منابتك الحيا ولا يدعنْ أعطافك الخضيلُ النضرُ
فقد كسيتُ منك الجذوعَ بمثلِ ما تلفُ على الخطي راياته الخضرُ

٤٤٩ - وقال أبو إسحاق الحولاني^٣ :

نيلوفرٌ شكلُهُ كشكلي يعومُ في أبحرِ الدموع
قد ألْبَسَتْ عطْفَه دروعاً خودٌ لريحِ الصبا شموع
يلوحُ إذ لونهُ كلوني من فوقِ فضفاضةٍ هموع
مثلُ مساميرِ مذهباتٍ في حلقاتٍ من الدروع

٤٥٠ - وقال ابن الأثير^٤ :

وسوسناتٍ أرّت من حُسْنِها بدعاً ولم يزل عصرُ مولانا يُري بدعاً
شبهةً بالثريا في تألّفها وفي تألّفها تلتاحُ ملتعةً

١ زاد في م : في تشبيه نارنجة .

٢ م : شجر السرو .

٣ زاد في م : في النيلوفر .

٤ زاد في م : الأديب المشهور في السوسن .

هَامَتْ بِبُيْمَانِهِ تَبْغِي أَنْ تَقْبِلَهَا واستشرفت تجتلي مرآه مُطْلَعَةً
ثُمَّ انْتَبَى بَعْضُهَا مِنْ بَعْضِهَا غَلَبًا على البدارِ فَوَافَتْ وَهِيَ مُجْتَمِعَةٌ
ورفع هذه الأبيات إلى الأمير أبي يحيى زكريا^١ .

٤٥١ - وقال حازم :

لَا نَوْرَ يَعْدِلُ نَوْرَ اللُّوزِ فِي أَنْتَقِ وبهجة عند ذي عدلٍ وإنصافٍ
نِظَامُ زَهْرٍ يَظَلُّ الدَّرُّ مُنْتَثِرًا عليه من كلِّ هامي القطرِ وكافٍ
بَيْنَا تُرَى وَهِيَ أَصْدَافٌ لَدَرْ حَيًّا بيضٍ غدت دررًا في خُضْرِ أَصْدَافٍ

٤٥٢ - وقال ابن سَعْدٍ الْخَيْرِ فِي رُمَانَةٍ^٢ :

وَسَاكِنَةٌ فِي ظِلَالِ الْغُصُونِ بروضٍ^٣ يروقك أفنانُهُ
تُضَاحِكُ أَتْرَابَهَا فِيهِ إِذَا غدا الجؤ تدمعُ أجفَانُهُ
كَمَا فَتَحَ اللَّيْثُ فَاهُ وَقَدْ تَضَرَّجَ بِالدَّمِ أَسْنَانُهُ

٤٥٣ - وقال ابن نزار الوادي آشي^٤ :

وَرُمَانَةٌ قَدْ فَضَّ عَنْهَا خَتَامَهَا حبيبٌ أعار البدرَ بعضَ صفاتِهِ
فَكَسَّرَ مِنْهَا نَهْدَ عَذْرَاءٍ كَاعِبٍ وناولني منها شبيهَ لداتِهِ

٤٥٤ - وقال بعضهم في القَرَّاسِيَا^٥، ويقال له بالمغرب «حب الملوك» :

وَدُوحٌ تَهْدِلُ أَشْطَانُهُ رعى الدهرُ من حسنه ما اشتهى

١ ب م : أبي زكريا .

٢ التحفة : ٥٣ .

٣ التحفة : بخدر .

٤ زاد في م : في رمانة .

٥ م : القرسيا .

فما احمرَّ منه فصوصُ العقيقِ وما اسودَّ منه عيونُ المَها

٤٥٥ - وقال بعضهم ^١ :

وَأَيْنَ مَعَاهِدٍ لِلْحُسْنِ فِيهَا	وَلِلْأَنْسِ التِّقَاءِ الْبَهْجَتَيْنِ
وَلِلْأَوْتَارِ وَالْأَطْيَارِ فِيهَا	لَدَى الْأَسْحَارِ أَطْرُبُ سَاجِعِينَ ^٢
فَكَمْ بَدْرٍ تَجَلَّى مِنْ رُبَاهَا	وَمِنْ بَطْحَانِهَا فِي مَطْلَعَيْنِ
وَأَعْيَدَ يَرْتَعِي مِنْ تَلْعَتَيْهَا	وَمِنْ ثَمَرِ الْقُلُوبِ بِمَرْتَعَيْنِ
إِذَا أَهْوَى لِسَوْسَنَةٍ يَمِينًا	عَجِبْتَ مِنَ التَّقَاءِ السَّوْسِنِ
وَكَمْ يَوْمٍ تَوَشَّحَ مِنْ سَنَاهُ	وَمِنْ زَهْرَاتِهَا فِي حَلَّتَيْنِ
وَرَاحَ أَصِيلُهُ مَا بَيْنَ نَهْرٍ	وَدَوْلَابٍ يَدُورُ بِمَسْمَعَيْنِ
بَنْهَرٍ كَالسَّمَاءِ يَجُولُ فِيهِ	سَحَابٌ مِنْ ظِلَالِ الدَّوْحَتَيْنِ
تَدْرَعُ لِلنَّوَاسِمِ حِينَ هَزَتْ	عَلَيْهِ كُلَّ غَصْنٍ كَالرُّدَّتَيْنِ
مَلَاعِبَ فِي غَرَامِي عِنْدَ ذَكَرِي	صَبَاهُ وَغَصْنَهُ الْمُتَلَاعِبَيْنِ

٤٥٦ - وقال الوزير محمد بن عبد الرحمن بن هانيء :

يَا حُرْقَةَ الْبَيْنِ كَوَيْتِ الْحَشَا	حَتَّى أَذْبَتِ الْقَلْبَ فِي أَضْلَعِهِ
أَذْكَيْتِ فِيهِ النَّارَ حَتَّى غَدَا	يَنْسَابُ ذَاكَ الذَّوْبُ مِنْ مَدْمَعِهِ
يَا سُؤْلَ هَذَا الْقَلْبِ حَتَّى مَتَى	يُؤْسَى بِرَشْفِ الرِّيقِ مِنْ مَتْنَبَعِهِ
فَإِنَّ فِي الشَّهْدِ شِفَاءَ الْوَرَى	لَا سِيَّمَا إِنْ مُصَّ مِنْ مَكْرَعِهِ
وَاللَّهِ يُدْنِي مِنْكُمْ عَاجِلًا	وَيُبْلِغُ الْقَلْبَ إِلَى مَطْمَعِهِ

٤٥٧ - ولو لم يكن للأندلسيين غير كتاب «شذور الذهب» لكفاهم
دليلاً على البلاغة ، ومؤلفه هو علي بن موسى بن علي بن محمد بن خلف أبو

١ زاد في م : في خضرة وروض واجتماع أحباب .

٢ ب م : سامعين .

الحسن الأنصاري ، الجيّاني ، نزيل فاس ، وولي خطابتها ، ولم ينظم أحدٌ في الكيمياء مثل نظمه بلاغةً معانٍ ، وفصاحةً ألفاظٍ ، وعذوبةً تراكيبٍ ، حتى قيل فيه : إن لم يعلمك صناعة الذهب علمك الأدب . وفي عبارة بعضهم : إن فاتك ذهبه ، لم يفتك أدبه . وقيل فيه : إنّه شاعر الحكماء ، وحكيم الشعراء . وتوفّي رحمه الله تعالى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

[عود إلى النقل عن بدائع البدائه]

ولنذكر هنا نبذة من سرعة بديهة أهل الأندلس ، وإن مرّت من ذلك جملة ، وستأتي أيضاً زيادة على الجميع ، فنقول :

٤٥٨ - قال في « بدائع البدائه » ما صورته^١ : روى عبد الجبار بن حمّديس الصقلي قال : صنع عبد الجليل بن وهبُون المرسي الشاعر لنا نزهة بوادي إشبيلية ، فأقمنا فيه يوماً ، فلما دنت الشمس للغروب هبّ نسيم ضعيف غَضَضَ وجهَ الماء ، فقلت للجماعة : أجيروا :

حاكتِ الرياحُ من الماءِ زَرَدٌ

فأجازه كل منهم بما تيسر له ، فقال لي أبو تمام غالب بن رباح ، الحجاج : كيف قلت يا أبا محمد ؟ فأعدتُ القسم له ، فقال :

أيُّ دِرْعٍ لِقَتالٍ لو جَمَدٌ

وقد ذكرنا في هذا الكتاب ما يخالف هذا ، فليراجع في محله^٢ . ثم قال صاحب « بدائع البدائه »^٣ بعد ما سبق ما صورته : وقد نقله ابن

١ البدائع ١ : ٦٣ .

٢ سيجي ما يخالفه في ترجمة الرميكية في الجزء الرابع من النفع .

٣ ص : ٦٤ - ٦٥ .

حمديس إلى غير هذا الوصف ، فقال :

نثر الجوّ على التربِ بِرَدٍ أَيُّ دُرٍّ لنحورٍ لو جَمَدُ

فتناقض المعنى بذكر البرد، وقوله « لو جمد » إذ ليس البرد إلا ما جمده
البرد، اللهم إلا أن يريد. بقوله « لو جمد » دام جموده ، فيصح وينعقد على
التحقيق .

ومثل هذا قولُ المعتمد بن عباد يصف فوّارة :

ولربّما سلّت لنا من مائها سيفاً وكان عن النواظر مُغمّدا
طبعته بلياً فزانت صفحةً منه ولو جمدت لكان مُهنّداً

وقد أخذت أنا هذا المعنى^١ فقلت أصف روضاً :

فلو دام ذاك النبتُ كان زَبَرَجَدًا ولو جمدتُ أنهاره كنّ بلورا

وهذا المعنى مأخوذ من قول علي التونسي الإيادي من قصيدته الطائية
المشهورة :

ألولؤ قطرُ هذا الجوّ أم نُقَطُ ما كان أحسنه لو كان يلتقطُ

وهذا المعنى كثير للقدماء ، قال ابن الرومي من قطعة في العنب الرازي :

لو أنّه يبقى على الدهورِ قرطَ آذانِ الحسانِ الحورِ

٤٥٩ — قال علي بن ظافر^٢ : وأخبرني مَنْ أتيق به قال : ركب المعتمد

على الله أبو القاسم ابن عبّاد لنزّهة بظاهر إشبيلية في جماعة من ندماه ، وخواص
شعرائه ، فلمّا أبعد أخذ في المسابقة بالخيول ، فجاء فرسه بين البساتين سابقاً ،

١ يعني ابن ظافر .

٢ البدائع ١ : ٦٦ - ٦٧ .

فرأى شجرة تين قد أينعت وزهت وبرزت منها ثمرة قد بلغت وانتهت ، فسدد إليها عصاً كانت في يده فأصابها ، وثبتت على أعلاها ، فأطربته ما رأى من حسناتها وثباتها ، والتفت ليخبر به مَنْ لحقه من أصحابه ، فرأى ابنَ جاح الصباغ أول من لحق به فقال : أجز :

كأنها فوق العصا

فقال :

هامة زنجي عصى

فزاد طربه وسروره بحسن ارتجاله ، وأمر له بجائزة سنية .

قال علي بن ظافر^١ : وأخبرني أيضاً أن سبب اشتهار ابن جاح^٢ هذا أن الوزير أبا بكر ابن عمار كان كثير الوفادة على ملوك الأندلس ، لا يستقرّ ببلد ولا يستقرّه عن وطّره ووطن ، وكان كثير التطلّب لما يصدر عن أرباب المهن ، من الأدب الحسن ، فبلغه خبرُ ابن جاح هذا قبل اشتهاره ، فمر على حانوته وهو آخذ في صباغته ، والنيل قد جرّ على يديه ذَيْلاً ، وأعاد نهارهما ليلاً ، فأراد أن يعلم سرعة خاطره ، فأخرج زندّه ويده بيضاء من غير سوء ، وأشار إلى يده ، وقال :

كم بينَ زندٍ وزندٍ ؟

فقال :

ما بينَ وصلٍ وصَدِّ

فمعجب من حسن ارتجاله ، ومبادرة العمل واستعجاله ، وجَدَّ بفضبعه ، وبلغ من الإحسان إليه غايةً وسعِهِ .

١ المصدر نفسه : ٦٧ .

٢ ب م : ابن جامع ، حيثما وقعت ، وهو خطأ .

٤٦٠ - وبلغني أيضاً أنه دخل سَرَقُسْطَة فبلغه خبر يحيى القصاب السرقسطي ، فمر عليه ، ولحم خرفانه بين يديه ، فأشار ابن عمار إلى اللحم ، وقال ^١ :

لحم سباطِ الخرفانِ مهزولُ

فقال :

يقول يا مشترين ^٢ مه زولوا

٤٦١ - ولما صنع المتوكل ^٣ على الله بن الأفطس صاحبُ بَطْلَيْوَسَ هذا القسم :

الشَّعْرُ خُطَّةٌ خَسَفِ

أُرتج عليه ، فاستدعى أبا محمد عبد المجيد بن عبدون صاحب الرائية التي أولها :

الدهرُ يفجعُ بعد العينِ بالأثرِ

وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب ، وهو أحد وزراء دولته ، وخواص حضرته ، فاستجازه إيّاه ، فقال :

لكلِّ طالبٍ عُرْفِ

للشيخ عَيْبَةَ عَيْبِ وللفتي ظَرْفُ ظَرْفِ

وذكر ابن بَسَّام في الذخيرة أن قائل القسم الأول الأستاذ أبو الوليد ابن ضابط ، وأن عبد المجيد أجازه ارتجالاً ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وقد ذكرنا ما يقرب من ذلك في هذا الكتاب .

١ انظر ما تقدم ص : ٤٠٤ .

٢ البدائع : للمفلسين .

٣ البدائع ١ : ٧٢ ، وقد مرت الحكاية ص : ٣٩٧ .

٤٦٢ - وقال ابن الغليظ المالقي^١ : قلت يوماً للأديب أبي عبد الله ابن السراج المالقي ، ونحن على جرية ماء : أجز :
شربنا على ماءٍ كأنَّ خريرهُ
فقال بديهاً :

بكاءٍ مُحِبٍّ بانَ عنه حبيبُ
فمن كان مشغوفاً كثيباً بالفه
فإنِّي مشغوفٌ به وكثيبُ

٤٦٣ - وذكر ابن بَسَّام في الذخيرة^٢ أنه اجتمع ابن عبادة وابن القابلة السبتي بالمريّة ، فنظر إلى وسيم يسبح في البحر ، وقد تعلق بسُكَّان بعض المراكب ، فقال ابن عبادة : أجز :

انظر إلى البَدْرِ الذي لاحَ لكُ

فقال ابن القابلة :

في وسطِ اللُّجَّةِ تحتَ الحلَكِ

قد جَعَلَ الماءُ سماءَ لهُ واتخذَ الفُلُّكُ مكانَ الفَلَكِ

٤٦٤ - وقال أبو عامر ابن شهيد^٣ : لما قدم زهير الصقليُّ إلى حضرة قرطبة من المرية وجّه وزيره أبو جعفر ابن عباس إلى لُمةٍ من أصحابنا منهم ابن بُرْدٍ وأبو بكر المرواني وابن الحنّاط والطبني ، فحضروا إليه ، فسألهم عني ،

١ البدائع ١ : ٧٣ ومرت الحكاية ص : ٢٧٠ .

٢ البدائع ١ : ٧٣ .

٣ البدائع ١ : ٧٤ .

٤ ب م : الصقلي ، وهو خطأ ، وكان زهير من فتيان الصقالبة بالأندلس .

وقال : وجَّهُوا إليه ، فوافاني رسوله مع دابة بسرَّجٍ مُحَلَّتِي ثَقِيلٍ ، فسرت إليه ، ودخلت المجلس ، وأبو جعفر غائب ، فتحفز المجلسُ لدخولي ، وقاموا جميعاً لي ، حتى طلع أبو جعفر علينا ساجباً ذليلاً لم أرَ أحداً سَحَبَه قبله ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام مَنْ يَعْرِفُ قدر الرجال ، فرد ردّاً لطيفاً ، فعلمت أن في أنفه نَعْرَةً لا تخرج إلاّ بسعوط الكلام ، ولا ترام إلاّ بمستحصد النظام ، ورأيت أصحابي يُصَيِّخُونَ إلى ترنمه . فقال لي ابن الحنّاط ، وكان كثير الإنحاء عليّ ، جالباً في المحافل ما يسوء إليّ : إن الوزير حضره قسيم ، وهو يسألنا إجازته ، فعلمت أنّي المراد ، فاستنشدته ، فأنشد :

مَرَضُ الجُفُونِ وَلثَغَةٌ فِي الْمَنْطِقِ

فقلت لمن حضر : لا تجهدوا أنفسكم ، فما المراد غيري ، ثم أخذت الدواة فكتبت :

سَبَبَانِ جَرّاً عَشَقَ مَنْ لَمْ يَعِشْ

مَنْ لِي بِاللَّغِ لَا يَزَالُ حَدِيثُهُ يُذَكِّي عَلَى الْأَحْشَاءِ جَمْرَةً مَحْرَقِ
يُنْجِي فِينَبُو فِي الْكَلَامِ لِسَانُهُ فَكَأَنَّهُ مِنْ خَمْرِ عَيْنِهِ سَقِي
لَا يَنْعَشُ الْأَلْفَاظَ مِنْ عَثَرَاتِهَا وَلَوْ أَنَّهَا كُتِبَتْ لَهُ فِي مُهْرَقِ

ثم قمت عنهم ، فلم ألبث أن وَرَدُوا عليّ ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرض بما جئت به من البديهة ، وسألوني أن أحمل مكاوي الهجاء على حتاره ، فقلت :

أَبُو جَعْفَرٍ كَاتِبٌ مُحْسَنٌ مَلِيحٌ سَنَا الْخَطَّ حَلَوُ الْخَطَابَةِ
تَمَلَّأَ شَحْماً وَلَحْماً وَمَا يَلِيقُ تَمَلُّؤُهُ بِالْكِتَابَةِ
لَهُ عَرَقٌ لَيْسَ مَاءُ الْحَيَاءِ وَلَكِنَّهُ رَشْحُ مَاءِ الْجَنَابَةِ
جَرَى الْمَاءُ فِي سَفْلِهِ جَرِي لَيْنٍ فَأُحْدِثُ فِي الْعُلُوِّ مِنْهُ صِلَابَةَ

٤٦٥ - وذكر الوزير أبو بكر ابن اللبّانة الداني^١ في كتابه «سقيط الدرر ولقيط الزهر» أن المعتمد بن عباد صنع قسيماً في القبة المعروفة بسعد السعود فوق المجلس المعروف بالزاهي ، وهو :

سعدُ السعودِ يتيهُ فوقَ الزاهي

ثم استجاز الحاضرين فعجزوا ، فصنع ولده عبد الله الرشيد :

وكلاهما في حُسْنِهِ مُتْنَاهِي

ومَنْ اغْتَدَى سَكناً لِمِثْلِ مُحَمَّدٍ قد جَلَّ في العُلَيَا عن الأشباه
لا زال يبلُغُ فيهما ما شاءه ودهت عداه من الخطوبِ دواهي

٤٦٦ - وخرج القاضي الفقيه^٢ أبو الحسن علي بن القاسم بن محمد بن عشرة أحد رؤساء المغرب الأوسط في جماعة من أصحابه منهم محمد بن عيسى ابن سوار الأشبوني ورجل يسمى بأبي موسى خفيف الروح ، ثقیل الجسم ، فجعل يعث بالحاضرين بأبيات من الشعر يصنعها فيهم ، فصنع القاضي أبو الحسن معابثاً له :

وشاعرٍ أثقلَ مِنْ جِسْمِهِ

ثم استجاز ابن سوار ، فقال :

تأتي معانيه على حُكْمِهِ

ظُلَامَةٌ تُعْدِي على ظُلْمِهِ

منيّةُ الحيّةِ في سُمِّهِ

يهجو فلا يهْجَى فهل عندكم

لسانهُ في هَجْوِهِ حَيَّةٌ

١ البدائع ١ : ٧٨ .

٢ البدائع ١ : ٧٨ .

يَصِيبُ سِرَّ المَرءِ فِي رَمِيهِ كَأَنَّمَا العَالَمُ فِي عِلْمِهِ
أَمَّا أَبُو مُوسَى فَبِئْسَ كَفَّهُ عَصَا ابْنِهِ وَالسَّحَرُ فِي نَظْمِهِ

٤٦٧ - وفي «المقتبس في تاريخ الأندلس»^١ أن الأمير عبد الرحمن خرج في بعض أسفاره فطرقه خيال جاريتته طروب أم ولده عبد الله ، وكانت أعظم حظاياه عنده ، وأرفعهن لديه ، لا يزال كليفاً بها ، هائماً بحبها ، فانتبه وهو يقول :

شاقك من قرطبة الساري في الليل لم يدر به الداري
ثم أنبه عبد الله بن الشمر نديمه فاستجازه كمال البيت ، فقال :

زار فحياً في ظلام الدجى أحبيب به من زائر ساري
وصنع الأمير عبد الرحمن المذكور في بعض غزواته قسيماً^٢ ، وهو :

نرى الشيء ممّا يُتَقَى فنهايه

ثم أرتج عليه ، وكان عبد الله بن الشمر نديمه وشاعره غائباً عن حضرته .
فأراد من يحيزه ، فأحضر بعض قواده محمد بن سعيد الزجالي ، وكان يكتب له ، فأنشده القسم ، فقال :

وما لا نرى ممّا بقي الله أكثر

فاستحسنه وأجازه ، وحمله استحسانه على أن استوزره .

١ البدائع ١ : ٨٧ .

٢ انظر المقتبس (تحقيق مكّي) : ٣٤ ومنه يفهم أن الأمير لم يصنع القسم وإنما تمثل به ونسي تمامه فآتمه الزجالي من حفظه . وانظر ما سبق ص : ٥٣٩ .

٤٦٨ - وذكر ابن بسام^١ أن المعتمد بن عباد أمر بصياغة غزال وهلال من ذهب ، فصيفاً ، فجاء وزنهما سبعمائة مثقال ، فأهدى الغزال إلى السيدة ابنة مجاهد . والهلال إلى ابنه الرشيد ، فوقع له إلى أن قال :

بعثنا بالغزال إلى الغزال وللشمس المنيرة بالهلال

ثم أصبح مصطبحاً ، وجاء الرشيد فدخل عليه ، وجاء الندماء والجلساء ، وفيهم أبو القاسم ابن مرزقان^٢ ، فحكى لهم المعتمد البيت ، وأمرهم بإجازته ، فبدر ابن مرزقان فقال :

فلذا سكاني أبوتاه فؤادي وذا نجلي أفلداه المعالي
شغلت بهذا الطلاخلدي ونفسي ولكني بذاك رخي بال
دفعت إلى يديه زمام ملكي محلى بالصوارم والعوالي
فقام يقر عيني في مضاء ويسلك مسلكي في كل حال
فدمننا للعلاء ودام فينا فإننا للسماح وللنزال

٤٦٩ - ولما أنشد أبو القاسم ابن الصيرفي قول عبد الله بن السمط :

حار طرّف تأملك ملك أنت أم ملك

قال بديها :

بل تعاليت رتبة فلك الأرض والفلك

٤٧٠ - وذكر ابن بسام في الذخيرة^٣ أنه غني يوماً بين يدي العالي

بالله الإدريسي بمالقة بيت لعبد الله بن المعتز :

١ البدائع ١ : ١٠٧ .

٢ م : ابن مرزبان .

٣ الذخيرة ٢/١ : ٣٥٥ والبدائع ١ : ١٤٨ .

هَلْ تَرِنَ الْبَيْنَ يَحْتَالُ أَنْ غَدَتَ لِلْحَيِّ أَجْمَالُ

فأمر الفقيه أبا محمد غانم بن الوليد المالقي بإجازته . فقال بديهاً :

إِنَّمَا الْعَالِي إِمَامٌ هَدَى حَلِيَّتَ فِي عَصْرِهِ الْحَالُ
مَلِكٌ أَقِيَالُ دَوْلَتِهِ لَذَوِي الْأَفْهَامِ إِقْبَالُ
قُلْ لِمَنْ أَكْدَتَ مَطَالِبُهُ رَاحَتَهُ الْجَاهُ وَالْمَالُ

٤٧١ - وَغَنَى أَبُو الْحَسَنِ زُرْيَابُ^٢ يَوْمًا بَيْنَ يَدَيِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
الْحَكَمِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّخَلِ بِهِذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ . وَهُمَا لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ :

قَالَتْ ظَلُّومٌ سَمِيَّةُ الظُّلْمِ مَا لِي رَأَيْتُكَ نَاحِلَ الْجَسْمِ
يَا مَنْ رَمَى قَلْبِي فَأَقْصَدَهُ أَنْتَ الْخَبِيرُ بِمَوْقِعِ السَّهْمِ

فقال عبد الرحمن : هذان البيتان منقطعان . فلو كان بينهما ما يصلهما
لكان أبدع ، فصنع عبيد الله^٣ بن فرناس بديهاً :

فَأَجَبْتَهَا وَالْدَمْعُ مَنْحَدِرٌ مِثْلُ الْجُمَانِ وَهَيَّ مِنَ النَّظْمِ
فَاسْتَحْسَنَهُ . وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ .

٤٧٢ - وَذَكَرَ ابْنُ بَسَامٍ أَيْضاً أَنَّ الْمُعْتَمِدَ بْنَ عَبَادٍ غَنَى بَيْنَ يَدَيْهِ بِقَوْلِ ابْنِ
الْمُعْتَزِّ^٤ :

وَحَمَّارَةٌ مِنْ بَنَاتِ الْمَجُوسِ تَرَى الزُّقَّ فِي بَيْتِهَا سَائِلًا
وَزَنَّا لَهَا ذَهَبًا جَامِدًا فَكَالَتْ لَنَا ذَهَبًا سَائِلًا

١ الذخيرة : للبين .

٢ البدائع ١ : ١٥٥ .

٣ ب : عبد الرحمن .

٤ البدائع ١ : ١٥٤ .

فقال بديها يُجيزه :

وقلت خذِي جوهرأ ثابتأ فقلت خذوا عَرَضاً زائلا

٤٧٣ - وركب المعتمد^١ في بعض الأيام قاصداً الجامع ، والوزير أبو بكر ابن عمار يسيره ، فسمع أذان مؤذن ، فقال المعتمد :

هذا المؤذنُ قد بدأ بأذانه

فقال ابن عمار :

يرجو بذاك العفو من رحمانه

فقال المعتمد :

طوبى له من شاهدٍ بحقيقةٍ

فقال ابن عمار :

إن كان عَقْدُ ضميره كلسانه

٤٧٤ - وقال عبد الجبار بن حمديس الصقلي^٢ : أقمتُ بإشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إلي ولا يعأ بي ، حتى قنطت لخبيتي مع فرط تعبي ، وهممت بالنكوص على عقبي ، فإنتي لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذا بغلام^٣ معه شمعة ومركوب ، فقال لي : أجب السلطان ، فركبت من فَوْرِي . ودخلت عليه ، فأجلسني على مرتبة فننك^٤ ، وقال لي : افتح الطاق التي تليك ، ففتحتها فإذا بكور زجاج على بعد ، والنار تلوح من بابيه ، وواقدة تفتحهما تارة وتسدُّهما أخرى ، ثم دام سدَّ أحدهما وفتح الآخر ، فحين تأملتُهما قال لي : أجز :

١ البدائع ١ : ١٧١ .

٢ البدائع ١ : ١٧١ .

٣ البدائع : إذ أتاني غلام .

٤ البدائع : على مرتبته .

انظرهما في الظلام قد نجما

فقلت :

كما رَنا في الدُّجْنَةِ الأسدُ

فقال :

يفتَحُ عَيْنَيْهِ ثُمَّ يُطْبِقُهَا

فقلت :

فعلَ امرئٌ في جُفُونِهِ رَمَدُ

فقال :

فابْتَرَاهُ الدهرُ نورَ واحدةٍ

فقلت :

وهل نَجَا من صُرُوفِهِ أَحَدُ

فاستحسن ذلك ، وأمر لي بجائزة سنية ، وألزمي خدمته .
وقد ذكرنا هذه الحكاية في هذا الكتاب ، ولكن ما هنا أتم مساقاً فلذلك
نبهت عليه .

٤٧٥ - وذكر صاحب « فرحة الأنفس في أخبار أهل الأندلس »^١ أن
أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر جلس في جماعة من خَوَاصِهِ ، ومعهم أبو
القاسم لب ، وكان يعدّه للمجون والتطايب ، فقال له : اهْجُ عبد الملك بن
جهور ، يعني أحد وزرائه ، فقال : أخافه ، فقال لعبد الملك : فاهْجُ أنت ،
فقال : أخاف على عِرْضِي منه ، فقال : أهْجوه أنا وأنت ، ثم صنع :
لبُّ أبو القاسمِ ذو الحيةِ طويلةٍ أزرى بها الطولُ^٢

١ البدائع ١ : ١٨٥ .

٢ ب م : كبيرة في طولها ميل .

فقال عبد الملك :

وعرضها ميلانٍ إن كُسِّرَتْ والعقلُ مأفونٌ ونخبولُ

فقال الناصر لب : اهجه فقد هجاك ، فقال بديها :

قال أمينُ الله في عَصْرنا لي لحيةٌ أزرى بها الطولُ
وابن جهيرٍ قال قولَ الذي مأكولُهُ القرضيلُ والقولُ
لولا حيائي من إمام الهدى نخست بالمنخس شو ...

ثم سكت ، فقال له الناصر : هاتِ تمام البيت ، فامتنع ، فقال له « قولو »
يعني تمام البيت ، كلمة قالها الناصر مسترسلاً غير متحفظ من زيادة الواو وإبدال
الهاء واوآ ، إذ صوابها « قله » على حكم المشي مع الطبع والراحة من التكلف ،
فقال لب : يا مولانا أنت هجوته ، ففطن الناصر والحاضرون ، وضحكوا ،
وأمر له بجائزة .

والقرضيل : شوك له ورق عريض تأكله البقر ، وقوله « شو » اسم للذكر
الرجل ^١ بالرومية ، و « قولو » اسم للاست بها ، فكأنه قال : لولا حيائي
من إمام الهدى نخست بالمنخس - الذي هو الذكر - استه .

انتهى المجلد الثالث

١ م : اسم الرجل .

محتويات المجلد الثالث من نفح الطيب

الباب السادس

في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق . . . ٥ - ١٤٩

١	-	المنذر الإفريقي
٢	-	موسى بن نصير
٣	-	حنش الصنعاني
٤	-	علي بن رباح اللخمي
٥	-	أبو عبد الرحمن الجبلي
٦	-	حبان بن أبي جبلة
٧	-	المغيرة بن أبي بردة
٨	-	حيوة بن رجاء التميمي
٩	-	عياض بن عقبة الفهري
١٠	-	عبد الله بن شماسة الفهري
١١	-	عبد الجبار بن أبي سلمة الزهري (انظر رقم : ٤٧)
١٢	-	منصور بن حزامة
١٣	-	مغيث الرومي
١٤ - ٣١	-	عدد من ولاية الأمويين
٣٢	-	عبد الرحمن الداخل
٣٣	-	أبو الأشعث الكلبي

هذه العلامة * تدل على أن الترجمة مكررة .

٥٥	٣٤ - جزيّ بن عبد العزيز .
٥٦	٣٥ - بكر بن سواده الجذامي .
٥٧	٣٦ - رزيق بن حكيم .
٥٧	٣٧ - زيد بن قاصد السكسكي .
٥٨	٣٨ - زرعة بن روح الشامي .
٥٨	٣٩ - محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري .
٥٨	٤٠ - عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم .
٦٠	٤١ - هاشم بن الحسين بن إبراهيم الطالبي .
٦٠	٤٢ - عبد الله بن المغيرة الكناني .
٦٠	٤٣ - عبد الله المعمر .
٦٠	٤٤ - عبد الرحمن بن شماسة بن ذئب المهري .
٦١	٤٥ - عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر .
٦٢	٤٦ - عبد الرحيم بن أحمد بن نصر التميمي البخاري .
٦٤	٤٧* - عبد الجبار بن أبي سلمة الزهري (انظر رقم : ١١)
٦٤	٤٨ - عبد الوهاب بن عبد الله الطندثاني .
٦٤	٤٩ - عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب .
٦٥	٥٠ - عبد اللطيف بن أبي الطاهر الصدي .
٦٥	٥١ - عمر بن عثمان بن محمد الخراساني .
٦٦	٥٢ - علي بن بندار البرمكي .
٦٦	٥٣ - عبيد بن محمد بن عبيد النيسابوري .
٦٧	٥٤ - سهل بن علي بن عثمان النيسابوري .
٦٨	٥٥ - هبة الله بن الحسين المصري .
٦٨	٥٦ - يحيى بن عبد الرحمن القيسي الدمشقي .
٦٩	٥٧ - إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي .
٧٠	٥٨ - أبو علي القالي .
٧٥	٥٩ - صاعد البغدادي .
٨٥	[طرف من أخبار المنصور الكبير]
٩٥	رجع إلى أخبار صاعد البغدادي .
٩٩	٦٠ - ابن حمويه السرخسي .
١٠٠	[رسالة من لسان الدين إلى ضريح الولي السبتي]

١٠٠	رجع إلى السرخسي
١٠٤	[بعض أخبار عن المنصور الموحي]
١٠٥	رجع إلى أخبار السرخسي
١١١	٦١ - ظفر البغدادي
١١١	٦٢ - محمد بن موسى الرازي
١١١	٦٣ - أبو الفضل الدارمي البغدادي
١١٨	٦٤ - أشهب بن العضد الخراساني
١١٩	٦٥ - الفكيك البغدادي
١٢١	٦٦ - إبراهيم بن سليمان الشامي
١٢٢	٦٧ - أبو بكر ابن الأزرق المرواني
١٢٢	٦٨ - زرياب المغني ، علي بن نافع
١٣٣	٦٩ - شعبان بن كوجبا
١٣٤	٧٠ - أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني
١٣٥	٧١ - إبراهيم بن خلف بن منصور ، السهوري
١٣٦	[ذكر أبي الخطاب ابن دحية]
١٣٨	٧٢ - عبد الله بن محمد بن آدم الخراساني
١٣٩	٧٣ - عبد الرحمن بن داود بن علي الواعظ
١٣٩	٧٤ - عابدة المدنية أم ولد حبيب بن الوليد المرواني (دحون)
١٤٠	٧٥ - فضل المدنية
١٤٠	٧٦ - قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي
١٤١	٧٧ - الجارية العجفاء
١٤٣	٧٨ - عبد القاهر بن محمد الموصللي
١٤٣	٧٩ - أحمد بن الحسن النخعي
١٤٣	٨٠ - أحمد بن يزيد بن أحمد الزهري
١٤٣	٨١ - إسماعيل بن الإسكندراني ، أبو الطاهر
١٤٤	٨٢ - علي بن محمد بن إسماعيل الأنطاكي ، أبو الحسن
١٤٤	٨٣ - عمر بن مودود بن عمر ، أبو البركات البخاري
١٤٥	٨٤ - نجم الدين بن مهذب الدين ، الرحالة
١٤٧	٨٥ - تقي الدين ابن الغرس الحنفي المصري
١٤٨	٨٦ - الولي يوسف الدمشقي

الباب السابع

في ذكر توقد الأذهان الأندلسية وحب الأندلسيين للمعرفة وبراعتهم
في الأجوبة وغير ذلك مما يدل على فضلهم

— ١٥٠ —

- [نقول في فضائل الأندلس : ١ - عن فرحة الأنفس ١٥٠
١٥٢ ٢ - عن ابن سعيد
١٥٣ ٣ - عن الحميدي
١٥٤ ٤ - عن ابن بسام
١٥٥ ٥ - عن الحجازي
١٥٦ ٦ - رسالة ابن حزم في فضل الأندلس
١٧٩ ٧ - تذييل ابن سعيد على رسالة ابن حزم
١٨٦ ٨ - رسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس]
٢٢٢ [ترجمة الشقندي]
٢٢٤ [استطراد في الإشادة بالأندلس]
٢٢٥ [حكايات وأشعار أندلسية]
٢٢٥ ١ - شعر للزاهد أبي عمران المارتنلي
٢٢٥ ٢ - « لأبي عمرو اليحصبي اللوشي
٢٢٦ ٣ - « لأبي وهب القرطبي
٢٢٧ ٤ - « لأبي محمد ابن برطله
٢٢٧ ٥ - « لابن حبش
٢٢٧ ٦ - « لابن الشيخ
٢٢٧ ٧ - « لأبي محمد القرطبي
٢٢٧ ٨ - « للسميسر
٢٢٨ ٩ - « لأبي القاسم ابن بقي
٢٢٨ ١٠ - « لابن العسال الطليطلي
٢٢٨ ١١ - « لابن هشام القرطبي
٢٢٨ ١٢ - « لابن السيد البطليوسي
٢٢٩ ١٣ - « لأبي الفضل ابن شرف
٢٢٩ ١٤ - « لأبي العباس بن عريف

٢٣٠	١٥ - انتقال الأندلس من مذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك
٢٣٠	١٦ - ترجمة للزاهد ابن أبي يغمور
٢٣٢	١٧ - الوزير أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري
٢٣٤	١٨ - بعض أخبار المعتمد
٢٣٥	١٩ - رسالة ابن عبد البر في الرد على من عابه بأكل طعام السلطان
٢٣٧	٢٠ - ابن مجبر ، ترجمته وشيء من شعره
٢٤١	٢١ - شعر لابن خفاجة
٢٤١	٢٢ - « للأعمى التطيلي
٢٤١	٢٣ - « لأبي حفص ابن عمر القرطبي
٢٤١	٢٤ - « للحاجب ابن مغيث
٢٤٢	٢٥ - « لأخيه أحمد
٢٤٢	٢٦ - « لابن أمية البلنسي
٢٤٢ - ٢٦٩	[حكايات في البديهة والارتجال منقولة عن بدائع البدائه]
٢٤٢	٢٧ - بين ابن عمار وابن زيدون وابن خلدون
٢٤٤	٢٨ - ٣٠ - من بدائه ابن شهيد
٢٤٦	٣١ - بين ابن زهر وابن رزين
٢٤٧	٣٢ - بين ابن عاصم والأمير محمد بن عبد الرحمن
٢٤٨	[استطراد حول ابن ظافر الأزدي]
٢٥٥	[قدرة ابن قلاؤس في الارتجال]
٢٥٩	رجعة إلى كلام الأندلسيين
٢٥٩	٣٣ - بديهة أبي الحسن ابن الحاج اللورقي
٢٦٠	٣٤ - « عبد الملك بن إدريس الجزيري
٢٦٠	٣٥ - قصة ابن شهيد الوزير مع المنصور
٢٦٢	٣٦ - بديهة ابن شهيد أبي عامر
٢٦٣	٣٧ - « ابن الحناط
٢٦٣	٣٨ - « ابن الحداد
٢٦٤	٣٩ - « ابن الشقاق
٢٦٤	٤٠ - « ابن مرزقان
٢٦٥	٤١ - « غانم الأديب
٢٦٥	٤٢ - « ابن هندو الداني

٢٦٥	٤٣ -	بديهة ابن فرج الجياني .
٢٦٦	٤٤ -	« ابن حصن الإشبيلي .
٢٦٦	٤٥ -	« أبي الفضل ابن حسداي
٢٦٨	٤٦ -	« عبد الجليل بن وهبون
٢٦٨	٤٧ -	« ابن أبي الحصال .
٢٦٩	٤٨ -	شعر لأبي جعفر الرضي .
٢٧٠	٤٩ -	« لأحد بني القبطورة
٢٧٠	٥٠ -	بين ابن الغليظ وابن السراج المالقي
٢٧٠	٥١ -	بين أبي بكر البلنسي وصفوان
٢٧١	٥٢ -	شعر لابن خفاجة
٢٧١	٥٣ -	قصائد لابن زيدون
٢٨٧	٥٤ -	شعر لابن السيد البطليوسي
٢٨٨	٥٥ -	« للأبيض .
٢٨٨	٥٦ -	« لأبي عامر السامي (منسوب له خطأ)
٢٨٨	٥٧ -	« لابن الحناط
٢٨٩	٥٨ -	أشعار لابن الزقاق
٢٩١	٥٩ -	شعر للسميسر .
٢٩١	٦٠ -	« لابن رزين
٢٩١	٦١ -	« لعبد الملك سلطان بلنسية
٢٩٢	٦٢ -	« لسليمان بن بطل البطليوسي
٢٩٢	٦٣ -	« لأبي محمد عبد الله بن غالب
٢٩٣	٦٤ -	« للسميسر .
٢٩٣	٦٥ -	« لأحمد بن برد
٢٩٣	٦٦ -	« لعبد المجيد بن عبدون
٢٩٣	٦٧ -	« لأبي الفضل ابن حسداي
٢٩٤	٦٨ -	بين ابن عبد ربه والقلفاط
٢٩٥	٦٩ -	مروعة أبي الحسين ابن جبير
٢٩٦	٧٠ -	أشعار للزاهد أبي عمران المارثلي
٢٩٧	٧١ -	« لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز
٢٩٨	٧٢ -	شعر لابن خفاجة

٢٩٨	٧٣ - قصيدة مجونية لابن الأزرق
٣٠٣	٧٤ - شعر لابن خفاجة
٣٠٣	٧٥ - « لابن الأبار القضاعي
٣١٧-٣٠٣	[نقول من القدح الممل]
٣٠٣	٧٦ - ابن الأبار القضاعي
٣٠٤	٧٧ - أبو المعالي القيحاوي
٣٠٤	٧٨ - عمرو بن الحكم القبطي
٣٠٥	٧٩ - أبو عمران القلعي
٣٠٥	٨٠ - أبو إسحاق إبراهيم بن أيوب المرسى
٣٠٥	٨١ - أبو بكر ابن عمار البرجي
٣٠٦	٨٢ - أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز الإشيلي
٣٠٧	٨٣ - أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير
٣١٠	٨٤ - ابن البناء الإشيلي
٣١٠	٨٥ - ابن غالب الداني
٣١٠	٨٦ - أبو العلاء عبد الحق المرسى
٣١١	٨٧ - ابن غالب الكاتب بمالقة
٣١١	٨٨ - أبو عبد الله ابن عسكر الغساني
٣١١	٨٩ - أبو أمية ابن عفير
٣١٢	[عود للحديث عن ابن ظافر]
٣١٤	رجع إلى أهل الأندلس
٣١٤	٩٠ - ابن السماك
٣١٥	٩١ - أبو محمد عبد الحق الزهري
٣١٥	٩٢ - إسماعيل بن حجاج الأعمى (سقط شعره)
٣١٥	٩٣ - أبو يحيى ابن هشام القرطبي
٣١٦	٩٤ - أبو الحجاج يوسف البياسي
٣٢٣-٣١٨	[عود إلى النقل عن بدائع البدائنه]
٣١٨	٩٥ - ابن صارة وابن خفاجة
٣١٨	٩٦ - ابن خفاجة وابن وهبون وأخبار أخرى
٣٢٠	٩٧ - بين السمسيس وأحد رؤساء المرية
٣٢١	[حكاية مشرقية عن عباد بن الحرث]

٣٢٢	٩٨ ، ٩٩ - أبو الصلت أمية بن عبد العزيز
٣٢٣	١٠٠ - أبو جعفر أحمد الوقشي
٣٢٤	١٠١ - اليكي وأهل فاس
٣٢٤	١٠٢ - أبو الحسن علي بن عتيق
٣٢٥	١٠٣ - أحمد بن رضى المالقي
٣٢٥	١٠٤ - أبو القاسم البلوي الإشبيلي
٣٢٥	١٠٥ - أبو زكريا ابن صفوان الأديب
٣٢٥	١٠٦ - ١٠٨ - ابن عمار
٣٢٨	١٠٩ ، ١١٠ - ابن صمادح
٣٢٩	١١١ - السميسر
٣٢٩	١١٢ - ابن شرف القيرواني
٣٢٩	١١٣ - أبو الحسن ابن أيوب (شاعر مشرقى)
٣٣٠	١١٤ - الحصري
٣٣٠	١١٥ - ابن سعد الخير البلنسي
٣٣٠	١١٦ - محبوب النحوي يصف فاعورة
٣٣١	١١٧ - أبو الخطاب ابن دحية وابن مغاور السلمي
٣٣١	١١٨ - أبو الوليد النحلي الشاعر
٣٣٢	١١٩ - أبو الصلت وظافر الحداد
٣٣٣	١٢٠ - أبو الوليد النحلي وابن اللبانة وابن عبد البر الشنريفي
٣٣٣	١٢١ - أحمد بن الصقر الخزرجي
٣٣٤ - ٣٤٣	[أخبار عن المروانيين]
٣٣٤	١٢٢ - خبر أيوب بن سليمان المرواني
٣٣٤	١٢٣ - « بكار المرواني »
٣٤٠	١٢٤ - « محمد بن أيوب المرواني »
٣٤١	١٢٥ - « المطرف بن عمر المرواني »
٣٤٢	١٢٦ - « هشام بن عبد الرحمن المرواني »
٣٤٣	١٢٧ - شعر لعبد الله بن عبد العزيز الأموي
٣٤٣	١٢٨ - « لأبي عبد الله محمد بن محمد بن الناصر الأموي »
٣٤٣	١٢٩ - بين سعيد بن أضحي ومادحه
٣٤٤	١٣٠ - شعر لابن خفاجة

٣٤٥	١٣١ - شعر لأبي بكر اليكبي
٣٤٥	١٣٢ - « لابن اللبانة »
٣٤٥	١٣٣ - « لابن عبد الغفور الإشبيلي »
٣٤٦	١٣٤ - بين الحجاري وأبي عبد الله اللوشي
٣٤٧	١٣٥ - شعر لصالح بن شريف
٣٤٧	١٣٦ - « لأبي محمد ابن برطله »
٣٤٧	١٣٧ - « لابن بقي والأعشى التطيلي في حمام
٣٤٨	[وصف حمام مشرق]
٣٥٠	[دار جمال الملك البغدادي]
٣٥١	[أشعار للمشاركة في حمام]
٣٥٢	رجع إلى كلام أهل الأندلس
٣٥٣	١٣٨ - شعر لابن خلف الإلييري
٣٥٣	١٣٩ - « لأبي الوليد ابن الجنان الشاطبي
٣٥٣	[حكاية مشرقية عن الورد والياسمين]
٣٥٥	١٤٠ - بين ابن القبطونة وابن صارة
٣٥٥	[بديهة ابن ظافر]
٣٥٦	رجع إلى الأندلسيين
٣٥٦	١٤١ - شعر لابن الزقاق
٣٥٦	١٤٢ - « لابن خفاجة »
٣٥٦	١٤٣ - « لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز
٣٥٧	١٤٤ - « ليحيى بن هذيل »
٣٥٨	١٤٥ - بين شاعر وحريز بن عكاشة
٣٥٨	١٤٦ - أشعار لابن شهيد
٣٦٣	١٤٧ - أخبار عبد الملك بن غصن الحجاري
٣٦٤	١٤٨ - بين المنصور والرمادي
٣٦٦	١٤٩ - ١٥٢ - أخبار عن بني صمادح
٣٧١	١٥٣ - شعر لابن زهر أبي العلاء
٣٧١	١٥٤ - « لأبي الفضل ابن شرف »
٣٧١	١٥٥ - « لابن خفاجة »
٣٧١	١٥٦ - « لأبي عبد الله الياسمي »

٣٧٢	١٥٧	شعر لأبي الحسن ابن الفضل .
٣٧٢	١٥٨	حكاية عبد الرحمن بن غانم في الوفاء لهاشم بن عبد العزيز .
٣٧٣	١٥٩	» في علو الهمة عن ابن باجة .
٣٧٤	١٦٠	» في الذكاء عن ابن فرناس .
٣٧٥	١٦١	ذكر المشهورين من الأندلسيين بعلوم الأوائل .
٣٧٧	١٦٢	حكاية الهيثم بن أحمد في قوة الحفظ وشيء من شعره .
٣٧٩	١٦٣	» ابن سيده في قوة الحفظ .
٣٨٠	١٦٤	أمثلة من حب الأندلسيين للعلم .
٣٨١	١٦٥	من تأليفهم الكبيرة كتاب « السماء والعالم » [حكايات في الفكاهة الأندلسية] .
٣٨١	١٦٦	بين مختار الرعيني وزهير صاحب المرية .
٣٨٢	١٦٧	خبر ابن الفراء النحوي .
٣٨٣	١٦٨	فكاهيات الزهري .
٣٨٤	١٦٩	حكاية عن ابن ورد أبي القاسم .
٣٨٤	١٧٠	حكاية عن أبي الحسين ابن الطراوة .
٣٨٥	١٧١	فكاهة مدغليس الرجال .
٣٨٦	١٧٢	عود إلى ذكر ابن الفراء النحوي .
٣٨٦		[رسالة ابن الفراء الأب إلى ابن تاشفين]
٣٨٧	١٧٣	ابن فراء آخر اسمه الأخفش القبذاقي .
٣٨٨	١٧٤	بين الطليق المرواني ومحمد بن مسعود البجاني .
٣٨٩	١٧٥	بين أحد أهل المرية وجارية لإشبيلية .
٣٩٠	١٧٦	بين البياسي المؤرخ وأحمد بن رضي .
٣٩٠	١٧٧	بين العالي الحمودي وابن حسون المالقي .
٣٩١	١٧٨	أخبار عن الوحيد قاضي مالقة .
٣٩٢	١٧٩	دفاع ابن الفخار عن القاضي الوحيد .
٢٩٣	١٨٠	قصيدة أبي الفضل ابن شرف الفائية وقطع أخرى .
٣٩٧	١٨١	شعر لابن أخت غانم .
٣٩٧	١٨٢	بين ابن عبدون وأستاذه ابن ضابط .
٣٩٨	١٨٣	شعر لغانم المخرومي .
٣٩٨	١٨٤	بين ابن الغليظ وابن السراج المالقي .

- ٣٩٩ . . . وفادة ابن كسرين على أبي إسحاق إبراهيم الموحدى ١٨٥ -
- ٣٩٩ . . . شعر لعطاء المالقي ١٨٦ -
- ٤٠٠ . . . أشعار وأخبار للسهيلى صاحب الروض ١٨٧ -
- ٤٠١ . . . أخبار عن أبي الفضل ابن حسداى ١٨٨ -
- ٤٠٢ . . . شعر لأبى الربيع سليمان السرقسطى ١٨٩ -
- ٤٠٢ . . . مكاتبة بين ابن خير التطيلي وأبى عبد الصمد السرقسطى ١٩٠ -
- ٤٠٣ . . . حكاية أبى عمرو ابن سالم المالقي والخطيب أبى محمد المالقي ١٩١ -
- ٤٠٤ . . . بديهة يحبى الجزار ١٩٢ -
- ٤٠٤ . . . شعر للأعمى التطيلي ١٩٣ -
- ٤٠٤ . . . تفوق الأعمى فى إحدى موشحاته ١٩٤ -
- ٤٠٤ . . . القاضى عبد الله اللاردي وامرأة تحاكت إليه ١٩٥ -
- ٤٠٥ . . . ابن خفاجة وابن عنق الفضة ١٩٦ -
- ٤٠٥ . . . ابن شتفير وابن غندشلب فى وفادة على المعتمد ١٩٧ -
- ٤٠٧ . . . قارئ أبله فى مجلس ابن رزين ١٩٨ -
- ٤٠٧ . . . أبو بكر ابن سدراى وزير ابن رزين ١٩٩ -
- ٤٠٨ . . . شعر لمروان بن عبد العزيز صاحب بلنسية ٢٠٠ -
- ٤٠٨ . . . أشعار لأبى عامر ابن الفرج ٢٠١ -
- ٤٠٩ . . . « لابن حريق ٢٠٢ -
- ٤١١ . . . شعر للفيلسوف أبى جعفر الذهبى ٢٠٣ -
- ٤١١ . . . أشعار لابن عبادة الوشاح ٢٠٤ -
- ٤١٢ . . . بين السميسر والمعتصم بن صمادح ٢٠٥ -
- ٤١٣ . . . عمر بن الشهيد والبطرني فى مجلس ابن صمادح ٢٠٦ -
- ٤١٤ . . . شعر لابن الرقاق ٢٠٧ -
- ٤١٤ . . . « لابن صارة ٢٠٨ -
- ٤١٩ . . . أشعار لابن الرقاق ٢٠٩ -
- ٤١٥ . . . « للحجام ، غالب بن رباح ٢١٠ -
- ٤١٩ . . . شعر لابن الرقاق ٢١١ -
- ٤١٩ . . . ابن مسعدة وعبد المؤمن بن علي ٢١٢ -
- ٤٢٠ . . . شعر لبني الأزرق ٢١٣ - ٢١٥ -
- ٤٢٠ . . . شعر لراشد بن عريف ٢١٦ -

٤٢١	٢١٧ - بين ابن عائش والحجاري إبراهيم
٤٢٢	٢١٨ ، ٢١٩ - شعر لابن شعيب الحسن وأخيه الحسين
٤٢٢	٢٢٠ - شعر لعلي بن رجاء
٤٢٣	٢٢١ - « للقاسم بن الفتح
٤٢٣	٢٢٢ - « لعبد الملك بن غصن الحجاري
٤٢٤	٢٢٣ ، ٢٢٤ - شعر لابن الديواني الزاهد وابنه محمد
٤٢٥	٢٢٥ - شعر لإبراهيم الحجاري
٤٢٦	٢٢٦ ، ٢٢٧ - شعر للمواعيني وابنه أحمد
٤٢٧	٢٢٨ - رسالة من أبي الوليد حبيب إلى أبيه ، وبعض شعره وأخباره
٤٢٩	٢٢٩ - شعر لأبي الحسن علي بن حصن
٤٢٩	٢٣٠ - « لأبي الوليد ابن طريف
٤٢٩	٢٣١ - من نظم المعتمد بن عباد
٤٣٠	٢٣٢ - شعر لأبي العباس الخزرجي
٤٣٠	٢٣٣ - « لأبي أيوب سليمان بن أمية
٤٣١	٢٣٤ - « لعمر بن أبي خالد
٤٣١	٢٣٥ - « للمهريس
٤٣١	٢٣٦ - « لابن البناء
٤٣٢	٢٣٧ - أخبار محمد بن مروان بن زهر
٤٣٤	٢٣٨ - « أبي بكر محمد بن عبد الملك بن زهر
٤٣٥	٢٣٩ - شعر لأبي الوليد ابن حزم
٤٣٥	٢٤٠ - « لابن عبد ربه
٤٣٥	٢٤١ - أشعار لابن مصادق الرندي
٤٣٧	٢٤٢ - شعر للمعتمد بن عباد
٤٣٧	٢٤٣ - « لابن فرج الجياني
٤٣٧	٢٤٤ - « للرصافي البلنسي
٤٣٨	٢٤٥ - « لابن عبد ربه
٤٣٨	٢٤٦ - « لابن صارة
٤٣٨	٢٤٧ - « للغزال
٤٣٨	٢٤٨ - « لأبي حيان
٤٣٩	٢٤٩ - « لابن شهيد

٤٣٩	٢٥٠ - شعر لأبي القاسم ابن بقي
٤٤٠	٢٥١ - « لابن شهيد
٤٤٠	٢٥٢ - « لبعضهم في لبس الأندلسيين للبياض حداداً
٤٤١	٢٥٣ - « لابن خاتمة
٤٤١	٢٥٤ - « لابن دراج القسطلي
٤٤١	٢٥٥ - « للرمادي
٤٤١	٢٥٦ - « لابن صارة
٤٤٢	٢٥٧ - « لابن لبال
٤٤٢	٢٥٨ - « لأبي المطرف الزهري
٤٤٣	٢٥٩ - « لابن شهيد
٤٤٣	٢٦٠ - « لابن هانيء
٤٤٤	٢٦١ - « لابن رزين يعاتب ابن عمار
٤٤٤	٢٦٢ - « لابن الجدة
٤٤٤	٢٦٣ - « لابن عبد ربه
٤٤٥	٢٦٤ - « للنحلي في مغنية
٤٤٥	٢٦٥ - « لابن شهيد
٤٤٥	٢٦٦ - أخبار عن الوزير أبي عمرو ابن أبي محمد
٤٤٦	٢٦٧ - بين ابن زرقون وأبي الحسن ابن عياش
٤٤٧	٢٦٨ - شعر لابن عبد ربه
٤٤٧	٢٦٩ - « لغانم المالقي
٤٤٧	٢٧٠ - المتوكل ابن الأفطس وأخوه
٤٤٨	٢٧١ - شعر لأبي القاسم ابن بقي
٤٤٨	٢٧٢ - « للأبيض في هجاء الفقهاء
٤٤٩	٢٧٣ - « لابن صارة
٤٤٩	٢٧٤ - « لعبدون البنسي
٤٤٩	٢٧٥ - « للوزير ابن الحكيم
٤٤٩	٢٧٦ - « لابن برطال
٤٥٠	٢٧٧ - « لابن خفاجة
٤٥٠	٢٧٨ - ٢٨٧ - أشعار لمختلف شعراء بطليوس
٤٥٥	[ضوابط حروف الزيادة]

٤٥٧	٢٨٨ - شعر لعبد الله بن الليث
٤٥٧	٢٨٩ - « لابن الأبرش .
٤٥٨	٢٩٠ - « لابن بسام الشنتريني
٤٥٨	٢٩١ - « ليوسف بن كوثر .
٤٥٨	٢٩٢ - « لابن صارة .
٤٥٩	٢٩٣ - « لابن منذر الأشبوني
٤٥٩	٢٩٤ - « لخلف بن هارون القطيني
٤٥٩	٢٩٥ - خبر عن ابن السيد البطليوسي
٤٦٠	٢٩٦ - رسالة لابن خفاجة .
٤٦٠	٢٩٧ - شعر للرصافي .
٤٦١	٢٩٨ - « لابن حبيش .
٤٦١	٢٩٩ - « لأحد أدباء مرسية
٤٦١	٣٠٠ - « لابن جابر الدباج .
٤٦١	٣٠١ - « للأبيض الإشبيلي .
٤٦٢	٣٠٢ - « لصفوان بن إدريس
٤٦٢	٣٠٣ - « لأبي بكر ابن يوسف
٤٦٢	٣٠٤ - « لأبي القاسم القبتوري
٤٦٢	٣٠٥ - « لأبي الحسن ابن الحاج
٤٦٣	٣٠٦ - « لأحمد بن أمية البلنسي
٤٦٣	٣٠٧ - « لأبي محمد ابن برطله
٤٦٣	٣٠٨ - « لابن خروف القيسي
٤٦٤	٣٠٩ - « لأبي بكر ابن مالك
٤٦٤	٣١٠ - « لأبي الحسن ابن حريق
٤٦٤	٣١١ - « لابن الزقاق .
٤٦٤	٣١٢ - « لابن الجزار السرقسطي
٤٦٥	٣١٣ - « لأبي عبد الله الجذامي
٤٦٥	٣١٤ - « لسلمة بن أحمد .
٤٦٥	٣١٥ - « لأبي الحسن ابن حزمون
٤٦٦	٣١٦ - « لأبي بكر ابن مالك
٤٦٦	٣١٧ - « لأبي بكر ابن حبيش

٤٦٦	شعر للقاضي ابن السليم	٣١٨ -
٤٦٦	« لابن أبي الحصال	٣١٩ -
٤٦٧	» للرصافي	٣٢٠ -
٤٦٧	« لابن باجة	٣٢١ -
٤٦٧	« لابن الأبار القضاعي	٣٢٢ -
٤٦٨	« لأبي العباس أحمد الإشبيلي	٣٢٣ -
٤٦٨	أشعار لابن زهر الحفيد	٣٢٤ -
٤٦٩	شعر لابن زهر الأصغر	٣٢٥ -
٤٦٩	« لعمر ابن صاحب الصلاة	٣٢٦ -
٤٦٩	« لمحمد ابن صاحب الصلاة	٣٢٧ -
٤٧٠	أشعار في أبي الحكم عمرو بن مدحج وأشعار له	٣٢٨ -
٤٧٣	شعر لابن فندلة ، وهجاء اللص له	٣٢٩ -
٤٧٣	« لأبي العباس النجار في ابن فندلة	٣٣٠ -
٤٧٤	« لأبي القاسم ابن حسان	٣٣١ -
٤٧٤	« لأبي بكر ابن مرتين	٣٣٢ -
٤٧٤	« لابن زرقون	٣٣٣ -
٤٧٥	« لمحمد بن عمر الإشبيلي الخطيب	٣٣٤ -
٤٧٥	« لمحمد بن حسن الزبيدي اللغوي	٣٣٥ -
٤٧٦	« لمحمد بن طلحة النحوي	٣٣٦ -
٤٧٧	« لابن الأبار الإشبيلي	٣٣٧ -
٤٧٨	« لابن العطار الإشبيلي	٣٣٨ -
٤٧٨	« لابن الإمام صاحب السمط	٣٣٩ -
٤٧٨	ترجمة أبي الحسن الدباج النحوي	٣٤٠ -
٤٧٩	شعر لمالك بن وهيب وترجمته	٣٤١ -
٤٨٠	أشعار لأبي الصلت	٣٤٢ -
٤٨٤	شعر لعبد الرحمن بن شبلق	٣٤٣ -
٤٨٤	« لابن نصر الإشبيلي	٣٤٤ -
٤٨٤	« لأحمد بن محمد الإشبيلي	٣٤٥ -
٤٨٥	« للأصمغ بن سيد	٣٤٦ -
٤٨٥	« لابن خيرة الصباغ	٣٤٧ -

٤٨٥	شعر لأبي بكر ابن حجاج	٣٤٨ -
٤٨٦	« للرصافي	٣٤٩ -
٤٨٦	« لأبي جعفر ابن الجزار	٣٥٠ -
٤٨٧	أشعار لابن النبي أبي جعفر	٣٥١ -
٤٨٧	شعر لأبي المطرف ابن عميرة	٣٥٢ -
٤٨٨	« لأحمد بن طلحة	٣٥٣ -
٤٨٨	أشعار لابن خفاجة	٣٥٤ -
٤٨٩	ترجمة أبي بكر الأبيض	٣٥٥ -
٤٩٠	« الشلوين النحوي	٣٥٦ -
٤٩١	شعر لأبي إسحاق الإلبيري	٣٥٧ -
٤٩٢	« لابن عبادة القزاز	٣٥٨ -
٤٩٢	ترجمة أبي الحسن ابن نزار	٣٥٩ -
٤٩٨	« أبي الأصمغ عبد العزيز بن الأرقم	٣٦٠ -
٤٩٩	شعر لعبد البر ابن فرسان	٣٦١ -
٤٩٩	« لحاتم بن سعيد	٣٦٢ -
٥٠٠	« للأعمى التطيلي	٣٦٣ -
٥٠٠	[من بدائه ابن ظافر]	
٥٠٢	شعر لابن شعبة الوادي آشي	٣٦٤ -
٥٠٢	أشعار لابن الحداد الوادي آشي	٣٦٥ -
٥٠٥	٣٦٦ ، ٣٦٧ - خبر عن الوزير أبي بلال (أو ابن البراق) وشعره	
٥٠٦	شعر لابن عذرة	٣٦٨ -
٥٠٧	« لابن مهلهل الجلياني	٣٦٩ -
٥٠٧	« لابن مطروح	٣٧٠ -
٥٠٨	« لمحمد بن نصر الأوسي	٣٧١ -
٥٠٨	٣٧٢ ، ٣٧٣ - أشعار لمحمد بن علي اللوشي وابنه عبد المولى	
٥١٢	شعر لحاتم بن سعيد	٣٧٤ -
٥١٢	شعر لمالك بن سعيد	٣٧٥ -
٥١٣	٣٧٦ - بين الرصافي والكتندي وأبي جعفر ابن سعيد	
٥١٨	٣٧٧ - ترجمة ابن الصابوني	
٥١٩	٣٧٨ - بديهة ابن أبي الخصال	

٥٢٠	٣٧٩ - بين أبي بكر المنخل وابنه
٥٢١	٣٨٠ - ابن المرعزي الإشبيلي والمعتمد
	٣٨١ - شعراء اليهود (نسيم ، وابن سهل ، وابن الفخار ، وابن المدور ، وابن شمعون ، وقسمونة)
٥٢٢	٣٨٢ - ترجمة ابن رشيق القلعي
٥٣٠	٣٨٣ - خبر عن لب بن عبد الوارث القلعي
٥٣٢	٣٨٤ - أشعار لجابر بن خلف القلعي
٥٣٣	٣٨٥ - أخبار أبي يحيى ابن الرميمي
٥٣٣	٣٨٦ - شعر لأبي بحر ابن عبد الصمد
٥٣٤	٣٨٧ - « في بني عبد الصمد
٥٣٥	٣٨٨ - ترجمة أحمد بن عباس وزير زهير الصقلبي
٥٣٥	٣٨٩ - شعر للأعمى التطلي (لعله للأعمى المخزومي)
٥٣٦	٣٩٠ - « لابن الخيال الاستبي
٥٣٧	٣٩١ - « لعبد الملك بن سعيد الخازن
٥٣٧	٣٩٢ - هلال الفرناطي ومحمد بن الاستجي عند ابن حمدين
٥٣٨	٣٩٣ - شعر لمقدم بن معافى
٥٣٨	٣٩٤ - « لعبد الملك بن نظيف
٥٣٨	٣٩٥ - هلال الفرناطي يمدح ابن حمدين
٥٣٩	٣٩٦ - الأمير عبد الرحمن والزجالي
٥٤١	٣٩٧ - ترجمة منقولة من المطمح
٥٥٧	٣٩٨ - شخصية ابن أبي حلى
٥٥٨	٣٩٩ - جواب المرواني لتزار العبيدي
٥٥٨	٤٠٠ - ترجمة حرير بن عكاشة
٥٦١	٤٠١ - من أخبار المقتدر بن هود وشعره
٥٦٣	٤٠٢ - شعر لعبد البر ابن فرسان
٥٦٣	٤٠٣ - شجاعة ابن مردنيس
٥٦٤	٤٠٤ - ظرف القاضي محمد بن عيسى
٥٦٤	٤٠٥ - أندلسي يقابل المتنبي
٥٦٥	٤٠٦ - شعر لابن عبد ربه
٥٦٥	٤٠٧ - حكاية عن بلاغة ابن زيدون

٥٦٦	٤٠٨ -	شعر لسليمان بن علي الشلبي .
٥٦٧	٤٠٩ -	« لابن مهران .
٥٦٧	٤١٠ -	« لابن السيد البطليوسي .
٥٦٧	٤١١ -	« لابن صارة .
٥٦٧	٤١٢ -	« لعبد الملك بن رزين .
٥٦٨	٤١٣ -	« لابن عبدربه .
٥٦٨	٤١٤ -	انتحار أيوب بن مطروح .
٥٦٨	٤١٥ -	رسالة من مالك بن سعيد عن الميوري الثائر .
٥٦٩	٤١٦ -	أبو العرب الصقلي عند المعتمد .
٥٧٠	٤١٧ -	عبد الله بن إبراهيم الحجاري يتحدث عن أجواد عصره .
٥٧٣	٤١٨ -	بين ابن أزرق وابن عبد العزيز .
٥٧٣	٤١٩ -	ذكر جملة من بني مروان وأشعارهم .
٥٩٥	٤٢٠ -	أبو الحجاج المنصفي وابن مرج كحل .
٥٩٥	٤٢١ -	غانم في مجلس باديس .
٥٩٦	٤٢٢ -	شعر لأبي جعفر اللمائي .
٥٩٦	٤٢٣ -	« لابن القبطرنة .
٥٩٦	٤٢٤ -	« لأبي عامر ابن يتي .
٥٩٦	٤٢٥ -	« لأبي الحسن اللورقي .
٥٩٧	٤٢٦ -	« لأبي عيسى ابن لبون .
٥٩٧	٤٢٧ -	« لأبي عامر ابن الحمامة .
٥٩٧	٤٢٨ -	« لأبي العباس ابن السعود .
٥٩٧	٤٢٩ -	« لأبي الحكم ابن غلنده .
٥٩٨	٤٣٠ -	« للقاضي أبي موسى ابن عمران .
٥٩٨	٤٣١ -	« لابن الجزائر السرقسطي .
٥٩٨	٤٣٢ -	الزهيري وصاعد وابن شهيد .
٥٩٩	٤٣٣ -	شعر لابن حزم الفقيه .
٦٠٠	٤٣٤ -	« لابن صارة .
٦٠٠	٤٣٥ -	« لابن العطار الإشبيلي .
٦٠٠	٤٣٦ -	« لابن صارة .
٦٠٠	٤٣٧ -	« لسهل بن مالك .

٦٠١	٤٣٨	شعر لابن صارة
٦٠١	٤٣٩	« لبعضهم في شكل يرمي الماء
٦٠١	٤٤٠	« لصفوان بن إدريس
٦٠١	٤٤١	« لابن وضاح
٦٠٢	٤٤٢	« لابن عمار
٦٠٢	٤٤٣	« لابن سعد الخير البلنسي
٦٠٢	٤٤٤	« لابن أبي الخصال
٦٠٢	٤٤٥	« لابن صارة
٦٠٢	٤٤٦	« لابن خفاجة
٦٠٣	٤٤٧	« لابن صارة
٦٠٣	٤٤٨	« لابن وضاح
٦٠٣	٤٤٩	« لأبي إسحاق الخولاني
٦٠٣	٤٥٠	« لابن الأبار القضاعي
٦٠٤	٤٥١	« لحازم القرطاجني
٦٠٤	٤٥٢	« لابن سعد الخير البلنسي
٦٠٤	٤٥٣	« لابن نزار الوادي أشي
٦٠٤	٤٥٤	« لبعضهم في القراسية
٦٠٥	٤٥٥	« لبعضهم
٦٠٥	٤٥٦	« لمحمد بن عبد الرحمن بن هاني
٦٠٥	٤٥٧	« كتاب شذور الذهب
٦٠٦		[عود إلى النقل عن بدائع البدائه]
٦٠٦	٤٥٨	« بين ابن حمديس والحجام والمعتمد
٦٠٧	٤٥٩	« ابن جاج والمعتمد
٦٠٩	٤٦٠	« ابن جاج ويحيى القصاب السرقسطي
٦٠٩	٤٦١	« المتوكل وابن عبدون
٦١٠	٤٦٢	« بين ابن الغليظ وابن السراج المالقي
٦١٠	٤٦٣	« بين ابن عبادة وابن القابلة السبي
٦١٠	٤٦٤	« ابن شهيد والوزير أحمد بن عباس
٦١٢	٤٦٥	« بين المعتمد وابنه الرشيد
٦١٢	٤٦٦	« بين أبي الحسن ابن عشرة وابن سوار الأشبوني

٦١٣	.	.	.	٤٦٧ — الأمير عبد الرحمن وابن الشعر والزجالي .
٦١٤	.	.	.	٤٦٨ — بين المعتمد وابن مرزقان .
٦١٤	.	.	.	٤٦٩ — ابن الصيرفي وابن السمط .
٦١٤	.	.	.	٤٧٠ — ابن غانم المالقي يميز بيتاً لابن المعتز .
٦١٥	.	.	.	٤٧١ — زرياب يغني بين يدي عبد الرحمن .
٦١٥	.	.	.	٤٧٢ — غناء بشعر ابن المعتز في مجلس المعتمد .
٦١٦	.	.	.	٤٧٣ — بين المعتمد وابن عمار .
٦١٦	.	.	.	٤٧٤ — بين ابن حمديس والمعتمد .
٦١٧	.	.	.	٤٧٥ — بين الناصر وابن لب وابن جهور .



Abu 'l- 'Abbās A. al- Maqqarī

NAFH AT-TĪB

III

Edited and Annotated

by

Ihsān 'Abbās, Ph. D.

Dar SADER

P.O.B. 10

BEIRUT, Lebanon